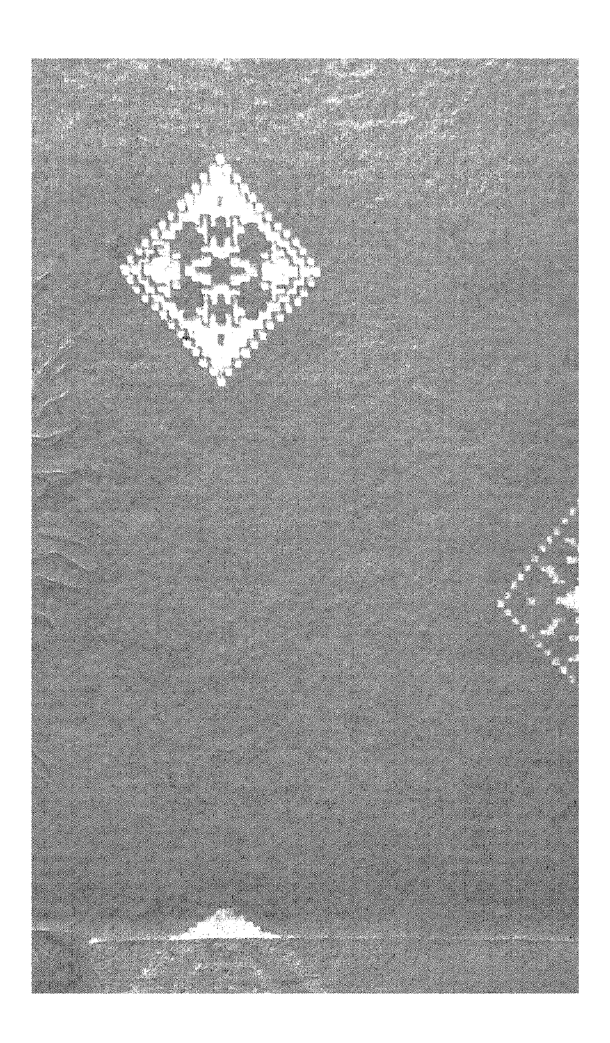
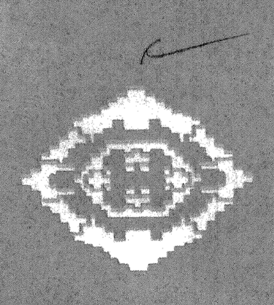
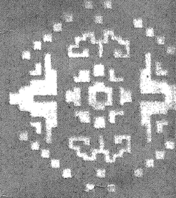
















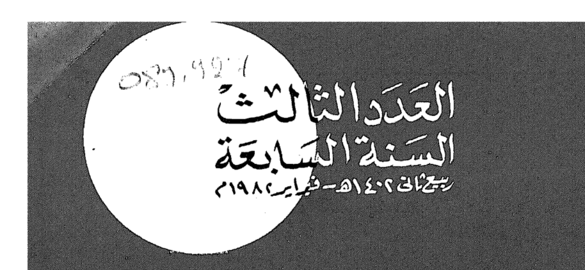




مجلة ربع سنوية تصدرها دارة الملك عبد العزيز

العدد الثالث السنة السابعة ربيع الثاني ١٤٠٢هـ فبراير ١٩٨٢م

- باب الكعبة المعظمة على مر العصور.
- الرسائل الشخصية للشيخ محمد بن عبد الوهاب.
- الصناعة في نجد والحجاز في العصر الأموي.



رئيس التحرير
محمد حسين زيدان

هيئة التحرير
عبدالله بن خميس
الدكتور منصور الحازمي
عبدالله بن إدريس
عبدالله الماجد

المملكة العربية السعودية
الرياض
ص.ب : ٢٩٤٥
تليفون: ٤٤١٧٩١٦



مجلة ربع سنوية تصدرها دارة الملك عبد العزيز
تعنى بتراث وفكر المملكة والجزيرة العربية والعالم العربي والاسلامي مما له صلة بالجزيرة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

الصفحة

* قيمة العدد في الداخل ريالان والاشتراك السنوي خمسة عشر ريالا وفي البلاد العربية مايعادل خمسين قرشا سعودياً للعدد أو مايعادل خمسة عشر ريالا للسنة. في الكويت ٢٥٠ فلساً في البحرين ٥٠٠ فلساً في الامارات ٤ دراهم. في قطر ٤ ريالات. في ألمانيا ٢ مارك. في المغرب ٤ دراهم. في تونس ٣٥٠ مليماً. في مصر ٢٥ قرشاً في خارج البلاد العربية دولار للعدد الواحد وستة دولارات للسنة.

ترسل الاشتراكات باسم أمين عام الدارة، أما المقالات والبحوث فترسل باسم رئيس التحرير - الرياض ص ب ٢٩٤٥. ترتيب المواضيع داخل العدد يخضع لأسباب فنية لاعلاقة لها بمكانة الكاتب. آراء الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

الاحتفال بمرور خمسة وعشرين عاماً



كلمة صاحب الجلالة الملك خالد بن عبد العزيز

أحمد الله سبحانه وتعالى على نعمه التي لا تحصى ومنها نعمة العلم والمعرفة، وأصلي وأسلم على نبيه الكريم، الذي لا ينطق عن الهوى، القائل «أدبني ربي فأحسن تأديبي» والموصوف في محكم التنزيل بقوله تعالى: «وانك لعلى خُلق عظيم».

أما بعـــد، فإنها لنعمة كبرى أن نرى هذا المستوى الرفيع الذي وصلت اليه جامعة الرياض التي هي أولى جامعاتنا ومنبع فخرنا واعتزازنا لأنها تمثل التطور الحقيقي لمملكتنا. فلقد بدأت بعدد ضئيل من الدارسين بلغ واحداً وعشرين طالبا اجتمعوا في كلية واحدة هي كلية الآداب، ثم أصبحت الجامعة الآن مكتظة بما يزيد عن سبعة عشر ألف طالب وطالبة في أربع عشرة كلية ومعهد. وإنه لمما يبعث في النفس الغبطة والثقة أن نرى بلادنا قد ضمت سبع جامعات، تسير كلها في خطى حثيثة نحو الكمال والرفعة، حتى صارت مملكتنا قبلة للعلم والعلماء، وما ذلك إلا بفضل الله ثم بفضل اتباعنا لما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

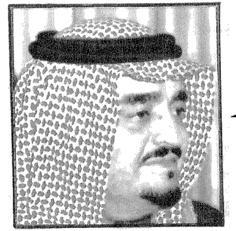
وإنه لمن دواعي الغبطة والسرور أن نجد أبناء هذه الجامعة يتقلدون المناصب ويضطلعون بأعباء التنمية في كافة أوجه النشاط والمجالات، آخذين على عواتقهم، مع اخوانهم أبناء هذا الوطن، مهام تحقيق أهدافنا في رفاهية المواطن، ورفعة شأن الوطن، وتقوية أركانه على أسس من الايمان والعلم والعمل المخلص.

ولقد لمسنا عن قرب مدى ما وصلت اليه الجامعة في مجال البحث العلمي، والمشاركة المتطورة في المجالات العلمية في الداخل والخارج، بما يتمشى مع النهضة التي ننشدها لوطننا الحبيب، وبما يوصلنا في تبصر وحكمة الى الهدف المنشود وهو رفاهية شعبنا ورفع مستواه الى مصاف الأمم المتقدمة

إن احتفالنا اليوم، هو احتفال بمسيرة العلم المشرقة في دوحة من دوحات المعرفة، تلك المسيرة التي وضع بذرتها مؤسس هذه المملكة والدنا المغفور له جلالة الملك عبد العزيز طيب الله ثراه. فتحية للعاملين في هذه الجامعة، وتهنئة على ما قدموه وما تفخر به من عطائهم الطيب «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون».

وفق الله الجميع في مسيرتهم على طريق الخير والنور.

خالد بن عبد العزيزآل سعود



كلمة صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز

ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعـــد :

لقد حقق الله الآمال بانتشار العلم على أرفع مستوى، فرأينا الجامعات تنتشر في ربوع بلادنا، وإنه لمن نعم الله الكبرى التي أنعم بها علينا أن أصبحنا اليوم نرى ما وصل اليه صرح من صروح العلم ومنارة من مناراته في بلادنا العزيزة، ونعني به جامعة الرياض، التي كانت أول جامعة أمدتنا بالشباب الواثق بنفسه، المؤمن بربه ثم بوطنه وأمته، المتسلح بسلاح العلم والايمان.

إن اغتباطي بهذه الخطوات الواسعة التي حققناها في مجال العلم إنما هو نابع من شعوري بأنني أول من تشرف بتولي أول وزارة أنشئت للمعارف في عام ١٣٧٤هـ، فكان من أهم أهدافي آنذاك إنشاء جامعة تكون قبلة للعلوم بأنواعها المختلفة، وركيزة من ركائز البحث العلمي قائمة على أسس من العقيدة الصحيحة، مستجيبة لطموح أبناء هذا البلد. وقد تحقق الهدف ولله الحمد على أفضل مما كنا نؤمل، وما ذلك الا بفضل الله ثم بفضل الرجال الذين نذروا أنفسهم لتحقيق هذا الهدف، وإن زيادة عدد المتخرجين في كل عام لهو خير دليل علىٰ أن النهضة التعليمية تسير بخطى واسعة لتحقيق المزيد من الرخاء لهذا البلد، وهو رخاء قائم على أسس من التخطيط العلمي السليم، وقد بدا واضحا في تنوع التخصصات حسب الحاجة إليها في خططنا لتطوير بلادنا وتنميتها.

وإنه مما يدعو الى الاعتزاز والفخر أن أصبح لدينا اليوم عدد وفير من أعضاء هيئة التدريس السعوديين، يكنون لبلادهم الحب والتقدير، ويبادلونها العطاء بقدر ما بذلت لهم وأعطتهم بسخاء فكانوا أوفياء مخلصين في اجتهادهم، ليصلوا بجامعاتهم الى المستوى الذي ينافس أرقى الجامعات في العالم.

وإنني لأرجو من الله عز وجل أن نحتفل في السنوات القادمة بجامعاتنا الأخرى، وقد جنينا منها أطيب الثمار، وأعطت عطاء يشد أزر مسيرتنا ويدفع بنا الى الأمام خطوات نكون فيها القدوة الحسنة في كل مضمار، تحت قيادة وتوجيه مليكنا المفدى جلالة الملك خالد بن عبد العزيز حفظه الله. وهنيئا لجامعة الرياض مسؤولين، وأعضاء هيئة تدريس، وطلابا بما حققوه لهذا الوطن الغالي. زادهم الله تقدما ونجاحا. وبالله التوفيق.

فهد بن عبد العزيز آل سعود

تعليق رئيس التحرير

واستقام التاريخ فلا ثغرات ولا فجوات فحين أعلن وزير التعليم العالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ أمر الملك خالد يعيد الى جامعة الرياض اسمها الأول الذي أطلق عليها يوم انشئت (جامعة الملك سعود).

ولم يكن ذلك تكلفا ولا انقيادا غوغائيا وانما كان كل فرد قد امتلأ وجدانه ليس بالوفاء فحسب ولا باللفتة الحانية فقط. وانما كان ذلك قرارا يضع الأمر في نصابه يعلن أن الدولة تريد أن يستقيم التاريخ وأن يتوحد الجمع في الأسرة الواحدة الكريمة كأنما القرار صدر به هذا الأمر دعوة لأن تكون في هذا الكيان الكبير مطلبا قوميا ودعامة دينية وترسيخا تاريخيا.

فالملك سعود يرحمه الله ابن هذه الأسرة المالكة. كان هو الرياض وكانت الرياض هو. كما هي نوازع هذه الأسرة الملكية فالكيان الكبير كله هي وما هي الا الحفيظة على قيم هذا الكيان الكبير.

ان الملك سعود كان حريصا على أن تكبر الرياض بالعمران فاذا هو يجد كل من حوله. ومن كل من معه. العون والرغبة في أن يتوج عمران الرياض بأول جامعة تنشأ في الرياض وكان لزاما أن يطلق اسم جلالته عليها. صرخة الحق في أن يكون للجامعة اسم تعرف به كما أن تأسيس جامعة الامام محمد بن سعود صاحب السيف في نصر الدعوة. صرخة حق تعطي لجد هذه الأسرة حقه في من أن يذكر اسمه على مدى التاريخ.

لقد كان الملك سعود شديد الرغبة في أن يتم عمران الرياض فكانت الحلية على هذا البناء - الجامعة -

وجاء الدور العظيم للملك فيصل فاذا الجامعات تترى واحدة بعد الأخرى يدعم الجامعة الاسلامية في المدينة، يؤسس جامعة الامام محمد بن سعود، يؤسس جامعة البترول والجامعة التي باسمه في الاحساء.

ان الملك فيصل قد وضع الأسس لأن ينشر العلم وكيف صابر فأنشأ مدرسة الثغر والمدرسة الأولى للبنات لقد كان شغوفا أن نكون جامعة حريصا على أن تصبح جامعات..

أما الأمير فهد بن عبد العزيز ولي العهد فقد كان كثير الاحتفال شديد العناية والرغبة في أن ينشر العلم في كل بقعة من الكيان الكبير فمن حظ هذا البلد ان كان هو الوزير الأول للمعارف فلئن أسس الملك سعود والملك فيصل ما أسسوا من الجامعات والمدارس فان الأمير فهد قد أعطى كل جهده لأن يرتفع البناء ولأن تنشر المستشفيات فلا تجد بقعة في هذا الكيان الكبير الا وفيها المدرسة من الألف الى الياء.

وجاء الملك خالد صادق النية حسن الطوية لم يقل لأي خير (لا) فوضع حجر الأساس للجامعة تعانق الرياض الدرعية ودعم الجامعات فاذا هو يبرز كريم خلقه وحبه لمكة أن يؤسس فيها جامعة أم القرى. كل هؤلاء لم ينسوا أن أباهم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن يرحمه الله قد أقام لهم الوحدة الأنموذج.

محمد حسين زيدان



باب الكعبة على مر العصور:

اختلف المؤرخون فيما بينهم بصدد أول من جعل الأبواب للكعبة المشرفة، وتعددت أوجه اهتمامهم بهذه الأبواب على النحو الذي نوضحه هنا من خلال تتبعنا لهذه القضية عبر العصور.

ذكر الأزرقي أن تبع الثالث كسا البيت، وجعل له باباً يغلق بضبة فارسية(١) ونقل عن ابن جريج قوله إنه لم يكن للكعبة باب يغلق قبل استحداث تُبّعْ لباب الكعبة نقل شعرا لتُبّعْ في ذلك:

وكسونا حـرم الله مـلاء معصبا وبـرودا
وأقمنا بـه من الشـهر عشرا وجعلنـا لبـابه إقليـدا

وأورد الأزرقي الخبر السابق مرة أخرى في معرض حديثه عن بناء ابراهيم عليه السلام للكعبة فقال: «.... وجعل لها بابها بالأرض غير مبوب حتى كان تُبّعْ أسعد الحميري هو الذي جعل لها بابا وغلقا فارسيا»(٢).

ونقل الفاكهي عن الواقدي مايخالف قول الأزرقي فقال: «كان البيت قد دخله السيل من أعلا مكة فانهدم فأعادته جرهم على بناء ابراهيم، وجعلوا له مصراعين وقفلا فاستخفت جرهم بأمر البيت وعملوا أمورا وأحدثوا أحداثا لم تكن(٣)». ومن ذلك النص يتضح أن جرهم جعلت للكعبة باباً ذا مصراعين زمن ولايتهم على البيت، وهو مايسبق زمنيا ولاية خزاعة، والتي تسبق ولايتها هي الأخرى ولاية قريش، في حين أن الباب الذي صنعه تُبَّعْ، والذي أشار اليه الأزرقي كان في زمن ولاية قريش.

وحين عمرت قريش البيت جعلت له باباً بمصراعين، قال ابن فهد القرشي إن طوله من الأرض إلى أعلاه بلغ أحد عشر ذراعا وعلى طوله صنع ابن الزبير باب الكعبة حين عمر البيت، يماثله باب مقابل في دير الكعبة. وحين نقض الحجاج بناء ابن الزبير جعل طول الباب ستة أذرع وشبراً، لأنه رفع الباب عن مستوى الأرض.

ونقل الفاسي عن الزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ)، والسهيلي (ت ٥٨١)، أن أول من بوب الكعبة أنوش بن شيت بن آدم عليه السلام(٤).

وذكر اليعقوبي مانصه: «وبعث الوليد الى خالد بن عبدالله القسري، وهو على مكة بثلاثين ألف دينار. فضربت صفائح وجعلت على باب الكعبة وعلى الأساطين التي داخلها، وعلى الأركان والميزاب، فكان أول من ذهَّب البيت في الإسلام. وحج الوليد سنة ٩١ لينظر إلى البيت وإلى المسجد وما أصلح منه وإلى البيت وتذهيبه(٥)» أ.هـ.

وفي صدد حوادث ١٩٤ هـ ذكر ابن فهد مانصه: «وفيها أرسل الخليفة الأمين محمدبن هارون الرشيد العباسي(٦) الى سالم بن الجراح عاملا(٧) له على صوافي(٨) مكة، بثمانية عشر ألف دينار ليضرب بها صفايح الذهب على باب الكعبة.

فقلع ما كان على البيت من الصفايح وزاد عليها من الثمانية عشر ألف

دينار. فضرب عليه الصفايح والمسامير وحلقتي باب الكعبة وعلى الفيارز والعتب(٩)» أ.هـ.

ووصف الأزرقي باب الكعبة الذي أدركه بدقة بالغة، ومما ذكره أن طوله في السماء ستة أذرع وعشرة أصابع، وأن عرض ما بين جداريه ثلاثة أذرع وثماني عشرة إصبعا، وعد مساميره وحلقاته وسائر مكوناته وحلياته(١٠).

وفي حوادث ٢١٩هـ ذكر ابن فهد مانصه: «ومنها بعث المعتصم بالله العباسي(١١) للكعبة بقفل فيه ألف دينار وكان على مكة يومئذ صالح بن العباس(١٢)، فأرسل صالح إلى الحجبة(١٣) فدعاهم ليقبضهم القفل فأبوا أن يأخذوه فأجبرهم على ذلك. وأراد أن يأخذ قفلها الأول ويرسل به الى الخليفة. فكلموه فتركه له وأذن لهم في الخروج إليه، فخرجوا إليه فكلموه فيها فترك قفلها وأعطاهم القفل الذي بعث به إليها فقسموه بينهم» أ.هـ.

وأكد الفاكهي في تاريخه هذه الواقعة، وأضاف المسبحي في حوادث نفس السنة: «وفيها وصل طاهر بن عبد الله بن طاهر حاجا في عدد كثير من الجند بقفل فيه ألف مثقال من الذهب. فقفل به البيت ونزع قفله الذي كان عليه، وكان مطليا ويقال أن الحجاج عمله(١٤)» أ.هـ.

وذكر ابن جبير أن الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور المعروف بالجوّاد وزير صاحب الموصل جدد باب الكعبة وغشاه بالفضة المذهبة، ونقش عليه اسم الخليفة، وأخذ الباب القديم وأمر أن يصنع له منه تابوت يدفن فيه(١٥).

وفي حوادث ٥٥٢هـ ذكر ابن الأثير في تاريخه: «في هذه السنة قلع الخليفة المقتضى لأمر الله (١٦) باب الكعبة، وعمل عوضه باباً مصفحا بالنقرة المذهبة(١٧). وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتاً يدفن فيه إذا مات(١٨).

وذهب الفاسي إلى أن الأمر قد التبس على ابن الأثير، فليس فيما أورده من

نسبة الباب للمقتضى مايتعارض مع ماذكره ابن جبير من نسبته للجوّاد، لأن الأخير صنعه بأمر المقتضى، وأضاف اسمه كتابة عليه، وان توضيح ذلك يمنع من اعتقاد البعض بصنع بابين للكعبة في تاريخ واحد، على يد الخليفة وآخر على يد وزيره(١٩).

وأضاف ابن جبير أنه تم صنع تابوت للجواد من الباب القديم. وحينما حانت ساعة وفاته أوصى بأن يوضع في ذلك التابوت المبارك، وأن يحج به ميتا، وكان لم يحج من قبل. فسيق إلى عرفات وأفيض به بعد أن أفاض الناس، وطيف به طواف الإفاضة، ثم حمل الى المدينة المنورة حيث دفن بها.

ويرجح الفاسي مارواه ابن جبير من عمل التابوت ودفن الجوّاد به أن ذلك لم يكن ليتم إلا بموافقة المقتضى.. ويرى أن نسبة ابن الأثير الباب للخليفة المقتضى كان توهما منه.

وفي سنة ٦٦٦ عمل الملك المظفر(٢٠)صاحب إليمن باباً للكعبة المعظمة عليه من صفايح الفضة مازنته ستون رطلا، صارت لبني شيبة(٢١).

وفس سنة ٧٣٣هـ عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر باباً ركب على الكعبة بعد قلع باب الملك المظفر في ذي القعدة من نفس العام، محلى بخمس وثلاثين ألف درهم وثلاثمائة درهم من الفضة، وقد صنع الباب من السنط الأحمر. وفي سلطنة ولده الناصر حسن سنة ٧٦١هـ صنع باب آخر في مكة المكرمة من خشب الساج تم تركيبه وظل بالكعبة الى أن قلع سنة ٧٧٦هـ من أجل زيادة حليته بمقدار ثلاثين ألف درهم. وعوض عنه بباب قديم كان للكعبة.

ويعتقد الفاسي أن هذا الباب القديم الذي تم تركيبه هو نفس الباب الذي صنعه الناصر محمد بن قلاوون، ثم أعيد الباب بعد تحليته. كما يظن أنه حلّى أيضا عام ٧٨١هـ(٢٢). ويحمل الباب اسم الناصر محمد بن قلاوون في أسفل الباب. وكذلك اسم حفيده الملك الأشرف شعبان بن حسين. وفي

الجانب الذي على يمين الداخل للكعبة كتب اسم الملك المؤيد أبي النصر شيخ صاحب مصر، الذي أنفذ بعض خواصه الى مكة المكرمة في أول ذي الحجة من سنة ٨١٦ هـ. فقاموا بتحلية هذا الجزء الذي يحتاج الى تحلية من الباب، وحلوه بالفضة وطلوه بالذهب، مع كتابة اسم الملك المؤيد. وبلغ مقدار الفضة المستخدمة في هذا الموضع مائة ونيفاً وتسعين درهماً(٢٣). وفرغ من هذا العمل في أوائل ذي الحجة من سنة ٨١٦ هـ(٢٤).

وذكر القطبي في تاريخه: «في مستهل سنة ٨١٦ قدم إلى الحج أحد خواص مماليك السلطان الملك المؤيد شيخ(٢٥) فرأى جانب باب الكعبة الأيمن محتاجاً الى الحلية. فأخرج من ماله ما يقارب مائتي درهم فضة خالصة فجلاه به ثم طلاه بالذهب وفرغ من عمل ذلك قبل الصعود الى عرفة»(٢٦) أ. هـ.

وأورد أيضاً: «.. وقد أدركنا الباب الشريف مصفحاً بالفضة، وكان يختلس من فضته أوقات الغفلة من قل دينه وخفت يده إلى أن انكشف سفل الباب، ومسك مراراً من يفعل ذلك وحبسوا وبهدلوا. فعرض ذلك على الأبواب الشريفة السلطانية في أيام المرحوم المقدس السلطان سليمان خان(٢٧)، أسكنه الله تعالى فراديس الجنان، في سنة ٩٦١ هـ فبرز الأمر الشريف السلطانية بتصفيح الباب الشريف بالفضة الى ناظر الحرم يومئذ وهو من فضلاء كتبة مصر أحمد جلبي، فأخرجوا جميع فضة الباب وزادوا عليه فضة وجعلت صفايح وصفح بها باب الكعبة، وسمرت الصفايح بمسامير الفضة وأعيدت وصفح بالفضة المكسوة بالذهب»(٢٨) أ. هـ.

وفي عام ٩٦٤ هـ أمر السلطان سليمان بتركيب باب جديد للكعبة. فأتى بالباب الأول وركبت عليه ألواح من خشب الآس الأسود المصفحة بالفضة المطلية بالذهب بما مقداره ٢٧١٠ أشرفيات(٢٩). أما الفضة فبلغت أربعة قناطير إلا قليلا. ووضعت الفضة على أصل الباب القديم الذي صنع من الساج. مع تعويض بني شيبة بمبلغ من المال قدره ألف أشرفي عوضا عن الفضة القديمة. ونقش على الباب بعد البسملة قوله تعالى: «ربِّ أدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ،

وأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ. واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرا(٣٠)». ودون تاريخ تجديد الباب، وقد أرخ البعض لذلك بقوله: «زين الباب»(٣١).

وظل الباب السابق في الكعبة المشرفة حتى عام ١٠٤٥ هـ. ذكر الطبري في الأرج المسكي: «ان السلطان مراد خان ابن السلطان(٣٢)أحمد خان في سنة ١٠٤٤ بعد عمارة الكعبة المشرفة بأربع سنين أمر (على) والي(٣٣)مصر أن يصلح ماوقع في سطح الكعبة المشرفة من الخلل وأن يجعل لها باباً جديدا، وأن يرسل إليه الباب القديم، فعين والي مصر لذلك الأمير رضوان بك المعماري، وأضاف إليه يوسف المعمار مهندس العمارة سابقا، فوصلا إلى مكة في موسم تلك السنة. ثم لما كان ١٧ ربيع الأول سنة ١٠٤٥ هـ وصل الى الكعبة المشرفة، وفتح آل الشيبي بابها فقلعوه وركبوا غيره عوضا عنه باباً من خشب لم يكن عليه شيء من الحلية وإنما عليه ثوب قطني أبيض. وفي يوم الثلاثاء من الشهر المذكور صار اجتماع ببيت الأمير رضوان حضر فيه شيخ الحرم عتاقي أفندي وفاتح البيت وحاكم مكة فوزنت الفضة التي كانت على الباب المقلوع فكان مجموع ذلك مائة وأربعين رطلاً. ثم شرع في تهيئة باب جديد وركب عليه حلية الباب السابق، وكتب عليه السلطان مراد خان ابن السلطان أحمد خان وركب الباب الجديد بمحفل حضره أمير مكة وشيخ الحرم وسدنة البيت المعظم وكبار العلماء والأعيان. وكان ذلك يوم الخميس ٢٠ من شهر رمضان سنة ١٠٤٥ وأرسل الباب القديم الى السلطان مراد»أ.هـ.

وهذا الباب تم صنعه في استانبول، بعد أن تقرر تجديد باب الكعبة في ربيع الأول من نفس العام واستمر ذلك الى شهر رمضان. وصنع الصاغة له مازنته مائة وستون رطلا من الفضة المطلية بالذهب البندقي(٣٤) بما مقداره ألف دينار. ونقشت عليه كتابات الباب السابق وزيد عليه قوله عز وجل: «رب أدخلني مدخل صدق» (الآية) تحتها كتابة نصها: «تشرف بتجديد هذا الباب من سبقت له العناية من رب الهداية مولانا السلطان مراد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان بن عثمان عز نصره في سنة خمس وأربعين وألف»(٣٥).

وذكر السنجاري في منائح الكرم: «أنه في آخر شهر ذي القعدة سنة ١١١٩ هـ حضر شيخ الحرم الأمير إيواز بك والسيد يحيى بن بركات وقاضي الشرع، وحضروا بعض المعلمين، وقلعوا خدود باب الكعبة، والطراز الذي من الذهب الخالص فوجدوا فيه شيئا كثيرا فأصلحوه وطلوا الخدود بالذهب وكتبوا على الطراز تاريخا ذكروا فيه أنه تجديد السلطان أحمد خان نصره(٣٦) الرحمن. وحضر عند تركيبه مولانا الشريف عبد الكريم وجميع من تقدم ذكره وركبوه على الوجه المطلوب وصار الباب يفتح بسهولة من غير تعب» أ.هـ.

الباب السابق على الباب الجديد:

ركب هذا الباب عام ١٣٦٣ هـ في عهد جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، واستمر في موضعه في الكعبة المعظمة طوال ثلاثة وثلاثين عاما.

وهذا الباب صنع بمكة المكرمة ويتكون من مصراعين من ألواح الألمونيوم، سمكه ٢٫٥ سم ومقاسه ٣١٠×١٦٨ سم ويتألف من مصراع من ثلاثة أجزاء طولية، مع استخدام القضبان الحديدية من خلف كل درفة لدعم تماسكها، مع ربط القطع بعضها مع بعض وهي ظاهرة من الخلف.

ويرتبط كل من مصراعي الباب بثلاث مفصلات صنعت من الحديد الصلب مثبتة على إطار من الحديد. في حين صنعت واجهة الباب الخارجية من ألواح من الفضة الخالصة المطلية بالذهب، ثبتت على قاعدة خشبية بلغ سمكها ٢٫٥ سم.

أما جوانب ذلك الباب فكانت قد صنعت أول الأمر من الخشب الجاوي الذي يبلغ سمكه ٦ سم. وزخرفت هذه الجوانب بلوحات منقوشة عليها أسماء الله الحسنى داخل أشكال بيضاوية عددها ثلاثة عشر شكلا من الفضة المطلية بالذهب.

واستبدلت القواعد الخشبية لجوانب الباب في عام ١٣٩٥ هـ بصفائح الألمونيوم المسكوب، بعد فك اللوحات المنقوش عليها أسماء الله الحسنى والزخارف وإعادتها لوضعها السابق.

ولقد استغرق صنع هذا الباب ثلاث سنوات، ونقشت زخارفه وخطوطه بمكة المكرمة، وأشرف على صنعه يوسف بدر شيخ الصاغة وقتئذ، بينما صمم خطوطه الشيخ عبد الرحيم أمين الذي قام كذلك بعمل خطوط الباب الجديد الذي سنعرض له بعد.

البـــاب الجـــديد:

برزت فكرة استحداث باب جديد للكعبة المشرفة، في شهر جمادى الأولى عام ١٣٩٧ هـ، حين صلى جلالة الملك خالد بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية في جوف الكعبة المعظمة، وتراءى له قدم الباب المركب، والمصنوع عام ١٣٦٣ هـ في عهد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود. فأمر الملك بصنع بابين جديدين أحدهما للكعبة المشرفة والآخر لباب التوبة على أن يكونا من الذهب الخالص.

وبعد عصر يوم السبت ٢٢ ذي القعدة عام ١٣٩٩ هـ الموافق (١٣ أكتوبر عام١٩٧٩م) قام جلالة الملك خالد بازاحة الستار عن الباب الجديد.

حقائق ومعلومات عن الباب الجديد: (٣٧)

- يزيد ارتفاعه قليلا عن ثلاثة أمتار، وعرضه نحو مترين، وعمقه نحو نصف متر.
- يتكون الباب من مصراعين متماثلين في الحجم والشكل العام.
- يشتمل الهيكل الإنشائي للباب على قاعدة خشبية بسمك ١٠ سم، تم صنعها من خشب «التيك» ويعرف باسم «ماكامونغ».
- الوزن النوعي ٨ر٤٠ سم.
- في نهاية أسفل الباب عتب Lintel لمنع تسرب مياه الأمطار إلى الكعبة

المشرفة، وله ضاغط خاص يضغط حرف الباب على العتب لحظة إغلاقه.

- بلغت كمية الذهب المستخدمة في صنع البابين ٢٨٠ كيلوغراما من عيار ٩٩٩٫٩٪.
- بلغت تكلفة عمل الدراسات والتصميمات المعمارية، وصنع الكتابات والزخارف الاسلامية مبلغ ثلاثمائة ألف ريال.
- مقدار التكلفة الاجمالية لصنع البابين ١٣ مليون، ٤٢٠ ألف ريال سعودي. هذا بخلاف كمية الذهب التي تم تأمينها بمعرفة مؤسسة النقد السعودي.
- تم صنع البابين في مَشغْل أعد خصيصا لذلك في مكة المكرمة وأُنجز هذا العمل بعد اثنى عشر شهراً، بدأت من غرة ذي الحجة من عام ١٣٩٨ هـ، تحت اشراف الشيخ أحمد بدر شيخ الصاغة بمكة المكرمة بمعونة المتخصصين.

خصائص الباب الجديد:

- تطابق الشكل الزخرفي العام للباب مع المألوف من الزخرفة الإسلامية.
- المحافظة على الشكل المعهود للباب في ترتيب وضعه.
- استخدم في أسلوب الزخرفة الحفر والنقش على الذهب.
- استخدم قليل من الفضة في صنع الباب.
- تواءمت الزخارف المطبقة مع الأساليب الفنية المعمارية والزخرفية المألوفة في التراث الاسلامي.
- تم تفصيل الهيكل الإنشائي للباب بما يطابق التصميم الزخرفي ويلائم عوامل الطقس من شدة حرارة وأمطار.
- ثبتت صفائح الذهب على القاعدة الخشبية، باستخدام مادة لاصقة

خاصة، تضمن استمرار التصاق الذهب بالخشب، ولفترات غير محدودة وذلك بالنسبة لإطار الباب الخشبي.
- لتثبيت الباب الجديد صنع إطار من الصلب ثبتت عليه المفصلات بحيث يتحمل كل من مصراعي الباب خمسمائة كيلوجرام، كما تم تركيب المفصلات على عجلات دائرية بما يسهل حركتها.
- استخدمت أفضل وسائل التقنية الحديثة، في صنع الباب مما يكفل معه أكبر قدر من المتانة والجودة.

الزخـــارف الكتــابية :-

اشتمل الباب على نوعين من الكتابات، كتابات قرآنية ونصوص كتابية، سأقوم بتفصيلاتها وفق ورودها على الباب:

النصوص الكتابية القرآنية :

زُخرف إطار الباب بزخارف محفورة على الذهب بينما زخرفت المساحات الوسطى بدوائر مشعة مجدولة الإطار بوسطها بعض الآيات القرآنية، وبالزاويتين العلويتين للبـــاب زخارف متميزة تهـــدف الى توضيح رسم على هيئـــة قوس يحيط بلفظ الجلالة نصه «الله جل جلاله» واسم الرسول ﷺ نصه «محمدرسول الله».

والجزء العلوي من الباب، ويمثل ربع مساحته تقريبا، بأعلاه من الجانبين دائرتان باللون الأبيض، كتب في اليمنى منهما بالذهب بخط الثلث لفظ الجلالة وكتبت في الدائرة اليسرى المقابلة على مصراع الباب الآخر كلمة «محمـــد» وسط الدائرة.

وقُسّم نصف الدائرة الكبرى الى ثمانية شبه مستطيلات، كل أربعة منها بأحد مصراعي الباب.. وتقرأ الكتابات على المصراع الأيمن متجها على المصراع الأيسر ومن أعلى إلى أسفل على الوجه الآتي:-

المستطيل الأول : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم».
المستطيل الثاني : اُدخلوها بسلام آمنين(٣٨)، جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام»(٣٩).
المستطيل الثالث : «رب أَدْخلني مدخل صدق وأَخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا»(٤٠).
المستطيل الرابع : «كتب ربكم على نفسه الرحمة(٤١). وقال ربكم ادعوني أستجب لكم»(٤٢).

ويلي المستطيلات السابقة مربعان يتوسطهما حشوتان على شكل دائرتين مشعتين، تحتوي كل منهما على اثنتي عشرة حزمة شعاعية على عدد شهور السنة، كما تشتمل كل حزمة بدورها على سبعة إشعاعات ذات أطوال مختلفة بعدد أيام الأسبوع. وقوام زخرفة المربعين المحيطين بالدائرتين زخارف عربية لتفريعات نباتية (أرابسك).

وبحشوة المصراع الأيمن نص كتابي «لا إله إلا الله»، بينما على حشوة المصراع الأيسر عبارة «محمد رسول الله« بخط بارز، وثبتت حلقتا الباب على أرضية الحشوتين العلويتين بحيث تؤلفان مع القفل وحدة واحدة من حيث التجانس في الحجم والشكل، وهما مصنوعتان من الذهب أيضا، وفي أسفلهما في كلا المصراعين مستطيل بارز ومزخرف تحمل نهايته الخارجية قوله عز وجل: «قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم»(٤٣). ويلاحظ تواجد مساحة مناسبة الارتفاع بين الحلقتين والقفل بهدف الفصل بين مختلف أنواع الزخارف المتعددة الوحدات لكنها تتسم بالتجانس بين وحداتها الزخرفية بشكل مناسب ومريح. أما الربع

الثالث من الباب فقوام زخرفته رسم مربعين تتوسط كل منهما حشوة على هيئة دائرة تحيطها زخارف الأرابسك في حين يتوسط الحشوتين نص قرآني يشتمل على فاتحة الكتاب.

الكتابات التاريخية :-

يشتمل الربع الأخير من باب الكعبة الجديد على عدة مستطيلات صغيرة الحجم مزدانة بالزخارف وتحمل نصوصاً كتابية بخط دقيق هي:

المستطيل الأول : «صنع الباب السابق في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالعزيز آل سعود سنة ١٣٦٣ هـ».

المستطيل الثاني : «صنع هذا الباب في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك خالدبن عبدالعزيز آل سعود سنة ١٣٩٩ هـ».

وزخرف برواز الباب المثبت على المصراع الأيسر بزخارف خاصة متميزة دقيقة الصنع في سجل على المصراع الأيمن نص كتابي تحيطه الزخارف نصه:

«صنعه أحمد ابراهيم بدر بمكة المكرمة، صممه منير الجندي، واضع الخط عبدالرحيم أمين».

الزخارف الكتابية على الجوانب :

صنعت هذه الزخارف وتوزعت بأسلوب فني زخرفي مميز، بما يتمشى وأسلوب التصميم والزخرفة العام للباب، وبما يتفق ووضع اللوحات الدائرية البارزة، والتي تشتمل على بعض من أسماء الله الحسنى وعددها خمسة عشرة مرتبة كما يلي:

- أعلى الباب يا واسع - يامانع - يانافع

- الجانب الأيمن	ياعالم	- ياعليم	- ياحليم
	ياعظيم	ياحكيم	يارحيم
	ياغني	- يامغني	- ياحميد
- الجانب الأيسر	يامجيد	ياسبحان	يامستعان

وثبتت على القاعدة الخشبية للباب لوحات من الذهب الخالص، تحمل نقوشا زخرفية رسمت بأسلوبي النقش الغائر والبارز، وتتألف القاعدة الخشبية من مستويات ثلاثة من حيث درجة بروزها، زخرفت إطاراتها. في حين اشتمل الإطار الأوسط على آيات قرآنية.

قفــل البــاب :

تم الاستغناء عن قفل الباب القديم والذي يعود الى عهد السلطان عبد الحميد خان، وتم صنع قفل جديد بنفس مواصفات القفل القديم ليتفق والأسلوب العام لتصميم الباب الجديد، مع زيادة في كفاءة تشغيله دون حاجة ما الى الصيانة.

مراحل صنع وتركيب الباب الجـديد:-

صنعت أولا قاعدة الباب الخشبية وهي من خشب «ماكامونغ»، وتم تلبيسها بصفائح من الذهب الخالص، بعد أن نقشت عليه النقوش الكتابية والزخرفية. واشترك في هذه الأعمال نحو أربعين فنياً مابين نقاش وحفار ونجار وطارق للذهب. انتظموا جميعهم في دوام يومي من الصباح الى ما بعد الظهر، وفي المراحل النهائية لصنع الباب استلزم الأمر أن يظلوا يعملون إلى آخر الليل.

ولتركيب الباب الجديد أُخْرِجت أولاً حلق الباب القديم يوم ١٨ من ذي القعدة سنة ١٣٩٩ هـ، ثم أخرج مصراعا الباب، ثم بدأ تركيب حلق الباب الجديد ومصراعيه واستغرق ذلك ٤٨ ساعة، ثم رُكِبتْ حلق باب التوبة ودرفته في موضعه القديم وحمل بابا التوبة مع باب الكعبة القديم الى داخل الكعبة المشرفة.

باب التـــوبة :

هو الباب الداخلي للكعبة المشرفة، موضعه خلف باب الكعبة، وروعي في تصميم الباب الجديد مطابقته للباب الرئيسي، فيما يختص أسلوب الزخرفة بما يكفل تحقيق التجانس بين البابين، أما مقاسات الباب الجديد فهي:

- ارتفاع الباب ١٣٠ سم.
- عرض الباب ٧٠ سم.
- صنع من خشب الماكامونغ مثل الباب الرئيسي.
- سمك القاعدة الخشبية للباب ٧ سم.
- مغطى بصفائح الذهب المزخرفة.
- يحيط بالباب إطار مزخرف مقسم الى أربعة أقسام من أعلى الى أسفل.

ويلاحظ أن الجزء العلوي من باب التوبة يتكون من ثلاثة مستطيلات يليها مربع تتوسطه دائرة مشعة نقش بوسطها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ويلي هذا المربع مربع ثان تتوسطه دائرة نقش بوسطها فاتحة الكتاب في حين ينقسم القسم الأخير الى ثلاثة مستطيلات صغيرة يتوزع عليها النص التالي: «هذا الباب صنع في عهد خادم الحرمين الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود».

«تمت بحمــد الله»

الهـــوامش

(١) الأزرقي : أخبار مكة ١٣٤/١.
(٢) المصدر السابق : ٦٤/١.
(٣) الفاسي : شفاء الغرام ١٠٤/١.
(٤) الفاسي : المصدر السابق ١٠٤/١.
(٥) تاريخ اليعقوبي ٢٨٤/٢.
(٦) محمد بن هارون الرشيد، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه ١٩٣ هـ، وولى أخاه المأمون خراسان ثم خلعه عنها سنة ١٩٥ هـ، فنادى الأخير بخلعه، وجهز طاهر بن الحسين لحربه فهزم جيش الأمين وحاصر بغداد وقتل الأمين. انظر في ترجمته: (تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢٩٧ ومابعدها) وغيره.

(٧) في النص «عامل».
(٨) الصوافي أو القطائع عرفت زمن رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، ولكن على نطاق ضيق وذات دخل محدود. وباتساع حركة الفتح الاسلامي منذ عهد الخليفة عمر، ازدادت إيرادات الدولة الاسلامية لكثرة الأراضي التي اصطفاها الخليفة في العراق والشام ومصر، وأصبحت خالصة لبيت مال المسلمين. ثم أطلق عليها القطائع، اذ اقتطعت فيما بعد لمن يتعداها. وبلغ دخل الصوافي في ذلك الحين ٧,٠٠٠,٠٠٠ درهم. وكان يحتجز العشر من صاحب الإقطاع من المؤونة في استصلاح الأراضي وإقامة البيوت من حولها وتوصيل المياه لها وتعهدها بالرعاية والاصلاح. أما أرض مكة والمدينة وسائر بلاد العرب التي فتحت على يد رسول الله ﷺ، فلها وضعها الخاص، فلا يزاد عليها ولا ينقص منها. اذ لا يغير أو يعدل حكم رسول الله ﷺ في شأنها، فيؤخذ منها العشر ولا يفرض عليها الخراج.

راجع: (أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٦٢ : ٦٤، بدوي عبد اللطيف: النظام المالي الاسلامي المقارن ص٦٠، ٦١، ضياءالدين الريس: الخراج في الدولة الاسلامية ص١٣٩، ١٤٠) وغيرهم.

(٩) إتحاف الورى في أخبار أم القرى. نسخة تيمور الخطية، ورقة ٤٣٩.
(١٠) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار : ٣٠٧/١ : ٣٠٩.
(١١) الخليفة المعتصم بالله، أبو إسحق محمد بن الرشيد. ولد سنة ١٧٨ أو ١٨٠ هـ، اتصف بالشجاعة، وهو ثامن خلفاء بني العباس، بويع خليفة بعد المأمون سنة ٢١٨ هـ، وفي سنة ٢٢٣ هـ غزا الروم وفتح عمورية، توفي في ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ.
(١٢) صالح بن العباس بن محمد، ولي إمرة مكة سنة ٢١٨ هـ. انظر الرحلة الحجازية للبتنوني ص٨٣ جدول أمراء مكة منذ فتحها المسلمين، نقلا عن السالنامة – طبع مكة سنة ١٣٠٦ هـ.
(١٣) يقصد بني شيبة سدنة الكعبة.
(١٤) عن أقفال ومفاتيح الكعبة المعظمة انظر مقال: J.T. Sourdel: Revue d'études — islamiques (R.E. I), Les clés et les serrures de la Kaaba.
(١٥) رحلة ابن جبير : ص ١٠٣ وما بعدها.
(١٦) هو الخليفة أبو عبد الله الحسين المقتضي لأمر الله بن المستظهر، أحد خلفاء بني العباس، بويع

بالخلافة سنة ٥٣٠هـ، واستمر بها الى أن توفي سنة ٥٥٥هـ.

(١٧) النقرة دراهم ضربها الأيوبيون من الفضة النقية، يتألف ثلثاها من الفضة وثلثها من النحاس، وتطبع بدور الضرب السلطانية. ويكون منها دراهم صحاح وقراضات. والعبرة في وزنها بالدرهم. (انظر القلقشندي: صبح الأعشى ٤٣٩/٣).

وفي عيار الدراهم النقرة ذكر ابن مماتي في قوانين الدواوين (ص٣٣٣)، انه يؤخذ ٣٠٠ درهم فضة نقية الى ٧٠٠ درهم من نحاس أحمر، ويسبك حتى يصير ماء واحدا، ويقلب قطبانا ويقطع. (انظر أيضا: ابن بعرة في «كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية»، ص ٢٥، ٦٥، ٧٦ وحواشي الدكتور عبدالرحمن فهمي محقق الكتاب).

(١٨) الكامل في التاريخ: ٢٢٨/١١. وذكر ابراهيم رفعت في مرآة الحرمين، أن هذا الباب صنعه الجواد عام ٥٥٠هـ، وركب عام ٥٥١هـ (٢٧٦/١).

(١٩) الفاسي: المصدر السابق ١٠٣/١.

(٢٠) الملك المظفر الرسولي يوسف بن عمر علي بن رسول التركماني اليمني، شمس الدين. ولد بمكة ٦١٩هـ (١٢٢٢م) تولى حكم اليمن سنة ٦٤٧هـ بعد مقتل أبيه، واجه الفتن بحزم، وحكم فترة طويلة حتى توفى ٦٩٤هـ (١٢٩٢م). والملك المظفر يوسف أول من كسا الكعبة من داخل ومن خارج سنة ٦٥٩هـ، بعد أن توقف وصولها من عاصمة الخلافة لسقوط بغداد في يد المغول، وظل مداوماً على كسوتها حتى عام ٧٦١هـ. كما قام بترخيم داخل البيت الشريف وأرخ لذلك على لوح رخامي بالجهة الغربية داخل الكعبة المعظمة نقش عليه بالخط البارز النص التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه. وصلى الله على سيدنا محمد وآله يارحمن يارحيم. أمر بتجديد رخام هذا البيت المعظم العبد الفقير الى رحمة ربه وأنعمه يوسف بن عمر بن علي بن رسول اللهم أيده بعزيز نصرك واغفر له ذنوبه برحمتك ياكريم ياغفار بتاريخ سنة ثمانين وستمائة».

وذكر المقريزي في الذهب المسبوك في من حج من الخلفاء والملوك ص ٨٤، أن المظفر شمس الدين حج سنة ٦٥٩هـ، وغسل الكعبة بنفسه وكساها من داخلها وخارجها كما قام بمصالح الحرم وأهله وأكثر من الصدقات ونثر على الكعبة الذهب والفضة. والملاحظ أن المقريزي أغفل خبر باب الكعبة الذي صنعه المظفر.

انظر ترجمته في: (الخزرجي: العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية، الجزء الأول، (ط) والعسجد المسبوك في من ولى اليمن من الملوك (خ)، تاريخ ابن الوردي ، الجزء الثاني، المقريزي: الذهب المسبوك، تاريخ الكعبة لباسلامة، بنو رسول وبنو طاهر لمحمد عبد العال) وغيرهم.

(٢١) ذكر ابن حاتم السمط الغالي – ورقة ٧٦أ، والخزرجي: العقود اللؤلؤية ١٦٩/١، أن الملك المظفر قام بتحلية باب الكعبة بالذهب والفضة على يد نجم الدين حسن بن التعزي. في حين ذكر الفاسي ١٠٣/١، وابراهيم رفعت ٢٧٦/١، أن الباب استحدثه المظفر ولم يحلى باب موجود. ويؤرخ ابراهيم رفعت باب المظفر سنة ٦٥٩هـ، وهي السنة التي حج فيها المظفر.

(٢٢) ذكر ابراهيم رفعت في مرآة الحرمين (٢٧٦/١) ما نصه: «انه في سنة ٧٨١هـ حلى زين الدين العثماني باب الكعبة وميزابها بمعرفة مملوكه سودون باشا حينما أرسله لعمارة المسجد الحرام» أ.هـ. ويعلق على ذلك باسلامة (تاريخ الكعبة المعظمة ص ٢٠٢) بقوله: «مع أن الفاسي ذكر فيما تقدم

أن ذلك كان في عصر الناصر حسن، واسم الملك الناصر محمدبن قلاوون مكتوب عليه، ولو كان زين الدين العثماني هو الذي حلى باب الكعبة لكتب اسمه عليه كما هي العادة المتبعة في ذلك» أ.هـ.

والرأي انه ليس ثمة تناقض بين النصين اللذين أوردهما كل من الفاسي وابراهيم باشا رفعت والذي اعتقد بوجوده الشيخ باسلامة، فيما يتعلق بالباب الذي عمل في مكة المكرمة في دولة الناصر حسن. فبخصوص ماأورده ابراهيم رفعت عن تحلية زين الدين العثماني لباب وميزاب الكعبة على يد سودون باشا. أورده أيضا الفاسي بدون تفصيل وليس فيما أورده جملة ما يخالف كلام رفعت باشا. وإن كل ما أورده بعد وصفه للباب الذي عمله الناصر محمدبن قلاوون. ثم إعادة باب الناصر حسن بعد تحليته قوله: «.... وأظن أنه حلى في سنة إحدى وثمانين وسبعمائة والله أعلم، واسم الملك الناصر محمدبن قلاوون مكتوب في هذا الباب بأسفله واسم الملك الأشرف شعبان بن حسين في بعض فيار من الباب...» أ.هـ. وليس من حديث الفاسي مايخالف كلام ابراهيم رفعت. انظر أيضا القطبي في الاعلام ص٥٤، ٥٥.

(٢٣) عند باسلامة (تاريخ عمارة الكعبة المعظمة ص ١٩٩ — ٢٠٠) إن قيمة الفضة المستخدمة ١٩٢ درهم. في حين أوردها ابراهيم رفعت (مرآة الحرمين ٢٧٦/١) ٢٠٠ درهم.

(٢٤) الفاسي المصدر السابق ١٠٣/١.

(٢٥) الملك المؤيد شيخ المحمودي أبو النصر الظاهري رابع ملوك الجراكسة، تسلطن سنة ٨١٥هـ، وكان من مماليك الظاهر برقوق أرسل في آخر سنة ٨١٨هـ منبراً الى المسجد الحرام، توفى سنة ٨٢٤هـ، انظر في ترجمته (القطبي: الاعلام ص ٢٠١ وما بعدها العصامي المكي في سمط النجوم العوالي ٣٦/٤ وغيرهم).

(٢٦) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٢٠٤.

(٢٧) السلطان سليمان خان ولد سنة ٩٠٠هـ (١٤٩٤م)، وتسلطن سنة ٩٢٦هـ، وهو عاشر ملوك آل عثمان، فتح بلغراد ورودس وبلاد المجر وتبريز وبغداد وعدن، وبعد هذا السلطان صاحب أهم عمارات سلاطين آل عثمان للمسجد الحرام منها، تجديده سطح الكعبة المشرفة، وإصلاح بعض الأبواب، وتجديد فرش المطاف، وتعمير المقام الحنفي وإنشاء مدارسه الأربع ورباطها خلفها، كما شيد منارة عظيمة تتوسط مدارسه بالاضافة الى تعمير منارة باب على بعد سقوطها.

ولا نغفل ذلك المنبر النادر الذي أهداه السلطان سليمان خان الى المسجد الحرام، ونصب عام ٩٦٦هـ، وهو مصنوع من الرخام الأبيض على أسلوب وطراز إسلامي. عرضه ١٫٨٨ سم وعرض درجاته ٨٠ سم، وله باب صغير في مدخله يؤدي الى سلم من ١٣ درجة توصل الى مقعد الخطيب، بارتفاع ٤٫٣٧ سم عن سطح الأرض. ويبلغ ارتفاع هذا المنبر بما في ذلك المظلة التي تعلوه ١٠٫٤٧ سم، وكان موضعه الجانب الشمالي من مقام ابراهيم وذلك قبل سنة ١٣٨٤م، ثم أعيد وضعه على المحيط الخارجي للمطاف بعد توسعته بجوار المظلة.

ومما يؤسف له أن تعرض هذا المنبر الأثري النادر للكسر بعد أن تعرض المسجد الحرام لاعتداء الطغمة الفاسدة في غرة المحرم سنة ١٤٠٠هـ، وشاهدناه في متحف الحرم الشريف في الدور السفلي للمسجد مقسم الى عدة أجزاء، ونهيب بالقائمين على شئون المسجد الحرام بالعمل على ترميم هذا المنبر الفريد وإعادته الى حدود المطاف الجديد بعد نقل بئر زمزم.

وتوفى السلطان سليمان خان سنة ٩٧٤هـ (١٥٦٦م) عن أربع وسبعين سنة، انظر في ترجمته: (القطبي: الاعلام ص ٢١٩ : ٣٥٥، العصامي المكي: سمط النجوم العوالي ٧٣/٤ وما بعدها، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٧٩ : ١٠٩ وغيرهم).

(٢٨) المصدر السابق : ص ٥٥ وماعدها.

(٢٩) أشرفيات جمع أشرفي والأشرفي دنانير ضربها الأمير صلاح الدين بن عرام، نائب السلطنة في دولة الأشرف شعبان بن حسين بعد سنة ٧٧٠هـ في الاسكندرية زنة كل منها مثقال، تحمل على وجهها عبارة «محمد رسول الله». وعلى الظهر: «ضرب الاسكندرية في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عز نصره». ثم أبطل ضربها فلم تكثر ولم تشتهر.
انظر : (القلقشندي : صبح الأعشى ٤٣٦/٣ – ٤٣٧).

(٣٠) سورة الاسراء : الآية (٨٠).

(٣١) ابراهيم رفعت : المرجع السابق ٢٧٦/١ وما بعدها.

(٣٢) هو السلطان مراد خان الرابع ابن السلطان أحمد الأول ابن السلطان محمود الثالث ولد سنة ١٠١٨ هـ (١٦٠٩م)، ولاة الانكشارية وتسلطن سنة ١٠٣٢هـ، ثأر من قتلة أخيه عثمان، وحارب العجم وفتح بغداد ١٠٤٨هـ وفي زمنه شهد المسجد الحرام أكبر عماراته، توفى سنة ١٠٤٩هـ (١٦٤٠م) وعمره ٣١ عاما بعد أن حكم نحو ١٧ سنة وتولى بعده أخوه ابراهيم (انظر في ترجمته سمط النجوم ٤ /١٠٧، ٤٥٨، محمد فريد بك المرجع السابق ص ١٢٤ : ١٢٨)– وغيرهم.

(٣٣) وردت هكذا في النص، والمعروف أن والي مصر من قبل الدولة العثمانية في هذه الفترة هو «بقيرجي أحمد» ولي في رمضان سنة ١٠٤٢هـ، وعزل في ٥ جمادى الأولى سنة ١٠٤٥هـ (انظر زامبور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص ٢٥٢).

(٣٤) البندقي دينار ضرب ببلاد الفرنجة والروم، معلوم الوزن، كل دينار يساوي ١٠ ونصف قيراط من المصري. واعتباره يصبح الفضة المصرية كل دينار زنة درهم وحبتي خروب يرجح قليلا.. وتلك الدنانير مشخصة، فعلى أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في عهده وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريّين اللذين بعث بهما المسيح عليه السلام الى رومية. لذلك تعرف بالمشخصة وبالافرنتية جمع إفرنتي والأصل إفرنسي نسبة الى مدينة افرنسة، ويطلق على المضروب منها في البندقة باسم دوكات.

والمعروف أن مجلس شيوخ البندقية قرر في ١ /١٠ /١٢٨٤م ضرب عملة ذهبية خاصة في أوربا سميت «دوكات» وعرفت في المشرق باسم «بندقي» أو «إفرنتي»، ووصفها مؤرخو مصر زمن المماليك باسم « المشخصة» لصور القيسين ودوق البندقية المنقوشة على وجهيها. وضربت فرنسا «الفلورين» الذي عرف في الشرق باسم «إفلوري» لكن لم يكن لها رواج في البندقي.

ويرى د. عبد الرحمن فهمي إن من أهم عوامل انتشار دوكات البنادقة على وجه التحديد بمصر والشام والحجاز واليمن هو دقة سك هذا النوع من النقود الذهبية من حيث استدارة القطعة تماما وثبات وزنها ٣٫٤٥١ جرام) وعيارها البندقي المرتفع، في حين تقابله دنانير مملوكية ليس لها عيار أو وزن أو سمك أو قطر ثابت محدد (انظر القلقشندي: صبح الأعشى ٣ /٤٣٧، عبد الرحمن فهمي: النقود العربية ماضيها وحاضرها ص ٩٥ ومابعدها).

(٣٥) انظر ملحقات رشدي ملحس على تاريخ الأزرقي جـ١ ص ٣٧٢، ومرآة الحرمين ١/٢٧٧.

(٣٦) السلطان أحمد خان الثالث ابن السلطان الغازي محمد الرابع. ولد في رمضان سنة ١٠٨٣هـ (ديسمبر سنة ١٦٧٣م)، أول من أدخل الطباعة في بلاده. من أعماله بالمسجد الحرام ميزاب من الخشب ذرعه نحو ٣٫٥ ذراع، البارز منه مصفح بالفضة المحلاة بالذهب واللازورد. نقش عليه اسم السلطان أحمد خان عام ١٠٢٠. وكان الجدار الشامي قد تصدع سنة ١٠١٩هـ على اثر سيل مكة، ودخلت المياه داخل الكعبة من سطحها وأراد السلطان أحمد هدم البيت وجعل حجارته ملبسة بالذهب والفضة على التوالي. فمنعه العلماء، فعمل طوقا من نحاس أصفر مغلفا بالذهب تكلف نحو ٨٠ ألف دينار وركب في أوائل سنة ١٠٢٠هـ. كما عمل حزام الكعبة المشرفة أسفل الصفيحة الذهب التي تعلو الباب والتي نقش عليها باللازورد من قوله تعالى: «إنّ أول بيت وضع للناس حتى قوله من استطاع اليه سبيلا». ونقش على الحزام اسم السلطان أحمد وتاريخ عمله سنة ١٠٢٠ وهي:

اللـــوح ذالما استـــرم فجـــددا	قد بدل السلطان أحمد عسجدا
قيدا له من حديـــد ذو جدا	الله أنعـــــم بالجدد وأيـــــدا
ألهمت مـن تاريخـــه لما بـــدا	اللوح ذا السلطان أحمد جددا

ولقد تآمرت الانكشارية على السلطان أحمد وأسقطته دون معارضة منه بعد أن ظل بالسلطنة نحو ٢٨ سنة، وبقي معزولا الى أن توفي سنة ١١٤٩هـ.

(انظر في ترجمته محمد فريد بك: المرجع السابق ص ١٤٢ وما بعدها وغيره).

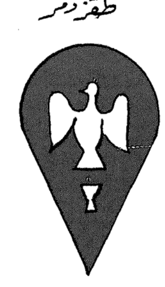
(٣٧) المصدر: الباب الجديد للكعبة المشرفة (بتصرف)، كتيب نشرته وزارة الحج والأوقاف بالمملكة العربية السعودية في هذه المناسبة (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، ومجلة «إقرأ» العدد ٢٤٣ ذي القعدة ١٣٩٩هـ، وغيرها.

(٣٨) سورة الحجر الآية (٤٦).
(٣٩) سورة المائدة الآية (٩٧).
(٤٠) سورة الاسراء الآية (٨٠).
(٤١) سورة الأنعام الآية (٥٤).
(٤٢) سورة غافر الآية (٤٠).
(٤٣) سورة الزمر الآية (٥٣).

شمس الدين الطنبغا



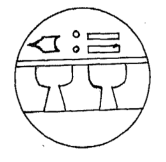
طقزدمر

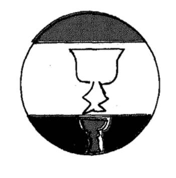


طغيتمر









قانى باى الجركسى

الرنوك الاسلامية

بقلم : مايسة محمود داود

بقلم : مايسة محمود داود

حظيت دراسة الرنوك الاسلامية خلال القرنين الماضيين باهتمام من علماء الآثار الأوروبيين والعرب ومنهم على سبيل المثال بريس دافين ''Prisse D'Avennes''وروجر ''Roger'' وماير ''Mayer'' ويعقوب أرتين، وجمال محرز، ومحمد مصطفى، وأبو الفرج العش، إلا أنه بالرغم من أهمية وجدية هذه المجهودات، فماتزال الرنوك الاسلامية التي شاع ظهورها على عمائر وفنون عصر المماليك بحاجة الى مزيد من الدراسات لتفسير مايكتنف بعض جوانبها من غموض.

والرنوك هي الشارات التي اتخذها السلاطين والأمراء منذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وحتى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) على عمائرهم وأدواتهم للدلالة على ملكيتهم لها، كما كانت تنقش على عملات السلاطين من الدنانير والدراهم والفلوس كحق شرف وامتياز لهم، وقد استخدم الأمراء هذه الرنوك للدلالة على الوظيفة التي يشغلها كل منهم، ثم أصبحت هذه الرنوك تتخذ منذ القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) رمزا للفرق العسكرية.

والرنك كلمة فارسية (رَنگ) تنطق رنج وتعني اللون، وقد عربت هذه الكلمة وأصبح حرف (گ) الجاف ينطق كافا، ولما كان اللون يلعب دورا أساسيا في رسوم هذه الشارات ويستخدم للتمييز بين الشارات المتشابهة من حيث الشكل، لاسيما الخاص منها بوظائف الأمراء، لذلك فقد اصطلح على تسميتها بالرنوك.

وقد عرفت الرنوك منذ أقدم العصور وان اختلف مدلولها قديما عن مدلولها في العصور الوسطى، اذ كانت قديما ترتبط بالعقائد والديانات فاتخذ المصريون القدماء السمك رمزا للحياة وشعارا للإله أوزوريس ورمزوا الى الالهة إيزيس بسمكتين متقابلتين مع أزهار اللوتس. كما كانت لبعض القبائل رايات تحمل صورا لمعبوداتهم، وقد اختير النسر شعارا للقوة أيام الحيثيين والاغريق؛ ثم أصبحت الرنوك تتخذ منذ بداية العصر الاسلامي على البيارق والرايات، فكان شعار العباسيين السواد ثم عدّله الخليفة المأمون وجعل شعاره ورايته الخضرة، كما كان شعار الفاطميين رايات يظهر على كل منها ثلاثة أشرطة كتابية تقرأ (نصر من الله وفتح قريب) ويزخرفها رسم أسد باللون الأحمر والأصفر، وهو مايذكره لنا المقريزي في حديثه سنة ٥١٧ هجرية عن الاحتفال بموسم أول العام الهجري.

وقد عرف العصر الأيوبي نوعين من الرنوك منها رنوك تعبر عن القوة والشجاعة، وهي خاصة بالسلاطين مثل رنك النسر الذي وجد ممثلا على قلعة صلاح الدين الأيوبي بالقاهرة، وأخرى ترمز الى وظائف الأمراء المختلفة، فقد عرف أن الأمير أيبك التركاني قد اتخذ رنك (الخونجة) أي المنضدة رمزا لوظيفته عندما كان يعمل جاشنكيرا للملك الصالح نجم الدين أيوب.

وقد لعبت الرنوك دورا كبيرا في العصر المملوكي لم تلعبه من قبل لما تميز به هذا العصر من رقي ورفاهية وثراء انعكس أثره على حياة الأمراء ورجال البلاط الذين تعددت وظائفهم بما يتناسب وحياة الأبهة التي عاشها سلاطين المماليك. وكانت الرنوك تنقش على عمائر السلاطين والأمراء وملابسهم وأدواتهم المختلفة، وكان السلطان أو الأمير يختار لونا معينا لتطلى به داره ومنشآته. وبلغ من أهمية الرنوك في ذلك العصر أن السلطان فرج بن برقوق عندما استولى على مدرسة جمال الدين محمود الأستادار محا إسمه ورنكه وسجل مكانهما إسمه، كما هدد خاير بك الحاكم من قِبل العثمانيين سكان مصر عندما وقفوا في وجه الغزاة أن من لايستقر في مسكنه سوف يضرب عليه رنكه وهو ما يدل على أن الرنك كان ينقش على كل ما يخص السلطان أو الأمير ووجوده عليه يدل على ملكيته

لها. وكان الناس عندما يعجبون بأحد السلاطين أو الأمراء من ذوي الأعمال الحسنة ينقشون رنكه على معاصمهم وأدواتهم.

وكانت الرنوك في بداية الأمر ترسم دون مناطق تحيط بها مثل رنك الببر الذي ظهر على قناطر أبو المنجّا التي شيدت للسلطان الظاهر بيبرس البندقداري، أو كما يحدث بالنسبة للأعلام والبيارق ثم أصبحت تحاط بمناطق دائرية أو لوزية الشكل مدببة من أسفل، أو تحدد بمناطق مفصصة أو بيضية أو مربعة. ويتألف الرنك من لون واحد أو لونين أو أكثر كما يحتوي على أكثر من درجة للون الواحد. وكانت الشارة ترسم بداخل الرنك مباشرة أو قد يقسم الرنك الى قسمين أو ثلاثة أقسام أفقية يسمى كل منها (شطبا) أو (شطفة)، وغالبا مايكون (الشطب) الأوسط أكبر من (الشطبين) العلوي والسفلي.

وتختلف بعض أسماء الألوان في علم الرنوك إذ يطلق على اللون الأزرق اسم "Azure" وهو مشتق من الكلمة الفارسية التي تطلق على حجر اللازورد وهو الحجر الأزرق "Lapis Lazoli".

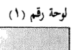
وقد بلغ ماوصلنا من الرنوك المملوكية على الآثار الثابتة والمنقولة حتى الآن حوالي خمسين رنكا.

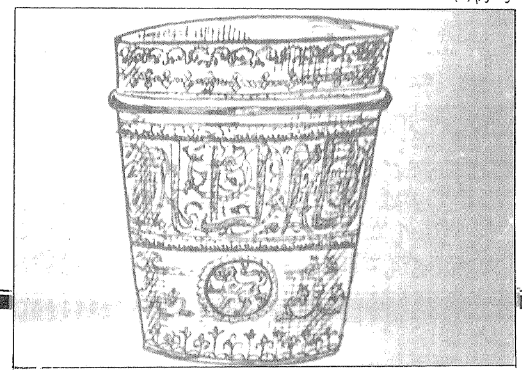
ويمكننا أن نقسم ماورد من هذه الرنوك على العمائر أو الفنون التطبيقية الى ثلاثة أنواع من حيث المضمون:

النوع الأول : رنوك مصورة ترمز الى القوة والشجاعة أهمها الببر والأسد والنسر وهي غالبا ماتخص السلاطين، يتخذونها شعارا لهم ورمزا لقوتهم مثل رنك الببر الذي يظهر على مشكاة بهيئة كوب كبير مخروطي الشكل مزود بأسفل فوهته بحلقة بارزة تحيط به لتثبت أسفلها حلقة من المعدن متصلة بسلاسل لتعلق منها وهي محفوظة ضمن مجموعة متحف اللوفر بباريس (لوحة

رقم ١) ويرجح نسبة هذه المشكاة الى السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الذي حكم من سنة ٦٥٨ الى ٦٧٦ هـ (١٢٦٠-١٢٧٧). إذ يتفق هذا الرنك الموجود على المشكاة مع مثيله على قناطر أبو المُنجَّا. وقد اتخذ السلطان بيبرس البندقداري الببر شعارا له للدلالة على قوته وماقام به من دور بطولي في حروبه وصده للخطر الصليبي، كما يقال أيضا بأن رنك بيبرس جاء مطابقا لاسمه لأن المقطع الأول منه وهو (ببر) يعني الفارسية فهد. ومن هنا كان الرنك له صلة أحيانا باسم السلطان أو الأمير فمثلا نجد أن اسم الأمير آقوش يعني طائرا أبيض، لذلك تذكر لنا بعض المراجع القديمة أن رنكه كان بهذا اللون.

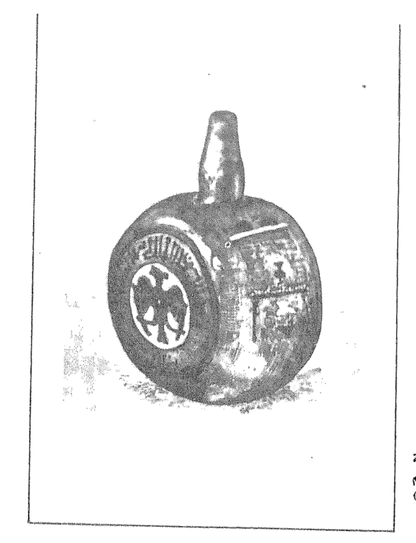
ومن الرنوك المصورة الخاصة بالسلاطين أيضا والتي ترمز الى القوة، رنك النسر الذي اتخذه السلطان موسى بن علي بن قلاوون (سنة ٦٨٧-٧١٨ هـ). كما يشاهد شكل النسر على مجموعة كبيرة من كِسَرْ من الفخار المطلي والخزف المرسوم باللون الأزرق تحت الطلاء الشفاف من العصر المملوكي والمحفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة والمتحف الوطني بدمشق وزمزمية من الزجاج المزخرف بالمينا والمموه بالذهب (لوحة رقم ٢). وقد يمثّل النسر برأسين متدابرين مثل رنك الملك الأرتقي الصالح محمود بن أُرتق صاحب كيفا على نقوده النحاسية.


لوحة رقم (١)



النوع الثاني : رنوك كتابية وهي خاصة بالسلاطين تسجل أسماءهم أو ألقابهم مصحوبة ببعض العبارات الدعائية لهم، وقد اعتاد الفنان أن يسجل كتابات هذه الرنوك بالخط الثلث أو النسخ، ومن أجمل الأمثلة على هذا النوع من الرنوك الرنك الكتابي الذي ظهر على شمعدان من النحاس المكفت بالفضة باسم السلطان أبو النصر قايتباي سنة ٨٨٧هـ (١٤٨٢م) ليوضع بمسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة، وهو محفوظ بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة، ومن الملاحظ أن الأطراف العليا للحروف تتقاطع على هيئة مقصات (لوحة رقم ٣). كما يظهر الرنك الكتابي أيضا على كثير من مجموعة مشكاوات السلطان حسن المحفوظة بنفس المتحف، ويقرأ بداخل الرنك بالخط الثلث الجميل عبارة (عز لمولانا السلطان الملك) دون ذكر اسم السلطان حسن إذ يبدو أن الفنان قد رأى أن مجموعة ذلك السلطان من المشكاوات ذات طابع فني فريد غني عن التعريف.

النوع الثالث : رنوك وظيفية وهي خاصة بالأمراء، وتنقسم بدورها الى نوعين؛ رنوك بسيطة وأخرى مركبة (لوحة رقم ٤)، أما النوع البسيط فهو مايحتوي على علامة واحدة تشير الى وظيفة الأمير. ومن الملاحظ أن الرنوك الوظيفية كانت تحتوي دائما على الأداة المستخدمة في الوظيفة ذاتها، فمثلا كان يرمز بالدواة والقلم الى وظيفة كاتب السلطان وهو ما يعرف (بالدوادار)، ويتألف الاسم من شقين؛ دواة وهي كلمة عربية تعني مكان حفظ المداد، و (دار) وهي كلمة فارسية تعني مُمْسِك. أي ممسك أو حامل الدواة للسلطان. كما كان يرمز بالكأس الى وظيفة الساقي أو ماعرف باسم (الشرابدار) وهي كلمة مركبة من مقطعين (شراب) وهو ما يشرب من ماء أو سوائل، والثاني (دار) ومعناه ممسك، أي أنها تعني ممسك أو حامل الشراب. ولم تكن وظيفة الساقي تقتصر على سقاية الشراب بل كانت تتضمن أيضا مد السماط وتقطيع اللحم، وربما سمي صاحب هذه الوظيفة بالساقي لأنها كانت تختص في بداية الأمر بسقاية المشروب ثم أضيف اليها بعد ذلك بعض المهام الأخرى، وربما سمي كذلك لأن سقاية المشروب كانت من الأعمال التي يختتم



لوحة رقم (٢)

بها عمله على المائدة. وهي من الوظائف الخطيرة والهامة نظرا لأن الساقي كان في إمكانه دس السم للسلطان، ومن هنا نشأت وظيفة أخرى ألا وهي وظيفة (الجاشنكير) الذي يتذوق الطعام والشراب قبل أن يتناوله السلطان، وقد عرف ساقي السلطان باسم ساقي الخاص الشريف، وكان يشرف على السقاة ديوان الخاص.

ومن الوظائف الهامة التي كانت تؤهل صاحبها للوصول الى مرتبة السلطنة وظيفة (الجمدار) وهي كلمة تتألف من مقطعين (جاما) وتعني باللغة التركية ثوب ودار. ويعني هذا الاسم المختص بملابس السلطان أو الوصيف، كما كان الجمدار يشترك في حراسة وملازمة السلطان، وكان يشار الى هذه الوظيفة بشكل (البقجة).

وكان يرمز الى المختص بشئون البريد وهو ماعرف (بمقدم البريدية) برنك

يتألف من شكل بغل أو حمار أو حصان يحمل فوق ظهره كيسا معقودا ربما كان خاصا بالخطابات التي يقوم بتوزيعها عامل البريد، ومن الطريف أن هذه الحيوانات المستخدمة في شئون البريد كانت تتميز بأنها مقصوصة الذيل حتى تتميز عن مثيلاتها من الحيوانات المستخدمة في الأغراض الأخرى، وقد نقلت تلك العادة عن الفُرْس إذ أن كلمة (بَرِيَدة دَمْ) فارسية الأصل وتعني مقصوص الذيل نسبة الى بغل البريد عند الفرس. ولم تكن مهمة عامل البريد في عصر المماليك تقتصر على نقل الرسائل بل نقل بعض الأشياء من بلد الى آخر وهي تذكرنا بالطرود في عصرنا الحديث، وقد تتعداها الى وظيفة التجسس لحساب السلطان أو الولاة. وكان عامل البريد يعلق برقبته لوحا من النحاس بشرابة من حرير أصفر يجعلها بين أكتافه يقرأ على أحد وجهيه شهادة التوحيد وعلى الآخر ألقاب السلطان، وذلك علامة على أن من يحمل هذه الشارة من عمال البريد. وينسب الى عامل البريد رنك آخر عبارة عن دائرة مقسمة الى ثلاثة (شطوب) أفقية خالية من الزخارف تماما.

ويعتبر رنك القوس من الرنوك الخاصة بالوظائف العسكرية وهو يشير الى وظيفة (البندقدار) وهي كلمة تتألف من شقين، الأول (بُنْدُق) وهو لفظ فارسي مُعرّب يعني البندق المستخدم في الركاية والحروب والثاني (دار)، أي أن الكلمة معناها ممسك البندق خلف السلطان، وهي رنوك الأمير أيدكين البندقداري رئيس فرقة رماة السلطان الظاهر بيبرس البندقداري.

ومن الرنوك الخاصة أيضا بالوظائف العسكرية رنك السيف الذي يرمز الى وظيفة (السلحدار) وهي كلمة مكونة من مقطعين؛ الأول منها (سلاح) وهي كلمة عربية أماالثاني وهو (دار) فهو فارسي، ومعنى الكلمة ممسك السلاح للسلطان أو للأمير كما كان يشرف على السلاح خاناه، ويقوم بحراسة السلطان، أما صغار (السلحدارية) فكانوا يشتركون مع الجمدارية في حراسة السلطان عند جلوسه في دار العدل، وكان يطلق على كبيرهم أمير سلاح. وكانت وظيفة (السلحدار) من وظائف الصغار وكان يتقلدها أحيانا بعض الأمراء الكبار الى



لوحة رقم (٣)

جانب مهامهم الكبرى الأخرى أو يشغلونها لفترة معينة. وممن تولوا هذه الوظيفة في عصر المماليك بهاء الدين اسلام (سلحدار) السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي توفى سنة ٧٤٧هـ (١٣٤٦م) والأمير إينال بن عبدالله اليوسفي اليلبغاوي الذي كان مملوكا ليلبغا العمري وقد عين أمير سلاح سنة ٧٧٩هـ (١٣٧٧م).

ومن الرنوك العسكرية أيضا رنك (العلمدار) أو حامل العلم الذي كان يتقدم المواكب والاحتفالات والجيوش أثناء الحروب، ويرمز إليه بشكل رايتين في وضع متدابر، كما عثر علماء الآثار أيضا على رنك عرف باسم (الهدف) وهو قريب الشبه من لوحة النيشان التي يتدرب العسكريون عليها لاصابة الهدف،

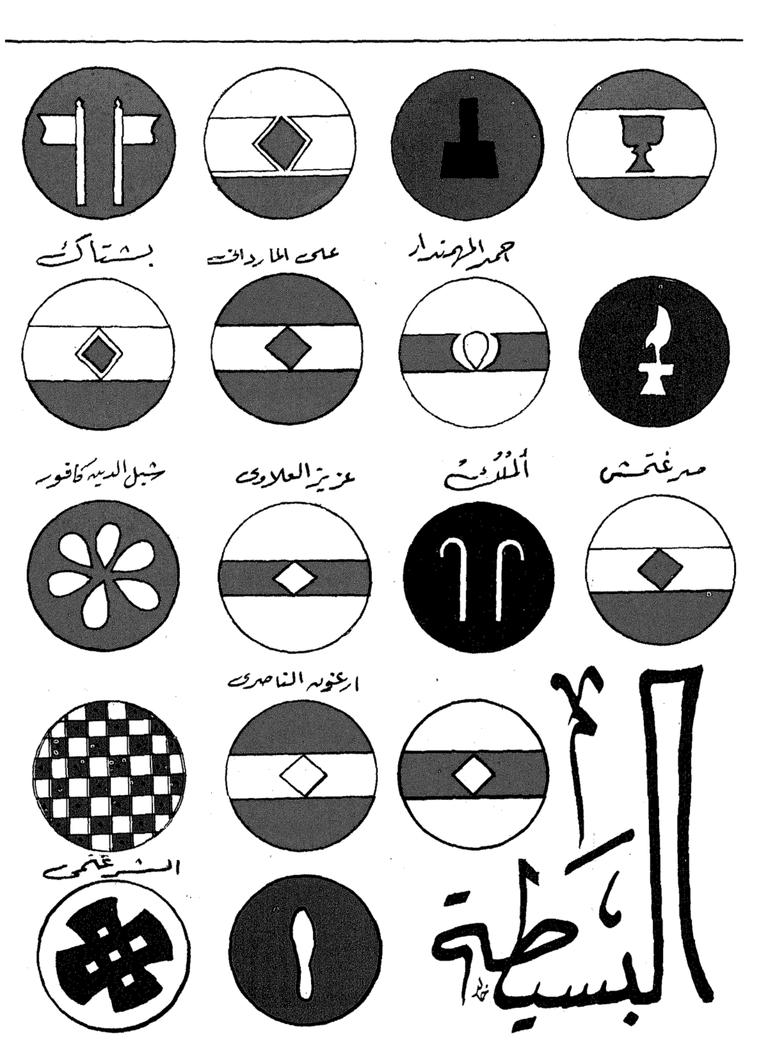
لذلك فمن غير المستبعد أن يكون هذا الرنك خاصا باحدى الوظائف العسكرية لا سيما وأنه قد نقش على مشكاة للأمير أُلْمَاسْ الذي كان يشغل وظيفة أمير حاجب الناصر محمد بن قلاوون ٧٣٠هـ (١٣٣٠م) وهي من الوظائف العسكرية.

وتعتبر دراسة الرنوك الإسلامية من الدراسات الحية التي تكشف لنا جانبا عن الحياة الاجتماعية في عصر المماليك، وتبين لنا مدى الرفاهية والانتعاش الاقتصادي في ذلك العصر الذي انعكس أثره على بناء العمائر والاهتمام بالفنون المختلفة وشئون الرياضة وألعاب التسلية كرياضة الصيد ومناقرة الديوك ولعبة البولو (الجُولْف) والشطرنج، وقد بلغ من اهتمام سلاطين المماليك بأمر هذه الألعاب أن عينوا لها من الأمراء من يشرف عليها، فقد اشتهر بإجادة لعبة البولو الأمير آل مُلُكْ (جوكندار) السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون والأمير قراسنقر والطنبغا وأيدمر. ومن المرجح أن صحة اسم شاغل هذه الوظيفة هو (جوكاندار) وهي تتألف من مقطعين الأول جوكان ويعني في اللغة الفارسية عصا البولو أو الصولجان، والثاني دار أي ممسك عصاتي البولو وهي من الألعاب المفضلة في عصر المماليك وقد نالت اهتماما واعجابا كبيرا من السلاطين والأمراء.

ومن الألعاب المفضلة التي نالت اهتماما كبيرا وحازت اعجاب السلاطين والأمراء لعبة الشطرنج، وقد عثرت في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة على كسرة من آنية من الفخار المطلي من عصر المماليك نُقِشَ عليها شكل دائرة مقسمة الى مربعات باللونين الأبيض والأسود بالتبادل وقد رُقِّمَ كل مربع منها، ويتضح من ذلك الشكل أنه الرنك الخاص بلعبة الشطرنج. كما استرعى انتباهي في أشكال الرنوك التي جمعها ماير رنكا لم يُدْرَس ولم تعرف دلالته وهو يمث رسما لنعل حذاء مما يرجح معه أنه رنك (البشمقدار) المختص بالباس السلطان نعليه. (لوحة رقم ٤)



بيبرس البندقداري
أيدكين البندقداري
قوصون
بهاء الدين إسلام
اينال
أحد أمراء السلطان حسن
ألماس
علاء الدين يلكتمر
تنكيز
شيخو
زين الدين مبارك
تنكيز بغا
أقتغر
نجم الدين محمود
الطنبغا الماردانى
اقبغا
الرنوك



بشتاك
على الماردانى
محمد المهمندار
شبل الدولة كافور
عزيز العلائى
الملك
صرغتمش
ارغون الناصرى
البسيطة

ومن هنا يتضح لنا أن الرنك الوظيفي كان يشير الى الوظائف الكبرى (كأمير سلاح) أو (دوادار) كبير، كما يشير أيضا الى الوظائف الصغرى التي لم يكن يتقلدها كبار الأمراء مثل (الجوكندار) و (العلمدار) أو (البشمقدار). وهذا أيضا يقودنا الى سؤال وهو ألم يكن لكبير الوقادين أو المشرف على اضاءة المساجد رنكا خاصا بوظيفته؟ لا سيما وأنها من الوظائف الهامة في الدولة لأنها تختص بانارة بيوت الله التي نالت عناية كبرى من الدولة. ومن حسن الحظ أنني عثرت على الإجابة على هذا التساؤل من خلال دراسة الرنوك الاسلامية أثناء عملي كأمينة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة، فقد لاحظت رسما لشعلة على كسرة من آنية من الفخار المطلي بالمينا، كما عثرت أيضا على كسرة أخرى من نفس النوع تحمل رنكا بداخله رسم شمعدان، مما يرجح معه أن هذين الرنكين يشيران الى وظيفة الوقاد، لا سيما وأن الرنك الوظيفي كان يحتوي دائما على اداة المستخدمة في الوظيفة. إلا أنه من غير المستبعد أن يكون الرنك الذي يحتوي بداخله على رسم الشعلة يشير إلى الوقاد المختص بإنارة فنار أبو قير بالاسكندرية والذي عرف (بالدزدار) كما ورد بوثيقة سليمان باشا رقم ١٠٧٤ المحفوظة بوزارة الأوقاف بالقاهرة. أما الرنك الذي يحتوي بداخله على رسم الشمعدان فربما يشير الى الوقاد المختص بإيقاد أدوات الإضاءة من شماعد وتنانير ومشكاوات وفوانيس.

ومن الجدير بالملاحظة أن الرنوك الوظيفية لم يكن وراثية إذ لا يشترط أن يكون ابن الساقي ساقيا أو ابن (الجمدار) (جمدارا) وإن كان الابن يحتفظ أحيانا برنك أبيه للذكرى أو للافتخار مثل بركة خان الذي حمل رنك والده السلطان بيبرس البندقداري، كما حمل أنوك شعار جده السلطان قلاوون، لذلك فكثيرا ماكان يشترك في الوظيفة الواحدة أكثر من أمير مما أدى الى تشابه رنوكهم من حيث الشكل الى درجة يصعب معها أحيانا التمييز لأول وهلة بين رنك كل أمير وآخر خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن الرنك كان يتغير غالبا بترقي الأمير الى وظيفة أخرى، كما كان البعض منهم يعتز برنوك وظائفه القديمة ويحتفظ بها أحيانا، وبذلك كان لبعض الأمراء أكثر من رنك واحد، ومن

هنا فقد اعتمد الفنان أساسا على اللون للتمييز بينها خصوصا على الأدوات أو التحف التي أتاحت له مجالا كبيرا لاستخدام الألوان بحرية، مثل المشكاوات والأواني الزجاجية المزخرفة بالمينا والمموهة بالذهب، التي استخدم في زخرفتها عدة ألوان في حين لم تتح للفنان مثل هذه الفرصة على تحف هذا العصر من الفخار المطلي بالمينا أو المعادن المكفتة بالذهب والفضة، لذلك فقد لجأ الفنان الى استخدام درجات اللون الواحد للحصول على أكبر عدد من الألوان للاستعانة بها في التمييز بين الرنوك المتشابهة (لوحة رقم ٤).

ومن هنا يتضح لنا أن ألوان الرنوك أو أشكالها كانت لا توضع بطريقة ارتجالية بل كانت تسير وفق أسلوب مقنن يخضع لقوانين مدروسة اختص بها ديوان أو جهاز خاص بالدولة حتى لا تختلط رنوك الأمراء بعضها ببعض. ومن المرجح أن تنظيم الرنوك كان من اختصاص ديوان الانشاء الذي كان يقوم أيضا بوضع ألقاب السلاطين والأمراء والمراسم الديوانية، والدليل على ذلك أننا لو درسنا بدقة رنك كل أمير لوجدناه يختلف عن الآخر سواء من حيث الشكل العام أو المضمون أو الترتيب أو الألوان ودرجتها. ومن هنا نجد أن دراسة الرنوك تفيدنا في التعرف على صاحب الرنك سواء أكان سلطانا أو أميرا.

أما النوع الثاني من الرنوك الوظيفية فهو الرنك المركب، وهو مايحتوي على أكثر من علامة واحدة في الرنك، وكان يشير الى الوظائف التي تقلدها الأمير ثم أصبح الرنك المركب منذ القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) غير شخصي أي عاما يشير الى جماعة من المماليك أو الفرق العسكرية التي ينتسب كل منها الى أحد السلاطين كالظاهرية نسبة الى الظاهر بيبرس والأشرفية نسبة الى الأشرف خليل بن قلاوون والمؤيدية نسبة الى المؤيد شيخ (لوحة رقم ٤).

وقد بدأ الرنك بعلامتين ثم تدرج حتى وصل الى تسعة علامات في رنك السلطان قانصوه الغوري، ومن الأمثلة على هذا النوع من الرنوك رنك مركب

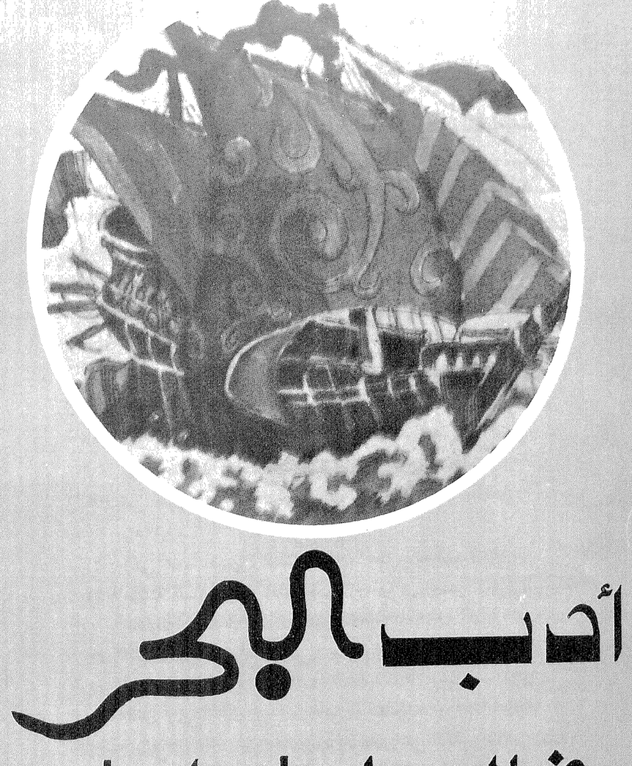
للأمير قاني باي الشركسي مملوك السلطان المؤيد يظهر على رقبة مشكاته المحفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة، ويتألف من ثلاثة شطوب يحتوي الشطب العلوي منها على رسم سيف ربما يرمز الى انتماء قاني باي الى فرقة عسكرية معينة اتخذت السيف شعارا لها، وقد تشير الى احدى وظائفه، أما الشطب الأوسط فيتألف من شكل دواة وهي ترمز الى وظيفة الأمير قاني باي الذي شغل منصب كبير (دوادار) السلطان شعبان سنة ٨٤٩ هـ (١٤٤٥ م). أما الشطب الأسفل فيمثل كأسا يحيط بها علامتان تمثلان القرون التي يحفظ فيها البارود أو مايسمى (بسراويل الفُتُوَّة) وربما كانت هذه العلامة هي شعار الفرقة التي تلبس سراويل الفتوة وترمي البندق باسم السلطان. ومن المعروف أن الأمير قاني باي قد شغل وظيفة (شاد الشرابخانة) التي عُبِّر عنها في هذا الرنك بالكأس، ومن الملاحظ أن قرون البارود لم تظهر قبل منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي). وقد انتهى نظام الرنوك بانتهاء عصر المماليك سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م)وبداية عصر العثمانيين.

المراجـــع

1. D'Avenns: L'art arabe, texte.
2. Roger: Le blason chez les princes musulmans de L'Egypte et de la Syrie, vol. 2, B.I.E. 31.
3. Mayer: Saracenic Heraldry, Oxford, 1933.
4. Artin: Description de six lampes de mosquee en verre émaillé.
5. —: Trois différentes armoiries du Kait Bey, B.I.F., 1899.
6. Cresswell: The Muslim Architecture of Egypt, Oxford, 1932.
7. Wiet: Lampes et bouteilles, catalogue du Musée arabe.

٨- جمال محرز : الرنوك المملوكية، مجلة المقتطف، عدد ٥، مجلد ٩٨، مايو ١٩٤١ م.

٩- محمد مصطفى : الرنوك المملوكية، مجلة الرسالة، عدد ٤٠٠، ١٩٤١م.
١٠- أبو الفرج العش : الشعارات الموجودة على الأواني الفخارية، مجلة الحوليات السورية، مجلد ١٠، ١٩٦٠م.
١١- سعاد ماهر : مساجد مصر، جـ٣، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، ١٩٧٩م.
١٢- محمد موسى هنداوي : المعجم في اللغة الفارسية.
١٣- وهيب كامل : هيرودوت يتحدث عن مصر، القاهرة ١٩٤٦م.
١٤- ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ١، القاهرة ١٩٣٦م.
١٥- ابن خلدون : مقـدمة.
١٦- علي مبارك : الخطط التوفيقية، بولاق، ١٣٠٦ هـ.
١٧- المقريـزي : الخطط، بولاق، جـ١، ٢.
١٨- الفيروزابادي : القاموس المحيط، جـ٤، ١٩٣٣م.
١٩- ابراهيم طرخان : مصر في عصر المماليك الجراكسة.
٢٠- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ٧، ١٩٥٦م.
٢١- زكي محمد حسن : تراث الاسلام، جـ٢، القاهرة، ١٩٣٦م.
٢٢- مايسة محمود داود : المشكاوات الزجاجية في العصر المملوكي، رسالة مخطوطة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧١م.
٢٣- القلقشندي : صبح الأعشى، جـ٥، القاهرة، ١٩١٩م.
٢٤- أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، جـ٣، الحسينية، ١٣٢٥هـ.
٢٥- أحمد تيمور : التصوير عند العرب، القاهرة، ١٩٤٢م.
٢٦- حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار، جـ٢، القاهرة، ١٩٦٥-١٩٦٦م.



أدب البحر في الف ليله وليله

بقلم / أحمد محمد عطية

مهدت قصص التجار العرب البحرية لظهور قصص السندباد أعظم أعمال أدب البحر اكتمالا وتأثيرا في التراث الشعبي العربي وفي الأدب العالمي كله. فظهرت «رحلات السندباد» أولا ككتاب مستقل، ثم ضمنتها ألف ليلة وليلة مع مجموعة من القصص البحرية العربية الأصل، وشكلت أكثر أعمال أدب البحر العربي عبقرية، فنيا وعلميا. كما أفادت هذه القصص البحرية بدورها في تطور أدب البحر عند العرب فيما بعد على أيدي ابن ماجد وملاحي الخليج في أدب المرشدات البحرية، «الرهنامج» أو «الرهماني»، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

ومعروف أن ألف ليلة وليلة من أهم أعمال الأدب الشعبي العربي، بالرغم من أصلها الهندي وترجمتها الفارسية، الا أنها بصياغتها العربية واضافاتها العربية الكثيرة وأسمائها العربية للمدن والملوك ووقائعها العربية وروحها العربية، تعد عملا من أعمال العبقرية العربية في الأدب الشعبي.

وقد نقل العرب قصص ألف ليلة وليلة مرة عن كتب الفرس التي ترجم اليها الأصل الهندي الأول، ثم تعددت الصياغات والاضافات العربية مع تداول القصص حتى صارت الى صورتها المعروفة لدينا. ومن هنا اجتمع لألف ليلة ثلاثة مصادر: الأصل الهندي والترجمة الفارسية والاضافات العربية التي تشكل حجما كبيرا لأنها نقلت نقلا من كتب الأدب العربي وأخبار الرحالة والتجار العرب. والى هذه المصادر العربية ترجع قصص ألف ليلة وليلة البحرية.

وتقول الدكتورة سهير القلماوي في رسالتها عن «ألف ليلة وليلة» أنها «مجموعة من القصص المتفرقة كان القصد من كتابتها تسلية العامة شفاها، وتسميعا». وأنها عاشت «قرونا متتالية يتحكم فيها ذوق السامعين فلا يجد هذا التحكم من القاص أقل تحرج من التلاعب بالأصل بأقصى مايمكن أن يكون

التلاعب. ولقد ساعدت على هذا طبيعة الأثر نفسه»، وأنها تضم «مجموعات مترجمة من القصص الهندية والفارسية ومجموعات مما روي في اللغة العربية على أنه أخبار، أو قصص قديمة ذكر في بعض مصادر التاريخ انها كانت كتبا مستقلة كقصة السندباد وشماس أو السبع وزراء، بل ان هذه القصص مالايزال نابيا في المجموعة تظهر اضافته واضحة قوية». وأنها «مجموعة من القصص تختلف عصورها وأصولها ومواطنيها، لا شيء يحكم ربط أجزائها على هذا النحو ولا شيء يحد من مادتها، وكذلك لا نعرف اسم مؤلف واحد ولا اسم قاص واحد ممن ألفوا قصصها، أو قصوها بأسلوبهم»(١).

ويتفق معظم الباحثين في ألف ليلة وليلة على أن قصة السندباد عربية الأصل وأنها وجدت في نسخ مستقلة وفي كتاب يحمل اسم السندباد، وأنها أضيفت الى النص الأول لألف ليلة وليلة. بل ويرى البعض (مثل رودي باريت) أن القصص الأخرى الواردة في النص الأول لألف ليلة وليلة ترجع الى أساطير عربية انتشرت في الهند وفارس قبل ظهور الاسلام. ولعل هذا هو ما يفسر التشابه في الفكر والجوهر في معظم القصص وترديد الكثير من الأسماء العربية والأحداث العربية بها.

صدرت أول ترجمة فرنسية من ألف ليلة وليلة لأنطون جالان في أوائل القرن الثامن عشر، ونشرت في أجزاء في السنوات من ١٧٠٤–١٧١٣. وعن هذه الترجمة الفرنسية صدرت الترجمات الأخرى باللغات الأوروبية في القرن الثامن عشر أيضا بالانجليزية والايطالية والهولندية والدانمركية والروسية والألمانية وغيرها. ثم صدرت ترجمات أخرى في القرن التاسع عشر اعتمادا على النص العربي الصادر عن مطبعة بولاق، مثل ترجمة الدكتور ج.ك. مردوس الصادرة في ١٦ جزء في السنوات ١٨٩٩–١٩٠٦. أما في العربية فان أكمل طبعاتها هي طبعة بولاق الصادرة في سنة ١٨٣٥م. أما الطبعات الأخرى فهي غير كاملة تمتلىء بالاضافة والحذف. وترجع أقدم النسخ الى القرن الرابع الهجري والقرن العاشر.

وقد نالت ألف ليلة وليلة من اهتمام الغرب، علماء وكتاب وفنانين وقراء،

أكثر مما حدث في الشرق العربي، وجذبت اهتمام المستشرقين والرحالة والأدباء والدارسين والتجار في الغرب، نحو الشرق. وأثرت فنون الأدب الغربي والرسم والموسيقى والمسرح، من قصص الأطفال لدى هانز اندرسون الى روبنسون كروزو، ورحلات جلفر، وروايات «الرسائل الفارسية» لمونتسكيو و «الحلي غير المتحفظة» لديدرو و «كانديد» لفولتير، ورحلات جول فيرن وكتب هـ. جـ. ويلز، وهرمان ملفل مبدع الرواية البحرية العظيمة «موبي ديك» فـ«منذ شبابه تعرف ملفل على ألف ليلة وليلة. وفي شظايا التي كتبها وهو بعد مراهق يقتبس ملفل على نحو موسع في قراءاته هذه ويشير اليها على نحو واضح»(٢).

وقد ظهر التأثير جليا في بعض عناوين المؤلفات الأدبية مثل «ألف سهرة وسهرة» و «ألف ساعة وساعة»، كما تجلى بصورة أوضح في مضامين الأعمال الأدبية الفرنسية وفي الجو العام السائد في تلك الأعمال. وكان تأثير القصص البحرية هو التأثير الغالب في الأدب الغربي «فانتشرت الكليشيهات المعروفة مثل العواصف البحرية والغرق والجزر الخالية ومصارعة الكائنات الخيالية والتغلب عليها (لأن البطل يجب أن ينتصر دائما) والتنكر بزي الجنس الآخر.. وظهرت كذلك في الرواية الفرنسية الجنيات والحوريات والسحرة والحيوانات المسحورة وجبال المغناطيس..» كما كتبت كثير من الأعمال الأدبية العالمية بتأثير حكايات السندباد البحري، وأشهرها رواية «كانديد» لفولتير-«فان سفر كانديد الى الدوراد ويشبه كثيرا مغامرات السندباد البحري، كما وان بطل فولتير قدري كالسندباد»(٣). وحكايات الكاتب الألماني فيلهلم هاوف الذي تأثر بحكايات السندباد ونسج حكاياته على منوالها وذكر في حكايته عن «السفينة الشبحية» عبارة عن كنوز السندباد البحري. «ووجود هذه العبارة في حكاية هاوف يدل دلالة واضحة على أنه عرف حكاية السندباد معرفة تامة، وتأثر بها وهو يكتب حكايته، بل هو يشير بذلك الى مصدرها. فالواقع ان ما وقع لبطله عندما غرقت سفينته يشبه ما وقع لعبدالله بن فاضل من ناحية، وما وقع للسندباد البحري في سفرته السادسة من ناحية أخرى. فبطل حكاية السفينة الشبحية من البصرة مثل عبد الله فاضل. وقائد السفينة يعلن أنه لا يعرف طريق البحر حتى يستطيع أن يتجنب العاصفة التي ستهب بعد حين، ومن ثم يأمر

بطي القلوع، فتستمر السفينة في سيرها، ثم تهب العاصفة فيهتف: لقد ضاعت سفينتي، فهاهو الموت قد نشر شراعه هناك! وهكذا غرق ركاب السفينة، ولم ينج من ذلك سوى أحمد وخادمه مولاي»(٤).

وتأخر الاهتمام بألف ليلة وليلة علميا في الشرق العربي بالرغم من انتشارها الواسع بين العامة والقراء العاديين، فظلت بمنأى عن الدراسات العلمية واهتمام المثقفين حتى خصصت د. سهير القلماوي، بتشجيع من الدكتور طه حسين. رسالتها للدكتوراه عنها وكان هذا هو أول اعتراف علمي بالأدب الشعبي وبفن الحكايات الشعبية في جامعاتنا العربية. ثم توالت اهتمامات الكتاب والدارسين العرب بألف ليلة وليلة بعد دراسة د. سهير القلماوي الرائدة (سنة ١٩٤١)، من الدكتور حسين فوزي في كتابه «حديث السندباد القديم» الى الأديب اللبناني فاروق سعد وكتابه «من وحي ألف ليلة وليلة» وكتاب «الفن الأدبي» «نظرة في أدبنا الشعبي» عن ألف ليلة وليلة وسيف بن ذي يزن. مرورا بالفصول المختلفة التي كتبها كبار الكتاب مثل أحمد أمين وأحمد حسن الزيات، وانتهاء بكتاب «الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة» (بغداد ١٩٧٨) للباحث أحمد محمد الشحاذ، وفيه يقدم تفسيرا سياسيا لألف ليلة وليلة.

غير أن للدكتور حسين فوزي فضل الريادة في دراسة القصة البحرية العربية في ألف ليلة وليلة في بعض فصول كتابه «حديث السندباد القديم». فلم ينل هذا الموضوع عناية أحد سواء من قبله وحتى اليوم. على قدر علمي. وقد اتجه الدكتور حسين فوزي الى القصة البحرية بدافع من حبه للبحر. واستعار من ألف ليلة وليلة اسمه الأدبي الذي طبع به كل مؤلفاته اللاحقة «سندباد».

وقد اعتمدنا في دراستنا لألف ليلة وليلة على طبعة دار الشعب المصرية التي أعدها أحمد رشدي صالح الناقد والباحث المعروف في فنون الأدب الشعبي، لأنها أكمل الطبعات التي حافظت على القصص والحكايات والنوادر كاملة وبنفس ترتيبها، ولم يقم بأي تدخل بالاضافة أو الحذف، الا من بعض العبارات القليلة التي تخدش الحياء وتمس الآداب العامة ولاتؤثر في شكل الحكايات أو مضمونها.

تبدأ ألف ليلة وليلة بحكاية تمهيدية معروفة عن اكتشاف الملك شهريار لخيانة زوجته له مع أحد عبيده السود، وتصميمه على الثأر من جنس النساء كله، بقضاء ليلة مع احدى بنات الجنس ثم قتلها. غير أن شهرزاد تنجح في وقف تلك المذبحة الثأرية اليومية بقصصها وحكاياتها المتتابعة والمتفرعة الى نوادر كثيرة. وفي دراسة عن «ألف ليلة وليلة وفن الحكاية الشعبية» يقدم أحمد رشدي صالح تفسيرا عقلانيا لموقف شهريار وشهرزاد في هذه الحكاية التمهيدية. فينفي عن شهرزاد صفة السفاح، بل يراه في صورة الزاهد الذي بدأ يرفض حياته وهجرته من مقر حكمه، ثم استرداده لوعيه بعد معرفته بحكاية خيانة الجارية للمارد، وتصميمه على الانتقام. ويقول رشدي صالح «بأن شهريار قد أصبح انسانا يمر بأزمة فكرية نفسية» وأنه كان انسانا قلقا يبحث عن حل أجدى من قتل العذارى. وأن شهرزاد قد أعطته ماكان يبحث عنه. في شكل مئات القصص والمعلومات وأخبار غرائب الكون والطبيعة وأخبار الملوك والصعاليك. وبذلك فتحت شهرزاد آفاق عقله مع الحكايات والنوادر التي أخذت تفرج من أزمته وقلقه. وأن ألف ليلة وليلة مهدت لشخصية شهرزاد بما روته عن قراءاتها العميقة الواسعة في كتب التاريخ والسير والعلوم والآداب. «فشهرزاد – اذن – كما يقول رشدي صالح، عقل ناضج ومعرفة كاملة أو هي أداة تستعرض من خلالها شتى الأخبار والسير ومختلف الأقوال والحكم. وأما شهريار فيتطلع الى معطيات هذا العقل والمعرفة: والحكايات ذاتها خيوط تتسع، وتتلاحم، فتنمو في شهريار – ذلك الانسان المتوتر القلق الذي كان يسفك دم العذارى – شخصية شهريار طالب المعرفة»(٥). وهو تفسير معقول لكل ماحوته ألف ليلة وليلة من معلومات وأخبار وصياغة قصصية فنية تستوعب أسلوب الحكاية الشعبية، القائم على ذكر الحدث الأصلي والتفرع منه الى أحداث فرعية ثم الارتداد الى الحدث الأصلي. فالبناء الفني قائم على الاستطراد وتراكم النوادر الفرعية وهذا التراكم يؤدي بدوره الى تفريج الأحداث الأصلية للقصة، فالتراكم يعمل على نقيضه أي يؤدي الى الانفراج. ويقول رشدي صالح ان وظيفة النوادر الفرعية انها تساعد على تركيب الحكايات الأصلية وشرحها وايضاحها وتفسير ظواهر الطبيعة والبشر.

أما الدكتورة سهير القلماوي فترى طبيعة الكتاب القائمة على التدوين قد أحدثت أثرين في الشكل الفني لقصص ألف ليلة وليلة. الأول انها ألجأت القصاص الى نقل معلومات جاهزة من الكتب عن عجائب البحار والخلق وأخبار الملوك والأدباء وغيرها من القصص المعروفة في البلاد التي اتصل بها المسلمون. والأثر الثاني أن هذا التدوين ساعد على الارتفاع بمستوى القصص الشعبي المتداول، والمعروف لدى شعوب المنطقة، باثراء تلك القصص بالخيال والأخبار والمعلومات والحرص على جودتها فنيا، وذلك جنبا الى جنب مع القصص العربية الأخرى المنقولة بسذاجتها من البيئات العربية. لذلك جاءت بعض القصص العربية منقولة بحالتها من كتب الأدب دون تصرف أو صياغة فنية مثل أخبار المعلمين والصالحين. بينما لعب الفن دوره في بقية القصص الأخرى فأضافت عبقرية الفنان الخلاقة الى الحكايات، عند نقلها من كتب الأدب الى ألف ليلة وليلة. أما طريقة القص الحافلة بالاستطراد والتكرار فهي مألوفة في كتب الأسمار العربية.

ولا شك أن حكايات السندباد ورحلاته السبع هي أعظم القصص فى أدب البحر عند العرب وأكثرها تعبيرا عن عالم البحر، أو كما يقول الدكتور حسين فوزي انها «القصة البحرية الكبرى في الأدب العربي، وهي فوق هذا كله واحدة من أهم قصص البحار في آداب العالم..» وانها «قصة جغرافية تلخص المعارف البحرية عند العرب في القرون الوسطى» لأن «البحر في قصة السندباد هو الغاية التي تنتهي اليها القصة. البحر هو ممثلها الأول (البروتاجونست) أو أنها حوار بين اثنين البحر والسندباد. حوار يتطور من الهدوء الى العنف، ومن تبادل الود الى تداول اللكمات، والمناجزة والصراع»(٦).

ويرى المستشرق «اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي» انها تتصل بالة البحرية العربية السابقة للتجار العرب، وانها عرفت أولا ككتاب عربي مستقل أضيفت الى قصص ألف ليلة وليلة، وانها ليست خرافة. اذا استبان من أبحاث رينودي خويه وفيران أن أسفار السندباد انبعثت في نفس الوسط الذي نشأت فيه قصص التاجر سليمان وفي نفس مواضعها أيضا أي سيراف والبصرة

وبغداد، بل وفي نفس العصر تقريبا أي حوالي عام ٩٠٠.. ويرجع كازانوفا تاريخها بالتحديد الى عصر الرشيد، أما مسرح حوادثها فهو الهند وأرخبيل الملايو، وقد أمكن تحديد بعض حوادثها بالكثير من الدقة». ويعرض كراتشكوفسكي لتأثير السندباد في سير القديسين في أوائل العصور الوسطى وفي أساطير المسيحية الأوروبية، فيقول أن «أسطورة براندان التي ترجع الى أوائل القرن الحادي عشر مدينة بالكثير في بعض مواضعها لهذه القصص»(٧). وهذا كله يؤكد عروبة قصة السندباد ورحلاته وتمثيلها للثقافة العربية ولأدب البحر العربي في زمانها.

بدأت شهرزاد تروي حكاية السندباد للملك شهريار في نهاية الليلة الثامنة والعشرين بعد الخمسمائة. واستمرت الحكاية عبر الليالي التالية حتى الليلة السابعة والخمسين بعد المائة الخامسة. وهذا التقطيع في الحكايات عبر الليالي هو الأداء الفني المميز في ألف ليلة وليلة للتشويق وشد المتلقي الى نهاية الحكاية. وحددت شهرزاد من الحكاية بأنها وقعت في عهد الخليفة هارون الرشيد. واستهلتها بحكاية تمهيدية عن لقاء السندباد «الحمال»، الذي يعمل حمالا على البر، بالسندباد البحري في قصره الفاخر بعد استماع الأخير لحديث الأول عن حكمة الله في توزيع الأرزاق ومقارنته بين فقره وعمله الشاق وبين قصر السندباد البحري الفخم وبساتينه المورقة المثمرة وآيات الثراء والوفرة لديه. وفي هذه الحكاية نطالع الجو العربي والأخلاق الاسلامية والطقوس الاسلامية أيضا كالتسليم بالقضاء والقدر وتقسيم الأرزاق وتكرار ذكر اسم الله تعالى، وغير ذلك من العادات العربية والجو العربي.

وتمهد هذه الحكاية لحكايات أسفار السندباد البحري، الذي يقرب السندباد الحمال من مجلسه ويكرمه ويخبره بأنه جمع ماله وأقام قصره بعد عناء وتعب في رحلاته السبع الشاقة، ويسردها على مسامعه. وهكذا تتفرع الحكاية الأصلية الى سبع حكايات فرعية، تحمل كل منها حكاية رحلة من رحلات السندباد البحري، موزعة على عدة ليالٍ، ثم تختتم كل حكاية من الحكايات السبع بالعودة الى الحكاية الأصلية وهو الشكل المتبع في حكايات ألف ليلة

وليلة. وهكذا تجمع الحكاية بين الزمنين الماضي والحاضر، وتمزج بين وتستخدم أسلوبا فنيا متقدما أقرب الى الرجوع للخلف (الفلاش با المستخدم في القصة الحديثة.

جمعت حكاية الرحلة الأولى للسندباد البحري بين المغزى الفكري، و أدب البحر. بين دعوة السندباد البحري الى الكفاح والكد والمغامرة في الحيا وبين التمرس بأسفار البحر وتجارته وأنوائه ومغامراته. ويذكر السندباد البحر بعض أبيات الشعر العربي دون ذكر لقائلها تأكيدا لقوله للسندباد الحمال ب الأرزاق توزع حسب الاجتهاد والكد، ونكتفي منها بهذين البيتين:

بقدر الكد تكتسب المعالي ومن طلب العلا سهر الليالي
يغوص البحر من طلب اللآلي ويحظى بالسيادة والنوال

وهكذا يبدو البحر مجالا للكفاح والعمل الشاق من أجل حياة أفضل هذا جانب الفكر في الحكاية الأولى. أما جانب البحر، فانها امتداد لقصص تجار البحر العرب، تجمع بين المعارف البحرية الشائعة في زمانها وابداع الخيا والخلق الفني. فالسندباد البحري في هذه الحكاية، ضاقت به الحياة على الأرض بعد سعة. فباع ماتبقى لديه من ميراثه واشترى بثمنه بضاعة للتجا عبر البحار، عملا بقول الشاعر بأن الغوص في البحر هو طريق الفوز باللآلي وتحقيق الآمال الكبار. ومن ثم اتجه من بغداد الى ميناء البصرة منطلق التجار العرب الى البحر ملتقاهم. ويركب السندباد سفينة تحمل أمثاله من التجار العرب مع بضائعهم، ويركب البحر ويهبط الجزر والشواطيء، يبيع ويشتري ويقايض ويتبادل البضائع، ويتنقل من بحر الى بحر ومن جزيرة الى جزيرة حتى يصل الى جزيرة جميلة كأنها الجنة، فينزل بها مع بقية التجار، ويضع رحاله ويشعل لهم المواقد. غير أن ربان السفينة يصرخ فيهم محذرا بأنهم يقفون على سمكة ضخمة (ربما عنى بها الحوت)، وأنهم أيقظوها بنيرانهم، وأن عليهم ترك كل شيء وأن يهرعوا فورا الى السفينة قبل اقلاعها. فيلحق بالسفينة من يلحق

ويغرق الباقون عندما تأخذ السمكة الهائلة في التحرك والغوص في الماء بماعليها.

ويفلت السندباد البحري من السفينة ومن الغرق. ويتعلق بقطعة خشبية ويكافح الأمواج والرياح، حتى يهبط بجزيرة ظل يأكل من فاكهتها ويخلد للنوم الى أن يكتشفه أهل الجزيرة ويقودونه الى ملكهم، الذي يقربه من مجلسه، بعد أن سمع بقصة كفاحه البحرية. وفي هذه الجزيرة يسمع السندباد البحري بقصة حصان البحر الذهبي الذي يظهر مرة كل شهر على ساحل الجزيرة ويحاول جذب خيولها البرية الى قاع البحر ولكنه يفشل في ذلك نظرا لأنها مقيدة، فيعاشر احداها مرة كل شهر لتحمل «وتلد مهرا أو مهرة تساوي خزانة مال». والبحر في هذه الحكاية هو عالم بالغ الثراء والاتساع والغموض، يمنح ثروته لمن يكد ويناضل في سبيل الفوز بها. أما السندباد البحري فيلتقي في نهاية الحكاية بسفينته الأولى ويجد عليها بضائعه كاملة، فيهدي بعضها الى ملك الجزيرة ويتلقى منه الهدايا الثمينة ويبيع بقية بضائعه ويعود الى ميناء البصرة ومنها الى مدينة بغداد فيشتري الدور والبساتين ويعيش حياته الحافلة بالثراء والبهجة والمآكل والمشارب.

كانت الرحلة الأولى للسندباد عبر البحار رحلة استكشاف للبحر وبحث عن الثراء والسعة في الرزق والعيش، تمرس خلالها السندباد البحري بمشاق البحر وتعرف الى عالمه وتقلباته وجنى ثماره وعاد بمكاسبه وثرائه. أما الرحلة الثانية فجاءت بينما السندباد البحري في رغد من العيش وثراء وفير. ومن هنا كان الدافع الى الرحلة هو متعة الرحلة البحرية ذاتها، مع التمتع بمزايا التجارة البحرية والكسب الوفير منها. لذا فانه يصف الرحلة في بدايتها وصفا ممتعا يشي بحبه للبحر والسفن. فيقول بعد أن يصف شوقه للرحلة: «فهممت في ذلك الأمر، وقد أخرجت من مالي شيئا كثيرا، واشتريت به بضائع وأسبابا تصلح للسفرة، وحزمتها وجئت الى الساحل، فوجدت سفينة مليحة جديدة، وهي كثيرة الرجال زائدة العدة، ونزلت حمولتي فيها أنا وجماعة من التجار، وقد سافرنا في ذلك النهار وطاب لنا السفر»(٨).

وتتميز قصة هذه الرحلة الثانية بسعة الخيال وبالاهتمام بعجائب البحر والمخلوقات. ففيها يتحدث السندباد البحري عن طائر الرخ الضخم الذي يحجب قرص الشمس ونورها بضخامته ويزن أولاده بالأفيال، ويبلغ محيط بيضته «خمسين خطوة وافية». ويتحدث أيضا عن وادي الحيات وعن أحجار الماس وعن حيوان الكركدن وعن أشجار الكافور.

كانت الرحلة البحرية الثانية في بدايتها رحلة جميلة ناجحة من بحر لبحر ومن جزيرة لجزيرة حتى رست السفينة على جزيرة مورقة كثيرة الأشجار والثمار، فأكل منها السندباد ونام حتى أخذته سِنَة من النوم فأقلعت السفينة تاركة إياه وحيدا في الجزيرة. وظل ينعى سوء حظه ومصيره التعس الذي دفعه الى هذه الرحلة البحرية بينما هو في رغد من العيش والثراء. ثم تعلق بطائر الرخ بأن ربط عمامته برجل طائر الرخ الذي حمله الى قمة جبل ونزل به الى وادي الحيات الضخمة، حتى تمكن بعض التجار العرب، الباحثين عن الماس، من انقاذه والعودة به الى ميناء البصرة ثم بغداد حيث قصره وجواريه وحياته السعيدة المترفة. ومعروف أن الكاتب البريطاني الكبير هـ.جـ. ويلز تأثر بقصة طائر الرخ ونقلها في أحد أعماله الأدبية (جزيرة ايبيريا).

وفي حكاية الرحلة البحرية الثالثة تتكرر نفس القصة باضافات جديدة. فتغدو حكايات السندباد البحري أشبه بتنويعات على لحن واحد. فتتكرر بعض الفقرات من هذه القصص في كل قصة بألفاظها وعباراتها، ويتكرر ضياع السندباد في كل رحلة ومصارعته للأمواج والأنواء والأهوال في البحر والبر. وتبرز القيم النبيلة كالاخلاص والوفاء والأمانة.

فالسندباد ما أن يستقر في قصره بمدينة بغداد، وينعم بالحياة المترفة السعيدة ويغترف من ملذاتها، حتى يتحرك فيه الشوق للابحار، فيجهز لرحلته البحرية التالية، ويغادر بغداد الى ميناء البصرة، مدينة التجار العرب، ويركب السفينة مع أقرانه من التجار العرب. وتتكرر أوصاف الرحلة البحرية والمفاجأة البحرية كذلك، ويمتزج الواقع بالخيال كما هو الحال في قصص السندباد، اذ تجتمع فيها

المعلومات الجديدة والخيال المبدع في تصوير عالم الجن والمردة وعجائب المخلوقات. وتصل السفينة الى «جبل الزغب» ويصف السندباد الزغب أوصافا عجيبة. فهم كثيرون كالجياد حتى ملأوا البحر والسفينة. وهم أقرب الى الأقزام الذين ظهروا في قصص الأقزام الغريبة الحديثة، «صفر العيون سود الوجوه صغار الخلقة، طول كل واحد منهم أربعة أشبار. وقد طلعوا على حبال المرساة وقطعوها بأسنانهم، وقطعوا جميع حبال المركب من كل جانب، فمال المركب من الريح ورسا على جبلهم وصار المركب في برهم. وقد قبضوا على جميع التجار والركاب وطلعوا الى الجزيرة، وأخذوا المركب بجميع ما كان فيه. وراحوا الى حال سبيلهم، وقد تركونا في الجزيرة، وخفي عنا المركب ولا نعلم أين راحوا به» (٩)

وفي الجزيرة تنشق الأرض عن مارد ضخم ينتقي كل ليلة أحدهم ويشويه على النار ويلتهمه. ويخوض السندباد معارك الحياة والموت مع المارد ومع الثعابين الضخمة، فهو بطل القصة الذي لا يموت والذي ينتصر في النهاية ويفوز بالمكاسب واللذات. وفي هذه القصة أيضا تتكرر عودة السفينة الأصلية وعليها بضائع السندباد كاملة لم تمس تحمل اسمه. ويطلب منه ربان السفينة أو «رئيس المركب» أن يتاجر فيها باسم صاحبها ويشاركه في الربح. غير أن السندباد البحري يكتشف فيها بضاعته المفقودة ويروي قصته، ويستشهد ببعض التجار فيعترفوا عليه. وهكذا تعود اليه تجارته ويبيع ويربح، ويحمل معه مكاسبه وهداياه عائدا الى داره في بغداد لينعم بالحياة السعيدة.

وفي الرحلة الرابعة تتكرر الحكاية البحرية من الشوق للرحلة و «السفر الى بلاد الناس»، و«مصاحبة الأجناس والبيع والمكاسب»، وركوب السفينة،والانتقال من بحر الى بحر ومن جزيرة الى جزيرة، حتى تهاجم الأعاصير السفينة وتغرقها الأمواج. ويتعلق السندباد البحري مع بعض زملائه التجار في لوح خشبي ليل نهار حتى يصلوا الى جزيرة بها قوم عراة، قدموا لهم طعاما ذهب بعقلهم ومحى ادراكهم وجعلهم يلتهمون الطعام بدون وعي حتى ملأت السمنة أجسامهم، فقدمهم العراة لملكهم بعد شيهم على النار.

أما السندباد البحري فهو الوحيد الناجي من المذبحة لأنه البطل الذكي القادر على اجتياز العقبات والتغلب على الصعاب. ويفر السندباد من مصير زملائه ليقع في مصير أبشع، اذ يدفن مع زوجة له من المجوس تزوجها في جزيرة أخرى ثم ماتت، ولكنه يتغلب على المحنة الجديدة بالحيلة والذكاء، ويفر من قبره عبر كوة في الجبل نافذة الى البحر، حاملا معه زاد الموتى وحليهم وجواهرهم الثمينة التي تدفن معهم طبقا لطقوس الموت عندهم، وهي أقرب الى الطقوس الفرعونية. وهناك تنقذه سفينة مارة، ويعرض السندباد البحري على ربانها مكافأته ماليا فيرفض الأخير باباء وشمم، ويعلمه أنه ينقذه طبقا لتقاليد البحر العربية، وهي تقاليد المروءة العربية والكرم العربي، كما يوضحها رئيس المركب قائلا: «نحن لا نأخذ من أحد شيئا، واذا رأينا غريقا على جانب البحر أو في الجزيرة نحمله معنا، ونطعمه ونسقيه، وان كان عريانا نكسوه ولما نصل الى بر السلامة نعطيه شيئا من عندنا هدية، ونعمل معه المعروف والجميل لوجه الله تعالى». ويعود السندباد الى داره ببغداد كما يحدث في نهاية كل رحلة من رحلاته.

ويشتري السندباد البحري «سفينة كبيرة عالية مليحة» وعدتها جديدة، في رحلته البحرية الخامسة، ويضع فيها عبيده وغلمانه وتجارته، ويأخذ معه التجار العرب، ويعين عليها رئيسا وبحارة لقيادتها، وتنطلق السفينة من بحر الى بحر، كما يحدث في سائر رحلاته. وتقع أولى مفاجآت الرحلة في انتقام طائر الرخ من ركاب السفينة ويغرقها جزاء لتحطيم احدى بيضاته الضخمة وأكلهم أفراخه.

وينجو السندباد وحده كالعادة، ويلجأ الى جزيرة يلتقي فيها بشيخ البحر ويصفه بصفات خارقة، كما يصف العامة الجن والعفاريت، فرجليه «مثل جلد الجاموس في السواد والخشونة»، ولكن هيئته آدمية، وينجو السندباد من محاولة شيخ البحر قتله بأن يسكره ويقتله. وتنقذه سفينة أخرى، فيلجأ الى جزيرة للقرود حيث يجمع ثمار جوز الهند، ويمر بجزائر القرفة والفلفل ويقايضها بالجوز الهندي ويعود سالما رابحا الى البصرة ومنها الى داره ببغداد.

أما حكاية الرحلة السادسة، فهي قصة بحرية خالصة يستهلها السندباد البحري بنفس المقدمة، عن نسيانه لمشاق الرحلة السابقة، وتوقه الى السفر بالبحر والرؤية والفرجة، والتعرف على الناس والبلاد والتجارة والمبادلة والمقايضة والربح، وركوبه سفينة كبيرة ومليحة تقل التجار العرب عبر البحار، حتى صار رئيس المركب يصرخ وينعيهم لدخولهم في بحر خطر فيه هلاكهم جميعا: «فقال لهم الرئيس:

— اعلموا يا جماعة اننا تهنا بمركبنا، وخرجنا من البحر الذي كنا فيه، ودخلنا بحرا لم نعرف طرقه، واذا لم يقيض الله لنا شيئا يخلصنا من هذا البحر هلكنا بأجمعنا، فادعوا الله تعالى أن ينجينا من هذا الأمر.

ثم ان الرئيس قام على حيلة وصعد على الصاري، وأراد أن يحل القلوع، فقويت الريح على المركب فردته على مؤخرته فانكسرت دفته قرب جبل عال، فنزل الرئيس من الصاري..».

ثم يصف السندباد تفاصيل غرق المركب بمن عليه بعد أن حطمتها الأنواء على حافة جبل. ويغرق غالبية التجار وينجو السندباد البحري مع قلة يلجأون الى جزيرة فيها كنوز البحر الغارقة من «أصناف الجواهر والمعادن واليواقيت الملوكية»، وفيها أيضا «العنبر الخام» الذي يعده السندباد ثروة من ثروات البحر فانه «يسيل مثل الشمع على جانب تلك العين من شدة حرارة الشمس، ويمتد على ساحل البحر فتطلع الهوايش من البحر فتبتلعه وتنزل به البحر فيحمى في بطونها، فتقذفه من أفواهها في البحر فيجمد على وجه الماء. فعند ذلك يتغير لونه وأحواله فتقذفه الى جانب البحر فيأخذه السياح والتجار الذين يعرفونه فيبيعونه» (١٠).

ويجمع التجار تلك الثروات الملقاة على الشاطيء ليحملونها في رحلة العودة. غير أن زادهم يتناقص ويعتريهم الضعف «بوجع البطن من البحر» حتى يهلكوا جميعا عدا السندباد البحري، الذي ينفرد وحده بحمل الجواهر والعنبر الخام

ويصنع فلكا من الأخشاب المتناثرة على الشاطيء ويركب له مجدافين أيضا، ويبحر به فوق مياه النهر في رحلة محفوفة بالمخاطر عبر مغارات نهرية جبلية مظلمة، حتى يصل الى جزيرة أخرى يسكنها الهنود فيكرمون ضيافته، ويحمله ملكهم بالهدايا الى الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد، لدى عودته الى بغداد.

وتشوّق قصة الرحلة الأخيرة متلقيها بأن يصف السندباد «حكاية السفرة السابعة» بأنها «أعجب وأغرب من هذه السفرات»، ويعبر عن شوقه الى ركوب البحر قائلا: «فاشتاقت نفسي الى الفرجة في البلاد والى ركوب البحر وعشرة التجار، وسماع الأخبار، فهممت في ذلك الأمر وقد حزمت أحمالا بحرية من الأمتعة الفاخرة وحملتها من مدينة بغداد الى مدينة البصرة، فرأيت مركبا محضرا للسفر وفيه جماعة من التجار العظام، فنزلت معهم واستأنست بهم»(١١). ويحدد السندباد البحري مدة هذه الرحلة البحرية بسبع وعشرين سنة، ويعلن في نهايتها توبة خالصة عن السفر بالبحر، وبعد هذه السفرة «غاية السفرات وقاطعة الشهوات». ذلك أنه جسّد خلالها أهوال البحر، ووصف أضخم حيواناته من الحيتان، فسبق بقرون كثيرة الروائي الأمريكي هرمان ملفل في روايته البحرية الكبرى «موبي ديك» عن الحيتان، ولا شك أن ملفل قرأ رحلات السندباد وتأثر بها بالاضافة الى خبراته الشخصية كبحار وصياد للحيتان.

وفي هذه الرحلة السابعة يقول السندباد البحري لأول مرة بأنه وصل الى الصين، في رحلة «طابت لنا الريح»، وتحقق فيها الكثير من البيع والربح. غير أن ريحا عاتية هبت على السفينة وأمطرتها بسيول من مياه الأمطار. ويصف السندباد كل ذلك وصفا دقيقا قائلا: «واذا بريح عاصف هبت من مقدم المركب، ونزل علينا مطر شديد حتى ابتللنا وابتلت حمولنا، فغطينا الحمولة باللباد والخيش خوفا على البضاعة من التلف بالمطر، وصرنا ندعو الله تعالى ونتضرع اليه في كشف مانزل بنا مما نحن فيه. فعند ذلك قام رئيس المركب وشد حزامه وتشمر وطلع الصاري ثم انه التفت يمينا وشمالا وبعد ذلك نظر الى أهل المركب ولطم على وجهه ونتف لحيته، فقلنا: يا رئيس ما الخبر؟ فقال لنا: اطلبوا من الله تعالى النجاة مما وقعنا فيه، وابكوا على أنفسكم وودعوا بعضكم،

واعلموا أن الريح قد غلبت علينا ورمتنا في آخر الدنيا»(١٢).

وأنبأهم رئيس المركب بوجود حيتان ضخمة يمكن أن تبتلع المركب بما فيه. ويصور السندباد ظهور ثلاثة من الحيتان الضخمة، وما أحدثته من صوت راعد قاصف عند ظهورها على سطح الماء، وكيف ملأهم الرعب والفزع من خلفه الحوت الهائلة، وكيف تحركت الحيتان وحطمت السفينة، وصور كفاحه للأمواج واعلانه للتوبة عن السفر بالبحر في قطعة من أجمل أعمال أدب البحر العربي وأغناها بالصور الأدبية المعبرة. لهذا اقتطفت منها هذه الفقرة الطويلة: «ثم ان هذه الحيتان الثلاثة صارت تدور حول المركب، وقد أهوى الحوت الثالث ليبلع المركب بكل ما فيها، فاذا بريح عظيمة ثارت فقام المركب ونزل على شُعب عظيم فانكسر وتمزقت جميع الألواح وغرقت جميع الحمول والتجار والركاب في البحر. فخلعت أنا جميع ما كان عليّ من الثياب، ولم يبق عليّ غير ثوب واحد، ثم عمت قليلا فلحقت لوحا من ألواح المركب وتعلقت به، ثم اني طلعت عليه وركبته، وقد صارت الأمواج والرياح تلعب بي على وجه الماء وأنا قابض على ذلك اللوح، والموج يرفعني ويحطني وأنا في أشد ما يكون من المشقة والخوف والجوع والعطش، وصرت ألوم نفسي على ما فعلته، وقد تعبت نفسي بعد الراحة وقلت لروحي:

– يا سندباد يا بحري أنت لم تتب، وكل مرة تقاسي فيها الشدائد والتعب، ولم تتب عن سفر البحر، وان تبت تكذب في التوبة، فقاس كل ما تلقاه، فإنك تستحق جميع ما يحصل لك»(١٣).

وتقدر للسندباد البحري النجاة والتوبة عن أسفاره البحرية بعد مغامرة مع الشياطين. وتنتهي قصة رحلاته البحرية نهاية سعيدة بأن يتزوج من ابنة شيخ التجار ويجمع أموالها بأمواله، ويستقر أخيرا في بغداد، ويهب السندباد الحمال بعض أكياس الذهب لقاء حسن استماعه لقصص رحلاته البحرية. وانها حقا لأجمل القصص في أدب البحر العربي القديم، وأهم قصص البحر في ألف ليلة وليلة، كما وكيفا، لما تضمنته من رؤى مختلفة لعالم البحر.

وتحتوي ألف ليلة وليلة على عدد كبير من قصص البحر الأخرى، يكرر بعضها البعض، أو يدور البعض الآخر منها حول البحر أو فوق البحر بينما يظهر البحر فيها ثانويا وهامشيا لأنها تستهدف الوعظ الديني أو الأخلاقي. لذا سنركز اهتمامنا على القصص البحرية التي تدخل في أدب البحر، وتقدم رؤى مميزة لعالم البحر، ونستبعد تلك القصص المكررة أو التي لا يمثل البحر فيها عالما أساسيا، لأنها لا تعني بالتعبير عن عالم البحر قدر عنايتها بالموعظة الدينية أو الأخلاقية، وهي كثيرة، مثل حكاية أبي قير الصباغ وأبي صير المزين» التي تقع في بحر الاسكندرية، وقصة «بلوقيا» الذي دهن جسمه بسائل عشبي وسار فوق مياه البحار السبعة المتفرعة من «حكاية حاسب كريم ابن دانيال الحكيم»، و «حكاية بدر باسم ابن الملك شهرمان وبنت السمندل» وما حوته من تكرار لما ورد عن أبناء البحر ومدائن البحر وكنوز البحر بشكل أوضح في «حكاية عبد الله البري مع عبدالله البحري» التي سيأتي ذكرها في السطور التالية، وقصة حسن الصائغ البحري.. وغيرها من القصص الأخرى التي تقع على مياه البحر أو تدور حوله، ولكن وجود البحر فيها ثانوي وغير مؤثر».

القصة التالية في الأهمية من أدب البحر في ألف ليلة وليلة هي «حكاية عبدالله البري مع عبدالله البحري». وهي من أمتع القصص الخيالية في أدب البحر. وهي تخلق عالم البحر خلقا جديدا، بين الاسطورة والخيال، وتروي القصة الخيالية بوقائع مادية قريبة من منطق عصرها. أما البحر في هذه القصة فهو عالم هائل يضم في أعماقه المدن وعجائب المخلوقات مع الثروات والكنوز والجواهر. وهو عالم بالغ النقاء والصفاء والخلق والايمان الكامل بالله ورسوله محمد ﷺ. فكل من في البحر والأرض يسبح بحمد الله، لذا يحمل الجميع اسم عبدالله، فالكل عبيد الله، وفي البحر يفرحون بالموت لأن الروح أمانة أودعها الله في أجسام كل المخلوقات وهو يستردها متى شاء، وقد كانت هذه نقطة الخلاف والقطيعة بين بطلي القصة عبدالله البحري وعبدالله البري بسبب معرفة الأول بحزن أهل البر لموت أقاربهم.

أما عبد الله البري، فهو صياد سمك فقير كثير الأبناء. جاءته زوجته بالمولود

العاشر، وطلبت اليه أن يصطاد رزقه من البحر. ولكنه ظل يوما كاملا يطرح شبكته فتخرج خالية، وفي عودته خائبا بائسا شعر بأزمته عبد الله الخباز فمنحه خبزا ونقودا وأمهله حتى يأتيه الخير من البحر. وظل على هذا الحال أربعين يوما فلا هو يصطاد شيئا ولا الخباز يكف عن مد يد المساعدة له. وفي اليوم الواحد والأربعين أخرجت شبكته رجلا يدعى عبدالله البحري، عرفه بنفسه بأنه من أبناء البحر، وعقد معه اتفاقا أن يحضر له قبل طلوع شمس كل يوم حملا من الفاكهة ويبادله بحمل مماثل من الجواهر واللآليء. وهكذا ظلت العلاقة مستمرة بينهما، حتى صار الصياد وزيرا وتزوج ابنة الملك، ورد الجميل لصاحبه الخباز. ودعاه صديقه عبد الله البحري للتعرف على عالم البحر، ودهن جسمه بدهان معين يجعله يعيش ويتحرك تحت الماء كالسمك وأبناء البحر.

وفي البحر تأخذ القصة في ابداع عالمها الخيالي، عندما يصحب عبدالله البحري صديقه عبد الله البري للسير في عالم البحر والتعرف على أهله وعجائب المخلوقات به وعاداته وتقاليده. فوجد عبد الله البري مخلوقا ضخما هائلا أسود الجثة اسمه «الدندنان» يقضي على أبناء البحر، ويموت من صوت أبناء البر أو أبناء آدم كما تقول الحكاية، وبالفعل يصرعه عبد الله البري بمجرد أن يسمعه صوته. وشاهد مدنا كثيرة في البحر. مثل مدينة بنات البحر، وسكانها من البنات المنفيات بأمر ملك البحر لغضبه عليهن، واذا خرجت احداهن من المدينة تعرضت للالتهام من دواب البحر. وتصف الحكاية بنات البحر أوصافا أقرب الى الآدمية، فـ«لهن وجوها مثل الأقمار، وشعورا مثل شعور النساء، ولكن لهن أيادٍ وأرجلا في بطونهن، ولهن أذنابا مثل أذناب السمك»(١٤).

كما تعرف عبد الله البري الى المدن الأخرى في عالم البحر، والى الحياة اليومية في هذا العالم الخيالي، وهي أقرب الى المدن الموجودة في عالمنا، ففيها المسلمون والنصارى واليهود، ولكن لا يتزوج منهم سوى «خصوص المسلمين». ونظرا لامتلاء البحر بالجواهر فانها كالأحجار لا تمثل قيمة، ولكن السمك هو السلعة

الوحيدة ذات القيمة التبادلية. فمهر الزوجة، هو طعامهم اليومي الوحيد. والبيوت تقوم بحفرها في قاع البحر أنواع معينة من الأسماك، تتحرك بأمر ملك البحر: تدعى «النقارين»، فان كل من أراد أن يصنع له بيتا يروح الى الملك ويقول له: «مرادي أن أتخذ بيتا في المكان الفلاني» فيرسل الملك معه طائفة من السمك تسمى النقارين ويجعل كراءهم شيئا معلوما من السمك، ولهم مناقير تفتت الحجر الجامد، فيأتون الى الجبل الذي أراده صاحب البيت وينقرون فيه البيت، وصاحب البيت يصطاد لهم السمك، يلقمهم حتى تتم المغارة فيذهبون ويسكنه صاحب البيت، وجميع أهل البحر على هذه الحالة، لا يتعاملون مع بعضهم، ولا يخدمون بعضهم الا بالسمك، وكلهم سمك»(١٥).

فهذا التصور الخيالي لعالم البحر في «حكاية عبد الله البري مع عبد الله البحري»، قائم على أسس واقعية، ومصاغ بتفاصيل واقعية. وهي ترمي الى تصوير عالم البحر، كعالم كامل مواز لعالم البر، وأنه يمتاز عنه بالثراء الوفير والنقاء والايمان. فقد رأى عبدالله البري نحو ثمانين مدينة في قاع البحر، وقال له عبد الله البحري: «وأي شيء رأيت من مدائن البحر وعجائبه، وحق النبي الكريم الرءوف الرحيم، لو فرجتك ألف عام في كل يوم على ألف مدينة وأريتك في كل مدينة ألف أعجوبة، ما أريتك قيراطا من أربعة وعشرين قيراطا مدائن البحر وعجائبه، وانما فرجتك على ديارنا وأرضنا لا غير»(١٦).

أما عبد الله البري فقد سئم أكل «السمك الطري» غير المطهي على النار، وتاقت نفسه الى الحياة البرية، «فعرفه عبد الله البحري على زوجته وأبنائه كما يجري في حياتنا اليومية، غير أنهم ضحكوا عليه لأنه «أزعر بدون ذنب» وقاده الى ملك البحر الذي ضحك عليه أيضا، ولكنه أكرمه ووهبه ما شاء من الجواهر. ولكنهما اختلفا على تقاليد الوفاة في البر والبحر، كما ذكرت من قبل، فكانت تلك نهاية العلاقة بين عبدالله البري وعبدالله البحري، وختام الحكاية البحرية كلها. وهو ختام سعيد كما يحدث في كل حكايات ألف ليلة وليلة، اذ عاش عبدالله البري في سعادة كوزير للملك بفضل جواهر البحر.

ومن قصص البحر الأخرى في ألف ليلة وليلة، «حكاية ابن خصيب الفارس النحاسي»، وهي قصة تجمع بين المعارف البحرية العربية السائدة في زمانها وبين الخيال والأسطورة. وبطل القصة ملك يدعى «عجيب ابن خصيب»، محب للسفر وركوب البحر، فمدينته تطل على البحر، والبحر يمتد أمام قصره باتساع وتتناثر حوله الجزر الكثيرة الكبيرة. وله في البحر ثلاثة أساطيل تجارية وسياحية وحربية «خمسون مركبا للمتجر وخمسون مركبا أصغر للفرجة ومائة وخمسون قطعة معدة للحرب والجهاد». وقد دفعه حب البحر الى القيام برحلة طويلة فأنزل في البحر عشرة مراكب وزودها بزاد كامل. وبعد عشرين يوما من الرحلة البحرية، تقلب البحر وهاج وثارت الرياح من كل جانب، ولم يلبث أن هدأ مع ظهور نور الصباح. فلجأوا الى جزيرة واستراحوا يومين، ثم عاودوا الاقلاع في مياه البحر لمدة عشرين يوم أخرى حتى «اختلفت المياه» عليهم، الى «الناظور» «كشف البحر»، فصعد الى السارية، ونظر مليا ثم قال «رأيت عن يميني سمكا على وجه الماء، ونظرت الى وسط البحر فرأيت سوادا من بعيد يلوح ساعة وساعة أبيض. فلما سمع شيخ الملاحين هذا الكلام نتف لحيته وقال للناس: «أبشروا بهلاكنا ونحن نبكي على أنفسنا». وأوضح شيخ الملاحين شارحا رؤية الناظور بأنهم ضلوا طريقهم في البحر، وأن هذا سيقودهم الى «جبل من حجر أسود يسمى حجر المغناطيس وتجرنا المياه غصبا الى جهته فتمزق المركب ويروح كل مسمار في المركب الى جبل ويلتصق به لأن الله وضع في حجر المغناطيس سرا وهو أن جميع الحديد يذهب اليه » وفي هذا الجبل حديد كثير لايعلمه الا الله تعالى، حتى أنه تكسر من قديم الزمان مراكب كثيرة، بسبب ذلك الجبل، ويلي ذلك البحر قبة من النحاس الأصفر معمودة على عشر أعمدة وفوق القبة فارس على فرس من نحاس وفي يد ذلك الفارس رمح من النحاس ومعلق في صدر الفارس لوح من الرصاص منقوش عليه أسماء وطلاسم فيها..» وخلص شيخ الملاحين الى أنه «مادام هذا الفارس راكبا الى هذه الفرس تنكسر المراكب التي تفوت من تحته ويهلك جميع ركابها جميعا ويلتصق جميع الحديد الذي في المركب بالجبل، وما الخلاص الا اذا وقع هذا الفارس من فوق تلك الفرس[١٧].

هذه هي الفكرة المحورية في «حكاية ابن خصيب والفارس النحاسي» وهي تجمع بين الصياغة الواقعية للمعارف البحرية العربية في زمانها وبين الخيال والأسطورة، وتحاول أن تفسر ظاهرة علمية تفسيرا يجمع بين التفكير العلمي والأسطوري. ويقول أحمد رشدي صالح انه توجد في مياه البحر الأحمر بالفعل صخورا بركانية وشعابا مرجانية تشع اشعاعات فوسفورية وتشكل خطرا على الملاحة في البحر الأحمر وأن الخيال الشعبي قد نسج حول هذه العوائق الملاحية عددا من القصص الخرافية منها أنها تتسبب في تفكيك المسامير الرابطة لألواح السفن، بتأثير المغناطيس الموجود في تلك الصخور. ولذلك فان العرب تجنبوا وضع المسامير في سفنهم بالبحر الأحمر واستبدلوها بحبال من الألياف، بينما ظلت المسامير في السفن العربية بالبحر الأبيض المتوسط. ويؤكد الدكتور عبدالمحسن صالح وجود هذه الشعاب المرجانية في أعماق البحار التي تشع الأضواء الزاهية(١٨).

أما بقية حكاية الملك خصيب والفارس النحاسي، فتحكي مغامرة بحرية ناجحة يقوم خلالها الملك خصيب بالقضاء على الفارس النحاسي، بعد غرق سفنه بمن عليها ونجاته وحده في التغلب على الأمواج والوصول الى قمة الجبل، اثر سماعه لهاتف أسطوري دله على طريقة اغتيال الفارس النحاسي بقوس من نحاس أيضا «وثلاث نشابات من رصاص منقوش عليها طلاسم». وعندما يقع الفارس النحاسي ترتفع مياه البحر حتى تصل الى قمة الجبل، ويطفو قارب يقوده ملاح نحاسي يسافر به لمدة عشرة أيام الى بر السلامة، ولكنه ينطق اسم الله فينهار الملاح الشيطاني ويغرق الزورق، ويقع ابن خصيب في مغامرة اسطورية أخرى بعد أن يقتل ابنا لتاجر جواهر طبقا لنبوءة المنجمين، وينتظر حتى يجف ماء البحر فيعبره على قدميه عبورا صعبا في كثبان الرمال الناعمة الكثيفة ليخوض مغامرة برية ثالثة، لاعلاقة لها بالبحر وأدب البحر.

هذه هي أهم حكايات أدب البحر في ألف ليلة وليلة، أما ما عداها فهي مكررة، أو أنها تدور حول البحر، أو يرد ذكر البحر فيها كثيرا، دون أن يؤثر في الأشخاص أو الأحداث أو المحتوى الفكري للحكاية.

الهــوامش

(١) الدكتورة سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، ص ٢٤ - ٢٦.

(٢) جون د. اديكسون، انعكاس البلاد العربية، ثقافتها وفكرها، في الأدب الأمريكي، مجلة المعرفة، عدد خاص عن تأثير الأدب العربي في الآداب الأجنبية، رقم ١٩١ - ١٩٢، كانون الثاني - شباط ١٩٧٨، (ص ١٣١ - ١٤٩).

(٣) الدكتور جمال شحيد، ألف ليلة وليلة في الأدب الفرنسي، المرجع السابق ص ٢٥٣ - ٢٥٩.

(٤) الدكتور أبو العيد دودو، فيلهلم هاوف وألف ليلة وليلة، المرجع السابق.

(٥) أحمد رشدي صالح، ألف ليلة وليلة وفن الحكاية الشعبية. مقدمة ألف ليلة وليلة، طبعة دار الشعب بالقاهرة، ص٧.

(٦) الدكتور حسين فوزي، حديث السندباد القديم، ص ٣٥٦ - ٣٥٧.

(٧) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، جـ١، ص ١٤١ - ١٤٣.

(٨) ألف ليلة وليلة، ص ٨٢٥.

(٩) المصدر السابق، ص ٨٣٠.

(١٠) المصدر السابق، ص ٨٤٩.

(١١) المصدر السابق، ص ٨٥٤.

(١٢) المصدر السابق، ص ٨٥٤.

(١٣) المصدر السابق، ص ٨٥٥.

(١٤) المصدر السابق، ص ١٤٢٠.

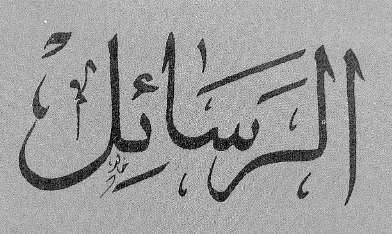
(١٥) المصدر السابق، ص ١٤٢١.

(١٦) المصدر السابق، ص ١٤٢٠.

(١٧) المصدر السابق، ص ٧٠.

(١٨) الدكتور عبد المحسن صالح، أسرار المخلوقات المضيئة، ص ١٠١ - ١٠٢.

بسم الله الرحمن الرحيم



الشخصية للشيخ

محمد بن عبد الوهاب

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بعيدة الأثر في مسيرة التاريخ الإسلامي الحديث. ومن هنا كان الاهتمام الكبير بكل ما يتعلّق بصاحبها، وكثرت الكتابات عن حياته ودعوته وما ترتّب عليها من نتائج. بل إن نجاح هذه الدعوة أسهم في حفز همم بعض الكتّاب الى التعمّق في دراسة شخصيات علمية سبقته زمناً ونادت بمثل أو بعض ما نادى به.

والكتابات التي ظهرت عن الشيخ محمد مختلفة من حيث العمق والسطحية ومن حيث الإنصاف والتحيّز، ومن حيث الجدّة وعدمها. والمؤمل أن تكون من نتائج هذا الأسبوع دراسات تجمع بين العمق والحياد والابتكار، وألّا نجد الكثير منا في نهاية الأمر يردّد مع الشاعر العربي القديم قوله:

ما أرانـا نقـول إلا معـارا   أو معـاداً من قولنـا مكـرورا

لقد كتب الكثير عن حياة الشيخ محمد شاباً متعطّشا للعلم أينما وجده، وصاحب دعوة مصمّما على بذل كل ما يكفل نجاحها، وزعيما ساهما مساهمة كبيرة في توجيه أمور فتيّة. كما كتب الكثير عن أصول دعوته وتأثيرها في مجتمعه وفي مجتمعات إسلامية أخرى.

وبحثي المتواضع المقدّم إلى هذا الأسبوع لا يتطرّق إلى أي جانب من الجوانب السابقة بصفة تفصيلية مستقلة. لكنه محاولة لإيضاح ما تحتوي عليه رسائل الشيخ الشخصية من أهمية، خاصة فيما يتعلّق بشخصيته والظروف المحيطة بدعوته.

الرسائل من حيث الصحة :

من أهم الأمور التي ينبغي للباحث أن يعنى بها التأكد من صحة النص

الذي يحاول دراسته. فما لم يصل إلى اقتناع علمي بصحة ذلك النص، فإنه من العبث محاولة استخلاص النتائج منه. وهذا ما سأحاول لفت الأنظار إليه في مقدمة هذا البحث.

لقد عاش الشيخ محمد بن عبد الوهاب حياة طويلة حافلة بنشاط مختلف النواحي، فمن المعروف أن حياته، بصفته صاحب دعوة ومساهما في توجيه دولة، تقرب من ستين عاما. وطول حياته وتعدّد جوانب نشاطه يجعلان المرء يتوقع أنه قد كتب رسائل شخصية كثيرة جدا. لكن ما أثر عن الشيخ من رسائل لا يتفق مع ذلك المتوقع. وعلى هذا الأساس فإن الباحث يكاد يجزم بأن كثيرا من رسائله الشخصية قد ضاع.

وموقف حسين بن غنام، الذي يعود إليه أكبر الفضل في إيراد ما أثر من هذه الرسائل، موقف يدعو إلى التأمل. فهو من ناحية قد أورد من رسائل الشيخ ما هو مختلف الطول والقصر من حيث المضمون. بل إنه في أحيان نادرة قد أورد شيئا من رسائل خصوم الشيخ تمهيداً لتدوين ردّه عليها. لكنه من ناحية أخرى نصّ على أنه لم يدوّن كثيراً من أجوبة الشيخ عن بعض المسائل خشية الإطالة(٢). فهل عامل ابن غنام بعض رسائل الشيخ الشخصية معاملته لبعض أجوبته أم أنه لم يعثر إلا على تلك الرسائل التي أوردها في كتابه؟ مهما يكن من أمر فإن ما أورده منسوبا إلى الشيخ يبدو صحيحا.

على أن هناك مصادر أخرى نسبت إلى الشيخ رسائل قليلة غير التي ذكر ابن غنام. وقد جاءت هذه الرسائل ضمن القسم الخامس من مؤلفات الشيخ الذي أفرده بعض الإخوة الكرام المهيئين لهذا الأسبوع لجميع الرسائل الشخصية المنسوبة إليه. وقد جعل هؤلاء الإخوة تاريخ ابن غنّام أصلا قابلوا به وأضافوا إليه مالم يرد فيه. ولا شك أن ما قام به هؤلاء الإخوة يستحق الثناء والتقدير. وبمقدار ما يكون الجهد يأتي اهتمام الباحث بما عمل. ولهذا فإنه من المستحسن الوقوف عند بعض ما عمله أولئك الإخوة.

من دراسة القسم الخامس من مؤلفات الشيخ محمد تبدو للمتأمل ملاحظتان :

الأولى : أنه يوجد اختلاف في بعض عبارات الرسائل المعدّة في هذا القسم وبين أصلها في تاريخ ابن غنام دون الإشارة إلى مواضع الاختلاف. من ذلك مثلا : رسالة الشيخ إلى علماء مكة المكرمة، ورسالته إلى الشريف أحمد بن سعيد(٣).

والملاحظة الثانية : أن بعض الرسائل المضافة إلى ما ورد في تاريخ ابن غنام ليس فيها ما يرجح كونها من رسائل الشيخ نفسه. لنأخذ -مثلا- الرسالة التي يقال إن الشيخ أرسلها إلى عالم من أهل المدينة، فهي لم ترد إلا في الدرر السنية، ولم يذكر اسم العالم الذي أرسلت إليه. ومن غير المرجّح أن يرسل الشيخ رسالة إلى عالم من علماء تلك البلدة دون ذكر اسمه. وبالاضافة إلى ذلك فإنه لم ينص فيها على أنها من الشيخ. والمتتبّع لرسائل الشيخ محمد يرى أنه يبدؤها بعبارة : من محمد بن عبد الوهاب إلى فلان بن فلان. لكن هذه الرسالة لا تبدأ بمثل هذه العبارة، وإنما تبدأ بأسلوب يختلف تماما عن أسلوب الشيخ المعتاد.

وقريب مما سبق يمكن أن يقال عن تلك الرسالة التي يُدَّعى أن الشيخ بعثها إلى عبدالله الصنعاني، فإنها لم ترد إلا في الدرر السنية. ولم يُنَصّ فيها على اسم مرسلها. وإذا قورنت بالرسالة التي كتبها عبد الله بن الشيخ محمد عند دخوله مكة المكرمة مع سعود بن عبد العزيز يتضح أن هناك تشابهاً كبيراً بين أجزاء من الرسالتين من حيث الأسلوب والمضمون(٤). ولعلّ في هذا ما يرجّح أن الذي كتب الرسالة إلى الصنعاني هو الشيخ عبد الله بن محمد وليس أباه.

أما الرسالة التي يقال إن الشيخ محمداً بعثها إلى أهل المغرب فمن الواضح عدم رجحان كونها له، وذلك لعدة أسباب:

الأول : ما قيل عن الرسالتين المنسوبتين إليه من حيث انفراد صاحب الدرر السنية بإيرادها، وعدم النص فيها على اسم مرسلها.

الثاني : أنه من غير المحتمل أن يكون اهتمام زعماء الدعوة الإصلاحية النجدية بالمغرب قد بدأ قبل استيلائهم على الحجاز ملتقى الوافدين إلى بيت الله الحرام.

الثالث : وهو أهمها أن هذه الرسالة قد وصلت إلى تونس زمن الباي حموده باشا. وقد ذكرت المصادر التونسية وصولها إلى ذلك القطر بعد أن تكلمت عن الأمور التي قام بها سعود بن عبد العزيز في الحجاز(٥). وهذا يتلاءم مع السبب الثاني وهو أن الاهتمام بالمغرب ناتج عن الوجود السعودي في الحجاز. وعلى هذا الأساس فانه من المحتمل جداً أن تكون هذه الرسالة، أيضا، من كتابة الشيخ عبد الله بن محمد الذي كان مع سعود ابن عبد العزيز عند دخوله مكة، كما ذكر سابقا.

وقد ورد في القسم الخامس من مؤلفات الشيخ رسالة قيل إنها جواب منه عن كتاب لم يقف على اسم كاتبه. وقد ذكرت هذه الرسالة في مجموعة الرسائل والمسائل، إضافة إلى ذكرها في الدرر السنية. وأسلوبها مشابه لأسلوب الشيخ في كثير من كتاباته. لكن ورد فيها ما يثير انتباه الباحث. ذلك أنه وردت فيها عبارة :

«هو مضمون ما ذكرت في رسالتك أن الشيخ محمداً قرر لكم ثلاثة أصول(٦)» .

وقد يبدو للمرء أن من كتب هذه العبارة لابد أن يكون غير الشيخ محمد. لكن قد يكون الشيخ أورد نص العبارة التي كان قد كتبها من أرسلت إليه هذه الرسالة. وقد وردت في الرسالة أيضا، عبارة :

«هذا الذي يدعو إليه ابن عبد الوهاب»(٧).

ولو كان الكاتب لها تلميذاً للشيخ أو أحد أنصاره لكان من المرجّح أن يضع كلمة «الشيخ» قبل ابن عبد الوهاب. وتعبير الشيخ عن نفسه بابن عبد الوهاب موجود في رسائله(٨).

ومن ناحية أخرى فإن في هذه الرسالة ما يشير إلى أنها قد كتبت وعبد الله المويس لا يزال حيا :

«ومع هذا : يقول لكم شيطانكم المويس إن بنيّات حرمة وعيالهم يعرفون التوحيد فضلا عن رجالهم»(٩).

لكن ورد فيها مانصه : «فكيف بمن له قريب من أربعين سنة يسبّ دين الله؟»(١٠).

ولو فرض أن دعوة الشيخ قد بدأت في نجد حوالي سنة ١١٤٥ هـ فإن هذه الرسالة – حسب العبارة السابقة – تكون قد كتبت سنة ١١٨٥ هـ تقريبا. ومن المعروف أن المويس قد توفى قبل هذا التاريخ بعشر سنين(١١).

ومما سبق يتضح أنه رغم قلّة ما أثر عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب من رسائل شخصية فان نسبة قليلة من هذا المأثور تحتاج إلى تدقيق وإعادة نظر.

أسـلوب الرسـائل :

إذا كان لأسلوب الكاتب دور في اكتشاف حقائق شخصيته، فإن رسائله الشخصية أبلغ من كتاباته الأخرى في إلقاء الضوء على تلك الحقائق. ولعل أهم نقطة يلاحظها المتأمل في أسلوب رسائل الشيخ تمسّك كاتبها بالأصالة والبساطة. فأغلب هذه الرسائل يبدأ بمثل العبارة الآتية :-

«من محمد بن عبد الوهاب إلى فلان بن فلان. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعـــد:».

ومن الواضح أن هذا الأسلوب ينسجم انسجاماً كاملا مع المحيط العربي الذي كان الشيخ عائشا فيه. ذلك المحيط الذي لم يشهد آنذاك غزو المؤثرات الأجنبية. وهو في نفس الوقت يتفق اتفاقاً تاما مع أساليب السلف الصالح من هذه الأمة الإسلامية. وفي ذلك مايوضّح رغبة الشيخ في تتبع خطى أولئك السلف في هذا المضمار.

لكن بالرغم من أن التمسّك بالأصالة والبساطة كان الصفة الغالبة في أسلوب الشيخ فإنه كان –فيما يبدو– على استعداد للتنازل قليلا عن هذا التمسّك إذا كان يظن أن في التنازل مصلحة عامة لدعوته. فهو –مثلا– كان يدرك مكانة علماء مكة ومدى تأثيرهم سلباً أو إيجاباً في مسيرة الدعوة. ولذلك خرج أسلوبه في رسالته إليهم عن أسلوبه المعتاد في كثير من رسائله. فجاءت ديباجتها مشتملة على نوع من السجع المتكّلف :

«من محمد بن عبد الوهاب إلى العلماء الأعلام في البلد الحرام. نصر الله سيّد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، وتابعي الأئمة الأعلام، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(١٢).

وكان – أيضا – يقدّر مكانة حاكم تلك المدينة المقدسة وتأثيره الإيجابي لو تعاون مع دعوته. ولذلك بدأ رسالته إليه بعبارات تدلّ على نوع من المهارة في المجاملة اللبقة. فلم يتوقف به الأمر عند التفخيم والدعاء بالعزّ في الدارين بل تجاوزه إلى الإشارة الذكّية بأن الشريف بصفته النَسَبيّة أولى بنصرة الدعوة:

«بسم الله الرحمن الرحيم المعروض لديك أدام الله فضل نعمه عليك حضرة الشريف أحمد بن الشريف سعيد أعزّه الله في الدارين، وأعزّ به دين جده سيّد الثقلين أن الكتاب لما وصل الى الخادم، وتأمل ما فيه من الكلام الحسن، رفع يديه بالدعاء إلى الله بتأييده الشريف»(١٣).

والشيخ إذ يؤمل انضمام رئيس قبيلة كبيرة إلى دعوته يضيف في أول رسالته إليه ما يعتقده من عوامل التأثير. فهو حين كتب إلى زعيم إحدى القبائل في الشام قال:

«من محمد بن عبد الوهاب إلى الشيخ فاضل آل مزيد. زاده الله من الإيمان وأعاذه من نزعات الشيطان .. أما بعد :»(١٤).

وإذا كان المتأمل في أسلوب الشيخ يرى تمسّك صاحبه بالأصالة والبساطة فإنه يلاحظ من خلاله –أيضا– ذكاءه ومحاولته الاستفادة من كل ما يراه مفيدا لمصلحة دعوته. فبالإضافة إلى ما تقدم نراه حين يحاول كسب أهل منفوحة والرياض عن طريق قاضي الدرعية يصفه في رسالته إليهم بقوله:

«إن عبد الله بن عيسى ما نعرف في علماء نجد ولا علماء العارض ولا غيره أجلّ منه»(١٥).

مع أنه يخاطبه في رسالة أخرى بقوله:

«أنتم ومشائخكم لم يفهموا دين الاسلام ولم يميزوا بين دين محمد صلّى الله عليه وسلم ودين عمرو بن لحى»(١٦).

ومن ذلك –أيضا– إثارة النخوة في نفس المخاطب. فهو يحاول إقناع محمد ابن عيد بقوله:

«إن لك عقلا، وإن لك عرضا تشحّ به، وان الظن فيك إن بات لك الحق انك ما تبيعه بالزهايد»(١٧).

ويستثير همم أهل شقراء ضد خصوم الدعوة بقوله:

«والله العظيم إن النساء في بيوتهن يأنفن لكم، فضلا عن صماصيم بني زيد»(١٨).

بل إن حبه لنجاح دعوته جعله يقوّي عامل الأمل على بادرة اليأس، فهو يخاطب عبدالله بن عبد اللطيف الأحسائي بقوله:

«ما أحسنك لو تكون في آخر هذا الزمان فاروقا لدين الله كعمر رضي الله عنه في أوله»(١٩).

مع أنه كان – فيما يبدو – يئسا من استجابته له حيث يقول في نفس هذه الرسالة:

«وانما كتبت لكم هذا معذرة من الله ودعوة إلى الله لا حصل ثواب الداعين إلى الله، وإلا أنا أظن أنكم لا تقبلونه، وأنه عندكم من أنكر المنكرات»(٢٠).

ومما يلاحظه المتأمل في رسائل الشيخ اتّصافه في حالات قليلة بنوع من الحدّة. وهو أمر ذكره عن نفسه في رسالته إلى عبدالله بن عيسى وابنه عبد الوهاب(٢١). وكانت هذه الحدّة تظهر عادة في التعامل مع خصم نشط الحركة، أو عدوّ يبدو الأمل في إقناعه ضعيفا جدا. فالشيخ –مثلا– يبدأ رسالته إلى خصمه اللدود سليمان بن سحيم بالعبارة التالية:

«الذي يعلم به سليمان بن سحيم أنك زعجت قرطاسة فيها عجائب. فان كان هذا فهمك فهو من أفسد الأفهام»(٢٢).

ويخاطبه فيها بقوله:

«صاير لكم عند خمامة في معكال، قصاصيب وأشباههم يعتقدون أنكم علماء» .. وقوله: «أنت رجل جاهل مشرك مبغض لدين الله»(٢٣).

ويعبّر الشيخ عن انفعاله أحيانا بأسلوب تهكمي لاذع. فهو يصوّر عبد الله المويس بصورة من يقول :

«اعرفوني اعرفوني تراي جاي من الشام»(٢٤).

وأحيانا لا يذكر اسمه، وإنما يرمز إليه «بصاحب الشام» أو «شاميكم»(٢٥).

وأسلوب الشيخ في رسائله الشخصية متقيّد – على العموم – باللغة الفصحى. وقواعد إعرابها. لكنه في أحيان قليلة يخرج عن هذا التقيّد فترد فيه عبارات أو كلمات يمكن أن تعتبر لغة عامة. وهذا الأمر شائع في رسائل الشيخ إلى النجديين بصفة خاصة. ففي رسالته إلى محمد بن عبّاد وردت عبارة:

«تذكر أن ودّك نبين لك ان كان فيها شيء غاترتك»(٢٦).

وفي رسالته إلى عبد الله بن سحيم يقول :

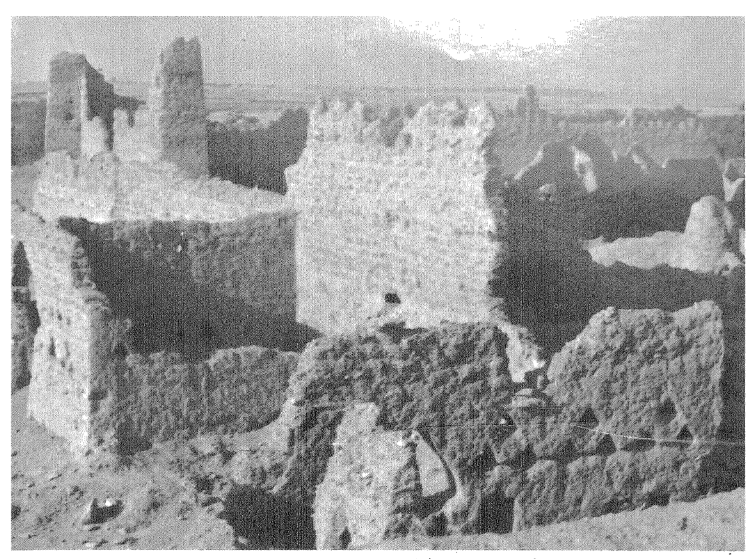
«فلما غربلك الله بولد المويس» ... «لا وجه سميح ولا بنت رجال»(٢٧).

ورسالته إلى قاضي الدرعية وابنه أكثر احتواء من غيرها على مثل هذه التعبيرات. بل إن هذه التعبيرات هي الصفة الغالبة فيها(٢٨).

الرسائل والظروف المحيطة بالدعوة :

الحالة الدينية في نجد عند ظهور دعوة الشيخ

تحدّث ابن غنام وابن بشر وغيرهما من أنصار دعوة الشيخ محمد عن الحالة التي كان يعيشها النجديون قبيل بدء هذه الدعوة. وقد أعطى هؤلاء صورة قاتمة عن تلك الحالة. لكن ابن بشر نفسه أشار إلى وجود علماء نجديين كانوا يتّصفون بصفات جليلة. والدارس لما كتبه أولئك العلماء، مثل المنقور، يرى وضوح تلك الصفات فيهم. والمتأمل في سوابق ابن بشر يلاحظ أن حاضرة نجد، على الأقل، كانت بصفة عامة تقوم بالواجبات الدينية من صلاة وصوم



آثار الدرعية (منشأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب)

وزكاة وصوم وحج. وما ورد من شعر تلك الفترة، كشعر جبر بن سيّار ورميزان ابن غشّام وحميدان الشويعر لا يتفق مع الصورة القاتمة التي تصف بها بعض المصادر حالة نجد حينذاك. ومع ذلك: فإن ماورد في رسائل الشيخ محمد يسهم إسهاماً كبيرا في إيضاح كثير من جوانب الحالة الدينية في نجد قبيل بدء دعوته.

من المعروف أن قضية الاعتقاد بالأولياء أو من تعتقد ولايتهم كانت من الأمور المهمة التي قام حولها نقاش حاد بين الشيخ محمد وخصومه. ورسائله الشخصية حافلة بالحديث عنها من عدة جوانب. فهي تحتوي على أسماء تذكر أن بعض النجديين كانوا يعتقدون بأصحابها. ومن هذه الأسماء شمسان وإدريس وتاج(٢٩)وتذكر الرسائل أن مما كان يفعله أصحاب هذه الأسماء أخذ

النذور من الناس(٣٠). كما أنها تذكر -أيضا- أسماء بعض من كانوا يعتقدون بأولئك الأشخاص(٣١). ويستفاد من رسائل الشيخ أن هذه الأمور كانت متوافرة في مناطق نجدية دون أخرى. فمنطقة العارض وما يليها جنوبا - خاصة الخرج- كانت متأثرة بها. بينما كانت منطقة القصيم - مثلا - خلاف ذلك. فقد ذكر الشيخ في رسالته إلى عبد الله بن علي ومحمد بن جمّاز أن «أهل القصيم غارهم أن ما عندهم قبب ولا سادات» .. لكنه كان عليهم عدم معاداتهم لأهل الشرك(٣٢).

ورسائل الشيخ توضح موقفه ممن يرضون باعتقاد الناس بهم، ويأخذون النذور غاية التوضيح. فقد كان يكفّرهم. وغالبا ماوصفهم بالطواغيت. لكنه أحيانا يصفهم بصفات أخرى مثل: المردة، الشياطين أو الكلاب(٣٣).

ومما يتعلق بالقضية السابقة موضوع التصوف. ومن المعروف - أيضا - معارضة الشيخ للتصوف أو لبعض أنواعه على الأقل. ولعل من أطرف إشارات معارضته له لمزه لخصمه عبد الله المويس بأن أحد مشائخه كان متصوفا، وكان يلقب بلقب العارف بالله(٣٤). ومما يتوقعه المرء خلوّ محيط مثل المحيط النجدي حينذاك من المذاهب الصوفية. لكن رسائل الشيخ إلى وجود أفراد متصوفة على مذهب ابن عربي وابن الفارض، مثل ولد موسى بن جوعان وسلامة بن مانع(٣٥)وأفراد مغمورون كهذين الرجلين من الغريب أن تكون بينهم وبين مذهب فلسفي في نزعته أية صلة. لكن إذا سلم بصحة ماورد في رسالة الشيخ فإنه يلاحظ انحصار ذلك الأمر في معكال التي تكّون جزءا من مدينة الرياض الحالية.

وتشير رسائل الشيخ - أيضا - إلى أن سليمان بن سحيم كان يذهب لحضور المولدويقرؤه على الناس، وأنه يكتب الحجب المشتملة على الطلاسم(٣٦). وكان سليمان من سكان معكال المذكورة سابقا.

وعبارة الشيخ لا تنص على حدوث الاحتفال بالمولد في نجد. وهي على أية

حال الإشارة الوحيدة من الشيخ وغيره التي قد يفهم منها حدوث هذا الأمر في المنطقة.

ومن الأمور التي ناقشتها رسائل الشيخ والمتعلقة بالتصوف والأولياء مسألة كتابي دلائل الخيرات(٣٧)، وروض الرياحين(٣٨). ويفهم من النقاش حولهما أنهما كانا من الكتب المقروءة في نجد آنذاك. وقد ادّعى سليمان بن سحيم في رسالته التي بعثها إلى العلماء خارج هذه المنطقة أن الشيخ أحرقهما(٣٩). وقد نفى الشيخ في رسالته إلى السويدي إحراقه للكتاب الأول، وذكر أن سبب ما روّج عنه حول هذا الموضوع أنه أشار على من قبل نصيحته ألّا يصير في قلبه أجلّ من كتاب الله، ويظن أن القراءة فيه أنفع من قراءة القرآن(٤٠). كما نفى ابن غنّام إحراق الشيخ لكتاب روض الرياحين(٤١). وقد يبدو للبعض نوع من الغرابة في تعليل الشيخ لما أشيع عنه حول كتاب دلائل الخيرات. ذلك أن الإحراق شيء والنصيحة بألّا يصير في قلوب الناس أجلّ من كتاب الله شيء آخر. ومن الملاحظ أن الإمام الصنعاني قد مدح الشيخ بقوله:

وحرّق عمـداً للدلائل دفترا   أصـاب ففيها ما يجلّ عن العدد

ولم يعلّق ابن غنام وابن بشر اللذان أوردا هذا البيت في تاريخهما بأي شيء عليه(٤٢). كما يلاحظ أن الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب حين تكلم عن الدعوة قال:

«ولا نأمر بإتلاف شيء من المؤلفات أصلاً إلا ما اشتمل على ما يوقع الناس في الشرك كروض الرياحين»(٤٣).

حـالة البـادية :

وتشير رسائل الشيخ محمد إلى مسألة في غاية الأهمية وإن لم تكن من المسائل التي كثر النقاش حولها بين أنصار الدعوة وخصومها. فالشيخ يذكر أن

كثيراً من أبناء البادية كانوا لا يمارسون الواجبات الدينية، بل إن كثيراً منهم كانوا لا يؤمنون بقضية مهمة من قضايا العقيدة وهي البعث بعد الموت. ففي رسالته إلى محمد بن عيد يقول:

«ومن المعلوم عند الخاص والعام ما عليه البوادي أو أكثرهم... ففيهم من نواقض الاسلام أكثر من مائة ناقض»(٤٤).

وفي رسالته إلى سليمان بن سحيم يقول:

«ومعلوم أن أهل أرضنا وأرض الحجاز الذي ينكر البعث منهم أكثر ممن يقرّ به، وأن الذي يعرف الدين أقل ممن لا يعرفه، والذي يضيع الصلوات أكثر من الذي يحافظ عليها، والذي يمنع الزكاة أكثر ممن يؤديها»(٤٥).

وإذا علم أن البادية حينذاك كانت تشكّل قسما كبيرا من سكان هذه المنطقة أدركت خطورة هذه المسألة. ولقد كان حدوث مثل هذا الأمر متوقعا لسيادة الجهل الديني لدى هؤلاء – كما تشير إليه عبارة الشيخ الأخيرة، ولعدم وجود سلطة مهتمة بهذا الموضوع.

ولعل هذا هو السبب الأساسي في توقف الشيخ في الحكم على من اتصفوا بالصفات المذكورة في بداية دعوته، كما ذكر ابن غنام(٤٦). لكن لابد أن ذلك لم يدم حين توافرت فيهم الشروط التي ذكرها الشيخ في رسالته الى أحمد بن ابراهيم:

«تعرفون أن البادية قد كفروا بالكتاب كلّه، وتبرأوا من الدين كله، واستهزأوا بالحضر الذين يصدقون بالبعث، وفضلوا حكم الطاغوت على شريعة الله واستهزأوا بها مع إقرارهم أن محمداً رسول الله وأن كتاب الله عند الحضر لكن كذبوا وكفروا واستهزأوا عنادا»(٤٧).

بدء الدعوة في نجـد :

من المعروف أن دعوة الشيخ قد بدأت في نجد قبل وفاة أبيه سنة ١١٥٣ هـ. فقد ذكر ابن بشر أن الشيخ أقام على الدعوة مدة سنين حتى توفي أبوه(٤٨). وهذا يعني أن الدعوة قد بدأت سنة ١١٥٠ هـ أو قبل ذلك لأن أباه توفي سنة ١١٥٣ هـ. ومن هنا فإن كلامه لا يحدّد السنة التي بدأت فيها الدعوة. وليس في رسائل الشيخ ما يفيد إفادة كاملة في هذا التحديد، لكن فيها ما يلقي بعض الأضواء. فقد وردت في رسالته إلى عبد الله بن عبداللطيف الأحسائي عبارة :

«اجتمعت بك من نحو عشرين»(٤٩). وذلك حسب كتاب ابن غنام. لكن قد ذكر في القسم الخامس من مؤلفات الشيخ أن هذه العبارة وردت في بعض النسخ :

«اجتمعت بك من نحو عشر سنين»(٥٠).

وواضح أن العبارة في هذه النسخة تبدو أصح من العبارة الواردة في تاريخ ابن غنّام. وإذا سُلّم بصحتها فإن الشيخ كان في الأحساء قبل كتابته لهذه الرسالة بعشرة أعوام. فمتى كتبت هذه الرسالة؟.

ليس هنالك نص محدّد في تاريخ ابن غنّام على زمن أو مكان كتابتها، لكن المتأمل في رسائل الشيخ يمكنه أن يستنتج بعض الأمور التي قد تساعد في هذا الموضوع. فقد ذكر الشيخ في رسالته إلى عبد الله أنه تألم لكتابته مع أهل الأحساء ضده(٥١). وذكر في رسالتيه اللتين بعثهما من العيينة إلى عبد الله بن عيسى وابنه عبد الوهاب أنهما كانا يستهزئان بجواب ابن فيروز، وأن أمر عبد الوهاب أشق عليه من أمر أهل الأحساء(٥٢). فإذا كان عبد الله بن عبد اللطيف قد كتب مع أهل الأحساء، وكانت كتابتهم حين كان الشيخ في العيينة فإنه من المرجّح أن تكون رسالة الشيخ إليه قد كتبت في هذه البلدة.

لكن إذا كان من المعروف متى سافر الشيخ من العيينة إلى الدرعية فانه من غير المعروف يقينا متى قدم من حريملاء إلى العيينة. فقد يكون قدومه إليها بعد شهور من وفاة أبيه، وقد يكون بعد سنة أو سنتين. وإذاً فانه من المحتمل أن تكون إقامته في العيينة بين سنتي ١١٥٣ و ١١٥٧ هـ وعلى هذا الأساس فإن رسالته المذكورة تكون قد كتبت في هذه الفترة، ويكون اجتماعه بعبد الله بن عبد اللطيف في الأحساء خلال الفترة الواقعة بين سنتي ١١٤٣ و ١١٤٧ هـ. وبما أن الشيخ لم يطل الإقامة في الأحساء على الأرجح، فإن وصوله إلى نجد من أسفاره خارجها كان، أيضا، في الفترة المذكورة. ومعلوم تاريخيا أنه بدأ دعوته في حريملاء بعد وصوله إليها مباشرة.

ولا شك أن معارضة بعض علماء نجد للشيخ قد بدأت منذ بدئه بالدعوة. وقد ذكرت المصادر الأصلية حدوث المعارضة له قبل وفاة أبيه. وفي رسائله ما يؤيد ذلك. فقد جاء في رسالة له من العيينة أن عبد الوهاب بن عيسى كان يعمل ضد الدعوة منذ أكثر من خمس سنين(٥٣). وذلك يعني أن معارضته قد بدأت منذ سنة ١١٥٢ هـ على الأقل.

أســـلوب الدعـــوة :

تبين رسائل الشيخ أن من أساليب نشر دعوته مراسلة من كان يعتقد تأثيرهم على الناس، سواء من أمراء المنطقة أو علمائها، وإجاباته عن أسئلة من كتبوا إليه يستفسرون عن حقيقة هذه الدعوة أو جانب من جوانبها(٥٤). ومن بين تلك الأساليب -أيضا- ماكان يقوم به الأنصار والدعاة في البلدان النجدية المختلفة من شرح للدعوة أو مجادلة لخصومها. فكان ابن عيدان -مثلا- أحد المدافعين عنها في الوشم(٥٥). وكان موسى بن سليم يقرأ رسالة كتبها الشيخ وعلّق عليها أحد خصومه معترفا بصحة ما فيها من إقليم العارض(٥٦). وكان ابن صالح يجادل سليمان بن سحيم في مجلس زعماء من بلدة الرياض(٥٧).

وفي رسائل الشيخ ما يؤيد قول ابن غنام من أنه كان في بداية أمره يدعو معارضيه بأسلوب هادىء. فهو يقول في رسالته إلى أحمد بن يحيى:

«هذا ابن إسماعيل والمويس وابن عبيد جاءتنا خطوطهم في إنكار دين الإسلام... وكتبناهم، ونقلنا لهم العبارات، وخاطبناهم بالتي هي أحسن ومازادهم إلا نفورا»(٥٨).

ويقول عن عبد الله المويس أيضا :

«استدعيته أولا بالملاطفة، وصبرت عنه على أشياء عظيمة»(٥٩).

ويبدو أن هذا الأسلوب اللين كان متبعا في مرحلة مبكرة جدا من نشاط الدعوة. وكان اتخاذه في البداية ضروريا لعدة أسباب منها ما يتوقعه المرء من أن المعارضة في بداية الأمر لم تكن عنيفة جدا لأن الدعوة حينذاك لم تكن قد حققت من النجاح ما يشعر معارضيها بالخطر، ويدفعهم بالتالي إلى انتهاج أسلوب قوي ضدها. وإذا سلّم بذلك كان من المتوقع، أيضا، أن يكون موقف صاحب الدعوة تجاههم غير شديد. ومنها أن الشيخ كان يأمل في اجتذاب بعض المعارضين إلى جانبه. والأسلوب الليّن من عوامل كسب الآخرين. ومنها أن الشيخ كان يحس بغرابة بعض ما كان يدعو إليه لدى مجتمعه. ومن هنا كان لابد من انتهاج أسلوب اللين - مرحليا على الأقل - لئلا يكون رد الفعل في غير صالح الدعوة.

يقول الشيخ في إحدى رسائله :

«لولا أن الناس إلى الآن ماعرفوا دين الرسول، وأنهم يستنكرون الأمر الذي لم يألفوه لكان شأن آخر. بل والله الذي لا إله الا هو لو يعرف الناس الأمر على وجهه لأفتيت بحلّ دم ابن سحيم وأمثاله ووجوب قتلهم»(٦٠).

ومن المعروف بطبيعة الحال أن زعماء الدعوة حين رأوا الظروف مناسبة اتخذوا أهم أسلوب من أساليب نشرها وهو الجهاد.

المعارضـــة النجـــدية :

واضح من رسائل الشيخ أن دعوته لقيت معارضة شديدة من قبل بعض علماء نجد. فالمتتبع لها يلاحظ أن أكثر من عشرين عالما أو طالب علم وقفوا ضدها في وقت من الأوقات. ويأتي في مقدمة هؤلاء المعارضين عبد الله المويس من حرمة وسليمان بن سحيم من الرياض.

ويستفاد من هذه الرسائل أن معارضي الشيخ من النجديين كانوا مختلفي المواقف. فمنهم من عارضه منذ البداية واستمر في معارضته(٦١). ومنهم من كان يعترف في بداية الأمر بأن ما جاء به الشيخ أو بعضه حق، لكنه غيّر موقفه مع مرور الزمن(٦٢). ومنهم –أيضا– من كان متأرجحا في تأييده ومعارضته(٦٣). وتوضح الرسائل أن النجديين المعارضين أعطوا أسماء مختلفة لما تضمنته الدعوة. قالوا عنه: دين أهل العارض(٦٤). وقالوا: إنه مذهب خامس(٦٥)، كما ادعوا أنه بدعة خرج أول ما خرج من خراسان(٦٦).

ويبدو أن أسباب معارضة أولئك النجديين للدعوة كانت متعددة، ورغم توافر بعض الأسباب لدى الجميع فإن بعضها قد توافر عند شخص دون آخر. ومن غير العدل إهمال جانب الإقتناع الشخصي لدى فريق من هؤلاء بعدم صحة بعض ما كان يدعو إليه الشيخ. كما أنه من التقصّيَ عدم ملاحظة تغيّر موقف البعض طبقا لانتقال الدعوة من مرحلة إلى أخرى ومناداتها بأمور لم تكن تنادي بها، أو تطبيقها أموراً لم تكن تطبقها في بداية الأمر. ولعل أوضح دليل على ذلك ما ذكره الشيخ نفسه في إحدى رسائله حيث قال:

«صدقني من يدّعي أنه من العلماء في جميع البلدان في التوحيد وفي نفي الشرك وردّوا عليّ التكفير والقتال»(٦٧).

وقوله في رسالة أخرى :

«إنهم يقولون لو يترك أهل العارض التكفير والقتال لكانوا على دين الله ورسوله» (٦٨) .

ومن المعروف أن قتال أصحاب الدعوة لخصومهم لم يحدث في أول بدايتها.

ويعطي الشيخ في إحدي رسائله سببين أساسيين لتغيّر موقف العلماء من الاعتراف بصحة الدعوة إلى مناوأتها:

الأول : أن العامة ستقول إذا كان ما يدعو إليه الشيخ هو الحق فلِم لَم تدعونا إليه قبله؟ وعدم سؤال العامة لهم عنه لا يبرّر سكوتهم. وهذا يمكن أن يقال عنه بعبارة أخرى: إن هؤلاء المعارضين خافوا أن يفقدوا مكانتهم الاجتماعية لأن الناس سيتساءلون عن علمهم وإخلاصهم. فإن كانوا لم يعرفوا الحكم قبل الشيخ فعلمهم قليل. وإن كانوا علموا الحكم وأخفوه فإخلاصهم مفقود. وفي كلتا الحالتين إضعاف لمكانتهم.

والسبب الثاني لتغير موقفهم في نظر الشيخ إنكاره عليهم السحت والرشوة(٦٩) .

ومن الممكن قبول السبب الثاني من تعليل الشيخ السابق، لأن هذا الموضوع كان بطريقة مابين المسائل التي ذكرها ابن سحيم في رسالته الموجهة إلى العلماء خارج نجد ليقفوا ضد الدعوة(٧٠) لكن السبب الأول من التعليل لايمكن قبوله دون تحفّظ. فلو كان سليمان بن سحيم وأمثاله يرون أن اعترافهم بصحة الدعوة قد يهزّ من مكانتهم الاجتماعية لما اعترفوا بصحتها منذ البداية. ولعل السبب الأساسي في تغيّر موقفهم انتقال الدعوة من طور إلى آخر مختلف نوعا ما.

وتشير الرسائل – أيضا – إلى أن تغيّر موقف بعض المعارضين النجديين كان نتيجة تأثير البعض الآخر، مثلما حدث بالنسبة لتأثير المويس على عبد الله بن سحيم(٧١). كما تشير إلى أن عدم انضمام بعض علماء نجد إلى الدعوة ناتج عن عدم القدرة على إقناع الأمراء بها(٧٢).

وتبين الرسائل أن نشاط المعارضة النجدية للدعوة كان مختلف الجوانب. وفي مقدمة أوجه النشاط الكتابة ضدها. والمتأمل في هذه الرسائل يرى كثرة تلك الكتابة، وان كان من المتوقع أن أغلبها لم يكن طويل المحتوى. ويأتي في طليعة هؤلاء الكتّاب المعارضين سليمان بن سحيم وعبد الله المويس وسليمان ابن عبد الوهاب. ومن الجدير بالذكر أن بعض ما كتبه المعارضون النجديون – باستثناء الأخير من الثلاثة المذكورين – يكاد يكون مفقودا. ولا شك أن أصول كتاباتهم لو وجدت لكان ميل الباحث إلى اعتمادها أعظم. لكن رسائل الشيخ – على أية حال – تلقى أضواء على بعض مضامين تلك الكتابات. فقد ورد في هذه الرسائل أن سليمان بن سحيم كتب أربعة أشياء :

أولها :تلك الرسالة التي بعثها إلى العلماء خارج نجد والتي أورد ابن غنام نصها في تاريخه(٧٣). وقد أورد فيها كاتبها خمس عشرة مسألة اعتبرها مآخذ على الشيخ.

الثاني :رسالة وصلت إلى عبد الله بن سحيم. وقد ذكر الشيخ في رسالته إلى عبدالله أنها تحتوي على أربع وعشرين مسألة(٧٤).وهي وإن اشتملت على بعض ما جاء في رسالة سليمان إلى العلماء خارج نجد إلا أنها لا تحتوي عليها كلها، كما يتضح من جواب الشيخ. وهي – أيضا – تشتمل على مسائل لم ترد في رسالة سليمان المذكورة أولا(٧٥).

الثالث :رسالة أشار إليها في رسالته إلى سليمان بقوله :
«انك زعجت قرطاسة فيها عجايب»(٧٦).
وما ناقشه الشيخ في هذه الرسالة يوضّح أن رسالة سليمان أو قرطاسته المشار إليها هنا غير الرسالتين السابقتين(٧٧).

الرابع :أوراق ذكر الشيخ أنه وقف عليها. ومضمونها وختلف عمّا جاء في الكتابات المذكورة سابقا(٧٨).

أما المويس فقد أشار الشيخ في رسالته إلى عبد الله بن سحيم إلى أنه ألف كتابا بعثه إلى أهل الوشم، وقال: إنه مشتمل على ثلاثة موضوعات:

الأول :علم الأسماء والصفات أو العقائد.
الثاني :التوحيد والشرك.
الثالث :الاقتداء بأهل العلم.

وقد ناقش الشيخ الموضوعين الأولين في رسالته إلى عبد الله، لكنه ترك مناقشة الموضوع الثالث، لأنه كما يقول قد أرسل رأيه حوله إلى المويس نفسه(٧٩).

الوجه الثاني من أوجه نشاط المعارضة النجدية : مجادلة أنصار الدعوة في البلدان المختلفة. مثال ذلك : مجادلة ابن اسماعيل جماعة الشيخ في ثرمداء، ومجادلة سليمان بن سحيم لابن صالح في مجلس الشيوخ في الرياض(٨٠).

الوجه الثالث من أوجه ذلك النشاط : الاتصال بالعلماء وذوي النفوذ خارج نجد وتحريضهم ضد الشيخ ودعوته. مثال ذلك : ما ذكر سابقا من إرسال سليمان بن سحيم كتاباً إلى العلماء خارج نجد وشكواه له عند أهل الحرمين(٨١). وقد ركب المويس وخواص أصحابه إلى أهل قبّة الكواز وقبة رجب

يخبرونهم بإنكار الشيخ لما هم عليه ويستثيرونهم ضده(٨٢). كما ركب المويس مع ابن ربيعة وابن اسماعيل الى أهل قبة أبي طالب وأغروهم باتباع الشيخ(٨٣).

وواضح أن الاتجاه الى الاستنجاد بالخارج يعكس إدراك المعارضين النجديين لضعفهم أمام دعوة الشيخ وفشلهم في إيقافها.

الوجه الرابع من وجوه نشاط المعارضين المحليين ترويج الكتب التي ألفها علماء غير نجديين ضد الدعوة بين الناس، كما روّج المويس وابن عبيد كتاب القبّاني البصري، وكما روّج المويس وابن اسماعيل كتاب ابن عفالق(٨٤).

علماء الاحساء والدعوة :

وتلقي رسائل الشيخ أضواء على الدور الذي قام به بعض علماء الأحساء تجاه دعوته، وتبين أوجه النشاط التي كانوا يزاولونها. ومن ذلك كتابة الكتب ضده، وإرسالها إلى زعماء المعارضة النجديين لتأييدهم أو إقناع من كان منضما إليه بمفارقته. وتوضح هذه الرسائل أيضا بعض النقاط التي ركز عليها أولئك العلماء.

ومن هذه الأمور قضية الاجتهاد، والتنويه على أن الشيخ لم يكن مؤهلا لممارسته(٨٥). وقد أوضح الشيخ بدوره موقفه تجاه هذا الموضوع غاية الإيضاح في رسائله(٨٦).

ومن تتبع رسائل الشيخ يتضح أنه كان في طليعة العلماء الأحسائيين الذين قاموا بالكتابة ضده القاضي عبد الله بن عبد اللطيف. ومن الواضح أيضا أن الشيخ محمدا كان شديد الحرص على ضم ذلك العالم إلى جانبه، أو على الأقل التزامه الحياد بينه وبين خصومه(٨٧). ومن أولئك العلماء محمد بن عفالق الذي يقول الشيخ عنه إنه زعم في كتابه أن التوحيد دين ابن تيمية، وأنه لما أفتى به

كفره العلماء وقامت عليه الحجة(٨٨). كذلك كان منهم ابن مطلق وابن فيروز. وقد أورد الشيخ في إحدى رسائله بيتين من الشعر قال إن أحدهما ورد في مصنف ابن مطلق والثاني في مصنف ابن فيروز(٨٩). وكان الثلاثة الأولون في نظر الشيخ أشدّ عداوة من ابن فيروز فقد قال عنهم:

«أما ابن عبد اللطيف وابن عفالق وابن مطلق فحشوا بالزبيل. أعني سبابة التوحيد، واستحلال دم من صدّق به أو أنكر الشرك». أما ابن فيروز فإنه كما يقول الشيخ – أقربهم الى الإسلام(٩٠).

ويبدو أن الشيخ كان يدرك خطر أولئك العلماء الأحسائيين لأنه حذّر محمد بن سلطان منهم تحذيرا شديدا بعد أن بعد أن سمع أنه سيعرض كلامه عليهم(٩١).

ومن الأمور التي أشارت إليها رسائل الشيخ وجود القبور التي يعتقد فيها أناس من أهل الأحساء(٩٢). بل وجود أمور تضاد أصلي الإسلام على حدّ تعبيره(٩٣). ولم يكن غريبا في مثل هذه الظروف أن يعتبر الشيخ تلك المنطقة بلد مشركين(٩٤).

الأشراف والدعـــوة :

سبقت الإشارة إلى أن الشيخ كان يدرك أهمية علماء مكة ومدى تأثيرهم، كما كان يدرك مكانة حاكم تلك المدينة. لذلك كانت مجاملته لكل منهما واضحة في أسلوبه. وفي رسائله ما يبين أن المعارضة النجدية قد أدركت أيضا هذه المكانة وتلك الأهمية. وكان أن بذل زعماؤها جهودا كبيرة لكسب قادة مكة إلى جانبهم ضد الشيخ. وواضح من تلك الرسائل أن جهودهم قد أثمرت. فقد بعث علماء مكة رسائل إلى نجد تؤيد المعارضين للدعوة(٩٥). واتخذ حكام تلك المدينة موقفا عدائيا منها، فسجنوا فريقا من أنصارها حين قدموا للحج، ومنعوا أتباعها من أداء فريضته مدة طويلة(٩٦).

وكان الشيخ يعترف بحق آل البيت الذين ينتسب إليهم أشراف مكة ويقول: إن الله شرفهم على أهل الأرض[٩٧].

بل إنه لام بعض أنصاره الذين انتقدوا أحد الأشراف لسماحه بتقبيل يده ولبسه عمامة خضراء، مشيراً إلى أن لبسهم الأخضر حدث قديما تميزاً لهم لئلا يظلموا أو يقصَّر في حقهم من لا يعرفهم.

لكن موقفه هذا لم يمنعه من مهاجمة ماكان سائدا فيها مما له صلة بالعقيدة فحسب، وإنما تشير إلي نوع من الانحطاط الخلقي الغريب. فيقول في رسالته إلى البكيلي: «إن بعض النساء المعروفات بالزنا يأتين وفودا يوم الحج الأكبر كل من الأشراف معروفة بغيته منهن جهارا»[٩٨].

وواضح ما في هذه العبارة من تعميم دفع إليه – فيما يبدو – شعور عميق بظلم موجَّه ضد من كتبه. لكن وجود هذا الانحطاط الخلقي عند البعض، على الأقل، أمر ملفت للنظر.

أيها السادة :

إن ما ورد في هذا البحث جزء مما تحتوي عليه الرسائل الشخصية للشيخ محمد، وهو – كما لاحظتم – لم يتعرض لبعض أصول الدعوة المعروفة، ولم يورد ما في هذه الرسائل من مناقشة حولها. ولا شك أن من له عناية بمثل هذه الأمور سيجد في الرسائل الشيء الكثير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.،،

الهــوامش

(١) سبق أن ألقي هذا البحث في أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي أقامته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في ١٤٠٠/٤/٢١هـ.

(٢) روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، طبعة أبابطين، القاهرة، ١٣٦٨هـ: ١٧٥/١. وسوف يشار إليه، فيما بعد، بروضة فقط.

(٣) القسم الخامس من مؤلفات الشيخ، طبعة الامام محمد بن سعود الإسلامية: ٤١، ٣١٢. وسوف يشار إليه، فيما بعد، بشخصية. وقارن ذلك بروضة: ٨١/٢و ١١٤.

(٤) انظر شخصية : ١٠٠ – ١٠١ وقارنها بالدرّر السنية في الأجوبة النجدية، ط٢، ١٣٨٥هـ: ١٢٧/١.

(٥) انظر – مثلا – كتاب إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، لأحمد بن أبي الضياف، تونس، ط٢، ١٩٧٩م. ٨٢/٢ – ٨٥.

(٦) شخصية : ١٧٢.
(٧) شخصية : ١٧٢.
(٨) روضـة : ١٢٢/١.
(٩) شخصية : ١٧٣.
(١٠) شخصية : ١٧٣.
(١١) عثمان بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد طبعة ٢ لوزارة المعارف السعودية، ١٣٩١ : ٤/١ – ٥٥.
(١٢) روضـة : ١٤٤/٢.
(١٣) روضة : ٨٠/٢. ويلاحظ أن كلمة «حضرة» بمعناها هنا لم ترد في كتابات الشيخ إلا في موضعين : إحداهما في هذه الرسالة، والثاني : في رسالته إلى السويدي في العراق. في استعماله لها في هذين الموضعين فقط اعتقاده أن التأثر بهذا النوع من الأسلوب واضح في القطرين الحجازي والعراقي.

(١٤) روضة : ١٥١/١.
(١٥) روضة : ١٤٦/١.
(١٦) روضة : ١٥٥/١.
(١٧) روضة : ١٠٧/١.
(١٨) شخصية : ٢٩٢.
(١٩) روضة : ٥٤/١.
(٢٠) روضة : ٣/١ – ٥٤.
(٢١) روضة : ١٥٧/١.

(٢٢) روضة : ١ /١٥٧.
(٢٣) روضة : ١ /١٣٨ و ١٤٢.
(٢٤) روضة : ١/١٠٠.
(٢٥) روضة : ١/١٩ – ١٢١.
(٢٦) روضة : ١/١٠٤. غاترتك : خاف عليك.
(٢٧) روضة : ١/١٠٢ و ١١٦. غربلك : أصابك وابتلاك. لا وجه سميح ولا بنت رجال : مثل معناه بشابه للمثل الشهير «أحشفا وسوء كيله
(٢٨) روضة : ١/٦ – ١٥٧.
(٢٩) روضة : ١/١٣٠، ١٥٥، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٨، ٢١٦، ٢٢٦. ويلاحظ أن الشيخ أحيانا يقول : أولاد شمسان وأولاد إدريس (روضة ١/٢١٦)، وأحيانا يقول : شمسان وأولاده (روضة ١/٢٢)، أو يقول : محمد بن شمسان (روضة ١»٢٢).

(٣٠) روضة : ١»٢١.
(٣١) مثل طالب الحمض. انظر روضة ١ /١٠، ١٥٤، ١٥٦.
(٣٢) شخصية : ٢٣٢.
(٣٣) روضة : ١/١٧٨ و ٢١٧.
(٣٤) روضة : ١/١٢٠.
(٣٥) روضة : ١/١٤٧.
(٣٦) روضة : ١/١٤٠.
(٣٧) دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار، تأليف محمد الجزولي المتوفى سنة ٨٥٤هـ.
(٣٨) روض الرياحين في حكايات الصالحين. تأليف عبد الله اليافعي اليمني المتوفى سنة ٧٦٨هـ.
(٣٩) روضة : ١/١١٢.
(٤٠) روضة : ١/١٥٣.
(٤١) روضة : ١/١٢٩.
(٤٢) روضة : ١/٤٧، عنوان : ١/٦٩.
(٤٣) الدرر السنية : ١/١٢٧.
(٤٤) روضة : ١/١٠٨.
(٤٥) روضة : ١/٣٣.
(٤٦) روضة : ١/١٤٤.
(٤٧) روضة : ١/٣ – ١٦٤.
(٤٨) عنوان : ١/٢١.
(٤٩) روضة : ١/٥٠.
(٥٠) شخصية : ٢٥٠.
(٥١) روضة : ١/١٥٠.
(٥٢) روضة : ١/٧ – ١٥٨.
(٥٣) روضة : ١/١٥٧.
(٥٤) هذا الأمر واضح في أكثر رسائله. ويبدو أن هذا الأسلوب قد حقق نجاحا طيبا، كما كانت الحال بالنسبة لقاضي الدرعية الذي ذكر أنه كان من أكبر أسباب قبول الناس للدين. انظر روضة ١/١٥٦.

(٥٥) روضة : ١/٩٧.
(٥٦) روضة : ١/١٤٠.
(٥٧) روضة : ١/١٤١.
(٥٨) روضة : ١/١٧٢.
(٥٩) روضة : ١/١٠٣.
(٦٠) روضة : ١/٦ - ١٥٧.
(٦١) من هؤلاء المويس
(٦٢) مثل ابن سحيم.
(٦٣) مثل عبد الله بن عيسى.
(٦٤) روضة : ١/١٦٧.
(٦٥) روضة : ١/١٣٩.
(٦٦) روضة : ١/١٠٢ و ١١٦.
(٦٧) روضة : ١/٧ - ١٠٨.
(٦٨) روضة : ١/١٥٠.
(٦٩) روضة : ١/١١٤.
(٧٠) روضة : ١/١١٣.
(٧١) روضة : ١/١١٦.
(٧٢) روضة : ١/١١٩ و ١٦٢.
(٧٣) روضة : ١/١١ - ١١٣.
(٧٤) روضة : ١/١٣ - ١٢٢. ويلاحظ أن ابن غنّام أورد رسالة الشيخ على أنها ردّ على رسالة سليمان الموجهة إلى العلماء خارج نجد.
(٧٥) قارن ما جاء في الرسالتين : روضة : ١/١١ - ١١٣ و ١/١٣ - ١٢٢.
(٧٦) روضة : ١/١٣٨.
(٧٧) قارن روضة : ١/١٣٨ - ١٤١ بروضة : ١/١١ - ١١٣ و ١/١٣ - ١٢٢.
(٧٨) روضة : ١/١٨ - ٢٢٠.
(٧٩) روضة : ١/٩٧ - ١٠٣.
(٨٠) روضة : ١/١٦ و ١٤١.
(٨١) روضة : ١/١٣٩.
(٨٢) روضة : ١/١٠٩ و ١٦٠.
(٨٣) روضة : ١/١٠٩ و ١٦٠.
(٨٤) روضة : ١/١٦.
(٨٥) روضة : ١/٥٢.
(٨٦) روضة : ١/٥١.
(٨٧) انظر مدح الشيخ له وتودّده إليه في الرسالة التي بعثها إليه. روضة : ١/٥٠ - ٦٠. وقد أشار الحدّاد في مصباح الأنام ص ٤ - ٥ إلى أن اسم كتاب عبد الله ضد الشيخ سيف الجهاد لمدّعي الاجتهاد.
(٨٨) روضة : ١/١٦. ومن بين كتابات ابن عفالق رسالة اسمها : «تهكّم المقلدين بمن ادعى تجديد الدين» وربما كانت المقصودة هنا. على أن له رسالة أخرى بعثها إلى عثمان بن معمر. وفيها الكثير من الاستشهاد بأقوال ابن تيمية.

(٨٩) روضة : ١٦١/١.
(٩٠) روضة : ١٦١/١.
(٩١) شخصية : ٤/١ – ١٤٥.
(٩٢) روضة : ١٦٥/١.
(٩٣) روضة : ٥٩/١.
(٩٤) روضة : ١٦٦/١.
(٩٥) روضة : ١٦٦/١.
(٩٦) روضة : ١٠٩/١ و ١٦٠.
(٩٧) روضة : ٨١/٢.
(٩٨) انظر مؤلفات الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب، القسم الخامس الرسائل الشخصية، من منشورات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ص ٩٧.



الإسلام
والملكية المزدوجة
الخاصة والعامة

للدكتور / محمد شوقي الفنجري

تمهيـــد :

١ - الملكية الخاصة :

جاء الاسلام فأقر الملكية الخاصة (الفردية) وحماها الى أقصى الحدود، معلنا (ان كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه)(١)، وأنه (لايحل مال امرؤ مسلم الا بطيب نفسه)(٢)؛ بل ان (من قتل دون ماله فهو شهيد)(٣). ولقد كانت آخر كلمات الرسول عليه السلام في خطبة الوداع (ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم). ولعل من أبرز صور حماية الاسلام للملكية الخاصة قطع يد السارق، وتنظيم الميراث في صورة أموال استهلاك أو أموال انتاج.

ولكن الى جانب ذلك، لم يطلق الملكية الخاصة، بل وضع عليها قيودا عديدة للصالح العام(٤)، أحالها الى مجرد وظيفة اجتماعية أو شرعية يؤديها المالك(٥). ويمكننا تلخيص هذه القيود فيما يلي:

أولا - من حيث قيامها : لا يتصور قيام الملكية الخاصة أو الاعتراف بها في الاسلام، الا بعد توافر أو ضمان الحد الأدنى اللازم لمعيشة كل فرد. وهو الأمر الذي عبر عنه الحديث النبوي (اذا بات مؤمن جائعا فلا مال لأحد)(٦)، وأفصح عنه الخليفة عمر بن الخطاب بقوله (اني حريص على ألا أدع حاجة الا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض، فاذا عجزنا تأسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف)(٧).

ثانيا - من حيث مجالاتها : لا يسمح الاسلام بالملكية الخاصة في بعض المجالات، وهي مجالات الملكية العامة على نحو ماسنبينه كأراضي الحمى (المراعي)، والمساجد، والمعادن في باطن الأرض، والمرافق الأساسية.

ثالثا - من حيث اكتسابها : فيجب أن يكون اكتساب الملكية مشروعا

بالمفهوم الاسلامي، أي بعيدا عن تجارة الخمور، أو الاحتكار(٨)، أو الربا(٩)، أو أي ضرب من ضروب الاستغلال أو الحصول على المال بالباطل كاستخدام النفوذ أو المغالاة في الأسعار والربح الفاحش. فالشرع الاسلامي يرحب بأن يكتسب كل فرد بجهده مايستحق (للرجال نصيب مما اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن)(١٠)، ولكنه لا يقبل أن يكسب نتيجة نشاط غير مشروع و على حساب غيره من الناس أو استغلال لظروفهم.

رابعا – من حيث التزامها : فيجب أن تؤدى الملكية الخاصة على نحو ماسنبينه كافة التزاماتها وهي الزكاة، والتزام الضرائب، والتزام الانفــــاق في سبيل الله.

خامسا – من حيث استعمالاتها : فالملكية في الاسلام مقيدة حتى في استعمالها، ولا نقصد بذلك تلك القيود التي تتعلق بعدم الاضرار بالغير أو التعسف في استعمال الحق(١١)، مما نصت عليه حديثا بعض النظم المتطورة، وانما نعني تلك القيود التي لانجد لها مثيلا في أحدث النظم الاقتصادية الوضعية فردية (رأسمالية) كانت أو جماعية (اشتراكية). ذلك أن الملكية في الاسلام على نحو ما سنبينه هي أمانة واستخلاف، ومن ثم فان المسلم ليس حرا في استعمال ماله كيفما شاء: فهو لا يستطيع أن يكنزه أو يحبسه عن التداول والانتاج، كما لا يستطيع أن يبذره أو يصرفه على غير مقتضى العقل والا عد بنص القرآن سفيها وجاز الحجر عليه، كما لا يستطيع أن يعيش عيشة بذخ وترف والا عد بنص القرآن مجرما، وهو مأمور دائما بأن يصرف كل مال فائض عن حاجته في سبيل الله سواء في صورة انفاق مباشر على المحتاجين أم إستثمار يعود نفعه على المجتمع.

سادسا – من حيث حدودها : وفيما عدا القيود السابقة، فإن الاسلام يطلق الملكية الخاصة دون أن يضع أي حد أعلى لاكتسابها، وذلك تشجيعا وضمانا للباعث والحافز الشخصي، بحيث كان في عهد الرسول عليه السلام

أثرياء للغاية كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام ممن نسميه بلغة اليوم مليونيرا أو بليونيرا، ولكنه مليونير أو بليونير مقيد أي ملتزم بحدود الشرع(١٢)، لقوله عليه السلام (لا بأس بالغني لمن اتقى)(١٣)، كما يشترط أيضا ألا يكون المال متداولا بين فئة قليلة من الناس، والا تعين شرعا على ولي الأمر التدخل لإعادة التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع(١٤)، إعمالا لقوله تعالى (كي لا تكون دولة بين الأغنياء منكم)(١٥).

٢ - الملكية العامة :

كذلك جاء الاسلام فأقر الملكية العامة (الملكية الجماعية)، وذلك في مختلف الصور التي كان متعارفا عليها ومسلما بها من قبل ظهوره، سواء لدى قبائل العرب أو لدى دولتي الفرس والرومان، فاستصحبها(١٦) وأعطاها الصفة الشرعية. ومن قبيل ذلك ملكية الأراضي التي لا مالك لها (الموات)، وملكية المعادن في باطن الأرض، وملكية المرافق الأساسية كالطرق وينابيع المياه والمراعي والقوت الضروري كالملح وما يقاس عليه، وكنزع الملكية الخاصة جبرا لمنفعة عامة.

بل لقد استحدث الاسلام صورا جديدة من الملكية العامة لم تكن معروفة من قبل. ومن قبيل ذلك المساجد ونزع الملكية الخاصة من أجل توسيعها، والوقف الخيري، وأرض الحمى، والأراضي المفتوحة.

الا أن الملكية العامة في الاسلام، هي بدورها شأن الملكية الخاصة، ليست مطلقة. فلا يملك الحاكم الاسلامي أن يوسع أو يضيق من نطاق الملكية العامة حسبما يشاء، وانما مرد ذلك ما يمليه أو يتطلبه الصالح العام. وهو ما عبر عنه فقهاء الشريعة بقولهم (ان الامام مخير، تخيير مصلحة لا تخيير شهوة).

واذا كانت الدولة في الاسلام على نحو ما سنبينه، تلتزم بالقيام بكل نشاط

اقتصادي يعجز عنه الأفراد كالصناعات الثقيلة ومد السكك الحديدية، أو يعرضون عنه كاستغلال الصحارى واستصلاح الأراضي البور، أو يقصرون فيه أو ينحرفون به كاستغلال المدارس والمستشفيات الخاصة. فان الأمر يستلزم دائما وجود ملكية عامة (قطاع عام) يتولى المشروعات اللازمة للمجتمع، مما لاتقبل عليها الملكية الفردية (القطاع الخاص).

على أن الاسلام على نحو ما سنرى، لا ينظر الى الملكية العامة، باعتبارها فحسب أداة للقيام بما لا يرغب أو يعجز القطاع الخاص عن القيام به. بل ينظر اليها أيضا باعتبارها ركيزة أساسية لقيادة عملية التنمية الاقتصادية. كما ينظر اليها أيضا باعتبارها وسيلة فعالة لتحقيق التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع عن طريق تبني أهداف اجتماعية دون الاقتصار على مجرد تحقيق الربح.

٣ - الملكية الخاصة والعامة في الاسلام، كلاهما أصل يكمل الآخر، وكلاهما ليس مطلقا بل مقيد بالصالح العام.

وخلاصة ما تقدم أن الاسلام أقر منذ أربعة عشر قرنا، الملكية المزدوجة: الخاصة والعامة في آن واحد. ولكن تميز موقفه في هذا الخصوص بأمرين أساسيين:

أولها : ان الملكية الخاصة، والملكية العامة، كلاهما أصل وليس استثناء. وكلاهما يكمل أحدهما الآخر، بحيث لا يتناقض أو يتعارض معه.

ويترتب على أن الملكية الخاصة والملكية العامة، كلاهما أصل وليس استثناء، حرية الأفراد في ممارسة نشاطهم الاقتصادي طالما كان مشروعا بحسب المفهوم الاسلامي. وبالتالي التزام الدولة بتشجيع ذلك النشاط، واحترام الملكية الخاصة الناجمة عنه وحمايتها. وبحيث لا تتدخل الدولة في النشاط الاقتصادي عن طريق الملكية العامة الا حسبما أشرنا اليه حيث يعجز الأفراد عن القيام بذلك النشاط كالصناعات الثقيلة ومد السكك الحديدية، أو حيث يعزفون عن ذلك

النشاط كاستصلاح الأراضي البور وتعمير الصحارى، أو حيث يقصرون فيه كاقامة المساكن الشعبية والتوسع في المدارس أو المستشفيات.

ويترتب على كون الملكية الخاصة، والملكية العامة، أصلان يكمل كل منهما الآخر ولا يتعارض معه، انه لا يجوز للدولة في الاسلام أن تتدخل في النشاط الاقتصادي كتاجرة أو منافسة للأفراد، الا اذا ثبت فعلا مغالاة الأفراد واتجاهاتهم نحو الاستغلال، فيكون تدخلها بالقدر الضروري الذي يلزم لتصحيح مسار النشاط الاقتصادي.

ومن ثم فان الاسلام يرفض كمبدأ سياسة تقوية القطاع العام على حساب القطاع الخاص، أو العكس. الا اذا اقتضت ضرورة أو ظروف معينة، فيكون الاجراء استثنائيا وبصفة مؤقتة وبقدر الضرورة التي استوجبته. والواقع أن القطاع الخاص والقطاع العام في الاسلام، كلاهما بمثابة رئتي المجتمع، بحيث لا يتصور أن يتنفس برئة واحدة، أو برئتين غير متوازنتين.

ثانيهما : ان الملكية الخاصة، والملكية العامة كلاهما ليس مطلقا، بل هو مقيد بالصالح العام. ذلك الصالح العام الذي اعتبره الاسلام حق الله، والذي يعلو فوق كل الحقوق.

وهذا هو السبب في القيود العديدة التي يضعها الاسلام على الملكية الخاصة، والتي تحيلها على نحو ما رأينا، الى مجرد وظيفة اجتماعية، أو بعبارة أدق وظيفة شرعية. وهو السبب أيضا في القيود والشروط العديدة، التي يتطلبها فقهاء الشريعة للتوسع في الملكية العامة أو نزع الملكية الخاصة جبرا أو تأميم بعض المشروعات.

ونوضح ما تقدم في فرعين مستقلين :ـــ

الفرع الأول : في الملكية الخاصة (الفردية).
الفرع الثاني : في الملكية العامة (الجماعية).

الفرع الأول
الملكية الخاصـــة

ونعالج في هذا الفرع نقاطا معينة وباختصار، ومن الزوايا التي تكشف لنا عن المذهب الاقتصادي في الاسلام وتميزه عن سائر المذاهب والأنظمة الاقتصادية الوضعية السائدة، وذلك على الوجه الآتي:

أولا : طبيعة الملكية الخاصة في الاسلام.
ثانيا : الى أي حد حمى الاسلام الملكية الخاصة.
ثالثا : الاسلام لا يحترم الملكية الخاصة الا بعد ضمان حد الكفاف.
رابعا : الاسلام لا يسمح بالثروة والغنى الا بعد ضمان حد الكفاية.
خامسا : الاسلام لا يضع حدا أعلى للملكية أو الغنى.
سادسا : قيود الملكية الخاصة.

أولا : طبيعة الملكية الخاصة في الاسلام

١ – جاء الاسلام معلنا منذ أربعة عشر قرنا، ان كل ما في الكون من ثروة ومافي يد البشر من مال، هو ملك لله تعالى، وانه سبحانه المالك الحقيقي لكل مال. فهو وحده تعالى منشئه وخالقه، وهو وحده واهبه ورازقه. وفي ذلك يقول الله تعالى (ولله ما في السموات وما في الأرض)[١٧]، ويقول (ولله ملك السموات والأرض وما فيهن)[١٨].

واذا شاءت ارادة الله إضافة المال الى عباده بقوله تعالى (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)[١٩]، وقوله (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم)[٢٠]، وقوله (ما أغنى عنه ماله وما كسب)[٢١]، وقوله (في أموالكم حق للسائل والمحروم)[٢٢]. فما ذلك الا حفزا لهمم البشر على تقديم العمل وبذل الجهد

والسعي في الأرض، وليشعروا بفضل الله وأنهم خلفاؤه في أرضه، وفي نفس الوقت ابتلاء وامتحانا لهم بما أنعم الله عليهم وليحسوا بمسئوليتهم عما ملكهم فيه وائتمنهم عليه.

وتوفيقا بين حقيقة ملكية الله تعالى وحده لكل مال، وبين حقيقة إضافة هذا المال الى عباده وإختصاص بعضهم دون غيره بالتصرف فيه، جاءت نظرة الاسلام الخاصة الى الملكية بأنها أمانة وإستخلاف ومسئولية. وذلك بقوله تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون)(٢٣)، وقوله سبحانه (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)(٢٤)، وقوله (ولتسألن يومئذ عن النعيم)(٢٥). وجاءت السنة النبوية مؤكدة (المال مال الله، والفقراء عيال الله، والأغنياء وكلاء الله على عياله)(٢٦)، وقوله عليه السلام (كل شيء فضل عن ظل بيت وكسرة خبز وثوب يواري ابن آدم،فليس لابن آدم فيه حق)(٢٧)، وفي رواية أخرى (يقول العبد مالي مالي، وانما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأبقى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس)(٢٨).

٢ ــ وقد ترتب على تكييف الاسلام للملكية الخاصة مجرد أمانة واستخلاف ومسئولية، الالتزام في شأنها بتعاليم الاسلام: فلا يجوز مثلا تمكين السفهاء والمبذرين من هذا المال بقوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما)(٢٩)،أو حرمان العاجزين المحتاجين من هذا المال بقوله تعالى (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم)(٣٠)، أو أن يكون المال متداولا بين فئة قليلة من الناس بقوله تعالى (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم)(٣١).

٣ ــ ولقد أسهب الفقهاء القدامى والمحدثون في بيان طبيعة الملكية الخاصة في الاسلام وآثار ذلك، ولخصوها بقولهم (المال مال الله، والبشر مستخلفون فيه)(٣٢). فحيازة وملكية الفرد للمال، أيا كان مصدرها كسبا أم وراثة، ليست امتلاكا بالمعنى المطلق، وانما هي وديعة أو وظيفة شرعية أو هي ملكية مجازية أي ملكية الفرد في الظاهر بالنسبة للأفراد الآخرين، إذ المالك الحقيقي لكل الأموال

هو الله تعالى، وأنه سبحانه سيحاسب المكتسب للمال أو الحائز المتصرف فيه حسابا عسيرا.

وقد عبر الامام الزمخشري عن المفهوم الاسلامي للملكية الخاصة، أدق تعبير بقوله (ان الأموال التي في أيديكم، انما هي أموال الله بخلقه وانشائه، وانما مولكم اياها وخولكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي أموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب، فأنفقوا منها في سبيل الله. وليهن عليكم الانفاق منها، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره)(٣٣).

ثانيا : الى أي حد حمى الاسلام الملكية الخاصة

لقد حمى الاسلام الملكية الخاصة، بالمفهوم السابق ايضاحه، الى أقصى الحدود، حتى أنه إعتبر شهيدا من يقتل دون ماله. وكان من أبرز صور هذه الحماية:

(أ) **قطع يد السارق** : بقوله تعالى (والسارق والسارقة، فاقطعوا أيديهما، جزاء بما كسبا نكالا من الله)(٣٤). وتشدد الاسلام في تنفيذ حد السرقة إذ روى أن أسامة بن زيد وكان من أحب الناس الى الرسول عليه السلام، جاء يشفع في فاطمة بنت الأسود المخزومية وكان قد وجب عليها حد السرقة، فأنكر عليه الرسول ذلك وانتهره قائلا (أتشفع في حد من حدود الله)، ثم قام فخطب في الناس قائلا (انما أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق القوي تركوه، واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)(٣٥).

وقد استبشع بعض المستشرقين قطع يد السارق، وقالوا ان ذلك لا يحل مشكلته وانما يجعله عالة على المجتمع. ولكن نسى هؤلاء أن الاسلام ان كان قد

تشدد في حد السرقة للعظة والاعتبار وقطعا لدابر هذه الجريمة حماية وأمنا للمجتمع. فانه تشدد أيضا في إعمالها فيدرأ الحد بالشبهة، ويمتنع شرعا تطبيق حد السرقة في حالة المجالات أو الأزمات التي لا يتوافر فيها حد الكفاية للمواطن (فمن اضطر غير مباح ولا عادة، فلا إثم عليه)(٣٦).

ونضيف ان الذين تقطع أيديهم في التطبيق الاسلامي بسبب السرقة، لا يتجاوز أصابع اليدين عدّا، يراهم الناس فيعتبرون وينقطع دابر هذه الجريمة. ونشير أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوقف تطبيق حد السرقة عام الرمادة (عام المجاعة). كما أنه حين جاءه رجل يشكو سرقة خدمه أمر باحضارهم وأقروا بفعلتهم ذاكرين أن سبب ذلك أنه لا يقوم بكفايتهم من طعام وملبس فلما تحقق عمر من ذلك تركهم واستدعى الرجل وتوعده قائلا (اذا سرق خدمك مرة ثانية، قطعنا يدك أنت). كما يروي عن الخليفة عمر بن الخطاب حين ودع أحد نوابه ببعض الأقاليم سأله: ماذا تفعل اذا جاءك سارق قال: أقطع يده، فقال عمر (وإذن فان جاءني منهم جائع أو عاطل فسوف يقطع عمر يدك)، وأضاف قوله (ان الله قد استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم ونستر عورتهم ونوفر لهم حرفتهم، فاذا أعطيناهم هذه النعم تقاضيناهم شكرها. ياهذا ان الله قد خلق الأيدي لتعمل فاذا لم تجد في الطاعة عملا التمست في المعصية أعمالا، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية)(٣٧).

(ب) **اجازة الميراث وفقا لنظام معين** : يكفل توزيع التركة توزيعا عادلا على عدد كبير من أقارب المتوفى ويحول دون تجمعها في يد فرد معين(٣٨). كما أنه لا يجيز الوصية الا في حدود الثلث، ولا تجوز لوارث الا باذن الورثة. ويتشدد الاسلام في قواعد الميراث، فيعقبها بقوله تعالى (تلك حدود الله، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدود الله يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين)(٣٩).

وفي هذا يتميز الاسلام عن الكثير من النظم التي تحرم الميراث كالشيوعية،

أو تدع المالك حرا في أن يوصي بكل تركته لمن يشاء ولو للقطط والكلاب كما يحدث في أوروبا وأمريكا، أو أن يجعل الميراث لأكبر الأبناء أو يطلق إرادة المورث يختص بها من يشاء من أقاربه. بل جعل الميراث في الأسرة باعتبارها إمتدادا لصاحب المال وذلك بطريق الإجبار أراد صاحب المال أو لم يرد، حماية للأسرة وتوثيقا للعلاقات بين آحادها. واتجه في الميراث الى التوزيع دون التجميع وذلك بحسب القرب والحاجة، ومن ثم كان أكثر الأسرة حظا في الميراث هم الأبناء فهم أكثرهم قربا وحاجة، وكان حظ الذكر ضعف الانثى حيث أن التكاليف المالية التي تطالب بها المرأة دون التكاليف التي يطالب بها الرجل. وكل بنسب معلومة أو حصص مقدرة من الله تعالى، بحيث لا يثور خلاف أو نزاع بين أفراد الأسرة. ولا شك أن في التوزيع دون التجميع، وفي التفاوت بحسب القرابة والحاجة دون المساواة، وفي التحديد دون الترك، العدل كل العدل، وسبحان الله العليم العادل.

ثالثا : الاسلام لا يحترم الملكية الخاصة الا بعد ضمان حد الكفاف

على أن حرمة الملكية الخاصة في الاسلام، مشروطة بأن يتوافر لكل فرد حد الكفاف، أي الحد الأدنى اللازم لمعيشته، بمعنى أنه إذا وجد في المجتمع الاسلامي جائع واحد أو عارٍ واحد، فان حق الملكية لأي فرد من أفراد هذا المجتمع لا يجب احترامه ولا يجوز حمايته. ومؤدى ذلك أن هذا الجائع أو المضيع الواحد، يسقط شرعية سائر حقوق الملكية الى أن يشبع(٤٠).

. وهذا ما يفسر لنا قول الرسول ﷺ (اذا بات مؤمن جائعا فلا مال لأحد)(٤١)، وقوله (أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله)(٤٢). وفي هذا المعنى يقول الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (اني حريص على ألا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض، فاذا عجزنا تأسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف)(٤٣)، كما يقول رضي الله عنه عام المجاعة سنة ١٨ هـ (لو لم أجد للناس ما يسعهم الا أن أدخل على أهل كل

بيت عدتهم فيقاسمونهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بالحيا -أي المطر- فعلت، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم)(٤٤).

وقد عبر عن هذا المعنى الصحابي أبو ذر الغفاري بقوله (عجبت لمن لا يجد القوت في بيته، كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه)(٤٥). وهو ما عبر عنه الامام ابن حزم في كتابه المحلى بقوله اذا مات رجل جوعا في بلد أعتبر أهله قتلة وأخذت منهم دية القتيل، ويضيف ابن حزم بأن للجائع عند الضرورة أن يقاتل في سبيل حقه في الطعام الزائد عند غيره (فان قتل -أي الجائع- فعلى قاتله القصاص، وان قتل المانع فالى لعنة الله لأنه منع حقا وهو طائفة باغية)(٤٦).وعبر عنه الفقيه أحمد بن الدلجي في كتابه الفلاكة والمفلوكون (أي الفقر والفقراء) قوله (ان من حق المحروم أن يرى النعم التي بأيدي الناس مغصوبة، والمالك المستحق يطالب باسترداد ماله من أيدي الغاصبين)(٤٧).

رابعا : الاسلام لا يسمح بالثروة والغنى الا بعد ضمان الكفاية

كذلك فان الاسلام لا يسمح بالثروة الا بعد ضمان حد الكفاية لكل فرد من أفراد المجتمع، أي المستوى اللائق للمعيشة بحسب ظروف الزمان والمكان، والواجب توافره لكل من يتواجد في مجتمع اسلامي أيا كانت ديانته وأيا كانت جنسيته. وهو يوفره لنفسه بجهده وعمله، فان عجز عن ذلك بسبب خارج عن إرادته كمرض أو شيخوخة، انتقلت مسئولية ذلك الى بيت مال المسلمين أي خزانة الدولة(٤٨). وقد روى أبو يوسف في كتابه الخراج وأبو عبيد في كتابه الأموال، كيف أن الخليفة عمر بن الخطاب دهش حين رأى شيخا يتكفف الناس فسأله: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي، فسأله: وما ألجأك الى هذا؟ قال: الجزية والحاجة والسن، فأمر عمر بطرح جزيته وأن يعان من الزكاة باعتباره مسكينا، وأرسل الى خازن بيت المال بقوله (انظر الى هذا وضربائه، فوالله ما أنصفناه، ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم)(٤٩). كما روى البلازري في كتابه فتوح البلدان كيف مر الخليفة عمر بن الخطاب وهو بأرض الشام على

قوم مرضى مجزومين لا حول ولا قوة لهم، فأمر أن يعطوا من الزكاة وأن يجرى عليهم الطعام بانتظام(٥٠).

فضمان حد «الكفاية» لا «الكفاف» لكل فرد يعيش في مجتمع اسلامي، أيا كانت ديانته أو جنسيته، هو في الاسلام أمر جوهري مقدس باعتباره حق الله الذي يعلو فوق كل الحقوق، وفي انكاره أو اغفاله تكذيب للدين نفسه وإهدار للاسلام بقوله تعالى (أرأيت الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين). ومن ثم يقول سيدنا علي بن أبي طالب (ان الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم)(٥١)، ويقول الامام الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية (تقدير العطاء معتبر بالكفاية)(٥٢).

ومن ثم فان الاسلام لا يسمح بالثروة والغنى مع وجود الفقر والحرمان، وانما يبدأ الغنى والتفاوت فيه بعد إزالة الفقر والقضاء على الحرمان. وفي ذلك يقول الله تعالى (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم)(٥٣)، ويقول تعالى (وفي أموالهم حق للسائل والمحروم)(٥٤)، ويقول تعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل)(٥٥)، ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام (من ترك مالا فلورثته ومن ترك دينا أو ضياعا فالي وعلي)(٥٦)، وفي رواية أخرى (من ترك كلا فليأتني فأنا مولاه) أي من ترك ذرية ضعيفة فليأتني بصفتي الدولة فأنا مسئول عنه كفيل به، وقوله عليه السلام (من ترك ضياعا فعلي ضياعه)(٥٧).

خامسا : الاسلام لا يضع حدا أعلى للملكية أو الغنى

وأنه متى توافر لكل فرد في المجتمع الاسلامي حد الكفاية أي المستوى اللائق للمعيشة، والذي تضعه الدولة لكل مواطن اذا عجز هو عن تحقيقه لسبب خارج عن ارادته، فانه يكون لكل تبعا لعمله وسعيه في الأرض دون أي قيد أو حد أعلى للملكية أو الثروة والاغتناء. فالقرآن يقول (للرجال نصيب مما

اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن)(٥٨)، والحديث النبوي يقول (لا بأس بالغنى لمن اتقى)(٥٩).

ونخلص مما تقدم انه في الظروف غير العادية (الاستثنائية) كمجاعة أو حروب يتساوى المسلمون في حد الكفاف Minimum vital. وفي الظروف العادية يتساوى المسلمون من حيث توفير الكفاية Minimum d'aisance، وما فوق ذلك يكون تبعا لعمله وجهده. فالله تعالى اذ يقول (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا)(٦٠)، واذ يقول تعالى (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق)(٦١)، نجده تعالى يقول (ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون)(٦٢)، ويقول تعالى (وفضل المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة)(٦٣). فاغتناء الناس وتفاوتهم في أرزاقهم ومعيشتهم، ورفه بعضهم فوق بعض درجات وتفضيل بعضهم على بعض، ليس اعتباطا وإنما هو بقدر ما يبذلونه من جهد وعمل صالح، وصدق الله العظيم (وان ليس للانسان الا ما سعى، وان سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى)(٦٤).

وعليه فانه في ظل الاقتصاد الاسلامي، يصح أن يتواجد أثرياء للغاية مما نطلق عليه اصطلاح مليونير أو بليونير، ولكنه مليونير أو بليونير ملتزم بالشرع. فهو على نحو ما سنبينه عند الكلام عن الأصل الاقتصادي الاسلامي الخاص بحفظ التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع: لا يملك أن يكنز ماله أو يحبسه عن التداول والانتاج، ولا يملك أن يصرف ماله على غير مقتضى العقل وإلا عد سفيها وجاز الحجر عليه، ولا يملك أن يعيش عيشة مترفة وإلا عد بنص القرآن مجرما، وهو مطالب دائما بانفاق الفائض عن حاجته في سبيل الله في صورة انفاق مباشر على المحتاجين أو استثمار يعود نفعه على المجتمع. وفوق ذلك فان الحاكم أو أولياء الأمر مطالبون بالتدخل لمنع استئثار أقلية بخيرات المجتمع إعمالا لقوله تعالى (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم)(٦٥)، ومطالبون دائما باتخاذ الاجراءات اللازمة لتحقيق التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع وبالقدر الذي يحقق التكامل لا التناقض والتعاون لا الصراع.

سادسا : قيود الملكية الخاصة

أوضحنا في التمهيد أن الملكية الخاصة في الاسلام ليست مطلقة، بل هي مقيدة، وانها في حقيقتها وظيفة شرعية.

ولقد أشرنا الى أهم هذه القيود، ولسنا هنا بصدد تفصيلها. ولكن يهمنا هنا أن نزيل لبسا يثور بالنسبة لأحد هذه القيود وهو الخاص بالتزامات الملكية الخاصة. ذلك أن الاسلام اذ صان الملكية الخاصة وكفل الانتفاع بها، فقد أوجب عليها ثلاثة التزامات رئيسية هي التزام الزكاة، والتزام الضرائب، والتزام الانفاق في سبيل الله. وهذه الالتزامات الثلاثة كل منها مستقل عن الآخر، ذلك لأن لكل منها سنده الشرعي، ولكل منها مجاله وأهدافه، ولكل منها خصوصياته وأحكامه.

١ ــ اما أن لكل منها سنده الشرعي: فذلك لأن فريضة الزكاة وفريضة الانفاق في سبيل الله سندها النص، في حين أن الضرائب سندها المصلحة.

فالله تعالى يقول (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)(٦٦)، ويقول تعالى (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة)(٦٧)، فايتاء الزكاة غير الانفاق في سبيل الله وهو سبيل المجتمع أي المصلحة العامة. يؤكد ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام حين قال (ان في المال حقا سوى الزكاة)(٦٨)، تلا قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة)(٦٩). وهذا الفصل في الآية الكريمة بين الانفاق والزكاة بالصلاة، دليل على الاختلاف بين الانفاق والزكاة. كما أن النص على كل من الانفاق والزكاة على حدة في آية واحدة قاطع بأن كليهما يختلف عن الآخر وانهما فريضتان مختلفتان(٧٠).

وفي صدر الاسلام حين رأى الخليفة عمر بن الخطاب أن الفرس والرومان

يتقاضون مكوسا بواقع ١٠٪ على الداخل والخارج من تجارة المسلمين، عاملهم بالمثل وفرض ضريبة العشور وهي ضريبة جمركية يؤديها المسلم والذمي على السواء عن الدخل والخارج من السلع والبضائع، فكان سنده هو المصلحة(٧١).

٢ ــ **اما أن لكل منهما مجاله وأهدافه**: فذلك لأن الزكاة تستهدف عن طريق الدولة تحرير الانسان من عبودية الحاجة أي بالتعبير الحديث مواجهة التزامات الضمان الاجتماعي(٧٢). في حين أن الانفاق في سبيل الله يستهدف عن طريق الفرد المعاونة في مساعدة الآخرين وتنمية المجتمع فيما تقصر عنه الدولة (وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية)(٧٣).أما الضرائب فتستهدف مواجهة التزامات الدولة الأخرى كالصرف على جهازها الاداري أو تنميتها الاقتصادية.

فاذا كانت حصيلة الزكاة تصرفها الدولة بنص القرآن على فئات معينة تجمعها صفة الحاجة سواء كانت هذه الحاجة بسبب الفقر (الفقراء والمساكين)، أو بسبب الرق (وفي الرقاب) أو بسبب ظروف طارئة (الغارمين وابن السبيل)، بحيث لا يجوز الانفاق منها على الجهاز الاداري للدولة أو تمويل الانفاق العام. فمن أين ينفق عليها سوى الضرائب أو موارد الدولة الأخرى كالفيء والغنيمة في عهد الرسول عليه السلام، وضريبة العشور في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكذا أجرة الخراج الذي كان يمثل حصة الدولة في عائد الأراضي الخراجية المملوكة ملكية عامة (جماعية).

٣ ــ **اما أن لكل منها خصوصياته وأحكامه**: فذلك لأن الزكاة تجب في الأموال النامية سواء وجدت الحاجة اليها أم لم توجد، وبمقدار وسعر موحد لا تتجاوزه. بخلاف الضرائب فانه لا يجوز للدولة الاسلامية فرضها إلا اذا قامت الحاجة اليها، ويختلف مقدارها وسعرها باختلاف ظروف كل دولة.

أما الانفاق في سبيل الله فهو التزام الفرد المسلم بأن يصرف كل ما زاد عن

حاجته في سبيل الله، سواء في صورة إنفاق مباشر على المحتاجين أم في صورة إستثمار يعود نفعه على المجتمع. وذلك لقوله تعالى (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)(٧٤)، وقوله تعالى (يسألونك ماذا ينفقون، قل العفو)(٧٥). والعفو هو كل ما زاد عن الحاجة أي الفائض الاقتصادي، فانه لا يجوز شرعا كنزه أو حبسه عن التداول والانتاج، كما لا يجوز صرفه على غير مقتضى الشرع في سفه أو ترف، بحيث لا ينفق على نحو ما أوضحنا سوى انفاقه على المحتاجين أو إستثماره بما يعود نفعه على المجتمع.

الفرع الثـاني
الملــكية العــامة

ونعالج في هذا الفرع نقاطا معينة باختصار. ومن الزوايا التي تكشف لنا عن المذهب الاقتصادي في الاسلام وتميزه من سائر المذاهب والأنظمة الاقتصادية الوضعية السائدة، وذلك على الوجه الآتي:

أولا : اصطلاح الملكية العامة (أو الملكية الجماعية).
ثانيا : الاسلام يقر صورة قائمة للملكية العامة
ثالثا : الاسلام يستحدث صورا جديدة للملكية العامة.
رابعا : الملكية العامة في العهد الاسلامي الأول.
خامسا : الملكية العامة والتنمية الاقتصادية.
سادسا : الملكية العامة وحفظ التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع.

أولا : اصطلاح الملكية العامة (أو الملكية الجماعية)

يراد باصطلاح الملكية العامة Propriété publique تخصيص المال للمنفعة العامة، وذلك في مقابلة الملكية الخاصة Propriété privée التي ينفرد بالانتفاع

بها فرد معين على وجه التخصيص والتعيين. ويعبر عنها أيضا باصطلاح الملكية الجماعية Propriéte collective، في مقابل اصطلاح الملكية الفردية Propriéte individulle.

ويشمل إصطلاح الملكية العامة أو الملكية الجماعية على النحو المتقدم، عدة صور، ومن قبيل ذلك:

١ – ملكية الدولة أو القطاع العام.
٢ – ملكية الجماعة كما هو الشأن في يوغوسلافيا، فملكية المصنع أو المزرعة للعاملين فيه هو بهذه الصفة لا بصفتهم الشخصية.

٣ – ملكية المجتمع وهي الملكية الشائعة كالشوارع والأنهار والمعابد والكنائس والمساجد، والتي يتمتع بها أفراد المجتمع بحق متساو في إستخدامها والانتفاع بها.

٤ – الملكية التعاونية.

والملكية العامة لا سيما في صورة ملكية الدولة أي القطاع العام، هي اليوم عصب الاقتصاد القومي الحديث. باعتبارها وسيلة الدولة المضمونة في تحقيق التنمية الاقتصادية، فضلا عن دورها في تحقيق التوازن بين أفراد المجتمع. ولاتكاد تخلو اليوم أي دولة، بما في ذلك الدول الرأسمالية، من قطاع عام أو ملكية عامة متزايدة.

ثانيا : الاسلام يقر صورا قائمة للملكية العامة

أقر الاسلام صورا للملكية العامة كانت معروفة من قبل لدى الفرس والرومان، ومن قبل ذلك:

(١) **ملكية الأرض التي لا مالك لها (الموات)**،وذلك لقول الرسول عليه السلام (عادى الأرض لله ورسوله ثم هي لكم)(٧٦)، وعادى الأرض هي المهجورة التي لا عمارة فيها.

(٢) **ملكية المعادن في باطن الأرض (الركاز)**،فهي في الرأي الراجح شرعا ملك للدولة(٧٧). فلا يجوز للأفراد أن يمتلكوها نظرا لأهميتها كثروات كبيرة يجب أن تكون فائدتها للجماعة كلها، لا لفرد ملك الأرض دون ما في جوفها(٧٨)، ولعدم التوافق بين الجهد المبذول والناتج الذي يحصل منها.

هذا ويؤكد فقهاء الشريعة أن للدولة أن تقطع الأراضي التي لا مالك لها (الموات)، وكذا أراضي المعادن، وذلك إقطاع تمليك أو إقطاع تأجير، وذلك وفقا لما تقتضيه المصلحة وما تضعه من شروط.

(٣) **ملكية المرافق الأساسية**، كالمياه أو الكهرباء، وضروريات الحياة كالملح. فانها تكون ملكية عامة استنادا الى قول الرسول عليه الصلاة والسلام (الناس شركاء في ثلاثة الماء والكلأ والنار)، وفي حديث آخر (الملح ومايقاس عليه)(٧٩).

فهذا النص يعني في نظر بعض الباحثين المحدثين: ان كل ما كان ضروريا لحياة الناس مجتمعة، لا يصح أن يكون محلا لملكية خاصة بل تستقل به الدولة أو الجماعة(٨٠).

والفقهاء القدامى مجمعون بأن الماء في بئر حفرت أو في مجرى عين تفجرت، يثبت حق الشفعة فيها لكل الناس بشرط عدم الحاق الضرر بصاحبها. فليس لصاحبها أن يمنع عنها الناس، فان منع أجبر بغير سلاح، فان لم يفد فبالسلاح. بل ان الماء المحجوز في آنية، ولو أنه مملوك لحائزه، لا يجوز منعه عن الناس عند الضرورة الشديدة للمحتاج اليه(٨١).

(٤) **نزع الملكية الخاصة جبرا لمنفعة عامة:** فقد أقرها الاسلام حين أمر الرسول عليه السلام خلع نخلة سمرة بن جندب جبرا، وحين أخذ الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه الأرض المحيطة بالكعبة جبرا عن أصحابها لتوسعتها.

ومن ثم فقد اتفق فقهاء الشريعة على جواز نزع الملكية الخاصة لمصلحة عامة كتوسعة مسجد أو طريق أو مقبرة، على أن يكون ذلك بثمنه. أما لو كان ذلك بلا عوض، فانه يكون مصادرة لا تجيزها الشريعة الاسلامية الا في أموال الحربي غير المستأمن(٨٢).

ثالثا : الاسلام يستحدث صورا جديدة للملكية العامة

بل لقد استحدث الاسلام صورا جديدة من الملكية العامة لم تكن معروفة من قبل، وهي:

(١) **المساجد** : فهي أموال عامة، ويجوز نزع الملكية من أجل توسيعها. فحينما ضاق المسجد الحرام، أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشراء ما حوله من دور، فرضى البعض وأبى البعض الآخر، فأخذها سيدنا عمر بن الخطاب جبرا من أصحابها ووضع قيمتها بخزانة الدولة ليأخذها أصحاب الدور وقال لهم (انما نزلتم الكعبة وهذا فناؤها، ولم تنزل الكعبة عليكم).

وقد رأى بعضهم(٨٣)، أن المساجد ليست من الملكية العامة استنادا الى قوله تعالى (وأن المساجد لله). وهذا القول مردود عليه بأن حقوق الله هي حقوق المجتمع، وأن المساجد وهي بيوت الله ليست ملكا لأحد من الناس وإنما هي ملك المجتمع الاسلامي، وهي بالتالي أموال عامة.

وجدير بالذكر أن المساجد في الاسلام ليست كالكنائس مجرد أماكن لاقامة الشعائر الدينية، ولكنها أساسا مصدر للتوعية والتوجيه والمشاركة الشعبية

في بناء المجتمع. فيروى أن الرسول قصد ذات مرة المسجد فوجد في ناحية قوما يذكرون الله، وفي ناحية أخرى مجلس علم، فقال هذا خير وهذا خير ولكنني بعثت معلما، واختار مجلس العلم. بل لقد كان مصير الأمة الاسلامية يقرر في المسجد، وفيه تتمثل فكرة المشاركة الشعبية في الحكم، وتصدر عنه أخطر القرارات السياسية(٨٤).

(٢) **أرض الحمى** : وهي المراعي، اذ كان يحدث في الجاهلية أن يحاول شخص أو جماعة معينة الانفراد ببعض المراعي، بحيث لا يسمحون لغيرهم أن يرعوا فيها بأنعامهم، بدعوى أنها أصبحت في حمايتهم. فجاء الاسلام وأعلن أن (لا حمى الا لله ورسوله)، أي أن جميع أراضي الرعي هي للكافة وفقا لما يحدده ولي الأمر. وقد حمى الرسول عليه الصلاة والسلام أرض النقيع لرعي خيل المسلمين (والنقيع موضع معروف بقرب المدينة)، كما حمى الخليفة عمر بن الخطاب أراضي الربذة والشرف (وهما موضعان بين مكة والمدينة).

والحمى هو أن يحمي الامام جزءا من الأرض الموات المباحة لمصلحة المسلمين دون أن تختص بفرد معين منهم. وهذه الحماية لا تعدو أن تكون اقرارا للملكية العامة (الجماعية) وانشاء لها في الاسلام، اذ تصير الأرض ملكا لجماعة المسلمين في سبيل منفعة لهم.

ويلتبس الأمر لدى بعض الكتاب حين يصورون الحمى بأنه نوع من التأميم، ذلك أن الحمى ليس انتزاعا للحق من أصحابه بغير رضاهم، وانما هو منع الأفراد من إحياء الأرض المباحة ونقل ملكيتها الى الجماعة. فأرض الحمى لم تكن مملوكة لأحد ملكية خاصة، وإنما هي أصلا ملكية عامة في صورة ملكية للدولة، وقد ظلت كذلك ملكية عامة وإنما في صورة أخرى هي ملكية الجماعة.

(٣) **الوقف الخيري** : فقد أصاب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه

أرضا بخيبر، وجاء الى رسول الله عليه السلام قائلا (أصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمرني)، فقال عليه السلام (إن شئت حبست أصلها - أي العين - وتصدقت بثمرتها - أي المنفعة)(٨٥). فأشهد عمر على حبسها لا تباع ولا توهب ولا تورث، ومنفعتها صدقة مؤبدة للسائل والمحروم. وعلى منواله صار المسلمون يوقفون أموالهم لصالح المساجد والمدارس والمستشفيات... الخ من وجوه البر والخير.

فالوقف هو إخراج المال من ملك صاحبه بإختياره، الى ملك الله تعالى أي ملك الجماعة، وهي صورة من صور الملكية العامة أو الجماعية حسبما أسلفنا. والوقف لا يكون إلا خيريا أي للمنفعة العامة بداية ونهاية. أما الوقف الأهلي يكون لصالح من يختاره المالك، وتنتقل منفعة الوقف الى ذرية الموقوف عليهم حتى اذا إنتفى العقب يكون لجهة بر لا تنقطع، فهو على الرأي الغالب مخالف لتعاليم الاسلام. إذ ينطوي على تحايل وإخلال بقواعد الميراث، فضلا عن أنه يؤدي الى تجميد الثروة وحبسها عن التداول الطبيعي، وأنه بمرور الزمن يتعدد المستحقون في الوقف الواحد بحيث يتضاءل للغاية نصيب كل منهم فيهملونه لعدم امكان التصرف فيه، وبالتالي يصبح هذا الوقف عاملا معوقا للاقتصاد القومي. وقد أصاب ولي الأمر في مصر، حين عمد الى ابطال الوقف الأهلي بالقانون رقم ١٨٠ لسنة ١٩٥٢ (٨٦).

(٤) **الأراضي المفتوحة** : فانه بفتح الشام والعراق ومصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثار الجدل لأول مرة حول ملكية هذه الأرض.

فقد طالب المحاربون قسمتها عليهم بدعوى أنها تأخذ حكم الغنائم. وحكم الغنائم معروف وهو تقسيمها بين المحاربين بعد اعطاء الخمس لبيت المال إستنادا الى قوله تعالى (واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)، واستندوا أيضا الى ما اتبعه الرسول عليه السلام من حيث توزيع أراضي خيبر وغيرها على المجاهدين الغانمين (٨٧).

في حين رأى الخليفة عمر بن الخطاب بثاقب نظره. ان الأمر يختلف كلية بالنسبة للأراضي المفتوحة بالشام والعراق ومصر، وهي ملايين الأفدنة. فان توزيعها على المحاربين يؤدي إلى إستئثار أقلية بثروات المجتمع الاسلامي، وبالتالي الى إختلال التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع ويمحق تماسكه. ومن ثم فقد جمع أهل الحل والعقد من الصحابة، وأوضح لهم وجهة نظره بأن حكم الغنائم هو في الأموال المحدودة قيمتها كما حدث في عهد الرسول عليه السلام، بخلاف الأمر في الثروات الطائلة كالأراضي المفتوحة فإنه لا يجوز توزيعها على المحاربين أو غيرهم وتصبح ملكا للأمة الاسلامية ممثلة في جيلها الحاضر وأجيالها المستقبلة أي ملكية عامة(٨٨).

وقد أسفر حوار الخليفة عمر بن الخطاب مع الصحابة وأهل الحل والعقد حول الأراضي المفتوحة، أن إنعقد الرأي ان هذه الأراضي لا تأخذ حكم الغنائم ولا توزع على أحد، بل تكون وقفا على المسلمين جميعا أو ملكا لبيت المال، وما استمرار بقائها في أيدي واضعي اليد من أصحابها الأصليين من أهل البلاد المفتوحة الا من قبيل الانتفاع مقابل دفع الخراج لبيت المال أي أجرة الأرض. وكان من يعجز منهم عن دفع الخراج يخفف عنه، بل يسقط الخراج اذا لم يتمكن حائزها من زراعتها بسبب لا يد له فيه. ثم بمرور الزمن، وظهور واضعي اليد على الأراضي الخراجية بمظهر الملاك، حتى انهم كانوا (يتوارثونها ويبايعونها) كما يقول أبو يوسف(٨٩)، انتهى الرأي بأغلب فقهاء الشريعة خاصة المنتمين الى المذهب الحنفي الى الاعتراف لهم بملكية هذه الأراضي دون النظر الى (كون أصل الأراضي ملكا لبيت المال أو وقفا على المسلمين(٩٠).

رابعا : الملكية العامة في العهد الاسلامي الأول

لا شك أن طبيعة المرحلة التاريخية التي ظهر فيها الاسلام، حيث كان النشاط الاقتصادي ضعيفا أساسه الرعي والتجارة، فضلا عن قوة الوازع الديني، لم

تكن تتطلب التوسعة في مبدأ الملكية العامة. وكما يقول فضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ على الخفيف (في عهد الرسول عليه السلام كانت الثروة العامة للمسلمين ضيقة الحدود قليلة المقدار في جملتها بالنسبة الى ثراء غيرها من الأمم الأخرى المعاصرة لها وكانت أهم مصادرها ضعيفة هزيلة. وكان توزيع الثروة بينهم لضآلتها قريبا الى أن يكون متعادلا اذ كانت موارد رزقهم لا تعدو في الغالب عطاء من غنائم أو من زكاة تقسم بينهم وقد كانوا متساويين. ولم يعرف منهم بالثراء الواسع الا عدد قليل منهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير ابن العوام وطلحة بن عبيد الله وهم الذين أكبوا على التجارة والعمل فيها، ومع هذا فقد كانت استجابتهم لدواعي البذل والانفاق في سبيل الله على اختلاف وجوهه إستجابة سريعة قوية كريمة وكانوا يسارعون الى الخروج عن جزء عظيم من أموالهم ثلثها أو نصفها بل قد يبذلونها جميعا وذلك على حسب الحاجة ومقتضى الداعية وليس إنفاقهم في هذه الوجوه بالأمر المجهول... من هذا يرى أنه لم يكن في عهد الرسول من داعية عن مصلحة أو ضرورة تدعو الى النظر في دفعها بتحديد الملكية في مقدارها)(٩١).

على أنه منذ قيام دولة الاسلام في أواخر عهد الرسول عليه السلام، ثم إتساعها في عهد الخليفة أبي بكر ومن بعده عمر بن الخطاب.. ثم ما صاحب ذلك من زيادة موارد الدولة وازدياد مسئولياتها، فضلا عن اتساع النشاط الاقتصادي وظهور مشاكل اقتصادية جديدة، وجدنا تطبيقات جديدة لا سيما في عهد الخليفة عمر بن الخطاب يتوسع بمقتضاها في إعمال مبدأ الملكية العامة، ومن قبيل ذلك الإكثار من المرافق العامة والمساجد، ونزع الملكية الخاصة جبرا لمنفعة عامة، ورفض توزيع الأراضي المفتوحة على المجاهدين الغانمين وإحالتها الى ملكية عامة... الخ من الصور السالف بيانها.

خامسا : الملكية العامة والتنمية الاقتصادية

يتبين الباحث المدقق، أن الاسلام في اعترافه للملكية سواء كانت خاصة أم عامة، وفي نظرته اليها وتنظيمه لها، انما أقامها بإعتبارها وسيلة إنمائية أي

بإعتبارها حافزا من حوافز التنمية. وهو ما سبق أن أوضحناه عند دراستنا للأصل الاقتصادي الاسلامي الخاص بالتنمية الاقتصادية المتكاملة. ذلك أن الملكية سواء كانت خاصة أم عامة، هي في نظر الاسلام أمانة ومسئولية واستخلاف، بحيث تسقط شرعيتها اذا لم يحسن الفرد أو الدولة استخدام هذا المال استثمارا أو انفاقا في مصلحته ومصلحة الجماعة.

ولكن ما يهمنا هنا بيانه باختصار، هو دور نوعي الملكية في التنمية الاقتصادية. الأمر الذي يتميز فيه الاقتصاد الاسلامي عن الاقتصادين السائدين الرأسمالي والاشتراكي، ذلك أنه:

١ - **في الاقتصاد الرأسمالي** : الأصل هو الملكية الخاصة، والاستثناء هو الملكية العامة اذا اقتضت الضرورة تولي الدولة بعض أوجه النشاط الاقتصادي.

فالملكية الخاصة هنا مقدسة إذ هي في نظره الباعث على النشاط الاقتصادي وجوهر الحياة، ومن ثم فهي وحدها الأساس في التنمية الاقتصادية.

٢ - **وبالعكس في الاقتصاد الاشتراكي** : الأصل هو الملكية العامة، والاستثناء هو الملكية الخاصة لبعض وسائل الانتاج يعترف بها النظام بحكم ضرورة اجتماعية.

فالملكية الخاصة هنا غير مصونة إذ هي في نظره سبب كل المساويء والمشكلات الاجتماعية، ومن ثم يرى عدم الاعتداد بها في مجال التنمية بحيث تكون الملكية العامة هي وحدها الأساس في التنمية الاقتصادية.

٣ - **أما في الاقتصاد الاسلامي** : فهو كما سبق أن أوضحنا، يعترف بنوعي الملكية الخاصة والعامة، وكلاهما كأصل وليس استثناء، ولكل مجاله في

التنمية الاقتصادية بحيث يكمل كل منهما الآخر، وكلاهما ليس مطلقا بل هو مقيد باعتبارات المصلحة والتنمية.

وعليه فقد تتوسع احدى الدول الاسلامية فى إعمال الملكية العامة في مجال التنمية الاقتصادية فلا يحيلها ذلك الى دولة اشتراكية، وبالعكس قد تضيق من إعمال الملكية العامة في مجال التنمية الاقتصادية فلا يحيلها الى دولة رأسمالية، طالما كانت ظروفها تقتضي هذا التوسع أو التضييق في الملكية الخاصة أو العامة بحسب متطلبات التنمية ودون إنكار أو إهدار لاحدى الملكيتين. ويظل بذلك الخلاف بينها هو كما سبق أن ألمحنا، خلاف زمان ومكان لا حجة وبرهان، وهو ما نستطيع أن نعبر عنه أخذا عن شيخ الاسلام ابن تيمية باصطلاح أنه (اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد)(٩٢).

سادسا : الملكية العامة وحفظ التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع

على أن هناك دورا هاما آخر للملكية في نظر الاسلام، وهو إستخدام الملكية بصورتيها الخاصة والعامة في تحقيق التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع. ذلك الأصل الاقتصادي الاسلامي الذي سنعرض له في مطلب مستقل. فالاسلام اذ يقر التفاوت في توزيع الثروات لكل بحسب سعيه وعمله، الا أنه لا يسمح أن يكون هذا التفاوت كبيرا بين غنى فاحش وفقر مدقع، مما يمحق تماسك المجتمع ويخل بتوازنه. كما لا يسمح الاسلام بأي حال، أن يكون المال متداولا بين فئة قليلة من الناس لقوله تعالى (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم)(٩٣). وانه على نحو ما سنرى يتعين على الحاكم المسلم التدخل دائما لإعادة التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع عند افتقاده، وبالقدر الذي يحقق التوازن والإعتدال الذي هو سمة المجتمع الاسلامي.

ومن قبيل إستخدام الملكية الخاصة لحفظ التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع قول الرسول عليه السلام (من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه،

ولا يؤاجرها اياه)(٩٤). ومن قبيل استخدام الملكية العامة اقتصاره ﷺ، توزيع فيء بني النصير على المهاجرين الذين تركوا أموالهم وديارهم وإثنين فقط من الأنصار كانوا فقراء وتنطبق عليهم نفس الحكمة التي أوحت بتخصيص هذا الفيء للمهاجرين وهو اعادة التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع.

ولا شك أن رفض الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، توزيع الأراضي المفتوحة على المهاجرين الغانمين واحالتها على نحو ما سبق ايضاحه الى ملكية عامة، لم يكن في الحقيقة الا مراعاة للأصل الاسلامي الخاص بحفظ التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع بما يحقق التكامل لا التناقض والتعاون لا الصراع.

والله تعـــالى الموفق،،

الهـــوامش

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل والحاكم والدارقطني.

(٣) أخرجه النسائي.

(٤) وكما يقول الفقهاء (ان الأحكام الشرعية كلها قامت لتحقيق مصالح العباد، وكل حق ثابت مقيد بعدم الاضرار)، وقولهم (الحقوق الشرعية كلها منح من الله تعالى لعباده، وهو يعطيها مقيدة،ولا يعطيها مطلقة).

– انظر البحوث المنشورة عن الملكية في الاسلام لكبار علماء المسلمين، بكتاب مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية الأول سنة ١٩٦٤، لناشره مشيخة الأزهر الشريف بالقاهرة.

– وانظر أيضا فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه المجتمع الاسلامي، لناشره دار الفكر بالقاهرة، ص ٢١، و٦٦ وما بعدها.

(٥) اصطلاح أن الملكية الفردية في الاسلام «وظيفة اجتماعية»، هو اصطلاح حديث. وقد اعترض عليه بعضهم بدعوى أنه يشعر أن التوظيف من المجتمع ولو خرج على حدود الشرع، ويفضلون عليه اصطلاح «وظيفة شرعية». ولكن التسمية لا تنطوي على خلاف، طالما أن الوظيفة الاجتماعية للملكية في الاسلام لابد وأن تكون في حدود الشرع. لذلك لم يمانع كبار فقهاء الشريعة المعاصرون من استخدامه، وان تحفظ بعضهم كفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة بقوله في كتابه المجتمع الاسلامي، المرجع السابق ص ٢١ و ٢٢ (وقد رأينا بعض الذين يكتبون في المسائل الاسلامية أن الملكية وظيفة اجتماعية، ولا نرى مانعا من استعمال هذا التعبير، ولكن يجب أن يعرف انها بتوظيف الله تعالى، لا بتوظيف الحكام، لأن الحكام ليسوا دائما عادلين).

(٦) أخرجه أبو داود.

(٧) انظر ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب، لناشره المطبعة التجارية الكبرى، طبعة بدون تاريخ، ص ١٠١.

(٨) الاحتكار هو جمع السلعة وحبسها عن السوق للانفراد بالتصرف فيها، وهو في الاقتصاد الوضعي السيطرة على عرض وطلب السلعة بقصد تحقيق أقصى قدر من الربح، وهو في الاقتصاد الاسلامي جمع أو حبس السلعة التي يحتاج اليها الناس لبيعها بثمن مغالى فيه لقول الرسول (من احتكره حكرة يريد أن يغلي بها على المسلمين فهو خاطيء – رواه مسلم)، وقوله (من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقا على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة – رواه أبو داود والترمذي). وقوله (الجالب مرزوق والمحتكر ملعون – رواه مسلم)، وفي رواية أخرى (أبشروا فان الجالب الى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله، وان المحتكر في سوقنا كالملحد في كتاب الله).

ومن ذلك يبين أن مفهوم الاحتكار واحد في الاحتكار واحد في الاقتصاد الوضعي والاقتصاد

الاسلامي، ومرده في النهاية ما عبر عنه الامام أبو حنيفة بقوله في عبارة دقيقة جامعة مانعة (كل ما أضر الناس حبسه فهو احتكار). ومؤدى ذلك أن جمع السلعة أو حبسها عن السوق أو إنفراد منتج أو بائع واحد بعرض السلعة، هو أمر جائز بالقدر الذي لا يؤدي الى الاضرار بالناس أو رفع السلعة بأكثر من قيمتها أو تحقيق أرباح مبالغ فيها. فالمعمول عليه ليس هو ذات الاحتكار، وانما استغلال حاجة الناس، فحينئذ يكون الاحتكار محرما شرعا، الأمر الذي يستلزم تدخل الدولة واكراه المحتكرين على بيع ما عندهم بقيمة المثل.

الا أن فقهاء الشريعة يشترطون لمثل هذا التدخل شروطا معينة، يرجع فيها الى كتب الفقه، وقد عرضنا اليها ملخصة في كتابنا المدخل الى الاقتصاد الاسلامي، ص ٩٠ و ٩١.

(٩) انظر في بيان الربا، وطبيعة الخلاف بين الفقهاء حول الربا، اذا كانت كل فائدة تعتبر من قبيل الربا، كتابنا المدخل الى الاقتصاد الاسلامي، طبعة سنة ١٩٧٨ ص ٨٣ وما بعدها، لناشره مكتبة النهضة العربية بالقاهرة.

(١٠) سورة النساء، الآية رقم ٣٢.

(١١) وأساس ذلك قوله تعالى (ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين – البقرة/١٩٠). ومن قبيل ذلك ما روى أن سمرة بن جندب كان له نخل في بستان رجل من الأنصار، وكان سمرة يأثر من دخول البستان هو وأهله فيؤذي بذلك صاحب البستان، فطلب اليه أن يبيعه النخل فأبى، فشكا الى رسول الله فاستدعى عليه السلام سمرة وطلب منه أن يبيعه فأبى، فطلب اليه أن يناقله فأبى، فقال هبه ولك مثله في الجنة فأبى. فقال الرسول لسمرة (أنت مضار) أي تبتغي ضرر غيرك، وقال لمالك البستان (اذهب فأقلع نخله).

ومن قبيل ذلك ما روى انه كان للضحاك أرضا لا يصل اليها الماء الا اذا مر ببستان لمحمد ابن سلمة، فأبى ابن سلمة أن يدع الماء يجري بأرضه، فشكاه الضحاك الى الخليفة عمر بن الخطاب، فاستدعى عمر ابن سلمة وسأله (أعليك ضرر في أن يمر الماء ببستانك) فقال: لا، فقال عمر: (والله لو لم أجد له ممرا الا على بطنك لأمررته).

(١٢) انظر كتابنا الاسلام والمشكلة الاقتصادية، طبعة سنة ١٩٧٨، ص ٨٧ وما بعدها، لناشره مكتبة الانجلو المصرية.

(١٣) أخرجه الحاكم في مستدركه.

(١٤) انظر كتابنا الاسلام والمشكلة الاقتصادية، مرجع سابق، ص ٨٤ وما بعدها.

(١٥) سورة الحشر، الآية رقم ٧.

(١٦) الاستصحاب هو من الأدلة الشرعية، وهو ما عبر عنه الأصوليون بأنه اقرار شرع ما قبلنا، طالما اقتضته المصلحة ولا يتعارض مع أصل اسلامي

(١٧) سورة النجم، الآية رقم ٣١.

(١٨) سورة المائدة، الآية رقم ١٢٠.

(١٩) سورة النساء، الآية رقم ٢٩.

(٢٠) سورة المنافقون، الآية رقم ٩.

(٢١) سورة المسد، الآية رقم ٢.

(٢٢) سورة الذاريات، الآية رقم ١٩.
(٢٣) سورة المؤمنون، الآية رقم ٨.
(٢٤) سورة الحديد، الآية رقم ٧.
(٢٥) سورة التكاثر، الآية رقم ٨.
(٢٦) أخرجه البخاري.
(٢٧) أخرجه الطبراني.
(٢٨) أخرجه مسلم.
(٢٩) سورة النساء، الآية رقم ٥.
(٣٠) سورة النور، الآية رقم ٣٣.
(٣١) سورة الحشر، الآية رقم ٧.
(٣٢) انظر كتابنا الاسلام والمشكلة الاقتصادية، طبعة سنة ١٩٧٨، ص ٧٢ وما بعدها، لناشره مكتبة الانجلو المصرية.
(٣٣) انظر الامام الزمخشري في تفسيره الكشاف، جزء ٢ ص ٤٣٤.
– ويمثل هذا المعنى الامام الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب.
(٣٤) سورة المائدة، الآية ٣٨.
(٣٥) انظر كتابنا المدخل الى الاقتصاد الاسلامي مرجع سابق، ص ٩٥.
(٣٦) سورة البقرة، الآية رقم ١٧٣.
(٣٧) انظر كتابنا الاسلام والمشكلة الاقتصادية، مرجع سابق، ص ٤٧.
(٣٨) انظر سورة النساء، الآية رقم ١١.
(٣٩) سورة النساء، الآية رقم ١٣، ١٤.
(٤٠) انظر كتابنا الاسلام والمشكلة الاقتصادية، مرجع سابق، ص ٧٨ وما بعدها.
(٤١) أخرجه أبو داود.
(٤٢) انظر مسند الامام أحمد بن حنبل، تحقيق الشيخ شاكر، الجزء الرابع عشر من الطبعة الثانية لدار المعارف بمصر تحت رقم ٤٨٨٠.
(٤٣) ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب، مرجع سابق، ص ١٠١.
(٤٤) انظر طبقات ابن سعد، الجزء الثالث، ص ٣١٦.
(٤٥) انظر عبد الحميد جوده السحار، أبو ذر الغفاري، مطبوعات مكتبة مصر، الطبعة الثامنة.
(٤٦) انظر الامام ابن حزم، المحلى، طبعة دار الاتحاد العربي للطباعة بالقاهرة سنة ١٩٦٨، الجزء السادس، المسألة رقم ٧٢٥، ص ٢٢٦ و ٢٢٧.
(٤٧) انظر الفقيه أحمد بن على الدلجي، الفلاكة والمفلوكون، طبعة سنة ١٣٢٢ هـ لناشره مكتبة ومطبعة الشعب بالقاهرة، ص ١٦.
(٤٨) انظر كتابنا الاسلام والمشكلة الاقتصادية، مرجع سابق، ص ٣٥ وما بعدها.
(٤٩) انظر الخراج لأبي يوسف ص ١٥٠، والأموال لأبي عبيد ص ٤٦.
(٥٠) انظر فتوح البلدان، البلازري، ص ١٢٢.
(٥١) الامام ابن حزم، المحلى، مرجع سابق، الجزء السادس، ص ٢٢١.
(٥٢) الامام الماوردي، الأحكام السلطانية، مطبعة مصطفى الحلبي بمصر سنة ١٩٦٨، ص ٢٠٥.
(٥٣) سورة النور، الآية رقم ٣٣.
(٥٤) سورة الذاريات، الآية رقم ١٩.
(٥٥) سورة الاسراء، الآية رقم ٢٦.
(٥٦) أخرجه الشيخان البخاري ومسلم.

(٥٧) انظر مسند الامام أحمد بن حنبل، تحقيق الشيخ شاكر، مرجع سابق، الجزء الرابع عشر، تحت رقم ٧٨٤٨.
(٥٨) سورة النساء، الآية رقم ٣٢.
(٥٩) الحاكم في مستدركه، الجزء الثاني، ص ٣.
(٦٠) سورة الزخرف، الآية رقم ٣٣.
(٦١) سورة النحل، الآية رقم ٧١.
(٦٢) سورة الأحقاف، الآية رقم ١١.
(٦٣) سورة النساء، الآية رقم ٩٤، ٩٥.
(٦٤) سورة النجم، الآيات من رقم ٣٩ الى ٤١.
(٦٥) سورة الحشر، الآية رقم ٧.
(٦٦) سورة البقرة، الآية رقم ٨٣.
(٦٧) سورة البقرة، الآية رقم ١٩٥.
(٦٨) أخرجه الترمذي واستند اليه أغلب الفقهاء وعلى رأسهم ابن حزم.
(٦٩) سورة البقرة، الآية رقم ١٧٧.
(٧٠) انظر تفسير الطبري، جزء ٣ صفحة ٣٤٨ طبعة دار المعارف المصرية.
– وكذا تفسير القرطبي لذات الآية.
(٧١) انظر طبقات ابن سعد، المجلد الثالث، ص ٣٠٧ طبعة بيروت.
(٧٢) انظر كتابنا الرابع من سلسلة الاقتضاء الاسلامي والمعنون (الاسلام والضمان الاجتماعي)، طبعة سنة ١٤٠٠ هـ /١٩٨٠م لناشره دار ثقيف للنشر والتأليف بالطائف والرياض.
(٧٣) سورة ابراهيم، الآية رقم ٣١.
(٧٤) سورة الحديد، الآية رقم ٤.
(٧٥) سورة البقرة، الآية رقم ٢١٩.
(٧٦) ردده أبو يوسف في كتابه الخراج، وأبو عبيد في كتابه الأموال.
(٧٧) وهو الرأي المعتمد في مذهب مالك، على أن يعوض صاحب الأرض من فقدان انتفاعه بالأرض بسبب استخراج مافيها من معادن.
(٧٨) وقد نقل عن المفتي لابن قدامه الحنبلي (وجملة القول أن المعادن التي ينتفع بها الناس من غير مئونة، لا يجوز احتجازها دون المسلمين لأن فيه إضرارا بهم وتضييقا عليهم).
(٧٩) حديث مشهور أخرجه أبو داود، واستندت اليه مختلف كتب الفقه وأخصها الخراج لأبي يوسف والأموال لأبي عبيد. وقد ورد في رواية أخرى (الماء لا يحل منعه والملح لا يحل منعه)، وأيضــا(لا تمنعوا كلأ ولا ماء ولا نار).
(٨٠) انظر فضيلة المرحوم الشيخ على الخفيف، الملكية الفردية وتحديدها في الاسلام، كتاب المؤتمر الأول لمجمع البحوث الاسلامية مارس سنة ١٩٦٤، ص ١١٢.
– وانظر أيضا المرحوم الدكتور مصطفى السباعي، اشتراكية الاسلام، طبعة الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٥، ص ١٤٧.
– وكذا الدكتور على عبد الواحد وافي، التكامل الاقتصادي في الاسلام، كتاب المؤتمر السادس لمجمع البحوث الاسلامية مارس سنة ١٩٧١، ص ١٤١.
(٨١) انظر بحث الدكتور جميل الشرقاوي، قيود الملكية للمصلحة العامة في الشريعة الاسلامية، والمقدم لأسبوع الفقه الاسلامي المنعقد بالرياض في المدة من ٥ الى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٧٧، باشراف المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة.
(٨٢) نفس المرجع السابق.

(٨٣) انظر الدكتور محمد عبد الجواد، في مؤلفه ملكية الأراضي في الاسلام (تحديد الملكية والتأميم)، طبعة سنة ١٩٧١، لناشره المطبعة العالمية بالقاهرة، ص ١٩٤ وما بعدها.

(٨٤) انظر كتابنا (المدخل الى الاقتصاد الاسلامي)، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٨٥) انظر الامام البخاري في باب الوصايا.

(٨٦) انظر المذكرة الايضاحية للقانون المذكور.

- وكذا الامام محمد بن عبد الوهاب في ابطال الوقف الأهلي، ص ٢٥٦ من كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٥ هـ.

(٨٧) انظر كلام سيدنا عمر ونقاشه مع الصحابة في شأن الأراضي المفتوحة بمختلف كتب الفقه الاسلامي خاصة الخراج لأبي يوسف، والأحكام السلطانية للماوردي، والخراج ليحيى أبو آدم.

(٨٨) وانظر أيضـــا الدكتور محمد عبد الجواد في كتابه ملكية الأراضي في الاســـلام، مرجع سابق، ص ١٢٦ وما بعدها.

(٨٩) انظر الخراج لأبي يوسف، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٩٠) انظر حاشية ابن عابدين (رد المحتار على الدر المختار على مترن تنوير الابصار)، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ٣٥٤.

(٩١) انظر فضيلة الشيخ على الخفيف، في بحثه الملكية الفردية وتحديدها في الاسلام، المقدم لمؤتمر علماء المسلمين الأول المنعقد بالقاهرة في مارس سنة ١٩٦٤، كتاب مجمع البحوث، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٩٢) انظر فتاوى ابن تيمية جزء ٦ ص ٥٨ وجزء ١٣ ص ٣٤.

(٩٣) سورة الحشر، الآية رقم ٧.

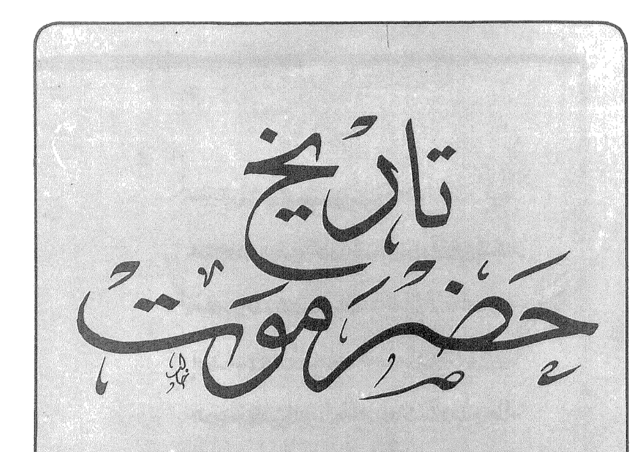
(٩٤) أخرجه أبو داود، وقد استند اليه الامام ابن حزم في نظريته ان الأرض لمن يزرعها، معتبرا هذا بمثابة تشريع عام يلتزم به المسلمون في جميع الأزمنة والأمكنة، في حين أنه على نحو ماسبق الاشارة اليه ص٣٥، هو تشريع خاص مرهون تطبيقه على توافر اعتبارات وظروف معينة.

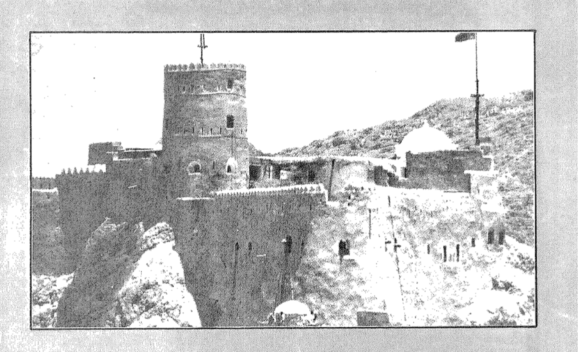
تعليق على وثيقة حضرموت

ننشر هذه الوثيقة وعليها الحلية رسالة من الذي بعثها، حب المعرفة فيه وجزالة العطاء لما يعرف ترون ذلك كثيرا وكبيرا إذا ما عرفتم مدى مايقاسيه من المرض والعجز. كأنما هو قال للأقوياء أليس عندكم ذخر، أليست عندكم بعض المعرفة فلماذا تبخلون بذلك، وكأنه بهذا الضعف وقد خاطب الأقوياء وصفهم بالضعف ضعف الوازع وحينما يضعف الوازع في انسان فذلك هو المرض (مرض الطبيب له وعيد العُوّد) بهذا الوازع ننشر هذه الوثيقة دون تعليق وحتى دون تصويب أو تصحيح نفتح الباب للناقد والمستزيد والمفيد أن يعطي ما عنده مما لاحظ سواء كان ذلك القديم لديه أو الجديد عنده فالإثارة للباحث تمنحه قيمة القراءة كما أن الإثارة للقاريء تدفعه الى البحث. ننشرها على هذه الصورة ونرجو أن يكون فينا الأقوياء والنابهون والله ولي التوفيق.

رئيس التحرير

محمد حسين زيدان


تاریخ
حضرموت



تاريخ حضرموت

ان اصحاب الفضل والكمال المولعين والمشتغلين بنشر
العلوم والفنون في عصر سلطاننا المعظم الذي انحصرت
المعارف في عصره قد عرفوا وبينوا احوال جغرافية جزيرة
العرب وقطعتها الوسيعة بالدرجات الكافية واحوال
قطعة حضرموت الواقعة في جهة شرقي شمالية جزيرة
العرب ولكن لا تتبعنا ذلك بالتتبعات الكاملة لم نجد
معلومية زائدة في حق حضرموت على معلوميتها القديمة
ولا بحثنا خصوصاً في شأنها فبناء على ذلك اقتضى الحال
ان نبين نبذة من احوالها السابقة ووقوعاتها المهمة
اللاحقة في هذا الزمان الذي هو زمان العدل والترقي

حيث انه بعناية الله تعالى وحسن توفيقه تنورت بصائر

الملة الاسلامية واستعاب شرفها المخصوص اقطار هذا (١)

العالم بشفقة انتظام احوال الممالك السلطانية وهيئتها

المجموعة .

مقدمة المقال

اذا اردنا ان نذكر اسماء البلاد المشتهرة التي صارت

اول مسكن لهذا النوع البشري في الدنيا فيذكر اسم

حضرموت في المرتبة الوسطى من جهة الاعتبار ، وكون

حضرموت كانت مدة مديدة محل ظهور معجزات الانبياء

عليهم الصلاة والسلام ، ومعموريتها وصلاحية

ارضها مشهور على لسان العالم ، ولها مناسبة طبيعية

بينها وبين جهة العراق واليمن ، وتلك المناسبة باقية

(١) أي في الوسطى والسموات [illegible]

الى الوف فيهذا الذي يمكن الحصول عليها ومحافظتها باسهل
وسيلة واقل همة لانها مع تابعيتها المعنوية في الاصل
ومحسوبيتها الحقيقية على الدولة العلية والخلافة السنية ،
لم تزل اهل حضرموت يرفعون امرهم الى بابها العالي ،
ويبادرون بعرض الاطاعة والانقياد اليها ويرومون
دخولهم تحت حكمها وانتظامها ويستظلون بظل
حمايتها ويسلمون زمام ادارتهم الى كف كفايتها ،
فلهذا يمكن الامكان الكلي الطبيعي ايصال العساكر
الشاهانيه وضبطها والمحافظة عليها بالسهولة ،
وفك مربوطيتها من ايادي المتغلبة المتفرقة الهيئات ،
لان اقليم حضرموت حاوي على الوف الالوف من النفوس ،

ونصف

ونصف اهلها من اصحاب السيادة الصحيحة فينبغي
ان يكونوا مشمولين بأكسير انظار الدولة العلية وانات
فيضها العميم ، ومن كون ان اهل حضرموت فيهم
الميل الكلي والرغبة التامة في امر الصناعات والتجارات
الداخلية والمناسبات الكسبية الخارجية فمن هذه
الحيثية يكون تعريف وبيان فرط استعدادهم وقابليتهم
هو من قبيل وصف اولاد العرب المتصفين بالفطانة
الطبيعية التي حيرت عقول العالم فمع ذلك عدم
وصولهم الى ساحل السلامة وعدم موفقيتهم للترقي
الى اسباب المدنية الكاملة يوجب الاسف الكلي
والحزن الشديد لكل مسلم ، ولكن لا يخفى على

ذوي البصائر أن ذلك من الجايات إيجاب الوضع وحكم
الزمان، فحيل هذه القضية الى مراحم انظار الحكومة السنية
التي هي مصباح الحقيقة وضياء عيون الملة الاسلامية
ثم نشرع بالمقصود ونقول وبالله التوفيق
اعلم بأن عموم ادارة القطعة الحضرمية من ابتداء الهجرة
النبوية الى عام الالف ومايه وثلاثين كانت مربوطة
في حكومة واحدة مستقلة، وكان الحكام عليها آل الكثيري
او المنسوبين الى آل الكثيري، حيث ان اجراء الاحكام
على يد الاجانب هي قاعدة غير معقولة، وان آل الكثيري
كانت هذه القاعدة مرعية عندهم، حيث كانت امور ضابطة
المملكة بالاستقلال في ايدي المتغلبين من امراء وافراد

عسكرية

عسكرية آل يافع الذي كان جلبهم وتوظيفهم من القبيلة
اليافعية الكائنة في الحدود الفاصلة بين نفس حضرموت
واليمن السفلى وبهذا السبب طرأ على الحكومة الحضرمية
الخلل والضعف وذلك من سوء القاعدة المذكورة وآثار
نتيجتها السقيمة ومن آثارها السقيمة ايضا ان الكهالي
الذي هو من امراء اليافعية سلك مسلك الخيانة في حق
الحكومة التي هو من جملة اتباعها وغرس نفسها الى ان
سرت علة الخيانة في عروقه واعصابه وبذلك
ضعفت الحكومة المذكورة واشتد ضعفها وتولد من
هذين الضعفين تفرقة الحكومة الى ان صارت شطرين
وانتجت هذه التفرقة كشفيات شديدة كلية ومع

اول سطر

جبا منه قطعة حضرموت اقتضت طبيعة المصلحة الى
تفويض امور محافظة اسكلة المكلا من طرف حكومة آل
الكثيري الى عهدة الكسادي المذكور . (استطراد)
لا يفهم من قولنا اسكلة انها مرسى بواخر بل هي مرسى
مراكب شراعية لكون ان حضرموت هو اقليم عظيم فيه اعتبار
ثلاث ولايات جسيمة فكان اوجب الحال من قديم الزمان
الى بناء بلدتين في ساحل البحر وسموهما بالشحر والمكلا ،
ولكل منهما ملحقات كثيرة انتهى الاستطراد .
وبسبب عدول الكسادي المذكور عن طريق الاستقامة ؛
لم يزل يسعى بجهده في جلب اهالي المكلا الى طاعته
وانقيادهم اليه فلعدم ملاحظة حكومة الكثيري تدابير

هذا

هذا الجائر وتغافلها عن مكره ودسائسه وصل الى

مطامعه الى ان ابقاها ارثاً وملكاً من بعده لاولاده

واحفاده حتى ان نقيب صلاح القائم الان بحكومة

المكلا هو من سلالة الكسادي، وتاريخ وفاة الكسادي

المذكور كان في عام الخامس والاربعين بعد المائة

والالف تقريباً فبقيت بعض اسلحة وادوات حربيه

من ايام الكسادي وايام احفاده ثم ان نقيب صلاح

الموجود الان جمع عليها بعض اسلحه من بعض الجهات،

وتقوى بها وتمكن من حكومة المكلا ونبذ ما كان

واجباً عليه من السعي في اجراء المصادقة والمصافاة

بينه وبين الحكومة الكثيرية التي كان اجداده قد كفروا

نفسها، حتى اخذ بمطاوعة الاهالي له وانقيادهم اليه، ومنع

جماعة الكثيرية عن وصولهم الى حدود المكلا وسد طريق

الاخذ والاعطا عنهم بالكلية، ولم يقنع بهذا الظلم —

والقهر بل تجرأ باعطاء الرخصة لاعوانه بسفك

دمائهم وسلب اموالهم ايضا ٭ ٭ ٭ ومن القواعد —

ومن القواعد الثابتة بالتجربة ان التفرقة اذا حصلت في مملكة لا بد من

تجاوز تلك التفرقة عن مركزها ٭ فمن هذا القبيل

تجاسر آل يافع على المملكة الحضرمية بجساراتهم وخياناتهم

المسبوقة، وانه كان اهل حضرموت في السابق كانوا —

حريصين على محافظة مملكتهم، ولكن لما كانت الخيانة —

شعار ما طينة آل يافع فلم ينجوا اهل حضرموت من شرك

اغفاواتهم

١٠

انقلاباتهم ومن تصورهم في صور مختلفة ، ومن الجملة (٢)
عمر بن عوض القعيطي الذي هو من امراء عسكر آل يافع
ففي عام الثلاثين بعد المائتين والالف لما كان محافظا
على قطعة من اعمال حضرموت موظفا من طرف حكومة الكثيرية
استولى عليها واستقل بها بحيث انه استعمل دسائسه
وخياناته في شكل غريب وقالب عجيب ، وبقيت حكومة
الكثيرية مع جسامتها وقوتها ومتانتها تحت قهر اشتراك
هذين الغاصبين اذ غفلت عن مراعات قوعد الاتحاد
واهمية شروط محافظتها وحمايتها للبلاد ، وقد كانت
قبل ذلك من منذ مئات سنين يفتخر ببقاء وجودها
اي الحكومة الكثيرية ، ثم ان عمر بن عوض المذكور كان

(٢) عمر بن عوض القعيطي اليافعي : سلطان الشحر والمكلا بحضرموت، كان قبل السلطنة في خدمة نظام حيدر آباد (الهند) وقد جعله «الجمدار» لفرق الجنود القائمين بحراسة خزائن «النظام» وقصوره . وآلت إليه السلطنة بعد وفاة أخيه «غالب» سنة ١٢٢٧ هـ فاستمر بعمله بحيدر آباد، ولم يقم في بلاده . وكان يزور حضرموت بين حين وآخر وتعود بها الجمعة وكلائه فيها من الأموال والمغيلات ومصادرها في عهده ، فتحكم الجند في بعض جهاتها ، وأشرف حاكم عدن البريطاني من التدخل في شؤونها ، وتم له ، وكان كبير وكلاء القعيطي فيها «أبو بكر حسين بن حامد المحضار» المتقدم ترجمته وشغف بالمواهب وسافر القعيطي إلى أوربا مرتين وزار مصر مرتين وكان يحسن الإنكليزية والأوردية .

(الأعلام ٥: ١٩٠)

له اولاد خمسة وهم محمد وصالح وعوض وعلي وعبد الله
وكانوا في خدمة العسكرية عند ناصر الدولة حاكم حيدر
اباد فلما توفي ناصر الدولة المذكور اقاموا في خدمة
افضل الدولة الذي تولى على حيدر اباد الى ان صاروا
من امراء العسكرية المعتبرين بها ثم بعد ذلك توفي اكبرهم
عمر بن عوض المذكور في جهة حضرموت وتوفي اخوهم محمد
المذكور في حيدر اباد فبقي صالح المذكور كبير البيت
فيهم وتنصب اميرا على العساكر التي صار جلبها هو
وتنظيمها من جزيرة العرب وفي اقرب مدة صار من اهل
الثروة بجميع هو واخوانه المذكورين اموال جسيمة هو
فاتفق هو واخوانه الثلاث اعتبارا بالاموال التي

جمعوها

جموها واعتمدوا على العهود التي اخذوها على
طارفة ابيهم الكائنين في الجهة الحضرميه على
توسيع ممالك قطن التي هي في ملكهم وتحت
تصرفهم فاختاروا لذلك اخوهم عوض فتوجه هو
من الهند الى جزيرة العرب فلما وصل الى قطن اجتمع
بطارفة ابيه المار ذكرهم فشرعوا يتذاكرون
بانواع الحيل والمسايسه في خصوص توسيع
مملكتهم فافادوا المذكورين ان غالب بن محسن
الكثيري حاكم حضرموت اعطى مملكة شبام لعمه
هبةً وتمليكا فعند ذلك طمع عوض المذكور في شبام
وملحقاتها بانه يجعلها ضميمةً على مملكتهم قطن

[illegible] اليها ليستعمل خبراته في طريق

اخذه وضبط مملكة شبام وضمها على مملكتهم قطف

فقر القرار بينهم بعد المخابرات العديدة على ان

يشتري نصف شبام من عم غالب الكثيري المشار اليه

فطلب من المذكور شراء نصف شبام فارضاه

بمبالغ جسيمة ودفع له تلك المبالغ وعقد البيع

وتجز الامر بينهما ـ ثم ان عوض المذكور رفع

هذه القضية الى اخيه الكبير صالح المذكور وطلب

منه الرخصة بان يقيم في شبام حاكما على نصفها

فاجازه اخوه في ذلك فدخل عوض المذكور شبام

وصار يتعاطى في نصفها امر الاحكام ولكن

من حيث

من حيث ان علة الغدر والخيانه التى ورثها من ابيه
لم تزل تختلج فى صدره فتصور فى فكره الفاسد
انواع المفاسد الى ان عمل عزومة مطنطنة وعزم
اليها عم غالب المث الية صاحب نصف شبام فلما
اجاب المذكور الى تلك العزومة ووصل اليها
هجم عليه عوض المذكور وقتله واستقل حاكما على
كامل مملكة شبام ثم بعد برهة من الزمان توجه الى
حيدر العباد الى عند كبيرهم اخيه صالح المذكور
حسب القاعده المتخذه بينهم وكان يستدل
من جميع اطوار عوض المذكور وافعاله وحركاته
بان دسائسه الفكريه وخياناته العنصرية لم تتم

على مطلوبه ‌ و‌قد ذكرنا انفا ان المكلا صارت هي

في حوزة الكسادي ثم لم تزل تنتقل ارثا بعد ارث ونسلا

بعد نسل الى نقيب صلاح الذي هو حاكمها عليها الان

‌ واما الشحر فكانت تحت ادارة الحاكم الاصلي

وهو غالب بن محسن الكثيري المشار اليه الى عام الثالث

والثمانين بعد المائتين والالف فهي العام المذكور

ارسل عوض القعيطي المار ذكره الى اخويه علي

وعبد الله وهما يومئذ في قطن بباشرات الاحكام

فيها بالمكاتبة يستشيرها في شان الاستيلاء على الشحر

وذلك بامر من اخيهم الكبير صالح فلما قر القرار بينهم

على ذلك فاختار صالح المذكور اخيه عوض

لهذا الامر

لهذا الامر لكونه ماهراً بالدسائس وجسوراً في

الاقدام على الافعال الغير المشروعة كما سبق منه حيث

استولى على شبام فجهز بعدداً كافياً من العساكر

بموجب امر وتعليمات اخيه صالح المذكور فتوجه هو

بالسفن الحديدة من طريق الهند وعمان وذلك

في العام المذكور فبمجرد وصوله بالعساكر الى الشحر

اطلق عليها النار بالاسلحة النارية [و]اما المحافظ

الموجود بها حينئذ من طرف حكومة الكثيرية فابتدر هو

بالمقابلة والمدافعة عن المملكة حسب الامكان بقوته

ورجاله الموجودين بها ولكن لكونه لم يكن مستعداً

لذلك باستكمال العدد والعدد ولم يمكن له طلب هو

الاعانة من مركز الحكومه لاحاطة عساكر قطن من جانب
البر ايضاً فبهذه الاسباب كانت الغلبة لعوض المذكور
فانتزع مملكة الشحر من يد غالب بن محسن الكثيري
المشار اليه واستولى عليها بجميع ملحقاتها وانقطع حكم
الكثيريين من السواحل بالكليه وانحصر حكومتها
في بعض جهات حضرموت فقط ولم يزل تاثيرات
هذه الوقوعات المؤلمة تسري في جسم الحكومه الكثيريه
الى ان قتلت غالب المشار اليه قهراً واستولى على
المملكة الباقية الحضرميه ولده المنصور بن غالب وهو
الان باقي واحكامه جاريه في تلك الجهة ولما تفرقت
اجزاء مملكة حضرموت حسبما ذكر وبقيت تحت ايدي
المتغلبين

المتغلبين المذكورين ضعفت احوال البدوان المتشعبين

من القبيلة المنسوبة الى تميم لعدم ميلهم واستكانتهم

الى حكومة من الحكومات المذكورة وتفرقوا الى ان صاروا

حكومات متعدده فى انفسهم ولكن لقلة المحصول

فى اراضيهم ولضيق معايشهم احتاجوا الى خدمة

العسكريه بمعاشات مخصوصه لمن يرغب فى استخدامهم

من الحكام كاهالى حاشد وهمدان من اعمال اليمن

وكالازد بنو ظهن[1] اهالى الروم ولا ينقادون الى احد

من الحكام بلا اجرة فيعلم من هذا الحال ومن

التفصيلات المشروحة ان القطعة الوسيعة الحضرمية

هى الان منقسمة الى اربعة اقسام متضادة فالقسم

(١) كذا في الأصل ولعلها الأزد [illegible]

الاول هي الادارة المستقلة التي تتعلق بنقيب صلاح

حاكم المكلا الجديد هو من ذرية الكسادي اليافعي

وهو الان مجتهد بتكثير ماصلات الرسومية المحليه ،

وباذل الهمة في اكتساب الثروة والشان

القسم الثاني قطعة قطن وشبام واسكلة الشحر

وما يليهما من الاراضي والبلاد التي تتعلق باستقلال

حكومة المدعو اليوم صالح القعيطي واخيه عوض وعلي

وعبد الله فهؤلاء كانوا سابقا مشتركين في الحكومة

المستقلة المذكورة ففي عام الثامن والثمانين بعد المائتين

والالف اختار احدهم على المذكور ان ينزل لهم عن

حصته من الحكومة بشرط ان يعطوه دفعة اربعة الوف

ريال

ريال ويعطوه ايضا مدة حياته مائتين ريال في كل شهر ،
فحصل التراضي والموافقة بينهم على ذلك وكتبوا كتاب
العهد والمصادقة واعطوه المبلغ الاربعة آلاف الريال
دفعة واجروا له المائتين الريال شهريا ونزل لهم عن
حصته من الحكومة فبقيت الحكومة المذكورة تحت
اشتراك صالح وعوض وعبدالله ولكن حيث ان صالح
المذكور اخوهم الكبير وهو مقيم في حيدر اباد بالرياسة
العسكرية من طرف افضل الدولة حاكم حيدر اباد لا يمكن
انفكاكه عن خدمته ورياسته فصار يرسل اخويه هم
عوض وعبدالله من طرفه بالمناوبة الى جهة حضرموت
لاجل اجراء الاحكام في ممالكهم المذكورة في القسم

الثالث الحكومات المتفرقة المتعلقة بقبائل تميم

كما ذكرنا وحيث ان هؤلاء حسب مواضعهم ومقتضى

طبائعهم ليس فيهم اهلية ولا استعداد لتنظيم

قانون سياسي ليكون مرعي الاجرا بينهم فلداعي

ذلك نكتفي بوصفنا اياهم انهم جمعية قرة قوش

في القطعة الحضرمية ٤ القسم الرابع من الاقسام

الاربعة حكومة آل الكثيري التي هي اصل مركز الحكومات

الثلاثة المذكورة اذ كانت حقوق حاكمية حضرموت

باسرها في ايديهم وتحت تصرفهم من منذ مئات

سنين ولهم على الدولة العلية العثمانية محسوبية

تامة واطاعة كاملة حقيقية وهم مباهون

وسفخروت بذلك واغلب جهات حضرموت الآن
في ايديهم والحاكم عليها اليوم منصور بن غالب
الكثيري ومع انكفاف اياديه عن سواحل البحر
وانقطاع مناسباته من تلك الجهات لم يزل
مهتما في امر ادارتها وحسن محافظتها ولكن
من كون ان روح المملكة لم تزل في ايدي العصاة
المذكورين فاقتضى الحال الى ان يداري جماعة
الكثيرية ويسوسهم بكمال عقله وحسن تدبيره
عند امتناعهم عن اعطاء ما يجب عليهم من الحقوق
الشرعية وغير ذلك لدواعي عجزه وضعف حاله .
ه ج ن
ه-ه-ه ان هذه التفصيلات التي ذكرناها هنا

في حق الجهة الحضرمية واحوالها الداخلية هي
على قدر وقوفنا واطلاعنا من الخارج وان ايضاح
احوالها اكثر من ذلك فهو منوط الى الوصول اليها
ومشاهدتها عيانا مع التفحص عن احوالها وكيفيتها
واستكشاف ماهي عليه بكمال الدقة والاهتمام
لان محرر هذه الرسالة في اثناء سياحته قد وصل
الى الخطة اليمانية ودار بها وزار معاعلى مطلوبه
ولم يتيسر له الوصول الى حضرموت المعدودة
الآن خارج الادارة اليمانية فبهذا السبب
لم يتجاسر على بيان شئ يوجب التكلف كي لا
يقال قد استخرج مجهولا من المعلوم وعند ذكر المقالة

الآتيه

الآتية وسيلة مناسبة لختم الكلام وهي ٠٠٠

من المعلوم ان اهالي حضرموت ليسوا على مذاهب

مختلفة كسائر الجهات بل جميعهم على مذهب

سيدنا الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه

ولكن حيث ان صالح القعيطي وعوض وباقي

اخوانه القائمين بحكومة قطن وشبام والشحر

حسبما ذكرا علاه هم على مذهب الباطنية وان

الاهالي قاطبة متجنبين ومتنفرين منهم

لبطلان هذا المذهب وهم كذلك لم يزالوا

مشددين على الاهالي بالجور والظلم والفساد

في جميع الاحكام وتضييق امر معايشهم عليهم

بفضلها اسباب تعيشهم وسهولة تجاراتهم
علما في رغبتهم وقبولهم المذهب الباطل المذكور
٥-٥-٥ اذا اصار التأمل في امر هؤلاء اليافعيين
وفي كونهم مترفهين في حيدر اباد غاية الترفه
ومنتعشين بها غاية الانتعاش فميلهم الى الجبهة
الحضرمية ورغبتهم فيها وحرصهم واستيلائهم
عليها واهتمامهم في شأنها لا يخلو عن امرين ،
اما ان مرادهم استمالة اهالي حضرموت الى
مذهبهم الباطني ، واما قصدهم الجهالة والخديعة
بتسليم حضرموت فيما بعد الى الشماليين الحائزين
رابطة مدارة اقليم الهند ، ولكن نقول ان اهالي

حضرموت

حضرموت لشدة صلابتهم في امر دينهم وتعصبهم
في عقائدهم ومذهبهم لا يتصور وقوعهم في
شرك اغفالات هؤلاء المخالفين في وقت
من الاوقات لان الجهال والجهال منهم فيه اقتدار
على تاليف كتاب فيما يتعلق بامر دينه ومذهبه
ه ه ه واما البحث في تشريح معنويات مذهب
الباطني فهو اخس من ان يتنزل الانسان
الى البحث فيه لانه من غير اساس ومع ذلك
نقول ان رئيسهم الروحاني الذي يعتقدونه
اماما او الهاً وله شان واعتبار عند اهل الهند
والسند هو الرجل الخبيث المسمى بالداعي

حسن بن اسمعيل المقيم في قلعة عمارة الكائنة في
القطعة اليمانية التي هي مركز جبال حراز بينها وبين
الحديدة ثلاث مراحل ففي عام الثامن والثمانين بعد
المائتين والالف من سنين الشمسية لما توجهت العساكر
المنصورة الشاهانية من الحديدة الى صنعا صادفوا في
طريقهم هذه القلعة فاحاطوا بها مقدار ثلاث او اربع
بلوكات (٨) من العساكر المذكورة فحيث ان الداعي المذكور
كان طاعنا في السن قد بلغ من العمر مايه وثلاثين
سنة وله ولدين احمد وعلى احدهما ناقص العقل
والثاني يغلب عليه الحمق ولم يكن لهم ناصح يرشدهم
الى طريق السلامة والنجاة فقبضوا عليه وعلى اولاده

(٨) البلوكات [illegible]
[illegible]

وعلى من يلوذ به جميعا فى ظرف ايام قلائل ونعين على
تلك البلاد والقرى ماموريت ملكيه وشرعيه من طرف
الحكومة وصاروا مشمولين بجلود انظار السلطنة السنيه
كسائر الجهات ٥٥٥ ولما توفى الداعى المذكور فى الحديده
فى شهر نيسان من شهور السنة المذكورة تأسف
عليه خلق كثير من اولاد مذهبه وكان اكثرا سفا وحزنا
عليه صالح القميطى المذكور الذى هو الان امير الجيش
عندها كم حيدر اباد خوفا من ان المغربيه والمحرمات
تتوجه عليه ايضا ، استطرادا ان الانسان اذا سلك
طريقا سواء كان ذلك الطريق مستقيما او غير مستقيم
فلابد من نهاية ينتهى اليها فمن هذا القبيل ان صالح

المذكور لا ندرى هل هو خاف من عاقبة مسالكه القبيحة
التى سلكها ارثا عن ابيه ام حصل له انتباه حقيقى
من طرف الله تعالى لدنه فى اواسط العام المذكور
قدم عرضحالا الى الباب العالى بواسطة الشهبندر المقيم
فى بومباى من طرف الدولة العلية واظهر فيه الصداقة
التامة والعبودية الكاملة واذعن بالاطاعة والانقياد
وافاد ايضا ببعض خصوصات تتعلق بحضرموت وما
يليها ثم الاستطراد كما ذكرنا اعلاه ان فى حضرموت
الوف من السادة الكرام ذوى الاحترام ولكن بسبب
تفرق هيئات الحكومة وتشتت امرها نفرت طبيعتهم
من ذلك فاكثرهم اختار الاقامة فى المدن التى تحت

حكومة

٣٠

حكومة آل الكثيري، واما المقيم منهم في غير تلك المدن

فانه مسلوب الراحة من جور اليافعيين، ففي اجل ذلك

في اوائل عام السابع والثمانين بعد المائتين والالف

اتفقت عموم السادة الحضرميه وهيئة الحكومة الكثيريه

وارسلوا من طرفهم حضرة جناب السيد فضل افندي

بن علوي الى دار الخلافة العظمى في ضمن استعطاف

خاطر امير المؤمنين وامام الموحدين لاجل تجديد

تابعيتهم وحمايتهم عليها، فلما وصل السيد الموما

اليه صار في حقه اجراء الاحترامات الفائقة ومزيد

الاعتناء، واعيد الى محله بالاعزاز والاكرام وبالمواجيه

الجليلة السلطانية، استطراد لما وصل هذا السيد الجليل

حضرته الكرمة الى الحديده عام الستين والمائتين

بعد الالف تشرفت بزيارته (٩) ورأيت الخلق

يهرعون اليه من جميع الجهات فشوشوا خاطره

من كثرة الهجوم عليه لاجل التبرك به وقد حيّر

عقولهم بنور طلعته واحيا قلوبهم بزلال الفاظه

ودرر كلماته ثم الاستطراد فبهذا السبب

توجهت العساكر المنصورة السلطانية الى الاقطار

اليمانيه فتيسر الفتح المبين بحلول انظار سلطان

المسلمين وخليفة سيد المرسلين فمن ذلك اليوم

لم تزل السادة الحضرميه وعموم الاهالي شاخصين

ابصارهم نحو دار الخلافه ومنتظرين ورود الاوامر

(٩) هذا دليل على أن المؤلف زار المصطفى في الحديدة القاطعه

القاطعة بتوجيه العساكر الشاهانية نحو بلادهم
وانجاز المواعيد الجليلة السابقة على لسان السيد
فضل افندي المومى اليه ٥/ وكانوا قد استرحموا ايضا
من والي ولاية اليمن بان يتوسط لهم برفع امرهم
الى الباب العالي ٥ ٥/ من حيث ان معروضاتي هذه
في حق الجهة الحضرمية هي قضية مركبة من بعض
تحقيقات مخصوصة فبناء على ذلك اختم مقالتي
بان الحصر والالتزام عن جهتها القياسية هو
منوط الى الرأي العالي السلطاني والسلام ٥
تمت على يد مترجمها عبد الرحمن الشوقي مترجم ولاية
الحجاز في اوائل شهر شعبان سنة اثنين وتسعين ومايتين
٥ والف ٥



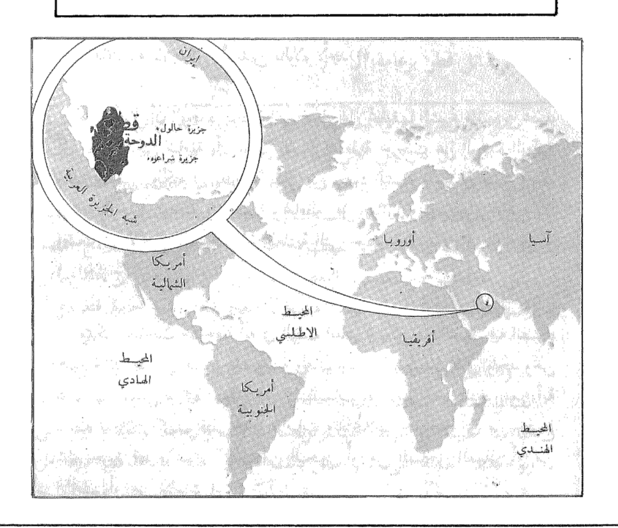
«دراسة لكيفية تحقيق الوحدة القطرية من عام ١٩٦٨
إلى عام ١٩١٣م كأحد معالم التغيير
في المجتمع العربي الحديث»

دكتور
رأفت غنيمي الشيخ

أستاذ التاريخ المعاصر المساعد
كلية التربية – جامعة عين شمس

مقـــدمة

ظهرت قطر كوحدة سياسية في عهد الشيخ محمد آل ثاني حيث نقلت من النظام القبلي الى نظام الدولة ذات المفهوم الجغرافي والسيادة على أرض معينة ويمكن اعتبار قطر كوحدة سياسية في الستينات من القرن التاسع عشر بداية لتاريخ قطر الحديث، فقد كانت شبه الجزيرة القطرية قبل هذا الزمن تعيش كغيرها من أجزاء ومناطق في شبه جزيرة العرب، سواء على سواحل الخليج أو في الداخل في ظل تنظيمات قبلية تتخذ لها مضارب في مواطن متفرقة من شبه جزيرة العرب.



وهذا يعني أن شبه جزيرة قطر لم يكن لها كيان سياسي ذاتي قبل الشيخ محمد آل ثاني، وليس هذا بغريب أو بشيء غير منطقي، فاقليم نجد على سبيل المثال لم يعش وحدة سياسية ولم يظهر في شكل كيان سياسي قبل آل سعود، وان كان يجب أن ندرك أن وحدة قطر السياسية في عهد الشيخ محمد بن ثاني لم تكن كاملة أي أننا لا نستطيع أن نقارنها بالوحدات السياسية التي تقوم في زمننا المعاصر كقيام دولة قطر المستقلة ذاتها في أول السبعينات من القرن العشرين وغيرها أمثلة كثيرة.

واذا نظرنا إلى الشيخ محمد بن ثاني باعتباره صاحب الأساس في ظهور قطر كوحدة سياسية، فاننا نجد ابنه الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني قد حقق الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر، بعد أن عاشت قطر في ظل انقسامات قبلية تخضع بعض القبائل القطرية للبحرين، والبعض الآخر يخضع لآل سعود، وغير هؤلاء وهؤلاء قبائل لا تدين بالولاء لأحد(١).

ولرب قائل أن الوحدة الوطنية التي عمل على تحقيقها الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني لم تكن شاملة وأن بعض القبائل القطرية خرجت عن الوحدة الوطنية وهذا حقيقي ولكنه في نظرنا لا يقلل من جهود الشيخ قاسم في سبيل إرساء قواعد الوحدة الوطنية وتدعيمها والمحافظة على بقائها واستمرارها، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار الظروف غير العادية التي تحيط بقطر سواء في الداخل أو في الخارج.

ويمكن للباحث ملاحظة أنه في الوقت الذي لم يكن من السهل فيه انضواء جميع قبائل قطر في ظل وحدة وطنية وتحت راية كيان سياسي ذاتي واحد ونحن نعلم أن القبائل لم تتعود مثل هذه التنظيمات ولا ترضى بغير التحرر من أية سلطة بديلا- كانت قطر هدفا لمؤامرات وتداخلات خارجية، أي من خارج شبه جزيرة قطر، سواء كانت من البحرين أو من الساحل العماني أو من الانجليز أو من الأتراك العثمانيين.

ومهما يكن من شيء فان الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر قد تحققت إلى حد كبير على يد الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني، ويجب أن ننبه إلى أن كل شيء في أوله يبدأ صغيرا، وكما يذكر المؤرخون بأن لكل حدث تاريخي بداية وذروة ونهاية، وأن نهاية الحدث بداية لحدث تاريخي آخر وهكذا، فان جهد الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني كان بداية لا بأس بها على طريق تحقيق وحدة وطنية شاملة وقوية في شبه جزيرة قطر، وليس هذا مما يقلل من جهد الشيخ قاسم في هذا السبيل بقدر ما يعطيه حقه من التقدير في ظل الظروف التي تحيط بشبه جزيرة قطر والتي ذكرناها.

صروح الوحدة الوطنية

تسليم قبائل قطر بزعامة آل ثاني:

لعل أول صروح الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر والتي جاهد الشيخ قاسم محمد آل ثاني من أجل تحقيقها، هو تسليم قبائل قطر بزعامة الشيخ قاسم وبالتالي قبيلة آل ثاني على شبه جزيرة قطر. وهذا التسليم يثير تساؤلا عن أسبابه وطبيعته، ولعلنا لا نجافي الصواب إذا ذكرنا أن سبب تسليم القبائل العربية القطرية بزعامة آل ثاني كان بسبب حاجة هذه القبائل إلى من يجمع شملهم وينهي خلافاتهم مع بعضهم البعض، بل وإلى من يقودهم في الدفاع عن أرضهم وأموالهم وأرواحهم ضد اعتداءات المغيرين على شبه جزيرة قطر.

وكان آل ثاني هم الذين تتحقق فيهم هذه المواصفات رغم عدم كونهم أكبر القبائل القطرية عددا، إذ ليست العبرة بكثرة عدد أفراد القبيلة وإنما العبرة بما تمتاز به القبيلة من سرعة الحركة والوحدة الداخلية والزعامة الواعية والثروة حتى ولو كانت القبيلة التي تمتاز بكل ذلك أقل في عدد أفرادها من غيرها من القبائل. ويجب أن نلاحظ أن الثروة التي تمتع بها آل ثاني منذ عهد الشيخ

محمد بن ثاني قد أوصلت الشيخ محمد نفسه إلى مركز الزعامة على شبه جزيرة قطر كما عرف لدى المؤرخين الأجانب باسم الدوحة(٢) كما أن تلك الثروة مكنت آل ثاني من تأليف القبائل القطرية معهم، ومنحتهم مركزا مميزا بالنسبة للقبائل الأخرى. كما يجب أن ندرك أن قبيلة المعاضيد التي ينتسب لها آل ثاني من القبائل المتحضرة في منطقة شرق الجزيرة العربية(٣) وهذا سبب آخر يدعو القبائل القطرية إلى التسليم بزعامة آل ثاني على شبه جزيرة قطر ويمكن أن نضيف سببا آخر لتسليم القبائل القطرية بزعامة آل ثاني على شبه الجزيرة القطرية، هذا السبب يتمثل في أن آل ثاني راعوا كيانات القبائل الأخرى في شبه الجزيرة(٤).

وأما عن طبيعة تسليم قبائل قطر بزعامة آل ثاني على شبه الجزيرة القطرية فأنه وان لم يكن قد نضج بعد بين هذه القبائل الوعي السياسي وتقدير أهمية الوحدة السياسية لشبه جزيرة قطر ذات الوحدة الطبيعية، إلا أن إحساسهم بما سوف تحققه الوحدة الوطنية من خير لهم دفعهم إلى الانتظام فى الاطار الوطني لشبه جزيرة قطر كاملة بعد أن كان مفهومهم عن الوطن لا يتعدى حدود مضارب القبيلة من الأرض. ومن ثم فانه ما أن عاد الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني إلى قطر ضمن التسويات التي تمت في نهاية عام ١٨٦٨م بين قطر والبحرين وبريطانيا كان أول عمل أقدم عليه أن أمسك بزمام السلطة في شبه جزيرة قطر وقام يدعو العشائر كلها إلى الاستقلال فلبت دعوته(٥)، من خلال إحساسها -أي القبائل القطرية- بما سيتحقق لهم في ظل الوحدة الوطنية.

إحساس القبائل القطرية بالانتماء للعروبة والاسلام

وثاني صروح الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر يتمثل في إحساس أهلها بالانتماء للعروبة والاسلام، فان العروبة في قطر قديمة قدم الانسان بشبه الجزيرة القطرية، والاسلام دخلها على يد الصحابي «العلاء بن الحضرمي» في العام

السادس للهجرة النبوية ومن ثم كان أثر العروبة والاسلام عند قبائل قطر دافعا الى الانضواء في إطار وحدة وطنية هويتها وعقيدتها الاسلام، وبالتالي وجدنا معظم هذه القبائل وعلى رأسهم الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني يرحب بدعوة التوحيد التي انبعثت في نجد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحملها الى قطر آل سعود، لأن هذه الدعوة جددت في نفوس قبائل قطر - كما جددت في نفوس كل العرب والمسلمين أينما كانوا - الانتماء العربي الاسلامي في إطاره الصحيح.

ويمكن أن نحدد بدء دخول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى شبه جزيرة قطر حين سار «ابراهيم بن عفيصان» القائد السعودي في عام ١٢٠٧هـ (١٧٩٢م) إلى قطر ومعه جماعة من أهل «الخرج» و «الفرع»(٦)، ودخل قرى قطر فيما عدا الزبارة التي تحصن بها العتوب، ولكن «ابراهيم بن عفيصان» شدد هجماته على «الزبارة» فعوّل العتوب على الرحيل من الزبارة وساروا إلى البحرين وأخضعوها لحكمهم(٧). وبهذا صارت الزكاة تحصل لحساب السعوديين من جميع القبائل تقريبا التي تنزل بين قطر وعُمان ومعظم قبائل قطر وصار آل ثاني يدفعون هذه الزكاة نيابة عن القبائل القطرية التي تسلم بالولاء لهم(٨).

وعمل الشيخ محمد بن ثاني - الذي اعتنق دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - وكيلا للسعودين في قطر فكان مسئولا عن جمع الضريبة - الزكاة - من القبائل القطرية ويسلمها بعد ذلك إلى إمام السعوديين في نجد - الامام فيصل بن تركي - وذلك في الفترة من عام ١٨٥١ إلى عام ١٨٦٦م(٩)، ومن المعلوم أن الدولة السعودية الثانية التي أقامها فيصل بن تركي قد انتهت عام ١٨٦٦م. وإن ظل القطريون يشايعون السعوديون ويؤيدون حكمهم بل وانخرطوا في اعتناقهم للدعوة السلفية(١٠).

تقدير الشيخ قاسم للطبيعة القبلية

وثالث صروح الوحدة الوطنية في قطر تقدير الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني لطبيعة القبائل العربية عامة بما فيها القبائل القطرية بطبيعة الحال من حب

للثورة على السلطة والنظام، ومن هذا التقدير عمل على امتصاص كل محاولة تحدث من بعض القبائل القطرية للخروج على الوحدة الوطنية بالترضية المعنوية أو المادية تارة وبالشدة تارة أخرى، مع العفو عن الخارجين أكثر من مرة -حتى يتعود الخارجون على احترام السلطة والتمسك بالوحدة الوطنية.

ومن الأمثلة على الترضية التي لجأ اليها الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني مع القبائل القطرية ماترويه الوثائق عن ترضيته لقبيلة البوعينين عام ١٩٠٨م. ذلك أن السفير البريطاني بالآستانة أبلغ السير إدوارد جراي وزير الخارجية البريطانية بفحوى رسالة وصلت اليه من القنصل البريطاني بالبصرة تفيد أن القائم بعمل والي البصرة العثماني قد أخبره – أي أخبر القنصل البريطاني – أن الشيخ عبدالرحمن البوعينين قد تخلى عن منصب مدير «الوكرة» إحدى مدن شبه جزيرة قطر جنوب الدوحة، وأن قبيلة البوعينين قد بعثت وفدا من رجالها إلى والي البصرة يطلب إقامة مركز عسكري تركي بالوكرة(١١).

وقد أوضح القنصل البريطاني في البصرة أن المقيم البريطاني في «بوشهر» بالخليج يخشى من أن بعثة قبيلة البوعينين قد تؤدي إلى مزيد من التدخل التركي في شبه جزيرة قطر خاصة والخليج العربي بصفة عامة استنادا إلى السيادة التركية على هذه الأجزاء، وعليه فان القنصل البريطاني سيوضح للوالي العثماني بالبصرة خطأ الاستماع إلى أية طلبات تطلبها قبيلة البوعينين(١٢) ولا يخفى علينا هذا الموقف البريطاني الذي يسعى الى منع الأتراك من اتخاذ أية خطوات إجرائية نحو قطر يكون من شأنها تأكيد السيطرة التركية فى الوقت الذي تحاول فيه السلطات البريطانية إبعاد اليد التركية عن شبه جزيرة قطر بل وعن بقية مناطق الخليج التي للأتراك ادعاءات عليها. ومما لا شك فيه أن هذا الموقف البريطاني قد أفاد الوحدة الوطنية القطرية ولو بطريقة غير مباشرة وغير مقصودة.

كما أن المقيم العام البريطاني في الخليج قد كتب من «بوشهر» الى القنصل البريطاني بالبصرة من أجل توجيه نظر الوالي التركي بالبصرة لكي لا يشجع

مطالب وفد قبيلة البوعينين الذي ترأسه «أحمد بن خاطر» وأن يقوم القنصل البريطاني بتهدئة خواطر البوعينين ويبلغهم باستعداد الممثل البريطاني بالبحرين للذهاب إلى قطر وازالة سوء التفاهم بين قبيلة البوعينين والشيخ قاسم بن محمد آل ثاني(١٣).

ولكن الشيخ قاسم اتخذ خطوة إيجابية من أجل الحفاظ على الوحدة الوطنية القطرية وجاءت هذه الخطوة ترضية لقبيلة البوعينين، وتفصيل ذلك أن الشيخ قاسم توجه من «لوسيل» إلى الدوحة، وبعث ابن أخيه خالد بن محمد آل ثاني الى الوكرة حيث طلب من قبيلة البوعينين عقد لقاء مع الشيخ قاسم، وقد لبّى زعماء البوعينين الدعوة وقد حرص الشيخ قاسم في هذا اللقاء على تذكير البوعينين بالصداقة القديمة المستقرة والمحبة الدائمة بين المعاضيد –قبيلة الشيخ قاسم– والبوعينين، ووعدهم بأنه سيعمل هو وأبناؤه من بعده على عدم اللجوء الى أية إجراءات قد تشوب العلاقات الودية بين البوعينين وآل ثاني. وقد تقبل زعماء البوعينين هذه التأكيدات بالرضا والقبول وقرروا البقاء في الوكرة كما كانوا قبلا. ومن ثم زار الشيخ عبد الرحمن – زعيم البوعينين – رؤساء عشائر وأسر البوعينين وطمأنهم وهذا يعني نجاح الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في ترضية قبيلة البوعينين ترضية معنوية.

كما تروي المصادر عن كيفية معالجة الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني لفتنة محمد بن عبد الوهاب الذي ينتمي الى الرعوية التركية والذي كان زعيما «للغارية» وتآمر ضد الشيخ قاسم في عامي ١٨٨٦ و ١٨٨٧م، على أمل أن يتزعم هو – أي محمد بن عبد الوهاب – شبه جزيرة قطر، ومحمد بن عبدالوهاب آل فيحان من قبيلة سبيع كانت تربطه علاقة مصاهرة مع آل ثاني، كما كان تاجرا للؤلؤ ومستشارا للشيخ محمد بن ثاني بالاضافة الى تزعمه قبيلة آل كوارة بسبب مصاهرته لهم وأقام في بلدة «الغارية» وهي من أهم قرى قطر، وقد حاول الأتراك الاعتماد عليه كمنافس للشيخ قاسم بن محمد آل ثاني الذي رفض المشاريع التركية لتقوية السلطة التركية على قطر(١٥).

وبدأت تحرشات محمد بن عبد الوهاب عندما اقترح ضابط البحرية التركية المسئول عن سواحل قطر أن يسمح لأهل «الغارية» بالاقامة في سلام تحت حكم محمد بن عبد الوهاب، وسافر محمد بن عبد الوهاب الى الأحساء – بعد أن اقترح إقامة دار تركية منظمة للعوائد في الدوحة– ثم عاد ومعه خمسون رجلا من رجال الضبطية التركية، ولقد أثارت هذه الاجراءات غضب الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني وهدد بالانسحاب الى الدوحة.

واستنادا إلى المساعدات والمساندة التركية بني محمد بن عبد الوهاب في «الغارية» قلعة كبيرة محصنة ودعا جميع أثرياء البلد إلى سكناها، وأخذ يجمع الناس والقبائل حوله ويبذل الأموال في سبيل ذلك وهو لا يدري أنه يهدم الوحدة الوطنية القطرية أو يدري ولكنه في سبيل زعامة قطر لا يبالي، وأخذ يستثير الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني نتصرفات غير مسئولة، مما دفع الشيخ قاسم إلى التصميم على تخليص قطر من هذه الفتنة واستعادة الوحدة الوطنية القطرية لقوتها، فجمع قواته والمتحالفين معه واتجه إلى حيث تجمع محمد بن عبد الوهاب والملتفين حوله، ولما حل الشيخ قاسم بساحتهم قتل بعضهم وصادر أموالهم ثم عفا عنهم واستقل بالامارة(١٧)، أما محمد بن عبد الوهاب فقد انتقل بعد هذه المعركة إلى بلدة «دارين» على ساحل الأحساء هو وجماعته حيث استوطنها(١٨).

ويبدو أن الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني قد حزن لهذا الخروج على الوحدة الوطنية القطرية، وأنه بذل في سبيل إنهاء هذا الخروج جهدا كبيرا، فعبر عن كل ذلك بشعر مرهف اختتمه بابراز فضل الله عليه الذي نصره، ودعا ابنه –الشيخ على بن قاسم– الى التمسك بحبل الله المتين لكي يحوز النصر دائما.

ومن هذا الشعر نسوق الأبيات الآتية:–

أرى الجفن والنوم ما يألف الكرى	إذا هم في بعض الهمم والمطالب
قم يا نديبي وارتحل عِيْدَ هيّة(١٩)	عمانية من ساس هجن نجـــايب

فأنا لي على كل البوادي قدايم[٢٠] … إذا نابهم سنة الغلا والحرايب[٢١]
أبذل لهم نفسي ومالي وعصبتي … وحصن لهم في موجبات النوايب

ويقـول :

فلا خير فيمن يتبع الهون والردى … ورزقه بين معطي وطالب
يلومونني العذال في مطلب العلا … يقولون يسلك بك دروب صعايب
فلولا ركوب الصعب في كل شدة … وصبر على شداتها والكرايب
مالذ في الدنيا لذيذ ومطعم … ولا لذ لي فيها لذيذ المشارب

ويقـول :

ولينا وعفّينا وجدنا بعتقهم … وجدنا لهم بأموالهم والربايب

ويقول لابنه :

تمسك بتقوى الله وأخلص له العمل … بعلم على حق صواب وصايب
ترى من أطاع الله طاعت له الملا … وذلّت له أرقاب الملوك الصعايب

وأجابه ابنه الشيخ علي بن قاسم بقوله :

لك الحمد يامن هو لنا في النوايب … معين على شداتها بالوهايب
فقد رابني من يمّة الغرب دولة … طوابير روم[٢٢] محنقين غضايب
وقد رابني من يمّة الشرق دولة … نصارى يدورون[٢٣] الحجج والسبايب
ونادى لهم من يمّة العجم شوشة … تحاموا علينا مدعين طلايب
وثوّب لهم[٢٤] من يمّة الجدى[٢٥] دولة … أخاليط فيها من بعيد وقرايب
ومع ذا وفى الشيخ اليماني[٢٦] عصابة … اهناوية فينا تدور الضرايب
تعاطوا علينا بالعداوة جميعهم … ولا ثمّنوا دوراتها والعقايب
فما نجحد الموالي واسع العطا … بحيث أن جعل فينا عطيب الضرايب[٢٧]

المحافظة على استمرار الوحدة الوطنية القطرية في مواجهة التنافس التركي الانجليزي

ورابع صروح الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر يتمثل في المحافظة على استمرار هذه الوحدة أمام تنافس انجليزي عثماني حول السيطرة على شبه الجزيرة القطرية وسلبها كيانها الذاتي وشخصيتها السياسية، ذلك أن الانجليز كان لهم نشاط بحري في الخليج تزايد منذ أن قضوا على النفوذ البرتغالي والهولندي هناك، وانفردوا هم بالنفوذ من أجل إحكام سيطرتهم على الهند المستعمرة البريطانية الكبرى.

وكانت انجلترا قد لجأت من أجل فرض نفوذها في الأقطار العربية الخليجية إلى عقد معاهدات مع حكام هذه الأقطار تعطي لانجلترا نفوذا كبيرا بوضع أقطار الخليج العربية تحت الحماية البريطانية، وذلك منذ أول القرن التاسع عشر وتمثل معاهدة عام ١٨٦٨م التي وقعها الشيخ محمد بن ثاني والد الشيخ قاسم أول اتصال رسمي بين قطر وبريطانيا تعهدت فيها بألا تخرق السلم البحري واعترف فيها الشيخ محمد بن ثاني بسلطة المقيم البريطاني بالخليج في فض المنازعات أو الخلافات الناجمة عن تطبيق المعاهدة(٢٨).

واعتمدت السياسة البريطانية اعتمادا كبيرا في تنفيذ خططها وسيطرتها على قطر بتعميق هوة الخلافات الشخصية بين شيخ الدوحة – الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني – ورؤساء القبائل والعشائر القطرية وشيوخ البحرين، وتثير المشكلة تلو المشكلة لتتمكن من إحكام سيطرتها وإجبار الأطراف المتنازعة على طلب مساعدتها سواء بالسلاح أو التأييد المادي والمعنوي(٢٩)، ولكن ظهور الأتراك العثمانيين في الخليج العربي واحتلالهم لقطر قد أضر بتنفيذ مخططات انجلترا الاستعمارية لظهور قوة كبيرة في المنطقة(٣٠).

وكان العثمانيون الذين فرضوا سلطانهم على العراق منذ عام ١٥١٤م ومصر

والحجاز منذ عام ١٥١٧م قد تطلعوا إلى الخليج، فقام جيش عثماني بالاستيلاء على الأحساء عام ٩٦٣هـ الموافق ١٥٥٥م وظلوا بها حتى استخلصها منهم «براك بن غرير» من «بني خالد» عام ١٠٨١هـ الموافق عام ١٦٨٣ تقريبا(٣١) ثم عادوا مرة أخرى إلى الخليج بعد أن استقر الأمر لهم في العراق، ومن ثم رأيناهم في أقطار الخليج العربية ابتداء من أوائل النصف الثاني للقرن التاسع عشر.

ومع وجود الأتراك العثمانيين في الدوحة منذ عام ١٨٧١م الذي يمكن وصفه بالاحتلال المباشر أطلقوا يدي آل ثاني في مزاولة السلطة وادارة شئون قطر، ومن ثم قامت سياسة الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في الفترة من عام ١٨٧١ إلى ١٨٩٣م على التحالف مع الأتراك، ولكن السياسة تحولت من عام ١٨٩٣ إلى ١٩١٣م في اتجاه التحالف والاعتماد على بريطانيا، وكان السبب المباشر لهذا التحول هو محاولة تقوية قبضتهم على قطر من خلال مشروع عاكف بك متصرف الأحساء في إقامة إدارة تركية مباشرة في قطر وانشاء إدارة للعوائد الجمركية(٣٢)، ولا شك أن كل ذلك يضعف من الوحدة الوطنية القطرية ذات الكيان السياسي الذي يرعاه الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني، والذي اعتبر «عاكف بك» تدخلاً مباشرا في سلطاته وحداً من الاستقلال الذي تمتعت به قطر عام ١٨٦٨م، وبالتالي تعود قطر إلى عهد ماقبل الوحدة الوطنية، ولعل هذا يفسر لنا بحث الشيخ قاسم عن حليف آخر للمحافظة على الوحدة الوطنية القطرية.

وأمام أطماع كل من انجلترا وتركيا في قطر، ونظرا لتفوق القوتين أمام قوة قطر العسكرية، فقد قبل الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني رفع العلم التركي في الدوحة منذ عام ١٨٧١م رغم معارضة والده الشيخ محمد الذي ظل يرفع العلم العربي على بيته(٣٣)، وكان الأتراك قد أرسلوا قوة عسكرية إلى شبه جزيرة قطر في ذلك بأمر «مدحت باشا» والى العراق التركي بعد أن احتلت القوات التركية ميناء القطيف بالاحساء.

ويبدو أن الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني قبل التعاون مع الأتراك العثمانيين

بحكم أنهم القوة البرية الاسلامية التي تعاون معها من قبله آل الصباح بالكويت، وأنه قبل بالوجود التركي من أجل مناوأة سيطرة بريطانيا البحرية في الخليج، ويدل على ذلك التحركات المحمومة للمقيم العام البريطاني ومساعده في الخليج عقب نزول قوات العثمانيين ورفع علمهم في قطر، وقد استطاع الشيخ قاسم تهدئة ثائرة الانجليز دون أن يستجلب عداءهم.

وكان النفوذ التركي لا يتعدى حدود مدينة الدوحة وضواحيها القريبة، وسحبت تركيا عام ١٨٧٢م قواتها النظامية التي كانت في مدينة الدوحة وأبدلتها بثلاثين رجلا من رجال الضبطية أي الشرطة، وأصبحت قطر قائمقامية تتبع لواء الأحساء الذي يحكمه متصرف يخضع لوالي ولاية البصرة، ويتبع قائمقامية قطر بعض القرى الصغيرة على رأس كل منها مدير يخضع الى قائمقام قطر وكان الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني أول قائمقام لقطر(٣٤).

ولم يكن الشيخ قاسم ليقبل بوجود الأتراك العثمانيين في الدوحة على حساب الوحدة الوطنية في قطر، ولذلك رأيناه يقبل من الأتراك العثمانيين منصب قائمقام لحكام قطر عام ١٨٧٦م، في الوقت الذي بدأت فيه تركيا تروج لفكرة الجامعة الاسلامية، ولم يجد الشيخ قاسم غضاضة في أن يقبل هذا المنصب في هذا الاطار الاسلامي الذي وجد له صدى كبيراً بين الزعماء العرب والمسلمين، وطالما لم يتدخل الأتراك العثمانيون في زعامته الداخلية ركيزة الوحدة الوطنية.

إلا أن الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني كان على استعداد لاتخاذ موقف العداء من الأتراك العثمانيين إذا شعر بمؤامرات يحيكونها ضد وحدة قطر الوطنية، ومن ثم نجد له مواقف وطنية أمام محاولات الأتراك العثمانيين إحكام قبضتهم على قطر خلال أعوام ١٨٨٩/١٨٩١م، خاصة عندما أصرت تركيا على إقامة إدارة تركية مباشرة في قطر، وفرض التنظيمات التي رأت السلطات التركية تنفيذها بسبب وقف الامدادات المالية غير المحسوبة التي كان يحصل عليها

الشيخ قاسم من خلال فرض الضرائب(٣٥) ومحاولة الوالي التركي في البصرة إحكام السيطرة التركية على قطر بتعيين مساعد لقائمقام قطر الشيخ قاسم دون موافقة الأخير، وتعيين مديرين «للزبارة» و «العديد»، وتجهيز قوة تركية قوامها أربعمائة جندي لتقوية الحامية التركية في قطر(٣٦).

ولم يكن الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني ليقبل تلك الاجراءات التي تنتقص من سلطته وتهدد الوحدة الوطنية القطرية، ولذلك حدث الصدام بين قطر والأتراك العثمانيين بدأ باذاعة الشيخ عن عزمه في الاستقالة من منصب القائمقام على قبائل شبه جزيرة قطر، وأن الأتراك العثمانيين تسلطوا على البلاد، وهذا الاعلان كان بمثابة إنذار بالحرب لأن القبائل التي قبلت بزعامة الشيخ قاسم لم تكن على استعداد لأن تخضع للحكم التركي المباشر بما يحمله لهم من احتلال واستغلال.

وتطورت الأمور بين الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني وبين الأتراك العثمانيين إلى الحرب بعد أن أيقن من مؤامرات الأتراك العثمانيين وخيانتهم له عام ١٨٩٣م، وجعل من إنشاء دار للعوائد الجمركية في الدوحة سببا رئيسيا للجهر بعدائه متذرعا بأن الضرائب على التجارة والسفن الوطنية ودخل اللؤلؤ سيترتب عليها هجرة السكان بمجرد تطبيق هذا الاجراء، كذلك علل الشيخ قاسم عدم موافقته على تعيين مساعد له بأنه سيتدخل في الشئون القطرية الخاصة دون مراعاة للروح البدوية والنظام القبلي السائد في التعامل بين الشعب القطري(٣٧).

و بدأت تركيا العداء باحضار قوة تركية برية قوامها ١٥٠ جنديا، وسفينة بحرية وجهت نيرانها للدوحة في الوقت الذي لقيت فيه القوة التركية البرية هزيمة منكرة أمام قوات قطر بقيادة الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في ٢٦ مارس ١٨٩٣م، كان من نتيجتها إطلاق سراح الشيخ أحمد بن محمد آل ثاني شقيق الشيخ قاسم و ١٢ من أعيان الدوحة الذين احتجزهم الأتراك العثمانيون رهائن

قبل المعركة، كما كان من نتيجة المعركة عزل والي البصرة الذي دبر الهجوم على قطر وأدار المعركة بنفسه وهو محمد حافظ باشا.

ونتيجة للسياسة التركية نحو الوحدة الوطنية في قطر، فقد بدأت سياسة التقارب بين قطر والانجليز، وذلك للأسباب التالية:-

١ - عجز الأتراك العثمانيين عن التعاون مع الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني من أجل المحافظة على استقلال قطر ووحدتها الوطنية في مواجهة طلبات البحرين المالية والاقليمية.

٢ - الاعتداء المستمر للمأمورين والمديرين الذين كانت تعينهم السلطات التركية المسئولة للعمل في قطر على رعاياهم الى جانب وقوع منازعات كثيرة بين العسكريين من رجال الحامية العثمانية والقبائل البدوية الضاربة على حدود قطر والتي كانت تدين للشيخ قاسم بالولاء(٣٨)، في اطار الوحدة الوطنية القطرية.

٣ - ظهور ضعف الدولة العثمانية بعد هزيمتها أمام الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني، تلك الهزيمة التي تؤدي بالتالي إلى القضاء على مركز الدولة في أعين العشائر البدوية لذا فقد أعلن الباب العالي أن ما فعله والي البصرة كان دون علم منه، فاتجهت الدولة العثمانية إلى التفاوض مع قاسم(٣٩).

لكن أخطر نتائج الصدام بين قطر والأتراك العثمانيين كان إدراك الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني لخطر الوجود التركي، وأنه لابد من عمل توازن في العلاقة مع الأتراك العثمانيين لتحسين علاقته بالانجليز، ورفض التعاون مع الأتراك العثمانيين على النحو الذي كان قبل معركة ٢٦ مارس ١٨٩٣م، ففي عام ١٨٩٧م رفض الشيخ قاسم باسم قطر المساهمة في الحرب الدائرة بين تركيا واليونان آنذاك، ورفض الشيخ قاسم قبول دعوة من متصرف الاحساء التركي

لزيارة المتصرفية ومعه شقيقه الشيخ أحمد.

وقد ظل الأتراك العثمانيون موجودين بقطر حتى جلوا عنها أثناء الحرب العالمية الأولى ولكن مع اعترافهم بآل ثاني لقطر الموحدة، وإذا كان الشيخ قاسم قد اعتزل منصب القائمقام بعد معاركه مع الأتراك فان الأتراك لم يعترفوا إلا بزعامته وعهدوا إلى شقيقه أحمد بمنصب مساعد القائمقام مع استشارة الشيخ قاسم في كل الأمور، رغم ما ذكره متصرف نجد من أن الشيخ قاسم تغلب عليه الطبيعة البدوية من خشونة مما أدى إلى عدم تأثير نصائحي ونصائح أسلافي بحسب المناسبات الملائمة من حيث المكان والزمان، وينصح المتصرف بابقاء الشيخ قاسم في منصب القائمقامية والعمل الملح لاقناعه لآخر نفس بأخذ موافقته لتنفيذ الاجراءات المتصورة(٤٠).

وأما اتجاه الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني إلى الانجليز لعمل توازن في علاقته مع الأتراك العثمانيين فان ذلك يعطي دليلا على زعامة هذا الرجل وشخصيته، وحرصه على الوحدة الوطنية لقطر، ففي الوقت الذي كان يحمل فيه رتبة القائمقام العثمانية اتصل بالسلطات البريطانية مباشرة، وهذا أمر لم يكن مسموحا به للولاة العثمانيين ناهيك عن المتصرفين والقائمقامين.

تقدير الدولة السعودية لزعامة آل ثاني

وخامس صروح الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر تقدير الدولة السعودية لزعامة آل ثاني، ذلك التقدير الذي تجلى في مواقف كثيرة، كترحيب الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وترحيبه بقيام الدولة السعودية الحديثة على يد «الأمير» عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، لأن في وجود هذه الدولة العربية الاسلامية الكبرى وقوتها في شبه الجزيرة العربية، وعلى الجانب الآخر من حدود قطر، قوة لوحدة شبه جزيرة قطر الوطنية في مواجهة الأخطار الخارجية.

وكان انتشار الدعوة السلفية في قطر مما يقرب بين آل ثاني وآل سعود، ومن ثم لم يكن غريبا أن نجد الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني يذهب للترحيب بعبدالعزيز آل سعود حينما ظهر قرب ساحل السلام أواخر سنة ١٩٠٥م(٤١).

وفي مقابل المساعدات التي تلقاها عبد العزيز آل سعود من الشيخ قاسم ابن محمد آل ثاني خلال سنوات حرب ابن سعود مع ابن الرشيد، وهي المساعدات التي شدت من أزره في وقت المحنة، فقد وجد ابن سعود في الفترة من ٥ يونيو حتى أغسطس عام ١٩٠٥م أنه من الواجب عليه تقديم المساعدة والعون لشيخ قطر أثناء الفتنة الأهلية في إمارته، تلك الفتنة التي كان يقودها أخوه الشيخ أحمد بن ثاني والتي كان هدفها انتزاع الامارة من قاسم(٤٢).

وقد تمثل تقدير آل سعود لزعامة الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في قبول شفاعة الأخير في «آل بسام» من عنيزة الذين كانوا من أعداء «الامام» عبدالعزيز آل سعود وغلبهم وأخذ زعماءهم إلى الرياض عام ١٩٠٤م أكثر من عام، ولم يقبل شفاعة أشراف مكة وزعماء البصرة فيهم حتى تشفع فيهم الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني فقبل «الامام» عبد العزيز آل سعود شفاعته، وأرسل زعماء آل بسام مع خدمه إلى قطر عام ١٣٢٢هـ(٤٢).

كما تمثل تقدير آل سعود لزعامة الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني أيضا، في قبول عبد العزيز آل سعود شفاعة الشيخ قاسم في أمير بلاد الحريق -في نجد- المسمى «راشد الهمزاني» وجماعته لما شق العصا ونقض بيعة الامام وصار جريرة سوء، أسره الامام وحبسه في بلاده الرياض ولم يظن أحد أنه يفك أسره أبدا لأنه أجرم جرما كبيرا في الولاية للمسلمين فشفع فيهم الشيخ قاسم، فأطلقه له الامام وأرسله مع عبد الرحمن بن سويلم بقطر(٤٤).

كانت تلك إذن صروح الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر التي عمل لها الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني طوال حكمه وزعامته لشبه الجزيرة، وهي جميعا

توضح الجهود المضنية والطويلة التي بذلها الشيخ قاسم في سبيل تحقيق وتثبيت الوحدة الوطنية القطرية أمام قوى أكثر نفوذا وأوضح أطماعا، وظروف أكثر صعوبة وذلك على المستويين الخارجي والداخلي. وعندما خلفه في زعامة قطر ابنه الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني كانت الوحدة الوطنية القطرية مستقرة اعترفت بها الأقطار العربية في شبه الجزيرة واعترفت بها انجلترا بتوقيع معاهدة بين الطرفين كانت أول اعتراف دولي باستقلال قطر.

الهوامش

(١) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ١٥٥.
(٢) عبد العزيز المنصور : التطور السياسي لقطر (١٨٦٨-١٩١٦) ص ٢٣.
(٣) نفس المصدر ص ٢٤.
(٤) د. صلاح العقاد : المرجع السابق ص ١٥٦.
(٥) د. جمال زكريا قاسم : الخليج العربي (١٨٤٠-١٩١٤) ص ٢٣٥.
(٦) حسين بن غنام : تاريخ نجد - ص ١٨٠ -.
(٧) حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ١٠٢.
(٨) مركز أبحاث شركة أرامكو : عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي ص (٢٨٠).
(٩) عبد العزيز المنصور : المرجع السابق ص ٢٤.
(١٠) لوريمر : دليل الخليج - القسم التاريخي جـ ٣ ص ١٢١٤.

(11) F.O. 424,Confidential (9482): Further correspondence respecting the Affairs of Asistic Turkey and Arabia, 217: Sir G. Lowther to Sir Edward Grey, Pera, December 15, 1908. Piece 68.

(12) Ibid, Inclosure 1 in No. 68 Consul Crow to Sir Gerald Lowther, Bussorah, November 20, 1908.

(13) Ibid, Inclosure 2 in No. 68 British Resident, Bushire (M.E. Rae) to consul Crow. Bushire, November 17, 1908.

(14) Ibid, Inclosure 3 in No. 68: Extract from the Diary of the Bahrein Political Agency for the week ending. November 13, 1908, Item 354, November 7.

(١٥) عبد العزيز المنصور : المرجع السابق ص ٢٨.
(١٦) لوريمـــر : المرجع السابق ص ١٢٢٢.
(١٧) ديوان الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني ط ١٦.
(١٨) عبد العزيز المنصور : المرجع السابق ص ١٤٧.
(١٩) عِيْد هيّة : من صفات الناقة الطيبة
(٢٠) قدايم : يعني معروف سابق.
(٢١) الحرايب : الحروب وما يتبعها من تلف وشدة.
(٢٢) طوابير روم : يعني عسكر الدولة العثمانية.
(٢٣) النصارى : يقصد بهم الانجليز الذين يثيرون الفتن ويبحثون عن أسبابها.
(٢٤) ثوّب لهم : استجاب لهم.
(٢٥) من يمّة الجدى : من جهة الشمال.
(٢٦) الشيخ اليماني : يقصد الشيخ زايد حاكم عمان حين ذاك.
(٢٧) عطيب الضرايب : الذي إذا سدد الضرب أصاب هدفه والمقتل. والأبيات والتوضيحات من كتاب ديوان الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني ص ١٦ – ٢٠.
(٢٨) د. جمال زكريا قاسم : الخليج العربي (١٨٤٠ – ١٩١٤) ص ٤٧٢.
(٢٩) نفس المرجع ص ٢٣٦.
(٣٠) د. سيد نوفل : الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة ص ٦٣.
(٣١) أمين الريحاني : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ٧٢.
(٣٢) عبد العزيز المنضور : المرجع السابق ص ٢٦ – ٢٧.
(٣٣) العلم العربي هو علم الهدنة الذي قبل حكام الامارات العربية الخليجية رفعه على بلادهم احتراما لاتفاقية السلم البحري مع بريطانيا. عبد العزيز المنصور: المرجع السابق ص ١٤٠.
(٣٤) نفس المرجع ص ١٤١.
(٣٥) لوريمـــر : المرجع السابق ص ١٢٢٤.
(٣٦) سالدانا : الشئون القطرية.. ص ١٦٤.
(٣٧) نفس المرجع ص ١٦٤.
(٣٨) الألوسي : تاريخ نجد .. ص ٣٨.
(٣٩) د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٤٦.
(٤٠) إرادة عسكرية رقم ١٦ في ٢٧ محرم سنة ١٣١٠هـ، صورة التحريات الواردة من متصرفية نجد.
(٤١) د. صلاح العقاد : المرجع السابق .. ص ١٩٢.
(٤٢) عبد العزيز المنصور : المرجع السابق .. ص ٢٠٠.
(٤٣) ديوان الشيخ قاسم محمد آل ثاني ص ٣٦.
(٤٤) نفس المصدر ونفس الصفحة.

مصـــادر البحث

أولا – الوثـائق :

(أ) الوثائق البريطانية :

— F.O. 424, Confidential (9482); Further Correspondence respecting the Affairs of Asiatic Turkey and Arabia, 217. Piece 68.

(ب) الوثائق التركية :

١ – صورة التحريرات الواردة من متصرفية نجد : إرادة عسكرية رقم ١٦ في ٢٧ محرم سنة ١٣١٠هـ.

٢ – جدول إحصائية : إرادة عسكرية رقم ١٦ في ٢٨ محرم سنة ١٣١٠هـ.

٣ – صورة التحريرات الواردة من وكالة معاونية قائمقام قضاء قطر: إرادة عسكرية رقم ١٦ في ٢٧ محرم سنة ١٣١٠هـ.

وهذه الوثائق مترجمة إلى العربية ومحفوظة بقسم الوثائق بالديوان الأميري بالدوحة.

ثانيا – المؤلفـات :

١ – د. جمال زكريا قاسم : الخليج العربي، دراسة لتاريخ الامارات العربية (١٨٤٠ – ١٩١٤م) القاهرة ١٩٦٦م.

٢ – حسين بن غنام : روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوي الاسلام، المسمى تاريخ نجد تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد – القاهرة ١٩٦١م

٣ – د. سيد نوفل : الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة وهو كتابان الأول مدخل عام ودراسة للكويت، نشرة معهد الدراسات والبحوث العربية – القاهرة ١٩٦٧م، والكتاب الثاني يتناول ساحل عمان ونشره معهد البحوث والدراسات العربية أيضا – القاهرة ١٩٧٢م.

٤ – د. صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي – القاهرة ١٩٧٤م.

٥ – شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) – إدارة العلاقات شعبة البحث، عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي – مترجم – القاهرة ١٩٥١م.

٦ – ديوان الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني وقصائد أخرى نبطية، طبع على نفقة صاحب السمو الشيخ علي بن عبد الله بن قاسم آل ثاني حاكم قطر السابق، الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٩هـ تحت إشراف دار الكتب القطرية.

٧ – عبد العزيز المنصور : التطور السياسي لقطر في الفترة ما بين ١٨٦٨–١٩١٦م، الطبعة الأولى – الكويت ١٩٧٥م.

٨ – سالدانا (جي. أي) الشئون القطرية من سنة ١٨٧٣ الى ١٩٠٤م، مترجم بقلم أحمد العناني ونشرته لجنة كتابة تاريخ قطر وطبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر – الدوحة ١٩٧٦م.

٩ – لوريمر (ج. ع) دليل الخليج – القسم التاريخي ٧ أجزاء، ترجمة مكتب الترجمة بديوان أمير دولة قطر – الدوحة ١٩٦٩م.

١٠ – حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين، طبعة ثانية، القاهرة ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

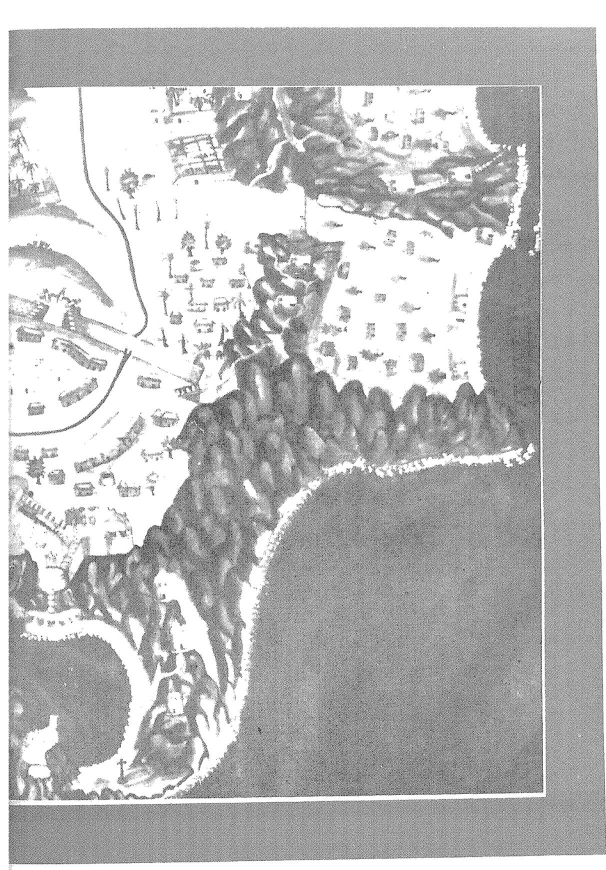
١١ – محمود شكري الألوسي: تاريخ نجد، حققه وعلّق عليه محمد بهجت الأثري – الطبعة الثانية – القاهرة ١٣٤٧هـ.

١٢ – أمين الريحاني : تاريخ نجد الحديث وملحقاته – الطبعة الثانية، بيروت ١٩٥٤م.

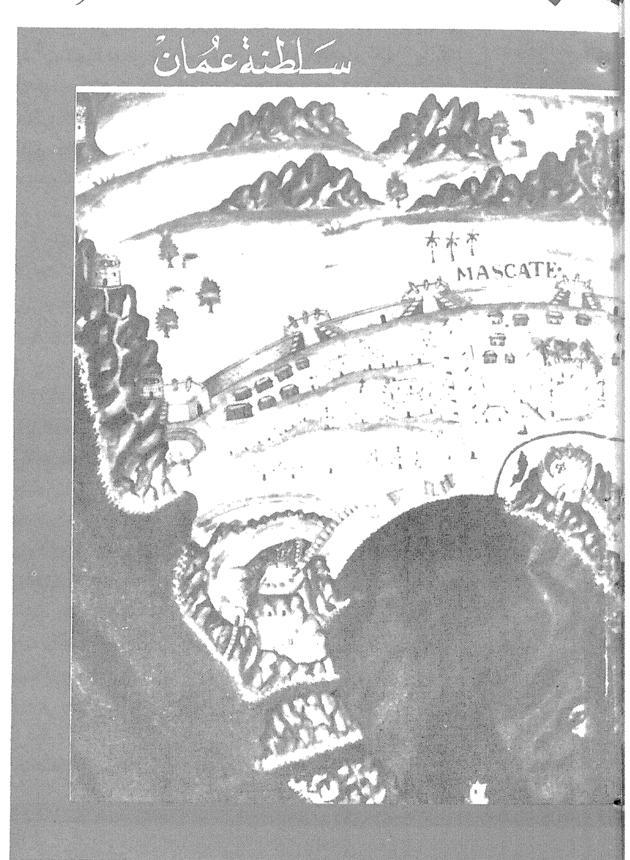
الاستحكامات الحربية بسلطنة عمان

بقلم الاستاذة الدكتورة
سعاد مـاهر محمد

الإستحكامات الحربية



ة بسلطنة عمان



كانت عمان وما تزال تشغل جزءا استراتيجيا على جانب كبير من الأهمية من شبه الجزيرة العربية. وقد وصفها المؤرخون القدامى منذ أن كانت تشغل الزاوية الشرقية من اليمن الخضراء فقالوا انها بلاد الملاحة(١) والشراع لأن أهلها أول من رفع شراعا في البحار واقتحم أخطار الأسفار فمارسوا الملاحة وأتقنوا علمها وكانوا الصلة بين الشرق والغرب.

كما جاء ذكر العثمانيين في آداب اليونان على أنهم أهل الملاحة وربابنة الشراع، كذلك قيل أن عمان بلاد الأزد، الذين يقال لهم أزد عمان حتى قيل في تفسير قوله تعالى «وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا»(٢). والمراد بالملك في الآية الكريمة، هو الجلندي ملك الأزد(٣).

وكان طبيعيا أن تحتل بلاد الملاحة والشراع هذه الأهمية الاستراتيجية لوقوعها على الخليج العربي وهو الحد الشرقي الأقصى للوطن العربي الذي يمتد كما يقول المحدثون من المؤرخين من المحيط الهادر الى الخليج الثائر، بل هي تشرف على مدخله عند خليج عمان ومضيق هرمز. على أن أهمية عمان لم تكن قاصرة على موقعها الاستراتيجي فحسب، بل ان تاريخها وماضيها التليد ليسجل دورها البارز الذي لعبته في تاريخ البشرية. فقد شهدت شواطؤها مولد كثير من الحضارات والامبراطوريات وانتشرت على سفوح جبالها وفي بطون ودیانها الديانات والفلسفات والمذاهب الدينية، بما لم تشهده غيرها من المناطق في العالمين القديم والحديث. فقد قامت على شواطيء الخليج العربي دول سومر وأكاد وبابل وعيلام. وجاست جيوش الاسكندر المقدوني شواطيء الخليج ثم قامت دولة بنوساسان التي أتى عليها الاسلام. وسرعان ما أصبح الخليج العربي بحيرة داخلية لخلفاء العباسيين مفتاحها أرض عمان.

على أن هذا التاريخ الطويل المتصل الحلقات لعمان وشواطيء الخليج كان يتأرجح بين الازدهار والانحلال وذلك من الناحيتين السياسية والاقتصادية عبر تاريخها السحيق فهو ليس موضوع بحثنا، ولكننا نرى أن نقتصر في هذا المجال على التحدث عن ازدهار الحياة في عمان في عهد الدولة العباسية وعن النشاط التجاري الذي صاحب اتساع نفوذ كل من البصرة والبحرين وعمان في منطقة الخليج ثم انكماشه بعد أن قضى المغول على الدولة العباسية لاتصال ذلك بالبحر وركوبه وما يقام على شواطئه من حصون وقلاع تحميه وتدافع عنه.

وقد حدثنا كثير من الرحالة عما كانت عليه عمان وغيرها من مدن الخليج من الرخاء والازدهار في العهد العباسي، وان كانت قصصهم لا تخلو في كثير من الأحيان من الجانب الاسطوري مثل قصص الرحالة ماركوبولو التي طالما هزت أطماع الأوربيين وداعبت خيالهم، فهبوا مسرعين يملأون سفنهم الشراعية بما عندهم من سلع تصلح للمقايضة ويولون وجوههم الى باب الشرق السحري وسراب الثروة يداعب جفونهم.

فلما سقطت الدولة العباسية في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي وتحولت التجارة الى طريق البحر الأحمر، نضبت منابع الثروة من دول الخليج وذهب الأغنياء وبقي الفقراء. على أن الوضع لم يستقر على ذلك فقد غيرته الكشوف الجغرافية التي قام بها الأسبان والبرتغال في نهاية القرن الخامس عشر وذلك باكتشاف رأس الرجاء الصالح الذي غير موازين القوى في العالم فبزغت شمس مراكز تجارة دول الخليج العربي مرة ثانية، وهكذا بدأت من دورات الحياة أو حلقات تاريخ الخليج الزاهرة. وقد استتبع ذلك في العصر الحديث اكتشاف البترول في دول الخليج فانتقلت من دورة زاهية الى دورة ذهبية نسأل الله أن يستغلها العرب استغلالا يعود عليهم بالنفع والرفاهية في حالهم ومستقبلهم.

وفضلا عما تقدم فان لموقع الخليج العربى أهمية خاصة فهو ذراع بحري

للمحيط الهندي يتوغل في داخل الأرض اليابسة يقرب المسافة البرية عبر منطقة الهلال الخصيب، بين المحيط الهندي وبين البحر المتوسط، أو بين الشرق والغرب. على أن هذا الذراع البحري يتألف من خليجين كبيرين، خليج خارجي هو خليج عمان وخليج داخلي هو الخليج العربي، ويصل بينهما مضيق هرمز. ولا يوجد بحر داخلي في العالم له نفس الأهمية التي يتمتع بها الخليج العربي وذلك بفضل موقعه على أحد الطرق الرئيسية بين الشرق والغرب. وبفضل قيام حضارات عريقة في القدم، على شواطئه أو على مقربة منه، مما جعله يقوم بدور تاريخي بارز كمنفذ بحري يربط تلك الحضارات بحضارات الشرق الأقصى القديمة في الهند والصين. وكانت التجارة بين الشرق والغرب تمر به دائما وكانت السفن تمخر ذهابا وإيابا تحمل المتاجر بين هذين العالمين.

وكانت الحركة التجارية في الخليج العربي تفوق في أهميتها ما كان الخليج يجود به من لؤلؤ ومرجان وأسماك وما كانت تجود به الأرض الممتدة على جانبيه من غلات زراعية كالحبوب والتمور، لهذا اكتسب الخليج العربي أهميته الخاصة كطريق تجاري بحري. وبرغم منافسة الطريق التجاري عبر البحر الأحمر الشديدة لتجارة الخليج، وبرغم قصر اليابسة التي تفصل بين مياه البحر الأحمر والبحر المتوسط وهي منطقة برزخ السويس التي تقصر بكثير عن المنطقة التي تفصل بين مياه الخليج العربي والبحر المتوسط (وهي منطقة الهلال الخصيب) هذا فضلا عن تعرض الملاحة في الخليج العربي لأخطار القرصنة التي اشتهرت بها القبائل العربية والفارسية التي كانت تسكن سواحله، وبرغم كل ذلك فان تجارة الخليج كانت تبلغ ثلاثة أضعاف تجارة البحر الأحمر في كثير من الأوقات.

ومن ثم فقد كان هذا هو السبب الرئيسي في اهتمام البلاد البحرية العظمى التي حملت سفنها تجارة أوروبا عبر البحار، به، وخاصة البرتغال التي اهتمت به أولاً ثم احتلته ثانيا، وتلتها بعد ذلك بريطانيا.

على أننا لم نقصد بهذه المقدمة الوجيزة أن نشرح أو نصف في توسع أهمية

عُمان من الناحية الاستراتيجية أو نعدد فضل الخليج العربي على العالمين الشرقي والغربي كطريق للمواصلات البحرية أو كطريق للتجارة العالمية، فليس هذا مجالنا، ولكنه كان علينا أن نعرِّج عليه في إلمامة سريعة توضح للقاريء السبب في كثرة انشاء الاستحكامات الحربية في هذه المنطقة والتي لم يحظ بها اقليم آخر في العالم الشرقي والغربي على حدٍ سواء.

على أن المتصدي للكتابة في هذا الموضوع ونعني به الاستحكامات الحربية لابد له أن يدرس في شيء من الايجاز ثلاث نقاط كقاعدة أساسية يستطيع أن يقيم عليها تلك الاستحكامات وهي :-

أولا : تضاريس المنطقة بما تحتويه من مرتفعات ووديان وشواطيء وسهول.

ثانيا : التقسيمات الادارية التي تفصل بين منطقة وأخرى والتي تربط بين الساحل والداخل وبين الصحراء والوديان.

ثالثا : الأحداث التاريخية الهامة في تاريخ المنطقة والتي أثرت تأثيرا مباشرا وغير مباشر في اقامة كثير من الاستحكامات للدفاع عنها ضد غارات المعتدين.

ولما كان الأمر كذلك فقد وجدنا لزاما علينا أن نتناول كل نقطة من النقاط الثلاث السالفة الذكر في شيء من الايجاز حتى نستطيع أن نبين مواقع ومواضع حصوننا وقلاعنا وأسوارنا وغيرها من الاستحكامات الحربية.

أولا : تقع عمان الى الشرق من اليمين وتمتد حدودها الغربية من ظفار الحبوضي التي تقع في شرق حضرموت وتمتد شرقا حتى رأس الخيمة والمشيخات الواقعة جنوب قطر على الخليج العربي. وتمتد عمان جنوبا من البحر العربي حتى الغلاة، وفي شمالها يقع الربع الخالي. وبالاختصار فان اسم عمان كان يطلق على البلاد الواقعة بين خليج البصرة وبحر العرب ويحيط بها البحر من ثلاث جهات

وذلك قبل أن يقطع الاستعمار أوصالها.

وتتألف جبال عمان من سلاسل جبلية وعرة شديدة الالتواء تمتد في اتجاه عام من الشمال الى الجنوب بموازاة خليج عمان فهي تبدأ من رأس المسندم شمالا وهو الحد بين خليج عمان وخليج العرب وتمتد جنوبا موازية للساحل على شكل قوس تنتهي عند رأس الحد، وهو الجزء الفاصل بين خليج عمان وبحر العرب. وتعتبر هذه الظاهرة التي تتمثل في جبال عمان عنصرا غير مألوف في الجزيرة العربية لأن الالتواء فيها شديد للغاية.

ويعتبر الجغرافيون والجولوجيون أن سلاسل جبال عُمان التي تمتد على شكل قوس جنوب شرقي شبه الجزيرة العربية كانت في الأصل امتدادا لجبال زاجروس أو فرعا من فروعها. أما عن السبب في انفصال جبال عُمان عن تلك السلسلة فقد تم بسبب هبوط حدث في قشرة الأرض في منطقة بوغاز هرمز. ويتمثل في مجموعة جبال عمان ثلاثة أنواع متباينة من التضاريس تعكس طبيعة تكوينها الجيولوجي وهي منطقة الصخور الجيرية أو منطقة رؤوس الجبال التي توجد في أقصى الشمال، وهي منطقة شبه جزرية تفصل بين مياه الخليج العربي ومياه خليج عمان وتشغل مساحة كبيرة يبلغ امتدادها من الشمال الى الجنوب نحو من (٩٥) كم. أما عرضها من الشرق الى الغرب فيبلغ (٣٥) كم. وقد تعرضت صخور هذه المنطقة للالتواء الشديد فتكسرت طبقاتها، كما أنها تعرضت للتعرية مدة طويلة فمزقتها وحولتها الى سلسلة من المسننات والشرشرات التي يفصل بعضها عن بعض أودية عميقة ذات جوانب وعرة شديدة الانحدار. وتشرف على هذه الأودية قمم جبلية عالية مثل جبل حارم وجبل قعوه وجبل رشيدي وجبل حجاب.

أما تضاريس السواحل فهي عبارة عن أرض غارقة حديثا توغلت فيها المياه وغمرت أجزاءها المنخفضة على حين بقيت الأجزاء المرتفعة ناتئة فوق سطح الماء. وهذا يتمثل بصفة خاصة في الجزر العديدة والخلجان الكثيرة والرؤوس

التي تفصل بينها عند رأس مسندم.

والظاهرة الثانية التي نشاهدها في هذه المنطقة تتمثل في مجموعة الأودية الغارقة التي تتعمق بين جبال المنطقة على نحو ما تتعمق الفيوردات في جهات أخرى من العالم. وهذه الظاهرة عجيبة في عمان إذ لم نجد لها نظيرا في أية جهة أخرى في الخليج أو السواحل العربية جميعا. ومن أحسن أمثلة لذلك خليج الفنستون (AlFistene) الذي لا يزيد مدخله على ٤٠٠ متر وتقوم الجبال على جانبيه على شكل حائط ارتفاعه (١٠٠٠) متر. وفيما وراء هذا المدخل الضيق يتسع الخليج.

ويتفرع من الخلجان العديدة التي تمتد في المنطقة أودية جانبية كثيرة مسدودة المداخل بسبب الحصى الذي يملؤها.

وتنقسم منطقة رءوس الجبال بصفة عامة الى ثلاثة وحدات متباينة منفصلة بعضها عن بعض، وتسير في اتجاه عام من الشمال الى الجنوب.

وتقع المنطقة الثانية من جبال عمان الى الجنوب مباشرة من منطقة رءوس الجبال وتمتد في الأراضي الداخلية التي تقع في مواجهة (خورفكان) حتى، النهاية الشمالية لمجموعة الجبل الأخضر. وهي تتألف من مجموعة من الصخور يطلق عليها مجموعة (سمايل) (Semail).

والأودية في هذه المنطقة ليست أقل منها في منطقة رءوس الجبال فهي عديدة ومتشعبة، ولعل أهم وديانها جميعا، هو وادي سمايل ووادي جيزي اللذان يمتدان من واحة البوريمي من جهة وبين صحار من جهة أخرى، وهما كغيرهما من أودية المنطقة تمتاز بضيقها في العادة وفي وسطها تبرز الكتل الصخرية على شكل رأسي.

وتتمثل المنطقة الثالثة في الجبل الأخضر وتشغل الأراضي التي تمتد الى الجنوب من منطقة الصخور النارية وتمتد غربا حتى تذوب في الأراضي الصحراوية في الداخل. ويعتبر الجبل الأخضر أعلى جبال عمان، إذ يبلغ ارتفاعه (٣٠١٨) مترا.

أما عن وديان عمان، فان وادي اسماعيل في الشمال ووادي الحلقين في الجنوب يقسمان جبال الحجرين الى قسمين، حجر الغربي في الشمال وحجر الشرقي في الجنوب. وتعرف الأرض الواقعة بين ساحل البحر وحجر الغربي (الباطنة) التي تقطعها عدة وديان تنبع من ذرى الجبال وتصب في البحر. وهذه المنطقة كثيرة القرى في رءوس الوديان. وفي غرب الحجر الغربي تقوم منطقة (الظاهرة) وعمان الأصلية في الشمال والثانية في الجنوب، والحد الفاصل بينهما هو جبل (الكور) وسفوحه الممتدة الى الشرق والى الغرب. وفي نوب حجر الشرقي منطقتان أيضا هما الشرقية وجعلان في الجنوب. أما البلاد الواقعة على ساحل بحر العرب والممتدة من منطقة جعلان الى حدود حضرموت فتسمى (ظفار الحبوضي) ويقابلها في بحر العرب جزائر كوريا موريا وجزيرة مصيرة.

وتمتاز وديان عمان بأنها شديدة الانحدار لأنها تقطع الجبال ومن ثم فهي وعرة وضيقة في رءوسها ومنها ما يصب في خليج عمان ومنها ما يصب في الصحراء. ولعل أهم وديان بلاد عمان وأكثرها طولا واتساعا هما وادي اسماعيل في الشمال الذي ينبع من (الرقبة) بين جبال حجر الغربي وحجر الشرقي ثم يمتد الى الغرب حيث ينتهي الى البحر شمالي مسقط. أما الوادي الثاني فهو وادي الحقلين الذي ينبع من (الرقبة) كذلك ويتجه جنوبا حتى ينتهي في بحر العرب قبالة جزيرة مصيرة. وتكثر المنابع والمياه الجارية في الجبال في منطقة جعلان وفي ساحل الباطنة وبعض مناطق عمان الأصلية، وهي التي تعرف بالأفلاج والتي تستخدم للسقي وللزراعة، كما يحتفظ بها في الآبار.

وكانت عمان تنقسم الى تسع مناطق ادارية لكل منها استحكاماتها الخاصة التي تناسب موقعها وتضاريسها وفيما يلي بيانها:-

(١) منطقة الباطنة ومعناها الداخلية أو الواطية وهي من أهم مناطق عمان، وتقع في الشمال على الساحل بين البحر وحجر الغربي. وهي عبارة عن سهل يبلغ طوله (١٥٠) ميلا وعرضه يتفاوت بين (١٠-١٥) ميلا وقاعدتها ميناء صحار التي كانت فيما مضى قاعدة عمان كلها.

(٢) منطقة حجر الغربي وتقع الى غرب الباطنة. وهي منطقة جبلية يبلغ طولها (١٦٠) ميلا وعرضها يتفاوت من (٤٠-٥٠) ميلا وأشهر بقاعها الجبل الأخضر أعلا جبال عمان، وقاعدة منطقة حجر الغربي (رستاق) التي تقع في وادي فاره.

(٣) منطقة حجر الشرقي وتقع الى الجنوب من الباطنة ومحاذية للبحر، وهي عبارة عن منطقة جبلية، تنحدر فيها الجبال بشدة نحو البحر ومن ثم فان شواطئها غير صالحة للسكنى. وأهم بقاعها وادي اسماعيل الذي يبلغ طوله عشرة أميال وعرضه زهاء ميل واحد. وميناء حجر الشرقي (صور) الذي يقع الى شمال رأس الحد.

(٤) منطقة الظاهرة ومعناها الخارجة أو البارزة وتقع الى الغرب من حجر الغربي وقصبتها (عبرى)، وأهم وديانها الوادي الكبير، وبها يوجد أكبر جامع أباضي.

(٥) منطقة عمان الأصلية (أو الغربية) وتقع الى جنوب الظاهرة وقاعدتها (تروى) التي أطنب ابن بطوطة في وصفها في القرن الثامن للهجرة. ومن أهم معالمها قلعتها الحصينة وهي أشهر قلاع عمان على الاطلاق وهي عاصمة عمان الداخلية.

(٦) المنطقة الشرقية وتقع الى الغرب من حجر الشرقي وقاعدتها (ابرا).

(٧) منطقة جعلان وقد اشتق اسمها من اسم سكانها القدامى وتقع في جنوب الشرقية وتمتد على ساحل بحر العرب.

(٨) منطقة ظفار الحبوضي، نسبة الى السلطان راشد الحبوضي، وتقع على ساحل بحر العرب في نهاية حدود عمان الغربية، وعند حدود حضرموت الشرقية. وهي تمتد من رأس بوس الى قرية (خريفوط) على ساحل البحر ويبلغ طولها نحو (١٣٥) ميلا وعرضها (٢٠) ميلا وقاعدتها صلالة.

(٩) منطقة مسقط وتشمل ميناء مسقط وميناء مطرح وما يجاورهما. وتقع مسقط على الوادي الكبير الذي ينبع من جبال مسقط. وتلتقي مسقط بالبحر وترتفع الروابي الصغيرة وراءها على شكل الجدران التي يبلغ ارتفاعها أكثر من مائة متر. وهناك طريق ساحلي وعر يربط مسقط بميناء مطرح في الشمال الذي تبعد عنها بمقدار ميلين، وهي أكبر من مسقط ولها اتصال بالداخل، فهي الميناء الذي يصدر منه الأمتعة الى الداخل ذلك أن البواخر ترسو في مسقط وتفرغ حمولتها ثم ترسل بالقوارب والسفن الى مطرح ومنه الى الداخل حيث أن ميناء مطرح مفتوح نحو الشمال الشرقي.

وقد أصبحت مسقط عاصمة عمان بعد أن سكنها آل سعيد عندما أسسوا دولتهم في عمان وشرق افريقيا منذ سنة ١٧٤١م. وهي تقع على خليج صغير يعرف باسمها تحيط به سفوح الجبال. وميناء مسقط مفتوح باتجاه الشمال الغربي والى الشرق منها توجد جزيرة مسقط الصغيرة.

أما عن تاريخ عمان، فان الذي يعنينا منه، هي الفترات التي كان لها اتصال مباشر باقامة الحصون والقلاع. على أننا قد وجدنا أنه ليس من المعقول

أو المقبول أن نبدأ تاريخ تلك الاستحكامات من فراغ، ومن ثم فقد تناولنا تاريخ عمان منذ الفتح الاسلامي، في نقاط أشبه ما تكون بعلامات الطريق أو صنعه الأميال.(٤).

ظلت عمان خاضعة للدولة الاسلامية منذ دخولها الاسلام في عهد الرسول ﷺ وحتى (سنة ١٢٩ هـ /٧٤٦م) عندما قام عبد الله بن يحيى وأبو حمزه الخارجي بثورتهما الأباضية(٥) في عهد الخليفة الأموي مروان الثاني والتي انتهت بقتلهما وان لم يقض على مذهبهما. وهكذا أخذت عمان منذ النصف الأول من القرن الثاني للهجرة تتجنب أئمتها على الطريقة الأباضية. وظلت الامامة تسير دون انقطاع تقريبا قرابة أربعة قرون حتى النصف الأول من القرن السادس للهجرة عندما استولى النبهانيون(٦) على مقاليد الحكم بعمان (٥٤٩ هـ /١١٥٤ م) وتسموا بالملوك.

وقد استمر حكم النبهانيين قرابة قرن ونصف من الزمان حتى قضى على ملكهم (٨٠٩هـ /١٤٠٦م) وبعثت الامامة الأباضية من جديد(٧) (٨٣٩هـ /١٤٣٥م)، واستمرت قائمة منذ ذلك الوقت حتى (٩٦٨ هـ /١٥٦١ م) حيث انقطعت لفترة تزيد عن ستين عاما حتى أعادتها مرة ثانية الى عمان أسرة اليعاربة سنة (١٠٣٤ هـ /١٦٢٤ م). وقد استمرت الامامة في أسرة اليعاربة أكثر من مائة عام رغم كراهية الأباضية في حصر الامامة في أسرة واحدة. ولعل السبب في ذلك يرجع الى ما قامت به أسرة اليعاربة من شجاعة وفضل وخاصة منذ أن قام على شئونها الامام ناصر بن مرشد اليعربي(٨) سنة ١٦٢٤م في صراعه ضد البرتغاليين وما كان له من فضل كبير في عودة القوة والنفوذ الى عمان.

على أن قصر اختيار الأئمة على أعضاء قبيلة واحدة، ازداد وضوحا في القرن الثاني عشر للهجرة عندما فقدت قبيلة اليعاربة الامامة وظهر على مسرح الأحداث ممثل قبيلة أخرى من آل بوسعيد هو الامام أحمد بن سعيد الذي

ظفر لنفسه بأعلى مراتب الشرف في الدولة وذلك سنة (١١٥٦هـ /١٧٤٣م)(٩) وكان آل بوسعيد حتى ذلك الوقت، قبيلة صغيرة من الهناوية غير ذات شأن تسكن داخل عمان، ولكنها استطاعت في فترة وجيزة أن تثبت وجودها ليس في عمان فحسب، بل وضمت اليها مسقط. وقد استطاع كبار آل بوسعيد الذين كانوا أقوى من امامهم الاسمي سعيد بن أحمد الذي استمر من عام ١١٩٨ الى ١٢١٨هـ سنة (١٧٨٣ /١٨٠٣م) أن يحولوا اهتمامهم من المجال الروحي الى المجال الدنيوي، ومن داخل عمان الى الساحل، بل وغدت مسقط مركزا لهم. ولما توفي سعيد (١٢١٨ هـ /١٨٠٣م) تولى الحكم بعده أخوه سلطان، ولكنه لم يحاول في السنة الثانية من حكمه أن يبذل أي جهد لعقد الامامة له(١٠). وهكذا ظلت سلطنة عمان منذ ذلك الحين لم يحاول أحد من أسرة آل بوسعيد أن يظفر بتأييد ديني، واكتفت الأسرة بقوتها العسكرية والارتكان على مالبيتهم من هيبة وسمعة حسنة، ثم الاعتماد فيما بعد على التأييد الذي ظفروا به من حلفائهم الانجليز(١١). على أنهم سرعان ما فقدوا صلاتهم بالداخل الى حد كبير عندما استقروا بمسقط وركزوا جل اهتمامهم بالشئون التجارية والبحرية ونسوا أو تناسوا الأرض التي نمت وترعرعت في ظل الامامة والتي أقام بها معظم رجالهم من ذوي النفوذ والسلطان(١٢).

ومنذ ذلك الحين لم يحاول أحد من أسرة آل بوسعيد أن يظفر بتأييد ديني، واكتفت الأسرة بقوتها العسكرية والارتكان على مالبيتهم من هيبة وسمعة حسنة، ثم الاعتماد فيما بعد على التأييد الذي ظفروا به من حلفائهم الانجليز(١٣). على أنهم سرعان ما فقدوا صلاتهم بالداخل الى حد كبير، عندما استقروا بمسقط وركزوا جل اهتمامهم بالشئون التجارية والبحرية ونسوا أو تناسوا الأرض التي نمت وترعرعت في ظل الامامة والتي أقام بها معظم رجالهم من ذوي النفوذ والسلطان(١٤).

البرتغاليون في عمان

لقد كانت الكشوف الجغرافية ثورة هائلة غيرت الكثير من معالم تاريخ البشرية، ليس من الناحية العلمية والاقتصادية فحسب بل ومن الناحية السياسية، فقد كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول الى الهند سنة ١٤٩٨ (١٥)، بداية الاستعمار الأوروبي الحديث، كما كان من نتائج ذلك الكشف تحول تجارة الشرق من طريق الخليج العربي والبحر الأحمر وغيرهما من الطرق البرية والبحرية الى ذلك الطريق البحري المباشر. فقد أثارت الأرباح الطائلة التي اختص بها المصريون والبنادقة من تجارة الشرق، الحقد في المسالك الأوربية مما دفعهم في التفكير في ايجاد طريق آخر لهذه التجارة. وكان أول من فكر في ايجاد طريق آخر، البرتغال عندما تولى عرشها الملك هنري الشهير بهنري الملاح، الذي رأى أن يصل الى الهند عن طريق غرب افريقية بدلا من شرقها، فأرسل لهذا الغرض بعوثا بحرية الواحدة تلو الأخرى حتى استطاع الملاح البرتغالي بارثلميودياز (Bartheleuy Diaz) أن يصل الى جنوب افريقية حتى وصل الى خليج (الاجوا) وأطلق عليه «رأس الزوابع». وفي عهد الملك إيمانويل البرتغالي واصل الملاح فاسكودي جاما (Vasco de Jama) بمساعدة البحار العربي القدير (ابن ماجد) مواصلة استكشافات بارثلميودياز، فوصل الى الزوابع وسماه تفاؤلاً «رأس الرجاء الصالح» بعدما كابد مصاعب جمة، استطاع التغلب عليها بفضل خبرة دليله البحار العربي ابن ماجد الذي كان يسترشد بكتاب (رهماني) الذي وضعه البحارة العرب الأول في علم البحار، ليصل الى الساحل الشرقي لافريقية ومنه الى الهند.

ويصف مؤرخو حضرموت(١٦) القدامى رحلة فاسكودي جاما الى الهند فيقولون: وهبط (مكندة) حيث أخذ ما يلزمه من الزاد واستصحب معه بحارا عربيا يدعى (أحمد بن ماجد) دله على الطريق الى (قليقوت)(١٧) (Calicut) فوصل اليها بهداية ابن ماجد في ثلاثة وعشرين يوما في ثلاث مسماريات(١٨)،

وذلك بعد انقطاع موسم الهند(١٩). كما أرسل البرتغال (سنة ٩٠٤هـ /١٤٩٨م) القائد فرانسوا والميدا بالأساطيل والرجال وأخضعوا كجرات وسواحل الدكن ومدينة سيراف(٢٠) ودولة هرمز(٢١). وأخذت سفنهم تمخر فيما بين البصرة وعدن وتعتدي على كل سفن مصر والعرب التجارية تنهبها وتستولي على ما فيها وبذلك انقطع طريق التجارة بين الهند ومصر خاصة بعد بناء البرتغال قلعة فزنا في ساحل الدكن.

وقد أدرك البرتغاليون أهمية اتخاذ مواني في الشرق الافريقي كمحطات تمد سفنهم الذاهبة الى الهند بالعتاد والمؤن. وكان من أثر ذلك قيام (البدور الفاريز كابرال) سنة ١٥٠٠ بعدة جهود لمد النفوذ البرتغالي على الساحل الشرقي لافريقيا، فنجح في السيطرة على موزمبيق ومد نفوذه الى (كلوه) بعد أن أرغم حاكمها على الاعتراف بالسيطرة البرتغالية. وهكذا أحرزت البرتغال انتصارا كبيرا في السيطرة على معظم مقاطعات الشرق الافريقي فتم لها اخضاع زنجبار وبراده، وان كانت منبسة قد كبدت قدرا كبيرا من الجهد والعناء. كذلك قرر البوكيرك أن يقيم حامية ثابتة وديرا للرهبان الفرنشسكان في جزيرة سومطره، التي تمثل موقعا استراتيجيا ممتازا بالنسبة لأهداف الخطة البرتغالية فهي تقع في مواجهة الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية وفي منتصف الطريق تماما بين الخليج العربي وبين البحر الأحمر.

على أن الصراع الذي نشب في شرق افريقية لم يكن قاصرا على البرتغال والعرب فحسب، بل سارع العثمانيون بدورهم في الدخول في المعارك الناشبة: فقد انتهز (علي بك) وقوع البرتغال تحت الحكم الأسباني سنة ١٥٨٠م وقام بتحريض المسلمين هناك ضد البرتغال والانضمام الى الدولة العثمانية. وقد نجح فعلا (علي بك) في ضم بعض المقاطعات الافريقية كمنبسة ومقديشيو وبات الى الدولة العثمانية، ولكن البرتغال ماكادوا يعلمون بما قام به (علي بك) حتى أسرع قائدهم توماس بقمع الثورة والقبض على (علي بك) وارساله الى لشبونه. كذلك اشتبك البرتغال مع الدولة العثمانية في المحيط العربي عندما استنجد

الزعيم القبلي للبصرة بالبرتغال عندما قرر العثمانيون تحويلها الى متسلمية سنة ١٥٤٨م وفي نفس الوقت استنجد عرب الاحساء والبحرين بالدولة العثمانية غير أن الصراع الذي قام بين هاتين القوتين في القرن السادس عشر في الخليج العربي لم ينته بشيء يذكر بالنسبة للعثمانيين، وذلك لأسباب عدة منها أن قواعد أسطولهم كانت قاصرة على حوض البحر المتوسط حيث يوجد امكانيات بناء السفن. كما ترك العثمانيون معظم نشاطهم البحري في منطقة المحيط الهندي والخليج العربي لروح المغامرة عند بعض البحارة المشهورين مثل بيريك(٢٢) والريس مراد الذي ظهر لأول مرة في مياه الخليج بين عامي (١٥٥١ — ١٥٥٣م) واستولى على القطيف ومسقط ولكنه لم يحتفظ بهما، ومثل هؤلاء المغامرين لم يكلفوا أنفسهم عناء الحكم المستقر(٢٣).

كذلك ظهرت ايران في ذلك العصر في ميدان المعارك البحرية فبدأت الصفوية بالاشتباك بالبرتغال يعاونها القبائل العربية النازلة على الشاطيء الشرقي كما استعانوا بالانجليز، الذين كانوا قد بدأوا يتنبهون الى أهمية ثروات الشرق، فقام جماعة من تجار لندن بتأسيس شركة الهند الشرقية(٢٤) الانجليزية سنة ١٦٠٠م ولعل من أبرز ذلك التعاون الذي تم بين الانجليز والدولة الصفوية أن الأخيرة منحت الانجليز امتيازات تجارية، كان من بينها اقامة وكالة تجارية في جسك الواقعة على خليج عمان، وذلك تلافيا لمرورهم بمركز هرمز وتعرضهم لغارات البرتغال من حصونهم المنيعة في تلك الجزيرة(٢٥).

وقد بدأت القوات المتحالفة من الانجليز والفرس بمهاجمة الحصن البرتغالي في قشم(٢٦)، ولم تصادف القوات مقاومة تذكر من جانب البرتغال فسلمت حامية هرمز سنة ١٦٢٢م. وقد تطلع شاه ايران بعد ذلك للاستيلاء على الشاطيء الغربي وعلى مسقط وغيرها من موانيء عمان، ولكنه لم ينجح الا في النزول في (خوركان) وصحار مدة قصيرة، اذ سرعان ما استرد البرتغاليون مراكزهم في الشاطيء الغربي للخليج. على أن شاه ايران استغل سقوط هرمز، فأنشأ في مواجهتها ميناء جديدا أطلق عليه (بندر عباس)(٢٧). حقيقة أن

سقوط هرمز كان ضربة قاضية على النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، ولكنه لم يضع حدا نهائيا له، فقد ظلت الدولة الصفوية عاجزة عن تخليص الشاطيء الشرقي من جميع الحصون البرتغالية، فقد بقي أحدها قائما في جلفار حتى نهاية القرن السابع عشر تقريبا، وعندما استردها الفرس من البرتغال، أعيدت جلفار (رأس الخيمة) الى حظيرة العرب على يدي ناصر بن مرشد اليعربي. هذا ولا ننسى أن نذكر هنا أن أهل عمان كانوا قد ساهموا مع الشاه عباس في الحملة التي استولت على هرمز سنة ١٦٢٢ (٢٨).

وينبغي أن لا نغفل أهمية الدور الذي قامت به دولة اليعاربة(٢٩) في طرد البرتغاليين من الخليج العربي وشرق أفريقية خاصة بعد الضربة التي وجهت اليهم في هرمز، وذلك برغم العوامل الكثيرة التي كان لها أثرها الكبير في اضمحلال القوة البرتغالية. وقد استنفد تحرير شواطيء عمان والخليج الكثير من وقت الامام ناصر بن مرشد وجده، الذي لم يقتصر على البرتغال فحسب بل والفرس أيضا. فقد هاجم صحار واستطاع انتزاعها من البرتغال رغم الصلح المبرم بينهما على أن يدفع له البرتغال جزية سنوية في نظير احتلالهم لمسقط ومطرح وأن يسمحوا بحرية التجارة وأن لا يعتدوا على عرب عمان وأن يهدموا التحصينات الحربية التي أقاموها في سمد وقريات(٣٠). على أن تلك الاتفاقية لم تكن لتقف في سبيل حركة التحرير التي بدأها ناصر بن مرشد وتبعه فيها خليفته سلطان بن سيف (١٦٤٩ /١٦٦٨م) الذي استطاع اقتلاع آخر مينائين كانا في قبضة البرتغال وهما مطرح ومسقط وذلك سنة ١٦٥٨ (٣١). ولم يكتف سلطان بن سيف في اجلاء البرتغال عن عمان وشواطيء الخليج فحسب بل تتبعهم في الهند وشرق افريقيا، وذلك استجابة لاستنجاد أهل منبسة الذين تربطهم بالعمانيين وشائج متينة منذ القدم(٣٢)، كما اتجه الى جزيرتي بمبا وزنجبار وتمكن من تخليصهما من أيدي البرتغاليين. وهكذا استطاع العمانيون اقصاء البرتغال عن ممتلكاتهم في شرق افريقية التي كانت تمتد من جزيرة سقطرة شمالا والى رأس دلجادر جنوبا(٣٣).

وتعتبر شخصية سيف بن سلطان الذي تولى (١٦٩٢ الى ١٧١١م) من أعظم

شخصيات دولة اليعاربة، الذي تتبع البرتغال في ممتلكاتهم بالهند، فقام بالهجوم على جزيرة ديو، وامتدت أعماله الحربية الى ساحل كجدات حيث أخضع جزيرتي سالت والدامان، كما استطاع احتلال بارسالور ومانجالور القريبتين من بومباي وضم جميع هذه المقاطعات الى ممتلكاته(٣٤).

أما عن الأعمال التي قام بها سيف بن سلطان في عمان نفسها فقد انصب جلها الى العناية بالزراعة، فشق القنوات وعنى بالافلاج. ويبدو أنه كان يحتفظ لنفسه بنسبة كبيرة من غنائم الحروب. وقد مكنه هذا من امتلاك الأراضي وبناء الحصون والقلاع، كما بنى لعمان اسطولا حربيا كبيرا، ذكره السالمي(٣٥) فقال انه كان يتكون في عهد سيف بن سلطان من (٢٨) سفينة كبيرة يحمل بعضها ثمانين مكحلة (مدفع). هذا بالاضافة الى الاسطول التجاري الذي تعد مراكبه بالمئات يمتلكها عادة سكان الموانى. ومما يجدر ملاحظته أن اليعاربة برغم نشاطهم البحري والتجاري، الا أنهم اتخذوا حواضرهم ومقرهم في المدن الداخلية، فاتخذ سلطان بن سيف نزوى مقرا له، أما سيف بن سلطان فقد اتخذ رستاق(٣٦) حاضرة له.

وكان سيف بن سلطان آخر شخصية قوية في دولة اليعاربة، اذ خلفه سلطان سنة ١٧١١م ولم يعمر طويلا وانقسمت البلاد بعده بين شخصيات متنافسة من داخل أسرة اليعاربة ومن خارجها على الحكم، مما أدي الى انقسام خطير بين العُمانيين قاد البلاد الى حرب أهلية عنيفة، جعلت العمانيين يلتفون حول سيف بن سلطان الثاني سنة ١٧٣٧م. وقد اتخذ سيف بن سلطان الثانى أحمد بن سعيد مستشارا له وعهد اليه بادارة ميناء صحار، الا أن الأخير صمم، منذ تلك اللحظة على العمل لحسابه الخاص.

فقد بدأ أحمد بن سعيد عمله بالتحايل على القضاء على الفئات المتنازعة في عمان، فتحالف مع الفرس ضدهم، كما تظاهر بتحالفه مع أفراد أسرة اليعاربة ضد الفرس. وهكذا استطاع أن يتخلص من جميع الأطراف المتنازعة، وخلص

عمان من الحروب الأهلية ومن سيطرة الفرس على مسقط. ومن ثم فقد أخذ بيعة الامامة سنة ١٧٤١م، وهكذا وضع أساس أسرة حاكمة جديدة هي أسرة البوسعيد التي ماتزال تحكم سلطنة عمان حتى الآن متخذة مسقط حاضرة لها.

وبعد، ففي هذا القدر من تاريخ عمان عبر العصور ما يكفي قاعدة سليمة يمكن أن نرسي عليها استحكامات البلاد العسكرية. واذا كنا قد عنينا بتفصيل أحداث الغزو البرتغالي، فذلك لأن هدف البرتغال في الخليج العربي، انما كان للغزو العسكري واحتلال قواعده وموانيه، ولذا شملت أعمالهم كلا الشاطئين فأقاموا عليه الحصون والقلاع والأسوار والمناظير وغيرها من الاستحكامات الحربية.

أما سياسة الدول الأجنبية التي خلفت البرتغال في البحار الشرقية، ونعني بها هولنده وانجلترا وفرنسا، فلم تكن قائمة على سياسة الاحتكار التجاري، كما كانت سياسة البرتغال، وانما انصرفت الى انشاء مستعمرات وتكوين امبراطوريات، مما ترتب عليه عقد المعاهدات والاتفاقيات التي لا تقوم على القوة الحربية بقدر قيامها على القوة السياسية والاقتصادية.

لذلك فقد كانت فترة النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين فترة ركود نسبية في اقامة الحصون والقلاع، بل تكاد تكون منحصرة في ترميم واصلاح وتطوير الاستحكامات القديمة بما يتفق والآلات الحربية الحديثة.

الاستحكامات الحربية

تبين لنا مما تقدم مدى أهمية عُمان في العالم القديم والوسيط وكذا الحديث وذلك من حيث موقعها الاستراتيجي وتضاريسها وموقعها الجغرافي فهي حلقة

الوصل بين الخليج العربي والمحيط الهندي. وأما أهميتها من الناحية الاقتصادية فهي المرفأ الذي أوصل تجارة الشرق الأقصى الى دول الشرق الأوسط ومنها الى أوروبا عبر البحر الأبيض دائما والبحر الأحمر أحيانا. ومن ثم فهي في حاجة ماسة الى استحكامات حربية تحميها شر غوائل المجهول من البحر والبر معاً.

ولقد رددت المراجع التاريخية القديمة منها والمحدثة أسماء متعددة عن استحكامات عمان الحربية دون تفرقة بينها سواء من الناحية اللغوية والمعمارية أو الاستحكامات الحربية، فكثيرا ما نجد المراجع تطلق على عمارة بعينها مرة اسم (قلعة) ثم تعود في فقرة ثانية فتسميها (حصنا) وفي ثالثة يطلق عليها اسم (برج). وقد حذت المراجع الأجنبية حذو المصادر العربية فأطلقت على معظم العمائر الحربية لفظ Fort أو Fortress، ويندر أن تذكر كلمة Citadel على القلعة أو Curtain Wall على الأسوار. لذلك فقد رأينا من الضروري أن نوضح في كلمات الفرق بين هذه المسميات جميعها من الناحية المعمارية والحربية على أقل تقدير.

الحصـــن : هو أكبر عمائر الاستحكامات الحربية وان لم يكن أمنعها، وهو كل بناء يحيط بمساحة من الأرض ليحميها ويحصنها ضد أي اعتداء من داخل البلاد أو خارجها. ومن ثم فان أسوار المدن كانت تعرف في العصور الوسطى باسم الحصون، مثال ذلك سور مدينة بغداد والقيروان وفاس والمهدية وقرطبة والقاهرة وصنعاء وزبيد وغيرها كثير. كما يوجد بسلطنة عمان الكثير من أسوار المدن المحصنة مثل سور مدينة بهلة (Bahlah) وسور مدينة (بني بو حسن) وسور قرية حزم، وأسوار مسقط ومدينة (إبرا) (Ibra) وكذلك أسوار (ظفار) و(صلالة) و(طاقة) و(مربط) وغيرها كثير.

على أن المباني التي تحصن المدن أو القرى أو الأحياء، لابد وأن تتميز عن الأسوار العادية باحتوائها على أجزاء معمارية خاصة، القصد منها الحماية والتحصين والمراقبة تعرف باسم الأبراج والساقطات والمراقب، التي يجب أن

يتواجد فيها باستمرار حامية من العسكر والجند ورجال الدرك. هذا وليس ما يمنع أن يكون ساكنو الحصن كلهم من العسكر والجند، بل كثيراً ما يوجد بداخله عدد كبير من المدنيين الذين يقومون بالخدمات العامة أو بالزراعة وخاصة في داخل أسوار المدن.

وقد تطور استخدام الحصون في العصور الوسطى وحتى بداية العصر الحديث تبعاً لتطور النظم الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك الوقت ونعني بها النظم الاقطاعية. فلم يعد الحصن معقلاً فحسب بل أضحى المقر الطبيعي لاقامة الأمير أو الملك أو السلطان وأتباعه(٣٧). فكان الطابق الأول من مباني الحصن الحربية يحوي الآبار ومخازن الأسلحة والعدد الحربية الثقيلة اللازمة لمقاومة حصار طويل. أما الطابق العلوي فقد خصص لرمي السهام والمواد السائلة وغيرها من القذائف على العدو المهاجم، في حين يستخدم الطابق الأوسط للأمير وأعوانه وأسرته(٣٨).

وقد ظلت معظم حصون سلطنة عمان تستخدم كذلك مقراً للأئمة والسلاطين حتى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. فقد كان الحصن هو مركز الحكم التقليدي في عمان مهما كانت قيمة الحاكم من القوة أو الضعف. وكان يحيط بهذا المقر أو الحصن الأسوار الضخمة بأبراجها العظيمة وبمنافذها وبواباتها العالية التي يكتنفها الأبراج من جانبيها والتي تقوم على حراستها قوة من العسكر ببنادقهم وأسلحتهم وأعلامهم، وداخل تلك الأسوار يقيم الأهالي.

ولما كانت الغاية من إقامة تلك الحصون بعُمان هو التحكم في المنطقة التي تشرف عليها، لذلك فقد اختير لها في معظم الأحيان وخاصة الساحلية منها مواقع استراتيجية هامة، فهي دائما أبداً مقامة على الصخور والجبال، أو في بقعة ممتازة اذا كانت في وادٍ أو سهل. والى وقت ليس ببعيد كانت أهم حصون عمان كتلك التي في رستاق وصحار وحزم وداريز وبهلة ونزوه وجبرين وبركة

الموز ونخل والمرياني والجلالي بمسقط وغيرها مما شهدت الحروب العمانية التقليدية التي خاضها أبناء الأجيال السابقة لعدة قرون مضت مستعملين الأسلحة التقليدية كالمكاحل والنار الاغريقية وشظايا حجر الصوان وغيرها من أسلحة العصور الوسطى.

القلعـــة : استحكام حربي يبنى في منطقة استراتيجية كالجبل أو التل أو الروابي الصخرية أو على سواحل البحار. ومهمة هذه المباني قاصرة على المراقبة والدفاع ضد الاعتداء الخارجي، ومن ثم فهي بالضرورة لابد وأن تتكون من مجموعة من الأبراج والمراقب والمزاغل (فتحات رمي السهام) وما إلى ذلك من المباني الحربية. كما تمتاز القلعة بأن يقتصر سكانها على العسكر والجند ولا مجال لاقامة المدنيين بها. وعلى ذلك نستطيع القول بأن الحصن قد يشتمل على قلعة أو أكثر ضمن مبانيه. أما القلعة فهي وحدة معمارية قائمة بذاتها، وقد تكون منفصلة عن الحصن أو بداخله شريطة أن يكون الموقع المقامة عليه موقعاً استراتيجيا، كما أسلفنا القول.

البـــرج : هو عبارة عن بناء حربي مربع أو مستدير الشكل يبرز عن سمت الجدار والأسوار وتحتوي الأبراج على مساقط (Mackicoullis) ومراقب (Glacis) ومزاغل لرمي السهام. وتزود أسوار الحصون والقلاع بعدد من الأبراج، ومن ثم فان حجمها يكون عادة صغيراً لتعددها. وقد يحدث أن تكتفي بعض القرى أو المواني الصغيرة باقامة برج للمراقبة والدفاع المبدئي، وفي هذه الحالة فان البرج يكون كبيرا حتى يتسع لاقامة حامية كبيرة يمكنها صد هجمات الأعداء أو على الأقل تعطيل تقدمهم حتى تستعد القلاع والحصون القريبة منها.

بعد هذا التعريف الموجز للعمائر التي استعملت في الاستحكامات الحربية والتي استخدمتها عمان جميعها في الدفاع عن نفسها وممتلكاتها عبر العصور، نجد أن الطبيعة قد حبتها باستحكام حربي طبيعي بالاضافة الى العمائر السالف ذكرها، ألا وهي الافلاج، ومن أشهرها (حصن بيت الفلج) الذي

يعتمد أساسا في تحصينه على مياه الافلاج التي تأتي من الجبال المجاورة.

ولعل مما ساعد على كثرة وجود الاستحكامات الحربية من حصون وقلاع وأبراج وأسوار بعمان عبر العصور، هو نظام الافلاج الذي عرفته عمان منذ أقدم العصور والذي ترجعه الأساطير الى عهد داود وسليمان الذي قيل إنه أمر الجن ببناء عشرة آلاف مجرى للمياه في عشرة أيام، ومنذ ذلك العهد لم تجف أبداً. ولعل أحسن الأمثلة لنظام الافلاج في عمان ما يوجد في منطقة (الطاهرة) و(بريامي) التي مايزال يطلق على الافلاج بها اسم (داوودي) نسبة الى نبي الله داود.

ولما كان عدد عمائر عمان الحربية يربو على الخمسمائة كما أسلفنا القول، ما بين أسوار وحصون وقلاع وأبراج وافلاج ودور وقصور قديمة، لذلك فقد رأينا أن نقصر الحديث على تلك التي ماتزال بحالة جيدة، أو بحالة تسمح بدراستها. واتماما للفائدة فقد رأينا أن نتناول بالبحث والدراسة استحكامات كل اقليم من أقاليم سلطنة عمان البالغ عددها تسعة أقاليم على حدة.

منطقة مسقط : مسقط هي عاصمة سلطنة عمان ومقر اقامة السلطان. وتقع منطقة مسقط على الساحل الجنوبي لخليج عمان على بعد أقل من ثلث المسافة الممتدة من رأس الحد في الجنوب ورأس مسندم التي تقع عند مدخل الخليج العربي.

أسوار مسقط : **(Curtain - Walls)**

كان يحيط بمدينة مسقط منذ العصور الوسطى على أقل تقدير أسوار وكتل كبيرة من الصخور الطبيعية، التي كانت تقوم مقام السور وكان سمكها يبلغ مثلى أو ثلاثة أمثال سمك السور المبني. إلا أن تلك الأسوار القديمة قد تهدمت بمرور الزمن، فأعيد بناؤها على ماهي عليه الآن فيما بين عامي

(١٦٢٣ /١٠٣٣هـ) وعام (١٦٢٦ /١٠٣٦هـ). وتعتبر أسوار مدينة مسقط الخط الدفاعي الأول بالنسبة لتحصين وحماية المدينة، ومن ثم فقد اطلقت عليه مصادر العصور الوسطى اسم الحصن، فقد كانت تحيط بمسقط التي تبلغ طولها من الشرق الى الغرب قرابة نصف ميل وعرضها، أي بعدها عن البحر قرابة ربع ميل، احاطة السوار بالمعصم، الا الجانب الشرقي حيث يحمي المدينة. جبال شديدة الانحدار، يفصلهما عن جبال (جلالي) فتحة تعرف باسم (مَغَب).

وهكذا نرى أن أسوار مسقط تحيط بالجانب الغربي والجنوبي منها فقط، أما الجانب الشمالي والشرقي فيحميها خليج مسقط والجبال الشرقية. ويبلغ طول ضلع الأسوار الغربية قرابة (٦٠٠) متراً يبدأ من الشمال عند (باب المثاعيب) وينتهي عند (الباب الكبير) في نهاية الضلع الغربي من الأسوار، حيث يبدأ ضلعا صغيرا يقطع زاوية التقاء الضلعين الغربي والجنوبي يبلغ طوله (٢٠٠) مترا وينتهي عند (باب الكبريتة) ثم تأخذ الأسوار في الامتداد نحو الشرق قرابة (١٣٠٠) مترا.

ويتخلل الأسوار على مسافات تكاد تكون متساوية أبراج مستديرة الشكل، يبعد كل منها عن الآخر (٣٠٠) مترا. وتتكون الأبراج من طابقين الأول منها مسمط، أما الثاني فيحتوي على غرف ودهاليز لاقامة العسكر والجند. كما يوجد في جدران الطابق الثاني للأبراج مزاغل (أي فتحات لرمي السهام) (Arrow-Slits). ويعلو الأبراج شرافات كبيرة مستديرة تسمح المسافة بينها لوضع فوهات المدافه أو (المكاحل)، ويبلغ عددها ثمانية، ثلاثة منها في الضلع الغربي وخمسة في الضلع الجنوبي.

وتحتوي أسوار مسقط على ثلاثة مداخل، واحد منها يقع في الركن الغربي أسفل قلعة المرياني يعرف باسم (باب المثاعيب). ويتكون باب المثاعيب من صف من فتحات حديدية صغيرة يمر من خلالها وادي الكبير الى الشاطيء.

وعند نهاية الضلع الغربي للأسوار يوجد مدخل رئيسي يعرف (بالباب الكبير) الذي يقع أمامه حارة الدخيل (Dakhil) المؤدية الى سوق المدينة في الداخل، كما يؤدي الباب الكبير الى سيداب (Sidab) ومعظم الطرق التي توصل الى ضواحي مسقط والى مدينة مطرح. ويتكون هذا المدخل الرئيسي من مدخل متسع يعلوه عقد مدبب يوجد خلفه في السقف فتحة بسعة المدخل تستخدم في صب المواد المحرقة من قار وزيت مغلي على العدو المقتحم. ويكتنف هذا المدخل من جانبيه نصفا برج بهما في الطابق الثاني لرمي السهام.

أما المدخل الثالث فيقع في منتصف الضلع الجنوبي، وهو عبارة عن مدخل رئيسي مماثل للمدخل الرئيسي الكبير، ويعرف باسم (المدخل الصغير).

وتحتوي أسوار مسقط على عدد من الدهاليز والممرات في الطابق الأول التي تسمح بوجود الجنود والعساكر لحمايتها والدفاع عن المدينة ضد أي عدو يريد الاقتحام. أما أعلى الأسوار فتحتوي على ممرات مكشوفة توصل بين الأبراج، وهي تتسع للفرسان على صهوة خيولهم بالتحرك بسرعة للدفاع عن المدينة.

أبراج مسقط : كما يحصن ويدافع عنها ويراقب مداخلها من البر والبحر، مجموعة من الأبراج التي تعلو الجبال التي تحيط بضواحيها. وقد بنيت هذه الأبراج من مجموعة من الصخور السوداء، مما جعلها تبدو وكأنها منازل على قمم الجبال. ومهمة هذه الأبراج هو اعطاء اشارات ضوئية للقلاع والحصون حتى تستعد للدفاع عن المدينة أو الميناء وهي بذلك أشبه بفنارات الموانى.

ولعل من أهم وأشهر أبراج مسقط التي ماتزال باقية حتى الآن برج (سعالى) الذي يوجد في الركن الجنوبي الشرقي للمدينة وبرج (بوستو) الذي يوجد خلف منتصف المدينة. وكذا برج المربع الذي يوجد على مسافة قريبة من وادي الكبير، وبرج (دامودر) الموجود في الطرف الغربي للمدينة وبرج (مديمن) في الطريق الى ريام (Riyam)وبرج مكلّة عند نهاية الحافة التي تكوّن الجانب

الغربي من الميناء. وهذه الأبراج جميعها لا عمل لها الآن.

قلاع مسقط : كانت مسقط تعتمد في حمايتها على قلعتي ميراني وجلالي، الواقعتين في مقابل بعضهما على الصخور التي تشغل طرفي المنطقة الرملية على الشاطيء، اذ ترتفع كل منهما على حرف صخري يبلغ ارتفاعه (١٥٠) قدما عن سطح البحر، ويمكن الوصول الى كل منهما عن طريق مجموعة من الدرجات منحوته في الصخر. كما أقام البرتغال (كشافات أو مناظير كشفية) في صيرة الشرقية لمعاونة القلعتين (ميراني وجلالي) في الدفاع البحري. وعلى الشاطيء الشرقي للميناء وعلى بعد (٢٥٠) ياردة من رأس مسقط توجد صيرة الغربية على الطرف الآخر، يعلوها المأوى المقبى المعروف باسم مكلّة السالف الاشارة اليه.

قلعة ميراني : تقع قلعة ميراني الى الغرب من مسقط، أقامها البرتغال في عهد الملك فليب ملك اسبانيا بعد استيلائه على البرتغال (١٥٨٠م /٩٨٨هـ). وقد قيل ان الحصن الغربي الذي أنشأه البرتغال في غربي مسقط عرف باسم مرياني نسبة الى الكلمة البرتغالية (Almirante) ومعناها (Admiral) التي أخذت بدورها من الاصطلاح العربي أمير البحار. وهكذا نستطيع أن نرجع اسم قلعة ميراني الى معناها العربي الأصيل (قلعة أمير البحار).

وقد تم بناء هذه القلعة (١٥٨٧م /٩٩٦هـ) على يدي القائد بلكوار Belchoir Alvares على نفس البقعة التي كان القائد دون جو (Don Jooe) اللشبوني قد أقام في تلك البقعة قلعة جديدة سنة ١٥٢٢م التي هدمها قائد الحملة التركية بيري (Piri) ثم استولى على مسقط بعد ذلك بفترة وجيزة. ولما عاود الأتراك واستولوا على مسقط مرة أخرى (١٥٨٢م / ٩٩٠هـ)، لم يجد البرتغال مندوحة من أن يطلبوا من نائب الملك في الهند الاذن لهم ببناء قلعتين عظيمتين

في مسقط للدفاع عنها وتزويدهما بكل ما تحتاجانه من وسائل الدفاع والحراسة، فلما وافق أنشأوا القلعتين.

وقد اهتمت البرتغال اهتماما خاصا بهاتين القلعتين، ونعني بهما ميراني وجلالي، ومنذ انشائهما أخذت تتوالى بهما التجديدات والترميمات والاضافات، ففي (١٦١٠م /١٠١٩هـ) أقامت برجا كبيرا(٣٩) بمستوى البحر ملحقا بقلعة ميراني، وذلك حتى تمنع القوارب الصغيرة من أن تمر بالقرب من القلعة وهي في مأمن من أن تصيبها نيران القلعة لأنها تسير تحت مستوى مرمى سهامها ومدافعها.

قلعة جلالي : وتقع في مقابلة قلعة ميراني في الجهة الشرقية من مسقط وقد تم بناؤها بعد قلعة ميراني بعام أي (١٥٨٨م /٩٩٧هـ) ويقال ان قلعة جلالي قد أخذت اسمها من اسم القائد البرتغالي (San Joa) سان جوا. وماتزال القلعة تحتفظ بتاريخ انشائها حتى الآن. والنص مكتوب باللغة البرتغالية.

أما الآن فان قلعتي ميراني وجلالي فتتكون أسلحتهما من بنادق بارودية قديمة تستعمل للتحية فقط، ويبلغ عدد فرق الحراسة في كل منهما (٢٠٠) جندي ربعهم من معية السلطان.

قلعة مطرح : تعتبر مطرح أكبر مدينة في سلطنة عمان وأكثرها أهمية من الناحية التجارية. وتقع مطرح على الجانب الغربي من خليج مطرح وعلى بعد ميلين غربي مدينة مسقط. وتشبه قلعة مطرح قلعتي مسقط من حيث التخطيط المعماري وأسلوب العمارة. هذا وقد حصنت المدينة بأسوار عالية خاصة تلك الأجزاء التي لم تحصنها الطبيعة. وقد تخلل السور مجموعة من الأبراج وعدة مداخل رئيسية، أهمها الباب الكبير الذي يقع في الركن الجنوبي الشرقي من المدينة والذي يبدأ منه الطريق الذي يخرج من مطرح الى مدينة روي (Ruwi).

(٢) منطقة الباطنة :

هي من أهم مناطق عمان، وهي تقع في الشمال على الساحل بين البحر وهجر الغربي، ويقطع هذه المنطقة عدة وديان تنبع من قمم الجبال وتنتهي في البحر، كما انها كثيرة القرى في رؤوس الوديان ومنطقة الباطنة عبارة عن سهل ساحلي يبلغ طوله (١٥٠) ميلا وعرضه يتفاوت بين (١٠ الى ١٥ ميلا). وقاعدة البطينة صحار التي كانت فيما مضى عاصمة عُمان كلها.

قلعة صحار : ويحمي مدينة صحار قلعة كبيرة يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام(٤١). وان كان كثير من الأوروبيين ينسبونها الى البرتغال. ولعل مرجع هذا الخطأ هو أن البرتغال قد نقلوا تصميمها المعماري واستعملوه في استحكاماتهم الحربية التي أقاموها في منطقة الخليج مثل ميراني وجلالي وقلعة العجاج(٤٢).

قلعة مصنعة : مصنعة ميناء على ساحل منطقة باطنة على بعد (١٧) ميلا شمال غربي (بركة) وعلى بعد (١٧) ميلا كذلك جنوب شرق سويق. وهي تقع عند التقاء وادي فرع (رستاق) بالبحر. ومصنعة مدينة صغيرة تحتوي على (٣٠٠) دارا وتبلغ مساحتها ما بين (٤ أو ٥) أميال بحذاء البحر. وتمتد الى الداخل قرابة ميلين أو ثلاثة أميال، لكن موقعها الجغرافي جعل لها موقعا استراتيجيا هاما على ساحل خليج عمان مما جعل دولة بوسعيد تقيم فيها قلعة متينة لحمايتها والدفاع عنها. وقد كانت قلعة مصنعة ذات طراز معماري اسلامي هام، ذلك انه روعي فيها أن يتوسط صحنها مسجد يؤدي فيه عسكرها صلواتهم الخمس دون الحاجة الى الخروج من القلعة خاصة وقت الأزمات. وقد أقيم في أوائل القرن العشرين قلعة في مدينة (أبو ظبي) على غرار قلعة مصنعة تعرف باسم قلعة الشيخ.

قلعة بركة : تقع مدينة بركة على الشاطيء في منطقة البطينة على بعد

(٤٣) ميلا شمال غرب مدينة مسقط. وهي مدينة ذات أهمية خاصة في المنطقة تمتد على الجانب الشرقي لوادي مَعْول (Ma'awal) عند بدايته وحتى ثلاثة أميال ولا يوجد لها ميناء وان كان لها طريق ممتد بحذاء الشاطيء ويشغل معظم أرجاء المدينة أكواخ متناثرة بين زراعة النخيل.

وفي وسط مدينة بركة تقوم قلعة عالية مربعة الشكل يدعم أركانها أربعة أبراج، وتحيط المنازل بالقلعة من جهاتها الثلاث الشرقية والجنوبية والغربية، أما الضلع الرابع وهو الشمالي فيوجد به المدخل الرئيسي للقلعة الذي يكتنفه نصفا برجين على جانبيه.

قلعة سويق : تعتبر سويق احدى موانى وادي بني جفير (Ghafir) وفي وسط المدينة توجد قلعة عالية مربعة الشكل يدعمها أربعة أبراج في أركانها الأربعة. وقد اتخذ الوالي القلعة مركزا له ويقوم بحراستها قوة مكونة من (٢٥) جنديا.

قلعة حزم : تعتبر قلعة الحزم من أهم الاستحكامات الحربية في عمان التي خلدها التاريخ. وقد أنشأ قلعة الحزم، الامام السلطان بن سيف الثاني اليعربي (١٧٠٨م / ١١٢١هـ) وقد اتخذها قاعدة لحكمه بعد أن ترك رستاق.

وتحتوي قلعة الحزم في الطابق العلوي على قصر للسلطان ومجلس عرشه. كما يوجد بجانب القصر مدرسة يدرس فيها العلوم الدينية والمدنية على حد سواء، كما خُصص قسم خاص بها لتدريس المذهب الأباضي.

وماتزال قلعة الحزم تحتفظ بين فتحات شرفاتها العليا ببعض المكاحل البرتغالية والاسبانية في القرن التاسع عشر في عهد الامام عُزّان بن قيس الذي حكم من (سنة ١٨٦٨ حتى سنة ١٨٧١م /سنة ١٢٨٥ /١٢٨٨هـ).

وقد ظلت قلعة الحزم في أيدي أسرة اليعاربة فترة طويلة حتى بعد أن استولت أسرة بوسعيد على عمان (١٧٤٧م / ١١٦٠هـ) استمرت حتى (سنة ١٨٧٠م /١٢٨٧هـ) عندما استولى عليها ابراهيم بن قيس ابن الامام عزّان بن قيس وأبو سعيد أحمد بن ابراهيم الذي كان وزيراً للداخلية للسلطان سعيد بن تيمور لفترة طويلة.

مسندام : ويطلق عليها الانجليز (Musseldom) وهي عبارة عن قرية ذات موقع استراتيجي هام، فهي ملتصقة بالطرف الشرقي لمنطقة رؤوس الجبال ولا يفصلها عنها غير مضيق ضيق. وهكذا نرى أن قرية مسندام تفصل بين الخليج العربي وخليج عُمان.

ويبلغ طول مسندام ميلين من الشمال الى الجنوب أما عرضها فأقل من ذلك، ويبلغ أقصى ارتفاع لها (٨٧٥) قدما.

جزيرة هرموز : لابد لمن يتصدى للكلام عن الاستحكامات الحربية لسلطنة عمان أن يعّرج على قلاع وحصون جزيرة هرموز، ذلك أنها الباب والمدخل الهام الذي يفصل بين خليج عمان والخليج العربي.

وتقع جزيرة هرموز ذات الشهرة العالمية على بعد (١١) ميلا عن بندر عباس وعلى بعد (٤) أميال جنوب خورميناب (Minab). وهي جزيرة مستديرة الشكل تقريبا قطرها مابين (٤٫٥ أو ٥) أميال. وسواحلها خالية من التعاريج تقريبا اللهم الا ركنها الشمالي الذي يبرز قرابة ميل عن باقي جسم الجزيرة. ويبلغ عرض الممر المائي الذي يفصل الجزيرة عن الأرض ميلا واحدا وعمقه في أضيق أجزاء المضيق عشرة أبياع(٤٣)، يأخذ في الضيق حتى يصل الى أربعة أو ثلاثة ونصف أبياع عندما يقترب من بندر عباس.

ويغطي أرض جزيرة هرموز تلال ذات رؤوس مسننة وألوان مختلفة وان كان

يغلب عليها اللون الأحمر الارجواني التي يتوجها قمم بيضاء. ويبلغ ارتفاع هذه التلال في معظمها ما يقرب من (٣٠٠) قدم وان كان يتوسطها تل مرتفع يبلغ ارتفاعه (٦٩٠) قدماً.

والذي يهمنا في جزيرة هرموز، هو قرية هرموز ذلك أنها الجزء الوحيد المسكون في الجزيرة. وتقع القرية في الجزء الشمالي من رقبة الجزيرة حيث توجد القلعة البرتغالية. وتتكون القرية من (٢٠٠) دار وسكانها خليط من العرب والفرس ويدين ثلثيهم بالمذهب الشيعي والثلث بالمذهب السني. ويقع مرفأ قرية هرموز على بعد ميل شرق القلعة البرتغالية التي أضحت الآن في حالة خربة بعد أن اعتدى أهالي القرية على أحجارها وأخذوها لبناء دورهم، وان كانت ماتزال تحتفظ بخزانين لخزن المياه يعتبران من الناحية المعمارية قمة فنية رائعة. وهرموز تابعة لايران، إذ يوجد بها حاكم يعرف باسم معين التجار.

(٣) منطقة الحجر الغربي : تقع هذه المنطقة الى الغرب من منطقة الباطني وهي منطقة جبلية. وقاعدة المنطقة مدينة رستاق التي تقع في وادي فارة.

حصن العوابي : العوابي مدينة أو بالأحرى قرية كبيرة في منطقة حجر الغرب على الجانب الأيسر لوادي بني خروص في منطقة الهضاب. وهي تقع على بعد (١٥) ميلا غربي قلعة نخل، كما تبعد أقل من (١٣) ميلا تقريبا شرق رستاق. وترتفع عوابي بمقدار (١٫٨٥٠) قدما عن سطح البحر. ويحمي المنطقة كلها حصن كبير يعرف باسم بيت العوابي لأنه يشغل منطقة استراتيجية تتحكم في المنطقة الممتدة من نخل.

وتعتبر قرية عوابي ذات موقع استراتيجي له أهمية خاصة، إذ أنها تتحكم في وادي خروص حيث يوجد أفضل الطرق المؤدية الى الجبل الأخضر من الجهة الشمالية ومن ثم فقد كان مثار نزاع بين بني ريام والعبريين، وان كانت الغلبة

دائما للعبريين نظرا لكثرتهم العددية. وفي سنة ١٩٠٠م سلم العبريون تبعية بيت العوابي الى سلطنة عمان التي تولت الاشراف عليه وعينت له (في ذلك الحين) (٣٠) رجلا لحراسة الحصن والسهر عليه.

(٤) **منطقة الحجر الشرقي** : تقع هذه المنطقة الى الجنوب من الباطنة ومحاذية للبحر. وهي عبارة عن منطقة جبلية تنحدر بشدة نحو البحر ومن ثم فان شواطئها غير صالحة للسكنى.

قلعة مَزَراع : مزراع قرية كبيرة في وادي تايين (Tayin) بمنطقة حجر الشرقي، على بعد عشرة أميال من (هيل الجاف) (Hail al Ghaf) وان كان معظمها يقع على الجانب الأيمن من الوادي ومَزَراع عاصمة قبائل بني بطاش (Battash) وقرية مزراع محاطة من جميع الجهات بجبال منحدرة تتقدمها في مدخل الوادي صخرة كبيرة مرتفعة أقيمت فوقها قلعة قديمة تتحكم في الوادي ومدخله.

حصون وقلاع صور : مدينة صور ذات أهمية خاصة بالنسبة لسلطنة عمان من عدة نواحٍ لعل أهمها الناحية السياسية والاقتصادية وفوق ذلك الناحية الاستراتيجية كما أنها ثاني مدينة بالسلطنة من حيث المساحة كما تأتي بعد مدينة مطرح من حيث عدد السكان. ومازال تحتفظ مدينة صور ببعض مبانيها القديمة لعل من أهمها مسجدها الجامع.

وتقع مدينة صور على بعد (١٧) ميلا غرب رأس الحد، (٩٤) ميلا شرق مدينة مسقط. ومن أبرز مميزات صور، أنها تقع على جانبي مدخل خور تحده صخور ذات أطراف حادة يعرف باسم خور العيص، ترتفع صخوره عن القاعدة (حصباء) بمقدار (٥٠) قدما ويجري من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي خلف مدينة صور وعلى بعد ميلين من البحر. ووجود خور العيص بالقرب من صور جعلها لا تصلح لأن تكون ميناء اللهم الا للسفن الصغيرة

جدا وفي المنطقة السهلية بين حافة وقاع وادي الفلج، والى الخلف من الرؤوس الصخرية المدببة التي تحيط بخور العيص، يوجد ما يعرف باسم (بلاد الصور).

وبلاد الصور عبارة عن قرية مبنية بالأحجار، يعرف جزء منها باسم (سوق الصور). وعلى بعد ميل من الشمال الغربي من بلاد الصور، توجد قرية تعرف باسم جناه (Jinah) حيث يوجد بقايا حصن قديم.

ولكثرة الاضطرابات التي كانت تحدث بين القبائل التي تسكن صور ونظراً لأهميتها الخاصة، فقد أقيمت مجموعة من القلاع والحصون والأبراج بضواحي المدينة والقرى المحيطة وذلك لحراستها وتأمين مواردها، كما تقوم على حراسة موارد المياه بها.

(٥) **منطقة الظاهرة** : تقع هذه المنطقة الادارية الى الغرب من منطقة هجر الغرب، وقصبتها مدينة (عبرى) وأهم وديانها، الوادي الكبير كما يوجد بها أكبر جامع أباضي.

قلعة عِبرى : تعتبر عبرى أعظم مدينة في منطقة ظهيرة، وهي تقع على بعد (٣٧) ميلا جنوب شرق مدينة ضنك، كما أنها تبعد (٥٠) ميلا شمال بهلة. وفي وسط المدينة وعلى جبالها توجد قلعة عبرى التي تعد من قلاع عمان الداخلية ذلك أنها لا تقع على ساحل البحر كما أنها تقع على حدود البلاد، وتعتبر القلعة مركزاً للحركة التجارية بالمدينة إذ أن الأسواق تحيطها، كما توجد حولها دور وبيوت الطبقات الفقيرة.

(٦) **منطقة عمان الأصلية أو الغربية** :

تقع هذه المنطقة الى الجنوب من منطقة الظاهرة، وقاعدتها مدينة نزوى التي أطنب في وصفها ابن بطوطة في القرن الثامن للهجرة، فقال كانت نزوى قاعدة

عمان الداخلية منذ القرن الثاني وكان سلطانها من قبيلة الأزد بن الغوث ويكنّى بأبي محمد وهي سمة لكل سلطان يحكم عُمان.

قلعة نزوى : تعتبر مدينة نزوى أكثر المدن توسطا لسلطنة عمان وهي ترتفع عن سطح البحر بمقدار (١٩٠٠) قدماً، وتقع عند قدم جبل الأخضر وعلى بعد عشرين ميلاً غرب ازكى وعلى نفس المسافة من الشرق الى بهلة. وتنقسم مدينة نزوى الى جزأين، جزء علوي ويعرف (عَلاية) وجزء منخفض ويعرف (سِفالة) يفصل بينهما وادي كلبو (Kallbu). وتقع عَلاية على الجانب الشرقي للوادي، وتعتمد في مياهها على فلج يعرف باسم فلج دارش (Daris). أما سِفالة (Sifalah) فتأخذ مياهها من فلج الغندق (Ghandug). وهناك وادٍ آخر يخترق مدينة نزوى يعرف باسم وادي أبيض ويلتقي بوادي كلبو عند سوق المدينة.

أما القلعة فتقع في الجزء المنخفض من المدينة المعروف بسِفالة، إلا أنها قد بنيت على ربوة صخرية مرتفعة في تلك المنطقة. وهي تتكون من مساحة كبيرة مربعة الشكل تتخلله الأبراج، وفي أحد أركان القلعة يوجد البرج المركزي الكبير الذي بناه السلطان ابن سعيد اليعربي ما بين (سنة ١٦٧٠ الى سنة ١٦٨٠م).

حصن بهـــلاء :

تقع مدينة بهلا بمنطقة الغربية أو عمان الأصلية وهي تبعد عن غرب نزوى بمقدار (٢٠) ميلا وترتفع عن سطح البحر بمقدار (١٦٠٠) قدما وتمثل مدينة بهلا بما يحيطها من المزارع، شكلا متوازي الأضلاع غير منتظم تبلغ مساحته ميلين مربعين. ويحيط بالمدينة والحصن سور قديم يرجع الى ماقبل العصر الاسلامي يبلغ طوله سبعة أميال. ويقع على الضفة اليسرى من وادي بهلا، أحد روافد وادي حلفان. والسور مبني من الطمي، كما بني كل ما يتعلق بهذه الأسوار من أبراج مراقبة ومساقط ومناظر وفتحات لرمي السهام وأخرى

لفتحات للمكاحل وكذا دور الحراسة كلها من الطمي.

وتتكون مدينة بهلا من قرى منفصلة أو أحياء مسورة مما أكسبها منظراً غير مألوف، انفردت به بهلا دون غيرها من مدن السلطنة.

ويقوم على مرتفع في وسطها قلعة بيضاء كبيرة، تحتوي على برجين، يرتفع أحدهما عن الآخر ارتفاعاً كبيراً بحيث أصبح يتحكم تحكما تاماً في الوادي الذي يشرف عليه.

قلعة ازكي Izki

ازكي مدينة هامة تقع على جانبي وادي حلفا وترتفع بمقدار (٢١٥٠) قدما عن سطح البحر. ويشغل الجانب الأيمن من الوادي حي عرف باسم حي يمَن (Yaman) يقابله حي نزار وفي وسط حي اليمن توجد قلعة ازكى التي يحيطها سور سميك قوي البنيان، اذ يبلغ جدرانه خمسة أقدام.

قلعة بركة الموز :

بركة الموز قرية كبيرة تقع على حدود سهل عمان الشمالي وبينها وبين ازكى ستة أو خمسة أميال من جهة الغرب حيث ينحدر وادي معيدين (Mi'aidin) من الجبل الأخضر.

وتتكون بركة الموز من ثلاثة (هجراس) أي أحياء، ترويها الافلاج. ويوجد ببركة الموز قلعة تقع في الجهة الغربية منها ويفصلها عنها جبل مخروطي الشكل يعلوه برج كبير مستدير الشكل مهمته مراقبة مورد مياه القرية.

وتعرف قلعة بركة الموز باسم (رَدِيده)، وهي تتكون من مساحة مستطيلة يدعم أركانها أبراج ضخمة. وتتكون القلعة من طابقين، ويحيط بها الأسوار التي

تتخللها الأبراج كذلك. وقد أنشأ بعض أبراج المراقبة بقلعة بركة الموز، أحد أقارب سلطان عمان سنة ١٨٧٦م وهو حماد بن هلال بن محمد.

حصن جبرين :

يقع حصن جبرين على مسيرة دقائق معدودات من مدينة بهلاء، ومن ثم فانه يعتبر القاعدة الأمامية لبهلاء.

ولقد اتخد السلطان بلعروب بن سيف حصن جبرين مقرا له، بل لقد أصبح لفترة قصيرة ينظر اليه على أنه حاضرة عُمان كلها.

فقد كان ذلك الحصن قوي البنيان سميك الجدران زخرفت أبوابه الخشبية برسوم غاية في الابداع بطريقة الحفر البارز والغائر، وتوجت فتحاته بعقود مدببة ومنبعجة على الطراز الصفوي المعاصر لبناء الحصن، وملئت نوافذه المربعة بالخشب الخرط ذي الزخارف الهندسية التي تقوم أساسا على شكل النجمة. وزينت سقوفه بالرسوم الزيتية البديعة، كما كسيت جدرانه الداخلية بزخارف جصية قالبية جميلة، ونحتت في جدرانه الحجرية الخارجية النقوش النباتية البارزة الجميلة. ومايزال ضريح (بلعروب) الموجود داخل الحصن يزخر بالكثير من تلك الزخارف بالاضافة الى ما يحتويه من النقوش القرآنية التي حظيت بها غرفة الدفن.

وما يزال الحصن يحتفظ ببقايا القصر الذي اتخذه السلطان (بلعروب) مقراً له، كما أقام لنفسه غرفة خاصة في أعلى منطقة في الحصن كانت تعرف باسم حجرة (الشمس والقمر) كما عرفت باسم (المجلس). وقد امتازت تلك الغرفة بجمال موقعها وتجدد هوائها وبرودتها المنعشة، وبديع رونقها الذي يتمثل في الرسوم الزيتية التي تغلف الأعمدة التي تعتمد عليها سقوفها كما تطل غرفة المجلس على الوادي الفسيح الذي يتقدم الحصن، والأبراج الضخمة التي تتوج

رؤوس الجبل الأخضر. وكان طبيعيا أن يصاحب هذا التقدم المعماري نهضة ثقافية في عمان، لذلك نجد السلطان (بلعروب) ينشيء مدرسة شهيرة داخل الحصن وبجانب قصره العظيم.

قلعـة حيبي Hibi

حيبي قرية صغيرة في غرب منطقة حجر، تبعد عن مدينة سهام (Saham) مسيرة يوم من رأس وادي سرّامي (Sarrami). وتحتوي القرية على ثمانين منزلا لبني عيسى والحواصنة من فرع الحواميد وكذا بني عمر.

وفي وسط القرية توجد قلعة كبيرة يتقدمها برج مستدير الشكل ضخم يقوم على حراسة مياه القرية وما حولها. ويقوم على حراسة القلعة قوة من الجنود يبلغ عددها أربعين جنديا تحت قيادة عقيد تابع للسلطان.

حصـن أدم (Adam)

تقع مدينة أدم أقصى جنوب سلطنة عمان على بعد (٢٠ أو ٢٥) ميلا جنوب مناه (Manah)، حيث يبدأ الربع الخالي جنوبها مباشرة. والطريق الذي يمر بمناة عندما يقترب من أدم يمر بين جبلين قاحلين مجدبين، لكنهما متوسطا الارتفاع هما جبل سلخ (Salakh) الذي يقع الى الغرب من الطريق وجبل مضمار (Madhmar) الى الشرق منه. وترتفع مدينة أدم بمقدار (٨٥٠) قدما عن سطح البحر، وتشتهر بزراعة النخيل التي تعتمد في ريها على الافلاج الدافئة

(٧) المنطقة الشرقية :

تقع هذه المنطقة الى الغرب من حجر الشرقية وقاعدتها مدينة إبرا.

حصن إبـــرا :

تعتبر مدينة إبرا أهم مدن الشرقية، وهي تقع في وادي إبرا وهي البلدة الرئيسية في الحرث في منطقة زراعية جيدة. وكما هو الحال في معظم المدن

العمانية توجد في إبرا ساحتان أحدهما عليا وأخرى سفلى. وتضم الساحة العليا مجموعة من المنازل الحجرية الجميلة يرجع تاريخها الى نفس تاريخ منازل مسقط القديمة. وتمتاز بيوت إبرا بالطراز الزخرفي المتأثر بالأسلوب الصفوي والمغولي الهندي الذي يبدو واضحا في النقوش وفي العقود، وليس من المستبعد أن يكون معماريو ومزخرفو تلك المنازل، صناعا أتوا من ايران أو من الهند في القرن الثامن عشر على أقل تقدير.

ولعل من المميزات التي انفردت بها مباني منازل إبرا أن بعضها يحوي في أحد أركانه أو في ركنين منه على برج مستدير من الخارج، أما داخل البرج فانه يحتوي على غرفة مربعة فتح في الثلث الأعلى منها شقوق لرمي السهام (Arrow-Slit). ومن ثم فاننا نستطيع القول بأن منازل إبرا القديمة كانت تشكل بحصنها وأبراجها جزءاً هاما من استحكاماتها الحربية.

قلعة العوامر Awamir

العوامر مجموعة من القرى، تقع بوادي حلفان، حيث يوجد فلج العوامر. ويوجد بهذه القرى حصن كبير مكون من مجموعة من المباني يرجع الى عصور مختلفة لعل أهمها، الأبراج المستديرة والمربعة منها. ويتولى حراسة هذا الحصن قبائل العوامر بمنطقة الشرقية.

(٨) منطقة جُعلان :

تقع هذه المنطقة في جنوب منطقة الشرقية على ساحل بحر العرب.

قلعة الحد :

الحد قرية تقع عند قدم خور الحجر، على بعد ميل واحد جنوب غرب رأس الحد بالداخل، ومن ثم فهي توجد عند الجزء الرملي المنخفض الذي يحدد مدخل خليج عمان، كما أنه يحدد نهاية الطرف الشرقي لشبه الجزيرة العربية.

وتقع قرية الحد على بعد (١٦) ميلا الى الجنوب الشرقي من مدينة صور،

حتى تبدو قرية الحِد وكأنها جزء من ساحل منطقة الحجر الشرقي. وتقع القرية في سهل رملي، وتتكون من مجموعة من الدور البسيطة المبنية من الطمي وسقف النخيل.

وبرغم مظهر مباني القرية البسيط البدائي، إلا أنه يتوسطها قلعة عظيمة مبنية من الحجر. والقلعة مربعة الشكل يدعم أركانها أربعة أبراج مستديرة الشكل يتكون كل منها من ثلاثة طوابق، فتح في الثاني منها مزاغل لرمي السهام. أما الطابق العلوي فيحتوي على فتحات كبيرة نسبيا وكذا شرفات تسمح لوضع فوهات المكاحل.

قلاع بني بوحسن :

يوجد في شمال مدينة بني بوحسن قلعتان لحمايتها، أحدهما قديمة جداً مبنية من الطمي، والأخرى أحدث وهي مبنية بالحجر المكسي بطبقة سميكة من الجص. ويحيط بالقلعتين وكذا المدينة أسوار يتخللها الأبراج المستديرة والمربعة التي تقوم بحماية العيون والافلاج التي يُعتمد عليها في ري تلك المنطقة.

(٩) منطقة ظفار الحبوضي :

تقع منطقة ظفار على ساحل بحر العرب في نهاية حدود عمان الجنوبية الغربية، وعند حدود حضرموت الشرقية. وتمتد ظفار من رأس بوس الى قرية (خريفوط) على ساحل البحر. ويبلغ طول المنطقة نحو (١٣٥) ميلاً وعرضها (٢٠) ميلاً وقاعدتها صلالة.

وهي بذلك تشكل ثلث مساحة البلاد. ومعظم منطقة ظفار يتكون من هضبة من الصخور الجيرية ابتدا من الساحل حتى الربع الخالي. وهي عديمة المطر اللهم إلا رقعة صغيرة في أقصى الجنوب يبلغ عرضها في الداخل حوالي

(٢٠) ميلا، تهطل عليها الأمطار الموسمية في الصيف وهي أخصب بقاع منطقة ظفار، فهي سهل يبلغ طوله (٣٠) ميلا وعرضه لا يزيد عن خمسة أميال وتتوسطه مدينة صلالة.

وقد عرفت المنطقة باسم ظفار الحبوضي نسبة الى السلطان راشد الحبوضي. ويختلف الجزء الشمالي من المنطقة عن جنوبها ويرى ذلك واضحا في مبانيها ودورها وقصورها. ففي مدينة صلالة جنوبا نجد تخطيط المنازل مربع الشكل مع انسجام تام في جميع تفاصيلها. ومثل هذا التخطيط نجده كذلك في منازل ظفار وحضرموت. مع مراعاة أن مواد البناء في معظم الأحيان من الأحجار.

حصن الغـراب :

يرجع تاريخ هذا الحصن الى ما قبل الاسلام، فقد وصفه المؤرخ الهمداني بعد ذكره سواحل الشحر ومهره فقال: وفي منتصف من هذا الساحل بين عمان وعدن وربسوت، يوجد حصن غراب وهو موئل كالقلعة، بل قلعة مبنية بنيانا على جبل، البحر محيط به إلا من جانب واحد.

ويضيف(٤٤) الهمداني فيذكر شيئا عن حال تلك القلعة في عصره فيقول:- «ويقال أن ساكني ربسوت القدماء البياسرة، نزلت عليهم جديد من الأزد فنزلت فيهم».

(١٠) البيوت المدرجة بالجبل الأخضر :

ومن الاستحكامات الحربية التي تنفرد بها سلطنة عمان، الدور المبنية على مدرجات الجبال التي تبدو وكأنها أبراج حصون أو مباني قلاع يعلو بعضها البعض. وتزخر جبال قرى منطقة الجبل الأخضر بهذا النوع من المباني. وهي

ذات تخطيط مربع الشكل مكونة من عدة طوابق، بني كل طابق منها على طبقة من الصخور المدرجة.

بعد هذا العرض الموجز لأهم حصون وقلاع وأبراج المناطق الادارية التسعة لسلطنة عمان، يبين لنا أن الاستحكامات الحربية الموجودة بمسقط وعمان، تنقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية لكل منها خصائصها ومميزاتها، وفيما يلي بيانها :-

أولا - استحكامات ساحلية :

(١) تقتصر هذه الاستحكامات على القلاع والأبراج المرتفعة، حتى تستطيع مراقبة العدو على مسافات بعيدة في عرض البحر قبل اقترابه من الشاطيء.

(٢) توجد معظم هذه القلاع على قمم الجبال والصخور العالية ذات الموقع الاستراتيجي الممتاز، مثل قلعة صحار التي تحمى ميناء صحار وتتحكم في مضيق هرمز. ولما كانت قمم الجبال وكذا الرؤوس الصخرية مساحتها ضيقة فمن ثم فهي لا تتسع لبناء الحصون، بل تكفي فقط لاقامة القلاع والأبراج.

(٣) كل المنشآت الحربية الساحلية مبنية بالحجر الصلد وكثيراً ما يكسوها طبقة سميكة من الجص، وذلك لأن العوامل المناخية تحتاج الى مواد بنائية تستطيع مقاومة البحر وأنوائه.

(٤) يقل استخدام الساقطات (Machicoulis) في القلاع والأبراج الساحلية، وخاصة تلك التي تعلو قمم الجبال، ذلك أن مهمة الساقطات هي صب المواد الحارقة على العدو عندما يقترب من سور القلعة، ولما كانت ساحة القتال بالنسبة للسواحل والمواني هو البحر، لذلك فان قلاعها

ليست في حاجة الى بناء الساقطات.

(٥) توجد المزاغل في الطابق العلوي من أبراج السواحل حتى تستطيع أن تصيب سفن العدو على مسافات بعيدة. وهذا هو السبب الذي جعل البرتغال تضيف الى قلعة ميراني سنة ١٦١٠م (أي بعد انشائها بثلاثة وعشرين عاما) برجا بمستوى البحر حتى تمنع القوارب الصغيرة من أن تمر بالقرب من القلعة وهي في مأمن من أن تصيبها النيران لأنها تحت مستوى مرمى سهامها ومدافعها.

ثانيا – الاستحكامات الداخلية :

(١) هي عبارة عن حصون تتوسط المدن أو القرى وتحيط بها الأسوار أو على الطرق والوديان التي يخشى عليها من الاعتداء.

(٢) تتكون الحصون من مجموعة من المنشآت الحربية كالأبراج والقلاع ومخازن السلاح وكثيرا ما يضم الحصن مركز الحكم حيث يوجد به قصر للسلطان أو مقر للوالي.

(٣) تبنى الحصون الداخلية وخاصة في المناطق الشديدة الحرارة، من الطوب اللبن فهو أكثر ملاءمة للحرارة من الأحجار التي تكون عرضة للتصدع من شدة الحرارة.

(٤) تكثر الساقطات في الأبراج التي تتخلل الأسوار وقلاع الحصون وكذا الفتحات التي توجد خلف عقود المداخل الرئيسية، ذلك لصب المواد الحارقة على العدو الذي يقترب من الأسوار أو الأبراج.

(٥) توجد المزاغل لرمي السهام في الطابق الثاني من أبراج الحصون ذلك أنها تكون عادة مبنية في سهل أو على ربوة أو تل قليل الارتفاع.

ثالثا - استحكامات محلية (الدور والافلاج) :

(١) لقد كانت دار كل قبيلة في العصور الوسطى أشبه بحصن يحميها من اعتداء القبائل الأخرى المنافسة لها، أو اعتداء اللصوص اذا كانت القبيلة ذات ثراء واسع.

(٢) ومن ثم فقد كانت الدار تحتوي على برج أو أكثر للمراقبة يحميها اذا مااعتدي عليها معتدٍ.

(٣) توجد بتلك الدور مزاغل لرمي السهام وكذا ساقطات لصب المواد الحارقة اذا ما جد الجد.

(٤) تحتوي الدور على مداخل منكسرة (Bent-Entrance) حتى تعوق اندفاع العدو من الدخول الى صحن الدار، كما أنها ترعى للدار حرمته، فلا يرى من بالباب الموجودين بصحنه.

(٥) تبنى الدور الكبيرة عادة بجانب الافلاج أو بالقرب منها حتى لا تكون في حاجة الى تخزين المياه، كما لا يستطيع العدو من قطع المياه عنها.

الهـوامش

(١) محمد بن علي الأكوع : اليمن الخضراء مهد الحضارة ص ١٣٥.
(٢) سورة الكهف : آية «٧٩».
(٣) محمد بن علي الأكوع : اليمن الخضراء ص ١٣٦.
(٤) صنعة الأميال هي قطعة الحجر التي ينقش عليها المسافات بالأميال والتي تعرف باسم الصوة. وقد استخدمت منذ العصر الأموي في خدمة البريد، أحمد رمضان أحمد: بيت المقدس والخليل (مجلة الدارة ١٣٩٨هـ العدد الأول من السنة الرابعة).

(٥) ترجع الاباضية بأصولها الى العراق زمن عبد الله بن اباض (١٢٧ – ١٣٢هـ) الذي اشتهر بخروجه على عبد الملك بن مروان (الشماخي : كتاب السير في رجال الاباضية ص ٧٧، حاضر العالم الاسلامي جـ ٢ ص ٣٥٣ لوثروب ستودارد). ويعتقد الاباضيون انهم الفرقة الناجية في الاسلام من الثلاث والسبعين فرقة التي انقسم اليها المسلمون.
(مصطفى بن اسماعيل الاباضي : الهدية ص ٨٠) وهم يميلون الى وجوب وجود إمام يقود الجماعة بشرط أن يصلح لذلك، وان الإمامة حق للجميع لا تمييز بين عربي وأعجمي متى توفرت فيه الشروط المطلوبة كما يعطون أنفسهم الحق في عزل الامام والثورة عليه اذا ساءت أموره، (دائرة المعارف الاسلامية مادة الاباضية) ومن تعاليمهم انهم يدينون بخلق القرآن، ويؤمنون بالاجتهاد بدلا من الاجماع والقياس، (الشهرستاني : الملل والنحل جـ ١ ص ٧١).

(٦) زامبادر : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في الاسلام جـ ١ ص ١٩١ – ١٩٤ (تحقيق: زكي محمد حسن).

(٧) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامي جـ ٢ ص ٣٥٦.
(٨) السالمي : تحفة الأعيان بسيرة آل عُمان جـ ٢ ص ٥٧.
(٩) عمان الامامية – اصدار مكتب إمامة عمان بالقاهرة – ص ٧.

(10) Badger, History of the Imams and Seyyids of Oman by Salil Bin Razik. Introduction and analysis. P. IV. P, 27.

(١١) عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي ص ١٨ (شركة الزيت العربية الأمريكية).

(12) Badger : Ibid. Part IV P. 81.

(١٣) عُمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي ص ١٨ (شركة الزيت العربية الأمريكية).

(14) Badger, History of the Imams and Seyyids of Oman, By Salil Bin Razik. Introduction and Analysis, P. IV P. 24.

(15) Serjeant. op. cit P. 44.

(16) Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age. P.157.

(١٨) المسمارية : اسم السفينة التي تستعمل فيها المسامير لربط ألواحها (المخصص لابن سيده، البحرية الاسلامية لسعاد ماهر ص ٢٦٨).

(١٩) نسبة الى الرياح الموسمية التي تهب على الهند والتي يسميها الافرنج نقلا عن العربية (سعاد ماهر : البحرية الاسلامية ص ١٢٧) هامش (٣).

(٢٠) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ ض ٣٥.

(٢١) تقع مدينة سيراف على الشاطيء الشرقي عند مدخل الخليج العربي وكانت من أقدم المراكز التجارية المزدهرة في العصور الوسطى. وكانت سيراف تلعب نفس الدور الذي تلعبه مسقط في القرن التاسع عشر، وهو نقل التجارة بين المدن الآهلة بالسكان في العراق وفارس، وبين شرق أفريقية التي كانت تعتبر منطقة تصدير هامة لكثير من المواد الخام، وكذلك الهند التي كان لها شأن عظيم في نظام التجارة العالمية بين الشرق والغرب.

(٢٢) كانت هرمز في أول أمرها مدينة مجاورة لسيراف فلما أفل نجم سيراف وانتقل النشاط التجاري الى هرمز. لكن هرمز لم تعمر طويلا إذ انقض عليها الغزو المغولي فاعتصم تجارها بجزيرة صغيرة تقع في مواجهة المدينة على بعد خمسة أميال منها وأطلقوا عليها اسم هرمو أيضا واستطاعوا خلال مدة وجيزة أن يؤسسوا لهم دولة من أعظم الدول التي شاهدتها المنطقة ثراء (تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين للشيخ زين الدين ص ١٩٧).

ولم تعد هرمز الجديدة قاصرة على نقل التجارة المحلية فحسب بل أصبحت حلقة هامة في نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب. واستطاعت هرمز بمضي الوقت أن تبسط سلطانها السياسي والتجاري على أجزاء شاسعة من شواطيء الخليج وجزره، امتدت من عمان حتى القطيف شمالا ودخلت جزيرة البحرين وجزيرة قشم في تبعيتها كما ضمت جزءًا كبيرا من الساحل الشرقي. وهكذا كانت هرمز تتكفل بحماية الخليج ضد أي غزو خارجي.. ومما يجدر ملاحظته أن هرمز لم تكن دولة فارسية أو عربية بل كانت تضم جميع الجنسيات الاسلامية التي تسكن شواطيء الخليج.

(٢٣) بيريك رئيس من أشهر قبودانات العثمانيين الذين اكتسبوا شهرة عظيمة وفي عصر السلطان سليمان يمين سنة ٩٥٩ قبودانا بالبحرية المصرية وقاد اسطول السويس المكون من (٣١) سفينة ووصل به حتى خليج البصرة (الفارسي) وقد ألف أطلسا في جغرافية البحر بيّن فيه ما كانت عليه البحرية العثمانية في ذلك الوقت.

(٢٤) سرهتك : حقائق الأخبار في دول البحار جـ ٣ ص ٤٠.

(٢٥) صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ٢٣.

(٢٦) لقد أنشأ البرتغاليون حصن قشم بعد استيلائهم على جزيرة هرمز وذلك لتأمين موارد المياه في الجزيرة (Lorimer : Gazetter of Persia Gulf of Oman).

(27) The Imperial Gazetteer of India. The Indian Empire vol. II P. 455.

(28) Sykes : History of Persia. P. 145.

(٢٩) عائشة علي اليسار : دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا (رسالة لم تنشر).
(٣٠) السالمي : تحفة الأعيان جـ٢ ص ١١.
(٣١) جمال زكريا : دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ص ٢١.
(٣٢) صلاح العقاد : زنجبار ص ١١٧.

(33) Firous : Le Sultanat d'Oman et la Question de Mascat P.P. 59-60.
(34) Qaillain : Expose critique des diverses nations acquises sur la Afrique Orientale P5/8.

(٣٥) السالمي : تحفة الأعيان جـ ٢ ص ٩٨، ٩٩، ١٠٠.
(٣٦) كان يصاحب تغيير الأئمة عادة تغيير العاصمة.

(37) Evans : La Civilisation en France au Moyen Age. P. 48.
(38) Stephenson : Medieval Feudalism. P. 70.

(٣٩) لقد نقش على هذا البرج نصا يحدد تاريخ انشائه وترجمته بالانجليزية كما يلي : —

«experience,. Zeal and Truth built before me defence of the Cross which defends me, on the order of the Very High and Powerful King Don Philip, third of this name in the year (1610) a.d. [Howley : Oman and its Renaissance P. 115].

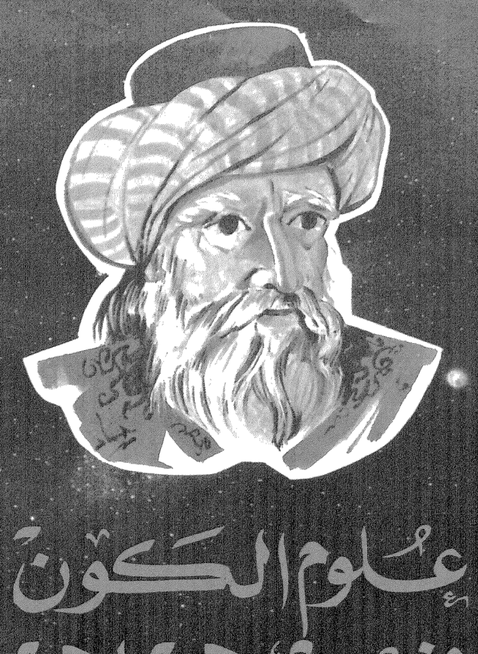
(٤٠) وترجمة النص باللغة الانجليزية كما يلي عن :

Donald Hawley : Oman and Its Renaissance. P. 115. :-
In the reign of the very high and mighty Philip first of the name, our sacred King, in the eighth of his reign in the crown of Portugal, he ordered through Don Durate de Menezs his viceroy in India that this Fortress should be built, which Belchoir Alvares built, the First Captain and Founder 1588.

(41) Hawley : Oman and Its Renaissance. P. (124).

(٤٢) هي القلعة الوحيدة التي بناها البرتغال في جزيرة البحرين والتي يطلق عليها أهل المنامة وخاصة الايرانيون منهم اسم قلعة (الفرنجي) وقد أقام قلعة العجاج في القرن السادس عشر. وتقع القلعة على الساحل الشمالي للبحرين على بعد ٣٫٥ أميال الى الغرب من قلعة المنامة. وتشغل القلعة مساحة كبيرة تبلغ فدانين وتبعد عن شاطىء البحر بمقدار (١٥٠) ياردة فقط وترتفع بمقدار (٨٠) قدما عن سطح البحر وتتكون القلعة من شكل مربع الأضلاع تتخلله الأبراج على مسافات تكاد تكون منتظمة ويتوسطها صحن مربع الشكل وبداخل القلعة بئر عميقة محاطة بأحجار مشذبة متينة البنيان وماؤها قد جف الآن وأصبحت في حالة سيئة.

(٤٣) مفرده باع وهو مقياس بحري.
(٤٤) الهمداني : صفة شبه الجزيرة ص ٥١.



علوم الكون في الإسلام

القزويني

بقلم : الدكتور علي عبد الله الدفاع

عميد كلية العلوم
بجامعة البترول والمعادن بالظهران

هو زكريا بن محمد بن محمود الكوفي القزويني ولد في بلدة قزوين الواقعة في شمال ايران عام ٦٠٠ هجرية (١٢٠٣ ميلادية) وتوفي في العراق عام ٦٨٢ هجرية (١٢٨٣ ميلادية) ويقول بعض المؤرخين: ان عائلة القزويني انتقلت من المدينة المنورة الى قزوين. ويقول محمد الصادق عفيفي في كتابه (تطور الفكر العلمي عند المسلمين): «وقد نزحت أسرته في وقت مبكر من المدينة المنورة، واستوطنت قزوين، فنشأ بها، وعندما طلب العلم غادرها وطاف بجملة بلدان لينهل على عادة علماء عصره، من أئمة العلماء، ويتتلمذ عليهم، فحل بدمشق سنة ٦٣٠ هجرية، وفيها تعرف على ابن عربي الصوفي الشهير، ومنها رحل الى العراق، واستقر بها حيث شغل منصب القضاء في مدينتي: واسط والحلة، وكان معاصرا في أثناء ذلك للخليفة المستعصم، وتوفي (سنة ٦٨٢ هجرية). والقزويني شأنه شأن العلماء القدامى: فهو جغرافي ان أردنا الجغرافية، وهو فلكي وعالم من علماء النبات والتاريخ الطبيعي».

ينتهي نسب القزويني الى الامام أنس بن مالك صاحب المذهب المالكي. عمل قاضيا في مدينتي واسط والحلة في العراق، فكان حجة في علم القضاء في عهد الخليفة المستعصم آخر بني العباس. وحقيقة الأمر أنه لم يقتصر على القضاء، بل لقد نبغ في العلوم الأخرى مثل علوم الأرض والجغرافية والفلك

والتاريخ الطبيعي. ويظهر اسهامه في حقل علوم الأرض فيما ذكره عن الزلازل والمياه الجوفية وكروية الأرض في كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) الذي حققه فاروق أسعد. يقول مقبول أحمد في مقالٍ له تحت عنوان (القزويني) في موسوعة علماء العلوم: «القزويني من أصل عربي نزحت عائلته الى قزوين، نال سمعة عظيمة في مجال القضاء، وعمل قاضيا مدة طويلة في مدينتي واسط والحلة، وعاصر آخر خلفاء العباسيين المستعصم. كان رحمه الله موسوعة في جميع العلوم، فهو من علماء علوم الأرض والنبات والجغرافية والفلك والتاريخ، ولكنه بالحقيقة عالم في علوم الكون بالدرجة الأولى». أما جورج سارتون فهو يقول عن القزويني في كتابه (المدخل الى تاريخ العلوم): «اشتهر أبو يحيى زكريا بن محمد بن محمود القزويني بمصنفاته الثلاثة عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وعجائب البلدان، وأثر البلاد وأخبار العباد، وعمم علم الكون بمؤلفاته الثلاثة. كما اهتم اهتماما بالغا بجمع المعلومات العلمية من المصادر المختلفة وتحليلها تحليلا علميا أدهش علماء العصر الحديث». ويذكر توفيق الطويل في كتابه (العرب والعلم في عصر الاسلام الذهبي): «أن القزويني استقى معلوماته من المشاهدة والمعاينة ويتحرى في أكثر ما ذكر الصدق والأمانة العلمية».

كان منهج القزويني في البحث ممزوجا بالطابع الديني، فكثيرا ما يستشهد في كلامه بآيات قرآنية وأحاديث نبوية. فكان رحمه الله بعيدا كل البعد عن الخرافات والأوهام التي كان لها دور عظيم في عصره، بل انه يبنى معلوماته على الحقائق العلمية البحتة. ويذكر عبد الرحمن حِميدة في كتابه (أعلام الجغرافيين العرب): «أن القزويني في عصره وفي العصور التالية أكثر الكتاب العرب قاطبة شعبية وقربا من الجماهير. وذلك ناتج عن معرفته الجيدة بالمصنفات الأدبية، بل أنه يحاول أن يحلل الأفكار العلمية لكبار العلماء المحببة الى الأنفس والمتجاوبة مع رغبت علماء عصره. واذا كان ياقوت الحموي قد بلغ الأوج في نمط المعاجم فان القزويني يعتبر أكبر كوزموغرافي ومبسط للعلوم من أجل عامة الناس».

تردد كثير من المؤرخين في تصنيف أبي عبد الله القزويني، فمنهم من وضعه في قائمة علماء الطبيعة والفلك والرياضيات، واعتبره الآخرون امام المؤرخين والجغرافيين العرب، وهو يبدو في الحقيقة من كبار علماء علوم الأرض رغم أنه نال شهرة مرموقة في علمي الفلك والرياضيات. وكان القزويني من العلماء الذين يعملون على دراسة العلوم التجريبية، وقد روى عنه قوله: «ان الانسان اذا لم يصب في أول مرة فليدرس الأسباب ثم يعيد تجربته، فان هذا هو السبيل الى النجاح». يقول عبد الرزاق نوفل في كتابه (المسلمون والعلم الحديث): نقلا عن القزويني ما يلي: «وليس المراد من النظر تقليب الحدقة فان الحيوان يشارك الانسان في ذلك ومن لم ير من السماء إلا زرقتها، ومن الأرض إلا غبرتها، فهو مشارك للحيوان، وأدنى حالا، وأشد غفلة، بل المراد من النظر التفكير في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصاريفها لتظهر حقائقها». ويطالب القزويني في التعمق في البحث فيقول: «اذا وجدت مغناطيسا لا يجذب فلا تفقده خاصية الجذب بل ابحث عن العائق في عدم جذبه للحديد. ويصف القزويني الرياح فيقول: «الزوبعة وهي الرياح التي تدور على نفسها شبه منارة وأكثر تولدها من رياح من الطبقة الباردة فتصادف سحابا تذروه الرياح المختلفة فيحدث من دوران الغيم تدوير في الرياح فينزل على تلك الهيئة وربما يكون مسلك صعودها مدورا فيبقى هبوبها كذلك مدورا كما يشاهد في الشعر المجعد فان جعودته قد تكون لاعوجاج المسام وربما يكون سبب الزوبعة ارتقاء رحين مختلفتي الهبوب».

شرح القزويني تكوين الزلازل شرحا علميا متقنا، اندهش منه علماء القرن العشرين. يقول عبد الرحمن حميدة في كتابه (أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم): «قال القزويني عن الزلازل ما نصه: زعموا أن الأبخرة والأدخنة الكثيرة اذا اجتمعت تحت الأرض ولا تقاومها برودة تصير ماء وتكون مادتها كثيرة لا تقبل التحليل بأدنى حرارة ويكون وجه الأرض صلبا لا يكون فيها منافذ فالبخارات اذا قصدت الصعود ولا تجد المسام تهتز منها بقاع، ألا تجد المسام تهتز منها بقاع الأرض تضطرب كما يضطرب بدن المحموم عند شدة

الحمى بسبب رطوبات عفنة احتبست في خلال أجزاء البدن فتشتعل فيها الحرارة الغريزية فتذيبها وتحللها وتصيرها بخارا ودخانا فيخرج من مسام جلد البدن فيهتز من ذلك البدن ويرتعد ولا يزال كذلك الى أن تخرج تلك المواد فاذا خرجت سكن. وهكذا حركات بقاع الأرض بالزلازل فربما ينشق ظاهر الأرض ويخرج من ذلك الشق تلك المواد المحتبسة دفعة واحدة والله أعلم».

وتعرف الزلازل علميا بأنها انتفاضات موضعية لسطح الأرض نتيجة لتحرر الطاقة من داخل القشرة الأرضية ويحدث ذلك عادة نتيجة لتصدعها وتحرك أجزائها المتصدعة عبر مستويات التصدع، أو نتيجة لثوران البراكين أو تداخل الصهارة الصخرية للقشرة الأرضية، كما قد تحدث بمعدل أقل شدة نتيجة للانهيارات الصخرية الكبيرة على سطح الأرض، أو في داخل المناجم، أو نتيجة لعمليات التفجير التي يقوم بها الانسان تحت سطح الأرض خاصة التفجيرات النووية.

درس القزويني الطبيعة دراسة علمية تعتمد على المنطق الرياضي، ويتضح ذلك من قول عمر فروخ في كتابه (تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون): «القزويني دقيق الملاحظة عميق التفكير: وقف يتعجب من اهتداء النحل الى عمل بيوته من الشمع على شكل يعجز عن مثله المهندس بالمسطرة والبركار، كما أحسن تعليل خزن مياه الأمطار في باطن الأرض في الشتاء ثم خروجها من الينابيع. وكان يرى أن الأرض كروية وأنها تدور على نفسها، وأن ما نشاهده من حركة الكواكب والنجوم في السماء ليس راجعا الى دوران تلك النجوم على ما نرى بأعيننا، بل الى دوران الأرض على محورها (ونحن عليها) فيخيل الينا أن الكواكب والنجوم تجري في السماء على ما ألفنا».

وصف القزويني منافع شجرة الزيتون وقد نقل عنه محمد عفيفي في كتابه (تطور الفكر العلمي عند المسلمين) ما يلي: «الزيتون شجرة مباركة كثيرة النفع، هذه الشجرة أو الثمرة أقسم الله سبحانه بها في القرآن، وذلك لعموم

نفعها وعن حذيفة بن اليما ة عن النبي ﷺ ... ان آدم – عليه السلام وجد ضربانا(١) في جسمه فاشتكى الى الله تعالى، فنزل جبريل عليه السلام بشجرة الزيتون، فأمره أن يغرسها، ويأخذ ثمرتها فيعصرها، فقال: أن في دهنها شفاء من كل شيء الا السام. ومن عجيب خواص هذه الشجرة أنها تصبر عن الماء طويلا، ولا دخان لخشبها ودهنها، ولا تنبت شجرتها من النواة، وان نبتت لا ينفع الله بها، قال صاحب الفلاحة: ينبغي أن يكثر تحت شجرة الزيتون من المدر(٢) فان الغبار اذا سطع على الزيتون، زاده دسما، ونضجا، وقال أيضا اذا أردت أن تقوي الشجرة، فخذ من شجرة البلوط عدة أوتاد، ودقها في الأرض حول شجرة الزيتون. فانها تقوى، وتكثر ثمرتها...».

تحدث عالمنا الجليل عن المعادن والنبات والحيوان وأعطى شروحا مفصلة ويظهر ذلك من قول عمر فروخ في كتابه (تاريخ العلوم عند العرب): «يرى القزويني أن الموجودات ثلاث مراتب: المرتبة الأولى للمعادن وهي باقية على الجمادية لقربها من البسائط(٣)، والمرتبة الثانية للنبات فانها متوسطة بين المعادن والحيوان بحصول النشوء والنمو وفوات(٤) الحس والحركة، والمرتبة الثالثة للحيوان فانه قد جمع بين النشوء والنمو والحركة، وهذه قوى موجودة في جميع الحيوانات. والنبات عند القزويني متوسط بين المعادن والحيوان لأن النبات ليس مجردا من الحس والحركة (الاختيارية) كالجماد، ولا هو تام فيهما كالحيوان. والنبات شجر (له ساق) ونجوم (جمع نجمة ما لا ساق له، بل هو لاصق بالأرض). والأشجار المثمرة أصغر من غير المثمرة وللشجرة المثمرة ورق كثير الكثافة فيمنع ضوء الشمس عن الثمر، ولا هو كثير التفرق فتتعرض الثمرة لحر الشمس تعرضا يحرقها».

لم يترك القزويني فرعاً من فروع المعرفة الا وأسهم فيه، فقد كان له دور ملموس في علم الفلك فمثلا فسر الكسوف والخسوف تفسيرا صحيحا حسب ما نقله عمر فروخ في كتابه (تاريخ العلوم عند العرب) بما يلي: «وسبب خسوف القمر توسط الأرض بينه وبين الشمس، عندئذ يتشكل من

وقوع نور الشمس على الأرض مخروط قاعدته صفحة الأرض (الدائرة الكبرى عند محيطها). فاذا وقع القمر كله في جرم المخروط، كان الخسوف كليا (أي احتجب نور الشمس عن وجه القمر المقابل لنا فبدا أسود - كما يكون في آخر الشهر)، وان كان بعضه فقط داخلا في ظل المخروط كان الخسوف جزئيا ويكون كسوف الشمس اذا حال القمر بين الشمس وبين أبصارنا (كما يتفق للأرض في الخسوف). ويرى القزويني أن مكث الشمس في الكسوف لا يكون طويلا كمكث القمر في الخسوف (لأن قاعدة مخروط الشعاع اذا انطبق على صفحة القمر انحرف عنه في الحال فتبتديء الشمس بالانجلاء). ويقول القزويني أيضا: «ويختلف قدر الكسوفات باختلاف أوضاع المساكن لسبب المنظر. وقد لا تنكسف (الشمس) في بعض البلاد أصلا اذا هي انكسفت في وقت ما في بعض البلاد الأخرى».

كما ألف القزويني في جغرافية العالم الى درجة صارت مؤلفاته مراجع معتمدة، بين علماء الجغرافية في العالم أجمع، وتتضح الصورة من قول عمر رضا كحالة في كتابه (التاريخ والجغرافية في العصور الوسطى): «أما القزويني فقد ضمن المعلومات التي استفادها من المصادر المتعددة، كتابا من صميم علم الكون، وهو عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وآخر في الجغرافية هو عجائب البلدان، وسمي فيما بعد بآثار البلاد وأخبار العباد وهو أول كتاب اسلامي في علم الكون، التزم في مؤلفه خطة، وهو تناوله للعلم غير الأرضي. أما كتاب الجغرافية الذي رتب الأقاليم السبعة، فقد أفاد كثيرا من احصاء البلدان المرتبة على حروف المعجم فهو لذلك ولما فيه من اشارات كثيرة خاصة بالسير شبيه من النـــاحية الأدبية بالكتب من قبيل معجم البلدان لياقوت الحموي». أما نفيس أحمد فيقول في كتابه (الفكر الجغرافي): «أما كتاب الجغرافيا فلدينا منه نسختان أصليتان بعنوانين مختلفين: أقدمهما باسم (عجائب البلدان) وأحدث النسختين عنوانها (آثار البلاد وأخبار العباد) فيما يدخل في باب الجغرافيا التاريخية وقد كتب سنة ١٢٥٠ ميلادية. ويعطينا القزويني في جغرافيته وصفا للأرض فيه التقسيم البطليموسي السباعي للأقاليم، والكتاب يفيض بمادة

غزيرة في التاريخ والتراجم. وهو مزود في الأصل بمجموعة من الرسوم والصور».

ويصف لنا حميد موراني وعبد الحليم منتصر طريقة تأليف القزويني لكتبه فيقولان في كتابهما (قراءات في تاريخ العلوم عند العرب): «وللقزويني كتاب في آثار البلاد وأخبار العباد في التاريخ، بدأه بعد الديباجة بثلاث مقدمات الأولى في الحاجة الماسة الى أحداث المدن والقرى، والثانية في خواص البلاد وقسمها الى فصلين، الأول في تأثير البلاد في السكان، والثاني في تأثير البلاد في النبات والحيوان. والثالث في أقاليم الأرض، ثم أفاض بعد ذلك في أخبار الأمم الماضية وتراجم كثيرة عن الأولياء والعلماء والسلاطين والشعراء، والوزراء والكتاب، وغيرهم».

وقد تحدث القزويني بكثرة عن علوم الأرض في مؤلفاته وكذلك فيما يتعلق بتكوين الذهب والرصاص والفضة والحديد والنحاس والكبريت والزئبق وغيرها من المعادن. وقد فسر ذلك بما معناه أن الذهب يتكون في الجبال الرخوة، والحديد والرصاص والفضة والنحاس فتوجد في الأحجار المختلطة بالتراب اللين، والكبريت في الأرض النارية، والزئبق في الأراضي المائية، والأملاح في الأرض السبخة، أما النفط فيوجد في الأراضي الدهنية، كما درس القزويني قشرة الأرض دراسة وافية، ويذكر جوستاف لوبون في كتابه (الحضارة العربية): «أن التحولات التي حصلت للكرة الأرضية ليست نتيجة للنكبات كما يعتقد عالم الفيزياء «كوفيه» وذلك عام ١٨٧٣م وانما الحقيقة تكمن في التغيرات الطبيعية البطيئة جدا على مر القرون. وهذه الفكرة كانت معروفة لدي علماء العرب والمسلمين. وقد ذكر القزويني في مؤلفه آثار البلاد وأخبار العباد التحولات التي حصلت لوجه الأرض، وذلك بتغير أماكن البحار وقشرة الأرض».

قسم القزويني الموجودات في العالم الى قسمين في كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) كالآتي :

(١) العلويات وتشمل الأفلاك وأشكالها وحركتها (كواكب وبروج ومدارات ومجرات والشمس والقمر).

(٢) السفليات ويقصد ما دون الفلك من كرة الأثير، وكرة الهواء وسحبها وأمطارها وكرة الماء وعجائب بحارها، وكرة الأرض وسعتها وقرارها، ورسوخ جبالها، وامتداد أنهارها، وفوائد معادنها، وخواص أشجارها. يقول المؤلفان: حميد موراني وعبد الحليم منتصر في كتابهما (قراءات في تاريخ العلوم عند العرب): «أن القزويني تكلم في كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات عن السماء وما فيها، معالجا ما يسمى بعلم الفلك ووصف الكواكب والأبراج وحركاتها وما يترتب على ذلك من الفصول والشهور وتكلم عن الأرض وما عليها، فدخل أصل الأرض وطبيعتها، وكرة الهواء، وأصل الرياح وأنواعها وكرة الماء وما فيها من البحار، والجزر، والحيوانات العجيبة، ثم اليابسة وما عليها من جماد ونبات وحيوان، ورتب كلا من هذه على حروف المعجم».

أما شاخت وبوزرث في كتاب تراث الاسلام (عالم المعرفة) فيذكران نقلا عن كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني ما نصه: «حكى الشيخ الرئيس (القزويني) أنه كان على الجبل الذي بين بارود وطوس، وأنه أعلى الجبال. وكانت السماء مكشوفة، فقال كنت في وسط الجبل بيني وبين الأرض، فرأيت دائرة نقية بلون قوس قزح فشرعت في النزول عن الجبل والدائرة تصغر، فكلما نزلت رأيتها أصغر مما كانت قبل ذلك الى أن وصلت الى السحاب فاضمحلت».

قد اهتمت بلاد الغرب بمؤلفات القزويني لما فيها من معلومات جمة، فعلى سبيل المثال ترجم كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات من اللغة العربية عدة مرات الى لغات مختلفة ويذكر محمد فائز القصري في كتابه (مظاهر الثقافة الاسلامية وأثرها في الحضارة): «أن كتاب القزويني عجائب المخلوقات وغرائب

الموجودات قد طبع عدة مرات بعد ترجمته الى اللغتين الألمانية والفرنسية، وذلك في عام ١٨٠٥ ميلادية لأهميته. وقد تطرق فيه الى حركة الكواكب فقال القزويني: «القمر أصغر الكواكب ويظهر وكأنه أكبرها لأنه قريب من الأرض، وهو أسرعها سيرا نظرا لخفة وزنه نسبيا». وأضاف القصري: «القزويني رجل مفكر ومدقق اهتم بتأثير الضوء وراقب الجاذبية الأرضية. وقد احتلت أفكار ونظريات القزويني مكانا بارزا في نهضة علم الفلك في أوربا في القرن التاسع عشر الميلادي. وهي ليست بعيدة عن نظريات نيوتن وجاليليو».

كان القزويني واسع الأفق، فلم يقف عند الاطلاع والتبحر، بل انتج انتاجا جما في جميع فروع المعرفة، تدلنا على ذلك مؤلفاته العديدة التي نورد بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

(١) كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات.
(٢) كتاب أثر البلاد وأخبار العباد.
(٣) كتاب الأقاليم.
(٤) كتاب البلدان.
(٥) كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر.
(٦) كتاب في نظام الكون.
(٧) كتاب في صفة الأرض.

وفي الختام فان المنهج الذي اتبعه القزويني يعتمد على التجربة والاستنباط اللذين كانا نبراسا لعلماء العرب والمسلمين، وكان يتميز بالطابع الديني البحت، فكان يستند في كثير من الأحيان على آيات قرآنية أو أحاديث كريمة. كان انتاجه مبنيا على الحقائق العلمية، مبتعدا عن الأوهام والخرافات. فقد استدل على كروية الأرض بخسوف القمر وطلوعه وغروبه. ويعتبر كثير من مؤرخي العلوم أن القزويني هو على رأس قائمة نوابغ علماء العرب والمسلمين في جميع فروع المعرفة. ولكنه بدون شك اشتهر وذاع صيته كأكبر عالم في علوم

الكون في الاسلام. يقول عبد الرزاق نوفل في كتابه (المسلمون والعلم الحديث): «احتار المؤرخون في أي علم يوضع أبو عبد الله بن زكريا القزويني على رأس علمائه. فقد اشتهر بأنه من علماء الطبيعة (علوم الأرض)ومن أئمة علم التاريخ والجغرافيا وله مؤلفات في الفلك والرياضيات تجعله في قمة رواد هذا العلم».

والقزويني من علماء العرب والمسلمين الذين وضعوا قواعد علوم الأرض، وقد اتبعته أوربا في هذا الحقل عدة قرون طويلة لم يتقدمه فيها أحد. وقد طور القزويني هذا العلم الى درجة رفع علوم الأرض فوق مستوى المشعوذين والجهلة الذين جعلوا من المعادن ألعوبة عبر التاريخ. يقول حميد موراني وعبد الحليم منتصر في كتابهما (قراءات في تاريخ العلوم عند العرب) نقلا عن القزويني ما يلي: «ولننظر الى أنواع المعادن المودعة تحت الجبال، منها ما ينطبق كالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص. ومنها مالاينطبق كالفيروز والياقوت والزبرجد، وكيفية استخراجها وتنقيتها، واتخاذ الحلي والآلات والأدوات منها، ثم الى معادن الأرض كالنفط والكبريت». وهذا الحقل العلمي قد تطور تطورا عظيما بسبب اكتشاف النفط، الذي أصبح المحرك الرئيسي للحضارة الحديثة تصعب بدونه الحياة. وخلاصة القول أن القزويني كان عالما في علوم الأرض، واشتغل في هذا المضمار، وكان اتجاهه في البحث مستقلا لم يقلد فيه السابقين له، ولكنه استقى منهم كثيرا من معلوماته التي أرسى فيها قواعد علوم الأرض.

ومما لا يقبل الشك أن القزويني عبقرية علمية بارزة في معظم فروع المعرفة، فكان له تأثير كبير في أوربا خلال القرون الوسطى. ولم يقف عند نظريات القدماء حائرا، بل دخل المختبر، وفحص وحقق تحقيقا علميا مبنيا على الملاحظة والاستنتاج، حتى لقد جعل انتاج القزويني العظيم علماء أوربا في القرون الوسطى وفي العصر الحديث تعجب به، بل ان كثيرا منهم أبدى الدهشة لما تحتويه هذه المؤلفات من معلومات واسعة. ومن ذلك نستنتج أن جميع الآراء المغرضة التي قالها فيه بعض المستشرقين المتطرفين، والتي ملخصها أن القزويني

مجرد ناقل ومردد لأفكار اليونان – قد جانبها الحق في هذا، بل القزويني من كبار المفكرين الذين تفتخر بهم الأمة العربية والاسلامية. بل العالم أجمع لما قدمه من عمل جليل لخدمة المعرفة الانسانية.

المصادر والمراجع

(١) توفيق الطويل : العرب والعلم في عصر الاسلام الذهبي.
(٢) جورج سارتون : المدخل الى تاريخ العلوم.
(٣) جوستاف لوبون : الحضارة العربية.
(٤) حميد موراني، عبد الحليم منتصر : قراءات في تاريخ العلوم عند العرب.
(٥) شاخت وبوزرث : تراث الاسلام (عالم المعرفة).
(٦) عبد الرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم.
(٧) عبد الرزاق نوفل : المسلمون والعلم الحديث.
(٨) عمر رضا كحالة : التاريخ والجغرافية في العصور الوسطى.
(٩) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي أيام ابن خلدون. تاريخ العلوم عند العرب.
(١٠) فاروق أسعد : تحقيق لكتاب (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات).
(١١) محمد الصادق عفيفي : تطور الفكر العلمي عند المسلمين.
(١٢) محمد فائز القصري : مظاهر الثقافة الاسلامية وأثرها في الحضارة.
(١٣) نفيس أحمد : الفكر الجغرافي.

الهوامش

(*) (علوم الكون) : علم يبحث في تركيب الكون ووصف العالم بوجه عام ويحتوي على علوم الأرض وعلم الفلك والجغرافيا.

(١) الضربان : أذى الجرح.
(٢) المدر : الطين اليابس، أو العلك الذي لا يخالطه رمل.
(٣) البسائط : التي لا تركيب فيها.
(٤) فوات الحس والحركة : فقدان الانفعال بالمحسوسات بالارادة وفقدان الحركة بالارادة من مكان الى آخر.

الصناعات في نجد و الحجاز في العصر الأموي

د. عبد الله محمد السيف جامعة الرياض - كلية الآداب

شهدت الحجاز ونجد في العصر الأموي وجود بعض الصناعات المحدودة التي كانت لا تفي بمتطلبات المجتمع خاصة بعد تدفق الأموال على الحجاز، وارتفاع القدرة الشرائية لدى السكان، وازدياد الطلب على الحاجات الكمالية. لذلك عمد السكان الى استيراد الصناعات التي كانت تلزمهم من الأقاليم الأخرى. وسنتناول في هذه المقالة صناعة التعدين، الحدادة، الصياغة، دباغة الجلود، صناعة النسيج، النجارة، صناعة الورق وغيرها.

كانت صناعة التعدين من أهم الصناعات في هذه البلاد حيث توجد معادن الفضة والذهب التي كانت صالحة للاستثمار. ومن أهم المعادن التي كانت موجودة معدن بني سليم(١) الذي كان له شأن عظيم في العصر الأموي، فكان يستخرج منه الذهب بكثرة(٢). وقد اطلق عليه هذا الاسم نسبة الى القبيلة التي يقع في بلادها، ومن أسمائه أيضا معدن فَرَّان، ولعل هذه التسمية ناشئة عن اسم القبيلة التي كانت تستثمره، وتشتغل بصناعة التعدين فيه وهم بنو فَرَّان بن بلى بن سليم(٣). ويبدو أن هذا المنجم كانت له قيمة كبيرة بسبب ما كان يستخرج منه من الذهب، بدليل تعيين عامل خاص له في العصر الأموي، فكان عامله في سنة ١٢٨هـ /٧٤٦م كثير بن عبدالله(٤).

ومن المعادن المشهورة أيضا معادن القَبَلِيَّة، وهي أرض ومعادن أقطعها رسول الله ﷺ - لبلال بن الحارث المزني(٥). وكان هذا المعدن كثير الانتاج،

ويبدو أن هذه المنطقة كانت منطقة معادن اذ يروي البلاذري أن بني هلال باعوا عمر بن عبد العزيز قطعة أرض منها، فوجد بها معدنا، فلما علم بنو بلال أتوه وقالوا: انما بعناك الأرض، ولم نبعك المعدن، فقال عمر لقيمه: «انظر ماااستخرجت منها وما أنفقت عليها، فقاضهم بالنفقة، ورد عليهم الفضل(٦)» ويبدو من هذا النص أن استثمار المعادن في العصر الأموي كان وقفا على أهلها، الذين عليهم أن يدفعوا زكاة مايخرج منها بواقع ربع العشر(٧).

ومن معادن الذهب المشهورة أيضا معدن حِلِّيت، ويقع في حمى ضَرِيَّة، وكان يسمى النجادي، لأنه كان لرجل يدعى نجاد بن موسى بن سعد بن أبي وقاص، وكان كثير الذهب(٨). فيروي البكري انه «لم يعلم في الأرض معدن أكثر منه نيلا، لقد أثاروه والذهب غالٍ بالآفاق كلها، فأرخصوا الذهب بالعراق وبالحجاز..(٩)» ويعتبر معدن بُحْران من المعادن المشهورة أيضا ويقع بناحية الفرع على الطريق من مكة الى المدينة(١٠).

وتذكر المصادر عدداً آخر من المعادن التي كانت موجودة في نجد والحجاز ولكن لاندري هل كانت هذه المعادن تستغل في العصر الأموي أم أنها استغلت فيما بعد. من هذه المعادن التي كانت غزيرة الانتاج من الذهب معدن الأَحْسَن(١١)، ومعدن الحُفير، ومعدن الضبيب، ومعدن الثَّنِيّة(١٢)، أما الفضة فيذكر الهمداني أنها كانت تستخرج من معدن شمام في اليمامة(١٣)، ويذكر البكري معدن أَبْرِق خُتْرُب، الذي كان غزير الانتاج من الفضة اذ يقول «وكان بأبرق خترب معدن فضة، رغيب واسع النيل(١٤)» كما تذكر المصادر أن حجر المِسَّن، الذي كان يستعمل في سن السكاكين، كان يقطع من جبل رضوى ويحمل الى البلدان الأخرى(١٥). أما ملح الطعام فكان يستخرج ويجفف في الحاجر في منطقة نجد، وكان من أجود أنواع الملح(١٦).

ومن الصناعات التي كانت موجودة في نجد والحجاز، صناعة الحدادة(١٧)، وتشمل صناعة بعض الأواني المنزلية الحديدية، كما تشمل صناعة الأسلحة، التي

كان لها أهمية كبرى في حياة العرب منذ العصر الجاهلي، وازدادت قيمتها بعد قيام الدولة الاسلامية، وحاجة المسلمين الى مد فتوحاتهم، وتأمين مافتحوه ونظرا لقلة مناجم الحديد في الجزيرة العربية، فقد اضطر العرب في نجد والحجاز الى استيراد الحديد من الهند وفارس عن طريق البصرة(١٨). ويروي الكتاني أن أصل صناعة الحديد في الجزيرة العربية، راجعة الى أن الرسول ﷺ، لما فتح خيبر سبى فيما سبى ثلاثين قينا وكانوا صناعا وحدادين، فقال عليه الصلاة والسلام، «اتركوهم بين المسلمين ينتفعون بصناعتهم ويتقوون بها على جهاد عدوهم فتركوا لذلك فمن تعلم عليهم الصناعة سمى صانعا أو معلما ومن كان من أصلهم سمي قينا فصاروا من يومئذ يلتجئون وينضوون الى أكابر الناس»(١٩).

لقد كانت مدينة حجر في اقليم اليمامة بنجد مشهورة بمصنوعاتها الحديدية الجيدة، مثل أسنة الرماح(٢٠)، ويروي ابن منظور نقلا عن أبي حنيفة قوله «وحدائد حجر مقدمة في الجودة»(٢١). وتذكر بعض المصادر السيوف الحَنفية(٢٢) والتي يرجح أنها منسوبة الى قبيلة بني حنيفة التي كانت تقطن اليمامة في نجد. كما تذكر صناعة السيوف في جلدان بالحجاز(٢٣). وقد وُجِد الحدادون في مكة المكرمة(٢٤)، وفي المدينة المنورة(٢٥).

أما الصياغة فكانت من الصناعات التي خلفها اليهود، بعد إجلائهم عن الحجاز فيروي الطبري أن رسول الله ﷺ بعد إجلاء يهود بني قينقاع عن المدينة أخذ آلة صياغتهم(٢٦). ويذكر ابن زبالة أنه كان في قرْية زُهْرة – احدى قرى المدينة – ثلاثمائة صائغ(٢٧). وقد كثر الصائغون في المدينة في العصر الأموي وكانوا يعملون في حوانيتهم(٢٨). ويذكر ابن سعد أن وردان كان صائغا في مكة(٢٩).

ويبدو أن أهم الصناعات التي كان يزاولها الصاغة هي صناعة الحلي من الذهب والفضة كالأساور والخلاخيل والخواتم والأقرطة. فكانت النساء تتزين

بهذه الحُلي(٣٠)، خاصة بعد تدفق الأموال على الحجاز، وارتفاع مستوى المعيشة وازدياد الطلب على الحاجات الكمالية. كما كان الصاغة يقومون بتغطية السيوف بالذهب(٣١).

ومن الصناعات الأخرى، والتي كان لها أهمية في هذه المنطقة دباغة الجلود، وقد اشتهرت بها مدينة الطائف في الحجاز، يقول الهمداني: «هي بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة»(٣٢). ولقد ساعد على قيام هذه الصناعة في هذه المدينة، حسن الجو وملاءمته للدباغة، وحسن موقعها الجغرافي، الذي جعل التجار يصلون اليها بسهولة، وتوافر الحيوانات التي تؤخذ منها الجلود في الحجاز(٣٣)، كالابل والبقر والغنم، بالاضافة الى الغزلان وبقر الوحش التي كانت تعيش في جبال السروات، لذلك اشتهرت دباغة الجلود في الطائف وانتشرت حتى شملت الأمكنة المجاورة لها(٣٤).

ومن العوامل التي ساعدت على ازدهار هذه الصناعة، وجود المواد التي تستخدم للدباغة كورق شجر القرظ في أراضي نجد والحجاز(٣٥). فكانت هذه المواد توجد في اقليم اليمامة بنجد(٣٦). كما كانت تنبت أيضا في وادي العقيق بالقرب من المدينة المنورة، وفي ضواحي مكة المكرمة(٣٧). أما الآلات التي كان الدباغون يستعملونها في الدباغة، فلا تفصّل المصادر ذكرها، الا أن ابن سيدة يذكر أهمها كالمحط الذي كان يستعمل لصقل الأديم وتنميقه، وكان مصنوعا من الخشب وأحيانا من الحديد. أما المجلاة فكانت تستخدم لتنظيف الوسخ الذي كان يبقى عالقا في الجلد(٣٨).

لقد تطورت صناعة الاديم بالطائف حتى بلغت شأوا بعيدا، وأصبحت تصدره الى الأمصار الاسلامية الأخرى. ويبدو أن هذه الشهرة التي حازتها مدينة الطائف في دباغة الجلود، وصناعة الأديم، استمرت في العهود الاسلامية المتأخرة، فيذكر الادريسي أن بالطائف تجارا «جل بضايعهم صنع الأديم، وأديمها عالي الجودة، رفيع القيمة، وبالنعل الطائفي يضرب المثل، وهذا

مشهور»(٣٩). كما يذكر ابن المجاور أن أهل الطائف يشتغلون بدباغة الجلود فيقول «وجميع عملهم دباغ الأدم ويدبغ بها الأديم المليح الثقيل المعروف بها وهو الذي يصلح لخوارزم(٤٠).

ولم تقتصر دباغة الجلود على مدينة الطائف وحدها، بل كانت موجودة في مكة أيضا في صدر الاسلام(٤١). ويبدو أنها استمرت خلال العصر الأموي يذكر ابن سعد أن بعض سكان الطائف، الذين سكنوا مكة استمروا في دباغة الجلود(٤٣) كما يذكر ابن المجاور أن دباغة الجلود كانت منتشرة في مكة وما جاورها من القرى(٤٣) ويبدو أن شجر القرظ الذي كان ينبت في مكة لم يكن كافيا لدباغة الجلود، لذلك جلبوه الى مكة من وادي العقيق بالقرب من المدينة المنورة(٤٤). ويذكر الأزرقي أن في مكة حوانيت لأصحاب الأدم، وكانت تجارة الأدم تنشط في موسم الحج(٤٥).

لقد كانت الجلود ذات فائدة كبيرة للخرّازين، الذين يكثرون في مدينة الطائف ومكة(٤٧). فكانوا يشترونها من أصحاب الأدم، ويصنعون منها النعال والخفاف(٤٨)، والسروج والخيام والحياض، والأواني الجلدية التي كانت بادية نجد والحجاز تستعملها لحفظ الماء والزيت والعسل والسمن واللبن(٤٩)، لملاءمتها لحياتهم البدوية التي تقوم على التنقل والترحال، لأن الشمس الحارة في تلك البلاد لا يقاومها من الأوعية التي كانت تستعمل في البيوت غير الجلود، كما كانوا يستعملونها لحفظ التمر، فكانوا يضعون التمر في جوارب من الأديم(٥٠)، كما كانوا يدبغونها ويعملون منها البسط الجلدية(٥١). ويبدو أن بعض الرقيق الذين يعملون في خدمة بيوت سادتهم كانوا يجيدون الخرازة، فكانوا يقومون بهذا العمل عندما يطلب منهم أسيادهم ذلك(٥٢).

ومن الصناعات الأخرى التي وجدت في نجد والحجاز، في هذا العصر، صناعة المنسوجات، ففي منطقة الوشم بنجد كانت تنسج البُرود، وكانت ذات شهرة كبيرة، حتى أنها كانت تصدر الى البلدان الأخرى. واشتهرت

ثرمداء وهي من قرى الوشم بهذه الصناعة(٥٣). وقد نسب الشاعر حميد بن ثور الهلالي نسيج البرود الى ثرمداء، فكان ابنه يراه يذهب الى الأمراء ويعود مكسوا، فأخذ بعيراً لأبيه، وقصد مروان بن الحكم، لكنه لم يعطه شيئا، وعندما عاد قال أبوه:

مابال بُرديك لم تمسس حواشيه من ثرمداء ولا صنعاء تحبير(٥٤).

ويعلق مقبل الذكير على نسبة البرود الى ثرمداء فيقول: «أما ما وصف الهلالي من نسبة البرود الى ثرمداء فهذا مما لا شك فيه فقد كان يعمل فيها ذلك الى مدة ليست بعيدة وقد كان الوشم مشهورا بالنسيج من الخامات والصوف الى مدة لا تبعد أكثر من مائتي سنة وقد أخذ يضعف هذا العمل حتى تلاشى قبل مائة سنة حتى فقد تماما»(٥٥). ويستشف من رواية ابن سعد أن الفقيه عبد الله بن أسود، الذي عاش في اليمامة في العصر الأموي كان يزاول نسج البرود(٥٦).

واشتهرت بلدة مر الظهران بالحجاز بهذه الصناعة حتى كانت الثياب تنسب اليها، فيقال ثوب ظهراني نسبة الى مر الظهران(٥٧). وتشير المصادر الى بعض المنسوجات المنزلية، التي كانت بدائية الصنع ليس فيها شيء من المهارة الفنية وكان أغلبها يصنع في بادية نجد والحجاز(٥٨). ويستشف من رواية الامام مالك أن الولائد في العصر الأموي، كن يزاولن صناعة النسيج وكانت منسوجاتهن من الرَّيط التي تعرض في الأسواق للبيع(٥٩). ويبدو أن هؤلاء الاماء كن يزاولن هذه الصناعة بناء على رغبة سادتهن الذين كانوا يوفرون المواد الأولية اللازمة للصناعة.

ولا تشير المصادر الى مصانع النسيج هذه، من ناحية تكوينها، أو ما يتعلق بها من مشكلات مالية أو اقتصادية أو اجتماعية، كتوفير رأس المال مثلا، أو المواد الأولية التي تستخدم في هذه الصناعة، أو العمل وادارته، الا أن

الأصفهاني يذكر أن من الادوات التي كانت تستخدم في حياكة المنسوجات المنوال والمنسج الذي يدعى الحَفْ(٦٠)، أما الخامات والمواد الأولية للنسيج فيبدو أنها كانت من الصوف(٦١)، والقز(٦٢)، والقطن(٦٣).

ويبدو أن معظم الذين كانوا يزاولون صناعة المنسوجات من الرقيق والموالي فيذكر الأصفهاني أن لعمر بن أبي ربيعة سبعين عبدا كانوا يزاولون هذه الصناعة في مكة(٦٤). كما يبدو أيضا أن عمر بن أبي ربيعة قد استفاد من رقيق والده، الذين كانوا يزاولون جميع المهن(٦٥). كما يروي ابن سعد أن معن بن عيسى، مولى الأشجع، كان يمارس صناعة المنسوجات في المدينة المنورة، وكان له بعض الرقيق، الذين كانت لهم خبرة بهذه الصناعة فكان يشتري القز ويعطيهم اياه لنسجه(٦٦). وكان لرجل من بني مخزوم غلام في مكة، ينسج بعض المنسوجات في بيته، وكان يستعمل آلة الحف في صناعة النسيج(٦٧). كما يبدو أن بعض العرب زاول هذه الصناعة اذ يستفاد من شعر عبيد بن شريه، الذي أورده في مقام الافتخار بأبناء قحطان أمام معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه)، أن بعض الأفراد من قبيلة بني نُمير، والتي كانت تقطن نجدا، قد زاولت حياكة البرود(٦٨).

وقد استلزمت صناعة النسيج نشاط صناعة صباغة الملابس، وكان الصباغون يقومون بهذا العمل في حوانيتهم لقاء أجور معينة، يدفعها صاحب الملابس وقد استخدم الصباغون الأصباغ المستخرجة من النباتات لصباغة الملابس والأقمشة فكانوا يستخدمون العُصفر لصبغ الأقمشة التي يرغب أصحابها أن تكون صفراء فيروي ابن سعد أن عروة بن الزبير كان يعصفر الملحفة عند الصباغين بدينار(٦٩).

كما استخدم الصباغون الزعفران لصباغة الملابس، فكان القاسم بن محمد ابن أبي بكر يلبس رداء سابريا مصبوغا بشيء من الزعفران(٧٠)، وكان الحسين بن علي بن أبي طالب يلبس إزارا مصبوغا بزعفران(٧١)، وكان عبد الله بن عمر

يلبس المصبوغ بالمشق والمصبوغ بالزعفران(٧٢)، وكانت زوجة سالم بن عبدالله، أم كلثوم، تلبس ثيابا معصفرة(٧٣)، كما كانوا يصبغون الملابس باللون الأحمر(٧٤)، ومن الألوان الأخرى التي كان الصباغون يستعملونها، اللون الأخضر والأسود(٧٥). كما زاول بعض السكان صباغة ملابسهم وملابس أولادهم في بيوتهم دون الحاجة الى اعطائها للصباغين، وكانوا يستخدمون في ذلك العصفر أيضا(٧٦).

أما النجارة فهي من الصناعات التي كانت لها مكانة طيبة، فكان النجارون يصنعون الأثاث المنزلي كالمناضد والكراسي والأبواب والأطباق والأقداح وغيرها. وكان للنجارين مكان خاص بهم في مكة(٧٧)، وتذكر المصادر وجود النجارين في المدينة المنورة(٧٨). وكان هؤلاء النجارون يزاولون صناعاتهم في حوانيتهم، ويبيعون انتاجهم، كما كانوا يزاولون هذه الصناعة في بيوتهم، فيروي أبو نعيم أن أحد الموالي من الفرس كان يصنع الأقداح في منزله في المدينة المنورة(٧٩). وكان النجارون أحيانا يستأجرون للعمل في بيوت الأثرياء، الذين يشترون لهم الخشب من السوق ويأمرونهم بعمل مايريدون(٨٠).

وكانت تصنع أدوات القتال، كالرماح والسهام والنبال والأقواس(٨١)، من الأخشاب والأشجار التي كانت تنبت في نجد والحجاز، فيروي الهجري، أن الأقواس كانت تعمل عند قبيلة مزينه وبلحارث من شجر التألب(٨٢)، كما تعمل الأقواس أيضا من شجر الشوحط والنشم(٨٣). وكان لسهام بلاد في اليمامة وسهام يثرب في الحجاز شهرة خاصة في الجاهلية(٨٤)، ويبدو أن صناعة أدوات القتال تلك استمرت في العصر الأموي، بدليل ذكر النبال اليثربية التي اشتهرت في هذا العصر مما جعل الحجاج يأمرون بتجهيز الجند منها(٨٥) وكانت السهام تصنع من شجر الرمان فيذكر الأصفهاني أن الشاعر العرجي كان يبري الأسهم الكثيرة من شجر الرمان في حائطه بالعرج في الطائف(٨٦)، كما كان الشاعر نصيب يجيد بري الأقواس وتثقيفها(٨٧). ويذكر صاحب ترتيب المدارك أن أنس بن ماللك كان يصنع النبال(٨٨)، أما كثير عزة

فكان يجيد بري السهام(٨٩).

ولما كانت بعض أقاليم نجد والحجاز زراعية، لذلك ربما قامت بعض الصناعات المعتمدة على الانتاج الزراعي، الا أن المصادر لا توضح ذلك. ولكن يبدو أنه كانت تعمل الأقفاص من جريد النخل، وكذلك الحصر والقفاف والمكاتل والأطباق من الخوص(٩٠). كما كانت تصنع الخيام من الجريد والخوص(٩١)، واستفاد السكان من الأخشاب والجريد في عمل أسقف المساجد والمنازل، وكذلك الأبواب والنوافذ(٩٢).

وتعتبر صناعة الورق من الصناعات التي كانت موجودة في الحجاز في العصر الأموي، فكان يصنع من الأبريسم والقطن والقنب، فيذكر الشهاب المرجاني «شيوع صنعة الكاغد وتوفيرها واتخاذها من الأبريسم والقطن والقنب اخترع يوسف بن عمرو المكي اتخاذ الكاغد من القطن في حدود ثمانية وثمانين من الهجرة بالحجاز»(٩٣)، ويبدو أن هذه الصناعة لم تكن على مستوى جيد، بدليل استيراد القراطيس من مصر للكتابات التي تتطلبها أعمال الدولة في الحجاز في عهد عمر بن عبد العزيز(٩٤).

ومن الصناعات الأخرى صناعة الغالية، وهي نوع من الطيب يركب من المسك والعنبر والعود والدهن. وأول من عملها في الحجاز عبد الله بن جعفر، فلما طيب معاوية بن أبي سفيان منها سماها الغالية، بعد أن سأله عنها وعن صناعتها(٩٥).

أما نقش الحجارة للاستفادة منه في صناعة البناء، فكان موجودا في مكة والمدينة، فيذكر السمهودي أنه كان لبني حرام في المدينة غلام رومي ينقل الحجارة وينقشها(٩٦). كما ذكر الأصفهاني أن سعيدا الهدلي كان ينقش الحجارة التي يقطعها من جبل أبي قبيس في مكة، كما كان يعمل البرم من حجارة الجبل(٩٧).

الهوامش والتعليقات

(١) الحربي، المناسك (بيروت: ١٣٨٩هـ)، ص ٣٣٣، الأصفهاني بلاد العرب، (الرياض: ١٣٨٨هـ)، ص ٤٠٣، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (طبعة دار المعارف)، جـ٧، ص ٣٤٨.

(٢) الحربي، المناسك، ص ٣٣٥.

(٣) الأصفهاني، بلاد العرب، ص ٤٠٣، حاشية (١)، البكري، معجم مااستعجم (القاهرة: ١٩٤٥)، ويسمى معدن بني سليم الآن مهد الذهب، ولقد سار العمل في استغلال هذا المعدن في العصر الحديث، لكنه تبين أخيرا أن انتاجه ضئيل من الذهب بدرجة صارت لاتفي بما يصرف في سبيل استثماره من نفقات، ولهذا توقف العمل فيه منذ بضع سنوات، وتكونت عليه بلدة عرفت باسم المهد. انظر حمد الجاسر، المعادن القديمة في بلاد العرب، الرياض: ١٣٨٨هـ جـ١٠، جـ١١، ص ٩٢٦.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٧، ص ٣٤٨، الأصفهاني، الأغاني، جـ٢٣، (طبعة الهيئة المصرية العامة)، ص ٢٢٧ — ٢٢٨.

(٥) مالك، المدونة، (القاهرة: ١٩٢٣)، جـ٢، ص ٢٨٩، أبو عبيد، الأموال، (القاهرة: ١٣٩٦هـ) ص٤٢٣. البلاذري، فتوح البلدان (بيروت: ١٩٥٧) ص ٢٢، البكري، معجم مااستعجم جـ٣، ص ١٠٤٧، ١٠٥١. والقبلية، هي السلسلة الجبلية الممتدة من منتصف الطريق بين المسيجيد وبين المدينة المنورة من الجنوب الى طرف جبل بواط من الشمال، وهذه الناحية كانت تعرف باسم القبلية لاقبال كثير من أوديتها الى جهة القبلة حتى تجتمع بأودية المدينة ولاتزال آثار التعدين في هذه المنطقة بارزة للعيان الى الآن انظر: حمد الجاسر، المعادن القديمة في بلاد العرب ص ٩٧٩.

(٦) أبو عبيد، الأموال، ص ٥٢٣ — ٥٢٤، البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٢.

(٧) أبو عبيد، المصدر السابق، ص ٤٢٣، مالك، المدونة، جـ٢، ص ٢٨٩، محمد كرد علي، الادارة الاسلامية في عز العرب، القاهرة: ١٩٣٤، ص ١٠١.

(٨) البكري، معجم ما استعجم، جـ٣، ص ٨٧٥، السمهودي، وفاء الوفاء، بيروت: ١٣٩٣هـ، جـ٣ ص ١١٠٥ وحليت جبل اسود، بعيد مابين الطرفين، كثير معادن التبر، البكري، المصدر السابق، ص ٨٧٥.

(٩) نفس المصدر، ص ٨٧٥.

(١٠) نفس المصدر، ص ١٠٢١.

(١١) الأصفهاني، بلاد العرب، ص ١٥٩، الهمداني، صفة جزيرة العرب، الرياض: ١٣٩٤هـ، ص ٢٩٩ والأحسن قرية لبني كلاب في اليمامة، انظر الأصفهاني، المصدر السابق، ص ١٥٩.

(١٢) الهمداني، المصدر السابق، ص ٢٩٩. وتقع كل هذه المعادن في اليمامة انظر: نفس المصدر، والصفحة.

(١٣) نفس المصدر، ص ٢٩٩.

(١٤) البكري، معجم ما استعجم، جـ٣ ص ٨٦٤. ويقع ابرق خترب بالقرب من حمى ضرية. انظر: نفس المصدر ونفس الصفحة.

(١٥) ياقوت، معجم البلدان، (طبعة لايبزج)، جـ٢، ص ٧٩٠، ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن، ١٩٦٧م، ص ٣٣، السمهودي، وفاء الوفاء، جـ٤، ص ١٢١٨.

(١٦) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٩٣، ٣٠١.

(١٧) الأزرقي، أخبار مكة (غتنقة ١٢٧٥هـ) ص ٤٧٦، ابن بكار، جمهرة نسب قريش (القاهرة: ١٣٨١هـ، جـ١، ص ٣٧٢، الأصفهاني، بلاد العرب، ص ٣٠.

(١٨) الأزدي، تاريخ الموصل (القاهرة ١٣٨٧هـ) ص ٤٩، العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، بيروت: ١٩٦٩، ص ٢٤٧.

(١٩) الكتاني، التراتيب الادارية، جـ٢، ص ٧٥. ولقد رجعت الى كتب الصحاح الستة فلم أعثر على هذا الحديث.

(٢٠) ابن منظور، لسان العرب (القاهرة: ١٣٠٧هـ)، جـ٥، ص ٢٤٢.
(٢١) نفس المصدر، ص ٢٤٢.
(٢٢) ابن سعد، الطبقات، (طبعة ليدن)، جـ٦، ص ١٨٥، وانظر: العلي، المرجع السابق، ص ٢٤٧.
(٢٣) الأصفهاني، بلاد العرب، ص ٣٠.
(٢٤) ابن بكار، جمهرة نسب قريش، جـ١، ص ٣٧٢، الأزرقي، أخبار مكة ص ٤٧٦.
(٢٥) الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٤٩.
(٢٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص ٤٨١.
(٢٧) السمهودي، وفاء الوفاء، جـ٤، ص ١٢٣٠، العصامي، سمط النجوم العوالي، القاهرة: ١٣٨٠هـ، جـ٣، ص ٩٢.

(٢٨) مالك، المدونة، جـ١١، ص ٣٩١، ٤٩١.
(٢٩) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص ٣٦٠.
(٣٠) مالك، الموطأ، (القاهرة: ١٣٨٧هـ) ص ١١٦، المدونة، جـ١١، ص ٣٩٢، ابن سعد، المصدر السابق، ص ١٨٩، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٥، ص ٤٥٢، ٤٦٣، الأصفهاني، الأغاني، جـ١٧، ص ٤٥، ٤٦.

(٣١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، حيدر اباد: ١٣٥٥هـ، جـ٢ ص ٦١.
(٣٢) نفس المصدر، ص ٢٦٠.
(٣٣) نفس المصدر، ص ٢٦٠، الزبير بن بكار، جمهرة نسب قريش، ٤٨٦، الرشيد بن الزبير، الذخائر والتحف، (الكويت ١٩٥٩م) ص ١١

(٣٤) ابن سعد، المصدر السابق، جـ٥، ص ٣٦٦، أحمد فاروق، دباغة الجلود وتجارتها عند العرب في مستهل الاسلام، مجلة العرب، جـ٨، جـ٩، الرياض، ص ٥٣٩ — ٥٤٠.

(٣٥) ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص ١٢٣، ابن المجاور، تاريخ المستبصر ليدن: ١٩٥١، ص ٣٢.
(٣٦) ياقوت، المصدر السابق، ص ١٢٣.
(٣٧) ابن المجاور، المصدر السابق، ص ٣٢.
(٣٨) لقد أورد ابن سيدة عددا من الآلات التي كانت تستخدم في أغراض شتى للدباغة كالمنحاز والمبقر والمسرد والمقراض والمخصف. انظر المخصص، جـ٤، ص ١٠٠ — ١١٥. كذلك انظر: أحمد فاروق، دباغة الجلود وتجارتها عند العرب في مستهل الاسلام ص ٥٤٥.

(٣٩) الادريسي، نزهة المشتاق، تحقيق د. ابراهيم شوكت، مجلة المجمع العلمي، العراق، العدد، ٢١ ١٩٧١، ص ٢٦.

(٤٠) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ٢٥.
(٤١) ابن سعد، الطبقات، جـ٨، ص ٧٣، ٢٦.
(٤٢) نفس المصدر، جـ٥، ص ٣٦٦.
(٤٣) ابن المجاور، المصدر السابق، ص ١٣.
(٤٤) نفس المصدر، ص ٢٥.
(٤٥) الأزرقي، أخبار مكة، ص ٤٧٤.
(٤٦) الأزرقي، أخبار مكة، ص ٤٦٦، الأصفهاني، الأغاني، (طبعة دار الكتب)، جـ٣، ص ٣٤٦.
(٤٧) المصعب الزبيري، نسب قريش، القاهرة: ١٩٥٣م، ص ١٧٨، ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص ٢٣٠.

(٤٨) ابن سعد، المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٤٩) ابن بكار، جمهرة نسب قريش، جـ١، ص ٣٧٠، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ١، ص ٤٤٠، القاهرة: ١٩٦٦م، جـ١، ص ٤٤٠، الأصفهاني، الأغاني، جـ٨، ص ١٥٢ — ١٥٣، أحمد فاروق، دباغة الجلود، ص ٥٥٤.

(٥٠) ابن بكار، المصدر السابق، ص ٣٧٠.
(٥١) مالك، المدونة، جـ١، ص ٧٥.
(٥٢) البغدادي، خزانة الأدب، القاهرة: ١٣٤٧هـ، جـ١ ص ١٠٦.
(٥٣) ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٩٢٢، مقبل الذكير، تاريخ نجد، معهد المخطوطات جامعة الدول العربية، رقم ١٤٦٤ تاريخ، ورقة ١٧٠.

(٥٤) حميد بن ثور، الديوان، القاهرة: ١٣٧١هـ، ص ٨٢، ياقوت معجم البلدان، جـ١، ص ٩٢٢، مقبل الذكير، المصدر السابق، ورقة ١٧٠أ.

(٥٥) نفس المصدر، ورقة ١٧٠ ب.
(٥٦) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص ٤٠٤.

(٥٧) ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص ٥٨١، ابن بليهد، صحيح الأخبار، القاهرة: ١٣٩٢هـ، جـ٢، ص ١٣٩. ومر الظهران يعرف الآن باسم وادي فاطمة، وهو أكبر وديان مكة سعة، وأوفرها ماء، وأكثرها قرى وسكانا. انظر: مهدى الصحاف، موضع مدينة مكة المكرمة وبيئتها الجغرافية، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد، العدد ١٤، المجلد الثاني، بغداد ١٩٧٠، ص ٩٠٤.

(٥٨) مالك، المدونة، جـ٥، ص ٣٨٠، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، جـ١، ص ٤٣٩، الأصفهاني، الأغاني، جـ١٨، ص ١١.

(٥٩) مالك، المدونة، جـ٩، ص ٢٤، ١٣١.

(٦٠) الأصفهاني، الأغاني، جـ٥، ص ١١٤. الحف المنسج، والحفة المنوال، وهو الخشبة التي يلف عليها الحائك الثوب. وقيل هي التي يضرب بها الحائك. انظر عن الحف: ابن منظور، لسان العرب، جـ١٠ ص ٣٩٦.

(٦١) مقبل الذكير، تاريخ نجد، ورقة ١٧٠ ب.
(٦٢) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص ٣٢٤.
(٦٣) ابن كثير، البداية والنهاية، (الرياض: ١٩٦٦)، جـ٨، ص ١١٤.
(٦٤) الأصفهاني، الأغاني، جـ١، ص ٧٨.
(٦٥) نفس المصدر، ص ٦٥.
(٦٦) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص ٣٢٤.
(٦٧) الأصفهاني، المصدر السابق، جـ٥، ص ١١٤.
(٦٨) عبيد بن شريه، أخبار عبيد بن شريه، ص ٧٥. يقول عبيد بن شريه:

فمنهم رعـــاء لأموالنـــا ... عليهم خراج لنا مغتصب
نميرا جعلت لحوك البرود ... وحد النعال وصنع اليلب
خزيمة كان عليها الدباغ ... وقد السيور ونقل السلب

نقلا عن: أحمد فاروق، دباغة الجلود، ص ٥٤٦.

(٦٩) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص ١٣٤.
(٧٠) نفس المصدر، ص ١٤٠.
(٧١) البلاذري، أنساب الأشراف، (القدس: ١٩٣٨)، جـ٤، قسم ٢، ص ٢٢.
(٧٢) ابن سعد، المصدر السابق، جـ٤ قسم ١، ص ١٢٧.
(٧٣) نفس المصدر، جـ٨ ص ٣٦٤.

(٧٤) نفس المصدر، جـ٥، ص ١٦١، أبو عبيدة، نقائض جرير والفرزدق، ليدن: ١٩٠٥م، جـ٢، ص ٥٢٦.
(٧٥) مالك، المدونة، جـ١١، ص ٣٩٢، ابن قتيبة، الامامة والسياسة، القاهرة: ١٣٨٧هـ، جـ١، ص ١٨٨.
(٧٦) أبو نعيم، حلية الأولياء، (القاهرة: ١٩٣٢)، جـ٧، ص ٣١٩.
(٧٧) الأزرقي، أخبار مكة، ص ٤٥٥، الجاحظ، المحاسن والأضداد، القاهرة: ١٩٢٤م ص ١١٩.
(٧٨) الأصفهاني، الأغاني، جـ١٦، ص ١٤٩، جـ١٩، ص ١٦٥. أبو نعيم، حلية الأولياء، جـ٣، ص ١٥٢. ابن عبد ربه، العقد الفريد (القاهرة)، جـ٦، ص ٤٣٣. القيرواني، جمع الجواهر في المُلح والنوادر، القاهرة: ١٩٥٣م، ص ٦٧.
(٧٩) أبو نعيم، المصدر السابق، ص ١٥٢.
(٨٠) الأصفهاني، الأغاني، جـ١٦، ص ١٤٩.
(٨١) ابن منظور، لسان العرب، جـ٥، ص ٢٤٢ – ٢٤٣.
(٨٢) أبو علي الهجري، التعليقات والنوادر، (دار الكتب: ٣٤٢ لغويات) النسخة الهندية، ص ٤٧٩. والتألب شجر تتخذ منه القسي العربية. وقال الأصمعي من أشجار الجبال الشوحط والتألب. انظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ١، ص ٢٩٩.
(٨٣) عرام السلمي، أسماء جبال تهامة (القاهرة: ١٣٩٤)، ص ٤٠٣، ٤٠٨. الشوحط شجر له قضبان كثيرة تسمو من أصل واحد، وينبت هذا الشجر في جبال السروات. وتتخذ منه القسي، وله ثمر يشبه العنب يؤكل. انظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ١٢، ص ٢٠٠ – ٢٠١، أما النشم فهو شجر جبلي تتخذ منه القسي، انظر: ابن منظور، المصدر السابق، جـ١٦، ص ٥٤.
(٨٤) البكري، معجم ما استعجم، جـ١، ص ٢٧١، ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٧٠٧.
(٨٥) البلاذري، أنساب الأشراف (طبعة اهلورت)، ص ٢٧٣.
(٨٦) الأصفهاني، الأغاني، جـ١، ص ٤٠٣.
(٨٧) نفس المصدر، ص ٣٣٣.
(٨٨) عياض، ترتيب المدارك، بيروت: ١٣٨٧هـ، جـ١، ص ١٠٨.
(٨٩) الأصفهاني، المصدر السابق، ج٩، ص ٢٩.
(٩٠) الأصفهاني، الأغاني، جـ١٩، ص ١٥٠. لقد كان أهل المدينة يعملون القفف والمكاتل من الخوص في صدر الاسلام. انظر: الخزاعي، الدلالات السمعية، دار الكتب المصرية، رقم ٦٣٨ تاريخ تيمور، ص ٦٦٩.
(٩١) الأزرقي، أخبار مكة، ص ٤٧٤.
(٩٢) السمهودي، وفاء الوفاء، جـ٢، ص ٢٠٤، ٧٥٣.
(٩٣) الشهاب المرجاني، وفيات الأسلاف، ص ٣٣٧. نقلا عن: الكتاني، التراتيب الادارية (بيروت)، جـ٢، ص ٢٤٢.
(٩٤) البلاذري، أنساب الأشراف، مخطوطة دار الكتب المصرية، رقم ١١٠٣ تاريخ، جـ٧، ص ١٥٨.
(٩٥) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ليدن: ١٨٩١، ص ١٩٨.
(٩٦) السمهودي، المصدر السابق، ص ٢٠٤.
(٩٧) الأصفهاني، الأغاني، جـ٥، ص ٦٥. والبرم نوع من الصخور الهشة اللينة، تصنع منه البرم – جمع برمة – وهي أواني الطبخ كالقدور. وكانت هذه الأواني الى عهد قريب، ويستغنى بها عن الأواني المصنوعة من الحديد في بعض جهات الجزيرة العربية انظر: حمد الجاسر، المعادن القديمة في بلاد العرب، ص ٩٩٨.



البحارُ

في كُتبِ التراثِ العربيِ

يزخر التراث العربي الذي آل الينا من القرون الوسطى بالكثير من أخبار البحار والأسفار البحرية التي قام بها الملاحون والتجار العرب في المحيط الهندي وأرخبيل الملايو وفي بحر الصين أو على السواحل الافريقية. وبلغ الاهتمام بالبحار مداه في القرنين الثالث والرابع الهجري (التاسع والعاشر الميلادي) برواج التجارة البحرية مع الهند والصين. وفي ذلك الوقت كانت مواني البصرة وسيراف ومسقط تعج بالربابنة وأصحاب السفن من مختلف الجنسيات، وكان للربابنة والتجار العرب والفرس المسلمين في كانتون بالصين جالية قوية لها مساجدها وتقاليدها وتخضع في معاملاتها للقضاء الاسلامي وذلك باذن خاص من امبراطور الصين. كما كانت ديار التجار العرب عامرة في جزيرة سرنديب، واستوطنت أسر حضرمية جزيرة جاوة (وكانت تعرف بجزيرة الزابج، ناهيك بزنزبار التي حكمها سلاطين من المهرة والشحر حتى عهد قريب. ولا تزال الدنانير والدراهم العربية يعثر عليها الى اليوم في أماكن متفرقة من الصين في أقاصي الأرض من الشرق الى السويد وجزر بحر البلطيق في أقصى الشمال لأوربا، الأمر الذي يعكس نشاط التجارة العربية في رقعة متسعة من العالم القديم.

وسنعرض في هذا المقال لمحات عن البحار وأخبارها مستقاة من كتب التراث العربي القديم التي أتيح لنا الاطلاع عليها حتى يقف القاريء على مقدار مساهمة العرب الأوائل في تقدم العلوم. وجدير بالذكر أن تاريخ الملاحة العربية لم ينل حظا من الدراسة مثلما نالت علوم أخرى.

ويمكننا أن نقسم المصادر التي تعرضت لأخبار البحار والملاحة في التراث العربي الى أربعة أقسام رئيسية، ناهيك بما ورد عن البحار والسفن من أوصاف في الشعر العربي القديم سواء من العصر الجاهلي أو من العصر العباسي وهذا

سوف نتناوله في هذا العرض. أما الأقسام الرئيسية للمصادر فهي: كتب الرحلات والقصص البحري، كتب البلدان، كتب العجائب، ثم الأراجيز والمرشدات الملاحية المتخصصة. وسنتناول في هذا البحث القسم الأول من هذه المصادر وهو المتعلق بالأسفار والقصص البحري.

وصف الطريق الى الهند والصين :

وأقدم هذه الكتب المخطوط المعروف باسم «رحلة التاجر سليمان» ويرجع تاريخ تأليفه الى عام ٢٣٧هـ (٨٥١م). وفيه وصف ممتع للطريق الملاحي بين سيراف وكانتون ومقارنة بين الأحوال المعيشية لأهل الهند والصين. وقد عنى بدراسة هذا المخطوط المستشرقون الفرنسيون من أمثال رينو Renault وفرّان Ferrand وسوفاجيه Sauvaget.

وتصف الرحلة المراحل الملاحية التي كانت تقطعها السفن العربية في طريقها الى الهند والصين ويمكن اجمالها في أربع مراحل تستغرق كل واحدة منها شهرا قمريا. وتبدأ الرحلة من سيراف أو مسقط الى ميناء كولم ملي (وهي ميناء كويلم الآن في جنوب الملبار بالهند – أنظر شكل ١) ثم عبر المضيق بين الهند وسيلان الى خليج البنغال (وكان يسمى بحر هرقند) فتحط السفن على جزيرة فيه تسمى لنجبالوس (احدى جزر نيكوبار). ومن ثم تخطف السفن الى كله بار على الساحل الغربي للملايو ثم الى جزيرة تيومن الواقعة الى الجنوب الغربي من ملقا ومنها الى سايجون فجزيرة هاينان (وهي على أبواب الصين) ثم الى ميناء خانفو (كانتون الحالية) بالصين. ومن السفن العربية ماتوغل لأبعد من ذلك على سواحل كوريا أو حتى الى اليابان. ومن المؤرخين من يرى جزر «الواق واق» المذكورة في رحلات السندباد هي احدى جزر اليابان. وفي ذلك يقول ابن الفقيه الهمذاني (٩٠٣م) «في كتاب البلدان»: «واق واق الصين هو بخلاف وقواق اليمن(١). وفي موضع آخر يقول «وخلف الصين أمة يقال لها واق واق، ووراء واق واق من الأمم مالا يحصى إلا الله».

وبعد التاجر سليمان بنحو عشرين عاما قام بنفس الرحلة ربان آخر هو ابن وهب وقد سافر الى الصين في ابان ثورة الزنج ببغداد (٨٧٠م) فوصل الى ميناء خمدان أو سينانفو الحديثة.

وفي القرن العاشر الميلادي دون أبو زيد حسن السيرافي من أهل البصرة قصص سليمان وابن وهب وهو المخطوط الذي بين أيدينا الآن ويعرف باسم مخطوط باريس وقد نشره فران عام ١٩٢٢م.

عجـائب الهنـد :

والى تلك الفترة تنتمي أيضا مجموعة قصص أخرى تعرف باسم «عجائب الهند» مكتوبة بأسلوب أكثر إثارة وتشويقا، وقد جمعها ربان يدعى بزرك بن شهريار الرام هرمزي بين سنوات ٩٠٠ – ٩٥٠م وتوجد نسخة محلاة برسوم ملونة جميلة من هذا المخطوط بدار الكتب بالقاهرة اتيح لنا الاطلاع عليها عام ١٩٥٦م. وهذه الحكايات تصف أهوال الملاحة في عرض المحيط ومغامرات الملاحين والتجار العرب في ذلك الوقت. وإليك فقرات من احدى قصص «عجائب الهند» لتقف على أسلوب الكتابة في مجتمع البحارة في ذلك الوقت.

«.. فلما طال عليهم الليل وهم يجرون في قبضة الهلاك وقد حكم عليهم الريح العاصف والبحار الزاخرة والأمواج الهائلة، ومركبهم ينط ويئن، ويتقعقع ويتتعتع – توادعوا، وصلى كل منهم الى جهة على قدر معبوده، لأنهم كانوا شيعا من أهل الصين والهند والعجم والجزاير، واستسلموا للموت، وجروا كذلك يومين وليلتين لا يفرقون فيها بين الليل والنهار..

فلما كانت الليلة الثالثة وانتصف الليل، رأوا بين أيديهم نارا عظيمة قد أضاء أفقها فخافوا خوفا شديدا وفزعوا الى ربانهم وقالوا له: ياربان : ماترى هذه النيران الهائلة التي ملأت الأفق ونحن نجرى الى سمتها وقد أحاطت بالأفق،

والغرق أحب الينا من الحريق. فبحق معبودك الا قلبت بنا المركب في هذه اللجة والظلمة، حتى لا يرى أحد منا الآخر ولا يدري ما كانت ميتته ولا يترع لوعة صاحبه، وأنت في حل وبل مما يجرى علينا! فقد متنا في هذه الأيام والليالي ألف ألف ميتة فميتة واحدة أروح. فقال لهم: اعلموا أنه قد يجرى على المسافرين والتجار أهوال هذا أسهلها وأرحمها. ونحن معشر ربابنة السفن لا نطلعها إلا وآجالنا وأعمارنا فيها، فنعيش ونموت قليلا منها ونموت بعطبها، فاصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر الذي يصرفهم كيف يشاء!».

والحق أنها لوحة رائعة تصور ماكانت عليه الملاحة الشراعية في عرض المحيط في ذلك الوقت من أخطار وأهوال، وماكان عليه الربابنة العرب من رباطة جأش وثقة.

ومثل هذه القصص كانت تعكس أيضا أحوال البحار والحياة على ظهر المركب وأخبار التجار وطريقة معاملاتهم، ووظائف البحارة على ظهر المركب وأنواع التجارة وطريقة تحميل السفينة وتفريغها ومن كل هذه المسائل والخبرات تجمعت المباديء التي استنبطناها من دراساتنا لأعمال الملاح العرب أحمد بن ماجد تحت عنوان «دستور الملاحة العربية» فيما بعد(٢).

قصص البصرة والأدب الشعبي :

ولسوف يجد القاريء كذلك تشابها كبيرا في الأسلوب والرواية والحبك بين هذه القصص ومجموعة القصص المعروفة بقصص السندباد في ألف ليلة وليلة والتي كتبت في عصر متأخر ولم تكن في الواقع سوى حكايات البحارة والربابنة والتجار التي كانت تروى في سيراف والبصرة في القرنين التاسع والعاشر الميلادي وان كان قد أضيف اليها بعد الكثير من الكلمات المبتذلة بأسلوب ركيك.

كما انتقلت قصص البصرة وسيراف آنفة الذكر أيضا في وقت متقدم الى

الآداب الأوربية الشعبية وذلك بانتشار تجارة العرب غربا وبقيام المراكز الحضارية في الأندلس وحضور الطلاب من بلدان أوربا المختلفة لينهلوا من منابع العلم العربي في جامعات قرطبة وبرشلونة وغرناطة.

ومن ذلك القصص الأوربي البحري المعروف تحت اسم اسطورة القديس برندان الايرلندي من القرن الحادي عشر الميلادي. وقد قام بدراسة موسعة عليها المستشرق الهولندي الكبير دي جوية(٣) في أواخر القرن الماضي. ويوجد شبه كبير بين هذه الحكايات وقصص السندباد المعروفة. وتحكي احدى قصص القديس برندان أن مركبه حط مرة على جزيرة وصعد اليها ليقضي الليل وفي الصباح تحركت الجزيرة التي لم تكن سوى ظهرا لحوت ضخم(٤).

أخبار الملاحة في بحر الظلمات:

لم تكن سواحل المغرب كما يعتقد الكثيرون نهاية المطاف أمام العرب المتحفزين للمغامرة والكشف. ولم يرهبهم الخوض في بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي) مثلما أرهب غيرهم من الأمم في القرون الوسطى، إذ تأتينا أخبار عن محاولات جادة للملاحة غربا في هذا المحيط. ويروي المسعودي في كتابه المعروف بمروج الذهب ومعادن الجوهر الذي انتهى من تأليفه في عام ٣٤٥ هجرية أنباء «من غرر وخاطر بنفسه ومن نجا منهم ومن تلف وماشاهدوا منه ومارأوه» ويروي قصة «رجل من أهل الأندلس يقال له خشخاش وكان من فتيان قرطبة وأحداثهم فجمع جماعة من أحداثها وركب بهم في مركب استعداها في هذا البحر المحيط (بحر الظلمات) فغاب فيه فترة ثم انثنى بغنائم واسعة وخبره مشهور عند أهل الأندلس».

ويروي الشريف الادريسي (القرن ١٢م) هو الآخر رحلة «الاخوة المغررين في بحر الظلمات، وهم ثمانية شبان أبناء عمومة من لشبونة أبحروا مع الريح الشرقية مدة أحد عشر يوما الى موضع صخري مخيف شديد الظلمة ثم اتجهوا جنوبا

مدة اثنى عشر يوما الى أن بلغوا جزيرة الغنم، فأبصروا قطعاناً هائلة منها ثم توغلوا اثنى عشر يوما أخرى في نفس الاتجاه حتى بلغوا جزيرة أخرى فأسرهم أهلها وكانوا ذوي بشرة حمراء وشعرهم قليل ناعم وهم طوال القامة، وعندما بدأ هبوب الريح الغربية أمر سيد الجزيرة بترحيلهم معصوبي الأعين الى القارة التي بلغوها بعد ابحار ثلاثة أيام بلياليها. وهناك علموا من البربر أنهم بجنوب مراكش على مسيرة شهرين من بلدهم» ويرجع وصف هذه الرحلة الى القرن العاشر الميلادي، ويميل بعض المفسرين الى القول بأن الجزر التي كانوا عليها هي جزر الكناري المعروفة، ويذهب آخرون الى حد القول بأن الأخوة المغررين ومن حذا حذوهم من العرب قد سبقوا كولمبس الى اكتشاف أمريكا. ومن أنصار هذا الرأي الأستاذ الأمريكي باري فيل في كتاب له بعنوان «أمريكا قبل عصر كولمبس»(٥) وهو يعتمد على نقوش متفرقة وجدت على الصخور فى ولايات أمريكية يرى الدكتور فيل أن بينها وبين الكتابة العربية وجه شبه كبير وأنه استطاع تمييز الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) من بين هذه النقوش!.

ومهما يكن من أمر فان بحر الظلمات لم يكن مظلما أمام عرب الأندلس وأن ثمة محاولات جادة قاموا بها، قد مهدت الطريق أمام كولمبس في رحلته المشهورة.

رحلة ابن جبير :

وهناك غير ما تقدم ذكره لون آخر من كتب الرحلات البحرية في التراث العربي، أكثر موضوعية ولا يميل الى الاثارة. ومن ذلك رحلة ابن جبير البلنسي الأندلسي (١١٣٥ – ١٢١٧م) التي كتبها على شكل يوميات وتمتاز بأسلوب فني راقٍ. وقد قام ابن جبير برحلته هذه من الأندلس الى مصر على مركب صليبي وفي الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام تحت قبضة الصليبيين، ثم أبحر من عيذاب على البحر الأحمر في مصر الى جدة للحج. وكان ابن جبير دقيق

الملاحظة وكتابه يحوي بين دفتيه مادة طيبة عن التجارة واجراءات الجمارك وأحوال البحر وسفّارته وعن أنواع السفن وطريقة صيانتها ولسوء حظه لم تكن الأحوال الجوية مواتية عندما عبر البحر الأحمر من عيذاب الى جدة في شهر يوليو من عام ١١٨٣م (أي من ثمانية قرون) اذ هبت أعاصير أطاحت بالجلبة (كانت مراكب البحر الأحمر تسمى الجلاب ومفردها جلبة) التي كان عليها الحجاج عن مجراها ولم يتمكن ربانها الحاذق من الرسو في ميناء جدة لكثرة الشعب المرجانية على مدخله، فاضطر الى الرسو في شرم أبحر(٦). وفي ذلك يقول ابن جبير.

«وفي عشي يوم الأحد ثانيه (أي ثاني ربيع آخر) أرسينا بمرسى يعرف بأبحر وهو على بعض يوم من جدة وهو من أعجب المراسي وضعا وذلك أن خليجا من البحر يدخل الى البر، والبر مطبق، من كلتا حافتيه، فترسي الجلاب منه في قرارة مكنة هادئة. فلما كان سحر يوم الاثنين بعده أقلعنا منه على بركة الله تعالى بريح فاترة والله الميسر لا رب سواه. فلما جن الليل أرسينا على مقربة من جدة، وهي بمرأى العين منا. وحالت الريح صبيحة يوم الثلاثاء بعده بيننا وبين دخول مرساها. ودخول هذه المراسي صعب المرام بسبب كثرة الشعاب والتفافها. وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنواتية في التصرف بالجلبة أثناءها أمرا ضخما: يدخلونها على مضايق ويصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان السلس القياد، ويأتون في ذلك بعجب يضيق الوصف عنه. وفي ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر المذكور وهو السادس والعشرون من شهر يولية كان نزولنا بجدة حامدين الله عز وجل».

يالله! أي دقة في الأسلوب ودقة في الوصف وصفاء في القريحة أبدع من ذلك!.

تحفة النظار :

وبعد قرن ونصف قرن من ذلك الزمن يقوم الرحالة المغربي الطنجي ابن بطوطة برحلاته المشهورة (١٣٢٥ – ١٣٥٤م) في البحر الأبيض المتوسط والبحر

الأحمر وارخبيل الملايو وعلى جزر المحيط الهندي ويحاول الوصول الى مشارف الصين ويضمن ذلك كله كتابه المعروف باسمه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» الذي يعتبره النقاد «من أمتع كتب الرحلات في جميع العصور» وقد ترجم الى عديد من اللغات.

ويصف ابن بطوطة فيما يصف «الجلاب التي كانت تبنى في عيذاب، وهي مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدوسونه (أي الصناع) الى أن يتخيط (أي يصير أليافا أو خيوطا) ويفتلون منه أمراسا».

بيد أن ابن بطوطه – على النقيض من ابن جبير – لم يستطع التحرز من ذكر الأساطير في كتابه فهو يتكلم – على سبيل المثال – عن الجني الذي يظهر لسكان احدى جزر الملديف في أول الشهر العربي على شكل نار كبيرة في البحر، وقد استطعنا أن نعلل هذه الظاهرة بالاضاءة البيولوجية Bioluminescence وهي ظاهرة مميزة لبعض الكائنات البحرية التي تعيش في البحار الحارة(٧).

المراجـــع

أ ـــ بالعربيـــة :

- ابن بطوطة (شرف الدين أبو عبدالله محمد الطنجي) (١٣٠٣–١٣٧٧م) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأبصار – ترجمة وتحقيق دفريمري وسانجونتي – باريس ١٩٢٢م.

- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمـــد البلنسي) (١١٨٣–١١٨٥) – الرحلة، تحقيق وليم رايت – ليدن ١٩٠٧م.

- ابن الفقيه (الهمذاني) (٩٠٣م) – كتاب البلدان.
- الادريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس المعروف باسم الشريف الادريسي) (٤٩٣–٥٦٠ هـ) – كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق – ترجمة جوبير – باريس ١٨٢٦م وطبعة القاهرة.
- السيرافي (أبو زيد حسن) (٩٥٠م) – رحلة التاجر سليمان (نشرها فران) باريس ١٩٢٢م.
- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) (٣٤٥هـ) – مروج الذهب ومعادن الجوهر – تحقيق دي منيار – باريس ١٨٦١ – ١٨٧٧م.
- أنور عبد العليم – ١٩٦٧ – ابن ماجد الملاح – الكتاب رقم ٦٣ في سلسلة أعلام العرب – دار الكاتب العربي – القاهرة.
- بزرج بن شهريار الرام هرمزي (٩٥٠م) – كتاب عجائب الهند مخطوط القاهرة بدار الكتب المصرية.

ب – بالافرنجيـــة :

- Abdel Aleem, Anwar (1968): Concepts of Marine Biology among Arab writers ei the Middle Ages - Proceedings, First International Congress on History of Oceanography. p. 359 - 367 Monaco.
- De Goeje, M. (1890-1893): La Legende de St. Brandan. tome & II, Leiden.
- Fell, Bary (1979): America before the Age of Columbus., Newyork.
- Ferrand, G. (1922): Voyage de Marchand Sulayman en Inde et en Chine, Paris.
- Wright, William (1907): Glossary to the Voyage of Ibn Jabir. Leiden.

الهــوامش

(١) هي جزيرة مدغشقر واليمن هنا تعني الجنوب.

(٢) د. أنور عبد العليم: ابن ماجد الملاح – أعلام العرب – (الكتاب رقم ٦٣) دار الكاتب العربي – القاهرة ١٩٦٧.

(٣) انظر M. de Goeje (1890-1893): La Legende de St. Brandan, vol. 1&2. Leiden.

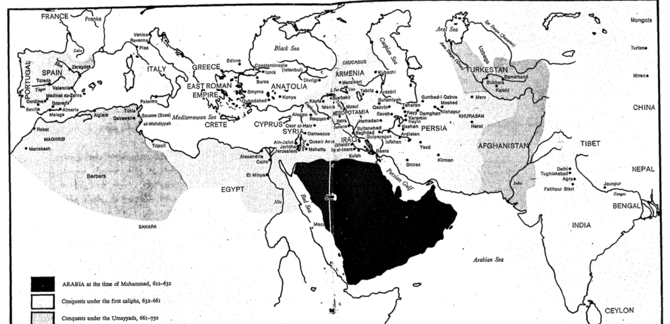
(٤) وفي هذا الصدد تجدر الاشارة أيضا الى التشابه الكبير بين قصة روبصون كروزو لمؤلفها ألن دي فو وقصة حي بن يقظان من الأدب الأندلسي القديم لابن طفيل وللمصادر العربية لجحيم دانتي وقد كتب في ذلك بتوسع المستشرق الأسباني المعروف خوان فرنيط.

(5) Barry Fell: America before the age of Columbus (1979).

(٦) شرم أُبحر هو لسان ضيق من البحر الأحمر داخل الأرض ويبعد عن جدة بنحو ٣٥ كيلومترا ويعتبر مصيف جدة. وقد ورد ذكر هذا المرفأ في رحلة ابن جبير بيد أن المستشرق الانجليزي وليام رايت الذي حقق رحلة ابن جبير لم يستطع الاستدلال على هذا الاسم واعتبره تصحيفا.

William Wright (1907) Glossary to the Voyage of Ibn Jabir. Leiden.

(٧) انظر : د. أنور عبد العليم عن ظواهر جديدة في علوم الأحياء البحرية وصفها الرحالة العرب في القرون الوسطى. بحث منشور في إصدارات المؤتمر الدولي الأول لتاريخ علوم البحار (صفحات ٣٥٩ – ٣٦٧) سنة ١٩٦٨. موناكو (باللغة الانجليزية).



الجُغرافيا الادارِيَة للدَّولة الاسلامية

الجغرافية الادارية للدولة الاسلامية
من الفتح العربى الى القرن الرابع الهجري

دكتور أمين محمـود عبد الله

بعد أن استتب الأمر للاسلام وتشكلت دولته الكبرى وجد العرب في الأقاليم المفتوحة نظاما اداريا متطورا ساهمت في تحسينه وتطويره أجيال متعاقبة سابقة خلال العصور اليونانية والرومانية والفارسية والبيزنطية بدافع من ضمان استغلال هذه الأقاليم استغلالا منظما لمصلحة الامبراطوريات الحاكمة. ولكي يستقيم الحكم الاسلامي في هذه البلاد اقتضى الأمر اعادة تقسيم المملكة الاسلامية الى عدة أقاليم أو ولايات لها حدودها المعلومة. وقد بينت هذه التقسيمات في أول الأمر على تلك الوحدات الادارية المستقرة التي أخذ بها العرب بعد أن أحدثوا فيها من التغيير ماتقتضيه النظم الاسلامية.

وكان التقسيم العربي الأول للدولة الاسلامية في أبسط صوره ووحداته تقسيما ماليا، الأساس الأول فيه هو تقدير الخراج. فالقرية أو الناحية – وهي النواة الصغرى في هذا التقسيم – تعتبر وحدة مالية خراجية قبل أي شيء آخر، ولها زمامها الخاص من الأرض الزراعية بحدود معروفة تفصلها عن أَزِمَّةَ القرى أو النواحي الأخرى.

ولما كان الغرض الاسمى من التقسيم الاداري العربي هو جباية الخراج وتقدير الضرائب على أسس عادلة تتفق مع الشريعة الاسلامية فان هذا الغرض ذاته

مادفع الولاة المتعاقبون في كل قطر من أقطار الاسلام الى اعادة مسح الأراضي الزراعية وموارد الثروة الأخرى في فترات مختلفة. وفي أعقاب كل مسح كان يعاد التقسيم المالي والاداري حسب ما ينشأ ويطرأ من متغيرات في أحوال الانتاج أو ملكية الأرض وتوزيعها أو النظام الاداري المتبع.

ولقد سجل أصحاب الخراج والجغرافيون العرب عددا من المصطلحات التي أطلقت على الوحدات الادارية الاقليمية، ومن بينها (الاقليم) و (العمل) و (المصر) و (الكورة) و (الاستان) و (الرستاق) و (الطسوج) و (المخلاف) و (الجند). وبيّن ياقوت الحموي في مقدمة معجمه الجغرافي (ج ١ ص٢٢ – ٢٤) مدلول معظم هذه المسميات:

فأما (الاقليم) فهو اصطلاح عربي، «وقد سمي بذلك لأنه مقلوم من الأرض أي مقطوع. والقلم في الأصل القطع، ومنه قلمت ظفري وقلامة الظفر، وبه القلم لأنه مقلوم أي مقطوع مرة بعد أخرى». وكان الاقليم يطلق على منطقة أو مساحة من الأرض تصغر أو تكبر باختلاف مفهومه عند العامة والخاصة، أو عند الشعوب المختلفة. وهكذا فان للاقليم طبقا لياقوت – أربعة مدلولات: الأول، وهو المفهوم الأصغر للاقليم، لأهل الأندلس خاصة، فانهم يسمون كل قرية كبيرة جامعة اقليما. والثاني وهو مفهوم العامة وجمهور الأمة، أي مايجري على ألسنة الناس دائما، فانهم يسمون كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى اقليما، على نحو خراسان والعراق والشام ومصر. وهذا – أيضا – هو مفهوم الاقليم الذي جرى عليه البلدانيون العرب أمثال ابن خرداذبة والبلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم. والثالث هو ما كان للفرس قديما ويعتمد عليه بعض الكتاب، فقد قسم الفرس ممالك (إيرانشهر) في سبع (كشورات) – أي أقاليم – وخطّوا حول كلمة مملكة دائرة وسموها (كشورا) أو (كشخرا) بمعنى اقليم. والرابع، وهو أوسع المفاهيم الأربعة للأقاليم، لأهل الرياضة والحكمة والتنجيم – أي الفلك – فالاقليم الفلكي عندهم يمتد بعرض الأرض من أقصى المشرق الى أقصى المغرب. وعدد الأقاليم الفلكية بسبعة، وهي التي

جرى العرف عليها منذ زمن بطليموس الجغرافي الاغريقي الاسكندري في القرن الثاني الميلادي، ومن بعده الكثير من الجغرافيين المسلمين في تقسيم العالم».

على أن المرجح أن كلمة «اقليم» محرفة عن الكلمة اليونانية Klima– بمعنى منطقة عرض– التي استخدمها العالم اليوناني الفلكي هيباركوس Hipparchus في القرن الثاني قبل الميلاد، حين ابتكر نظاما من الخطوط الموازية لخط الاستواء والتي تقسم سطح الأرض الى مناطق وفقا لطول النهار في كل منطقة وقت الانقلاب الصيفي. وقد أطلق على كل منطقة Klima وجمعها Klimata أي مناطق عرض، بحيث يختلف طول النهار في كل منطقة بمقدار نصف ساعة عن الأخرى. ولقد اشتقت كلمة Climate الانجليزية – بمعنى المناخ – من هذا الأصل الاغريقي (Rummey, p.3). وقد استخدم الرومان هذا الاصطلاح بعد اليونان ثم انتقل الى السريانيين ومنهم الى العرب، الأمر الذي أكده حمزة الأصفهاني عندما ذكر أن العرب استعارت اسم الاقليم عن السريانيين (ياقوت– ج ١ – ٢٥) وأكده أبو الفضل الهروي عندما عرّف الاقليم بأنه الميل، فكأنه يريد به الأماكن المائلة عن معدل النهار (البيروني – التفهيم ١٤٤، ٢٣٨).

وأما (العمل) – وجمعه أعمال – فهو أشبه بالاقليم يتفاوت مفهومه ويتراوح حجمه بين أكبر الأقسام الادارية وأصغرها، فبينما كان يطلق هذا المصطلح على اقليم كبير كفارس وخراسان ومصر، فقد أطلق كذلك على أصغر الأقسام حتى مستوى القرية.

وأما (الاستان) فكما يذكر ياقوت أيضا وابن رسته (الاعلاق النفيسة – ج٧ ص١٠٥) انه والكورة شيء واحد. وأكثر ماكان يستخدم هذا المصطلح الاداري في أقاليم العجم الاسلامية التي كانت قبل الفتح العربي واقعة تحت حكم الفرس، ابتداء من العراق الى السند الى بلاد ماوراء النهر، فشهرستان وطبرستان وخوزستان كل منها مأخوذ عن الاستان، فخفف بحذف الألف.

وأما (الكورة) فهي تعادل الاستان، «فكل كورة استان» (ابن رسته ١٠٥).

يقول ياقوت : «الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها» (المعجم ص ٢٣)، فهي اذا عبارة عن وحدة ادارية تضم عدة قرى وتسمى باسم أكبر مدينة فيها أو أشهرها، وقد تسمى باسم مظهر واضح من مظاهر الطبيعة فيها كنهر أو بحيرة. وتقابل الكورة – الى حد ما – وحدة المركز في المحافظات المصرية الحالية.

ويبدو أن هذا المصطلح قد نقل عن اللفظ الاغريقي Chora الذي وجد بمعنى الاقليم أو المقاطعة في أوراق البردي العربية. كما يرجح أن هذا المصطلح اليوناني قد انتقل الى العربية عن طريق الفارسية، حيث يذكر ياقوت الحموي أن «الكورة اسم فارسي يقع على قسم من أقسام الاستان، وقد استعارتها العرب وجعلتها اسما للاستان، فالكورة والاستان واحد». (ياقوت ج ١–ص٢٣). ورغم أن هذا المصطلح الاداري كان يستخدم في كثير من البلاد الاسلامية بل وكان يستبدل بالاستان في الأقاليم الفارسية، الا أنه كان السمة المميزة للتقسيم الاداري في مصر، اذ كان هو الوحدة الادارية الأساسية فيها. وهكذا كانت الأقاليم تنقسم الى كور أو أساتين، «فلابد لكل اقليم من كور، ثم لكل كورة من قصبة، ثم لكل قصبة من مدن» (المقدسي ٤٧).

وأما (المصر) – والجمع أمصار – فهو و (القصبة) بمعنى واحد، «فالمصر قصبة كورته، وليس كل قصبة مصرا» (المقدسي ٤٧). وقد أحصى المقدسي الأمصار الاسلامية في زمانه من المشرق الى المغرب فبلغت ١٧ مصرا هي: سمرقند، وايرانشهر، وشهرستان، وأردبيل، وهمذان، والأهواز، وشيراز، والسيرجان، والمنصورة (اقليم السند)، وزبيد، ومكة، وبغداد، والموصل، ودمشق، والفسطاط والقيروان، وقرطبة. وأكثر الأمصار تأخذ أسماء كورها الا الأربعة الأولى والمنصورة والثلاثة الأخيرة. (المقدسي ٤٧).

وأما (الرستاق) فهو قسم من أقسام الاستان، وهو كل موضع فيه مزارع

وقرى ولا يطلق على المدن كبغداد والبصرة (ياقوت ج ١ – ٢٤). وبعبارة أخرى يطلق الرستاق على الوحدات الريفية لا على المراكز الحضرية، وأكثر ما كان يستخدم في بلاد العجم.

وأما (الطسّوج) – وجمعه طساسيج – فهو أصغر من الاستان والرستاق، أي أنه جزء من أجزاء الاستان أو الرستاق (ياقوت ج ١ – ٢٤). وهو أيضا لفظة فارسية أكثر ما كانت تستعمل في سواد العراق، «فقد قسم العراق الى اثنى عشر استانا وقسمت هذه الاستانات على ستين طسوجا، أضيف كل طسوج الى اسم» (ابن رسته ١٠٧، ابن خرداذبة ٥ – ٨، قدامه ٢٣٥ – ٢٣٦). وترجمة الطسّوج ناحية (ابن رسته ١٠٧). وقد كانت بلاد العراق والجزيرة وفارس تؤلف مملكة الأكاسرة الساسانيين التي قضى عليها العرب، ولهذا فقد كانت المسميات الادارية فيها متشابهة، كما ظلت أسماء الأقاليم وحدودها في العصر الاسلامي على ماكانت عليه من قبل في الغالب (لي سترينج ١٥).

ويضرب ياقوت مثلا يشتمل على جميع المسميات السابقة التي استخدمها العرب نقلا عن الفرس (فاصطخرستان) من أساتين اقليم فارس، و(يزد) رستاق من رساتيق اصطخرستان، و(نائين) وعدة قرى معها طسّوج من طساسيج رستاق يزد، و(بنهستان) قرية من قرى طسوج نائين (ياقوت ج ١ – ٢٤).

وأما (الجند) فمعناها في الأصل فرقة من الجنود، وجمعها (أجناد). وقد أطلق هذا الاصطلاح على المناطق العسكرية الخمس التي انشئت في الشام ووضعت فيها فرق من الجنود للحماية أو الحراسة عقب الفتح العربي، ثم تحولت هذه المناطق العسكرية الى وحدات أو أقسام ادارية. ولم يكن الشام وحده هو الذي قسم الى أجناد. فقد قسم الأندلس كذلك الى ستة أجناد. والجند يعادل الكورة أو الاستان، وقد تحولت اجناد الشام والأندلس فيما بعد الى كور ثم الى قواعد على نحو ماسنفصله فيما بعد.

وأما (المخلاف) فهو المسمى الاداري المميز لليمن وبعض أنحاء الجزيرة العربية، وجمعه (مخاليف). ويذكر ياقوت أن «المخلاف أكثر ما يقع عند أهل اليمن، وهو واحد مخاليف اليمن وهي كورها.. ولكل مخلاف منها اسم يعرف به وهو قبيلة من قبائل اليمن أقامت به وعمرته فغلب عليه اسمها» (ياقوت ج ١ – ٢٤). ويقول الهمداني: «قُسِّم اليمن الى مخاليف، جمع مخلاف أي ناحية، وهذه المخاليف ترجع الى ماقبل الاسلام». (الهمداني ٨٢). وبذلك يصبح المخلاف في اليمن ذا مدلولين: مدلول جغرافي من حيث أنه يمثل ناحية من نواحي كورة اليمن، ومدلول اجتماعي من حيث أنه يرتبط بقبيلة أو أكثر من قبائل اليمن.

ولقد جرى عدد من الجغرافيين المسلمين من القرنين الثالث والرابع الهجريين على تقسيم المملكة الاسلامية الى (أقاليم)، فمنهم من قسمها الى أربعة عشر اقليما كالاصطخري وابن حوقل: ستة عربية وعشرة أعجمية. ويبدو أن الفرق بين التقسيمين راجع الى أن المقدسي ضم ثلاثة أقاليم وهي خراسان وسجستان وماوراء النهر في اقليم واحد أطلق عليه اسم (المشرق)، ولهذا فان الاختلاف ظاهري.

وسوف نتناول فيما يلي هذه الأقاليم، فنصل حدودها وأقسامها الفرعية أو الداخلية كلا على حده، وفقا لما ورد في مصنفات البلدانيين المسلمين في القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي.

أولا : أقاليم العــرب

جزيرة العرب – المغرب – الأندلس – مصر – الشام – العراق الجزيرة (آقــور)

١ – جزيرة (أوديار) العرب

يحدد الاصطخري وابن حوقل (ديار العرب) بمعالم واضحة ودقيقة في قولهما «والذي يحيط بها بحر فارس (ويعني به مايسمى حاليا بالخليج العربي والبحر

العربي والبحر الأحمر) من عبادان... فيمتد على البحرين (ساحل الاحساء) حتى ينتهي الى عمان، ثم يعطف على سواحل مهره وحضرموت وعدن حتى ينتهي الى سواحل اليمن الى جده ثم يمتد على الجار ومدين حتى ينتهي الى أيله (العقبة). ثم يمتد حد ديار العرب من أيله الى البحيرة المنتنه (يقصد الميته أي البحر الميت) التي تعرف ببحيرة (زغر) الى الشراه والبلقان (شرق الاردن) وهي من عمل فلسطين، وأذرعات وحوران والبثنية والغوطة ونواحي بعلبك وذلك من عمل دمشق، وتدمر وسلمية، وهما من عمل حمص، ثم الخناصرة وبالس، وهما من عمل قنسرين. وقد انتهينا الى حدّ الفرات. ثم الفرات على ديار العرب حتى ينتهي الى الرقّة وقرقيسيا والرحبة والدالية وعانه والحديثة والهيت والأنبار والكوفة ومستفرغ (أي مصب) مياه الفرات الى البطائح، ثم تمتد ديار العرب على نواحي الكوفة والحيرة ثم على سواد البصرة وبطائحها حتى تنتهي الى عبادان». (الاصطخري ١٢-١٣ وابن حوقل ٢٧. وانظر خرائط ديار العرب والشام والعراق والجزيرة).

ويقسم المقدسي جزيرة العرب من النواحي الادارية الى «أربع كور جليلة وأربع نواح نفيسة» (المقدسي ٦٨). فأما الكور فهي : الحجاز واليمن وعمان وهجر. وأما النواحي التي تضاف الى هذه الكور فهي : الأحقاف، والأشحار وهما ناحيتان مضافتان الى كورة اليمن، واليمامة وهي مضافة الى كورة هجر، وقرح (وادي القرى) وهي مضافة الى كورة الحجاز. (المقدسي ٦٩ - ٧١).

١ - **كورة الحجاز** : كانت مكة مصر هذه الكورة وقصبتها، وأهم مدنها: يثرب. ينبع. ناحية قرح. خيبر. المروة. الحوراء. جدة. الطائف. الجار. السّقيا. العونيد (ساحل قرح). الجحفة. العشيرة. وهذه أمهات المدن، ودونهن: بدر. خليص. أمج. الحجر. بدايعقوب (على جادة مصر). السوارقية. الفرع. السيرة. جبله. مهايع. حاذه (المقدسي ٦٩- ٧١).

٢ - **كورة هجر** : كانت كورة عامرة آهلة، و(الاحساء) قصبتها،

وتسمى البحرين ومدنها: سابون. الزرقاء. أوال (جزر البحرين). العقير. وناحيتها اليمامة التي تتصل حدودها بحدود البحرين (هجر) من الشرق، أما من الغرب فيفضي الى الحجاز، وشمالها بواد متصلة بالعذيب والضريّه والنباح وسائر حدود البصرة بالعراق، وجنوبها بلاد اليمن. (المقدسي ٩٣: وابن رسته ١٨٢).

٣ – **كورة عمان** : يذكر المقدسي انها «كورة جليلة تكّون ثمانين فرسخا في مثلها، و(صحار) قصبتها. ومن مدنها نزوه (نزوى الحالية). السرّ. ضنك. حفيت. دبا (دبي). سلوت. جلّفار. سمد. لسيا. يلح. مسقط (المقدسي٩٣).

٤ – **كورة اليمن** : كانت في بداية العصر الاسلامي مقسومة على ثلاثة أعمال : عمل الجند، وعمل صنعاء، وعمل حضرموت، وكان عمل الجند يتفق مع تهامة اليمن وقصبته (زبيد) ومن مدنه : تعقر. كدره. مور. عطنة. الشرجة.

دويمة. الحمضه. غلافقه. مخا. كمران. الحردة. اللسعة. شرق. العشيرة. رنقه. الخصوف. الساعد. المهجم. ويتبع هذا العمل ناحية (أيين) ومن مدنها: عدن. لهج (وهي لحج). وناحية (عثّر) ومدنها: بيش. حلي. السرّين. وناحية (السروات). وكان عمل صنعاء يتفق مع الجبال ويسمى (نجد) وقصبته صنعاء، ومن مدنه : صعده. نجران. جرش. العرف. جبلان. ذمار. نسفان. يحسب. السّحول. المذيخره. خولان. ويتبع هذا العمل ناحية الأحقاف وناحية سبأ. أما عمل حضرموت فمن مدنه حسب، وتتبعه ناحية (مهره) ومدينتها الشحر (المقدسي ٦٩ – ٧٠). وكل من هذه الأعمال الثلاثة ينقسم الى مخاليف، وكان على كل عمل بمخاليفه والٍ. وقد فصل الهمداني والمقدسي مخاليف اليمن فبلغت ستة وستين مخلافا نذكرها فيما يلي: مخلاف صنعاء والخشب ورحابه ومرمل. مخلاف البون. مخلاف خيوان. مخلاف شاكر ووادعه ويام وأرحب. مخلاف نجران وتربه والهجيره وكثبة وجرش والسراة. مخلاف تهامة ضنكان عشم بيشه. مخلاف الحرده. مخلاف همدان. مخلاف جوف همدان. مخلاف جوف مراد. مخلاف شنوءه وصدى وجعفى. مخلاف الجسره. مخلاف المشرق وبوشان

وغدر. مخلاف أعلا وأنعم والمصنعتين وبني غطيف وقرية مأرب. مخلاف حضرموت. مخلاف خولان رداع. مخلاف أحور. مخلاف الحقل وذمار. مخلاف ابن عامر وثات ورداع. مخلاف دثينه. مخلاف السرو. مخلاف رعين ونسفان وكحلان. مخلاف ضنكان وذبحان. مخلاف نافع ومصحى. مخلاف حجر وبدر وأخلّى والصهيب. مخلاف الثجه والمزرع. مخلاف ذي مكارم والأملوك. مخلاف السلف والأدم. مخلاف نجلان ونهب. مخلاف الجند. مخلاف السكاسك. مخلاف الزيادي. مخلاف المعافر. مخلاف بني مجيد. مخلاف الركب. مخلاف سقف. مخلاف المذيخره. مخلاف حمل وشرعب. مخلاف عنه وعنابه. مخلاف وحاطه. مخلاف سفل يحصب. مخلاف القفاعة والوزيره والحجر. مخلاف زبيد (وبإزائه ساحل غلافقه وساحل المندب). مخلاف رمع. مخلاف مقرى. مخلاف ألهان. مخلاف جبلان. مخلاف ذي جرّة. مخلاف الميتم. مخلاف اليم. مخلاف خولان. مخلاف ميسارع. مخلاف حراز وهوزن. مخلاف الأخروج. مخلاف الأخروج. مخلاف مجنح. مخلاف حضور. مخلاف ماجن. مخلاف واضع المعلل. مخلاف العصبة. مخلاف خناص وملحان حكم وجازان ومرسى الشرجه. مخلاف حجور. مخلاف قدم. مخلاف حيه والكودان. مخلاف مسخ. مخلاف كنده والسكون. مخلاف الصدف. (الهمداني والمقدسي ٨٨-٩٢).

٢ - اقليم المغـرب

يشمل اقليم المغرب جميع المنطقة الممتدة من برقة الى البحر المحيط (المحيط الأطلسي). ومن الجغرافيين المسلمين من يضم الأندلس اليه ويجعلهما اقليما واحدا الجانب الشرقي منه وهو المغرب يمتد من برقة حتى السوس الأقصى (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الحالية)، والجانب الغربي ويشمل الأندلس. واعتبر المقدسي وضع الأندلس بالنسبة لبقية المغرب مماثلا لوضع (هيطل) -ماوراءالنهر- بالنسبة لبقية المشرق (خراسان وماحولها)، أي المغرب والمشرق

يفصل بين شطريه ماء : مضيق جبل طارق في الأول، ونهر جيحون في الثاني (المقدسي ٢١٦). الا أننا ما دمنا بصدد التعرف الى التقسيمات الادارية للعالم الاسلامي فان تقسيم ابن حوقل يعتبر أقرب الى الصواب، حيث جعل الأندلس اقليما منفصلا، نظرا لأن الأندلس كان قد انفصل عن الدولة العباسية منذ قيامها وكون دولة مستقلة. كذلك جعل المقدسي جزيرة صقلية ضمن كور المغرب، اذ كانت قد تم فتحها واستمرت تحت حكم المسلمين بين عامي ٨٢٧، ٩٠٢ الميلاديين.

ويحدد الاصطخري وابن حوقل اقليم المغرب : شرقا «بحدّ مصر (الاسكندرية وبرقة) الممتد من بحر الروم الى ظهر الواحات الى بريّة تنتهي الى أرض النوبة، وغربا بالبحر المحيط، وشمالا ببحر الروم من حدّ مصر على ما يحاذي برقة الى طرابلس المغرب ثم الى المهدية ثم الى تونس ثم الى طبرقة ثم الى تنس ثم الى جزيرة بني مزغنّا ثم الى ناكور ثم الى البصرة ثم الى ازيلة ثم الى السوس الأقصى، وجنوبا بالرمل (أي الصحراء) الممتد من حدّ البحر المحيط الى ما وراء سجلماسة الى زويلة ثم يمتـــد الى ظهر الواحات من أرض مصر». (الاصطخري ٣٦-٣٧ وابن حوقل ٦٤).

وكان المغرب في القرنين الثالث والرابع الهجريين ينقسم الى ست كور، أولها من قبل مصر كورة برقة، ويليها كورة افريقية ثم كورة تاهرت ثم كورة سجلماسة ثم كورة فاس (أو السوس الأدنى) ثم كورة السوس الأقصى. وقد فصل المقدسي هذه الكور على النحو التالي (المقدسي ٢١٧-٢٢١):

١ - **كورة برقة** : وهي كورة كبيرة عامرة، وسميت باسم قصبتها. ومن أهم مدنها ذات الحمام، وطرابلس، واجدابية، وقابس، وغافق. ويذكر الاصطخري (ص٣٧) أن برقة كانت تابعة لمصر الى أن ظهر المهدي عبيد الله المستولي على المغرب فاستولى عليها وأزال عمال مصر. وجاء في القلقشندي (صبح الأعشى ج٣ /٣٩١) أن برقة قسمان : قسم محسوب من الديار المصرية وهو

مادون العقبة الكبرى (أي الجبل الأخضر) الى الشرق، وقسم محسوب من افريقية وهو مافوق العقبة المذكورة الى الغرب.

٢ - **كورة أفريقية** : كانت تطلق على المغرب الأوسط (تونس والقسم الشرقي من الجزائر الحالية) وقصبتها (القيروان). ومن مدنها: اسفاقس (صفاقس) وسوسة، وتونس، والمهدية، وبنزرد (بنزرت)، وبونة (عنابه)، ومنستير، وقفصه، وباجه، وقسطيله، وطبرقه، وقلانش، ومسكيانه، ودوفانه، والقسطنطينية (قسطنطينه) وسطيف. ومن الجدير بالذكر أن الاصطخري يفرد لمدينة سطيف كورة مستقلة ويضعها بين القيروان وتاهرت.

٣ - **كورة تاهرت** : سميت باسم قصبتها، وهي تقع الى الغرب من كورة افريقية شاملة القسم الغربي من الجزائر الحالية، ومن مدنها: تاغليسيه، ومنداس، ومطماطه، والزيتونه، ووهران، وشليف، وتاويلت، وتامزيت. ويذكر الاصطخري (٣٨) أن كورة تاهرت بأسرها من افريقية، الا أنها مفردة بالاسم والعمل في الدواوين.

٤ - **كورة سجلماسة** : وهي مسماة باسم قصبتها أيضا. وكانت تقع الى الجنوب من كورة تاهرت، ولها من المدن: درعه، وتاد نقوسبت، ويلميس، وهلال، والخيامات، وتازروت.

٥ - **كورة فاس** : وهي باسم قصبتها كذلك، وتسمى أحيانا (السوس الأدنى)، وتقع في القسم الشمالي من المغرب الحالي، ومن أهم مدنها: البصرة، وورغة، وصنهاجه، وهواره، وتيزا (وهي تازا الحالية شرقي فاس) ومطماطه، ومدينة بني قرباس، ومرنيسه، ومكناس، وبسكره، ولواتة، وطنجه، وليله (مليلة)، ومدركة، ومتروكه، وناحية الزاب ومدينتها المسيله، وبادس. ويطلق الاصطخري على هذه الكورة اسم كورة طنجه ويجعل قصبتها فاس، كما يضم اليها مدينة أخرى هي ازيله (٣٨) وهي مازالت باقية الى الجنوب من طنجه.

٦ – **كورة السوس الأقصى** : كانت تقع في القسم الجنوبي من المغرب الحالي، وقصبتها (طرفانه) (وهي طرفاية الحالية على الحدود بين المغرب والصحراء المغربية) ومن مدن هذه الكورة: أغمات، وويلا، وريكه، وماسّه.

٣ – اقليم الأندلس

دان معظم شبه جزيرة أيبريا للعرب في الفترة بين ٧١١، ٧٢٠ للميلاد، ولم يبق منه غير بعض الأطراف الشمالية خارجا عن حوزة المسلمين. واستمرت أيبريا الاسلامية على هذا النحو أكثر من قرن من الزمان، ثم بدأ الحكم الاسلامي ينحسر عن أطرافها الشمالية الغربية حتى استقرت حدود الدولة الاسلامية على نهر دورو، كما انحسر قليلا في الشمال الشرقي حتى استقرت الحدود جنوبي برشلونه شمالي نهر ابرو، وكان ذلك عام ٩٠٠ للميلاد. وفي نهاية القرن الحادي عشر الميلادي كانت الحدود الاسلامية في أيبريا قد تراجعت في الشمال الغربي حتى وصلت الى الشمال من نهر تاجه، ولكنها ظلت في الشرق على ماكانت عليه. وفي عام ١٢٧٠ للميلاد انكمشت الأندلس الاسلامية كثيرا وأصبحت متمركزة في منطقة الساحل الجنوبي المطل على البحر المتوسط والتي تضم مدن غرناطة ومالقة والمريّة. وفي عام ١٤٩٢ كانت نهاية الحكم الاسلامي في الأندلس.

وتبعا لهذا التمدد والانكماش في مساحة هذا الاقليم كانت تختلف تقسيماته الادارية وتعداد كوره في الفترات المختلفة، ولكن الفترة التي نحن بصددها –وهي الممتدة حتى أواخر القرن الرابع الهجري– كانت تمثل قمة التوسع الاسلامي في ايبريا، ومن ثم فانها تتميز بأكبر عدد من الكور أو الأقسام الادارية.

وكان الأندلس يعني شبه الجزيرة الأيبيرية، وهي عموما تعني المناطق التي تحت الحكم الاسلامي، وهي متفاوتة. ويمكن اعتبار (الأندلس) تشمل كل مايقع جنوب الخط الأفقي الواقع بين نهر دويره (دورو) غربا الى برشلونه شرقا.

يقول البكري : وقد حدّت الأوائل الأندلس بعبارات مختلفة. وحدّها قسطنطين حدودا (أي أقساما) ستة: جعل الجزء الأول: من حدودها من مدينة نربونه Narbonne بفرنسا) وهو حدّ مابين غاليوش (بلاد الغال وهي القسم الجنوبي من فرنسا) وبين الأندلس، وأضاف اليها سبع مدن مما حواليها -وذكر خمسا منها- وهي: بطرش (Beziers)، وطليوشه (Tolosa)، ومقلونه (Maguelonne)، ونومشو (Nemeuso) وقرقشونه (Carcasonne) .

وجعل الجزء الثاني: من مدينة براقره Braga) في البرتغال) وهو حوز جلّيقيه (انظر الخريطة)، وجعل لها اثنتي عشرة مدينة مما حواليها منها: مدينة برتقال (Porto)، مدينة توزي (Tuy)، ومدينة أريه (Orense)، ومدينة لكّه (Lugo)، ومدينة برطانيه (Brironia)، ومدينة اشتيرقيه (Astorga)، ومدينة شانت ياقو (Santiago de Compostela)، ومدينة ايريه (Iria)، ومدينة بطقه (Padron)، ومدينة شاره (Sarria).

وجعل الجزء الثالث: من مدينة طركونه(Tarragona) ، وأضاف اليها مدينة سرقسطه(Zaragoza) ، واشقة-وشقة (Huesca)، ولارده(Lerida) ، وطرطوشه (Tortosa)، وتطيله (Tudela)، وأعمال بلد ابن شانجو (وهي بلاد نافار (Navarre وبلد بليارسن (Pallars)، وبرشلونه (Barcelona)، وجرنده (Gerona)، ومدينة انبوريش Ampurias ، ومدينة بمبلونه (Pamplona)، ومدينة أوقه(Oca) ، ومدينة قلهرّه (Calahorra)، ومدينة طرسونه (Tarazona)، ومدينة أمايه (Amaya).

وجعل الجزء الرابع : عشرين مدينة، قاعدتها مدينة طليطله، وأضاف اليها مدينة أوريط (Oreto)، ومدينة شغوبية (Segovia)، وأركسبيقه (Ercavica)، ووادي الحجارة (Guadalajara) ، وشغونسه (Siguenza)، واكشمه (Osma-Oxuma)، وبلنسيه (Valencia)، وبلازيا (Palencia)، وأريوله (Orihuela)، وألش (Elche)، وشاطبه (Jativa)، ودانيه (Denia)، وبيّاسه

(Baeza)، وقسطلونه (Gazlona)، ومنتيشه (Mentesa)، ووادي آش (Guadix)، وبسطه (Baza)، وأرش (Urci) وهي بجانه(Pechina) .

وجعل الجزء الخامس : قاعدته مدينة مارده (Merida)، وأضاف اليها اثنتي عشرة مدينة وهي: باجه (Beja)، واكشونبه (Osconoba)، ويابره(Evora) ، وشنتره (Cintra) ، وشنترين (Santarem) ، والاشبونه (Lisbon) ، وقلنبريه—أو قلمرية— (Coimbra)، وقوريه (Coria)، وشلمنقه (Salamanca)، وصموره .(Zamora)

وجعل الجزء السادس : قاعدته مدينة اشبيلية (Seville)، وأضاف اليها: لبله (Niebla)، وقرطبه (Cordova)، وقرمونه (Carmona) ، ومورور (Moron) ، ومرشانه — مرســانه — (Marchena)، والجزيرة (Algeciras)، وتاكرنا (Takurunna)، وريّه (Rejio)، وأشونه (Osuna)، واستجه (Ecija)، وقبره (Cabra)، وأعمالها الى بجانه (Pechina)، والبيره (Elvira)، وجيان (Jaen)، ومنتيته (Mentesa)، وباكرته (Bakartah) ، وأبده (Ubeda)، وبياسه (Baesa) . (البكري — جغرافية الأندلس وأوربا — ٥٩ /٦٤).

ويبدو أن هذا التقسيم القديم للأندلس الى ستة أجزاء كان أساس تقسيمه بعد الفتح العربي الى ستة أجناد، وقد اتخذت اشبيلية أول عاصمة عربية للأندلس، ولكنها لم تستمر طويلا، اذ مالبثت أن تحولت العاصمة الى قرطبة في عهد الوالي الأموي (السمح بن مالك الخولاني).

ويتضح مما ذكره المقدسي أن التقسيم الاداري للأندلس كان غير معروف بالدقة، وذلك فمن قوله (٢٢٢): «وقال ابن خرداذبة الأندلس أربعون مدينة يعني المشهور منها، لأن أحدا لم يسبقنا الى تفصيل الكور ووضع القصبات»، ومن قوله كذلك (٢٢٢)»، «غير أنّا لا نقف على نواحيها فنكوّرها». ولكن المقدسي يحاول مع ذلك التعرف على أقسام الأندلس فيسأل «بعض العقلاء

منهم – أي من أهل الأندلس – على الرساتيق المحيطة بقرطبة والمنسوبة اليها فقال انّا نسمي الرستاق اقليما، كالأقاليم المحيطه بقرطبة ثلاث عشر مع مدنها، فذكر أرجونه، وقسطله، وشودر، ومارتش، وقنبانش، وفج ابن لقيط، وبلاط مروان، وحصن بلكونه، والشنيده، ووادي عبد الله، وقرسيس، والمائدة، وجيان. وعلى مادلّ آخر الاسم هي ناحية مدنها: الجفر، وبيغو، وقانت، وغرناته (غرناطه)، ومنتيشه، وبيّاسه، وسائر مدن أندلس المذكورة: طرطوشه، وبلنسيه، ومرسيه، وبجانه، ومالقه، وجزيرة جبل طارق؛ وشذونه (سدونه)، واشبيليه، وأخشنبه، ومرّيه، وشنترين، وباجه، ولبله، وقرمونه (شمال شرق اشبيلية)، ومورور. قلت: هل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن، قال لا، قلت فأشبيلية وبجانه وذكرت عدة من البلاد، قال هذه نواح لها أقاليم كما تقول القيروان وتاهرت وسجلماسة، وهم يسمون الرستاق اقليما، فعلمت انها كور على قياسنا، وانها ان لم تكن أجلّ من كور هيطل (ماوراء النهر) فليست بأقل منها.. غير أنّا نعجز عن تكوير الأندلس فتركناها على الجملة ووصفنا كورة قرطبة لما كثر المخبرون عنها واتضح عندنا أمرها. وعرضت كتابي على شيخ من مشايخهم فقال على هذا القياس يجب أن تكون الأندلس ثماني عشرة كورة فعدّ: بجانه. مالقه. بلنسيه. تدمير. سرقوسه. يابسه. وادي الحجارة. تطيله. وشقه مدينة سالم. طليطله. أشبيلية. بطليوث. باجه. قرطبه. شذونه (سدونه) الجزيرة الخضراء. وسألت آخر فقال صدق، وزاد: لبيره. أخشنبه». (المقدسي ٢٣٦). وثمة أربع كور أخرى وردت في ثنايا وصف الاصطخري للأندلس (٤٢ – ٤٤) وهي: كورة ريّه ومدينتها (أرجدونه). كورة فحص البلوط ومدينتها (غافق). كورة شنترين ومدينتها (قلمريه). كورة البيرة. وبذلك تصبح كور الأندلس أربعا وعشرين كورة.

٤ – اقليم (أو ديار) مصر

ظلت حدود مصر منذ أقدم العصور ثابتة الى حد كبير، وهي نفس حدودها الدولية القائمة حاليا باستثناء بعض المناطق الصحراوية في الغرب. وقد

تتبع الاصطخري وابن حوقل هذه الحدود عندما تناولا (ديار مصر) في قولهما: «وأما مصر فان لها حدا يأخذ من بحر الروم بين الاسكندرية وبرقة، فيأخذ في براري حتى ينتهي الى ظهر الواحات ويمتد الى بلاد النوبة، ثم يعطف على حدود النوبة الى بحر القلزم (البحر الأحمر) ثم يمتد على بحر القلزم ويجاوز القلزم (السويس) الى طور سينا ويعطف على تيه بني اسرائيل (هضبة التيه جنوب سيناء) ويمتد حتى ينتهي الى بحر الروم في الجفار خلف رفح والعريش، ويمتد بحر الروم الى أن ينتهي الى الاسكندرية بأول الحدّ الذي ذكرناه». (الاصطخري ٤٨، وابن حوقل ١٢٦).

وقد حافظ العرب بعد الفتح على الحدود الادارية لمصر التي كانت تنتهي جنوبا عند أسوان، وأطلقوا عليها اسم الثغر أو الرباط بمعنى الحدود (Wiet, L'Egypte Arabe p. 157). وقد اقتضى النظام الزراعي في مصر تقسيمها الى مجموعة من الوحدات الادارية منذ العصر الفرعوني، وذلك تنظيما لاستغلال الأراضي وتسهيلا للحكم وجباية الضرائب. وكانت تلك الأقسام الادارية تزيد أو تنقص وتندمج أو تنفصل، حسب الظروف الطبيعية أو البشرية التي تمر بها المنطقة أو القسم الاداري. ففي الدلتا مثلا كان التقسيم الاداري عرضة للتغيير والتبديل تبعا لتطور فروع النيل عبر العصور التاريخية، وكان لقوة الدولة أثرها في اتساع العمران في الأراضي الزراعية وازدياد السكان وبالتالي استحداث وحدات ادارية جديدة. وحينما تضعف الدولة يؤدي ذلك الى اهمال تطهير الترع والمصارف مما يؤدي الى خراب القرى وتقلص الوحدات الادارية.

وكانت مصر قبيل الفتح العربي، أي في عهد الدولة البيزنطية (الروم)، مقسمة الى قسمين كبيرين: مصر العليا ومصر السفلى. وكانت مصر السفلى مقسمة بدورها الى اقليمين كبيرين، يشتملان على أربع ابروشيات تضم ٣٣ وحدة ادارية صغيرة تسمى بالباجارشيات – pagarchies. أما مصر العليا فكانت تنقسم الى أربعة أقاليم كبيرة تمثل أربع ابروشيات تتضمن ٣٣ وحدة ادارية صغيرة أيضا.

وكما حافظ العرب على حدود مصر فكذلك حافظوا بعد الفتح على تقسيم مصر الى (حيزّين) كبيرين - والجمع أحياز - استمرارا لما كانت عليه في العصور السابقة: حيز على الأرض وهو مصر العليا أو الصعيد، وحيزّ أسفل الأرض، وهو مصر السفلى أو الوجه البحري. وكانت الواحات الغربية (الخارجة والبحرية والفرافرة) ملحقة بأعلى الأرض الذي كان يتبعه كذلك صحراء البجه (الصحراء الشرقية) وساحل بحر القلزم. أما حيز أسفل الأرض فكان يشتمل على الحوف الشرقي (شرق الدلتا) والريف (وسط الدلتا). ويضم الحوف الشرقي مايسمى في الوقت الحاضر بمحافظات الشرقية والدقهلية والسويس والاسماعيلية وبورسعيد، بالاضافة الى سيناء واقليم الجفار (مناطق العريش ورفح). أماالحوف الغربي فيضم مايسمى في الوقت الحاضر بمحافظة البحيرة، بالاضافة الى الاسكندرية ومريوط ورشيد والبرلس وقد يمتد غربا ليشمل برقة (المقدسي١٩٣-١٩٤، أمين عبد الله ٦٨-٦٩).

وكان كل من أعلى الأرض وأسفل الأرض ولاية شبه مستقلة عليها والٍ. ويذكر ابن عبد الحكم (١٧٣) أن الخليفة عمر بن الخطاب توفى وعلى مصر أميران: عمرو بن العاص بأسفل الأرض، وعبد الله بن سعد على الصعيد. كما يذكر الكندي أنه في ولاية حفص بن الوليد الثانية على مصر (١٢٤-١٢٧هـ) جعل على الصعيد رجاء بن الأشيم، وعلى أسفل الأرض فهد بن مهدي الحضرمي (سيدة كاشف ١٨٢).

وفي العهد الطولوني والاخشيدي قسمت مصر العليا بذورها الى قسمين: مصر العليا الجنوبية ومصر الوسطى، وكانا يسميان أحيانا بالصعيدين. وممن ذكرهما بهذا الاسم صاحب الخراج القبطي في العهد الاخشيدي المعروف بابن شفا النويسي، في قوله: «وذكر بعض أهل العلم والدواوين أن قرى مصر ألفان وثلاثمائة وتسعون قرية، منها الصعيدان تسعمائة وسبع وخمسون قرية، وأسفل الأرض ألف وأربعمائة وثمان وثلاثون قرية». (مراصد الاطلاع ١٥٧، والمقريزي ج١ /٧٣). ولم يكن هذا التقسيم للصعيد بدعة، فقد قسم في العصور

السابقة للفتح العربي الى نفس القسمين: اقليم الطبياد Thebaid (وهي مصر العليا الجنوبية، نسبة الى طيبة)، واقليم هبتانوميا أو هيركيوليا أو أركاديا (وهي مصر الوسطى).

ومن ناحية أخرى قسمت الأحياز أو الأقاليم الكبرى في مصر الى وحدات ادارية أصغر سميت بالكور (جمع كورة) وهي أقرب الى المراكز الادارية الحالية. وكانت هذه الكور تتفق في حدودها الى حد كبير مع الباجارشيات البيزنطية التي كانت موجودة عند الفتح العربي لمصر. واعتمادا على القوائم التي أوردها للكور المصرية في العصر الاسلامي الأول كل من ابن خرداذبة واليعقوبي وابن الفقيه وقدامة بن جعفر والقضاعي وابن مماتي وياقوت الحموي والدمشقي وابن دقماق والقلقشندي والمقريزي يمكننا أن نجمل هذه الكور في سبعين كورة موزعة على النحو التالي:

أولا – حيز أعلى الأرض أو الصعيد : يمتد من أسوان الى الجيزة شمالا، ويضم أربعا وثلاثين كورة تتوزع على الصعيدين الأعلى والأدنى.

١ – **الصعيد الأعلى** : وهو يمتد على ضفتي النيل من أسوان جنوبا الى أسيوط شمالا، ويشتمل على ست عشرة كورة سميت بأسماء قواعدها التي ماتزال قائمة الى اليوم، وهي مرتبة من الجنوب الى الشمال على النحو التالي: كورة أسوان (على ضفتي النيل)، كورة ادفو (على الضفتين). كورة اسنا (على الضفتين). كورة أرمنت (على الضفة اليسرى فقط). كورة دندرة (على الضفة اليسرى) كورة الأقصر (على الضفة اليمنى) كوزة قوص (على الضفة اليمنى) كورة قفط (على الضفة اليمنى). كورة قنا (على الضفة اليمنى). كورة فاو (على الضفة اليمنى). كورة هوّ (على الضفة اليسرى). كورة البلينا (على الضفة اليسرى). كورة أخميم (على الضفة اليمنى). كورة قهقوة (كوم اشقا والحالية في مركز صدفا على الضفة اليسرى). كورة شطب (على الضفة اليسرى). كورة أسيوط (على الضفتين).

٢ – **الصعيد الأدنى** : وهو يمتد من شمالي أسيوط جنوبا الى الجيزة شمالا، ويشتمل على ست عشرة كورة أيضا سميت بأسماء قواعدها وهي مرتبة من الجنوب الى الشمال كما يلي: كورة قوصقام (مركز القوصيّة الحالي على الضفة اليسرى). كورة انصينا (الشيخ عبادة الحالية على الضفة اليمنى مقابل مدينة ملّوي). كورة الأشمونيين (على الضفة اليسرى، وهي تطابق مركز ملّوي الحالي). كورة طحا (وهي طحا الأعمدة الحالية على الضفة اليسرى). كورة شنودة (بني مزار الحالية على الضفة اليسرى). كورة القيس – أو الفشن (وهي على الضفة اليسرى) كورة البهنسا (متاخمة للصحراء الغربية بعيدة عن النيل). كورة دلاص (على الضفة الغربية). كورة بوش (على الضفتين). كورة اهناس (متاخمة للصحراء الغربية على النيل). كورة بوصير (أبو صير الملق على الضفة اليسرى). كورة بويط (أبو يط على حافة الوادي تجاه الفيوم). كورة الفيوم. كورة اطفيح (مركز الصف الحالي على الضفة اليمنى). كورة أوسيم. كورة الجيزة أو منف. وهناك ثلاث كور أخرى ملحقة بأعلى الأرض أو الصعيد وهي كور الواحات الثلاث: «الواح الأولى» وتعرف بواح البهنسا – وهي الواحات البحرية الحالية، و «الواح الثانية» وتعرف بالواح الداخلة ولاتزال بالاسم نفسه، و «الواح الثالثة» وتعرف بالواح الخارجة، ولاتزال تحمل الاسم نفسه (أمين عبد الله ٧٥–٧٩).

ثانيا – حيز أسفل الأرض أي مصر السفلى: كان ينقسم الى ست وثلاثين كورة تتوزع على أربع نواح على النحو التالي:

١ – **الحوف الشرقي (شرق الدلتا)**: ويضم اثنتي عشرة كورة سميت بأسماء قصباتها وهي: كورة عين شمس (شمالي القاهرة). كورة أتريب (تل أتريب الحالية). كورة نتا وتمى (تمى الأمديد الحالية). كورة بسطة (تل بسطة الحالية). كورة هربيط. كورة صان وابليل. كورة أطرابية. كورة الفرما والعريش. كور (القبلة) الأربع وهي: كورة الطور وفاران. كورة القلزم. كورة أيله (العقبة). كورة بدا يعقوب وشعيب (على الساحل الشرقي لخليج العقبة). (ابن خرداذبة ٨، والقلقشندي ٣ /٣٨٧–٣٨٨).

٢ – **بطن الريف** (**القسم الشمالي من وسط الدلتا**): وبه سبع كور سميت بأسماء قصباتها وهي: كورة بنا وبوصير (أبو صير الحالية). كورة سمنود. كورة نوسا (نوسا الغيط الحالية شمالي سمنود). كورة الأوسية (دميره الحالية). كورة البجوم. كورة دقهلة (مركز المنصورة الحالي). كورة تنيس ودمياط.

٣ – **الجزيرة بين فرعي النيل الشرقي والغربي**: (أي جنوب وغرب الدلتا بين فرعي دمياط ورشيد): وبها خمس كور سميت بأسماء قصباتها وهي: كورة دمسيس (وهي شبرا اليمن الحالية بمركز زفتى). كورة طوّه منوف (شمالي تلا الحالية). كورة سخا وتيدة والفرّاجون. كورة نقيزة (كون نقيزه الحالية بمركز بيلا). كورة البشرود (ناحية سيدي غازي بمركز كفر الشيخ).

٤ – **الحوف الغربي** (**غرب الدلتا**): وبه اثنتا عشرة كورة سميت أيضا بأسماء قصباتها، وهي: كورة صا (وهي صا الحجر الحالية). كورة شباس. كورة الشراك. كورة خربتا. كورة قبرطسا (القسم الجنوبي الشرقي من مدينة دمنهور الحالية). كورة المليدس (كوم المدينة الحالية بمركز أبو حمص). كورة رشيد والبحيرة. كورة البتنون. كورة لوبية. كورة الاسكندرية. كورة برقة. (انظر لتحقيق مواقع الكور السابقة: محمـــد رمزي، وعمر طوســـون، وأمين محمود عبد الله).

وقد استمرت هذه الكور المصرية نحو أربعة قرون ونصف، أي من منتصف القرن الأول (السابع) الى أواخر القرن الخامس (الحادي عشر). وفي عهد الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧ /٤٨٧=١٠٣٦ /١٠٩٤) وقع تغيير أساسي في التقسيم الاداري لمصر. وكان جوهر هذا التقسيم يتمثل في تجميع الكور الصغرى السابقة وادماجها في وحدات ادارية أكبر سميت أول الأمر بالكور أيضا ثم سميت بعد ذلك بالأعمال في عصر المماليك، ثم بالولايات في العهد العثماني. ومن بين الأسباب التي دعت الى هذا التغيير الحاجة الى احكام قبضة وتركيز السلطة نتيجة للفتن والثورات. وهكذا تجمعت الكور الصغيرة السبعون

في أسفل الأرض وأعلاها في ثلاث وعشرين كورة كبيرة، تسع منها في مصر العليا، وأربع عشرة في مصر السفلى، موزعة على النحو التالي: (ابن مماتي، وابن الجيعان، والقلقشندي ٣ /٤٦):

١ - مصر العليا (من الجنوب الى الشمال): القوصية. الاخميمية. الأسيوطية. المنفلوطية. الأشمونية والطحاوية. الفيومية. البهنساوية. الاطفيحية. الجيزية. وقد نسبت كل كورة من الكور التسع الى حاضرتها.

٢ - مصر السفلى، وهي ثلاثة أقسام:

(أ) القسم الأول (شرقي فرع دمياط): وبه أربع كور أو أعمال: عمل الضواحي (وهو مايجاور القاهرة). القليوبية وحاضرتها قليوب. الشرقية وحاضرتها بلبيس. الدقهلية وحاضرتها دقهلة. المرتاحية وحاضرتها..؟..

(ب) القسم الثاني (وسط الدلتا) وينقسم بدوره الى قسمين أو (جزيرتين): الأولى تنحصر بين فرع دمياط (بحر أبيار) وهي تشتمل على كورتين أو عملين: المنوفية وحاضرتها منوف، والغربية وحاضرتها مدينة المحلة الكبرى. والثانية تنحصر مابين (بحر أبيار) وفرع النيل الغربي أي فرع رشيد، وتعرف بجزيرة بني نصر، وهي كورة واحدة تعرف بنفس الاسم، وحاضرتها مدينة أبيار.

(جـ) القسم الثالث: (غربي وشرقي فرع رشيد)، وفيه كورتان أو عملان: البحيرة وحاضرتها دمنهور، والمزاحمتين وحاضرتها فوه. وفيما يلي هاتين الكورتين غربا مدينة الاسكندرية.

وقد ظل هذا التقسيم الاداري لمصر هو الأساس الذي قام عليه نظام الولايات في العصر العثماني بعد ذلك، مع بعض الاختلاف في الحدود والمسميات.

٥ – اقليم الشـــام

يطلق اسم (الشام) على الاقليم الممتد من غرب الفرات الى ساحل البحر المتوسط الشرقي، وقد حدده الاصطخري وابن حوقل بقولهما: «وأما الشام فان غربيّها بحر الروم وشرقيها البادية من أيله الى الفرات ثم من الفرات الى حدّ الروم، وشماليها بلاد الروم، وجنوبيّها حدّ مصر وتيه بني اسرائيل. وآخر حدودها مما يلي مصر رفح، ومما يلي الروم الثغور وهي ملطيّة، والحدث، ومرعش، والهارونية، والكنيّسه، وعين زربة، والمصيصة، وأذنه، وطرطوس... وكل ماوراء الفرات من الشام». (الاصطخري ٦٢، وابن حوقل ١٥٣).

وعندما فتح العرب الشام في منتصف القرن السابع الميلادي واستولوا على الاقليم من الرومان سارت الجيوش الغازية في طريق القوافل المعروف الممتد من مخا باليمن مارا بمكة والمدينة حتى ينتهي الى دمشق، وهو الطريق الذي تحول بعد ذلك لخدمة الحج السوري. ولهذا فقد كانت الأقاليم الواقعة شرق الأردن والبحر الميت هي أول الأقاليم التي دخلت في حوزة الاسلام، ولم يسيطر المسلمون على مناطق الجليل ومنخفضات الأردن وفلسطين (الغور) الا بعد أن استولوا على دمشق والمنطقة التي حولها. ثم تبع ذلك مباشرة الاستيلاء على الأقاليم الواقعة الى الشمال من دمشق حيث المدن الكبرى: انطاكية وحمص. وهكذا تم فتح بلاد الشام. (Le Strange, Palestine 24).

وقد مر الشام بعدة مراحل من التقسيم الاداري، بدأت بمرحلة التقسيم الى (أجناد) – جمع جند – وانتقلت الى التقسيم الى كور، ثم انتهت بمرحلة التقسيم الى قواعد أو أعمال. ففي أعقاب الفتح العربي جند الخليفة الاداري العظيم عمر بن الخطاب الشام أربعة أجناد متفرقة في أيدي عماله، وهم أبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص. ومعنى كلمة «جند» في الأصل اللغوي فرقة من الجنود، وقد أطلق هذا الاصطلاح (أي الأجناد) على المناطق العسكرية التي استقرت فيها الفرق العربية

للحراسة أو الحماية، وهي جند دمشق، والى شماليه جند حمص، والى غربيه وجنوبه جند الأردن الذي يضم الجليل وبحر الجليل (بحيرة طبرية) ومنخفضات الأردن (الغور) جنوبا حتى البحر الميت، والى الغرب من ذلك جند فلسطين الذي يضم جميع المناطق الممتدة الى الجنوب من سهل عكا والواقعة الى الغرب من جند الأردن. (ابن رسته ١٠٧، Le Strange 25).

وعندما نجح معاوية في اسقاط علي بن أبي طالب وأخرج شعب الجزيرة من ولائهم له – أي لعلي – أنشأ في المناطق التي كانوا يقيمون فيها –أي الجزيرة– جندا آخر منفصلا سمى جند قنسرين. (الدمشقي). ولكن البلازري (١٣٢)، وهو مؤرخ متقدم (٨٦٩م) يذكر أن يزيد بن معاوية هو الذي أنشأ جند قنسرين الجديد بفصل اقليمه من جند حمص. وقد سمي الجند الجديد بهذا الاسم نسبة الى مدينته الرئيسية قنسرين، وكان يضم المناطق الشمالية المحيطة بحلب وانطاكية ومنبج (ياقوت ٣ /٧٤٢).

وهكذا استمر الشام منقسما الى هذه الأجناد الخمسة خلال عهد بني أمية، وكانت تتطابق الى حد كبير مع الأقاليم الادارية الرومانية والبيزنطية القديمة في الشام، وهي التي وجدها العرب عند الفتح وجاء وصفها في «مدونة ثيود وسيوس The Code of Theodosius»– التي ترجع الى القرن الخامس الميلادي. وهذه الأقاليم هي (انظر Le Strange Palestine 26) :

١ – فلسطين الأولى – Palaestina Prima – وقاعدتها (قيسارية)، وتضم هضاب اليهودية والسامرة، وقد حولها العرب بعد الفتح الى جند فلسطين وجعلوا قاعدتها الرملة.

٢ – فلسطين الثانية Palaestina Secunda، وقاعدتها (بيسان) وتضم الجليل الأعلى والأدنى، وقد حولها العرب بعد الفتح الى جند الأردن وجعلوا (طبرية) قاعدتها.

٣ – فلسطين الثالثة Palaestina Tertia، وتضم أرض أدوم واقليم البتراء العربي، وقد قسمها العرب بين جند دمشق وجند فلسطين.

٤ – فينيقيا الأولى Phoenicia Prima وقاعدتها (صور)، وفينيقيا الثانية أو لبنان Phoenicia Secunda، وقد أصبحتا بعد الفتح العربي، بالاضافة الى كثير من الأراضي الواقعة شرقي الأردن، جند دمشق الكبير.

٥ – سوريا الأولى Syria Prima وقاعدتها (أنطاكية)، وقد تحولت بعد الفتح العربي الى جند حلب أو قنسرين، أو بعبارة أدق، أصبح يضم ذلك الجزء من جند قنسرين الذي تكوّن كأقليم منفصل تحت اسم «جند العواصم».

٦ – سوريا الثانية Syria Secunda، وكانت تقع الى الشمال من فينيقيا الأولى والثانية وقاعدتها (حماه)، وقد حولها العرب الى جند حمص الذي يضم حماه.

وسوف نتناول فيما يلي كل جند على حدة، كما ورد في مؤلفات البلدانيين العرب، من حيث حدوده وما يشتمل عليه:

١ – **جند فلسطين** : هو أول أجناد الشام الخمسة من جهة الغرب، ويمتد من رفح الى حدّ اللجون، وعرضه من يافا الى أريحا، ويشتمل على بيت المقدس وغزة وعسقلان وقيسارية واللد والرملة ونابلس وأريحا وعمان وبيت جبريل. وكانت قاعدته القديمة (اللد)، ثم أنشأ الخليفة سليمان بن عبد الملك مدينة (الرملة) وجعلها الجند بدلا من اللد التي تهدمت وهجرها جميع سكانها الى العاصمة الجديدة. ويتألف سكان جند فلسطين من قبائل لخم وجذام وكندة وقيس وكنانة (اليعقوبي ١١٦ – ١١٧، ابن رسته ٣٢٨، الاصطخري ٥٥–٥٦، القلقشندي ٣ /٨٨).

٢ – **جند الأردن** : يمتد من بيسان وطبرية، وقاعدته (طبريه)، ويضم مدن صور وعكا وقدس وطبرية وبيسان وفحل وجرش والسواد. ويتبع هذا الجند جزء من الغور الذي يمتد من بحيرة طبرية الى البحر الميت، «فبعض الغور من جند الأردن الى أن تجاوز بيسان فاذا جاوزتها كان – أي الغور – من جند فلسطين» (ابن الفقيه ١١٦، الاصطخري ٥٩).

٣ – **جند دمشق** : هو أكبر الأجناد ويشتمل على تسع عشرة ناحية أو كورة صغيرة هي: الغوطة. حوران (ومعها السويداء) ومدينتها بصرى. البثينية ومدينتها أذرعات. الضاهر ومدينتها عمان. الغور ومدينتها أريحا (والمدينتان الأخيرتان – عَمّان وأريحا – هما أرض البلقاء). الجبال ومدينتها عرندل (أو «روات» طبقا للاصطخري). مؤاب وزعر، وبها القرية المعروفة بمؤته. الشراة ومدينتها أذرح. الجولان ومدينتها بانياس. ناقله. جبل سنير. بعلبك. جبل الجليل. لبنان. عرقه. طرابلس. جبيل. صيدا. بيروت. (ابن رسته ٣٢٦).

٤ – **جند حمص** : يضم سبع عشرة كورة صغيرة هي: التمة. الرستن. حماه. صوّران. فامية. سلميه. تدمر. تلمّنس. شيزر. كفرطاب. الاطميم. بالاضافة الى أربع كور صغيرة ساحلية هي: اللاذقية. جبله. بلنياس. طرطوس. (ابن رسته ٣٢٤).

٥ – **جند قنسرين** : يقع بعضه في أرض الجزيرة شرقي الفرات والبعض الآخر في أرض الشام غربي الفرات، وقصبته حلب. وأما قنسرين «فهي مدينة تنتسب اليها الكورة – أي الجند – ولكنها من أصغر المدن بها. ومعرة النعمان مدينة أخرى في هذه الكورة». (الاصطخري ٧٠). ويضيف اليها المقدسي كذلك معرّة قنسرين، ويطلق على الأخيرتين اسم (المعرّتين).

وكانت هذه الأجناد تمثل كور الشام أو أقسامه الادارية، فكما يقول الاصطخري (٥٥–٥٦) «وكور الشام انما هي جند فلسطين وجند الأردن

وجند دمشق وجند قنسرين والعواصم والثغور».

وبعد سقوط الدولة الأموية وتولي العباسيين الخلافة ونقل عاصمة الدولة الاسلامية الى بغداد على نهر دجله، ونتيجة لفتوحات الخليفة المنصور وخلفائه في الشمال وبالتالي امتداد الحدود الشمالية للشام، وجد هارون الرشيد (نحو ١٧٠ = ٧٨٦) من الضروري تقسيم جند قنسرين الذي شمله ذلك الامتداد والتوسع، ففصلت منه المنطقة المتاخمة لحدود الروم التي تمتد من أنطاكية على الساحل في الغرب الى حلب ومنبج في الشرق، وأنشيء في هذه المنطقة جند جديد تحت اسم «جند العواصم». والى الشمال من هذا الجند – على الحدود الفعلية – كان هناك اقليم الثغور وهو الاقليم الذي يضم قلاع الحدود، التي كانت تقسم عادة الى قسمين: ثغور الشام في الغرب، وثغور الجزيرة في الشرق. وكانت سلسلة ثغور (أو قلاع) الشام تمتد من طرسوس وأدنه في الغرب، مارة بملطيه وحصن منصور، حتى خط منابع الفرات عند سميساط وبالس في الشرق (الدمشقي ١٩٢ ، ٢١٤ ، Le Strange 32).

وقد أورد المقدسي (٩٨٥م) تقسيما للشام الى ست كور تختلف اختلافا طفيفا عن الأجناد. الا أن هذا الاختلاف ظاهري أكثر منه حقيقي (LE Strange 39). فالكور التي ذكرها المقدسي هي نفس الأجناد الخمسة السابقة مع اضافة كورة أخرى هي كورة الشراة، وبعض التغيرات في الحدود، هذا عدا العواصم والثغور. وفيما يلي كور الشام الست التي أوردها المقدسي والتي تمثل الوضع الاداري للشام في أواخر القرن الرابع الهجري (المقدسي ١٥٤ – ١٥٥):

١ – **كوْرة قنسرين** : (حلب)، وتضم من المدن: انطاكية واسكندرونه، وبالس، والسويدية، وسميساط، وقنسرين، ومنبج، وبياس، ورفانيه، وشيزر، والجوّن، وحماه، ومعرة النعمان، ومعرة قنسرين.

٢ – **كورة حمص** : قاعدتها (حمص) ومن مدنها: سلميه، وتدمر،

والخناصره وكفرطاب، واللاذقية، وجبله، وطرطوس، وبلنياس، وحصن الخوابي.

٣ - **كورة دمشق** : وقد سميت باسمْ قصبتها، وتضم من المدن: بانياس، وصيدا، وبيروت، وطرابلس، وناحية البقاع حيث مدينة بعلبك. ولدمشق ستة رساتيق هي: الغوطة، وحوران، والبثنية، والجولان، والبقاع، والحولة.

٤ - **كورة الأردن** : قصبتها (طبرية)، ومن مدنها: قدس، وصور، وعكا، واللجون، وبيسان، وأذرعات.

٥ - **كورة فلسطين** : قصبتها (الرملة)، ومن مدنها: بيت المقدس، وبيت جبريل، وغزه، وعسقلان، ويافا، وأرسوف، وقيسارية، ونابلس، وأريحا، وعمان.

٦ - **كورة الشراه** : قصبتها (صغر)، ومن مدنها: مؤاب، ومعان، وتبوك، وأذرح، وويله (أيله)، ومدين.

وقد تلاشى نظام الأجناد (أو الكور) نهائيا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) على يد الصليبيين وبقيام الامارات الصليبية في الشام. وبعد أن طرد صلاح الدين وخلفاؤه الصليبيين وأعادوا السيادة الاسلامية الى الشام أصبح هذا الاقليم يتبع حاكم مصر اسميا، ولكنه في الحقيقة مقسم الى تسع ممالك بين عدد من السلاطين الصغار هم أحفاد صلاح الدين واخوته (الدمشقي ١٩٨ - ٢١٢).

٦ - اقليم العـراق

قسمت الطبيعة سهل مابين النهرين - دجله والفرات- الى قسمين: الشمالي (وهو مملكة آشور القديمة) ومعظمه مراع تغطي سهلا صخري الأصل. والجنوبي (وهو بلاد بابل القديمة) وأرضه رسوبية خصبة تسقيها أنهار

الري. وقد سمى العرب مابين النهرين الشمالي بالجزيرة Mesopotamia، والجنـــوبي بالعراق أو «السواد» أي الأرض السوداء. واتسع مدلول «السواد» حتى صارت هي والعراق لفظين مترادفين في الغالب. كما استخدم لفظ السواد في معنى آخر وهو مايحيط بمدينة من المدن من أراض زراعية، فقيل سواد بغداد وسواد البصرة وسواد الكوفة (لي سترينج ٤٠ - ٤١).

وقد كانت أحوال العراق الطبيعية في العصر الاسلامي تختلف اختلافا بينا عما هي الآن نظرا لما طرأ عليها من تغير عظيم في مجاري أنهار الفرات ودجله ومانجم عن ذلك من خراب في قنوات الري العديدة التي كانت زمن الخلفاء الأوائل وجعلت من العراق حينذاك جنة الله في أرضه. فكان شط العرب عبارة عن مجرى عريض أو فيض عظيم يتكون من اقتران مياه دجله والفرات ثم يصب في خليج فارس بعدة أفرع. وقد سمي هذا الفيض بالبطيحة العظمى، فقد كانت تغطي رقعة يبلغ عرضها ٥٠ ميلا وطولها قرابة ٢٠٠ ميل، وتمتد جنوبا حتى البصرة. وكان نهر دجله منذ صدر الاسلام حتى منتصف القرن الرابع الهجري، اذا تجاوز أسفل بغداد بمائة ميل انحرف عن اتجاهه الجنوبي حيث مجراه الحالي، فانساب الى مدينة (واسط) في مجرى يعرف اليوم (بشط الحي أو الحيّة). وعلى نحو ٦٠ ميلا أسفل واسط كانت مياه دجله تتوزع على قنوات الري، ثم تتشـعب بقيـة ميـاه النهـر وتفنى في البطيحـة العظمى. (لي سترينج ٤٢ - ٤٣).

وقد رسم الاصطخري حدود اقليم العراق على النحو التالي: من الشرق الحدّ الممتد من تكريت شمالا الى عبادان على بحر فارس جنوبا، مارا بحدود شهرزور ثم حدود حلوان (وهي حدود اقليم الجبال) وحدود السيروان والصّميرة (وهما ضمن اقليم الجبال أيضا) وحدود الطيب وحدود السوس حتى ينتهي الى حدود جبّى (وهي كلها من مدن خوزستان المتاخمة للعراق) ثم الى البحر عند عبادان. فيكون في هذا الحدّ من تكريت الى البحر تقويس. ومن الغرب الحدّ الممتد من وراء البصرة في البادية على سواد البصرة وبطائحها شمالا الى واسط ثم

سوادَ الكوفة، ثم على ظهر الفرات الى الأنبار، ثم من الأنبار الى تكريت بين دجله والفرات. وفي هذا الحدّ من البحر الى تكريت تقويس أيضـــا (الاصطخري ٧٨ – ٧٩).

وقد تغيرت الحدود بين العراق والجزيرة في أزمنة مختلفة، فكان الحدّ بينهما لدى البلدانيين العرب الأوّلين يطابق بوجه عام خطا يذهب شمالا من الأنبار على الفرات الى تكريت على دجله. وكانت كلتا المدينتين من أعمال العراق. أما من أعقبهم من البلدانيين فقد جعلوا الخط يذهب من تكريت باتجاه الغرب تقريبا، وبذلك أدخلوا في العراق كثيرا من المدن التي على الفرات شمال الأنبار. وهذا الخط، بالنظر الى الجغرافيا الطبيعية، أقرب الى التقسيم الطبيعي بين الاقليمين، وهو يقطع الفرات من (عانه) حيث ينعطف النهر انعطافه الكبير نحو الجنوب (لي سترينج ٤١).

وعندما وصف ابن خرداذبة وقدامه بن جعفر اقليم العراق في القرن الثالث الهجري ذكر أن هذا الاقليم قُسِّم الى اثنتي عشرة كورة، كل كورة استان، وطساسيجه ستون طسوجا. وهذا التقسيم، الذي كان الأصل فيه لغايات مالية، قد أعاد ابن رسته والمقدسي سرد شيء منه، حيث ذكر ابن رسته أن العراق «قسم الى اثنتي عشر استانا، وقسمت هذه الاستانات الى ستين طسوجا أي ناحية، أضيف كل طسوج الى اسم» (ابن رسته ١٠٧) وأجمل المقدسي عدد الطساسيج في كل استان (١٣٣). وعليه يحسن بنا أن نذكر الاستانات الاثنى عشر وأشهر طساسيجها ويتألف ثبت هذه الاستانات من ثلاث مجموعات تتفق مع الأنهار التي تسقيها ومآخذ تلك المياه (ابن خرداذبه ٥–٨، قدامه ٢٣٥–٢٣٦):

المجموعة الأولى: تتألف من أربعة استانات وهي التي تعرف في جانب دجله الشرقي، وسقيها من هذا النهر، وهي:

١ – استان شاد فيروز، وهي حلوان. ويقال لها أيضا شاذ فيروز. وفيه خمسة طساسيج: طسوج تامرا، وطسوج خانقين، وطسوج فيروز قباذ، وطسوج الجبل، وطسوج اربل (ابن خرداذبة ٦)

٢ – استان شاذ هرمز حول بغداد، وفيه خمسة طساسيج: طسوج نهر بوق، وطسوج كلوذاي وطسوج راذان الأسفل، وطسوج بزرجسابور، وطسوج جازر (ابن خرداذبه ٦).

٣ – استان شاذ قباذ (الذي أطلق عليه قدامه استان بغداد) وبه ثمانية طساسيج هي: طسوج جلولاء (وقد أسماه قدامه طسوج خسرو شاذ هرمز)، وطسوج البندنيجين، وطسوج براز الروز، وطسوج الدسكره، وطسوج رستقباذ، وطسوج مهروذ، وطسوج الذيبين (ابن خرداذبة ٦).

٤ – استان بازيجان خسرو، ويقال له النهروان (وأسماه قدامه أرندين كرد)، وبه خمسة صساسيج : طسوج النهروان الأعلى، وطسوج النهروان الأوسط، وطسوج النهروان الأسفل، وطسوج بادرايا، وطسوج باسكايا. (ابن خرداذبة – ٧).

المجموعة الثانية : وهي تضم استانين كل سقيهما من كلا دجلة والفرات، وهما:

٥ – استان كسكر (أو استان شاذ سابور)، ويضم أربعة طساسيج حول واسط، وهي: طسوج الزندورد، وطسوج الثرثور، وطسوج الاستان، وطسوج الجوازر (ابن خرداذبه – ٧).

٦ – استان شاذ بهمن على نهر دجلة الاسفل، وفيه أربعة طساسيج هي: طسوج ميسان، وطسوج دستميسان، وطسوج بهمن أردشير، وطسوج

ابزقباذ، ويقع دستميسان حول الأبلّة. (ابن خرداذبة – ٧).

المجموعة الثالثة : وتشمل ستة استانات تقع جميعها غربي دجلة، وكان سقيها من نهر دجيل القديم ومن الأنهار الكبيرة الآخذة من الفرات شرقا الى دجلة. (لي سترينج ١٠٩). وتنقسم هذه المجموعة قسمين:

القسم الأول: ويشمل ثلاثة استانات هي:

٧ – استان العالي، وطساسيجه أربعة تقع بامتداد نهر عيسى وهي: طسوج فيروز سابور (وهو الأنبار)، وطسوج مسكن، وطسوج قطربل، وطسوج بادوريا. (ابن خرداذبة – ٧).

٨ – استان أردشير بابكان وهو أدنى الاستان السابق ويقع على امتداد نهر كوثى والنيل، وفيه خمسة طساسيج: طسوج بهرسير، وطسوج الرومقان (بازاء المدائن)، وطسوج نهر درقيط، وطسوج نهر جوبر. (ابن خرداذبة – ٧).

٩ – استان الزوابي، ويقع الى الشرق من الاستان السابق، وطساسيجه ثلاثة: طسوج الزاب الأعلى، وطسوج الزاب الأوسط، وطسوج الزاب الأسفل. (ابن خرداذبه – ٨).

القسم الثاني : ويشمل ثلاثة استانات هي:

١٠ – استان بهقباذ الأعلى وهو ستة طساسيج: طسوج بابل (حول خرائب بابل)، وطسوج الفلوجة العليا، وطسوج الفلوجة السفلى، وطسوج خطرنية، وطسوج النهرين، وطسوج عين التمر (على بعد يسير من غرب الفرات). ابن خرداذبة – ٨).

١١ –استان بهقباذ الأوسط، وفيه أربعة طساسيج هي: طسوج نهر البداه، وطسوج سورا وبربسيما، وطسوج باروسما، وطسوج نهر الملك. (ابن خرداذبة – ٨).

١٢ –استان بهبقاذ الأسفل، وبه خمسة طساسيج تقع على الفرات الأسفل حيث يدخل البطيحة العظمى، وهي: طسوج فرات بادقلي، وطسوج السيلحين، وطسوج نستر، وطسوج روذستان، وطسوج هرمز جـــرد. (ابن خرداذبه – ٨).

ويتبين لنا من هذه الأسماء تقسيمات الأقاليم التي أخذها العرب عن الساسانيين. فقد كان أردشير بابكان مؤسس الدولة الساسانية، وشاذ فيروز معناها بالفارسية الطالع السعيد، ومعنى بهبقاذ أرض قباذ الطيبة، وشاذ بمعنى مجد، فشاذ هرمز وشاذ قباذ سابور وشاذ بهمن ينّوه كلها بأسماء أربعة من أشهر ملوك الفرس. (لي سترينج – ١٠٩).

ويتضح من تقسيم المقدسي للعراق في عهده (القرن الرابع الهجري) أن الكور أو الأساتين المذكورة قد تغيرت عما كانت عليه في العصر الأول، أي بعد الفتح العربي. ويتبين هذا من قول المقدسي: «وقد جعلناه –أي العراق– ست كور وناحية، وكانت الكور في القديم غير هذه إلا حلوان. ولكنّا أبدا نجري الأمر على ماعليه الناس، وأدخلنا الكور القديمة والقصبات في الأجناد، واسم هذه الكور والقصبات واحد» (المقدسي – ١١٤). وقد أورد المقدسي ثبتا لهذه الكور الست على النحو التالي (المقدسي – ١١٤ /١١٥).

١ – كورة الكوفة، وهي أولى الكور من قبل ديار العرب، ومن مدنها: حمام ابن عمر. الجامين. سورا. النيل. القادسية. عير التمر.

٢ – كورة البصرة، ومن مدنها: الابلّه. شقّ عثمان. زبان. بدران. بيان. نهر

الملك. دبّا. نهر الأمير. أبو الخصيب. سليمانان. عبّادان. المطّوعة. القندل. المفتح. الجعفرية.

٣ - كورة واسط، ومن مدنها: فم الصلح. درمكان. قراقبه. سيادة. باذبين. السكر. الطيب. قرقوب. قرية الرمل. نهر تيري. لهبان. بساميه. أودسه.

٤ - كورة بغداد، ومن مدنها: النهروان. بردان. كاره الدسكره. طراستان. هارونية. جلولاء. باجسري. باقبه. اسكاف. بوهرز. كلوذاي. درزيجان. المداين. كيل. سيب. دير العاقول. النعمانيه. جرجرايا. جبّل. نهر سابس. عبرتا. بابل. عبدس. قصر هبيره.

٥ - كورة حلوان، ومن مدنها: خانقين. زبوجان. شلاشان. الجامد. الحرّ. السيروان. بندنيجان.

٦ - كورة سامرّا، ومن مدنها: الكرخ. عبكرا. الدور. الجامعين. بتّ راذانان. قصر الجص. جوى. أيوانا. بريقا. سنديّة. راقفروبه. دممّا. الأنبار. هيت. تكريت. السن.

٧ - اقليم الجزيرة

يقع هذا الاقليم في القسم الشمالي من سهول ما بين النهرين، وقد سبق تحديده من الجنوب بالخط الواصل بين الأنبار وتكريت، والذي تغير بعد ذلك الى الخط الممتد بين تكريت وعانه. أما الحدّ الشمالي لاقليم الجزيرة فكان يمر بأعالي دجله والفرات. وقد رسم الاصطخري حدود هذا الاقليم بكثير من الدقة في قوله: «ويمتد حدّه على نهر الفرات من مخرجه من بلاد الروم عند ملطية مارا بسميساط وجسر منبج وبالس الى الرقة وقرقيسيا والرحبة وهيت الى أن ينتهي عند الأنبار، وهنا ينقطع حدّ الفرات مما يلي الجزيرة حيث تتجه

الحدود الى تكريت وهي على نهر دجلة ثم الى الحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر ثم تتجاوز آمد ثم تمتد الى الغرب الى سميْساط ثم تنتهي الى مخرج الفرات في حدّ الاسلام من حيث ابتدأنا» (الاصطخري ٧١ - ٧٢).

وقد وصف المقدسي اقليم الجزيرة تحت اسم (اقليم آقور)، وأصل هذه التسمية غير واضح ولكن يبدو أنها كانت تطلق على هذا السهل في شمال ما بين النهرين حينا من الزمن. كذلك يصفه المقدسي بأنه «ثغر من ثغور المسلمين ومعقل من معاقلهم، لأن (آمد) اليوم دار جهادهم و(الموصل) من أجلّ أنضادهم، ومع ذلك هو واسطة بين العراق والشام، ومنازل العرب في الاسلام». (المقدسي ١٣٦ - ١٤٠). وهو يعني بمنازل العرب في الاسلام أن اقليم (آقور) قسم بعد الفتح العربي على بطون العرب الى ديار أو كور ثلاث: ديار ربيعة، وديار مضر، وديار بكر. وقيل أن هذه القبائل نزلت هذا الاقليم من قبل الاسلام عندما كان يحكمه الساسانيون فعرف كل من هذه الديار بقبيلته. (لي سترينج - ١١٤). وكانت حدود هذه الكور أو الديار الثلاث تعينها فواصل مائية على النحو الذي نفصله فيما يلي:

١ - **ديار بكر** : وهي سقى دجله من منبعه الى منعطفه أدنى (تل فافان) مع الأراضي التي تقع الى الشمال منها. وكانت تسقي هذه الديار روافد دجله الكثيرة التي تصب في يساره غربي تل فافان. وديار بكر أصغر الديار الثلاث التي يتألف منها اقليم الجزيرة، وقصبة هذه الديار (آمد) التي تقع غربي نهر دجله أي يمينه. ومن أهم مدن هذه الديار (ميافارقين) و(تل فافان). (المقدسي١٣٦ - ١٤٠، لي سترينج ١١٥).

٢ - **ديار مضر** : وهي الى الجنوب الغربي من أرض الجزيرة، وتمتد في الأراضي المحاذية للفرات من (سميساط) حتى يغادر سلاسل الجبال منحدرا الى (عانه)، كما تشمل السهول التي يسقيها نهر البليخ رافد الفرات القادم من (حران). وقصبة هذه الديار (الرقة) وهي تقع على مصب البليخ المنحدر من

الشمال الى الفرات. وعلى جانب الفرات الأيمن – مما يلي الشام – بازاء الرقة أرض (صفين) المشهورة، وكان البعض يضمها الى الجزيرة والبعض الآخر يضمها الى الشام. كذلك توجد مدينة (قرقسياء) على بعد ٢٠٠ ميل أدنى (الرقة) على ضفة الفرات اليسرى. كما تقع (الرحبة) مجاورة للرقة على بعد ستة فراسخ منها على الجانب الغربي (الأيمن) من الفرات ومن أهم المدن الواقعة في أرض الجزيرة : المحترقة، والرافقه، وحرّان، والرها. ومن أهم المدن الأخرى في ديار مضر: بالس، وجسر منبج، وسميساط، وكانت تحسب جميعها من أعمال الشام في الغالب لوقوعها على يمين الفرات أي في جانبه الغربي، وان عدّها بعض المؤلفين من أعمال الجزيرة. (المقدسي ١٣٦ – ١٤٠، لي سترينج ١١٥).

٣ – **ديار ربيعة** : تقع الى الشرق من ديار مضر وهي أول الديار الثلاثة من قبل العراق. وتتألف من الأراضي التي في شرقي الخابور الكبير المنحدر من (رأس العين) والأراضي الواقعة شرق نهر الهرماس الذي ينساب في وادي الثرثار نحو الشرق الى دجله، وكذلك من الأراضي الممتدة على ضفتي نهر دجله بانحدار النهر من (تل فافان) الى (تكريت)، أي الأراضي التي في غرب دجلة حتى (نصيبين) والتي في شرقه المشتملة على السهول التي يسقيها الزاب الأسفل والزاب الأعلى ونهر الخابور الصغير. وكانت (الموصل) قاعدة ديار ربيعة، كما كانت قاعدة اقليم الجزيرة في عهد مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية، وهي تقع على ضفة دجله الغربية حيث تتصل روافد النهر فتكون مجرى كبيرا واحدا، ومن هذا الاتصال أخذ اسمها. ومن أهم ديار ربيعة الأخرى: الحديثة،

وتل أعفر، وسنجار ونصيبين، واربل، والعمادية (شمال الموصل بالقرب من منابع الزاب الأعلى)، وفيسابور (جنوب مصب نهر خابور الصغير في نهر دجلة)، وجزيرة ابن عمر، ورأس العين، وماردين (شمال رأس العين ونصيبين). (المقدسي ١٣٦ – ١٤٠، ولي سترينج ١١٩ – ١٢٠).

وكانت المدن والكور التي تحف بضفاف الفرات الأعلى، الشرقي والغربي،

تعدّ بوجه عام تابعة لاقليم الجزيرة، ومن أهمها: شمشاط. أرزن الروم (ارزورم أو ارضروم). قاليقلا. ارزنجان. ملطية. زبطره. الحدث. حصن منصور. قلعة بهنسا (لي سترينج ١٤٧). (انظر الخريطة المرفقة).

ثانيا : أقاليم العجم

خوزستان. فارس. كرمان. السند. الرحاب. الديلم. الجبال خراسان. سجستان. ماوراء النهر

١ – اقليم خوزستان

يقع اقليم خوزستان في جنوب الجبال وشرقي العراق على جانبي المجرى الأدنى لنهر قارون أي (دجيل) وفروعه العديدة، والى الشرق من خوزستان – على الخليج – اقليم فارس. وقد حدد الاصطخري هذا الاقليم «من الشرق بحدّ فارس وأصبهان، ويفصل نهر طاب بين اقليمي خوزستان وفارس من ناحية أصبهان، ومن الغرب حد رستاق واسط بالعراق ودور الراسبّي (بين واسط وشهرزور)، ومن الشمال حدّ الصميرة وكرخا واللور (في اقليم الجبال)، ومن الجنوب تحده عبادان ويمتد الحدّ الجنوبي الى رستاق واسط». (الاصطخري–٨٨–٨٩).

ويتكون هذا الاقليم من الأرض الرسوبية التي كونها قارون وروافده الكثيرة. وقد عرف العرب هذا النهر باسم (دجيل الأهواز): ودجيل تصغير دجله. والأهواز لأنه يمر بها وكانت قاعدة الاقليم. (لي سترينج – ٢٦٧).

وينقسم هذا الاقليم الى سبع كور – أو استانات – ولهذا سمي (سبع الكورات)، وتعارف الناس على ذلك. وفيما يلي هذه الكور السبع (المقدسي ٤٠٤ – ٤١٣، لي سترينج ٢٦٧ – ٢٧٦):

١ - كورة أو استان السوس (سوسه): وهي أولى الكور السبع أي من قبل اقليم الجبال، وتقع على تخوم العراق، وقصبتها (السوس) - وهي سوسة القديمة - ولا تزال أطلالها جنوب غربي (دزفول).

٢ - كورة أو استان جند يسابور : وهي متصلة بتخوم اقليم الجبال ويسكنها قبائل من اللور. وقصبة هذه الكورة (جند يسابور) التي لاتزال أطلالها الى اليوم يقال لها (شاه أباد). وكانت جنديسابور قاعدة اقليم خوزستان زمن الساسانيين. وتضم هذه الكورة مدن (دزفول) التي على جانبي النهر المسمى باسمها، جنوبي جند يسابور.

٣ - كورة أو استان تستر : وقد سميت باسم قصبتها (تستر) الواقعة على نهر دجيل بعد أن يشق مجراه المتعرج سلسلة الجبال، ولذلك سمى النهر هنا (دجيل تستر). وكانت هذه المدينة تعتبر قصبة خوزستان الثانية بعد الأهواز، وكان الفرس يسمونها (شوستر). وفي القرن الثامن الهجري أصبحت هي قاعدة اقليم خوزستان.

٤ - كورة أو استان العسكر - أو عسكر مكرم - وقصبتها بنفس الاسم. وتقع مدينة عسكر مكرم على نهر دجيل أيضا، وتدل عليها اليوم أطلال (بندقير) الواقعة الى الشمال من ملتقى نهر المسرقان بنهر دجيل.

٥ - كورة أو استان الأهواز - أو هرمز شهر - وقصبتها (الأهواز) التي هي في نفس الوقت قصبة الاقليم كله، واسمها الفارسي (هرمز أردشير)، وتقع عند ملتقى نهر دجيل بنهر جند يسابور أو نهر دزفول.

٦ - كورة أو استان سرّق : وهي تتاخم العراق وتقع على نهر الدورق الذي يصب في نهر دجيل من الشرق. وقصبة هذه الكورة (الدورق)، ولهذا أطلق عليها المقدسي اسم كورة الدورق، أو دورق الفرس.

٧ – كورة أو استان مهرمز: وقد سميت باسم قصبتها وهي كورة جبلية تتاخم اقليم فارس وتقع الى الشرق من الأهواز.

٢ – اقليم فـارس

كان اقليم فارس موطن الدولة الاخمينية وقاعدة حكومتها، وقد عرفه اليونان باسم (برسيس Persis) ومنه اشتق اسم Persia أي فارس. «ويحيط بهذا الاقليم من الشرق حدود كرمان، ومن الغرب حدود خوزستان وأصبهان، ومن الشمال المفازة التي تفصل هذا الاقليم عن خراسان وبعض حدود اصبهان، ومن الجنوب بحر فارس» (الاصطخري ٩٦ – ٩٧).

وقد ورث العرب عن المملكة الساسانية تقسيم فارس على ستة أقسام ادارية يقال لكل قسم كورة أو استان، وظل هذا التقسيم معمولا به أيام المغول. وفيما يلي هذه الكور الست، مرتبة من الأكبر الى الأصغر (الاصطخري ٩٧، المقدسي ٤٢٠ – ٤٣٠، لي سترينج ٢٨٣ – ٣٢٥):

١ – كورة أو استان اصطخر (اصطخرستان)، وهي أوسع الكور الست وتشمل جميع القسم الشمالي من اقليم فارس، وسميت باسم قصبتها (اصطخر) التي هي (برسيبوليس) القديمة قصبة فارس الساسانية. ومن أهم مدن هذه الكورة (يزل) وان كان البعض يجعلها ضمن النواحي.

٢ – كورة أو استان أردشير خرّة، وهي منسوبة الى الملك أردشير مؤسس الدولة الساسانية، وتلي اصطخرستان في الاتساع، وأكثرها ممتد على بحر فارس، وقصبتها (سيراف) التي ظلت أهم مواني بحر فارس حتى هدمها زلزال عام ٣٦٧. وكان يقال للساحل البحري في كورة أردشير خره

(السيف) أي الشاطىء. وكان لها ثلاثة أسياف هي: سيف عمارة في شرق جزيرة قيس، وسيف زهير على الساحل حول سيراف، وأخيرا سيف المظفر الى شمال نجيرم غرب سيراف، وكان هذا الأخير يمتد حتى جنّابه في كورة أرّجان.

٣ – كورة أو استان دارابجرد: وهي أبعد كور فارس نحو الشرق، وقصبتها (دارابجرد) وقد سميت باسم من بناها من ملوك الفرس. وقد صارت هذه الكورة اقليما قائما بذاته زمن الحكم المغولي وسميت في القرن السابع الهجري باسم (شبان كاره).

٤ – كورة أو استان أرّجان: وهي أولى الكور الست من قبل خوزستان، سهلية جبلية بحرية، وقصبتها (أرجان) الواقعة على نهر طاب الذي يعتبر الحدّ الفاصل بين فارس وخوزستان.

٥ – كورة أو استان سابور (أو شابور خرّه): وهي كورة قريبة من الجبال، وتعتبر أصغر كور اقليم فارس ولاتتعدى حدودها حوض نهر شابور الأعلى وروافده وقصبتها (شهرستان).

٦ – كورة أو استان شيراز: وهي باسم قصبتها. وكانت مدينة شيراز قصبة اقليم فارس كله في نفس الوقت. ولعل مابلغته من منزلة يرجع –على ماذكره المقدسي– الى كونها في وسط الاقليم، اذ يقال انها على ستين فرسخا من الحدود في كل جهة من الجهات الأربع، وعلى ثمانين فرسخا من كل زاوية من زوايا الاقليم الأربع.

وبالاضافة الى هذه الكور أو الأساتين كان اقليم فارس يضم نواحي: الروذان، ونيريز، وخسو (أو كسو الحالية). كذلك كانت جزر الخليج تعدّ من أعمال فارس ومن أهمها جزر خارك وقيس وقشم، وكانت جزيرة (قيس) مركزا تجاريا ذا شأن قبل نشأة مدينة هرمز.

٣ - اقليم كرمـان

يقع معظم هذا الاقليم - على ما ذكره الاصطخري - «في المفازة العظمى، وفي اضعاف مدنه مفاوز كثيرة، وليس اتصال عماراتها مثل اتصالات عمارات فارس». وتحد هذا الاقليم من الشرق أرض مكران ومفازة مابين مكران والبحر، ومن الغرب أرض فارس ومن الشمال مفازة خراسان وسجستان، ومن الجنوب بحر فارس. (الاصطخري ١٥٨).

وقد جعل المقدسي هذا الاقليم خمس كور (أو استانات)، سميت كل منها باسم قصبتها (المقدسي ٤٦٠ - ٤٦٦):

١ - كورة بردسير، وهي أولى الكور من قبل فارس مما يلي المفازة، وموقع مدينة (بردسير) مكان مدينة كرمان الحالية القائمة قرب الناحية التي مازالت تعرف بناحية بردسير (لي سترينج ٣٣٨).

٢ - كورة نرماسير، وهي على حافة المفازة شرقا من نحو سجستان.

٣ - كورة السيجان، وهي تقع الى الغرب من كورة بردسير على حدود فارس. وتعتبر مدينة (السيرجان) قصبة الكورة وقصبة الاقليم كله، وهي أجلّ مدن اقليم كرمان.

٤ - كورة بمّ، وهي تقع حول المدينة التي بهذا الاسم على حافة المفازة العظمى عند الحد الشرقي لكرمان.

٥ - كورة جيرفت، وتقع جنوب شرقي بم على حافة المفازة، وتتاخم بحر هرمز (بحر فارس) كما أنها تصاقب مكران.

٤ - اقليم السند

يحد هذا الاقليم من الشرق والشمال بلاد الهند، ومن الغرب كرمان ومفازة سجستان واقليم سجستان، ومن الجنوب مفازة بين مكران والقفص ومن ورائها بحر فارس. (الاصطخري ١٧٠). ويشتمل هذا الاقليم على ست كور فيما يلي تفصيلها (المقدسي ٤٧٤ - ٤٧٨، لي سترينج ٣٦٧ - ٣٧١):

١ - كورة (أو استان) مكران، وهي أولى الكور الست من قبل كرمان، وتوصف بأنها كورة جبلية سهلية ساحلية، وتعتبر امتدادا للمفازة الكبرى، ولهذا لم يكن لهذه الكورة شأن سياسي أو اداري يذكر. وكانت قصبة الكورة في القرن الرابع الهجري (فنّزبور) أو (بنّجبور) وهي في موضع داخل البلاد يعرف اليوم باسم (بنج كور). وأهم مركز تجاري في كورة مكران فرضة (التيز) الواقعة على ساحل بحر فارس. ومن أهم مدن الكورة: مشكه، ودمندان، ودشت على نهر التيز.

٢ - كورة طوران: وكانت تمتد بين مكران والسند، وغالبا ماكانت تضم اليها مافي شمالها من أرض الناحية المعروفة (بالبدهه). وقصبة هذه الكورة (قزدار) أو (قصدار).

٣ - كورة السند : نسبة الى نهر السند، وكان العرب يسمونه أيضا نهر (مهران). وقصبة الكورة (المنصورة)، ومن أهم مدنها: الديبل وهي فرضة السند وتقع على مصب النهر.

٤ - كورة ويهند : وهي تقع الى الشرق من السند، وهي قصبتها، ومن مدنها: كنبايه (كمباي)، وسرباره، وقامهل.

٥ - كورة قنّوج : وهي القصبة أيضا، ومن مدنها : قدار، وأبار، وكهاره.

٦ – كورة الملتان : وقد سميت باسم قصبتها مدينة (الملتان) الواقعة على رافد من روافد السند وهو السندروز (نهر جيلم). ومن مدن هذه الكورة: برارا، وراماذان.

٥ – اقليم الجبال

هذا الاقليم الجبلي الذي سماه اليونانيون (ميديا Media) والذي يمتد من سهول العراق والجزيرة في الغرب والجنوب الى مفازة فارس الملحية الكبرى في الشرق، أطلق عليه البلدانيون العرب اقليم الجبال، وظلت هذه التسمية مستعملة حتى الفتح المغولي. وقد حدد الاصطخري اقليم الجبال من الشرق بمفازة خراسان وفارس وأصبهان وشرقي خوزستان، ومن الشمال أذربيجان والديلم، ومن الغرب العراق، ومن الجنوب خوزستان. (الاصطخري ١٩٥).

وينقسم هذا الاقليم الى خمس كور، بيانها على النحو التالي (المقدسي ٣٨٤ – ٣٩٢، لي سترينج ٢٢٠ – ٢٥٠):

١ – كورة قرمسين (أو قرماسين أو قرماشين)، وهي كرمانشاه الحالية، يستدل على ذلك من وصف القزويني لها (في القرن السابع الهجري) حيث ذكر أنها «بقرب كرمانشاه فكأنهما بلدة واحدة». وقد أصبحت هذه الكورة – أو الولاية – تعرف أيام السلاجقة (بكردستان) أي بلاد الكرد. ومن أهم مدن هذه الكورة غير قصبتها: الدينور، شهرزور، وحلوان، وقد اعتبرها المقدسي كورة تابعة للعراق كما سبق أن بينا. وقد سميت الدينور زمن الفتح الاسلامي لبلاد فارس باسم (ماه الكوفه)، ويرجع ذلك – كما يذكر اليعقوبي – الى أن «مالها كان يحمل في أعطيات أهل الكوفة».

٢ - كورة همدان : وهي متوسطة في الاقليم، وقد كتبها العرب همذان - وهي (أكبتانا) القديمة قاعدة اقليم ميديا. وقد أصبحت مدينة همدان قصبة الكورة. وجاء في وصف ياقوت لها انها أربع وعشرون رستاقا لكل رستاق قصبة. وتقع نهاوند (فتح الفتوح) على نحو ٤٠ ميلا جنوب همدان، وقد سميت زمن الفتح الاسلامي لفارس (ماه البصره) لأن خراجها كان يحمل في أعطيات أهل البصرة كخراج الدينور الذي كان يحمل في أعطيات أهل الكوفة.

٣ - كورة لورستان (أو بلاد اللور) : واللور اسم لبعض القبائل التي ماتزال مواطنها جنوب مواطن الأكراد في جبال زاجروس بايران. وكانت منطقة اللور تنقسم قسمين: اللور الكبرى وهي تعد من نواحي خوزستان، وكورة اللور الصغرى وهي التي نحن بصددها من نواحي الجبال. ومن أهم مدن هذه الكورة : برجرد، وخرّاماباد، وشابورخواست، والسيروان، والصميره. والأخيرتان على حدود العراق الشرقية.

٤ - كورة أصفهان : تقع في الجنوب الشرقي من اقليم الجبال غير بعيد من المفازة الكبرى، وقصبتها (أصفهان)، وكتبها العرب (أصبهان) والفرس (أسباهان) وتشتهر هذه الكورة بخصوبة أرضها ووفرة انتاجها نتيجة لوفرة مياهها المستمدة من نهر (زاينده رود). ولمدينة أصفهان أرباض أهمها (جي) و (اليهودية) التي اعتبرها المقدسي قصبة الكورة. ومن مدن هذه الكورة: قاشان، وساوه.

٥ - كورة الري : تقع في الطرف الشمالي الشرقي من اقليم الجبال، وقصبتها مدينة (الري) - احدى ضواحي طهران الحالية - وقد كانت الري في القرن الرابع الهجري أكبر القصبات الأربع لاقليم الجبال، وهي قرمسين وهمدان والري وأصفهان. ومن المدن الهامة في هذه الكورة: قزوين، على بعد ١٠٠ ميل شمالي غربي الري وهي أسفل جبال (البرز)، وكانت

–كطهران الحالية– تقوم بحراسة الدروب التي تخترق اقليم طبرستان وتؤدي الى شواطيء بحر قزوين في بلاد الديلم. ومن المدن الهامة أيضا دنباوند (دوماند)، التي كانت – وماتزال – مقدسة عند الشيعة. والى الغرب من قزوين كانت مدينة زنجان الواقعة على النهر المسمى باسمها والذي يجري الى الغرب من نهر (سفيدرود). وبمحاذاة السفح الجنوبي للجبال التي تفصل اقليم الجبال عن بلاد الديلم وطبرستان في الشمال ثلاث نواح كان قسمها الأسفل (أي السهلي) يعتبر ضمن اقليم الجبال، وقسمها الأعلى (أي الجبلي) ضمن اقليم الديلم، وهذه النواحي الثلاث: بشكل درّة، والطالقان، وطارم.

٦ – اقليم الديلم

يحد هذا الاقليم من الجنوب جبال (ألبرز) التي تفصله عن اقليم الجبال واقليم قومي والمفازة الكبرى، ومن الشمال بحر الخرز (قزوين)، ومن الشرق اقليم خراسان، ومن الغرب بعض نواحي أذربيجان وبلدان الران. وينقسم هذا الاقليم الى أربع كور أو استانات هي: (المقدسي ٣٥٣– ٣٦٠، لي سترينج ٤٠٤ – ٤٢٢):

١ – كورة قومس : وهي أول الاقليم من قبل خراسان في الجنوب الشرقي، وتؤلف أراضي هذه الكورة رقعة ضيقة تمتد في محاذاة جبال البرز في الشمال والمفازة الكبرى في الجنوب، وقصبة هده الكورة (دامغان) التي كتبها العرب (الدامغان) وكثيرا ما أشاروا اليها على عادتهم باسم قومس (أي مدينة قومس) فاقتبست العاصمة اسم اقليمها. ومن أهم المدن الأخرى (بسطام) ويصف ابن حوقل رستاقها بأنه أخصب رساتيق الاقليم.

٢ – كورة جرجان : وهي كورة سهلية جبلية تمتد في جنوب شرق بحر قزوين.

وتضم هذه الكورة السهول العريضة والاودية التي يسقيها نهرا جرجان وأترك. وقصبة جرجان مدينة بالاسم نفسه. وقد سمى المقدسي الجانب الشرقي من مدينة جرجان باسم (شهرستان). وثانية مدن جرجان (استراباد) الواقعة قرب حدود كورة طبرستان (أو مازنداران). وفرضة كورة جرجان على بحر قزوين (أبسكرون).

٣ – كورة طبرستان (أو مازندران): وهي كورة سهلية جبلية تمتد بإزاء ساحل بحر قزوين الجنوبي ومعنى طبرستان بلاد الجبل لأن معظمها كان يتألف مما يعرف اليوم بجبال البرز الممتدة بحذاء الساحل الجنوبي لبحر قزوين شمالي قومس. وقد حل اسم (مازندران) محل (طبرستان) في القرن السابع الهجري أي بعد الغزو المغولي. وقصبة هذه الكورة (آمل) على ساحل البحر. ومن أهم مدنها الأخرى (ساريه)، وهي (ساري) الحالية الواقعة شرقي آمل على البحر أيضا، ومدينة (شالوس) غربي آمل.

٤ – كورة الديلمان (أو كيلان أو جيلان): تقع هذه الكورة في دلتا نهر (سفيدرود) ومناقعه الواقعة في النهاية الغربية من ساحل بحر قزوين الجنوبي والتي تحف بها من الجنوب والغرب سفوح الجبال المتدرجة والمكسوة بالغابات وقد سماها العرب (الجيل) أو (جيلان). وقصبة هذه الكورة (بروان)، وموضع هذه المدينة غير معروف (لي سترينج ٢٠٦ – ٢٠٧). ومن أهم مدن الكورة الأخرى: رشت، ولاهيجان على ساحل بحر قزوين، وهما مايزالان الى اليوم.

٧ – اقليم الرحـــاب
(اذربيجان – الران – أرمينيـــة)

أطلق المقدسي اسم (الرحاب) على هذا الاقليم الذي يضم أرمينية والران وأذربيجان، وكل من الاستانات الثلاثة يمثل كورة كبيرة، ولهذا فإن اقليم

الرحاب ينقسم الى هذه الكور الثلاث. ويحدّ هذا الاقليم بوجه عام من الشرق اقليما الجبال والديلم والساحل الغربي لبحر قزوين، ومن الغرب حدود اقليم الجزيرة والأرمن، ومن الجنوب اقليم الجبال والعراق. وفيما يلي تفصيل هذا الاقليم الى ثلاث كور أو استانات (المقدسي ٣٧٤ - ٣٧٨. والاصطخري ١٨٠-١٨٨، لي سترينج ١٩٣ - ٢٠٥، ٢٦ - ٢١٩):

١ - كورة أذربيجان : وهي كورة جبلية كانت في العصر الاسلامي الأول أقل شأنا مما صارت اليه في أواخر العصور الوسطى بعد الغزو المغولي. وتتوسط الكورة بحيرة (أرمية) التي سماها البعض بحيرة (الشراه). وكانت قصبة الكورة في صدر الدولة العباسية (أردبيل) ثم تبوأت (تبريز) المقام الأول في أواخر عهد الخلفاء. وبعد الغزو المغولي احتلت (المراغة) مكانها، ثم استعادت تبريز سابق عزها في عهد الايلخانيين. وفي أيام الصفويين عادت أردبيل قاعدة للكورة، ولكن مالبثت أن استعادت تبريز مكانتها السابقة منذ القرن الحادي عشر الهجري الى الآن.

٢ - كورة الران : وهي أولى الكور الثلاث من ناحية بحر قزوين، وتكون نحو ثلث الاقليم في المثلث الكبير الواقع غرب اقتران نهري (الكرّ) و(الرسّ). وقد كتب البلدانيون العرب اسم الكورة بصورة (الران) ونطقوا به (أرّان). وقصبة الكورة (برذعه) ومازالت خرائبها باقية، ومن مدنها الرئيسية (تفليس) و (ملاذكرد).

٣ - كورة أرمينية : تتاخم الروم، وتتصل حدودها بالجزيرة وأذربيجان والجبال، وقصبتها (دبيل) التي تدل عليها اليوم قرية صغيرة في جنوب (أريفان) قرب نهر الرسّ (أرس). ولكورة أرمينية «مدخل الى أرض الروم يعرف بطرابزنده (طرابيزون) الحالية على البحر الأسود) يجتمع فيه التجار فيدخلون بلاد الروم للتجارة».

٨ – اقليم خراســـان

خراسان بالفارسية معناها (البلاد الشرقية). وكان هذا الاسم في أوائل القرون الوسطى يطلق بوجه عام على جميع الاقاليم الاسلامية الواقعة شرق المفازة الكبرى حتى حدود جبال الهند. فخراسان بمدلولها الواسع كانت تضم كل بلاد ماوراء النهر التي في الشمال الشرقي، ماخلا سجستان ومعها قوهستان في الجنوب. وكانت حدودها الخارجية صحراء الصين والبامير من ناحية آسيا الوسطى، وجبال هندكوش من ناحية الهند. الا أن حدودها هذه صارت بعد ذلك أكثر حصرا وأدق تعيينا، حتى ليمكن القول أن خراسان لم تكن تمتد الى أبعد من نهر جيحون في الشمال الشرقي، ولكنها ظلت تشتمل على جميع المرتفعات فيما وراء (هراة) التي هي اليوم القسم الشمالي الغربي من أفغانستان. وعلى ذلك فان البلاد في أعالي نهر جيحون من ناحية البامير كانت على ماعرفها العرب في العصر الاسلامي تعد ناحية من نواحي خراسان البعيدة (لى سترينج ٤٢٤). وفي هذا الاطار المحدد رسم الاصطخري وابن حوقل حدود خراسان، فجعل حده الشرقي نواحي سجستان، والغربي مفازة (الغزّية) ونواحي جرجان، والشمالي ماوراء النهر وبعض بلاد الترك، والجنوبي مفازة فارس وقومس. (الاصطخري ٢٥٣، وابن حوقل ٣٥٨).

وكان اقليم خراسان في العصر الاسلامي الأول ينقسم الى أربعة أرباع يمثل كل ربع منها كورة أو استانا، وقد نسب كل منها الى احدى المدن الكبرى التي كانت في أوقات مختلفة عواصم للاقليم بصورة منفردة أو مجتمعة. وهذه المدن هي: نيسابور، ومرو، وهراه، وبلخ. وبعد الفتح الاسلامي كانت مرو وبلخ عاصمتين لاقليم خراسان الا أن الأمراء الطاهريين نقلوا دار الامارة الى ناحية الغرب فجعلوا نيسابور في أيامهم عاصمة الاقليم (لي سترينج٤٢٣–٤٢٤).
وسوف نتناول فيما يلي كلا من كور خراسان الأربع على حدة:

١ – كورة بلخ : وهي أحد أرباع خراسان، ويدخل في هذا الربع أيضا

ناحيتان هما (الجوزجان) و (طخارستان) في الشرق (على الضفة الجنوبية لنهر جيحون). وتضم كل ناحية منها عددا من المدن والقرى. أما قصبة الكورة فهي مدينة (بلخ) التي لقبت (بأم البلاد) وهي تعد من أجل مدن أفغانستان الحديثة. (المقدسي ٢٩٥–٣٠١، ابن رسته ١٠٥، لي سترينج ٤٦٢).

٢ – كورة هراه : تقع هذه الكورة برمتها في أفغانستان الحديثة، ويروي معظمها نهر هراه. وقصبة هذه الكورة مدينة (هراه)، ومن أهم مدنها: كروخ، وبشان، وخيسار، واستربيان، وماراباذ. (المقدسي ٢٩٦، ابن رسته ١٠٥، لي سترينج ٤٥٢ – ٤٥٣).

٣ – كورة مرو : وهي تقع على نهر مرغاب (أو نهر مرو) الذي ينحدر من جبال (الغور) شمال شرق هراه ثم يمر بمرو الصغرى (أو مرو الروذ) ويدور منها شمالا الى (مرو الكبرى) أو (مرو الشاهجان) وهي قصبة الكورة، ثم ينتهي بعدة فروع في رمال مفازة الغزّ. وتشتمل هذه الكورة على المواضع القائمة على طريق خراسان العظيم مما يلي مرو الى الشمال الشرقي من نهر جيحون عند (آمل) حيث معبر الطريق الى بخارا وماوراء النهر (لي سترينج ٤٣٩). وآمل هذه هي (آمل زم) أو (آمل جيحون)، غير آمل التي ذكرناها من قبل قصبة لكورة طبرستان على بحر قزوين.

٤ – كورة نيسابور : وهي أكبر حدود خراسان، وقد سميت باسم قصبتها المنسوبة الى الملك سابور الثاني الساساني الذي جدّد بناءها في القرن الرابع الميلادي. أما مؤسسها الأول فهو سابور الأول. وفي صدر العهد الاسلامي كان يقال لنيسابور (ابرشهر) ومعناه مدينة الغيم بالفارسية. وسماها المقدسي (ايرانشهر) أي مدينة ايران، ولكن هذا الاسم ربما لم يكن غير اسم رسمي ولقب شرف لها. ويقول المقدسي أن الناس اختلفوا بشأن اسم (ايرانشهر)، فمنهم من جعله اسما واحدا لجميع هذه الكورة

مع (كابلستان) فتدخل فيه سجستان وما حولها، ومنهم من جعله اسما لهذه الكورة فقط (أي كورة نيسابور)، ومنهم من أوقعه على القصبة فقط (أي مدينة نيسابور). (المقدسي ٢٩٩، لي سترينج ٢٤٣). وكانت (طوس) المدينة الثانية في كورة نيسابور، وتتألف من المدينتين التوأمين: الطابران، ونوقان.

ويذكر ابن حوقل (٣٦١) والاصطخري (٢٥٤) أن «بخراسان كورا دون هذه - أي الأربع السابقة - في المنزلة وصغر الحال، فمنها: قوهستان، وطوس، ونسا، وأبيورد، وسرخس، وأسفزار، وبوشنج (أو فوشنج)، وباذغيس، وكنج رستاق، ومرو الروذ، والجوزجان، وغرج الشار، والباميان، وطخيرستان (طخارستان)، وزم، وآمل». وقد اعتبر المقدسي (قوهستان) كورة كبيرة من كور خراسان، ومعناها (بلاد الجبل) وانما سميت بذلك لطبيعة أرضها (لي سترينج ٤٥٣) وأكبر مدن هذه الكورة (قاين) وهي القصبة، كما يعتبر المقدسي بقية هذه الكور الصغيرة نواحي لا تضم الى الكور (المقدسي ٢٩٥ - ٣٠١).

٩ - اقليم سجستان (سستان)

يحتل هذا الاقليم جميع المنطقة المحيطة ببحيرة (زره) وهي بحيرة (هامون) الحالية والتي كانت أكثر اتساعا في الماضي، ويدخل في هذا الاقليم دلتا نهر هلمند وغيره من الأنهار التي تصب في هذه البحيرة، وكذلك رستان قندهار في أعالي هلمند، الذي يعرف بزابلستان. وقد حدد الاصطخري وابن حوقل اقليم سجستان من الشرق بمفازة بين مكران وأرض السند وشيء من عمل الملتان، ومن الغرب بخراسان، ومن الشمال بأرض الهند، ومن الجنوب بالمفازة التي بين سجستان وفارس وكرمان. (الاصطخري ٢٣٨، وابن حو قل ٣٤٧). وقد ضم المقدسي هذا الاقليم بجميع كوره الى اقليم خراسان وجعلهما اقليما واحدا.

ويشتمل هذا الاقليم على أربع كور، بالاضافة الى ناحيتين. فأما الكور فهي :

١ – كورة زرنج، وهي تقع شرق البحيرة، وقاعدتها (زرنج)، التي هي في نفس الوقت قاعدة الاقليم. وقد بقيت هذه المدينة مزدهرة زمنا طويلا حتى خربها تيمورلنك عام ٧٨٥ هـ (١٣٨٣م). ولم تكن زرنج قاعدة اقليم سجستان زمن ملوك العجم بل كانت مدينة اسمها (رام شهرستان) أو (ابرشهريار) وقد دفنت تحت رمال المفازة. ويتبع هذه الكور مدينة (نه) على حدود قوهستان عند حافة المفازة الكبرى، ومدينة (فره) على النهر المسمى باسمها. والى الشمال من زرنج تقع مدينة (الطاق) الكبيرة.

٢ – كورة بست : وقصبتها (بست)، وكانت تقع على خط عرض زرنج على نهر هلمند عند التقائه بالنهر القادم من قندهار.

٣ – كورة رخّج : وكتبها المقدسي (رخّد)، وقصبتها مدينة (بنّجواي). وتتألف هذه الكورة من الأراضي المحيطة بقندهار، وهي تقع الى الشرق من بست بامتداد ضفاف نهري (ترنك) و (أرجنداب). ومن أهم مدن الكورة (قندهار) على نهر قندهار.

٤ – كورة غزنه أو (غزنين)، وقصبتها (غزنه) التي كانت عاصمة الدولة الغزنوية أكثر من قرن (من أواخر القرن الرابع حتى منتصف القرن السادس تقريبا).

أما النواحي التابعة لهذا الاقليم فهي : ناحية (زابلستان) وهي الاقليم الجبلي في أعالي نهر هلمند ونهر قندهار. وناحية (كابلستان) وهي اقليم (كابل) الذي يقع الى الشمال من غزنه على حدود (الباميان) من نواحي خراسان. (ابن رسته ١٠٥، الاصطخري ٢٤٤، ابن حوقل ٢٣٩–٢٤٧، لي سترينج ٣٧٢ – ٣٩٠).

١٠ - اقليم ماوراء النهر (هيطـل)

كان نهر جيحون يعد الحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والناطقة بالتركية، أي بين ايران وتوران. فما كان في شماله -أي ورائه- من أقاليم سماها العرب (ماوراء النهر) أي ماوراء نهر جيحون، وكذلك سموها (الهيطل). وكان (الهياطله) في القرن الخامس الميلادي أعدى أعداء الدولة الساسانية، ويعرفون (بالهون البيض). على أن المؤلفين المسلمين كانوا لا يتقيدون في استعمال اسم الهيطل، فقد أطلقوه على جميع الشعوب والبلاد التورانية فيما وراء جيحون، وعلى ذلك جرى المقدسي في استعماله اياه. (المقدسي ٢٦٠ - ٢٦١، لي سترينج ٤٧٦). فقد أطلق المقدسي على كل اقليم ماوراء النهر اسم (اقليم هيطل) وجعله أحد أقاليم (المشرق) الثلاثة: خراسان وسجستان وماوراء النهر. وقد حدد الاصطخري وابن حوقل هذا الاقليم على النحو التالي: من الشرق فامر (وهي هضبة البامير) وراشت ومايتاخم (الختّل) من أرض الهند، ومن الغرب بلاد الغزّية والخزلجية (وهم من الترك) من حدّ (طراز) حتى ينتهي الى فاراب وبيسكند وصفند وسمرقند ونواحي بخارى الى خوارزم حتى ينتهي الى بحيرة خوارزم (بحر آرال الحالي) ومن الشمال الترك الخزلجية من أقصى فرغانه الى طراز. ومن الجنوب نهر جيحون من بذخشان الى بحيرة خوارزم». (الاصطخري ٢٨٦ - ٢٨٧، وابن حوقل ٣٨١).

وكان هذا الاقليم ينقسم الى سبع كور وأربع نواح. فأما الكور فهي: (المقدسي ٢٦٠ - ٢٦٨، لي سترينج ٤٧٦ - ٤٨٨):

١ - كورة فرغانه : وهي احدى كورتين تقعان على نهر سيحون، والأخرى كورة الشاش. وكورة فرغانة على ضفة سيحون الشمالية، وقصبتها (اخسيكث) ومن أهم مدنها: انديجان، وخجنده.

٢ - كورة الشاش : وهي الكورة الثانية التي تقع على نهر سيحون الى الغرب

من فرغانه، وكان نهر سيحون ينسب أحيانا الى هذه الكورة فيسمى (نهر الشاش). وقصبة الكورة (بنكث) وهي (طشقند) الحالية.

٣ – كورة اسبيجاب : وهي تقع شمال الشاش من يمين سيحون فشرقا، وقد سميت باسم قصبتها.

٤ – كورة اشروسنه : تقع في شرق سمرقند، وهي مكونة من سهول وجبال، وكان حدها الشرقي الفامر (أي البامير). وقصبة الكورة (بنجكث).

٥ – كورة الصغد – وهي صغديانا القديمة Sogdiana – وتعتبر أجلّ الكور شأنا فيما وراء النهر. وهناك من يجعل لها قصبتين : بخارا وسمرقند ومن يجعل قصبتها سمرقند ويفصل بخارا كورة مستقلة.

٦ – كورة بخارا، وقصبتها (نموجكث).

وبينما اقتصر المقدسي على هذه الكور فيما وراء النهر، أضاف اليها الاصطخري وابن حوقل:

٧ – كورة خوارزم : وهي في غرب الصغد وتضم دلتا نهر جيحون في الاقليم المعروف اليوم باسم (خيوه). وكان لهذه الكورة في صدر الاسلام قصبتان: أولاهما في الجانب الغربي (أي الفارسي) لنهر جيحون وتسمى (الجرجانية)، والأخرى في الجانب الشرقي للنهر (أي الجانب التركي) وتسمى (كاث). ثم أصبحت (كاث) القصبة الوحيدة للكورة في القرن الرابع الهجري.

وأما النواحي الأربع التابعة لاقليم ماوراء النهر والتي لا تضم الى الكور فهي: (المقدسي ٢٦٠ – ٢٦٨، والاصطخري ٢٠٥، وابن حوقل ٣٩٣):

١ – ايلاق : تقع جنوب نهر ايلاق وشمال المنعطف الكبير لنهر سيحون،

وكانت هذه الناحية متصلة بالشاش، وقصبتها (تونكث) أسفل خجنده.

٢ – كش : وهي ناحية جنوب الصغد حولها رساتيق كثيرة

٣ – نسف : وهي ناحية كانت تقع غربي (كش) وتعرف اليوم باسم (قرشي).

٤ – الصغانيان : ناحية يحدها من الشرق نهر الوخش ومن الجنوب نهر جيحون، وقصبتها بنفس الاسم (أي الصغانيان) وماتزال باقية الى اليوم تحت اسم (سرآسيا). على أن أجل مدن الصغانيان مدينة (ترمذ) أو (الترمذ) في شمال مضيق نهر جيحون وهو قادم من بلخ بالقرب من التقاء نهر (زامل) به، وفي أدنى ناحية الصغانيان يشق نهر جيحون طريقه في المفازة نحو ١٤٠ ميلا حتى يصل الى دلتاه في جنوب بحيرة خوارزم (بحر آرال) حيث كورة خوارزم.

مصــادر البحث

١ – ابن الجعيان (شرف الدين يحيى بن المقر – ت ٨٨٥=١٤٨٠): التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية. القاهرة ١٨٩٨م.

٢ – ابن الحائك الهمــداني (أبو محمــد الحسن بن أحمــد – ت ٣٣٤=٩٤٥): جزيرة العرب – نشرة محمد بن عبد الله بن بلهيد النجدي.

٣ – ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمداني): مختصر كتاب البلدان. ليدن ١٣٠٣ هـ.

٤ – ابن حوقل (أبو القاسم محمد – ت ٣٥٠=٩٦١): صورة الأرض (المسالك والممالك) ليدن ١٩٣٨.

٥ – ابن خرداذبه (أبو القاسم عبد الله – ت حوالي ٣٠٠=٩١٢): المسالك والممالك – ليدن ١٨٨٨.

٦ – ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن ايدمر العـــلائي – ت ٨٠٩=١٤٠٦): الانتصار لواسطة عقد الأمصار – ج٤، ٥. بولاق ١٣٠٩هـ.

٧ – ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر – ت ٢٩٠=٩٠٣): الأعلاق النفيسة م٧ – ليدن ١٩٠٧.

٨ – ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧=٨٧١): فتوح مصر. طبعة توري.

٩ – ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩) : مسالك الأبصار في غرائب الأمصار.

١٠ – ابن مماتي (القاضي الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد – ت ٦٠٦=١٢٠٩): قوانين الدواوين. القاهرة ١٩٤٣.

١١ – أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل بن نور الدين صاحب حماه – ت ٧٣٢=١٣٣١): تقويم البلدان. باريس ١٨٥٠.

١٢ – الاصـطخري (أبو اسـحق إبراهيم بن محمـد الفـارسي – ت ٣٥٠=٩٦١): المسالك والممالك – وهو معول على كتاب (صورة الأقاليم) لأبي زيد البلخي. ليدن ١٩٢٧.

١٣- البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز - ت ٤٨٧=١٠٩٤): جغرافية الأندلس وأوربا - من كتاب المسالك والممالك - تحقيق عبد الرحمن الحجي. بيروت ١٩٦٨م.

١٤- البكري : جزيرة العرب - من كتاب المسالك والممالك. تحقيق عبدالله يوسف الغنيم - الكويت ١٩٧٦.

١٥- البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى - ت ٢٥٥=٨٦٩): فتوح البلدان - طبعة ليدن.

١٦- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي - ت ٨٢١=١٤١٨): صبح الأعشى - ج٣، ٤ سلسلة (تراثنا) - وزارة الثقافة المصرية ١٩٦٣.

١٧- المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد - ت ٣٧٥=٩٨٥): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - الطبعة الثالثة. بيروت ١٩٧٠ (سلسلة روائع التراث العربي).

١٨- المقريزي (تقي الدين أحمد بن عبد القادر محمد - ت٨٤٥=١٤٤١): المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. ج١- القاهرة ١٢٧٠هـ.

١٩- أمين محمود عبد الله : تطور الوحدات الادارية في مصر العليا منذ العهد العربي - رسالة دكتوراه غير منشورة - جامعة القاهرة ١٩٦٣.

٢٠- سيدة كاشف : مصر في عهد الولاة - القاهرة ١٩٦٠.

٢١- سيدة كاشف وحسن محمود : مصر في عهد الطولونيين والأخشيديين

(سلسلة الألف كتاب رقم ٢٨٥). القاهرة ١٩٦٠.

٢٢- عبد العال الشامي : مصر عند الجغرافيين العرب فيما بين القرنين الثالث والسابع للهجرة - رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة القاهرة ١٩٧٣.

٢٣- عبد العال الشامي : مدن الدلتا في العصر العربي - رسالة دكتوراة غير منشورة - جامعة القاهرة ١٩٧٧.

٢٤- عبد الحق (صفي الدين بن عبد المؤمن - ت أوائل القرن الثامن الهجري): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع. ليدن ١٨٥٩. وهو مختصر لمعجم البلدان لياقوت الحموي.

٢٥- لي سترينج Le Strange : بلدان الخلافة الشرقية (يتناول صفة العراق والجزيرة وايران وأقاليم آسيا الوسطى منذ الفتح الاسلامي حتى أيام تيمور) - نقله الى العربية بشير فرنسيس، وكوركيس عواد. بغداد ١٩٥٤.

٢٦- محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، منذ أقدم العصور حتى سنة ١٩٤٥. القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٨.

٢٧- ياقوت الحموي (شهاب الدين بن محمد بن عبد الله - ت٦٢٦=١٢٢٩): معجم البلدان - ٥ مجلدات. بيروت ١٣٧٦هـ=١٩٥٧م.

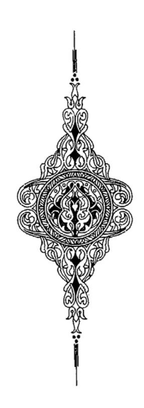
28- Le Strange; Palestine Under The Moslems, Florence, 1890.

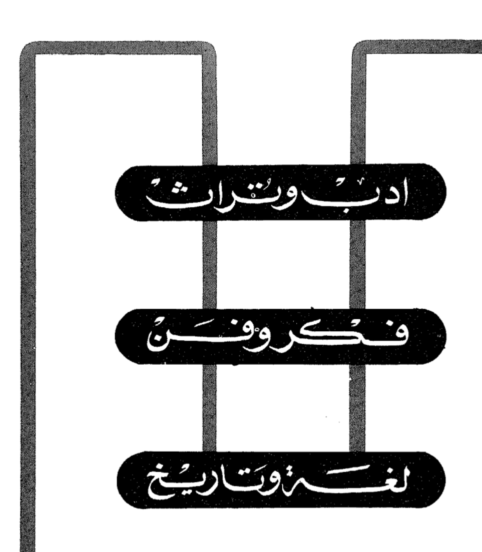
29- Muir, Historical Atlas, Ancient Medieval and Modern. 1971.

30- Omar Toussoun, Le Prince: La Geographie de l'Egypte a l'Epoque Arabe, t. ler. (1928)-La Basse Egypte (Asfal el Ard.)

31- Schrader, F., Atlas de Geographie Historique.

32- Wiet, G., L'Egypte Arabe.





في هذا الباب تقدم المجلة نوعيات مختلفة تتعلق بتاريخنا وتراثنا ، ولغتنا الجميلة ٠٠ وكل ما يتصل بتلك النوعيات من جوانب أدبية وفكرية وفنية ٠

ولقد حرصنا عليها لنتابع من خلالها كافة الجوانب الاخبارية لموضوعات تخصصنا، وتعد أيضا معلومات مبسطة نقدمها دائما في هذا الباب من كل عدد ٠

اعداد
علي عيسى أبو حسين

إعلان نتيجة مسابقة جائزة الملك فيصل الثانية
التي تنظمها الدارة

كان مجلس ادارة الدارة قد شكل لجنة علمية للاعداد للجائزة. واختيار الموضوعات التي ستطرح في المسابقة، والشروط المناسبة للاعلان عنها، وقد استغرق عمل اللجنة وقتا ليس بالقصير.. وانتهت لاختيار ثلاثة موضوعات ليجرى عليها التسابق هي:

١ - مؤرخو الجزيرة العربية من أهلها خلال القرن الثالث عشر الهجري.

٢ - الملك فيصل والقضية الفلسطينية.

٣ - ظاهرة الأمن في عهد الملك عبد العزيز.

ورأت اللجنة أن يكون لكل موضوع من الموضوعات الثلاثة جائزتان، أولى زمقدارها «أربعون ألف ريال» والثانية ومقدارها «خمسة وعشرون ألف ريال» وعرضت أعمال تلك اللجنة على مجلس الادارة في اجتماعه بتاريخ ١٦ /١٢ /١٣٩٧هـ.

وفي اجتماع المجلس بتاريخ ١٩ /١ /١٤٠٠هـ، تم اختيار لجنة تحكيم من أساتذة الجامعة، ومن الشخصيات العلمية والأدبية في المملكة وذلك لفحص واختيار البحوث الفائزة.. وبعد أن أغلق باب التسابق وصلت للدارة البحوث التالية:

١ - في الموضوع الأول «مؤرخو الجزيرة العربية من أهلها خلال القرن الثالث عشر الهجري» وصل للدارة بحث واحد..

٢ - في الموضوع الثاني «الملك فيصل والقضية الفلسطينية» وصلت ثمانية بحوث..

٣ - في الموضوع الثالث «ظاهرة الأمن في عهد الملك عبدالعزيز» وصلت للدارة سبعة بحوث.

وتم توزيع البحوث على أعضاء لجنة التحكيم في النصف الأخير من شهر شوال ١٤٠٠هـ، لفحصها

ودراستها، ووضع التقيم العلمي لكل منها، تمهيدا لترشيح المستحق منها للجائزة.. وقام كل عضو من أعضاء لجنة التحكيم بدراسة ما تسلمه من بحوث وأعطى تقييما علميا لها.. كما أعطاها درجة نسبية.. ثم رأت اللجنة أن تعقد اجتماعا لجميع الأعضاء لبحث تلك التقارير واختيار البحوث الفائزة.. فعقدت اجتماعا بتاريخ ١٣ /٨ /١٤٠١هـ، واجتماعا آخر بتاريخ ٢٧ /٨ /١٤٠١هـ، تناولت خلال الاجتماعين التقارير لكل بحث على حدة، وعرضت البحوث التي نالت أعلى تقيم على كل عضو على حدة لابداء رأيه في مدى استحقاقها.. وأخيرا استقر رأي اللجنة على مايلي:

أولا : استبعاد البحث المقدم بعنوان «مؤرخو الجزيرة العربية من أهلها خلال القرن الثالث عشر».. حيث أنه لم يرق الى المستوى المطلوب..

ثانيا : حجب الجائزة الأولى لموضوع «الملك فيصل والقضية الفلسطينية»، وذلك لعدم وجود البحث الجدير بها.. وترشيح البحث المقدم من الدكتور سيد عليوة في نفس الموضوع لنيل الجائزة الثانية ومقدارها «خمسة وعشرون ألف ريال»..

ثالثا : ترشيح البحث المقدم من الاستاذ رابح لطفي جمعة في موضوع «ظاهرة الأمن في عهد الملك عبد العزيز» لنيل الجائزة الأولى ومقدارها «أربعون ألف ريال» وحجب الجائزة الثانية في نفس الموضوع لعدم وجود البحث المناسب لها..

وقد اعتمد مجلس ادارة الدارة برئاسة معالى الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ، في اجتماعه مؤخرا نتيجة المسابقة وصرف المكافآت للفائزين بها.

زيادة رقعة
تسويق مجلة الدارة

يتم تبادل واهداء مجلة الدارة الى الجامعات .. أساتذة ومكتبات .. والهيئات العلمية المختلفة في جميع أنحاء العالم وتسعد المجلة من حين لآخر بتلقي رسائل وتعليقات من قرائها الأكاديميين بالثناء عليها والى

جانب ذلك كان يجري تسويقها في عدد محدود من الدول العربية لا بقصد الكسب المادي وانما بقصد توصيلها الى كل من يرى فيها الفائدة ممن لا تصله بطريق الاهداء.

وقد رأى سعادة أمين عام الدارة الشيخ عبد الملك بن عبد الله آل الشيخ ايفاد الاستاذ على محمد العبيد مدير الشئون الادارية بالدارة في مهمة رسمية لفتح أسواق في المغرب العربي.. تونس والمغرب ودول الخليج العربي: الكويت وقطر والبحرين والامارات العربية بالاتفاق مع شركات ومراكز للتوزيع وقد نجحت المهمة في زيادة نسبة التوزيع ومن ثم في تعميم الفائدة من المجلة.

ومما يجدر ذكره أن سوق مجلة الدارة قد تجاوزت أسواق البلاد العربية حتى أنها أصبحت تباع في ألمانيا الغربية كبداية لانتشارها في أسواق باقي بلدان أوروبا.

«من ثمرات الدارة» إصدارات جديدة للدارة

إعادة طباعة كتاب أضواء حول الاستراتيجية العسكرية للملك عبد العزيز وحروبه

نظرا لنفاد الطبعة الأولى من كتاب أضواء حول الاستراتيجية العسكرية للملك عبد العزيز وحروبه وهو البحث الفائز بالجائزة الثانية في مسابقة جائزة الملك فيصل الأولى عام ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م. للعميد محمد ابراهيم رحمو. وذلك لكثرة الطلب عليه من القراء. والعسكريين والمهتمين بالنواحي العسكرية في المملكة وخارجها. فقد رأى سعادة أمين عام الدارة إعادة طباعة الكتاب ليكون في خدمة البحث والباحثين انطلاقا من مبدأ تشجيع البحث العلمي فيما يخدم الأغراض التي أُنشئت الدارة من أجلها وهي خدمة تاريخ المملكة وجغرافيتها وآثارها الفكرية والعمرانية خاصة، والجزيرة العربية وبلاد العرب والاسلام عامة

وقد اختلفت الطبعة الحديثة عن الطبعة القديمة من حيث شكل الكتاب وطريقة إخراجه فجاء الغلاف ملونا ويحمل كالعادة الشعار المميز لمطبوعات الدارة ثم تقديم الدارة للكتاب.

ويبدأ **الباب الأول** : بعنوان تطور الفكر الاستراتيجي بالجزيرة في عهد آل سعود ويشمل ثلاثة فصول: الفصل الأول يقوم التعريف بالاستراتيجية، والفصل الثاني يتكلم عن لمحات من الفكر الاستراتيجي لأمراء آل سعود، والفصل الثالث يسلط أضواء على الفكر الاستراتيجي للملك عبد العزيز.

والباب الثاني : بعنوان خلفية الأحداث العالمية أثناء تكوين الكيان الاستراتيجي للمملكة العربية السعودية. وفيه يتكلم المؤلف عن تأثر منطقة الشرق الأوسط بالأوضاع السياسية منذ أواخر القرن الثاني عشر وإتجاه أنظار أوروبا الاستعمارية الى أملاك الدولة العثمانية حتى فترة الحرب العالمية الأخيرة.

والباب الثالث : بعنوان المعارك. الحربية للملك عبد العزيز مرحلة الاتزان الاستراتيجي الأول في نجد ويشمل خمسة فصول: الفصل الأول يتكلم عن معركة الرياض الأولى وخطة الاستطلاع وسير القتال فيها والدروس المستفادة منها، والفصل الثاني بعنوان إقتحام الرياض وفتحها (معركة الرياض الثانية) ويوضح فيها الكاتب الموقف العام من المعركة ثم الموقف الخاص أي التصورات الخاصة للملك عبد العزيز - وخطة إقتحام الرياض ثم المفاجأة الاستراتيجية في إخفاء نية الهجوم والمفاجأة التعبوية التي لم تحقق لعدم توافر القوات والمفاجأة التكتيكية بنقل القتال داخل المدينة دون أن يشعر به وبمن معه أحد - ثم سير القتال والدروس المستفادة من المعركة، والفصل الثالث عن ضم الخرج والافلاج والحوطة ووادي الدواسر بما في ذلك الموقف العام والخاص وخطة احتلال المقاطعات الجنوبية ثم سير القتال والدروس المستفادة منه، الفصل الرابع بعنوان احتلال الشمال وفتح القصيم والفصل الخامس تحقيق مرحلة الاتزان الاستراتيجي الأولى وجلاء الأتراك عن نجد وبسط النفوذ للملك عبد العزيز على نجد ماعدا حائل وما يحيط بها.

والباب الرابع : بعنوان مرحلة تحقيق الاتزان الاستراتيجي الثاني للدولة ويشمل ستة فصول: الفصل الأول عن منشأ نظرية الاتزان الاستراتيجي للمملكة العربية السعودية عند جلالة الملك عبدالعزيز، الفصل الثاني عن فتح الاحساء، الفصل الثالث عن معارك تربة، الفصل الرابع عن فتح حائل، الفصل الخامس عن فتح عسير، أما

الفصل السادس فيتكلم عن فتح الحجاز وتحقيق مرحلة الاتزان الاستراتيجي الثاني للدولة بما فيه فتح الطائف ومعارك الهدى ودخول مكة وفتح جدة والمدينة.

والباب الخامس : عن دعم الكيان الاستراتيجي بالنسبة للموقع الجغرافي والأهمية الاستراتيجية العامة، وبالنسبة للموارد الاقتصادية والأهمية السياسية والأهمية العسكرية والأهمية المعنوية.

ويجيء هذا الكتاب في ١٨٠ صفحة وموثق بالمراجع والمصادر ومزود بالرموز والمصطلحات العسكرية التي استخدمها الكاتب في لوحات الكتاب المختلفة التي توضح سير القتال ومعركة الرياض الأولى.

واللوحة رقم (٢) توضح ضم الخرج والأفلاج والحوطة ووادي الدواسر وهزيمة ابن الرشيد بالسلمية.

واللوحة رقم (٣) تبيّن هزيمة ابن الرشيد في الوشم واحتلال الشمال وفتح القصيم.

واللوحة رقم (٤) توضح موقع المملكة العربية السعودية.

كتاب دراسات في الجغرافية الاقتصادية المملكة السعودية والبحـــــرين

صدر عن الدارة كتاب دراسات في الجغرافية الاقتصادية للأستاذ الدكتور أحمد شقلية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وهذا الكتـاب يحمـــــل رقم (٢١) فى ترتيبه من مطبوعات الدارة.

والجدير بالذكر أن الأبحاث الثلاثة التي يضمها هذا الكتاب كانت قد قدمت الى مجلة الدارة كي تظهر على صفحاتها، غير أن مجلس ادارة الدارة، رأى أن يضم هذه الأبحاث الثلاثة كتاب واحد يصدر ضمن مطبوعات الدارة.. ونظرا لأن الأبحاث الثلاثة تحمل عناوين متباينة. فقد رأت الدارة أن تضم هذه العناوين تحت عنوان «دراسات في الجغرافية الاقتصادية — المملكة العربية السعودية والبحرين.

وجاء غلاف الكتاب ملونا يحمل الشعار المميز لمطبوعات الدارة. ثم .

تقديم الدارة للكتاب، ومقدمة المؤلف الذي يتقدم فيه بالشكر للقائمين على دارة الملك عبد العزيز لما قدموه من تشجيع وتسهيلات لطبع الكتاب، وصورة ملونة لخريطة تبين المناطق التي تشملها دراسات الكتاب موضحة لمواقع أهم حقول النفط في المملكة العربية السعودية وأهم مصافي النفط فيها وأهم مراكز الصيد البحري.

ويجيء البحث الأول وهو بعنوان صناعة تكرير النفط في المملكة العربية السعودية وتدور دراسة هذا البحث حول تكرير النفط ومشاريع تنميتها بالاضافة الى المشاريع التي تشارك فيها بواسطة جهاتها النفطية الحكومية والأهلية خارج أراضيها سواء في الأقطار العربية الاسلامية والأجنبية والربط بين إجمالي انتاج خام النفط العربي السعودي وما يكرر منه حتى عام ١٩٨٠م ودور صناعتها هذه بين صناعة التكرير العربية، ثم ما يتوفر لهذه الصناعة التقنية الحديثة من مشجعات جغرافية طبيعية وبشرية.

ويوضح المؤلف ذلك كلاً على حدة من حيث الأسس الطبيعية التي يقصد بها مواقع مؤسساتها ومدى توفر الأرض لهذه الصناعة وبنية هذه الأرض وأسعار بيعها ومدى صلاحيتها لاقامة المنشآت.

ويتكلم أيضا عن المقومات البشرية التي تتمثل في توفر الخبرة الفنية والعمالة وطرق النقل وحاجاتها من خام النفط وما يتوفر لانتاجها من أسواق محلية وخارجية ثم السياسة الاقتصادية عامة والنفطية خاصة لحكومة المملكة — ويوضح المؤلف ذلك بكثير من الجداول والاحصاءات التي طبعت ملونة.

أما القسم الثاني من البحث فهو يشمل دراسة تحليلية للمصافي الثلاث الحالية الموجودة بالمملكة وهي مصفاة رأس تنورة أقدم المصافي وأكبرها وأوضحها في توفر متطلباتها الجغرافية فموقعها الحالي وفر لها تسهيلات وسائل النقل سواء البحرية والجوية والبرية. ومصفاة جدة وهي ثاني مصفاة تقام بالمملكة ثم أحدث المصافي وهي معمل الرياض لتكرير النفط ثم يجيء القسم الثالث ليتكلم عن مشاريع صناعة التكرير بأنواعها التحسينية والتوسعية التي ترتبط بالمعامل والمصافي الحالية — والمشاريع المتكاملة المحلية مثل مشروع مصفاة الجبيل — مصفاة ينبع — المصفاة السعودية اليابانية — والمشاريع

المتكاملة المتممة مثل مصفاة بورسودان – مصفاة لبنان – مصفاة ماليزيا – المصفاة الأسبانية.

ثم في آخر البحث تجيء الخاتمة والمراجع مع صورة ملونة لخرائط تبين مواقع المصافي والطرق الرئيسية والسكك الحديدية الموصلة اليها وخطوط أنابيب النفط الرئيسية.

والبحث الثاني في الكتاب بعنوان وسائل وطرق صيد الأسماك في شرق المملكة العربية السعودية ويبحث في طرق وأدوات صيد الأسماك نتيجة لدراسة ميدانية قام بها المؤلف لعدد من الظاهرات الجغرافية الطبيعية والبشرية في مصائد هذه المنطقة ثم تكلم عن التعريف بمياه الخليج العربي ووضح الطرق العديدة والوسائل التي تستخدم لصيد الأسماك، ونذكر من هذه الطرق: الحظرة – الجرجور – الشباك – السنار – الدربة – السموم وهي مواد مشتركة في عدة وسائل للصيد – المراكب والقوارب ثم تجيء الخاتمة لهذا البحث التي تتكلم عن دعم وبقاء واستمرارية وتطور صناعة أدوات صيد الأسماك. ثم المراجع والمصادر – ثم صور لخرائط ملونة تبين مراكز الصيد وصناعة أدواته في المملكة والامارات العربية – وصور توضح احدى مراحل تصنيع الصيد البحري – وصناعة واعداد بعض الأدوات المستخدمة في الصيد.

أما البحث الثالث فهو بعنوان جزر البحرين دراسة في استخدامات الأرض ويقصد بها حقيقة توزيع مختلف استعمالات الانسان لأراضي هذه الدولة العربية في فترة محدودة من تاريخها. ثم التعريف بدولة البحرين من حيث موقعها ومساحتها وتاريخها ومكانتها السياسية وكثافة سكانها.

ثم تكلم المؤلف عن أنماط استخدامات أراضي البحرين وهي:

١ – استخدام الأرض للرعي والصيد البري.

٢ – استخدام الأرض للزراعة، وتكلم عن التوزيع الجغرافي لأراضي المزروعات.

٣ – استخدام الأرض التعديني والصناعي والمناطق الصناعية فيها. مثل منطقة سلماباد – ومنطقة رأس زويد – ومنطقة العاصمة – ومنطقة المحرق.

٤ – استخدام الأرض العمراني

والعوامل التي تؤثر في ذلك مثل عامل الموضع الجغرافي والعامل الاقتصادي والعسكري والشخصي كالسكن.

ثم تجيء الخاتمة الموثقة بالمراجع والمصادر مع جداول أنماط استخدام الأرض وصور ملونة لخرائط توضح جزر البحرين وأهم طرق السيارات والموانى والمطارات والمدن والقرى وصور لاستخدامات الأرض ورسم بياني لهذه الاستخدامات وصورة توضح تداخل النمطين الزراعي والعمراني في مدينة المنامة والأراضي البحرية التي يتم فيها أعمال الردم لاستخدامها كأرض – وصورة لقلعة البرتغال في جزيرة المنامة وصورة توضح مظاهر تقدم العمران على حساب مياه الخليج الضحلة والعمران الكثيف في مدينة المنامة.

ويقع الكتاب في ١٢٨ صفحة في اخراج جيد، وجهد علمي واضح من المؤلف يظهر جليا في العديد من المصادر والمراجع التي اعتمد عليها، وفي اختياره للأصلح من الخرائط والرسوم والأشكال والاحصاءات. المقارنة التي تخدم البحث.

زاوية التراث

يعقوب الكندي ١٨٥هـ – ٢٥٢هـ

ولد بالكوفة سنة ١٨٥هـ، درس في البصرة واشتهر بالفلسفة والطب والفلك والرياضيات وقد اختاره الخليفة المأمون وعهد اليه بترجمة كتب أرسطو. وقد قال عنه «باكون» ان الكندي والحسن بن الهيثم في الصف الأول مع بطليموس. لم يكن اهتمامه بالفلك بما يقول عنه المنجمون من التنبؤات على حركة الأجرام وكان لا يؤمن بأثر الكواكب في أحوال الناس، بل إهتم بالفلك من الناحية العلمية، وألف فيه رسائل ومؤلفات قيمة، واعتبره بعض المؤرخين والمستشرقين واحداً من أئمة العلوم الفلكية في القرون الوسطى.

لاحظ أوضاع النجوم والكواكب وخاصة الشمس والقمر بالنسبة للأرض وما ينشأ عنها من ظواهر يمكن تقديرها من حيث الكم والكيف والزمان والمكان، وربط بين ذلك وبين نشأة الحياة على الأرض، وله كتاب في البصريات. ووضع

رسالة في زرقة السماء ترجمت الى اللاتينية، ويقول فيها إن اللون الأزرق لا يختص بالسماء بل من تداخل الأضواء الأخرى الناتجة عن ذرات الغبار وبخار الماء الموجود في الجو.

وقد أثر الكندي في الفلسفة الاسلامية وله مؤلفات وتصانيف، أراد أن يجمع بين فلسفة أفلاطون وفلسفة أرسطو وكان منهجه الفلسفي منهج منطقي ورياضي وكان يقول إن الحق الكامل لم يصل اليه أحد وأنه يتكامل بالتدريج بفضل تضامن أجيال المنكرين ويقول: ان الفلسفة لا تنال الا بالرياضيات، أي أن الانسان لا يكون فيلسوفا الا اذا درس الرياضيات، فقد جعل الرياضيات جسرا للفلسفة. وله رسالة في المد والجزر امتدحها المستشرق «دي بور» وقال ان نظرياته وضعت على أساس علمي وتجريبي.

ومؤلفات الكندي عديدة تزيد على ٢٣٠ كتابا، منها ٢٢ في الفلسفة، ١٦ في الفلك، ١١ في الحساب، ٣٢ في الهندسة، ٢٢ في الطب، ١٢ في الطبيعيات، ٧ في الموسيقى، ٥ في علم النفس، ٩ في المنطق، بجانب رسائل في الأدوية المركبة والمد والجزر وبعض الآلات الفلكيه، وعلم المعادن والجواهر. (ذكر عبد الحليم منتصر عن العلماء العرب).

وكان الكندي عاكفا على الحكمة ينظر فيها التماسا لكمال نفسه ومن أقواله «أن العالم يتواضع لزيادة علمه، والجاهل يظن أنه قد تناهى فتمقته الناس».

قيس بن نشبة

قيس بن نشبة. عم العباس بن المرداس ولد الخنساء أحد الذين بحثوا عن التوحيد وأنكروا الوثن. كان الرسول ﷺ يسميه حبر بني سليم لنظره في الكتب واطلاعه على الأخبار والسير وقصص الناس والنظر فيما يعبدون والتفكر فيما حوله.

وكان له مكانة في بني سليم وتجله الناس حتى أنها حينما دعاها الى الاسلام وكان بينه وبين بني هاشم مودة، فكان أن جاء لمكة في الجاهلية فباع إبلا له فماطله المشتري في حقه فقام العباس بن عبد المطلب وأخذ له بحقه وقال : أنا لك جار ما دخلت مكة.

وقد جاء قيس بن نشبة السلمي الى رسول الله ﷺ بعد الخندق

فقال: اني رسول من وراء قومي وهم مطيعون واني سائلك عن مسائل لا يعلمها الا من يوحى اليه.. فسأله عن السموات السبع وسكانها وما طعامهم وما شرابهم والملائكة وعبادتهم وذكر له الأرض وما فيها وعرفه ما يأمر به وينهي عنه: فقال ما أمرت الا بحسن وما نهيت الا عن قبح فأخبرني عن كحل ما هي؟ قال السماء، فقال: فأخبرني عن محل ماهي؟ قال: الأرض، قال: فلمن هما؟ قال لله، قال: ففي أيهما هو؟ قال: هو فيهما وله الأمر من قبل ومن بعد. قال: أنت صادق وأشهد أنك رسول الله ورجع الى قومه فقال:

يا بني سليم قد سمعت ترجمة الروم والفرس وأشعار العرب والكهان وما كلام محمد يشبه شيئا من كلامهم فأطيعوني في محمد فتنتفعوا وتسعدوا فقد دخلت عليه وقلبي أقسى عليه من الحجر فما برحت حتى لان بكلامه.

وكان الرسول ﷺ إذا افتقده يقول يا بني سليم أين حبركم؟

فقال قيس بن نشبة :

تابعت دين محمد ورضيته ... كل الرضا لأمانتي ولديني
ذاك أمرؤ نازعته قول العدا ... وعقدت فيه يمينه بيميني
قد كنت آمله وانظر دهره ... فالله قدّر انه يهديني
أعنى ابن آمنة الأمين ومن به ... أرجو السلامة من عذاب الهون

أم كلثوم بنت عُقبة

أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ابن أبي عمرو بن أمية. أسلمت بمكة وبايعت قبل الهجرة وهي أول من هاجر من النساء بعد أن هاجر رسول الله ﷺ.

أبوها هو عقبة بن أبي معيط أشد الناس أذى لرسول الله.. ومن هنا كان ايمان هذه المرأة القوية من قوم كلهم مشرك، وأكثرهم زعماء الحرب على محمد، وأظهرت إيمانها رغم ذلك وخرجت مهاجرة بدينها. ولم تعرف قرشية خرجت من بين أبويها مسلمة مهاجرة الى الله ورسوله الا أم كلثوم بنت عقبة، خرجت من مكة وحدها وصاحبت رجلا من خزاعة حتى

قدمت المدينة، في أثناء هدنة الحديبية، فخرج في أثرها أخواها الوليد وعمارة إبنا عقبة فقدما المدينة من الغد من يوم قدومها.. وتكلم الوليد يريد أخذها عملا بشرط الحديبية وهو رد من يسلم من المشركين من ذكر أو أنثى.. وقال أخواها: يامحمد أوف لنا بشرطنا وما عاهدتنا عليه.. وسمعت أم كلثوم بغرض أخويها فقالت: يارسول الله أنا إمرأة وحال النساء الى الضعفاء، أفتردني الى الكفار يفتنونني في ديني ولا صبر لي؟.

وسمع الله .. وأنزل آياته: (ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن. الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن).

وامتحنها رسول الله «والله ماأخرجكن الا حب الله ورسوله والاسلام وما خرجتن لزوج أو مال» وقال رسول الله لأخويها، لن ترجع معكما بعد إيمانها فانصرفا.

لم ترجع معهما.. بقيت في المدينة ولم يكن لها حين هاجرت زوج.. فتزوجها زيد بن حارثة مولى رسول الله وقتل عنها يوم مؤتة، لقد تزوجته وهي العالية النسب لأن ايمانه رفعه اليها وقارب بينهما. ثم تزوجها الزبير بن العوام فولدت له زينب، ثم تزوجت عبد الرحمن بن عوف فولدت له ابراهيم وحميدا. ومات عنها.. فتزوجها عمرو بن العاص فماتت عنده. إنها لسيدة عظيمة خيرة لها العزة في قومها وفي مماتها.



literature into «Arabian Nights». As to stories full of digression and repetition, they are something usual in the Arabian entertainment books.

There is no doubt that the Sinbad tales and his seven travels are the best sea literature stories and most expressive of the sea world or as Dr.Hussein Fauzi said «It is the greatest sea story in the Arabic literature and above that it is one of the most important sea stories in the international literatures». Moreover it is a geographical story which summarizes sea knowledge pertaining to the Arabs in the middle ages, since the sea in the Sinbad story is the main theme. The sea is its protagonist or it is a dialogue between the sea and Sinbad, a dialogue that develops from silence to violence and from exchanging affections to interchanging punches, fighting and struggling.

reasonable interpretation can be justified with respect to information, news and the wording of tales comprised in «Arabian Nights» that grasped the style of folk tales based on mentioning the original action and then branching out into subsidiary actions and later on returning to the original action for the artistic structure is based on the digression and the accumulation of subsidiary events. This accumulation in turn, leads to the dénouement of the story because accumulation leads to its antithesis that is to say it leads to dénouement. Rushdi Saleh believes that the subsidiary events help develop the explanation and elucidation of the original tales as well as the interpretation of the phenomena of nature and the behaviour of men.

Dr. Suhair Al Kalamawi believes that the nature of the book which is based upon the writing down of events had brought about two effects in the artistic form of «Arabian Nights». The first effect is that it leads the narrator to take ready information from books pertaining to the miracles of seas, people, the news of kings and scholars in addition to other known stories in countries contacted by Muslims.

The second effect is that the writing down of events promoted the level of the circulated folk tales known to the people of the region through enriching those tales with news, information and concentration on artistic structure. This took place side by side with simple Arabian tales handed down from other Arabian environments. Thus some of the Arabian tales were passed on as they were written in their originals, without any alteration or artistic phraseology whatsoever. A case in point is the news of teachers and good men. Whereas art played its role in the rest of other stories, the creative genius of the artist added a lot to the tales pending their copying out of the books of

tale that begins with the king's discovery of his wife's adultery with one of his black slaves and the king's determination to avenge the whole sex of women by sleeping with a different girl each night and killng her thereafter. But Scheherazade succeeded to stop that daily massacre through her successive tales. In his study on «Arabian Nights», Ahmad Rushdi Saleh presents a mental interpretation of the attitudes of Scheheriar in this introductory story. He denied the belief that Scheheriar was an assassin. On the contrary, he saw him in the form of an ascetic who rejected his past life and departure from the seat of his government and then

regaining his consciousness after his knowledge of the story of the slave woman's betrayal of the giant and his determination for revenge. Rushdi Saleh believed that Scheheriar became a person who passes through a psychological mental crisis and he was rendered into a confused character that looks for a more appropriate solution rather than killing virgins. And Scheherazade gave him what he was in need of namely telling him a lot of narratives as well as information on the prodigies of universe, nature in addition to the news of kings and paupers. Thus Scheherazade broadened the horizons of his thought through her stories and anecdotes which eased him of his crisis and anxiety.

According to Rushdi Saleh Scheherazade possessed a mature mind and a vast knowledge or she was a mere instrument through which different news, biographies, dictums were displayed. As regards Scheheriar he was yearning for the benefits from that mind and knowledge. The tales themselves looked like the strings of a cobweb that increased, expanded and interweaved within the mind of Scheheriar, the confused man who assassinated innocent virgins and rendered him to a knowledge seeker. Thus a

Melville». Melville read «Arabian Nights» in his youth and was impressed by it in some of his writings.

The literary interest in «Arabian Nights» had been delayed in the Arab East in spite of its vast propagation among the laymen and ordinary readers. Thus it was kept aloof from literary studies and the interest of intellectuals till Dr. Suhair AlKalamawi, encouraged by Dr. Taha Hussein wrote her doctorate thesis on «Arabian Nights». And this was the first literary recognition of folk literature and the folk tales art in our Arab universities. After this pioneering study of Dr. Suhair AlKalamawi in 1941 many Arab researchers and writers were interested in Arabian Nights and thus various studies on the same subject emerged since that date.

But we have to point out that Dr. Hussein Fauzi was the pioneer in studies pertaining to Arabian sea tales of «Arabian Nights» in some chapters of his book entitled «Old Sinbad Talk». Dr. Hussein Fauzi wrote the sea tales because he loves the sea. He quoted his literary name «Sinbad» from «Arabian Nights» and all his successive works later on were entitled «Sinbad».

We based our study of «Arabian Nights» on the edition published by Dar Al Shaab Al Massriya, prepared by Ahmad Rushdi Saleh, the well known critic and researcher in folk literature because it is the most perfect edition that preserved stories, narratives and anecdotes intact and in the meantime having the same succession. Moreover, he did not make any additions or deletions except for some obseene phrases that don't affect the form or content of tales.

«Arabian Nights» begins with well known introductory

«Arabian Nights» was first rendered into Persian from its Indian origin.

The Arabic version of «Arabian Nights» was translated from Persian. Thus «Arabian Nights» has three sources: the original copy in Indian and its Persian translation and Arabic additions which represent a lot of knowledge as it was quoted from the Arabic literature and the news of the Arab travellers and merchants. Sea tales of «Arabian Nights» are based upon those Arabic sources.

Most researchers who wrote on «Arabian Nights» agree that «Sinbad Tales» is of an Arabic origin. It was found in separate copies having the form of books. Each one of them is entitled «Sinbad». This tale was added to the original text of «Arabian Nights». Some researchers believe that the various tales mentioned in the first text of «Arabian Nights» are based on Arabian legends that were prevailing in India and Persia before the emergence of Islam. This may be an interpretation of the similarity in thought and gist of most tales and the repetition of many Arabian names and incidents in them.

Intellectuals, writers, artists and readers in the west were more interested in «Arabian Nights than their counterparts in the Arab world. «Arabian Nights» also aroused the interest of orientalists, travellers, scholars and merchants in the West with respect to the East. It enriched the western literature, painting, music and the theatre beginning from the fairy tales of Hans Christian Andersen to «Robinson Crusoe», «Gullivers Travels», «Lettres Persanes» of Montesquieu, «Les Bijoux Indiscrets» of Diderot, «Candide» of Voltaire, Jules Verne travels, the works of H. G. Wells and «Moby Dick» the great novel of «Herman

A summary of the essay entitled

«Sea literature in Arabian Nights»

by: Ahmad M. Attia
Translated by: Sabry Ibrahim

Arab merchants sea tales paved the way for the emergence of the Sinbad tales which represent the greatest works in sea literature because of its completion and impact on the Arabian foloklore and the world literature as a whole. The «Sinbad Travels» first appeared as an independent book then it comprised «Arabian Nights» in addition to a collection of sea tales of Arabic origin. Those tales represent the most genious Arabic sea literature with respect to art and knowledge. Moreover they accelerated the development of sea literature of the Arabs thanks to Ibn Majid and the sailors of the Arabian Gulf in the literature of sea guidebooks entitled «Rahnamaj» or «Rahmany» in the fifteenth and sixteenth centuries.

«Arabian Nights» is known as one of the most important works of Arab folk literature in spite of its Indian origin and its Persian translation. But its phraseology in Arabic with its many Arabic additions; its Arabic names of cities, kings; its Arabian incidents and spirit is considered one of the most genionus Arabic works in the Arabic folk literature.

«Arabian Nights» was first translated into Arabic from Persian. And then many Arabic phraseologies and annexes were added to the original work and cirulated tales until it reached its present form.



ADDARAH

Notice :

— All Correspondence should be directed to the Editor in- Chief
P. O. Box 2945 — Riyadh

— Articles are arranged technically, regardless of the writers' prestige.

— This English section contains summaries of some of the essays written in Arabic.

Saudi Arabia :	Price of copy 2 Riyals Annual subscription 15 Riyals
Arab Countries :	Price of copy equivalent of 50 SP Annual subscription 15 SR
Kuwait :	Price of copy 250 Fils
Bahrain :	Price of copy 500 Fils
Arab Emirates :	Price of copy 4 Dirhems
Qatar :	Price of copy 4 Riyals
West Germany :	Price of copy 2 Deutsch Marks
Morocco :	Price of copy 4 Dirhems
Tunisia :	Price of copy 350 Mills.
Egypt :	Price of copy 25 Piastres
Other Countries :	Price of copy one US $ Annual subscription 6 US $


مطابع وإعلانات الشريف
الرياض - ت ٤٠٢١٨٧١

ADDARAH

QUARTERLY JOURNAL

by

King Abdul Aziz Research Centre

Concerned with

the Intelletual and Historical Heritage
of the Kingdom and the Islamic World.

★★★★★★★★

RABI, THANI 1402 SEVENTH YEAR

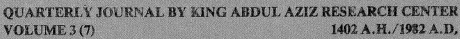
FEB. 1982 NO. 3

P.O.B. 2945 RIYADH

Tel. : 4417916 KINGDOM OF SAUDI ARABIA

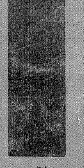






OLD DARIYYAH







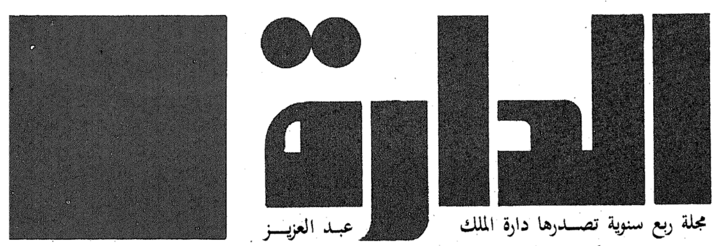

مجلة ربع سنوية تصدرها دارة الملك عبد العزيز

العدد الرابع السنة السابعة رجب ١٤٠٢هـ - مايو ١٩٨٢م

- محمد علي ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية.
- مكانة السلطان أجود بن زامل الجبري في جزيرة العرب.
- علاقة نجد بالشام.



المملكة العربية السعودية
الرياض : ص.ب ٢٩٤٥ - ت ٤٤١٢٣١٦



مجلة ربع سنوية تصدرها دارة الملك عبد العزيز
تعنى بتراث وفكر المملكة والجزيرة العربية والعالم العربي والاسلامي مما له صلة بالجزيرة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتــويات

* قيمة العدد في الداخل ريالان والاشتراك السنوي خمسة عشر ريالا وفي البلاد العربية مايعادل خمسين قرشا سعودياً للعدد أو مايعادل خمسة عشر ريالا للسنة، في الكويت ٢٥٠ فلساً في البحرين ٥٠٠ فلساً في الامارات ٤ دراهم في قطر ٤ ريالات في ألمانيا ٢ مارك في المغرب ٤ دراهم في تونس ٣٥٠ مليماً في مصر ٢٥ قرشاً في خارج البلاد العربية دولار للعدد الواحد وستة دولارات للسنة

ترسل الاشتراكات باسم أمين عام الدارة، أما المقالات والبحوث فترسل باسم رئيس التحرير – الرياض ص ب ٢٩٤٥. ترتيب المواضيع داخل العدد يخضع لأسباب فنية لاعلاقة لها بمكانة الكاتب. آراء الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.





وهذا العدد الرابع الخاتمة للسنة السابعة التي عاشتها المجلة. ولم تكن السنون السبع سنوات عجاف، ولم تكن في الوقت نفسه سنوات سمان، فقد كانت بين بين. فالخروج من المصاعب يلزم بالاستعداد اذا ما وافته العدّة فمرحبا ببعض ما لقيت المجلة من مواقف صعبة في الطبع والاخراج وما الى ذلك وإنها لشاكرة ان هوّن عليها ذلك الصعب إحتفال الكاتبين والباحثين فقد أشبعوها بما كتبوا حتى أنها عجزت عن التقاعس فالعجز عن العجز قوة وقد لبسته المجلة قوة إمتد بها زمنها وإشتد به عودها حتى أنها قوية التفاؤل إذا ما دخلت سنتها الثامنة بأن تسير كما سبق لها على صورة أقوى. لا تدخلها سنوات سمان وإنما تمنعها أن تطغى عليها سنوات عجاف.

فليست السنوات السمان والسنوات العجاف من قلة التموين والتمويل وإنما من قلة العناية بها مجلة تخدم غاية هي أن تكون الدارة الكل تؤدي الهدف الذي أسست من أجله.

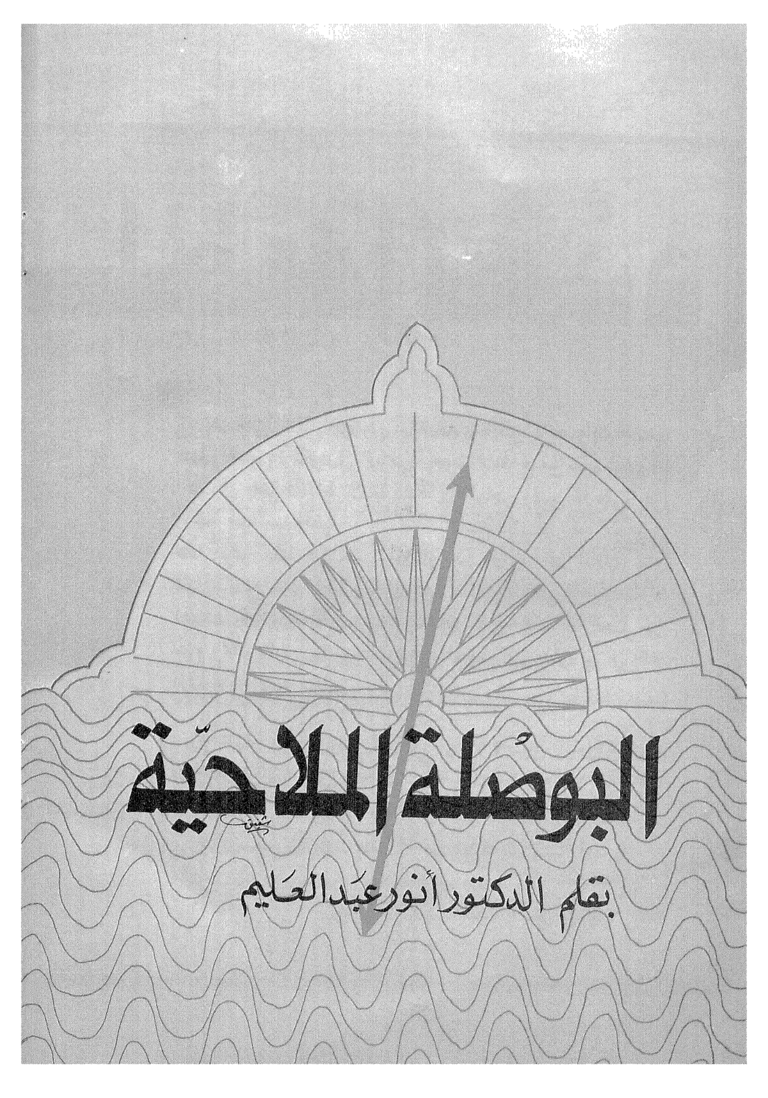
ـــاحية العدد

إن الدارة المجلة جزء من أمانة الدارة الكل قاومت أن أفصلها عنها وأقمتها أن تكون في الرياض، رجوت أن أزيح من نفسي رغبة أن أكون في جدة فالدارة الأمانة مقرها في الرياض وليس لها مقر آخر، والمجلة جزء منها وأعود الى السنوات السبع فكم هي من الأسرار في هذا الرقم كأنما هو رقم البركة أو الكمال أو رقم الكثرة، فأي قارىء يتتبع هذا الرقم رقم يجد فيه ما ذكرت حتى إذا أردت أن تضيف رقم ثمانية تقول سبعة وثامنهم كلبهم يجب أن تفصل بين سبع وثمان بالواو بينما لو قلت ستة سابعهم كلبهم فأي سر في اللغة الشارعة أوجب ذلك؟.

لا أذكر هذا تظرفا وإنما هي دعوة لباحث أن يشبع هذا الموضوع في بحث تنشره المجلة.

ولا يسعني إلا أن أحمد الله على توفيقه،،،

محمد حسين زيدان


البوصلة الملاحيّة
بقلم الدكتور أنور عبد العليم

ملخص البحث

ظهرت «البوصلة» في وقت متأخر نسبيا في تاريخ الملاحة حيث تتضح فائدتها حين تتلبد السماء بالغيوم ولا يبدو الأفق للناظر. وكان القدماء يستعينون على معرفة الاتجاه في عرض البحار بالنجوم بالتيارات البحرية المنتظمة في اتجاه هبوب الرياح، ولعرب الجزيرة باع طويل في هذا المضمار.

وتضطرب الأقوال حول أول من اخترع «البوصلة» أهم الصينيون أم العرب أم الأوربيون. ولا تلقى النصوص المعروفة حتى الآن جوابا شافيا على هذا السؤال وبخاصة أنها كتبت في أزمنة متقاربة ترجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، سواء في الصين أو في المشرق العربي أو في أوربا.

وتميل أغلب المصادر الأوربية إلى نسبة فضل اختراع البوصلة «الملاحية» إما إلى الصينين أو إلى الأوربيين، ومنها ما يغفل دور العرب إغفالا تاما ومنها ما يذكر أن دور العرب لم يتعد دور الوسيط [1].

وفي هذا البحث يناقش المؤلف هذه الآراء ويبرز دور العرب في تطوير البوصلة الملاحية ويلفت النظر بصفة خاصة إلى النقاط الآتية:

١ – أغلب المصادر الأوربية ودوائر المعارف بصفة خاصة لم يطلع كاتبوها على نصوص أو مصادر عربية تتعلق بتاريخ البوصلة الملاحية لاولا على مراجع أوربية منصفة أو محايدة.

٢ – إن النص الصيني الوحيد المشار اليه من الفرن الثاني عشر الميلادي

المتعلق باستخدام البوصلة في البحار الصينية لا ينطبق بالضرورة على مراكب صينية بل الأرجح على مراكب عربية أو فارسية.

٣ – إن أغلب تجارة الصين الخارجية تحت أسرة تانج وبخاصة في القرنين الثامن والتاسع الميلادي كانت في أيدي الربابنة العرب والفرس ولم يكن الربابنة العرب أقل خبرة أو علما بالملاحة من الصينيين.

٤ – إن أغلب المصادر الأوربية من القرون الوسطى التي يستند اليها في اعتبار البوصلة اكتشافا أوربيا ربما كانت مستقاة من كتب منحولة أو مترجمة بنصها من مؤلفات عربية في الأندلس ومن ذلك نسبة الاسطرلاب العربي الى «ريجيو مونتاس» الألماني أو «عصا الخوارزمي» أو «عصا الطوسي» الى بن جرشيون اليهودي تحت اسم «عصا يعقوب» وقد نشطت حركة الترجمة الى العبرية واللاتينية خلال القرنين الخامس والسادس الهجري في طليطلة. كما لا تعدو النصوص المتعلقة بالبوصلة كونها إشارات سريعة يعوزها الشرح والتفصيل.

٥ – انتقلت كذلك علوم وفنون الشرق الى أوربا خلال الحملات الصليبية على الشام ومصر.

٦ – وأخيرا فان البوصلة الملاحية نفسها تطورت على مراحل من إبرة ممغنطة تعلق من وسطها بخيط أو تغرس في عود خفيف من القش أو خشب السنط لتتحرك وتستقر فوق الماء مشيرة الى القطبين، ثم إلى قطعة من الحديد مطروقة على شكل سمكة تطفو فوق الماء فيشير فمها إلى الشمال. وتم التطوير الأخير لها على يد أحمد بن ماجد الملاح العماني في القرن ١٥م (التاسع الهجري) بتجليسها فوق سن مدبب في حقة فوق قرص مقسم الى ٣٢ خنا يوضح الاتجاهات الأصلية والفرعية لدائرة الأفق وهو ما يعرف «بوردة الرياح العربية» وهو تقسيم ليلي يتفق مع مطالع ومغارب نجوم معينة وتتحدد الجهات الأربع الأصلية فيه بالنجوم الآتية:

قطب الجاه (الشمال)، مطلع الطائر (شرق)، قطب السهيل (جنوب)، مغيب الطائر (غرب).

وقد سبق استخدام البوصلة الملاحية في المحيط الهندي استخدامها في البحر الأبيض المتوسط كما نرجح انتقال حقة ابن ماجد من المحيط الهندي إلى أوربا عن طريق الملاحين الايطاليين من بلدة أمالفي الايطالية على البحر الأبيض المتوسط في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي أو أوائل السادس عشر وسموها البوصلة = Bussola وهي كلمة ايطالية تعني الحقة (الحق) وهي ترجمة حرفية لحقة ابن ماجد. كما أن تقسيم قرص البوصلة الى ٣٢ «خنا» في بوصلة الملاحة الحديثة هو نفس التقسيم العربي.

ولقد عثرنا على نصوص عربية توضح معرفة العرب لخاصية الجذب المغناطيسي والمغنطة أقدم بنحو قرنين من الزمان من النصوص الصينية التي بموجبها اعتبرت البوصلة اختراعا صينيا. كما أن أقدم وصف أوربي مفصل للابرة المغناطيسية التي تطفو على الماء في سفن البحر المتوسط يرجع الى عام ١٢٦٩م بينما النص العربي المماثل يسبق هذا التاريخ بنحو ربع قرن (١٢٤٢م) ويصف استخدام الربابنة العرب في هذا البحر لإبرة الملاحة.

ويبقى بعد ذلك أمر البحث عن مصادر عربية في كتب التراث ومخطوطاته أقدم عهدا مما عرف حتى اليوم لقطع الشك باليقين حول نشأة بوصلة الملاحة. ومما يؤسف له أنه لا توجد بحوث عربية خالصة في هذا الموضوع وكل ما كتب بلغة الضاد قبل بحثنا هذا لا يعدو ترجمات لأعمال الأجانب.

١ - مقـــدمة :

يجرنا البحث في أصل البوصلة الملاحية إلى الرجوع إلى عدد كبير من المراجع القديمة تضم كتبا للأدب والتاريخ والجغرافيا والفلك كتبت بلغات شتى وأغلبها من كتب التراث من العصور الوسطى، كما يتطلب الأمر كذلك

الرجوع إلى المخطوطات القديمة ولايزال الكثير من هذه المخطوطات لم تمتد إليه يد المحققين بعد.

وتنقسم المصادر التي تتعلق بأصل البوصلة الملاحية أو بمن له فضل ابتكارها أهم العرب أم الصينيون أم الأوربيون إلى ثلاثة أنواع:

أ – **مصادر صينية** : وقد سهل علينا أمر الر جوع إليهافي لغتها الأصلية علماء الصينيات من المستشرقين الغربيين الذين اطلعوا على هذه المصادر وترجموا نصوصها إلى اللغتين الانجليزية أو الفرنسية من أمثال كلابروت (١٨٣٤م) وبليوت (١٩١٢م)(٢) وكذلك العلماء الصينيون أنفسهم الذين كتبوا في الموضوع سواء باللغة الفرنسية أو الانجليزية من أمثال شو ــ هوا (١٩٥٤)(٣) أو ونج (١٩٦٤)(٤).

ب – **مصادر أوربية** : وهذه تنقسم بدورها إلى ثلاثة أقسام:

الأول : منها يتعلق بدوائر المعارف المعروفة مثل دائرة المعارف البريطانية (الإنسيكلوبيديا بريتانيكا)، ودائرة المعارف الايطالية ودائرة المعارف الفرنسية وغيرها، وأغلبها قد تناول موضوع البوصلة من وجهة نظر كتابها وخاصة مايتعلق منها بالناحية التاريخية.

الثاني : من هذه المصادر هي كتب التراث الأوربي التي تعرضت لموضوع بوصلة الملاحة وهذه مكتوبة باللاتينية مثل كتابات الكسندر نكام ومنها المعروف تحت اسم De Naturis rerum(٥) الذي يرجع تاريخ تأليفه لعام ١٢٠٧م أو قصيدة جيوالبروفنسي(٦) التي يرجع عهدها إلى عام ١١٩٠م وكثير من مثل هذه المصادر يحتمل أنه مقتبس من المؤلفات العربية في الأندلس منذ الوقت الذي نشطت فيه حركة ترجمة العلوم العربية الى العبرية واللاتينية.

وثالث هذه المصادر هي مؤلفات المستشرقين المنصفين المتخصصين ممن تعرضوا لهذا الموضوع من أمثال جابرييل فران G. Ferrand(١٩٢٨)(٧) الفرنسي

وليوبولددي سوسير السويسري L. de Saussure[٨] وتعتبر مؤلفاتهم من أحسن وأدق ماكتب في الموضوع ولكنها أضحت قديمة اليوم.

جـ ـــ المصادر العربية :

وهي تتعلق بكتب التراث العربي وبخاصة ماكتب منها في علوم الفلك والجغرافيا والملاحة وقد أشرنا الى بعضها في كتابنا بعنوان «الملاحة وعلوم البحار عند العرب»[٩] وسنعرض لفقرات منها في هذه المقدمة.

وجدير بالذكر أن حضارة العرب الملاحية [illegible] الى ماقبل الأسلام بقرون[١٠] كما عرف الملاحون العرب من أهل عمان واليمن والبحرين التيارات المنعكسة في المحيط الهندي التي تتبع الرياح الموسمية واستفادوا منها في نقل تجارتهم بين موانيء الجزيرة العربية وموانيء الهند وسيلان وجاوة وسومطرة وملايو والصين أو إلى أفريقيا، وقد تكلم عن هذه التيارات ابن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك[١١] الذي يرجع تأليفه لعام (٨٤٦م) والمسعودي في مروج الذهب (٩٤٧)[١٢] (انظر أيضا : أنور عبد العليم)[١٣].

ويرد ذكر وردة الرياح العربية التي توضح الاتجاهات الأصلية في رحلة التاجر سليمان (٨٥١م)[١٤] من القرن التاسع الميلادي وفيها يقول المؤلف «وأما بحر هرقند (خليج البنغال) فله ريح غير هذه (تهب) مابين المغرب الى بنات نعش» وهو تقسيم ليلي يتصل بمشارق ومغارب نجوم معينة. ويضيف المسعودي (٩٤٧م) في نفس المعنى قوله «فلك البروج يسمى الفلك الكلي وبه يكون الليل والنهار لأنه على قطبين ثابتين مما يلي الشمال وهو قطب بنات نعش والآخر يلي الجنوب وهو قطب «سهيل».

ويمتدح الجغرافي العربي الالمعي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالمقدّسي في كتابه المسمى «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»[١٥] الذي أتمه في عام ٣٧٥هـ (٩٨٥م) خبرة الربابنة العمانيين والسيرافيين بالملاحة

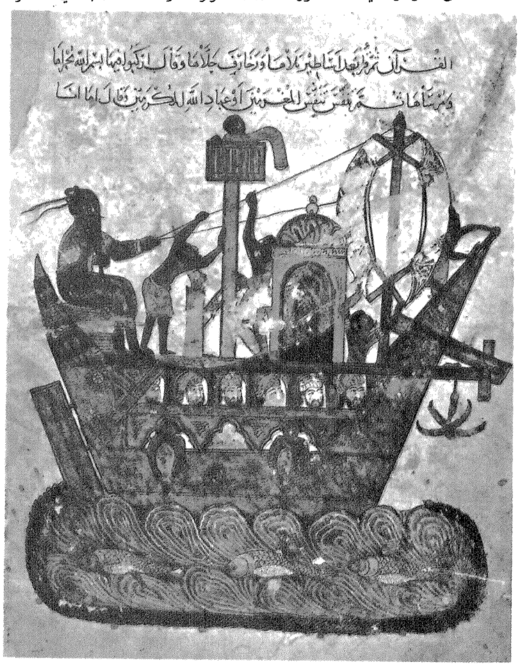
والبحار وكيف أن التجربة المباشرة جعلتهم ينقضون كثيرا من التصورات اليونانية القديمة عن الخرائط البحرية وأبعاد البحار فيقول عن هؤلاء الربابنة «ورأيت معهم دفاتر يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها، فعلقت من ذلك صدرا حسنا... الخ» وهذه الاشارة القيمة تدل على أن ثمة مؤلفات ملاحية كان الربابنة على وقته يعملون بموجبها وللأسف لم تصلنا مثل هذه المؤلفات الى اليوم.

ويمتدح المسعودي هو الآخر خبرة ربابنة الشام بالبحر الرومي على وقته من أمثال لاوي المكنّى بأبي الحارث وعبد الله بن وزير صاحب جبلة من ساحل حمص (عام ٣٣٢هـ) ويذكر من الربابنة العمانيين والسيرافيين على عهده وعبدالرحمن وعبد الكريم جعفر الصيرفي (وهم ثلاثة إخوة) ويستطرد فيقول «وقد ركبت عدة مرات في عدد من البحار كبحر الصين والروم الخرز والقلزم وأصابتني فيها من الأهوال مالا أحصيه كثرة فلم أشاهد أهول من بحر الزنج».

وفي هذه المؤلفات وغيرها حتى القرن العاشر الميلادي على الأقل لم نعثر على ذكر «لابرة الملاحة» أو بيت الابرة في كتب التراث العربي التي بين أيدينا. ولكني عثرت على نص هام لابن الفقيه الهمذاني في «كتاب البلدان»(١٦) الذي انتهى من تأليفه في أواخر القرن التاسع الميلادي وأوائل القرن العاشر (٩٠٣م) يدل صراحة على أن العرب عرفوا خاصية مغنطة الابر بدلكها بحجر المغناطيس (أكسيد الحديد المغناطيسي) وسنورد هذا النص في موضعه من هذا البحث.

ويرد ذكر إبرة الملاحة المغناطيسية في المراجع العربية في الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادي ويتكرر ذكرها فيما بعد في الرسائل الملاحية المتخصصة لأحمد بن ماجد وبخاصة في كتابيه الأول بعنوان: كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد(١٧) ويرجع تاريخ تأليفه إلى عام ١٤٧٥م والثاني بعنوان: حاوية الاختصار في أصول علم البحار(١٨) الذي ألفه قبل كتاب الفوائد بنحو ثلاثين سنة (انظر أنور عبد العليم) (١٩ — ٢٠).

وحتى القرن العاشر الميلادي لم يرد كذلك أي ذكر للبوصلة الملاحية ليس فقط في المراجع العربية المعروفة بل أيضا في المراجع الأوربية والصينية، وذلك على الرغم من أن العرب كانوا على علم كما أسلفنا بخاصية مغنطة الحديد بحجر المغناطيس الموجود في الصخور الطبيعية. ولربما أرجعنا السبب في تأخر



لوحة «تجريدية» من القرن ١٣ الميلادي توضح سفينة عربية من عدة طوابق
(من الرسوم التوضيحية لمقامات الحريري)

استخدام الإبرة المغناطيسية لمعرفة الاتجاه في البحر إلى صعوبة استعمالها وهي معلقة بخيط يتذبذب مع حركة الأمواج وقلقلة المركب من ناحية أو للخطأ الناشيء عن الانحراف المغناطيسي في العروض المختلفة والناتج عن عدم انطباق القطب المغناطيسي للأرض على القطب الشمالي من ناحية أخرى (ولم يكتشف هذا الخطأ قبل القرن السادس عشر الميلادي)، والملاح في غنى عن هذا كله وتحت يديه وسيلة سهلة لمعرفة الاتجاه في البحر بالنجوم الملاحية ليلا أو برصد الشمس نهارا بالاسطرلابات الفائقة الدقة والصنع التي نبغ العرب في تصميمها وتطويرها منذ القرن الثامن الميلادي ومنها اسطرلاب علي بن خلف من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) والصحيفة الزرقالية من نفس الفترة والاسطرلاب المبسط المعروف باسم عصا الطوسي من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أو ربع الدائرة (الربعية) للخوارزمي من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) (انظر أيضا خوان فرنيه)[٢١].

٢ - البوصلة في المراجع الأوربية:

في أوائل القرن التاسع عشر نشطت موجة الاضطهاد الفكري الأوربي للعرب مرة أخرى مثلما كان عليه الحال في أزمنة سابقة وعقب طرد العرب من الأندلس في عام ١٤٩٤م. وفي مثل هذه الأحوال يحاول المغرضون سلب كل فضل للعرب في تقدم العلوم والفنون والتقنية، بل وقد يصل بهم الحال الى محاولة طمس الحضارة الاسلامية ما أمكنهم ذلك أو نسبة المؤلفات العربية الى أنفسهم، كما أحرق الغزاة الأسبان الكثير من الكتب والمخطوطات العربية إبان خروج العرب من الأندلس مثلما أحرق هولاكو الكثير من خزائن الكتب في بغداد. وقد نشطت هذه الحركات أيضا على نطاق أضيق في عصر اللغات العبرية واللاتينية في أسبانيا وعلى الأخص في طليطلة في القرنين الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) والثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) وان كانت حركة الترجمة المذكورة قد بدأت قبل ذلك بقليل في الأديرة الأسبانية بفضل جهود الراهب جيربرت Gerbert الذي تلقى علومه في قطالونيا وعرف فيما بعد باسم البابا سلفستر الثاني[٢٢].

ومن أمثلة المعارف العربية التي نسبت الى الأجانب نسبة الاسطرلاب العربي الى ريجيومونتانوس Regiomontanus الألماني في عام ١٩٦٨م أو نسبة عصا الخوارزمي أو عصا الطوسي (المعرفة للعرب منذ القرن الرابع الهجري=العاشر الميلادي) الى ليفي بن جيرسون Levi ben Gersion اليهودي المتوفى عام ١٣٤٤م تحت اسم عصا يعقوب (أنور عبد العليم ١٩٨٠م)[٢٣] ومن المعروف أيضا أن بن عزرا (١٠٩٣ — ١١٦٧م) Ben Izra اليهودي من طليطلة كان قد ترجم جداول الخوارزمي الفلكية إلى العبرية في الأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي وهو القرن الذي شهد ظهور الكتابات اللاتينية في أوربا عن البوصلة[٢٤] وإن كان ذكر الاسطرلاب قد سبق ذلك بقليل[٢٥] ثم ظهر في القرن الرابع عشر (٦٥) مرة أخرى.

ومن المؤسف بل من المخزي أن نرى كتابا أوربيين بلغت حفيظتهم على العرب مبلغا أعمتهم عن رؤية الحق فتراهم يلقون الكلام على عواهنه دون سند من التاريخ أو الواقع لا لشيء إلا لمجرد الحط من شأن العرب ليس إلا. ومن هؤلاء المدعو دكتورو. روبرتسون الذي يقول في كتابه المسمى «نبذة تاريخية عن الهند القديمة» «إنه ليس في لغات العرب والترك والفرس اسم أصلي للبوصلة وان استعمال هؤلاء الشعوب للفظة الايطالية «بوصلة» يثبت أن هذه الآلة كانت مجهولة عندهم»[٢٦، ٢٧].

ويرى شردان J. Chardin الفرنسي رأى روبرتسون الانجليزي في أن العرب لم يكن لديهم آلات ملاحية ولا خرائط إلا ما نقلوه عن الأوربيين وأنهم أخذوا البوصلة عن الأوربيين قبل الفتوحات البرتغالية في الشرق. وقد كتب شاردان هذه الملاحظات في القرن السابع عشر الميلادي[٢٨] وهذا كلام لا يساوي ثمن الحبر الذي يراق في الرد عليه، فقد كان للعرب بوصلات بحرية قبل دخول البرتغال الى المحيط الهندي وكانت لديهم خرائط ملاحية وآلات متقدمة لرصد النجوم الملاحية[٢٩، ٣٠].

واذ كان ذلك كذلك، فلا يخلو الأمر من ظهور مفكرين منصفين عرفوا بالتبصر والحكمة سواء في المشرق أو في أوربا، وهؤلاء لا يلقون القول على

عواهنه بل يصدرون أحكامهم على الأشياء بعد دراسة وروية – ومن هؤلاء البارون الألماني الكسندر فون همبولتAlexander von Humboldt (٣١) الذي اشتهر برحلاته البعيدة وكشوفه الجغرافية في أمريكا الجنوبية في القرن الماضي – وكان قد راعه الجدل الذي احتدم في ذلك الوقت بين المتشيعين للصين والمتشيعين لأوربا في أمر اختراع البوصلة الملاحية – فكتب هذا البارون الى عالم الصينيات الانجليزي كلابروتJ. Klaproth في يناير عام ١٨٣٤م يرجوه فيه إماطة اللثام عن تاريخ البوصلة الملاحية. وأعد الأخير بحثا مشهورا في ١٣٨ صفحة نشره في باريس(٣٢). ويعتبر هذا البحث فريدا في بابه إذ رجع فيه كلابروت إلى عدد كبير من المصادر الأوربية كتبت في العصر الوسيط ومن المصادر الصينية القديمة. كما أثار هذا البحث كثيرا من الجدل والحماس منذ نشره. وأدلى العلماء الصينيون مؤخرا بدلوهم في هذا الموضوع متشيعين بطبيعة الحال لرد الفضل لملاحيهم. وسوف نبحث النصوص الصينية فيما بعد وسنقصر الكلام في هذا الفصل على المصادر الأوربية.

ولعل أول ذكر لبوصلة الملاحة البدائية عرف في أوربا هو الذي ورد في رسالة بعنوان «في المواعين» De utensilibus كتبها الانجليزي الكسندر نكام Alexander Neckam في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي(٣٣) وفيها يقول «عندما لا يرى الملاحون النجم القطبي يستخدمون ابرة تريهم الطريق». وفي رسالة أخرى بعنوان «في الأشياء الطبيعية»(٣٤) يقول نفس المؤلف « عندما يختفي ضوء النهار وتتلبد السماء بالغيوم وعندما يلف الظلام الدنيا بغلالة كثيفة يلمس الملاحون الابرة بمغناطيس فتدور في دائرة وعندما تستقر يشير طرفها المدبب الى الشمال».

وفي حوالي نفس الفترة أو قبيل ذلك بقليل يرد ذكر البوصلة على لسان جيو البروفنسيGuiot de Provins في قصيدة له بعنوان «توراة جيو»(٣٥) وفي هذه القصيدة يقول جيو:

«إن للبحارة فنا لا يخطىء أبدا بفضل حجر المغناطيس وهو حجر بني قبيح الشكل يجذب الحديد من تلقاء نفسه، وإذا مست إبرة هذا الحجر ثم

وضعت على عود يعوم في الماء فأنها تدير رأسها نحو نجمة القطب وبواسطة نور أمام الابرة في الليالي المظلمة ينكشف الطريق».

وقد جمع هذا النص ونصا آخر جاء على لسان جاك دي فيتري[٣٦] Jacques de vitry المتوفى عام ١٢٤٠م المدعو بول باريسي بناء على طلب الأستاذ كلابروت متقدم الذكر من المكتبة الأهلية بباريس.

وقد علق جابرييل فران[٣٧] على هذه النصوص وصحح بعض كلمات قصيدة جيو البروفنسي. وفي هذا الصدد يقول فران إن ماورد في هذه القصيدة لا يدل على ابتكار جيو للبوصلة وإنما على ذكر آلة كانت مستعملة في ذلك الوقت. كما ورد أيضا في القصيدة المذكورة مدح للبابا يشبّه الشاعر فيها المتربع على كرسي البابوية بالنجم القطبي وأن العالم المسيحي ينجذب اليه في وقت الأزمات كما تنجذب إبرة الملاحة نحو القطب. كما شبه الشاعر هذه الأوقات العصيبة بالأوقات التي يشتد فيها هياج البحر وظلامه ولا ترى فيها نجومه.

وفي هذا المعنى يروي ملاحنا العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد بيتا بليغا من الشعر في «كتاب الفوائد» هذا نصه:

ديارك مغناطيس رجلي إن مشت
وشخصك مغنـــاطيس قلبي وناظري

وأما عن الكاردينال دي فيتري فيقول فران إن هذا الكاردينال قد زار فلسطين مع الحملات الصليبية مرتين الأولى في عام ١٢٠٤م ومرة أخرى بعدها وعاش فيها سنوات (ولاريب أنه قد اطلع على فنون العرب وعلومهم في هذه الرحلات) وكتب كتابه المعروف باسم «تاريخ الشرق» Historia Orientalis بين سنوات ١٢١٥ – ١٢٢٠م. وان كان بعض المؤرخين يشكون في أن هذا الكتاب قد كتب بقلم الكاردينال نفسه. وعلى أية حال فان ماورد في كلام الكاردينال عن البوصلة الملاحية لا يعدو قوله إنها ضرورية لمن يركب البحر.

وثمة آراء أخرى عن أهل اسكندناوه عرفوا البوصلة في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر. كما عرفها أيضا الفلمنكيون، وتعزو بعض المصادر اختراع تقسيم الجهات الأصلية الى ٣٢ قسما اليهم ونحن لا نرى أهمية لمناقشة مثل هذه النصوص لتأخرها في الزمن وارتباط بعضها بأساطير قديمة.

وتضيف دائرة المعارف البريطانية في طبعتها الأخيرة(٣٧) إن أول وصف مفصل للبوصلة يعتد به هو ذلك الذي جاء في رسالة لرجل فرنسي يدعى بطرس بريجرينوس دي ماريكو Petrus Perigrinus de Maricourt يرجع تاريخها الى عام ١٢٦٩م وسماها «رسالة في المغناطيس» وتنقسم مادة هذه الرسالة الى قسمين الأول منهما يختص بالجذب والتنافر المغناطيسي والمغنطة بحجر المغناطيس. ويصف القسم الثاني حجر مغناطيس يطفو فوق الماء وحوله دائرة مقسمة إلى أربعة أقسام بكل قسم ٩٠ كما يصف بوصلة فيها إبرة محمولة على سن بداخله علبة. وتضيف دائرة المعارف المذكورة «أنه يبدو أن هذه البوصلات كانت تستخدم في أعمال المساحة البرية وليس في الملاحة البحرية».

ويساورنا الشك في استخدام بوصلة يطفو فوقها حجر المغناطيس الثقيل غير المصقول مثلما ورد في وصف بطرس آنف الذكر، اللهم الا إذا كان محمولا على لوح خشبي مناسب وفي هذه الحالة لا يصلح للاستعمال في البحر.

وعلى أية حال سنرى عما قليل نصا أدق وأشمل من ذلك النص في مخطوط عربي كتب قبل النص سالف الذكر بنحو ربع قرن يوضح نوع البوصلة التي كانت مستعملة على المراكب العربية في البحر المتوسط في تلك الفترة.

ويجدر بنا قبل ختام هذا الفصل الاشارة الى ما ورد في بعض المصادر (٣٩، ٤٠) من أن ملاحا ايطاليا يدعى فلافيو جيولا Flavio Giola من بلدة امالفي على خليج سورنتو في جنوب ايطاليا كان له فضل إدخال تعديلات

على بوصلة الملاحة بوضعها في علبة وتجليس المغناطيس فيها على سن مدبب ليتحرك حركة حرة فوق قرص وردة الرياح وذلك في أواخر القرن ١٥م أو أوائل القرن السادس عشر الميلادي. على أن بعض المصادر الأوربية ومنها دائرة المعارف البريطانية تنكر هذه الرواية.

٣ – البوصلة في المراجع الصينية :

هناك اسطورة صينية قديمة تقول إنه في أثناء الهجوم الذي شنه الامبراطور هوانغ ــ لي في السنة الرابعة والستين من حكمه (٢٦٣٤ ق.م) على غريمه تشي ــ ياوو في سهول جولو ظهر ضباب كثيف اعترض سبيل جيش الامبراطور فما كان منه إلا أن صنع عربة عليها تمثال لفارس تشير يده الى الجنوب وتمكن بذلك من تحديد الجهات الأربع واللحاق بتشي ــ ياوو، وقد اعتمد المتشيعون للصين في اختراع البوصلة على مثل هذه الحكايات التي ثبت فسادها ودحضتها البحوث الحديثة فلم تعرف الصين العجلات الحربية الا بعد ذلك الزمن بقرون (القرن ٩م) كما لم تعرف المراكب الكبيرة القادرة على السفر في المحيط قبل القرن الثالث للميلاد. ولكن ليس من المستغرب أن يكون الصينيون قد عرفوا خاصية الجذب المغناطيسي بحجر المغناطيس وكان يسمى في لغتهم بالحجر الجذاب في القرون الأولى بعد الميلاد، كما عرفه من قبلهم اليونان القدامى أيضا.

ولكن ليس هناك في المصادر الصينية القديمة على كثرتها أية اشارة لخاصية المغنطة (ناهيك بالبوصلة الملاحية) إلا قبيل نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ويعزى هذا النص للعالم الصيني القديم شن ــ كوا، حوالي عام ١٠٨٩ – ١٠٩٣م وقد ترجمه لنا كل من شو – هوا[٣] في عام ١٩٥٤ وونج (١٩٦٤)[٤]،[٤١] ونحن ننقله عن الفرنسية فيما يلي:

«عندما يدلك طرف ابرة بالحجر الجذاب فأنها تكتسب خاصية الاتجاه الى الجنوب ولكنها في الواقع تنحرف دائما انحرافا قليلا نحو الشرق ولا تتجه الى

الجنوب تماما. ويمكن كذلك وضع الابرة على الماء وجعلها تطفو فوقه، وحينئذ فهي تتذبذب بشدة ثم تستقر ويمكن أيضا استقرارها فوق ظفر الاصبع أو على حافة اناء زجاجي وحركتها وقتئذ تكون سريعة وتسقط بسرعة، وأحسن طريقة هي تعليقها في الوسط بخيط جديد من شرنقة الحرير يمكن لصقه بخردلة من شمع العسل. ومثل هذه الابرة المعلقة يجب وضعها في مكان بعيد عن مهب الريح. وهي تدل دائما على جهة الشمال وإن لدي منها نوعين ذلك الذي تشير سنه إلى الجنوب وذلك الذي تشير سنه إلى الشمال».

والجملة الأخيرة تتوقف على انعكاس اتجاه دَلْك الابرة بحجر المغناطيس بالطبع لمغنطتها. وهذا الوصف ينطبق دون شك على الابرة المغناطيسية المعتادة ولا يشير الى استعمالها في الملاحة في ذلك الوقت.

وأما عن بوصلة الملاحة عند أهل الصين فيقول كلابروت ان أقدم إشارة لها تمكن من العثور عليها ترجع الى عام ١٢٩٧ بعد الميلاد ويرى دي سوسير[٤٢] انّ ثمة نصا أقدم منه ورد في كتاب هيرث المسمى تاريخ الصين القديم[٤٣] يحتوي على ما يفيد استخدام البوصلة في الملاحة ويرجع الى القرن الثاني عشر الميلادي، ويحتوي أيضا على معلومات عن تجارة الصين البحرية في كانتون وكان أغلبها في أيدي الربابنة العرب والفرس، ومن المعروف أن السفن العربية والفارسية طرقت موانيء الصين بصفة منتظمة فيما بين القرنين السابع والعاشر الميلادي كما كانت المراكب الصينية تصل الى موانيء الخليج العربي في نفس الفترة، وكان للعرب والفرس المسلمين جالية قوية في كانتون (انظر المراجع الهامة الآتية حول تجارة العرب البحرية مع الصين هسيا – ناي[٤٤] ليفسكي[٤٥] تشاو – جو – كو[٤٦]).

ومن الغريب مع ذلك أن دائرة المعارف البريطانية في طبعتها الأخيرة تقول إن المراكب الصينية كانت نشطة في الخليج العربي في القرن التاسع الميلادي ولا تذكر شيئا عن نشاط السفن العربية في موانيء الصين (ربما بكثرة ونشاط يفوقان تردد السفن الصينية على موانيء الخليج). وتنسى أنها في مادة أخرى في

نفس المجلد وتحت عنوان «تاريخ الصين» إنه في تلك الفترة تحت حكم أسرة تانج التي امتدت إلى أوائل القرن العاشر الميلادي كانت تجارة الصين الخارجية في أيدي الأجانب من العرب والفرس. وإن دل هذا على شيء فعلى علو كعب الربابنة العرب في الملاحة إن لم نقل بتفوقهم على قرنائهم الصينيين. ثم إن العرب أنفسهم قد وصفوا بتفصيل كبير الطريق الملاحي بين البصرة ومسقط والصين في كتابات رحلة التاجر سليمان (٨٥١م) وابن الفقيه (٩٠٣م). هذا وقد دخل الاسلام الصين في عام ٦٥١م تحت حكم أسرة تانج المذكورة ومنذ ذلك الحين والسفارات العربية والتجار والملاحون والعسكر العرب يسافرون الى الصين وحتى من فر منهم ابان ثورة الزنج في بغداد وجد ملجأ في الصين ولا تزال النقود العربية من الدراهم والدنانير يعثر عليها في أنحاء متفرقة من الصين الى يومنا هذا.

إلا أن البحوث الحديثة لعلماء الصين مكنتهم من العثور على نص أقدم عهدا من نص كلابروت. ويرى ونج (١٩٦٨) أن هذا النص يرجع تاريخه الى سنة ١١١٩م[٤١] ويقول إن مؤلفه ويدعى تشو-يو Tchou-Yu كتب مصنفا بعنوان ينج-تشو-كوتان في ثلاثة فصول وهو نفسه لم يكن من أهل البحر ولكن والده كان محافظا لكانتون. وكان هذا الشاب مولعا بمعرفة أخبار البلاد الأجنبية التي تأتي منها السفن الكبيرة لتحمل تجارة بلاده الى ماوراء البحار ويقول إنه هو نفسه قابل كثيرا من الربابنة العرب والفرس على عهده وأنه دون عن والده كثيرا من أخبار هذه السفن الأجنبية ويستطرد فيقول: «أنه عندما يكون الجو صحوا يستدل الربابنة على طريقهم الملاحي ليلا بالنظر الى النجوم وعندما تحجب السحب الشمس أثناء النهار ينظرون إلى الابرة التي تشير إلى الجنوب. وفي عرض البحر لا يسقط المطر وعندما تمطر السماء يكون البر قريبا».

وهذا النص الذي أثير حوله ضجة كبيرة لا يوضح نوع البوصلة التي كانت مستعملة. وأغلب الظن أنها النوع البدائي من الابرة المغناطيسية التي كانت تعلق من وسطها، ثم ان الدكتور ونج نفسه يقرر بأن المسودة الأصلية لكتاب تشو-يو قد فقدت غير أن النص قد حفظ في قاموس يونج-لو Yong-Lu مما يجعلنا نلقى ظلا من الشك حول التاريخ الذي حدد له رغم أنه

النص الأقدم الذي عثر عليه علماء الصين إلى يومنا هذا فيما يتعلق بتاريخ بوصلة الملاحة عندهم.

٤ – «البوصلة» في المراجع العربية :

لئن كانت الفترة بين عامي ١٠٨٩ – ١٠٩٣م تؤرخ لأقدم نص صيني ذكرت فيه خاصية الجذب المغناطيسي والمغنطة في بلاد الصين كما أسلفنا ذكره في بحوث شو–هوا (١٩٥٤) ونج (١٩٦٤)، (١٩٦٨) – فقد عثرنا بدورنا على نص عربي لا يقل أهمية بل ويسبق النص الصيني بنحو قرنين من الزمان يفيد بأن العرب كانوا على علم بخاصية الجذب المغناطيسي وعملية المغنطة. وهو نص لم يشر إليه أحد من المستشرقين أو غيرهم ممن تصدوا للبحث عن أصل بوصلة الملاحة من قبل.

يقول ابن الفقيه الهمذاني (٩٠٣م) في معرض الكلام عن بلدان الجزيرة في «كتاب البلدان»:

«قالوا ومن عجائب الجبل الذي بامد[٥٧] يراه جميع أهل البلدة، أنه متى يحك بذلك الجبل سكين أو حديد أو سيف حمل ذلك السيف أو السكين الحديد وجذب الابر والمسال بأكثر من جذب المغناطيس. وفيه أعجوبة أخرى وذلك أنه لو بقي مائة سنة لكانت هذه القوة قائمة فيه».

وهذا النص على جانب كبير من الأهمية فحجر المغناطيس الطبيعي موجود في جبال آمد بالجزيرة العربية وعرفه العرب وكانوا يحكّون السكاكين والسيوف بذلك الحجر الطبيعي فتتمغنط أي تكتسب خاصية الجذب المغناطيسي وتستطيع أن تلتقط الابر والمسال (وهي الابر الغليظة). وتكلم ابن الفقيه عن «القوة» المغناطيسية كما نعرفها اليوم بما لم يتكلم به أحد من قبله. ويضيف ابن الفقيه في موضع آخر من كتابه «وقال المنصوري إن السحاب الموكل بالتنين[٤٧] يخطفه كما يخطف حجر المغناطيس الحديد».

ويصف الفرنسي فنسان دي بوفيه وهو من المعاصرين للكاردينال جاك دي فيتري الذي تقدم ذكره وزار بيت المقدس أيضا إبرة مغناطيسية ملاحية في البحر الأبيض المتوسط في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي تطفو على الماء ويضيف قوله «إن حجر المغناطيس يستخرج من البلاد العربية»(٤٨).

وها قد تأيد هذا القول بنص ابن الفقيه سالف الذكر.

وترى دائرة المعارف البريطانية (١٩٧٩) أن أول ذكر لبوصلة الملاحة العربية ورد في نصوص فارسية عن بوصلة من حديد مطروق على شكل سمكة كانت تستعمل حوالي عام ١٢٢٢م على المراكب العربية(٤٩).

وفيما يتعلق باستخدام الابرة المغناطيسية على السفن العربية فأول وصف مفصل لها هو ما ورد في مخطوطة عربية بعنوان «كتاب كنز التجار في معرفة الأحجار»(٥٠) لمؤلفه بيلق القبجاقي يرجع تاريخ تأليفه لعام ١٢٨٢م وقد كتبه المؤلف بالقاهرة والمخطوطة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس. ويرجع الفضل للمستشرق جابرييل فران في الكشف عن هذا النص في كتابه «مقدمة في الملاحة الفلكية العربية» المتقدم ذكره في هذا البحث.

يقول «القبجاقي»: «ومن خواص المغناطيس ان رؤساء بحر الشام اذا اظلم عليهم الجو ليلا ولم يروا من النجوم ما يهتدون به في تحديد الجهات الأربع يأخذون إناء مملوءاً ماء ويحترزون عليه من الريح بأن ينزلوه الى بطن السفينة ثم يأخذون ابرة وينفذونها في سمرة(٥١) أو قش حتى تبقى معارضة فيها كالصليب ويلقونها في الماء الذي بالاناء ومعد لها، فتطفو على وجهها، ثم يأخذون حجرا من المغناطيس كبيرا ملء الكف أو صغيراً ويدنونه من وجه الماءويحركون بأيديهم دورة اليمين فعندها تدور الابرة على صفحة الماء، ثم يرفعون أيديهم على غفلة وسرعة فان الابرة تستقبل بجهتيها جهة الجنوب والشمال» ورأيت هذا بالفعل منهم عيانا في ركوبنا البحر من طرابلس الشام الى الاسكندرية سنة ٦٤٠هـ (أي حوالي عام ١٢٤٢م). وقيل إن رؤساء مسافري بحر الهند يتعوضون عن الإبرة

والسمرة بشكل سمكة من حديد رقيق مجوف مستمد عندهم، يمكن إنه اذا ألقى في ماء الاناء عام، وسامت برأسه وذنبه الجهتين من الجنوب والشمال» ويستطرد المؤلف فيقول أما لماذا تطفو هذه السمكة الحديدية على سطح الماء فتفسيره أن جميع الأجسام المعدنية حتى ما هو ثقيل منها اذا طرقت على شكل أواني فأنها تزيح كمية من الماء وزنها أكبر من وزن المعدن الأصلي ويمكن لهذه الأواني أن تحمل أثقالا.

وثمة نص آخر متأخر بمائتي عام عن النص السابق ورد في خطط المقريزي[٥٢] المتوفى عام ١٤٤٢م يقول:

«ما برح المسافرون في بحر الهند إذا أظلم الليل ولم يروا ما يهديهم من الكواكب الى معرفة الجهات يحملون حديدة مجوفة على شكل سمكة ويبلغون في ترقيقها جهد المقدرة ثم يعمل في فم السمكة شيء من المغنطيس جيدا ويحك فيها بالمغنطيس فأن السمكة اذا وضعت في الماء دارت واستقبلت القطب الجنوبي بفمها، وهذا أيضا من أسرار الخليقة. فاذا عرفوا جهتي الجنوب والشمال تبين منهما المشرق والمغرب، فاذا تحددت الجهات الأربع عرفوا مواضع البلاد منها فيقصدون حينئذ جهة البلاد التي يريدونها».

واذا كان صاحب كتاب كنز التجار قد شاهد البوصلة العربية مصادفة في عام ١٢٤٢م فليس معنى ذلك أن هذا التاريخ هو أول تاريخ ابتكرت فيه هذه البوصلة الملاحية ولا ريب في أنها كانت مستعملة قبل ذلك على سفن عربية أخرى على يقين من أن ثمة مصادر عربية أخرى تسبق هذا التاريخ ولم تر النور بعد، وعلى البحاثة العرب والمسلمين الكشف عن هذه المصادر.

بقي أن نشير إلى مرجع هام لم يسترع نظر كثير من الباحثين من قبل أشار إليه فران الفرنسي متقدم الذكر ألا وهو دائرة المعارف الايطالية[٥٣] وهي من المراجع القليلة التي أنصفت العرب، أو لنقل إنها توخت الأمانة والصدق في تقرير الحقائق. تقول دائرة المعارف المذكورة تحت مادة بوصلة ما نصه:

«إنه حوالي منتصف القرن الحادي عشر الميلادي تعلم الملاحون الايطاليون على شواطىء نابلي والبندقية(٥٤) وكذلك الملاحون من جزيرة مايورقا من الربابنة العرب أن الابرة المغنطة لها خاصية عجيبة وهي الانجذاب نحو الشمال ويمكن بواسطتها أن توجه الملاحة. وحينما تثبت هذه الابرة في عود خشب خفيف أو فوق حلقة خشبية فأنها تطفو على سطح الماء وتتخذ هذا الوضع. ومن ثم أطلق عليها اسم الكلاميت (الضفدعة) وهو الاسم الذي عرفت به البوصلة عند الأوربيين في مبدأ استخدامها في البحر الأبيض المتوسط».

ويرى المؤرخ الايطالي تيرابوسكي في القرن الثامن عشر الميلادي في كتابه المعروف باسم «تاريخ الأدب الايطالي»(٥٥) أن البوصلة الملاحية دخلت أوربا عن طريق العرب. حقا تعلم الأوربيون من حضارة العرب وحضارة الشرق الكثير والكثير ومن ذلك على سبيل المثال: البارود والبوصلة وصناعة الورق والأرقام الهندية وكلها كما يقول البستاني(٥٦) قد سجلت تطورات شاملة في العلوم وفي فنون الحرب والملاحة والتربية ولكن ما أسرع ما ينسى هؤلاء الأوربيون فقد أخذوا هذه الأشياء قضايا مسلمة كأنما هي من ابتكارهم ولم يشيروا اليها كثيرا !.

٥ – أسماء البوصلة الملاحية ومراحل تطورها :

تقول دائرة المعارف الآسيوية(٥٨) ان بوصلة الملاحة عرفت عند الانجليز باسم Compass وعند الفرنسيين باسم Boussole وعند الايطاليين باسم Bussola وعند أهل الملايو باسم Paduman وفي اللغة البرتغالية باسم Compasso de Marcar . وترى هذه الموسوعة أن البوصلة الملاحية الصينية ابتكرت في حكم الامبراطور هوانج–تي Hoang-Ti وقد تقدم القول بأن الانجليزي روبرتسون قد أنكر على العرب والترك والفرس معرفتهم للبوصلة البحرية حيث «أنهم استعملوا اللفظة الايطالية للدلالة على هذه الآلة وليس في لغاتهم اسم أصلي للبوصلة» !.

والواقع أن ملاحي البحر الأحمر والمحيط الهندي العرب استعملوا أسماء:

الحقة وبيت الابرة، والابرة، والمغناطيس، ودائرة الابرة والدائرة (الديرة) للدلالة على هذه الآلة. كما كانت لفظة «قبلة نما» الفارسية مستعملة في الخليج العربي الى جانب بيت الابرة والمغناطيس والحقة والدائرة كما شاع استعمال كلمات: قبلة نما - قطب نما - سمت نما - جهت نما - وجهان نما في اللغتين الفارسية والاردية بمعنى بوصلة الملاحة، وكلمة «نما» فارسية تدل على الجنوب. وكان الفرس يعتبرون جهة الجنوب هي الجهة الأساسية مثلما نعتبر الشمال الآن وكانت توجه اليها عروش ملوكهم القدامى.

أما في اللغة الصينية فتسمى البوصلة بلفظة تشي-نان Tche nan ويرى دي سوسير (١٩٢٨)[٨] ان هذه اللفظة التي تعني جهة الجنوب ربما كانت مشتقة من قبلة نما أو قطب نما الفارسية.

أما اللفظة الايطالية «بوصلة» فتعني الحق أو الصندوق. وكانت «الحقة» واسعة الأستعمال في المحيط الهندي لدى الربابنة العرب قبل أن تعرف في ايطاليا. ونحن نميل الى الاعتقاد بأن حقة ابن ماجد قد انتقلت الى البحر المتوسط حيث عرفها البحارة الايطاليون وأطلقوا عليها الاسم المرادف في لغتهم كما أسلفنا قوله من قبل.

يقول شهاب الدين أحمد بن ماجد في حاوية الاختصار التي ألفها في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي كمرجع لملاحي المحيط الهندي على عصره:

وجدد الآلة قبل السفر   كحقة أو قياس أو حجر
والبلد والفانوس والرهمانج   وإن تكُ سافرت كمن حجج

فهو يوصي الملاحين بفحص وتجهيز آلات الملاحة قبل الاقلاع مثل الحقة وهي بيت الابرة ولوحات قياس ارتفاع النجوم فوق الأفق والبلد وهي آلة سبر الأعماق والرهمانج* وهو المرشد الملاحي. ويمثل الربان المقبل على رحلة ملاحية

بالحاج المقبل على أداء الفريضة بكل ما يحمل هذا المعنى من قدسية واعداد للرحلة الروحية.

وفي مواضع كثيرة أيضا «من كتاب الفوائد» يشير ابن ماجد الى الحقة والديرة والابرة والمغناطيس ومن ذلك قوله:

تأمل في السفينة وهي فوق الأرض واكتب جميع خللها، وجلس الحقة في مكانها وتفقد كل التفقد أولا في نصب الحقة لأن من المراكب مايكون في نجارته خلل فيعدّي عن مجراه، فاستدرك الأمر بأوله».

ولا يدعي ابن ماجد بأنه أول من اخترع الابرة الملاحية ولكنه يقول في أكثر من موضع في مؤلفاته بأن فضله ينحصر في تطوير الابرة الملاحية بتثبيتها على سن لتتحرك حركة حرة فوق وردة الرياح المقسمة الى ٣٢ خنا وذلك في صندوق أو حقة وفي ذلك يقول في كتاب الفوائد «ومن اختراعنا في علم البحر تجليس المغناطيس على الحقة بنفسه ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب».

ولابن ماجد ارجوزة لتحديد القبلة في أي مكان من العالم (أنور عبدالعليم)(٥٩) مستعينا بالبوصلة الملاحية وفي ذلك يقول:

«وكذلك دورة السماء اثنين وثلاثين جزءا (يقصد تقسيم دائرة الافق في وردة الرياح العربية) وكل جزء قبضة من الخنصر إلى الابهام وأنت مستقبلها مادا بها ذراعك. فحط بيت الابرة أمامك وصل على أي خن جاء في النظم على أي بلد أنت بها واقبض ببعض الأدلة المشار اليها عند عدم الحقة».

وأما لفظ «كلاميت» Calamite وهو اللفظ الذي استعمله البحارة الايطاليون والفرنسيون في ابحر المتوسط في القرن الخامس عشر الميلادي للدلالة

على بيت الابرة المستعملة في ذلك الوقت فيعني في قواميس اللغة الفرنسية والايطالية «الضفدعة» وفي اللاتينية «العود الجاف» أيضا.

وقد اشتق من شكل الابرة المغناطيسية وهي مستقرة على عودين جافين من القش لتطفو فوق الماء الذي يبدو انه كان يذكرهم بالضفدعة.

ويرى فران (١٩٢٨) والعالم الجزويتي فورنيه (انظر فران في هذا الصدد) هذا الرأي أيضا.

وأما اللفظة المستعملة في اللغات الانجلوسكسونية للدلالة على البوصلة وهي لفظة «كمباص» Compass فترى دائرة المعارف البريطانية (وكذلك قواميس اللغة الانجليزية) أن هذا الاسم لا يمت بصلة لبوصلة الملاحة وانما هو لفظ غامض الدلالة ومنه اشتقت معاني كثيرة بيد أن الاحساس العام الذي يعطيه هذا اللفظ هو المصدر «قياس» أو الفعل «قاس ــ يقيس» بمعنى قياس المساحة أو المحيط أو الدائرة. كما يستعمل أيضا للدلالة على آلة القياس مثل الفرجار (البرجل).

وقد دخل هذا اللفظ اللغة العربية ضمن المصطلحات الملاحية التي عربت من اللاتينية واليونانية مثل:

اسطول من Stolos (بمعنى جمع مراكب القتال)
نوتي من Nautique (بمعنى ملاح)
اسكله من Scala (مكان رسو السفينة)
نولون من Nolon (وهو جعل السفينة)

مثلما دخلت هذه اللغات ألفاظ عربية أيضا.

وقد ورد ذكر اللفظ «قمباص» مرة بالقاف ومرة بالكاف في كتابات ابن

ماجد مثلما في قوله في معرض الكلام عن مقارنة علم وفن ملاحي المحيط الهندي بقرنائهم من ملاحي البحر المتوسط(٦٠).

«والجاه اسم فارسي معرب ويسمى عند أهل الديار المصرية السميا لأن لهم اصطلاح غير ركاب البحر الكبير (يقصد بحر الهند) ولهم قمباص ولهم فيه خطوط صفته أميال... الخ».

وهذا اللفظ هنا يعني في رأينا(٦١) تلك الخرائط البورتلانية Portulans للمواني التي كانت توقع عليها الاتجاهات الملاحية والرياح في خطوط كثيرة متقاطعة. ويؤيد ذلك أيضا قول ابن خلدون(٦٢) في المقدمة في معرض الحديث عن الملاحة العربية في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي.

«على أن قوانين ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي على ضفافي البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ماهي عليه في الوجود في وضعها على سواحل البحر على تراتيبها، ومهاب الرياح وممراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة «ويسمونها الكنباص وعليها يعتمدون في أسفارهم».

ويرى ابن فضل الله العمري(٦٣) هو الآخر ان قمباص معرب من اللاتينية.

ويمكننا الآن أن نوجز مراحل تطور البوصلة الملاحية بعامة في الخطوط الآتية:

١ – عرف العرب خاصية الجذب المغناطيسي والمغنطة بحجر المغناطيس للحديد والابر الحديدية منذ القدم كما يتضح عدم ظهور مراجع لاستخدام الابرة المغناطيسية في الملاحة البحرية حتى أواخر القرن العاشر على الأقل في كل من الصين وبلاد العرب وأوربا.

٢ – لا يبدو واضحا من النصوص المتوفرة حاليا من هم أول من استخدم

الابرة المغناطيسية في الملاحة لتقارب الفترة التي ظهرت فيها النصوص الدالة على ذلك في كل من الصين وبلاد العرب وأوربا. ولكن يبدو أن الابرة المغناطيسية التي استخدمت لأول مرة للتعرف على الاتجاه في البحر كانت تعلق في الهواء من وسطها بخيط وتترك لتستقر في وضع الشمال والجنوب، وبطبيعة الحال لم تكن مثل هذه الابرة لتؤدي الغرض بكفاءة بالنظر لقلقلة المركب واهتزازها ولهذا لم يعول عليها كثيرا.

٣ - شمل التطور الأول والهام لابرة الملاحة تثبيتها في عود من القش أو حلقة لتطفو فوق الماء في اناء يوضع في مكان هادىء من السفينة.

٤ - وأعقب ذلك طرق الحديد الرقيق على شكل سمكة لتطفو فوق الماء بعد مغنطتها ويبين فمها حين تستقر جهة الشمال أو الجنوب حسب طريقة المغنطة. وقد استعمل هذه الآلة الملاحون في المحيط الهندي والفرس كما استعملها الصينيون. ويبدو أنها كانت مرحلة أكثر تطورا من البوصلة السابق الاشارة إليها ولا يعرف على وجه اليقين تاريخ استعمالها لأول مرة هي الأخرى.

٥ - تم التطور الهام والأخير لإبرة الملاحة على يد الملاح العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد الذي لم تكتشف مؤلفاته وينشر عنها الا في العشرينات من القرن العشرين وفيها يتحدث عن تثبيت المغناطيس (الابرة الممغنطة) فوق قرص وردة الرياح في حقة وسمى الآلة كلها الحقة أو الدائرة. وتقسيم قرص البوصلة عند ابن ماجد هو التقسيم المتبع حاليا في بوصلة الملاحة أي الى ٣٢ جزءا أو «خنا» (والخن كلمة فارسية تعني المنزل وفي بوصلة الملاحة تعني القوس على الدائرة بين مطلعي نجمين أو مغيبهما ويقول ابن ماجد ان الخن مقتبس من اخنان المركب كما أن المغناطيس عند ابن ماجد يعني الابرة الممغنطة المثبتة في الحقة وتتحرك على محور).

وجدير بالذكر أن بوصلة ابن ماجد لا تختلف في فكرتها عن

البوصلة المستعملة حاليا سوى أن الأخيرة بطبيعة الحال سهلة الحركة وأكثر اتزانا ومحصنة ضد التأثر بحديد جسم السفينة.

٦ – يبدو لنا أن ملاحي «امالفي» الايطاليين قد نقلوا حقة ابن ماجد الى أوربا كما ورد في بعض المراجع الأوربية المتقدم ذكرها ولو كان العكس هو الصحيح فلن يتردد ملاح مثل ابن ماجد عرف بالعفة والصدق والأمانة من أن يذكر ذلك صراحة.

ملاحو المحيط الهندي وملاحو البحر المتوسط :

يبدو من كتابات المؤرخين والجغرافيين العرب القدامي من أمثال المسعودي وابن الفقيه الهمذاني وغيرهم ممن تقدم ذكرهم وكذلك من كتابات ابن ماجد ومعاصره الملاح القدير سليمان المهري من عرب الشحر أن ربابنة المحيط الهندي كانوا على الدوام أرسخ قدما في أمور الملاحة ومعرفة «المجاري وسط المحيط» من قرنائهم ربابنة البحر المتوسط. ويضيف ابن ماجد قوله إن تقسيم البوصلة عند ملاحي البحر المتوسط هو ١٦ خنا فقط بينما تقسيم ربابنة المحيط الهندي العرب لها هو ٣٢ خنا. كما ان ملاحي المحيط الهندي يقدرون على تصحيح مسارهم اذا انحرفت المركب يمنة ويسرة وقياساتهم للنجوم أدق وأضبط، وهو وزملاؤه يستطيعون الابحار بسهولة في مياه البحر المتوسط لكن بحارة البحر الأخير يضلون سبيلهم في بحار الجنوب «ونحن سهل علينا أن نسافر بمراكبهم في بحرهم وقد كابرنا بعض منهم في ذلك حتى طلعوا عندنا فأقروا لنا بالمعرفة في البحر وعلومه والحكم على النجوم في أودية البحر» (انظر ٦٤). ومثل هذه المعلومات تؤيد القول بأن تطوير بوصلة الملاحة قد تم على أيدي ملاحي المحيط الهندي العرب ومنه انتقل الى البحر المتوسط.

٦ – تقسيم قرص البوصلة :

ورد في مخطوطة بعنوان «رسالة في الاسطرلاب» لجوفري شوسير[٦٥] يرجع تاريخها الى عام ١٣٩١م أن تقسيم قرص البوصلة الى ٣٢ قسما تم على يد

الملاحين من أهل الشمال، ربما من الفلمنكيين من صناع البوصلة وفي رواية أخرى لدائرة المعارف البريطانية أن ذلك ربما تم على أيدي الملاحين الايطاليين من امالفي كما ذكرنا آنفا.

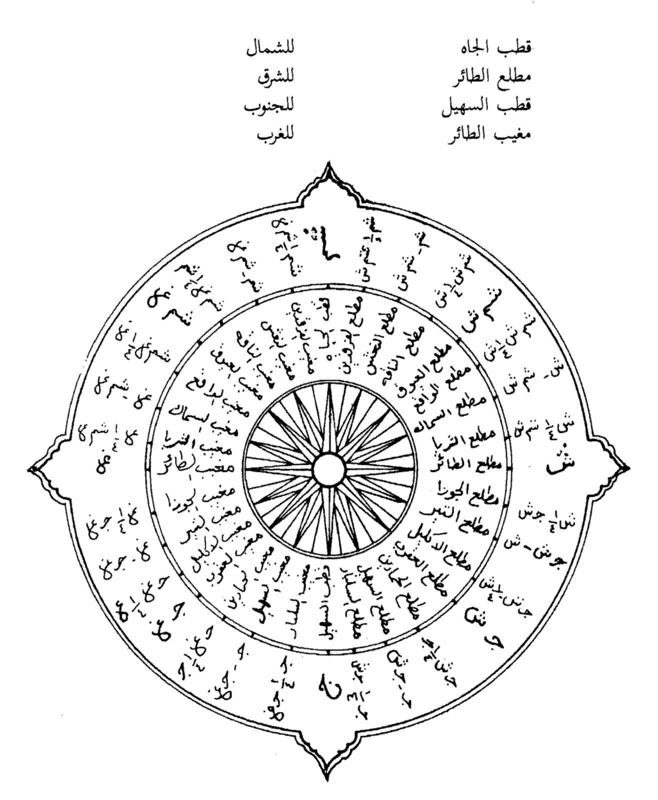
والواقع أن تقسيم قرص البوصلة إلى ٣٢ خنا يتبع تقسيم دائرة الأفق عند العرب حسب مطالع ومقارب النجوم. وهو تقسيم ليلي ويسبق ابتكار البوصلة بزمن طويل. وقد تحدث عنه أصحاب كتب الأنواء منذ القرن الثامن الميلادي مثل الجاحظ وأبو حنيفة الدينوري ثم ابن خرداذبة وعبد الرحمن الصوفي والبيروني[٦٦] الذين ربطوا منازل القمر والتغيرات التي تطرأ على القبة السماوية بمطالع ومغارب النجوم كما ربطوا بينها وبين مواسم السفر وهبوب الرياح ومواعيد الزراعة وما اليها. ولقد استدل العرب على الشمال بنجوم بنات نعش أو بالنجم القطبي (الجاه) وعلى الجنوب بسهيل وعرفوا رياح الصبا والدبور وفي ذلك يقول القدماء :

مهب الصبا من مطلع الشمس مائل
الى الجدي والشَمْال حتى مغيبها
وبين سهيل والمغيب تحققت
دبورا ومطلعها اليه جنوبها

ويذكر ابن ماجد أن تقسيم قرص البوصلة المعروف حاليا باسم «وردة الرياح» عند ملاحي البحر الرومي (المتوسط) العرب كان على عهده ١٦ جزءا أو خنا ثمانية أخنان لمطالع النجوم وثمانية أخرى لمغيبها وهذه النجوم كما أوردها ابن ماجد «بلغة المصرية والمغربية» هي :

لبش وشلوق وبراني وشرش وسميا وقبلة وشرق وغرب[٦٧] أما تقسيم ربابنة المحيط الهندي فان الجهات الأربع الأصلية تحدها النجوم الآتية:

قطب الجاه للشمال
مطلع الطائر للشرق
قطب السهيل للجنوب
مغيب الطائر للغرب



تقسيم دائرة الأفق في حقة ابن ماجد الى ٣٢ جزءا (خنّا) تمثل مطالع ومغارب النجوم الملاحية (ومرادفاتها في بوصلته الملاحية الحديثة موضحة خارج الدائرة الوسطى)

وبين الجاه ومطلع الطائر توجد المنازل الآتية : (انظر الرسم المرفق) (وجمــلة أخنانها ثمانية)

الجاه – مطلع الفرقدين – مطلع النعش – مطلع الناقة – مطلع العيوق مطلع الواقع – مطلع السماك – مطلع الثريا – مطلع الطائر.

وبين مطلع الطائر وقطب السهيل توجد المنازل الآتية (وجملة أخنانها ثمانية):

مطلع الطائر – مطلع الجوزاء – مطلع التير – مطلع الاكليل – مطلع العقرب – مطلع الحمارين – مطلع السهيل – مطلع السلبار – قطب السهيل.

وهذه الستة عشر خنا المتقدمة الذكر للمطالع ومثلها للمغارب فيكون مجموع أقسام البوصلة ٣٢ قسما وهو ماجرى العرف عليه عند الملاحين حتى اليوم.

أما وردة الرياح الصينية فمبينة على اسقاط خط الاستواء السماوي على الافق الأرضي ويعتمد تقسيمها على حركات الشمس على مدار السنة (في الفصول المختلفة) ومن ثم فهو تقسيم نهاري.

ولو كان العرب قد نقلوا بوصلة الملاحة عن الصينيين لأخذوها بتقسيمها الذي لايناسب طبيعة حياتهم أو بيئتهم.

٧ – مناقشة واستنتاج :

يجمع المؤرخون على تقسيم الحضارة الاسلامية إلى فترتين زمنيتين الأولى منهما يمكن تحديدها من منتصف القرن الثاني إلى منتصف القرن الرابع الهجري

(٨ – ١٠ م) وفيها ترجمت علوم اليونان ووقف العرب على علوم الفرس والهند. أما الفترة الثانية فتحدد بالقرنين الخامس والسادس الهجري (١١ – ١٢ م) وتمثل هذه الفترة مرحلة الابداع الفكري والحضاري وفيها طورت العلوم وابتكرت علوم جديدة وألفت كتب في شتى فروع المعرفة. ثم أعقب ذلك مرحلة فتور فركود خلال القرنين السابع والثامن الهجري.

ومن نافلة القول أن نعيد ذكر ما كانت عليه أوربا من تأخر في العلوم وانتشار للجهالة والشعوذة بين شعوبها خلال فترة الابداع الحضاري العربي. ولم تنهض أوربا من سباتها إلا بعد أن تتلمذ أبناؤها على الأساتذة العرب في جامعات الأندلس ووقفوا على علوم العرب من خلال الترجمات التي تمت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي على الأقل في طليطلة من العربية الى اللاتينية والعبرية. ولم يخل الأمر بطبيعة الحال من نسبة بعض المؤلفات العربية إلى غير أصحابها. ولقد ضربنا أمثلة على ذلك فيما يتعلق بالاسطرلاب وعصا الطوسي من أدوات الملاحة. وخلال الفترة المشار اليها أيضا ظهرت في أوربا إشارات في رسائل صغيرة مكتوبة باللاتينية حول استعمال الابرة المغناطيسية في الملاحة. ويبدو أن مؤلفي هذه الرسائل و«القصائد» كانوا من هواة جمع المعلومات وليس لهم إضافات مبتكرة في العلوم، كما لم يوضحوا في رسائلهم هوية السفن التي استخدمت فيها البوصلة. وإذا كان الكتاب يقرأ من عنوانه فان بعض هذه الرسائل تحمل عناوين مثل «في المواعين» أو «في طبيعة الأشياء»! كما يجب أن لا نغفل أن بعض هؤلاء المؤلفين كانوا ممن صاحب الحملات الصليبية على مصر والشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي. وللأسف فقد نسبت بعض دوائر المعارف اختراع البوصلة لمثل هؤلاء الكتاب.

بيد أن أول نص مفصل لاستخدام الابرة في الملاحة في أوربا هو ذلك المنسوب الى الفرنسي بطرس دي ماريكو في مؤلفه بعنوان «رسالة في المغناطيس» ويرجع تاريخها الى عام ١٢٦٩م كما أسلفنا قوله. وهذا النص قريب الشبه جدا بنص عربي ظهر قبله خاصا باستخدام الملاحين في بحر سوريا لبيت

الابرة في عام ١٢٣٢م كما أن هناك كتابات فارسية أقدم عهدا تفيد استخدام العرب لبيت الابرة في سنة ١٢٢٢م على التقريب[٦٨]. وعلى هذا الأساس يمكننا استبعاد الأوربيين من موضوع ابتكار بوصلة الملاحة. ويبقى الأمر محصورا بعد ذلك بين العرب والصينيين. وقبل الاجابة على هذا السؤال يجدر بنا أن نقرر الوقائع الآتية:

١ – إن العرب ترجموا علوم اليونان وحفظوها ذخرا للعالم ولم ينسبوها لأنفسهم.

٢ – ولو كانوا قد أخذوا بوصلة الملاحة عن الصينيين لما ترددوا في الاعتراف بالفضل لهم.

٣ – ولو كانت البوصلة الملاحية العربية صينية الأصل لأخذ العرب كذلك تدريج الصين لدائرة الأفق على قرص البوصلة.

٤ – إن المؤرخين البرتغال الذين أرخوا للحملات البرتغالية في المحيط الهندي أشادوا بالملاحة العربية[٦٦].

٥ – إن الخط الملاحي بين الصين وبلاد العرب انقطع من منتصف القرن العاشر، وانقطعت بذلك الصلات الملاحية بين جزيرة العرب والصين بسبب اضطراب الأحوال السياسية وقيام ثورات داخلية في بلاد الصين.

ويؤيد ذلك وقائع التاريخ نفسه. فبعد فترة ازدهار التجارة البحرية التي كان للربابنة وللتجار العرب خلالها نفوذ كبير في موانيء الصين تحت حكم أسرة تانج (٧٥٥ – ٩٠٧م)[٦٩] «وذلك لما اتصفوا به من أمانة وحسن معاملة»، دب الفساد في الادارة الصينية تحت أسرة تسونج التي أعقبتها. وازداد الأمر سوءاً في الفترة الأخيرة من القرن الحادي عشر أثناء حكم الامبراطور تشي تونج (١٠٨٦ – ١١٠٠م) لكن الأحوال الاجتماعية والسياسية للبلاد تحسنت تحت حكم

أسرة سونج (١١٢٦ - ١٢٧٩م) وازدهرت التجارة الخارجية للبلاد مرة أخرى. وتضيف دائرة المعارف البريطانية تحت مادة تاريخ الصين[٧٠] أن الصين قد استطاعت بناء سفن من عدة طوابق خلال هذه الفترة الأخيرة، تدار بعجلات يدوية وزودت ببوصلات ملاحية وآلات دقيقة وذلك رغم مناوشات المغول المستمرة للبلاد وسقوط العاصمة في أيديهم.

بيد أن ونج[٤] يرى أن الصين لم تستعد عظمتها إلا تحت أسرة منج Ming التي أنقذت البلاد من حكم المغول وبدأ العصر الذهبي للصين في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي وبدأت «الجنك» الصينية تقلع إلى موانيء عدن والخليج. وفي أوائل القرن الخامس عشر الميلادي وصلت إلى بروة وهرموز ومقديشيو ودخلت البحر الأحمر. وكانت البوصلة العربية بطبيعة الحال مستعملة في هذا البحر منذ زهاء قرنين على الأقل.

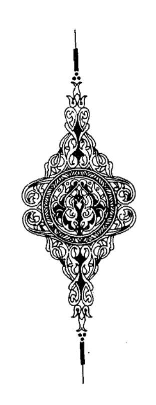
وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن البوصلة العربية قد نشأت نشأة مستقلة في المحيط الهندي ولم تكن منقولة عن الصين أو غيرها من الدول. وليس هذا بمستبعد على الدولة العربية الفتية التي اتسع نطاق ملكها في زمن لا يتصوره العقل فدالت لها دول الفرس والروم ودويلات المغرب والأندلس على أيام الخلفاء الأمويين (٦٦٠ - ٧٤٩م) وضربت بسهم وافر في شتى العلوم والصناعات.

على أن البوصلة الملاحية قد تقدمت اليوم كثيرا عما كان عليه الحال في القرون الوسطى، فعرف الانحراف المغناطيسي ووضعت جداول لتصحيحه وابتكرت بوصلة الجيرو المغناطيسية التي تعتمد في حركتها على دوران الأرض. ومع ذلك فلا يزال الملاحون في أنحاء متفرقة من المحيط الهندي والمناطق المتاخمة يستعملون النماذج البدائية «للحقة» مثلما في الملايو وجزر الملديف والفلبين، والى عهد ليس ببعيد بواسطة الملاحين العرب في عدن وجنوب الجزيرة. وكان لملاحي عدن تقليد جميل سجله الرحالة الانجليزي ريتشارد بيرتون في منتصف القرن الماضي في كتابه[٧١] فهو يقول إنه رأى بحارة عدن «يقرأون الفاتحة للشيخ ماجد مخترع البوصلة الملاحية كلما خرجوا الى البحر».

ولا غرو فلعل تلك كانت وصية شيخنا الملاح القدير شهاب الدين بن ماجد الملقب بأسد البحار التي اختتم بها ارجوزته الطويلة المعروفة باسم «حاوية الاختصار في أصول علم البحار» فتراه يقول[٧٢]:

اسأل الـــــرحمن يامعـــــواني اذا تلــوت النظـــم والمعـــاني
اقـرأ لي الحمـد مع الاخـلاص تنفعنـــي في العــرض والخلاص

دكتور أنور عبد العليم



المراجع والمصادر والهوامش

(١) انظر دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٧٩م تحت مادة بوصلة Compass ما نصه :
«It would seen probable that when the Compass did at last appear, it was invented independently in China and in Europe».

(2) Pelliot, P. (1912): Chau Ju-Kue, his work on the Chinese and Arab Trade in the 12th & 13th centuries entitled: Chu - fan - Chi.
(طبعة بطرسبرج).

(3) Chu - Hua (1954): Originè de la Boussole, II, Isis, 45, p. 175 - 196.

(4) Wong, W. (1964): La rédecouverte scientifique de la Chine. Comm. Institüt Hautes Etudes de Belgique.

(5) Neckam, Alexander (1207): De Naturis Rerum.

(6) La bible de Guiot de Provins (1190) fol. 5, coll. 1re Ms. La valliers, no. 2707 Bibl. Nat. Paris.

(7) Gabriel Ferrand (1928). Introduction a' l'astronomie nautique arabe, Paris.

(8) Leopold de Saussure (1928). Commentaire. op. cit. Ferrand (1928).

(٩) أنور عبد العليم (١٩٧٩) – الملاحة وعلوم البحار عند العرب – الكتاب رقم ١٣ في سلسلة عالم المعرفة (يصُدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت.

(١٠) أنور عبد العليم (١٩٨١م) أضواء على حضارة العرب الملاحية في القرن الأول الميلادي – المجلة العربية عدد ٤ السنة الخامسة /الرياض.

(١١) ابن خرداذبة (٨٤٦م): المسالك والممالك – نشر دي جويه عام ١٨٨٩م /ليدن.

(١٢) المسعودي (١٩٤٧م): مروج الذهب (طبع القاهرة ١٩٦٦ – ١٩٦٧م.

(13) Anwar Abdel Aleem (1967): Concepts of winds, currents and tides among medieval Arab geographers. Journ. Deep Sea Research, vol. 14, p. 459 - 463.

(١٤) رحلة التاجر سليمان (٨٥١م) – نشر فزان ١٩٢٢ باريس.
(١٥) المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد) (١٩٨٥م):
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم – نشر دي جوية ١٩٠٥م /ليدن.

(١٦) ابن الفقيه الهمذاني (٩٠٣م): كتاب البلدان – نشر دي جوية ١٨٨٥م /ليدن.
(١٧) شهاب الدين أحمد بن ماجد (١٤٧٥م) – كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد. نسخة مصورة من مخطوطة باريس بدار الكتب المصرية.

(١٨) شهاب الدين أحمد بن ماجد (١٤٦٢م = ٨٦٦هـ) حاوية الاختصار في أصول علم البحار (أرجوزة في ١٠٨٣ بيتا تصف مسالك الملاحة في البحار الجنوبية وبها ارشادات للملاحين وقياسات للنجوم الملاحية وفصول في معرفة المنازل وأخنان البوصلة ويسميها الحقة).

(١٩) أنور عبد العليم (١٩٦٧) ـــ ابن ماجد الملاح – أعلام العرب (الكتاب رقم ٦٣) – القاهرة.

(٢٠) أنور عبد العليم (١٩٦٦) – كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد (عرض وتعريف) – مقال منشور في تراث الانسانية – المجلد ٤ – القاهرة.

(٢١) خوان فرنيه: مستشرق أسباني معاصر كتب مادتي علم الفلك وعلم المناظر في كتاب تراث الانسانية – القسم الثالث تصنيف شاخت وبوزورث وترجمة حسين مؤنس وإحسان العمد ومراجعة فؤاد زكريا (الكتاب رقم ١٢ في سلسلة عالم المعرفة – يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت ديسمبر سنة ١٩٧٨.

(٢٢) المرجع السابق.

(٢٣) أنور عبد العليم (١٩٨٠م) حول تاريخ الملاحة العربية (بحث منشور في إصدارات المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ علوم البحار الذي عقد في وودز هول بولاية ماساشوستس بالولايات المتحدة في شهر سبتمبر سنة ١٩٨٠م (من صفحة ٥٨٠ إلى ٥٩٥) (باللغة الانجليزية).

(٢٤) المرجع السابق.

(٢٥) ورد ذكر الاسطرلاب في المراجع الأوربية لأول مرة في عام ١٠٥٤م. انظر: Contractus de Vehringen, 1054.
أما أول ذكر للربعية (وهي قوس قدره ٩٠ درجة من دائرة الاسطرلاب وتستعمل في القياسات الفلكية والملاحة لرصد ارتفاع النجوم فوق الأفق) فقد ورد في المصادر الأوربية في كتابات روبرت الانجليزي الذي عاش في مونبلية في القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٧٦م).

(26) G. Ferrand (1928) Introduction

(٢٧) دائرة معارف البستاني (جـ٢ ص ٢٠٦) بيروت.
(٢٨) المرجع السابق.
(٢٩) أنور عبد العليم (١٩٦٧م) – ابن ماجد الملاح.
(٣٠) أنور عبد العليم (١٩٦٨م) – كتاب الفوائد لابن ماجد – في تراث الانسانية – مجلد ٤ – القاهرة.

(٣١) وقد أطلق اسمه على تيار همبولت البارد الذي يمر بأمريكا الجنوبية تكريما له.

(32) J. Klaproth (1834): Lettre á M. le Baron du Humboldt sur l'invention de la Boussole. Paris.

(33) Alexander Neckam (1187) De utensilibus
(انظر أيضا دائرة المعارف البريطانية ١٩٧٩ مادة بوصلة ص ١٠٤١)

(34) Alexander Neckam (1207) De Natwris rerum
(انظر أيضا كلابروت ١٨٣٤، فران ١٩٢٨).

(35) Bible de Guiot de Provins fol. 5, coll, 1re Ms la valliers no. 2707. Bibl - Nat. Paris.

(36) Jacques de vitry (Cardinal): Historia Orientails (1215 - 1220 A.D.).

(37) Ferrand (1928) Introduction.

(38) Encyclopaedia Britannica p. 1040 for: Epistola de magnete.

(39) Ferrand (1928) Introduction.
(40) Encycl. Brit. p. 1040.

(41) Wong, W, (1968): Les navigateurs chinois et la découverte de l'occident. Premieres Congres Intern. Hist. Oceanogr. Monaco p. 555-565.

(42) L. dė Saussure (1928): voir Ferrand (1928) p. 74 - 75.
(43) E. Hirth (1908): The Ancient History of China. New York.

(44) Hsia-Nai (1966): Anciénnes monnaies arabes en Chine. La Chine en Construction.

(45) T. Lewicki (1936): Les premiers Commercants arabes en Chine. Rocz. Orient. Krakow.

(46) Chau Ju - Kue, his work on the Chinese and Arab trade in the 12th and 13th Centuries entitled: Chu - fan - chi. Traduit et annoté (1912). Analysé por p. pelliot. (St Petersberg).

(٤٧) كان العرب يطلقون اسم التنين على العواصف الحلزونية.
(راجع القزويني — عجائب المخلوقات).

(٤٨) دائرة معارف البستاني (جـ٢ ص ٢٦).

(49) Encycl. Brit. p. 1039.

(٥٠) «كتاب كنز التجار في معرفة الأحجار» لبيلق القبجاقي مؤرخ ١١ ربيع الآخر عام ٦٨١هـ (١٢٤٢م) مخطوطة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٧٧٩.

(٥١) نبات السَّمار أو السَّمَر نبات بري عشبي يعيش على حواف البحيرات والبرك في شمال الدلتا ومنه تصنع «الحصر».

(٥٢) المقريزي (١٤١٧ — ١٤٢٢م) الخطط.

(53) Encycl. Italiana 17, article Bossola, 8, p. 163 (1933).

(٥٤) كانت موانيء البندقية وجنوا على صلات تجارية مع موانيء مصر والشام في القرن العاشر الميلادي رغم مشايعة المدن الايطالية للحركة الصليبية. وكان الحديد والخشب يصل الى الاسكندرية رغم الحظر الذي فرضه الامبراطور البيزنطي ليو الخامس في ذلك الوقت (أنظر: السيد عبد العزيز سالم: البحرية المصرية في العصر الفاطمي في تاريخ البحرية المصرية ص ٤٥٧ — ٥٣٦ مطبوعات جامعة الاسكندرية سنة ١٩٧٣م) وكذلك أنور عبد العليم — الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص ٧٩.

(٥٥) انظر G. Ferrand وإشارته إلى مرجع المؤلف الايطالي G. Tiraboschi في تاريخ الأدب الايطالي.

(٥٦) دائرة معارف البستاني جـ٢ ص ٢٦.
(٥٧) تقول دائرة البستاني تحت مادة آمد: إن آمد جدّ لقبيلة من العرب تعرف ببني آمد كانت منازلها في مواطن بني طي بين جبلي أجا وسلمى. أما مدينة آمد فهي مدينة قديمة بين النهرين بالعراق ويسميها الترك آمده وقره آمد (أي آمد السوداء) لسواد حجارتها وموقعها على دجلة مستديرة بها كالهلال (انظر أيضا معجم البلدان لياقوت الحموي).

وعلى ذكر المغناطيسية تقول إحدى دوائر المعارف وهي الموسوعة العربية الميسرة الصادرة عن مؤسسة فرانكلين سنة ١٩٦٥م والمترجمة عن موسوعة كولبيا فاينج دسك: إن خاصية المغناطيسية اكتشفت باكتشاف نوع من الحجارة في أواسط تركيا عام ١٤٠٠ سمي بحجر المغناطيس ولم توضح عما إذا كانت هذه السنة قبل أو بعد الميلاد.

(58) Encyclopaedia Asiatica II, p. 795.

(٥٩) أنور عبد العليم ـــ ابن ماجد الملاح ص ١٣٨.

(٦٠) الملاحة وعلوم البحار عند العرب للمؤلف السابق ص ١٩٢).

(٦١) المرجع السابق ص ١٩٣.

(٦٢) مقدمة ابن خلدون.

(٦٣) ابن فضل الله العمري المتوفى في عام ٧٤٩هـ (١٣٤٧م) في كتابه المسمى «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار».

(٦٤) أنور عبد العليم (من كتاب الفوائد) في الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص ١٩٢.

(65) Geoffrey Chauoser (1391): Treatise On the Astrolabe.

(٦٦) الملاحة وعلوم البحار لأنور عبد العليم ص ٤٣ عن كَرْلُونالّلينو «علم الفلك وتاريخه عند العرب ص ١١٧ طبع روما ١٩١١» وقد عرف العرب ما لا يقل عن ٢٥٠ نجما بأسمائها العربية الخالصة. وكلمة نوء منسوبة الى غروب النجم كما قال عَدِيّ بن زيد العبادي من شعراء الحيرة قبل الهجرة بنحو ١١ سنة:

عن خريف سقاه نوء من الدلو
تدلى ولم تـوار العـــراقي

وكرلونالينو مستشرق ايطالي دعته الجامعة المصرية القديمة لالقاء سلسلة من المحاضرات بها وقد جمعها في مؤلفه المذكور آنفا.

(٦٧) الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص ١٩٢.

(68) Encycl. Brit. p. 1039.

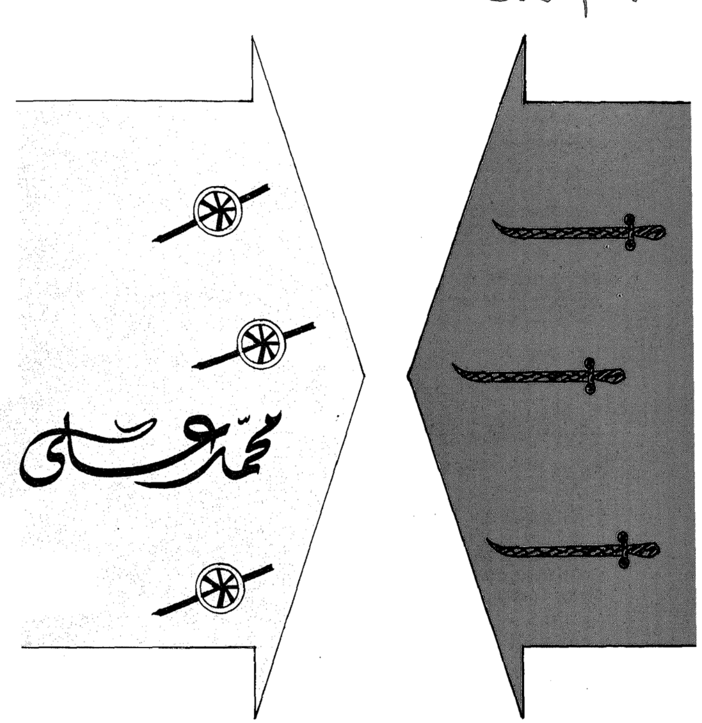
(69) Ibid. p. 329.

(70) Ibid. p. 340.

(71) Richard Burton (1856): The Road to Africa and the Discovery of Harar. London.

(٧٢) ابن ماجد الملاح لأنور عبد العليم ص ٢٧.

بقلم/ رابح لطفي جمعه



ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية

كتب الاستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه «الدعوة الوهابية، محمد بن عبد الوهاب» يقول: «لماذا آثرت الشيخ محمد بن عبد الوهاب بتلك الصحبة الملازمة له... لقد ترددت في خاطري كثير من الاجابات المتكافئة التي يمكن أن تكون جميعها هي الجواب... لعل القول بأن عقدة الذنب التي أجد لذعتها في نفسي مما كان لتلك الحرب التي شنها محمد علي والي مصر يومئذ بقيادة ابنه ابراهيم والتي ساق اليها كثيراً من أبناء مصر الى محاربة القائمين بتلك الدعوة وما أريق من دماء وما هدم من دور - لعل هذه العقدة هي التي جعلتني أدخل في تلك المعركة مناصراً لها وكأن تلك المناصرة تكفير عن ذنب ربما يكون قد جناه بعض أهلي وان يكن ذلك على كره منهم وهم في يد سلطة متسلطة عليهم... ... ...».

ولقد وقفت عند هذه العبارة طويلاً وعدت بذاكرتي الى مراحل الدراسة عندما كان أستاذ «مادة تاريخ مصر الحديث» يلقننا أن محمداً علياً حارب بالجيوش المصرية أتباع الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب، ويقرر لنا ذلك كأنها حقيقة مسلم بها لا مناقشة فيها ولا جدال، ولكنني كنت أتردد كثيراً في قبول هذا الكلام ويساورني الشك والارتياب في صحته الى أن هيأ الله لي ظروف دراسة تاريخ الشيخ ابن عبد الوهاب ودراسة دعوته دراسة مستفيضة فيما كتبه المؤرخون العرب والافرنج، فتأكد لي أنني كنت محقاً في الشك الذي كان يساورني والارتياب الذي كان يخامرني بشأن هذه «المعلومة التاريخية». وتأكد لي في نفس الوقت أن تصحيح وقائع التاريخ وردها الى الحقيقة والواقع من أصعب الأمور وأشقها على من يحاول ذلك، خاصة اذا كانت الواقعة التاريخية المراد تصحيحها قد تواترت في كتابات المؤرخين ونقلها بعضهم عن بعض كحقيقة تاريخية لا تقبل التمحيص والتدقيق وتأبى على التصحيح والتحقيق.

ولقد وفقني الله في دراساتي الى دحض هذه الفرية التاريخية التي ألصقها

المؤرخون – سامحهم الله – بالمصريين وسايرهم في ترديدها للأسف الشديد كتاب كثيرون ممن تناولوا تاريخ الدعوة الوهابية حتى كتب الأستاذ عبد الكريم الخطيب ما كتب واعتبر هذه الفرية التاريخية – عقدة ذنب دفعت به الى الكتابة عن الدعوة الوهابية وصاحبها تكفيراً عن ذلك الذنب.

نقول انه عندما ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية بدعوته السلفية يؤيده أمراء آل سعود – أخذ هؤلاء الأمراء يمدون سلطانهم ويغزون البلاد المجاورة ويبثون الدعوة لعقيدة السلف، فاستولى الامام محمد بن سعود على مدينة الرياض والعيينة وحريملاء، كما استولى ابنه عبد العزيز من بعده على بلاد وأرجاء واسعة من جملتها مدينة الدلم والقصيم وبريدة والاحساء، ثم اتجه نشاط الدعوة نحو الحجاز(١)، فرفع الشريف مسعود شريف مكة سنة ١١٧٢هـ تقريرا للباب العالي في القسطنطينية ينبه فيه الأتراك العثمانيين الى خطورة تلك الدعوة على كيان الدولة العثمانية في جزيرة العرب.

ومنذ ذلك الحين تنبه العثمانيون الى استفحال أمر الدعوة الوهابية ونظروا الى أتباعها وأنصارها نظرة الثائرين المتمردين الذين شقوا عصا الطاعة على الدولة وأدركوا أن الجذوة المتوهجة لن تلبث أن ينتشر نورها حتى يعم شبه الجزيرة العربية كلها وتلفح بنارها هيبة الدولة فأقبلت الى نجد سنة ١٢٠٢هـ قوة حربية تركية بأسلحة لم يألفها العرب يقودها شريف مكة بنفسه عدتها عشرة آلاف مقاتل ومعها عشرون مدفعاً تركيا فالتحم الجيشان السعودي والتركي فدارت الدائرة على المغيرين من الأتراك وانهزموا في موقعة العدوة ودخل الجيش السعودي مكة المكرمة.

ومازال أشراف مكة يستعدون سلطان تركيا لحمايتهم منبهين الى خطر الدعوة الوهابية على الدولة العثمانية، فأصدر السلطان أوامره الى «علي باشا» والى بغداد ليغزو الأراضي السعودية وانضم اليه عبد الله باشا والي الشام وشريف باشا قائد جدة وأقبل امام مسقط الى البصرة بخمس عشرة سفينة حربية وانضم الى الدولة العثمانية في محاربة الدعوة واتجهت الحملة الى الدرعية

ولكن قائدها قتل بين جنوده وصمدت الدرعية بقيادة الأمير سعود الكبير في وجه المغيرين وأدرك الوالي التركي أنه لا مناص له من الحرب الشاملة مع السعودية الناشئة، فوجه جيشه الى الاحساء ولكن السعوديين صمدوا فلم يحقق الوالي التركي أهدافه وقفل راجعا بجيشه يجر أذيال الخيبة والهزيمة.

وفي السنة التالية اجتاح السعوديون عانة على نهر الفرات وزحفوا على دمشق وأخذوا واليها يوسف باشا الملقب بالكنج على غرّة ولكنه صانعهم ووعدهم بقبول الدعوة.

وفي أثناء ذلك كله كانت الدولة الناشئة تستقر وتقوى شوكتها والدعوة الاصلاحية تنتشر ويزداد أتباعها وأنصارها حتى دانت أطراف الجزيرة العربية لسعود، فاستولى على البحرين وبلاد الجوازم وغزا بلاد عُمان وأحس السلطان محمود الثاني على اثر استغاثات شريف مكة أن جانباً من دولته قد ماد واضطرب وأن فئة كبيرة ممن كانت تدين له بالولاء قد أخذت تخرج عليه وتنكر أن يكون خليفة المسلمين غير عربي. ولم يكن ذلك بالشيء الهين على سلطان تركيا الذي كان يعلق أهمية كبرى على حيازته للأراضي الحجازية المقدسة والادعاء بأنه خليفة المسلمين وحامي الحرمين الشريفين. فجند السلطان إذ ذاك – كما يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم آل الشيخ حفيد الامام محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة – بعضاً من علماء الدرهم والدينار لمحاربة الدعوة الوهابية ورميها بالكذب والافتراء كدعوى أن الشيخ يكفر المسلمين وأنه لا يصلي على النبي ﷺ الى غير ذلك من الكذب والزور والبهتان.

ولعبت فرق المتصوفة والدراويش التي كانت تركيا تعج بهم كالمولوية والبكتاشية وغيرها ــ دورا خطيرا في محاربة الدعوة وأتباعها، وأن القوة العسكرية في الدولة العثمانية المتمثلة في ضباط الانكشارية(٢) كانت واقعة تماما تحت سيطرة وهيمنة دراويش الطريقة البكتاشية؛ فلم يكن من الغريب إذن أن تقوم قائمة هؤلاء البكتاشية ــ وهم أصحاب النفوذ الروحي على جنود

الدولة ــ فعمدوا الى تشويه سمعة أتباع الشيخ ابن عبد الوهاب ومريديه وأطلقوا عليهم اسم «الوهابيين» تنفيراً للناس منهم كما أطلقوا على دعوة الشيخ وصف «الوهابية» على اعتبار أنها بدعة.

وقد بلغ تأثر الأشراف في الحجاز بالدعاية المسمومة التي نظمها العثمانيون ضد الدعوة الوهابية الى حد أنهم فرضوا الحصار على النجديين ولم يسمحوا لهم بالحج خشية اتصالهم بالعالم الاسلامي في مكة ونشر دعوتهم الاصلاحية بين حجاج بيت الله الحرام.

وازاء استفحال أمر الدعوة الوهابية وهزيمة الحملات التركية الواحدة تلو الأخرى أمام «الموحدين» من السعوديين، وإزاء عجز السلطان عن تسيير جيش عثماني لاسترداد الحجاز بسبب ضعف الدولة العثمانية حينذاك وكثرة مشاكلها الداخلية والخارجية واشتعال نيران الثورة والعصيان والتمرد في كثير من أنحاء الامبراطورية ــ لم يجد السلطان التركي بداً من أن يشن حرباً بواسطة والٍ تركي آخر أشد طموحاً وأقوى شوكة من والي البصرة والشام وغيرهما، ذلك الوالي هو محمد علي باشا الذي استطاع في سنوات قلائل من تقلده مقاليد الحكم في مصر أن يثبت مركزه بعد أن قضى على خصومه، فكلفه السلطان بارسال حملة الى الحجاز وعينه حاكما عليه، فبادر محمد علي الى اجابة أمر مولاه إذ وجد في ذلك فرصة ذهبية لتحقيق أطماعه وطموحه الحربي والسياسي في الاستقلال بمصر ووضع نواة لاسطول حربي، وأهم من ذلك كله التخلص من الألبان والأرنؤود الذين كانوا من عوامل الشغب والقلاقل في البلاد بعد أن تخلص من المماليك في مذبحة القلعة المشهورة.

وهكذا سير محمد علي جيشا عدته أربعة عشر ألفاً من الجنود الترك والمغاربة الى الحجاز سنة ١٢٢٦هـ بقيادة ابنه طوسون انهزم بجيشه عند «تربة» تاركاً سبع مدافع وأربعة آلاف قتيل على أرض المعركة.

وعلى اثر تلك الهزيمة أمام الجيشِ السعودي ــ أرسل طوسون لوالده في

طلب النجدة فلم يجد محمد علي بدا من تسلم القيادة العامة بنفسه، فركب البحر الى جدة حيث نزلها سنة ١٨١٣م وعزل الشريف غالب عن إمارة مكة لتذبذبه وأقام مكانه الشريف يحيى بن الشريف سرور.

وفي تلك الأثناء مات سعود الكبير فأثر ذلك على الموقف الحربي تأثيراً كبيراً وأتاحت هذه الظروف الحرجة الفرصة لمحمد علي أن يتغلغل في الحجاز، بيد أنه علم أثناء ذلك بهرب نابليون بونابرت من منفاه بجزيرة البا واضطراب العالم على اثر ذلك واحتمال تعرض البلاد لغزو جديد، كما جاءه من مصر خبر تمرد لطيف باشا أحد ضباطه فأسرع بالعودة الى مصر سنة ١٨١٥م تاركا ولده طوسون يتفاوض مع الأمير عبد الله بن سعود الذي خلف أباه سعوداً الكبير، وانتهت هذه المفاوضات بعقد اتفاقية صلح لم يوافق عليها محمد علي ولم يلبث طوسون أن مات بالطاعون سنة ١٨١٦م. فجند محمد علي في تلك السنة جيشا آخر بقيادة ابنه ابراهيم باشا فقصد الى الدرعية حيث بدأ حصارها حصارا استمر حوالي ستة أشهر مما دعا أهل الدرعية الى التقدم بالصلح حقنا للدماء. ومكث ابراهيم باشا بالدرعية فترة من الزمن ثم غادر المدينة على أثرها عائداً الى مصر وترك بها جنده الى أن تم الجلاء عن جميع الأملاك العثمانية بما في ذلك الحجاز تنفيذاً لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠م.

هذه لمحة عجلى عن مراحل الحرب بين محمد علي والدولة السعودية.

ونتساءل بعد ذلك هل حارب محمد علي السعوديين بجيوش من المصريين؟.

نبادر الى الاجابة على هذا السؤال بالنفي، وحجتنا في ذلك أدلة تاريخية لا يرقى اليها الشك.

فالملاحظ باديء ذي بدء أن المؤرخين الذين أرخوا لهذه الحرب من أمثال حسين بن غنام الاحسائي وعثمان بن بشر النجدي وعبد الرحمن الجبرتي المصري وغيرهم ــ يؤكدون في كتاباتهم أن الحرب والمعارك كانت تدور بين «الترك»

وبين الموحدين السعوديين من أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وتعبير هؤلاء المؤرخين ــ الذين عاصر بعضهم تلك الحروب[٣] ــ عن القوات التي حاربت السعوديين «بالترك» تارة و «الروم» تارة أخرى و «الططر» تارة ثالثة له دلالة ذات مغزى لا يمكن اهمالها أو الالتفات عنها، فهذا التعبير كان يتفق تماما مع الواقع التاريخي الذي كان سائدا حينذاك، فقد سبق أن ألمحنا الى أن محمد علي رحب بأمر الباب العالي له بمحاربة السعوديين من أتباع الدعوة الوهابية، اذ وجد في الاستجابة لهذا الأمر فرصة سانحة للتخلص من الجنود الانكشارية والأرنؤود والألبان الذين كانوا من أكبر عوامل الشغب والاضطراب في البلاد بعد أن تخلص من أمراء المماليك في مذبحة القلعة..

ويؤكد المؤرخون أن محمداً علياً كان يدبر لجيشه ذاته مذبحة في شبه الجزيرة العربية كمذبحة ضيوفه المماليك في القلعة وذلك ليتخلص من مواطنيه الألبان الذين تمردوا عليه سنة ١٨٠٧م ووقفوا له بالمرصاد لكل محاولة لاصلاح الجيش. يقول المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي في كتابه «عصر محمد علي» «لقد كان لمحمد علي أغراض أخرى محلية أدركها في الحملة الوهابية أهمها التخلص من طوائف الجنود الارناؤوط الذين ألفوا التمرد والشغب، فقد رأيت كيف ازداد طغيانهم وتمردهم حتى صار خطراً على الأمن وعقبة دون استقرار سلطة الحكومة فكانت الحملة الوهابية فرصة انتهزها ليقذف بتلك الطوائف المتمردة الى الأصقاع النائية من جزيرة العرب لعله يستطيع في غيبتهم أن يدخل النظام الجديد في الجيش المصري وقد سعى الى ذلك فعلا خلال الحملة الوهابية وان كانت ظروف الأحوال لم تمكنه من إنفاذ مشروعه فأرجأه الى سنة ١٨٢٠م» ــ والثابت تاريخيا أن الحرب الوهابية انتهت سنة ١٨١٩.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فاننا نسوق هنا ما اصطلح عليه علماء التاريخ بتسميته «بالدليل التاريخي»، على أن المصريين لم يشتركوا في الحرب ضد الدعوة الوهابية ولم تكن لهم فيها ناقة ولا جمل، ذلك أن المراجع التاريخية العربية والافرنجية التي بين أيدينا ــ تؤكد أن محمداً علياً لم يحارب في شبه الجزيرة العربية بجنود أو جيوش مصرية على الاطلاق، وذلك لسبب ثبت تاريخياً

على وجه الجزم واليقين، ذلك أن محمد علي لم يكن قد كوّن جيشاً مصريا إلا بعد انتهاء حروبه في شبه الجزيرة العربية سنة ١٨٢٠م، ومن البديهي إذن أن لا يكون للمصريين أي ضلع في هذه الحروب لأنهم لم يكونوا قد دخلوا بعد في سلك الجندية..

وقد أكد هذه الحقيقة السردار اسماعيل سرهنك باشا وهو تركي الجنسية وقد تولى نظارة المدارس الحربية في مصر في القرن التاسع عشر حيث قال في كتابه «حقائق الأخبار»: «كان في مصر وقتئذ ــ أي وقت الحرب الوهابية ــ جيش يبلغ ٢٥ ألف مقاتل جميعهم من الباشيوزق(٤) الذين كانت الدولة العثمانية جمعتهم تحت قيادة الصدر الأعظم ضياء باشا لما أرسلته لها لاخراج الفرنسيين من مصر فتمكن محمد علي من أن ينتخب من هذا الجيش قوة للمدافعة عن مصر تبلغ ٨٤٧٢ جندياً من المشاة، ١٧٠٧ من الطوبجية للقلاع والحصون وجعل منه أيضاً قوة متحركة عددها ١٨٣٣٣ مقاتلا انتخب منها ٦٠٠٠ من المشاة و٢٠٠٠ من الطوبجية ومثلهم من السواري للحملة الحجازية المذكورة».

بل أكثر من ذلك يقول سرهنك باشا «لما جهز محمد علي جيشا لفتح السودان بعد حرب الوهابيين كان جيشه من الأرناؤوط» أي أن حرب محمد علي في السودان أيضا لم يشترك فيها مصريون.

وهذا الذي ذكره السردار سرهنك قاطع في الدلالة على أن المصريين لم يحاربوا في شبه الجزيرة العربية. يؤكد ذلك أيضا أن محمد علي عندما فكر سنة ١٨١٥م في انشاء نظام عسكري جديد على نسق الجيوش الأوربية الحديثة بدأ أول ما بدأ في تدريب بعض أولاد المماليك الذين كانوا في خدمته وذلك على يد الكولونيل «سيف» ولم يتمكن من إدخال النظام الجديد على جيشه وفتح المدارس الحربية على النظام الفرنسي وتكوين جيش من أبناء مصر إلا في سنة ١٨٢٤م أي بعد أن كانت الحرب في شبه الجزيرة العربية قد انتهت منذ سنة ١٨١٩م.

وقد أكد السردار سرهنك هذه الحقيقة في كتابه سالف الذكر حيث قال

إن محمد علي «لم يدخل المصريين في الجيش إلا في الحروب اللاحقة لحرب الوهابيين» ــ والحروب اللاحقة ــ كما هو معروف ــ هي حروب محمد علي في المورة والشام وآسيا الصغرى وهي الحروب التي انفتحت بها أمام الجيوش المصرية الأبواب الى القسطنطينية عاصمة تركيا بعد أن تمكن ابنه ابراهيم باشا من الاستيلاء على مفاتيح جبال طوروس التي تفصل بلاد الشام عن آسيا الصغرى.

ونخلص مما تقدم الى أن الزعم باشراك محمد علي المصريين في محاربة الدعوة الوهابية وأتباعها ــ لا يعدو أن يكون «فرية تاريخية» لا أساس لها من الصحة قد ألصقها بعض المؤرخين بالمصريين إما عن غفلة وجهل وإما عن عمد وسوء نية. ولعلنا أن نكون في هذا المقال قد وفقنا الى اماطة اللثام عن الحقيقة في هذا الموضوع والله ولي التوفيق،،

رابح لطفي جمعة

مراجع البحث :

(١) الشيخ حسين بن غنام الاحسائي، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوي الاسلام.

(٢) الشيخ عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي، عنوان المجد في تاريخ نجد.

(٣) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار.

(٤) عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية، عصر محمد علي.

(٥) عبد الحليم الجندي، الامام محمد بن عبد الوهاب وانتصار المنهج السلفي.

(٦) عبد الكريم الخطيب، الدعوة الوهابية، محمد بن عبد الوهاب.

(٧) عبد الله علي القصيمي النجدي، الثورة الوهابية.

(٨) عبد الله بن سعد الرويشد، الامام محمد بن عبد الوهاب.

(٩) السردار اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار.

(١٠) أحمد عبد الغفور عطار، محمد بن عبد الوهاب.

(١١) هاملتون جب وهارولد بوون، المجتمع الاسلامي والغرب، جزآن، مترجم.

(١٢) الدكتور صالح محمد العمرو، بحث النزاع التركي المصري على شمال الحجاز وسيناء وتدخل الحكومة البريطانية (١٨٨٤ - ١٨٦)، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الخامسة (ربيع الثاني سنة ١٣٩٩هـ ـــ مارس سنة ١٩٧٩م) ص ٦ وما بعدها.

(١٣) محمد خليل المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ٤ أجزاء.

(١٤) محمد بن أبي سرور البكري، الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة.

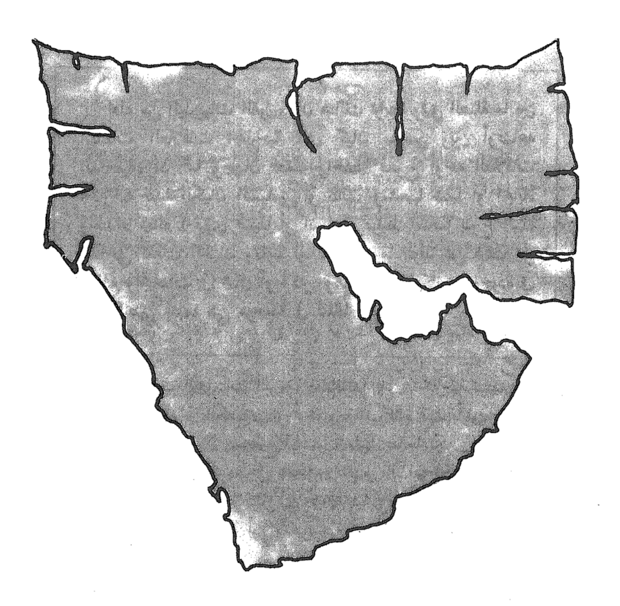
الهوامش

(١) تجدر الاشارة الى أن بعض المؤرخين يذكرون أنه حتى نهاية القرن الثامن عشر لم يكن أنصار الدعوة الوهابية يكادون يذكرون في سوريا ومصر ولم يتجاوزوا بالنسبة الى السلطات العثمانية أن يكونوا مشكلة حدود يعالجها باشا بغداد حتى ان الجبرتي لم يذكر شيئا عنهم حتى سنة ١٨٠٢ — أما محمد خليل المرادي مفتي دمشق ومؤلف كتاب «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» فلا يذكر شيئا عن أنصار الدعوة إلا بطريق غير مباشر (ج٤ ص ٣١ وما بعدها).

(٢) كلمة «انكشارية» مشتقة من الكلمة التركية «ينى جريه» أي الجند أو القوات الجديدة ويكتبها ابن أبي سرور البكري في تاريخه «الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة» وكذلك المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار» ينكجريه. ولايزال التاريخ الذي انشئت فيه فرقة الانكشارية وكيفية انشائها من الأمور غير المؤكدة. أما البكتاشية فقد كانوا ينتمون الى «حاجي بكتاش»، وكان الانكشارية كلما ثاروا على السلطان العثماني كان مريدو الطريقة البكتاشية يشتركون معهم في الثورة حتى كانت سنة ١٨٢٦م حينما استأصل السلطان محمود شأفة الانكشارية وصب جام غضبه على جماعة الحاج بكتاش فهدم تكاياهم وقتل رؤساءهم ومريديهم ومنهم شيخ تكية «مردخان كوى».

(٣) عاصر المؤرخ عثمان بن بشر أحداث هذه الحروب حيث انتهى تاريخه بأحداث سنة ١٢٦٨هـ كما شهد الجبرتي الحوادث التي وقعت بين سنة ١١٩١ الى سنة ١٢٣٦هـ (١٧٧٧ — ١٨٢١م) ومنها الحرب الوهابية ودوّنها في كتابه «عجائب الآثار».

(٤) هؤلاء الجنود كانوا غير نظاميين ويطلق عليهم «باشيوزق» أو باشى بازوق».



مكانة السلطان أجود بن زامل الجبري في الجزيرة العربية

بقلم الدكتور عبد اللطيف ناصر الحميدان

لعله من البديهيات القول، بأن هنالك ترابطا وثيق الصلة ما بين اتجاهات العلاقات الخارجية لأي كيان سياسي وبين أوضاعه الداخلية، اذ هما وجهان لعملة واحدة. فتنوع أوجه العلاقات الخارجية لهذا الكيان السياسي أو ذاك، وتشعبها سلبا أو ايجابا، وامتداد مجاله الحيوي ضيقا أو اتساعا، مرتبط أساسا بنوع البناء الداخلي لذلك الكيان وبقوته أو ضعفه، وما يتولد عن ذلك من دوافع واتجاهات في مجال أو أكثر. وهذه الحقيقة كانت موجودة في عالم الماضي مثلما هي موجودة في عالمنا اليوم.

ومن هنا كانت الدراسات التاريخية لعلاقات الدول الخارجية تتسم بأهمية خاصة، اذ أنها تفيد في الكشف عن أوجه وحقائق كثيرة تمت بأوثق الصلة الى الأوضاع الداخلية، مما لا نستطيع الحصول عليها عندما تكون الدراسة ذاتا واحداً، وبذلك نكون أقرب الى اعطاء التفسير السليم لكثير من الوقائع والأحداث، اضافة الى التقويم لثقل أي كيان سياسي في أي مجال من المجالات السياسية منها أو الاقتصادية أو الاستراتيجية أو الحضارية.

لقد عرف منذ القدم، عن سكان جزيرة العرب، خصوصا سكان سواحلها الشرقية والجنوبية، سعة صلاتهم بعالم المحيط الهندي وتنوعها، وبأن هذه الصلات أخذت بالازدياد والاتساع والترابط منذ ظهور الاسلام، بحيث أنها قد تركت بصماتها واضحة جلية على نواح عدة من حياة مختلف شعوب المحيط الهندي والبحار المتصلة به، أضحى ما يحدث في جهة من جهاته ينعكس أثره السلبي أو الايجابي بدرجة ما على بقية جهاته.

ومن هنا كان التحري عن مصادر هذه العلاقات والروابط، وتوسيع دائرة البحث عنها، ثم الدراسة النقدية المقارنة لها، مما يساعد، بدون شك، على ازاحة ستار الغموض عن بعض الجوانب التي لاتزال مجهولة من تاريخ الجزيرة العربية، ويقربنا أكثر من التعرف على السمات العامة لذلك التاريخ[1].

— ١ —

ان معلوماتنا التاريخية – على سبيل المثال لا الحصر – عن الصلات الخارجية لشرقي الجزيرة العربية ووسطها خلال العصر الاسلامي الوسيط، هي في الغالب متواضعة جدا وغامضة، لذا فأي كشف بهذا الخصوص، مهما صغر في حجمه، لابد أن يلقى الاهتمام والترحيب من المعنيين بتاريخ الجزيرة العربية.

وبين أيدينا وثيقة، تستحق الدراسة والتعليق، وهي عبارة عن رسالة موجهة الى الشيخ أجود بن زامل بن حسين بن ناصر بن جبر العامري العقيلي (٨٢١ /١٤١٨ – ؟ ٩٠ /؟ ١٤٩)[٢] والذي كان أكثر سلاطين امارة الجبور في نجد وشرقي شبه الجزيرة العربية شهرة[٣]. ومصدر هذه الرسالة هو الوزير عماد الدين محمـود بن أحمد القاواني الجيلاني الشـهير بخواجه جهـان (٧٤٨ /١٣٤٧ – ٩٣٣ /٨٨٦ /١٤٨١)، الذي يعتبر أشهر رجال السلطنة البهمنية (٧٤٨ /١٣٤٧ – ٩٣٣ /١٥٢٧) في الهند[٤].

ومن المفيد في بحثنا هذا التعرف بايجاز على شخصية كل من: مرسل الرسالة والمرسلة اليه.

فمحمود بن أحمد القاواني أصله من اقليم جيلان المطل على بحر قزوين، اذ ولد في قاوان عام ٨٠٨ (١٤٠٥)، من أسرة متميزة وعلى صلة وثيقة بحكام امارة جيلان. تلقى محمود القاواني تعليما جيدا في صغره، ثم حج في مقتبل شبابه وأقام في مكة فترة من الزمن، لم يعد بعدها الى ايران بل انصرف الى التجارة في الخليج العربي، وفي عام ٨٥٩ /١٤٥٥ أبحر الى الهند، واتصل بأحمد شاه الثاني (٨٣٨ /١٤٣٥ – ٨٦٢ /١٤٥٧) سلطان البهمنيين في الدكن الذي قربه وأدناه وضمه الى كبار رجال دولته، بعد نجاحه في مهمة عسكرية كلف بها. وقد ازدادت مكانة محمود القاواني أهمية في عهد همايون شاه بن أحمد شـاه (٨٦٢ /١٤٥٧ – ٨٦٥ /١٤٦١) الذي جعله وزيره الأول ومنحه لقب «ملك

التجار»، ثم انه في خلال الفترة التي امتدت منذ وفاة همايون شاه حتى مقتل القاواني (٨٨٦ /١٤٨١)، كان الوزير محمود هو رجل السلطنة البهمنية الأول الذي يوجه دفة السياستين الداخلية والخارجية. وحاز خلالها لقبا رسميا هو «خواجه جهان» لكن شهرته في الهند بـ «قاوان» أو «قاواني»، نسبة الى مسقط رأسه، ظلت هي السائدة.

لقد استطاع خواجه جهان بانجازاته ونشاطه خلال تلك الفترة، أن يحقق نجاحات هامة في الميدان السياسي والعسكري والاداري والتجاري، أدت الى أن تتبوأ السلطنة البهمنية مركزا هاما في شبه القارة الهندية، واحتل هو بذلك منزلة بارزة بين الشخصيات الهامة في تاريخ الهند(٥).

ان الجانب الذي يجدر بنا الانتباه اليه هو أن علاقات السلطنة البهمنية التجارية والسياسية بكل من حكام مناطق ايران والخليج العربي والحجاز ومصر والدولة العثمانية كانت وثيقة ونشطة، خلال الفترة التي كان فيها القاواني صاحب الكلمة النافذة في توجيه السياسة العامة للبهمنيين.

ومما يسند ما ذهبنا اليه هو الدراسة التي نشرها جان أوبان عن علاقات دولة اق قوينلو في ايران مع البهمنيين(٦)، وكذلك سجلات قاضي مدينة بورصة العثمانية(٧) اضافة الى رسائل خواجه جهان نفسه الى حكام ورجال الدولة في المناطق المشار اليها آنفا(٨). بل ان القاواني نفسه كان له تجارة خاصة به، يزاولها من خلال وكلائه في جزيرة العرب والدولة العثمانية(٩). الأمر الذي يحملنا على القول بأن قوة العلاقات مابين البهمنيين والمناطق المشار اليها فيما سبق يمكن أن تعزى بشكل أساسي، توجيها وتنفيذا الى هذا الوزير.

ولقد احتل خواجه جهان منزلة واحتراما كبيرين في نفوس حكام المناطق المشار اليها، حتى أن السلطان محمد شاه الثالث (٨٦٧ /١٤٦٣ - ٨٨٧ /١٤٨٢) عندما قتل الرجل الأول في دولته خواجه جهان، وصادر أمواله، سارع الى ارسال الرسائل الى معظم حكام هذه المناطق يبرر فيها اقدامه على

فعلته هذه[١٠]. كما أن المؤرخ المكي ابن فهد (ت ٩٢٢)، قد ذكر بأنه بعد وصول خبر مقتل خواجه جهان الى مكة قرىء القرآن على روحه في المسجد الحرام، وحضر شريف مكة محمد بن بركات بنفسه يوم الختم[١١].

— ٢ —

لقد قام عبد الكريم بن محمد النيمدهي، كاتب الوزير خواجه جهان، بجمع عدد من الرسائل التي كان يبعث بها الوزير المذكور، وضمنها كتابه المسمى «كنز المعاني من الانشاء». ويبدو أن معظم هذه الرسائل كان قد كتبها النيمدهي بخط يده، خلال فترة خدمته لخواجه جهان التي امتدت ثماني سنوات، من ٨٧٨ (١٤٧٣) حتى مقتل الأخير سنة ٨٨٦ (١٤٨١). ومن وفائه لسيده القتيل، أن ضمن بعضا من رسائله المشار اليه، وكان غالبا ما ينعته فيه بالشهيد»[١٢].

على أن معظم هذه الرسائل التي تضمنها المخطوط قد كتبت باللغة الفارسية ماعدا خمس منها قد كتبت بالعربية، اثنتان للمولي محسن بن محمد المهدي (ت ٩٠٥ / ١٥٠٠) سلطان امارة المشعشعين في عربستان وجنوب العراق، ورسالة واحدة لكل من شريف مكة وسلطان المماليك والسلطان أجود بن زامل الجبري.

والواقع فان الرسائل المتبادلة ما بين الوزير محمود القاواني وحكام ايران ومنطقة الخليج العربي والحجاز ومصر، بالاضافة الى أنها تؤكد عمق العلاقات التي أشرنا اليها آنفا، فانها تصلح أساسا لأن تكون من المصادر الرئيسية التي يرجع اليها في دراسة تفصيلية لهذه العلاقة وتقويمها.

والذي يعنينا في بحثنا هذا هو الرسالة المرسلة الى السلطان أجود، اذ أن تحليل ماتضمنته من معلومات وتعابير — على قلتها — ربما تفيدنا في اكتشاف حقائق تاريخية جديدة عن سلطنة الجبور، تدعم معلوماتنا عن الثقل السياسي لهذه السلطنة في منطقة الخليج العربي خاصة والجزيرة العربية عامة. وتكتسب

هذه الرسالة أهميتها أيضا من كونها ليست رسالة شخصية بحتة، وانما هي ذات صفات رسمية.

والذي يجدر التنويه به هنا، هو أن سلطنة الجبور قد بلغت أوج شهرتها وسطوتها في عهد سلطانها الشيخ أجود بن زامل، الذي تولى السلطة في كل من القطيف والأحساء وبعض مناطق نجد قبل عام ٨٧٤ (١٤٧٠) بقليل(١٣). لقد استطاع هذا الشيخ بحيويته وصلابته وعزيمته الملفتة للأنظار، أن يحسن استثمار الأوضاع السياسية المحيطة بسلطنته من أجل توسيع حدوده وزيادة موارده. فقد تدخل في الصراع السياسى الدائر في عمان، وفي مملكة هرموز، التي تمتد أراضيها على جانبي الخليج العربي، ليخرج من ذلك بمكاسب كبيرة، نتج عنها ارتفاع شأن سلطنته، سياسيا وعسكريا واقتصاديا، في منطقة الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية(١٤).

يضاف الى ذلك نجاحه الى حد كبير، في تحقيق الأمن على الطرق التي تسلكها قوافل الحج والتجارة مابين ساحل الخليج العربي والحجاز، عبر أراضي نجد، وان هذا الطريق أصبح يكتسب أهمية متزايدة خلال معظم القرن التاسع (الخامس عشر). بل والأكثر من ذلك فانه كان لوجود قافلة الجبور – والتي غالبا ما يقودها الشيخ أجود شخصيا أو أحد أفراد أسرته – في معظم مواسم الحج أثر يذكر في المساعدة على حفظ الأمن في الحجاز(١٥).

ومن هنا فقد طارت شهرة الشيخ أجود، وذاع صيته، وعمت مهابته، وأضفى عليه معاصروه النعوت والألقاب الكثيرة، التي تشعر بشيء من التبجيل كتلقيبه بـ «سلطان البحرين والقطيف والحسا، ورئيس أهل نجد»(١٦).

والذي نخلص اليه مما تقدم أنه ليس بمستغرب أن نرى سعي سلطنة البهمنيين لاقامة علاقات صداقة متبادلة مع سلطنة الجبور، وهي المعنية بتنمية وتوسيع علاقاتها التجارية، مع منطقة الخليج والجزيرة العربية، وأن تعبر رسالة الخواجه جهان عن ذلك، كما سوف نرى(١٧).

- ٣ -

ان رسالة الوزير خواجه جهان الى الشيخ بن زامل، التي نحن بصدد تحليل محتواها، لا تحمل تاريخا محددا. الا أن المؤرخ الفرنسي جان أوبان Aubin يفترض أن الرسالة قد كتبت بيد عبد الكريم النيمدهي خلال سنوات خدمته للوزير المذكور، والتي سبق أن قلنا، أنها قد امتدت ثماني سنوات(١٨).

وحيث أن أوبان لم يشر الى دليل على فرضيته هذه، فلابد أنه قد ذهب هذا المذهب نظرا الى أن هذه الرسالة كانت موجودة ضمن مجموعة رسائل خواجه جهان التي جمعها النيمدهي في كتابه «كنز المعاني». واذا صح ماأشرنا اليه فان هذا لا يصح أن يقوم دليلا قاطعا يستند اليه. فالرسائل التي ضمها كتاب «كنز المعاني» لايجوز الافتراض أنها قد كتبت جميعها بيد عبدالكريم النيمدهي. فالكتاب قد أعده الكاتب كما يبدو كتعبير عن وفائه لسيده المقتول غدرا(١٩). ولكي يظهر كذلك، قدرته البلاغية في الانشاء. اضافة الى ذلك فان رسائل القتيل التي ضمها الكتاب، ربما يكون البعض منها قد كتب قبل دخول الكاتب في خدمته. كما يمكن أن نتصور أن رسائل خواجه جهان التي كتبها قبل التحاق النيمدهي بخدمته، بامكان الأخير الاطلاع عليها ومعرفة مكان وجودها على وجه مؤكد، فيختار مايشاء منها ليضمه لكتابه المذكور. ثم ان المتأمل في مجموع الرسائل التي ضمها كتاب «كنز المعاني»، يدرك بأنها مختارات من رسائل خواجه جهان وليست جميع رسائله، وان اختياره هذا العدد المعين منها يعود الى أنها تختص بحكام بلاد ايران والخليج العربي والحجاز، وكان هذا الاختيار من عمل عبد الكريم النيمدهي، لأنه من أبناء الخليج العربي، وقد قضى معظم حياته يعمل فيه، ويهتم بكل مايتعلق بأحداثه(٢٠). هذا من جهة ومن الجهة الأخرى يعود الى الصور البلاغية والمهارة اللغوية التي تبرزها هذه الرسائل، وما تسمية الكتاب بكنز المعاني من الانشاء الا دليل على ذلك.

علاوة على ذلك أن عناوين بعض الرسائل نجدها تبدأ بـ «من قول المخدوم

الشهيد...» أو «من لسان المخدوم...» والمقصود في كل ذلك محمود القاواني. كما نجد منها مايبدأ بـ «من المؤلف باسم الحضرة السلطانية...»[٢١] وفي ذلك ما يؤيد ما ذهبنا اليه في عدم حتمية أن جميع الرسائل في «كنز المعاني» قد كتبها النيمدهي.

على أن عدم اطمئناننا الى قوة فرضية (أوبان) حول تاريخ الرسالة المرسلة للسلطان أجود، يقتضي منا طرح فرضية أخرى لتاريخ كتابتها.

والواقع فان ماورد في رسالة الوزير القاواني الى السلطان أجود الجبري من فقرة تشير الى تعرض سفينة بعض التجار من رعايا أجود، الى عملية قرصنة في عرض البحر، ولجوئهم الى بلاد البهمنيين في الهند وقد فقدوا كل شيء[٢٢]. تصلح لأن نتأمل فيها للوصول الى تاريخ تقريبي لهذه الرسالة.

ان عملية القرصنة هذه لابد أن تكون قد وقعت في المياه القريبة من سواحل البهمنيّين أي في خليج كمبايا بالذات، الذي تطل عليه موانيء سلطنتي الكوجرات والبهمنيين، حيث لابد أن يكون رعايا أجود قد لجأوا الى أقرب ميناء اليهم. أن مثل هذه القرصنة تعتبر تهديدا مباشرا وخطيرا للتجارة الخارجية للسلطنتين المذكورتين، وكان لابد من اتخاذ الاجراءات الرادعة لها.

وبمراجعة سريعة لتاريخ السلطنتين المذكورتين في تلك الفترة نجد أن أهم الحروب الخارجية الكبيرة التي خاضها البهمنيون في تاريخهم، وشارك في جزء منها الكوجراتيون هي تلك التي حدثت ما بين عام ٨٧٤ (١٤٧٠) و ٨٧٧ (١٤٧٣). وكانت هناك حملات برية وبحرية، موجهة ضد دولة وجيانكر Vijayanagar الهندوسية، وضد نشاط القراصنة في خليج كمبايا.

ولقد تحقق للبهمنيين خلال ذلك نجاحات عسكرية واقتصادية كبيرة في البر والبحر، كان من أبرزها استيلاؤهم على ميناء غوا Goa الهام على ساحل مليبار، والذي يحتمل أن يكون آنذاك من قواعد القراصنة الذين يمارسون

نشاطهم في خليج كمبايا ضد السفن المتجهة الى موانيء الكجوراتيين والبهمنيين. وكان محمود القاواني يقود هذه السفينة بنفسه، وقد استقبل بعد عودته منها بحفاوة كبيرة[٢٣].

ولعل مما يؤيد أن عملية القرصنة التي كانت تحدث في خليج كمبايا هي من عمل الهندوس، هو ماذكرته المصادر البرتغالية من أن راجات وجيانكر الهندوسيين قد عاودا نشاطهما بعد وفاة خواجه جهان بقليل، وتمكنا من انتزاع جزء من ساحل مليبار من المسلمين عام ١٤٧٩ (٨٨٤). وأعقب ذلك تجدد نشاط القراصنة ضد سفن المسلمين حيث كانوا يأخذون حمولة السفن ويعفون عن ركابها. كما تضيف المصادر البرتغالية بأن هؤلاء القراصنة قد تعاونوا مع البرتغاليين، حين ظهورهم لأول مرة أمام سواحل الهند الغربية، ضد المسلمين خصوصا في الاشتراك معا في مهاجمة ميناء غوا[٢٤].

والخلاصة، يمكننا أن نفترض أن الهجوم علي سفينة رعايا السلطان أجود، وقع قبيل قيام الوزير محمود قاواني بحملاته التأديبية ضد القراصنة في خليج كمبايا، بفترة قصيرة. اذ أننا لانجد في رسالة القاواني الى السلطان أجود ما يشير الى هذه الحملات أو حتى الاعتزام القيام بها، وربما حدثت هذه التطورات بعد ارسال هذه الرسالة. ولذلك فان التاريخ الذي نقترحه لهذه الرسالة هو في حدود عام ٨٧٤ (١٤٧٠).

ان هذا التاريخ الذي افترضناه لهذه الرسالة، يدعونا الى الاعتقاد، بأن بداية تولي السلطان أجود بن زامل الجبري للحكم، كانت قبيل تاريخ ارسال الرسالة بقليل[٢٥].

— ٤ —

تقع الرسالة المشار اليها تحت عنوان «من قول المخدوم الشهيد الأكبر الى الشيخ أجود المعروف بابن جبر»[٢٦]. والمخدوم الشهيد، هو الوصف الذي

يطلقه الكاتب غالبا على سيده القتيل الوزير محمود القاواني، الشهير بخواجه جهان.

ان أول ما يلاحظ في رسالة القاواني، هو الألقاب والنعوت التي يستعملها في مخاطبته للشيخ أجود، فهو «الملك الأعظم الأكرم الأفخم الأقدم، مالك البر واليم.. ملك ملوك العرب، سلطان أجود...». ثم عبارات «... الجناب الأميري.. الملكي الكبيري...»(٢٧).

في الواقع، أن هذه النعوت والأوصاف التي استخدمها الوزير القاواني، يستبعد أن تكون قد أطلقت اعتباطا، بالرغم من أنها تنحو الى التفخيم والتعظيم، اذ نحن نعرف صيغ المخاطبات والمكاتبات، ونوع الألقاب والنعوت التي تستخدم فيها، لها أصولها وقواعدها التي أصبحت متعارفا عليها في دواوين المكاتبات منذ أواخر العصر العباسي، حتى اكتملت صورها في القرن الثامن (الرابع عشر). ولقد تحدث كل من: ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ /١٣٤٨) والقلقشندي (ت ٨٢٨ /١٤١٨) اللذين سبق لهما أن شغلا مراكز كبيرة في دواوين الدولة المملوكية، عن صيغ المخاطبات وأصولها، ودرجاتها تبعا لمنزلة المخاطب ومكانته(٢٨). والذي يبدو لنا أن شكل المخاطبات الرسمية في تلك الفترة قد اتخذت صور ما نسميه اليوم «بأصول البروتوكول» المتعارف عليها، والتي يؤدي الخروج عليها الى بعض التعقيدات والاحراجات.

والخلاصة، فان صيغ الألقاب والنعوت التي استخدمها خواجه جهان في مخاطبة السلطان أجود بن زامل، هي من الأصول المتعارف عليها عند مخاطبة أمثاله، وهي تتناسب ومركزه كحاكم له نفوذ كبير في الجزيرة العربية والخليج. كما أنها لا تخلو من أوصاف حقيقية للمخاطب، والا تحولت الى نوع من أنواع السخرية المبطنة. بل يمكننا أيضا أن نفترض أن صيغة الألقاب أو بعضها، ربما كانت من وضع كتاب سلطنة الجبور أنفسهم. اذ نحن نعرف أن كثيرا من الحكام يتخذون لأنفسهم ألقابا خاصة بهم وتجري مخاطبتهم على أساسها.

ان الملاحظة الثانية، والتي تكمل الملاحظة الأولى، في هذه الرسالة، هي

الصفات الشخصية التي أطلقتها على أجود، فهو: «... حامي العرب والعجم، مبارز معارك الشجعان، كرار المصاف بالسيف والسنان، أعدل ملوك الأطراف والأقطار، أشجع ولاة الأزمان والأعصار، مفخر حجاج بيت الله الحرام، قدوة زوار النبي عليه السلام، ... لازال طرق البوادي ببدرقة[٢٩] تقويته مأمونة عن نزول الطوارق...». كما أن الرسالة قد ختمت بهذا الدعاء «... رب كما وفقته بحماية أهل المدر والوبر، اجعل طول عمره الى يوم المحشر...»[٣٠].

والذي يمكن أن نلاحظه على الأوصاف التي نعتت بها الرسالة السلطان أجود، من فروسية متميزة وشجاعة متناهية، ونجاح كبير في حماية الطرق والذين يسلكونها، اضافة الى السخاء الكبير والتدين الشديد وتقوى الله، أنها في الحقيقة أوصاف كرر معاصرو أجود بن زامل والعارفون به شخصيا ترديدها. فالسمهودي (ت ٩١١) وصف أجود بأنه «رئيس أهل نجد ورأسها، سلطان البحرين والقطيف، فريد الوصف والنعت، صلاحا وأفضالا، وحسن عقيدة، أبو الجود أجود بن زامل جبر، أيده الله وسدده»[٣١]. كما أن السخاوي (ت ٩٠٢) قال عن أجود «... كان رئيس نجد ذا أتباع يزيدون على الوصف، مع فروسية، وقد تعددت في بدنه جراحات كثيرة.. وأقام الجمعة والجماعات وأكثر من الحج في اتباع كثيرين، يبلغون آلافا، مصاحبا للتصدق والبذل»[٣٢].

ان الخواجه جهان يعبر في رسالته هذه الى السلطان أجود عن رغبته في أن تكون هذه الرسالة فاتحة عهد من الصداقة والمحبة، وسببا لتبادل المراسلات بينهما. اذ قال: «... ثم الداعي الى توشيح أعناق الأحوال، بقلايد المقال، ان المحب وان ما تشرف بصحبة الجناب الأميري، وما تزين بملاقاة الملكي الكبيري.. يطمع من كرمه أن يسلك درر المهام في سلك الأعلام... ويفتح أبواب الموالاة بمفاتيح المكاتبات، ليوجب ذلك ازدياد صفاء النيات...»[٣٣].

والواقع أن الذي يفهم من الفقرات الأخيرة التي أوردناها سابقا، أن هذه الرسالة كانت أول اتصال رسمي تم بين الطرفين. لذا فانه يفترض أن تكون قد

كتبت بعد تولي السلطان أجود السلطة بفترة قصيرة. اذ يستبعد أن يقوم خواجه جهان بارسال هذه الرسالة لأجود بعد سنوات طويلة من توليه للسلطة، ثم ليعبر له عن الرغبة في اقامة علاقات صداقة متبادلة، وبخاصة وقد عرفنا سابقا بأن رجل الدولة البهمنية شديد الاهتمام بتوثيق الروابط مع منطقة الخليج العربي. فاذا كان افتراضنا هذا سليما، فانه يصح أن نتخذ من الفقرات المشار اليها دليلا آخر يؤيد ما افترضناه سابقا حول التاريخ الذي حررت فيه هذه الرسالة(٣٤).

على أن المبرر الظاهر من الرسالة التي دفعت بالخواجه جهان لكي يكتب الى السلطان أجود الجبري، كان لاخباره بتعرض سفينة تحمل تجارا من رعاياه الى عملية قرصنة في عرض البحر وبأنهم وصلوا الى بلاد البهمنيين، وقد فقدوا كل ماكانوا يحملونه، بما في ذلك الرسائل التي اعتادوا حملها معهم للتعريف بهويتهم، والتي كانت تماثل فيما تؤديه، جوازات السفر في وقتنا الحاضر. «... ينهي بين يدي الأميري أن أنفاره الجائين الى هذه الديار، ماكان معهم الكتاب والأخبار، لوقوع الواقعة عليهم في البحر العميق، وهو غلبة السارقة عليهم في أثناء الطريق...»(٣٥).

على أنه يفهم ضمنا من الفقرات السابقة وجود صلات تجارية ما بين شرقي الجزيرة العربية وسلطنة البهمنيين، وأن التجار العرب قد اعتادوا التردد على بلاد الدكن في الهند، وأن ما وقع لرعايا أجود من أضرار، والذي قد يكون قريبا من سواحل بلاد البهمنيين، لا يتحملون مسئوليته بشكل مباشر، وليس في الأمر من تواطؤ موجه ضدهم.

والذي يبدوا أن الحادثة نفسها خطيرة بحيث يخشى أن تثير غضب السلطان أجود، كما أنها في نفس الوقت تصلح لأن تتخذ سببا لفتح باب الحوار والمراسلات ما بين الطرفين، وبأن يرسل خواجه جهان بممثل عنه يحمل هذه الرسالة ليطمئن السلطان أجود مباشرة ويطلعه على ملابسات الحادثة. «... ولما توجه حامل الصحيفة، الى جانب الجناب الملكي، وكان المقصود تروية

حديقة المحبة الأزلية، ما أطنب المقال واختصر بشرح الحال...»[٣٦].

بقى أن نقول ان الرسالة قد ختمت بكلمتين يحسن عدم تجاهلهما وهما «محمد وحيدر»، وذلك كجزء من الدعاء لأجود. ان وجود هاتين الكلمتين يوحي بأن كاتبها متشيع. والواقع أن ما نعرفه عن سكان جيلان، والذي منهم خواجه جهان، هم سُنّيو المذهب، وكان ذلك أحد أسباب تعاطفهم مع الدولة العثمانية وتعاطفها معهم أيضا خلال الصراع الذي دار مع الدولة الصفوية في ايران، وهي على المذهب الشيعي، وذلك طوال القرن العاشر (السادس عشر). كما أنه يفهم من عبارات المؤرخ المكي ابن فهد، أن الشيخ محمد قاواني، وهو ابن أخ محمود قاواني – خواجه جهان– كان من الشخصيات البارزة في المجتمع المكي في عصر ابن فهد[٣٧]، وعليه يمكن أن نتساءل هل أن الخواجه قد تشيع بعد ذلك، أما أن هاتين الكلمتين قد أضافهما الناسخ، وهو الحسين بن أحمد الكربلائي؟[٣٨] خاصة وأن الفقرات الأخيرة من الرسالة، تستقيم معنى وسجعا من دون ضرورة لهاتين الكلمتين.

– ٥ –

هناك تساؤلات من المفيد مناقشتها، وهي الى أي مدى تطورت العلاقات بين السلطتين بعد هذه الرسالة، وما هو رد السلطان أجود الجبري عليها؟.

في الحقيقة أنه على الرغم من عدم وجود أدلة بين أيدينا على استمرار تبادل الرسائل بين الطرفين، الا أنه ليس هناك ما يحول دون الافتراض بأن العلاقات بينهما قد استمرت جيدة. اذ أنه على الرغم من الروابط الوثيقة التي تربط ما بين البهمنيين والهرموزيين، فاننا لا نملك دليلا يؤيد وقوف البهمنيين الى جانب الهرموزيين في صراعهم الطويل مع الجبور في الخليج العربي[٣٩].

والواقع فان مقياس حسن العلاقة ما بين الدول في تلك العصور، هو عدم تعرض رعاياهم – خاصة التجار منهم – الى أي نوع من أنواع المضايقات في

بلد ما، سواء خلال مرورهم به أو عند اقامتهم فترة فيه. وعلى هذا الأساس فاننا لم نعثر على شكوى، من أي نوع، صادرة من طرف ضد الطرف الآخر، في حين أننا عثرنا على رسالة شكوى من الخواجه جهان، الى سلطان مصر المملوكي الأشرف قايتباي (٨٧٢ /١٤٦٨ – ٩٠١ /١٤٩٦). والرسالة تصف ما يلاقيه التجار الواصلون الى جدة، من مظالم على يد قراجا مباشر جدة(٤٠)، حيث جاء فيها «... ان السفن والمراكب الحجازية(٤١)، اذا وصلت من الجدة الى بنادر الهند في هذه الحجة، روى ثقاة رواكبها، حديث تلاطم الجور والعدوان، وحكوا عن تصادم طوفان الخسران، شاكين عن تعدي قراجه، وتطاوله، باكين عن افراط ظلمه وتوغله، بحيث لم يبق أحدا من المسلمين الا وقد نهب أمواله، وما ورد عليه أحدا(٤٢) الا وقد شوش أحواله...». ثم يضيف خواجه جهان مهددا السلطان المملوكي بمقاطعة التجار لميناء جدة، اذ قال «... ومن أجل ذلك قد تقر طباع المترددين في هذه السنة عن الورود بتلك الأمكنة...»(٤٣).

على أنه من المعروف جشع سلاطين المماليك عموما، وأنهم قد شددوا قبضتهم خلال القرن التاسع (الخامس عشر) على واردات الحجاز عامة وعلى جمارك جدة خاصة، وأرهقوا التجار القادمين اليها بالضرائب الباهظة، بل واحتكروا لأنفسهم حق شراء بعض السلع الهندية المعينة من هؤلاء التجار بأسعار واطئة، ومن ثم يقومون ببيعها للتجار الايطاليين بأسعار مرتفعة محققين بذلك لأنفسهم أرباحا طائلة، غير آبهين بنتائج سياستهم الضارة. ويتجلى ذلك واضحا في سياسة كل من برسباي (٨٢٥ /١٤٢٢ – ٨٤١ /١٤٣٧) وقايتباي (٨٧٢ /١٤٦٨ – ٩٠١ /١٤٩٦). واذا ما عرفنا بأن بعض التجار يضطرون في أحايين الى دفع الرسوم على بضائعهم، مرة في عدن وأخرى في جدة اضافة الى بعض نقاط المرور الأخرى، أدركنا مدى الحيف الذي كان يصيبهم(٤٤).

والسؤال المطروح هو، هل لجأ بعض التجار الذين يأتون بسلعهم من الهند، وخاصة من كمبايا، وفي هذه الفترة بالذات، الى تحاشي سلوك طريق البحر الأحمر للأسباب المذكرة آنفا، اضافة الى أسباب تتعلق باتجاهات الرياح

في البحر الأحمر والتي لا تكون مساعدة لدخولهم اليه في بعض الفصول، للوصول الى جدة في موسم الحج؟. أو بكلمة أخرى هل اتجه هؤلاء التجار الى استخدام موانيء الخليج العربي، ومن بينها موانيء بلاد بني جبر، عوضا عن موانيء البحر الأحمر؟.

للاجابة عن ذلك، نقول ابتداء، أن الخليج العربي كان خلال هذه الفترة، مثلما كان قبلها وبعدها طريقا تجاريا هاما، تدخله السفن القادمة من المحيط الهندي والبحر العربي، وبشكل خاص في شهري تموز وآب (يوليو وأغسطس) لتفرغ حمولتها في موانئه لتخرج منه وهي محملة بالتمور والسلع الأخرى. واستكمالا لدورة الخطوط التجارية، فان القوافل البرية تقوم بنقل هذه السلع الى مناطق مختلفة، خاصة الى بلاد الشام والأنضول، حيث تنطلق هذه القوافل اما من موانيء الساحل الايراني لتجتاز الهضبة الايرانية لتتخذ عدة مسارات وصولا الى المناطق المشار اليها أعلاه، أو أن القوافل تنطلق من البصرة لتسير بمحاذاة وادي الفرات من جهة الصحراء لتواصل سيرها الى الشام أو تنحرف شمالا لتدخل الأنضول.

وتشير الأبحاث الحديثة الى أنه خلال الفترة المشار اليها، كانت المنتجات الهندية تتوفر بكثرة في أسواق بورصة في تركيا وفي بعض مدن الشام، آتية عن طريق الخليج العربي[٤٥].

أما فيما يتعلق بتجارة البهمنيين، والذي يهمنا هنا التحري عنها، فان بين أيدينا رسالتين مرسلتين من الخواجه جهان الى المولى محسن المشعشعي حاكم عربستان والبصرة، يوصي فيها الأخير بحسن معاملة اثنين من وكلائه يحملان هذه الرسائل، وذلك في أثناء وصولهما الى البصرة للتجارة[٤٦].

كما أن سجلات قاضي بورصة للسنوات من ٨٨٤ (١٤٧٩) الى ٨٨٦ (١٤٨١) تشير الى وجود وكلاء لخواجه جهان يمارسون فيها التجارة بالسلع الهندية، كانوا يصلون اليها بسلعهم عبر بلاد العرب[٤٧]. ولما كانت الجهة التي

اجتازوها من بلاد العربي غير معروفة، فمن الصعب الافتراض بأنهم أو غيرهم من التجار الهنود، كانوا قد استخدموا موانيء شرقي الجزيرة العربية الى الحجاز ومن ثم التوجه الى تلك الجهات عبر بلاد الشام، وذلك عن طريق مرافقة قافلة الجبور التي تتحرك من القطيف والأحساء كل سنة تقريبا قبيل موسم الحج وينضم اليها أناس كثيرون من البصرة وجنوب ايران وهم يحملون سلع تلك الجهات اضافة الى السلع الهندية ليجتازوا نجدا الى المدينة أولا ومن ثم الى مكة(٤٨).

ومهما يكن من أمر فان سعة نفوذ السلطان أجود الجبري في الخليج والجزيرة العربية مما لا يمكن للرجل الأول في الدولة البهمنية خواجه جهان، أن يتجاهله أو يستغنى عن مساعدته أحيانا، وهو الحريص على توسيع نشاطه التجاري والمحافظة عليه في هذه المنطقة.

كما أن السلطان أجود هو الآخر سوف يكون بالتأكيد حريصا على التجاوب مع الرغبة الصادرة من الخواجه جهان، بمد جسور من الصداقة والتعاون بينهما. وعليه فليس من المبالغة أن نتصور قيام علاقات وثيقة بين الطرفين.

— ٦ —

بعد أن أتينا على آخر ما أردنا أن نقوله بخصوص رسالة خواجه جهان الى السلطان أجود والظروف المحيطة بها قبل وبعد. نحب أن نلفت الانتباه الى أن هذه الدراسة لم يقصد منها القاء أضواء جديدة على سلطنة الجبور وما كانت تحتله من مكانة وأهمية في عهد سلطانها أجود، فحسب، وانما قد قصد منها أيضا تحفيز المهتمين بتاريخ جزيرة العربي الى توسيع دائرة البحث والتحري عن المصادر، نظرا للاحتمالات المتوفرة في العثور على ما قد يساعد في الكشف عن بعض من جوانب تاريخها، في بعض الفترات على الأقل.

واستكمالا للفائدة التي دبـج من أجلها البحث، نثبت فيما يلي، نص

رسالة خواجه جهان الى الشيخ أجود بن زامل الجبري العامري، وهو المعروف ومن أعقبه من سلاطين الجبور، بـ «ابن جبر».

«من قول المخدوم الشهيد الأكبر الى الشيخ أجود المعروف بابن جبر»(٤٩)

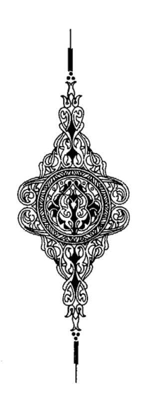
بعد حمد الله والصلاة على نبيه، فشرايف التسليمات الطيبات، ونفاس التحيات الزاكيات، على الملك الأعظم الأكرم الأمير الأفخم الأقدم، مالك البر واليم، حامي العرب والعجم، مبارز معارك الشجعان، كرار المصاف(٥٠)، بالسيف والسنان، أعدل ملوك الأطراف والأقطار، أشجع ولاة الأزمان والأعصار، مفتخر حجاج بيت الله الحرام، قدوة زوار النبي عليه السلام، المخصوص بعواطف العلي الصمد، ملك ملوك العرب، سلطان أجود، لازال طرق البوادي ببدرقة(٥١) تقويته مأمونة عن نزول الطوارق، وثواقب مناقبه لامعة عن آفاق السنة الخلايق. وأما جواهر الصبابة والاشتياق وفرايد الغرام والأشواق، فقد كثرت بحيث لا يفي بحوايتها دروج المجاز والاستعارات، ولا يكفي باحاطتها أصداف التراكيب والعبارات.

بيت :

الشوق أكثر أن يختص جارحة   كلي اليك على الحالات مشتاق

المسؤول من كرم واهب المأمول، أن يرفع نقاب التوقف عن مخدرات الالتقاء، فانه تعالى قادر على ما يشاء، ثم الداعي الى توشيح أعناق الأحوال بقلايد المقال، ان المحب وان ما تشرف بصحبة الجناب الأميري، وما تزين بملاقاة الملكي الكبيري، لكن فص فؤاده مركوز في خاتم محبته وغواص جناته، سباح في بحر مودته، يطمع من كرمه أن يسلك درر المهام في سلك الاعلام، لينصب على عايقة لواء الاتمام ويفتح أبواب الموالاة بمفاتيح المكاتبات، ليوجب ذلك ازدياد صفاء النيات وينهي بين يدي الأميري أن أنفاره الجائين الى هذه الديار ما كان

معهم الكتاب والأخبار، لوقوع الواقعة عليهم في البحر العميق، وهو غلبة السارقة عليهم في أثناء الطريق. ولما توجه حامل الصحيفة الى جانب الجناب الملكي، وكان المقصود تروية حديقة المحبة الأزلية ماأطنب المقال واختصر الحال، وختم بدعاء حصول الآمال. ربِّ كما وفقته بحماية أهل المدر والوبر، اجعل طول عمره الى يوم الحشر، بمحمد وحيدر.



التعليقات والحواشي

(١) وفاء، لابد أن نشير هنا الى أن جهودا شخصية ورسمية قد بذلت في العقدين الأخيرين، ولازالت تبذل في الكشف عن المصادر المختلفة لتاريخ الجزيرة العربية، ممثلة في الجهود القيمة للشيخ حمد الجاسر، سواء بما نشره من كتب أو من خلال مجلته «العرب» التي لها نهجها وأسلوبها المميز، بحيث يمكن اعتبارها مدرسة قائمة بذاتها، حرية بالدراسة. كذلك بما بذلته دارة الملك عبد العزيز، منذ انشائها، سواء بسعيها في جمع كل ما يمت بصلة الى تاريخ الجزيرة العربية، أو من خلال ندواتها ومجلتها «الدارة».

وهنا لابد أن نذكر جهود قسم التاريخ والآثار في جامعة الرياض، الذي أدرك أولوية الجهد في الكشف عن مصادر تاريخ الجزيرة، فجعل موضوع ندوته الأولى التي عقدت في الرياض في ربيع ١٣٩٧ /١٩٧٧م هو «مصادر تاريخ الجزيرة العربية».

(٢) لمزيد من التفصيل عن امارة الجبور عامة وحياة الشيخ أجود خاصة، يمكن الرجوع الى بحثنا «التاريخ السياسي لامارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية، ٨٢٠ /١٤١٧ – ٩٣١ /١٥٢٥» «مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة جـ١٦ (١٩٨٠م) ٣١ – ١٠٩. هذا وسوف يتم تنقيح هذا البحث على ضوء نصوص جديدة.

(٣) لا نعرف بالضبط تاريخ وفاة الشيخ أجود الا أنه من المرجح أنه قد توفى بعد عام ٩٠١ بفترة لا تتجاوز بكثير السنة الواحدة.

(٤) حول تاريخ الدولة البهمنية، يمكن الرجوع الى البحث المكثف عنها في الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الاسلامية H.K. Sherwani, Art, «Bahmanis,EI2»

(٥) حول سيرة محمود قاوان (خواجه جهان) يمكن الرجوع الى الطبعة القديمة من المصدر السابق، قاوان، T.W. Haig, art, «Mahmud Gawan», EI

(٦) J. Aubin, «Les relations diplomatiques entre les Aq-qoyunlu et les Bahmanides», in Iran and Islam, (ed). C.E. Bosworth, Edinburgh, 1971, pp. 11 - 15.

(٧) H - Inalcik, Burşa and the Commerce of the Levant Journal of the Economic and Social History of the Orient, vol - 111, 1960. pp. 130 - 147. esp. 141.

(٨) راجع عبد الكريم بن محمد النيمدهي، كنز المعاني من الانشاء، مخطوطة في مكتبة رئيس الكتاب مصطفى أفندي، اسطنبول (المكتبة السليمانية، رقم ٨٨٤، والمخطوطة هذه قد كتبت في دمشق عام ٩٩٦ (١٥٨٨) بخط الحسين بن أحمد الكربلائي.

(٩) Inalcik, Bursa.

(١٠) راجع كنز المعاني.

(١١) عبد العزيز بن عمرو بن فهد (ت ٩٢٢) «بلوغ القرى في ذيل اتحاف الورى بأخبار أم القرى»، مخطوطة في مكتبة الحرم المكي بدون رقم، «تاريخ دهلوي» وهي مصورة في مكتبة جامعة الرياض (في حوادث ذي الحجة ٨٨٦).

(١٢) راجع كنز المعاني.

(١٣) لقد سبق أن ناقشنا في بحثنا «التاريخ السياسي لامارة الجبور» الذي أشرنا اليه سابقا، الأدلة التي تحدد لنا بداية حكم السلطان أجود وخرجنا بنتيجة، وهي انها كانت في حدود عام ٨٧٥ /١٤٧١. الا أننا على ضوء رسالة خواجه جهان فاننا أخذنا نميل الى القول بأنها كانت قبيل عام ٨٧٤ (١٤٧٠) بقليل. هذا وسوف ترد في الصفحة (٧) الأسباب التي دعتنا الى ذلك.

(١٤) من أجل الاطلاع على تفاصيل ذلك، راجع الحميدان، التاريخ السياسي لامارة الجبور، ٤٧ – ٦١.

(١٥) حول قوافل الجبور، راجع، عمر بن فهد (ت ٨٨٥) اتحاف الورى بأخبار أم القرى، رقم المخطوط بدون، «تاريخ دهلوي»، مكتبة الحرم المكي. ومنه نسخة مصورة في مكتبة جامعة الرياض. حوادث ٨٧٦. كذلك راجع عبد العزيز بن عمر بن فهد، المصدر السابق، حوادث ٨٨٨، ٨٩٣، ٩٠١، ٩١٠، ٩١١، ٩٢١. أيضا راجع بحثنا السابق «التاريخ السياسي لإمارة الجبور».

(١٦) السمهودي (ت ٩١١ /١٥٠٦) وفاء الوفا (القاهرة ١٩٥٥) جـ٣ /١٠٩٣. السخاوي (ت ٩٠٢ /١٤٩٧)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (منشورات مكتبة الحياة، بيروت ب.ت.) ١ / ١٩٠ كذلك راجع الحميدان، المصدر السابق، ٥٠.

(١٧) لابد لنا أن نذكر هنا فضل البروفسور جان أوبان، لأنه الوحيد الذي أشار الى وجود هذه الرسالة ضمن مخطوطه «كنز المعاني» فدفعنا ذلك الى الحصول على نص هذه الرسالة. الا أنه قد التبس عليه عندما ذكر بأن هذه المخطوطة موجودة ضمن مجموعة مكتبة عاشير أفندي، والصحيح هو ما ذكرناه من أنها ضمن مكتبة رئيس الكتاب مصطفى أفندي، كما يثبت ذلك فهرس المكتبة المذكورة ضمن مكتبة السليمانية باسطنبول وأكد ذلك أيضا مسؤول المكتبة المذكورة.

(١٨) Aubin, Le Royaume D, Ormuz au début du xvl Siecle'' in Mare Luso - Indicum, (Jneve 1973)
11 - 77 - 179, esp. 124, note. 292.

(١٩) حول التهمة التي لفقها خصوم خواجه جهان وظروف قتله، راجع El, Mahmud Gawan. كذلك راجع ابن فهد، بلوغ القرى (في حوادث ذي الحجة ٨٨٦).

(٢٠) لمن يريد التعرف على حياة النيمدهي وآثاره، يمكنه الرجوع الى Aubin La vie et L'auvte de Nimdihi, Revue des Etudes Islamiques, 34, (1977), 61 - 81.

ويبدو أن عبد الكريم النيمدهي أراد أن يحاكي في عنوان كتابه الكتاب الذي كان قد ألفه محمود قاوان (خواجه جهان) المسمى «رياض الانشاء» الذي نشره شيخ جاند في حيدر أباد عام ١٩٤٨. والكتاب المذكور يعتبر مصدرا مفيدا لحياة ونشاط القاواني.

(٢١) راجع حول ذلك عناوين الرسائل المختلفة في «كنز المعاني».

(٢٢) كنز المعاني، ورقة ٢٠٤.

(٢٣) راجع دائرة المعارف الاسلامية الطبعة القديمة، مادة «محمود قاوان». وقد مر الاشارة الى ذلك. وكذلك Iqtidar Alam Khan, Early use of Cannon and Musket in India, Journal of the Economic and Social of the Orient, vol - xxlv, Part 11, 1981. 146-63, esp. 62-3.

(٢٤) The Book of Duarte Barbosa, Translated from the Portuguese text by M. Longworth Dames, vol. 1, reprint in W-G, Wiesbaden, 1967, 186 (Issued by the Hakluyt Society, 2nd series, no 44).

(٢٥) راجع الحاشية رقم (١٣).

(٢٦) كنز المعاني، ورقة ٢٠٣أ.

(٢٧) المصدر السابق، ورقة ٢٠٣أ – ٢٠٤أ.

(٢٨) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٣١٢.

القلقشندي : صبح الأعشى، القاهرة، ١٩١٥، جـ٥ /٤٤٧ – ٤٨، ٧ /٣٧٠ – ٧١.

(٢٩) البدرقة أو البذرقة هي الخفارة، المبذرق هو الخفير، وهنا تعني خفارة القوافل الصحراوية. راجع الفيروزابادي، القاموس المحيط، فصل الباء، باب القاف. الزبيدي، تاج العروس، فصل الباء من باب القاف.

(٣٠) كنز المعاني، ورقة ٢٠٣أ – ٢٠٤أ.
(٣١) وفاء الوفا، ٣ /١٠٩٣.
(٣٢) الضوء اللامع، ١ /١٩٠.
(٣٣) كنز المعاني، ٢٠٣ب.
(٣٤) راجع الصفحة (٧) من هذا البحث وكذلك الحاشية (١٣).
(٣٥) كنز المعاني، ورقة ٢٠٣أ – ٢٠٤أ.
(٣٦) المصدر السابق ورقة ٢٠٤أ.
(٣٧) راجع، بلوغ القرى (حوادث ذي الحجة ٨٨٦).
(٣٨) كنز المعاني ورقة ٢٠٧أ.
(٣٩) حول الصراع بين الجبور ومملكة هرموز راجع بحثنا السابق، ٤٧ – ٥٣.

(٤٠) لم يرد في الرسالة تاريخ محدد ولا ذكر للأشرف قايتباي، وانما عرفنا تاريخ الرسالة التقريبي من ورود اسم قراجا الذي كان ناظرا على جده من أواخر ٨٨١ الى أوائل ٨٨٣. راجع، اتحاف الورى، حوادث السنوات المشار اليها. وكذلك الضوء اللامع، ٦ /٢١٥.

(٤١) يقصد هنا بالمراكب الحجازية أي تلك التي تتردد على الحجاز، في حين أن العرب يطلقون على السفن التي تتردد عادة على موانيء الهند بالمراكب الهندية، وليس من علاقة بين هذين التعبيرين ومن يملكها.

(٤٢) هكذا وردت في النص والصحيح أحد.

(٤٣) كنز المعاني ورقة ٢٠٢ب – ٢٠٣أ.

مك٦

(٤٤) راجع ابن فهد، اتحاف الورى...، حوادث السنوات ٨٢٨، ٨٣٤، ٨٣٨، ٨٨١. بلوغ القرى...، ٩٠٢، ٩١١. كذلك راجع د. صبحي لبيب. التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية (١٩٥٢) ٤ /٢ ص ٥ – ٦٣. كذلك محمد أمين صالح، تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة، الدارة، العـــدد ٢ /الســـنة السادسة (١٤٠١ /١٩٨١م) ص ١٢٦ – ١٤٦.

Frederic C. Lane, Pepper Prices Before Da Gama, Journal of Economic History, vol, 28 (1968) pp 590 - 97.

(٤٥) A-H- Lybyer, the Ottoman Turks and the Routes of Oriental Trade, the English Historical Review, No. Cxx, oct, 1915, 577 - 88, esp. 581 - 83; E-C-Lane, Ibid; Inalcik, op. Cit.

E. Ashtor, Spice Price in the Near East in the 15th Century, J- of the Royal Asiatic Society, No. 1 1976. 26-14.

هذا ويذكر ابن طولون بأنه في ربيع الآخر سنة ٨٨٥ يوليو / تموز ٤٨٠ تعرضت قافلة تجارية كانت تضم ثلاثة آلاف جمل متجهة من العراق الى الشام على الطريق الصحراوي ونهب ما فيها من بضائع. ان الاشارة لتؤكد أيضا استمرار سير القوافل التجارية ما بين العراق وبلاد الشام، ان لم تكن قد نشطت في هذه الفترة، وقد ورد في هذا النص ذكر لعلاقة تربط ابن جبر (أجود بن زامل) بأحد رواد القافلة، الأمر الذي يفهم منه بأن الجبور ربما قد ساهموا في هذه القافلة.

راجع محمد بن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، القسم الأول / القاهرة ١٣٨١ /١٩٦٢، ١٨.

(٤٦) كنز المعاني، ورقة ٢٠٤أ – ٢٠٧أ.

(٤٧) Inalcik, Op. Cit, 141.

(٤٨) حول قوافل الجبور راجع الحاشية (١٥). ويقتضي منا أن نشير هنا الى أنه لدينا الدليل على أن بعض القادمين من السواحل الغربية للهند يأتون الى الحجاز عن طريق شرق الجزيرة العربية وذلك عندما لا تكون الظروف ملائمة عن طريق البحر الأحمر. فابن فهد يذكر انه بعد انتصار الأسطول المملوكي بقيادة حسن الكردي في معاركه الأولى أمام الاسطول البرتغالي عاد بعض أفراد الجيش المصري عن طريق بلاد بني جبر، راجع بلوغ القرى حوادث جماد الأول عام ٩١٤.

(٤٩) يقع النص بأكمله في كنز المعاني «في الورقة ٢٠٣أ حتى ٢٠٤أ.

(٥٠) المصاف جمع مصف وهو موضع الصف، المراد هنا ذكره حين اصطفاف الجنود في القتال.

(٥١) بدرقة، سبق أن شرحنا معناها في الحاشية (٢٩) وهي تعني الخفارة.

علاقة

نجد بالشام

من ١١٥٧هـ إلى ١٢٢٥هـ

بقلم/ عبد الله حمد الحقيل



تمثل هذه المقالة عرضا وثائقيا سريعا وتسجل مرحلة من مراحل علاقة الدولة السعودية الأولى مع الشام والدولة العثمانية ويعتبر هذا المقال بمثابة محاولة مبدئية لدراسة الوثائق التي تحتاج منا الى المزيد من الدراسة والتفصيل والتحليل لتظل مرجعا مفيدا للباحثين والدارسين لحياة تلك المرحلة من تاريخ بلادنا.

ولقد لقيت بعض جوانب من تاريخ بلادنا في العصور المتأخرة اهتماما جيدا من لدن الباحثين ومن أبرز ذلك تلك الدراسات التاريخية التي غطت جوانب من تاريخ المملكة العربية السعودية ولاتزال هناك جوانب من ذلك التاريخ في حاجة الى القاء المزيد من البحث والتنقيب والدراسة.

وفي بداية المقال أوميء بشيء من الايجاز عن نشأة الدعوة السلفية وانتشارها وما واجهته من حرب وخصومات.

ولما كانت هذه الدراسة عن العلاقات مع الشام وكما هو معروف فإن الشام هي موطن شيخ الاسلام أحمد بن تيمية وتلميذه محمد بن قيم الجوزية وهما الإمامان اللذان تأثر بهما الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ويقول الدكتور / منير العجلاني في كتاب «تاريخ البلاد العربية السعودية الجزء الأول ص ٢٣٧ ... كان الشيخ يحب ابن تيمية ويجله كثيرا ويطلب كتبه وأقواله في كل مكان وربما نسخها بخط يده ويقال انه طلب من الامام الصنعاني في اليمن عام ١١٨٠ كتبا لابن تيمية وابن القيم كانت عنده».

ومن المعروف أن الكثير من أبناء الشام وخاصة قبائل البادية قد أقبلت على اعتناق مبادىء الدعوة ودفعوا الزكاة الى الامام عبد العزيز بن محمد وكما روى ابن بشر قائلا لقد ظهر مع عمال من حلب قاصدين الدرعية وهم ست نجائب محملات ريال زكوات بوادي أهل الشام.

ويدل هذا على أن ولاءهم لأمير الدرعية وليس لوالي الشام من قبل السلطان

العثماني.. ولقد ازداد النفوذ السعودي في عهد الامام سعود بن عبد العزيز وأصبح لهم دعاة هناك الى أن انتهى هذا الدور بسقوط الدولة السعودية الأولى حينما استطاع ابراهيم باشا تخريب الدرعية وأرسل الامام عبد الله بن سعود الى محمد علي باشا في مصر في ١٧ محرم ١٢٣٤هـ.

أولا – نشأة الدعوة السلفية وانتشارها :

(أ) نجد قبل الدعوة السلفية :

يفيض ابن غنام – وهو مؤرخ معاصر لتلك الفترة – عن انتشار الضلال لا في نجد وحدها بل في ديار المسلمين كافة فقد كان أكثر المسلمين – في مطلع القرن الثاني عشر الهجري – قد ارتكسوا في الشرك، وارتدوا الى الجاهلية، ونبذوا كتاب الله تعالى، واتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم لظنهم انهم أدرى بالحق فعمدوا الى عبادة الأولياء والصالحين. أمواتهم وأحيائهم يستغيثون بهم في النوازل والحوادث ويستعينون بهم على قضاء الحاجات وتفريج الشدائد، بل ان بعضهم كان يرى في الجمادات كالأحجار والأشجار القدرة على تقديم النفع ودفع الضرر.. فغدوا اليها يبتهلون لقضاء حاجاتهم فأحلوا بذلك ما حرم الله ونسوا قوله تعالى (لا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو اله واحد فإيّاي فارهبون). وعين هذا الأمر كان يحدث في نجد حتى ان ابن غنام يقول في ذلك: «وقد كانت من بين هذه القبور قبور تنسب الى بعض الصحابة يحج اليها بعض الناس ويطلبون منها قضاء الحاجات»(١).

ولم تكن الحالة السياسية في نجد أحسن حالا من الحالة الدينية وفي ذلك يقول الدكتور منير العجلاني «فقد كانت هناك مجموعة كبيرة من الامارات والمشيخات تنفرد كل واحدة منها بسلطانها وتعتز باسمها ولا ترى شيئا فوقه، وقد تتحالف أحيانا لقتال الآخرين واستباحة ديارهم وأموالهم، ولكنها متى فرغت من قتال عدوها، عادت تتقاتل فيما بينها ولما يجف مداد عهدها ودم جندها..

وكانت البلاد تعيش في رعب دائم، بين عدو يأخذها بالقهر، وحليف بالغدر، وماكانت تعرف السكينة، والأمن والحرية الا قليلا[٢].

ثانيا – الشيخ محمد بن عبد الوهاب – سيرته ودعوته:

هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد ابن بريد بن محمد بن مشرف التميمي، ولد سنة خمس عشرة بعد المائة والألف من الهجرة في بلدة العيينة من بلدان نجد[٣] عند أبيه عبد الوهاب بن سليمان القاضي فيها زمن عبد الله بن محمد بن حمد بن عبد الله بن معمر الذي قويت العيينة في زمنه، قبل انتقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب منها الى بلدة حريملاء[٤].

تلقى الشيخ محمد العلم أيام الطفولة في بلدته العيينة، فحفظ القرآن قبل بلوغه العاشرة من عمره، وكان جاد الفهم، وقّاد الذهن، سريع الحفظ، فصيحا فطنا[٥]، فقرأ على أبيه في الفقه وكان رحمه الله في صغره كثير المطالعة في كتب التفسير والحديث وكلام العلماء في أصل الاسلام. فشرح الله صدره في معرفة التوحيد وتحقيقه ومعرفة نواقضه المضلة، عن طريقه. وكان الشرك اذ ذاك قد فشى في نجد وعلى نحو ما أوضحنا بايجاز من قبل.

وبدأ الشيخ رحلاته العلمية المثمرة بحج بيت الله الحرام، ثم أقام في المدينة المنورة حيث أخذ فيها العلم عن الشيخ عبد الله بن ابراهيم النجدي ثم المدني، وكذلك أخذ عن الشيخ محمد حياة السندي المدني، ثم قصد البصرة وفيها سمع الحديث والفقه من جماعة كثيرين، وقرأ بها النحو وأتقنه. وكان أثناء مقامه في البصرة ينكر ما يرى ويسمع من الشرك والبدع، وينشر أعلام التوحيد، ويكرر على الناس أن العبادة كلها لا تصلح الا لله. فلما تكرر منه ذلك آذاه بعض أهل البصرة، وأخرجوه منها وقت الهجير، فانثنى في النهاية عائدا الى نجد وفي طريقه اليها مر بالأحساء ونزل فيها على العالم عبد الله بن محمد بن عبداللطيف

الشافعي الأحسائي.

ثم اتجه الى بلدة حريملاء التي كان أبوه قد انتقل اليها عام ١١٣٩هـ، فأعلن دعوته، اشتد من انكاره لمظاهر الشرك والبدع، وجد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. فذاع ذكره في جميع بلدان العارض وانقسم الناس فيه فريقين: فريق تابعه وبايعه وعاهده على ما دعا اليه، وفريق عاداه وحاربه وأنكر ذلك عليه وهم الأكثر(٦) ولما أحس الشيخ بالخطر يتهدده في حريملاء عاد الى العيينة فأكرمه رئيسها يومئذ عثمان بن حمد بن معمر وتزوج فيها من ابنة عبد الله بن معمر.

عرض الشيخ علي عثمان دعوته فاتبعه وناصره وألزم الخاصة والعامة أن يمتثلوا أمره. وكان في العيينة وما حولها كثير من القباب والمساجد والمشاهد المثبتة على قبور الصحابة والأولياء، والأشجار التي كانوا يعظمونها كقبة قبر زيد بن الخطاب في الجبيلة فخرج الشيخ محمد ومعه عثمان وكثيرون بالمعاول فقطعوها وهدموها.. وكان الشيخ هو الذي هدم قبر زيد بن الخطاب بيده.

وجاءت امرأة زَنتْ تعترف للشيخ فتثبت الشيخ من أمرها عدة مرات حتى لم يعد هناك شك فطلب من الوالي تنفيذ حكم الله فيها، فطارت قلوب أهل البدع والضلال خوفا فشكوه الى شيخهم سليمان آل محمد رئيس بني خالد في الأحساء فكتب الى عثمان يأمر بقتل الشيخ أو اجلائه عن بلده، وهدده بأنه ان لم يفعل ذلك قطع عنه خراجه في الأحساء واستباح أمواله لديه، وعندئذ آثر عثمان أن يأمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالخروج من العيينة.

فخرج الشيخ الى بلدة الدرعية وكان ذلك سنة سبع أو ثمان وخمسين ومائة وألف واستقر به المقام فيها عند الشيخ أحمد بن سويلم حيث أتاه الأمير محمد ابن سعود ومعه أخواه ثنيان ومشاري وسلم أمير الدرعية على الشيخ، وأبدى له غاية الكرم والتبجيل، وأخبره بأنه يمنعه بما يمنع به نساءه وأولاده. وأخذ الشيخ يشرح معنى التوحيد الحقيقي وبعدها عاهده الأمير على النصرة له وعلى الجهاد لمن خالف التوحيد، لقد كان محمد بن سعود زعيما وقائدا وكان محمد بن

عبدالوهاب هاديا وداعيا الى الله.. وبفضل تعاونهما حطمت الأوثان، وهدمت الأبنية المقامة على أضرحة الأولياء، ونفذت أوامر القرآن(٧).

وقبل أن نعرف شيئا عما أسفر عنه هذا اللقاء التاريخي الشديد الأهمية من نشر دعوة الشيخ في أرجاء الجزيرة العربية يمكننا أن نلخص العوامل التي جعلت من الشيخ داعيا مصلحا وهي:

(أ) البيت : فقد نشأ الشيخ في بيت علم وكان والده ضليعا في الفقه.

(ب) الدراسة : فقد حفظ القرآن في سن صغيرة ثم انكب على كتب الفقه وبخاصة كتب ابن تيمية وابن القيم.

(جـ) الشخصية : اذ أن الشيخ كان ذو شخصية قوية وحجة سليمة وقدرة على الاقتناع طلق اللسان لا تفتر همته.

(د) الرحلات العلمية : وقد أشرنا الى البلاد التي ارتحل اليها وأخذ من علمائها مما وسع من آفاقه.

(و) البيئة : فقد نشأ في بيئة مليئة بالبدع والفتن فتحداها بإيمانه.

(هـ) مناصرة الامام محمد بن سعود له وهي أقوى عوامل نجاح الدعوة.

استعدادات والي الشام لمواجهة ابن سعود في الحجاز :

كانت الشام تابعة للدولة العثمانية أيام نشأة الدولة السعودية الأولى فقد كانت ولاية من الولايات الهامة التي يعتمد عليها الحكم العثماني.

لم يعر السلطان العثماني محمود الأول (١١٤٣ - ١١٦٨هـ = ١٧٣٠ - ١٧٥٤م) مسألة نجد أُذناً صاغية، عندما قامت الدولة السعودية الأولى فيها سنة ١١٥٨هـ ١٧٤٥م، لأنه اعتبر ما حدث مجرد حركة سطحية آنية، لن تلبث أن تختفي وتتلاشى دون التعرض لها أو مجرد التفكير في ذلك. وتطالعنا الوثائق التركية بتقارير كثيرة كتبها الشريف غالب بن مساعد أمير مكة المكرمة عن الدعوة السلفية وابن سعود. لكن السلطان العثماني اعتبر هذه التقارير مليئة بالمبالغات والمفارقات التي لا تصدق بعد أن أحال الموضوع الى «مجلس المشورة» لأخذ الرأي في مواجهة الموقف في نجد. وتوالت تقارير الشريف غالب يستنجد بالدولة العثمانية، ويحثها على مواجهة الموقف، ولكن ذهبت كل مساعيه هباء، حيث لم تنظر الدولة العثمانية للموضوع الا أنه يكون عبارة عن خلافات شخصية بين الشريف وابن سعود، ولن تؤدي الى ضرر بالدولة العثمانية وسيادتها على المنطقة.

ولم يتوقف الأمر على الشريف بل ان والي بغداد ووالي الشام قاما بكتابة تقارير عن نجد وعن ابن سعود وعن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وكانت هذه التقارير تشكو من كثرة الأنصار والأتباع في نجد وما حولها حتى منطقة الحرمين الشريفين. فقد دخلت في الدعوة قبائل كثيرة أصبحت تدافع عن الدعوة وتعيش لها وتعتنق مبادئها تدعو اليها وتود التضحية والفداء في خدمة مباديء الاسلام الصحيحة التي تنادي بها هذه الدعوة(٨).

وعندما كثرت التقارير وتعددت مصادرها، لم يجد السلطان أمامه الا أن يصدق ما ذكر له، فبدأ في النظر الى الموضوع على أنه مسألة خطيرة وهامة تدعو الى مواجهتها بكل حزم وقسوة، قبل أن يستفحل أمرها ويتسع نطاقها.

ودور الوثائق التركية مليئة بالوثائق الخاصة بتكليف السلطان العثماني لوالي بغداد بمواجهة ابن سعود، ولكن والي بغداد وجد انه لا قبل له باجتياز صحراء نجد القاحلة اذ هي صعبة المسالك ووعرة الدروب، فأخذ يعد السلطان بتنفيذ

المهمة التي أوكل اليه تنفيذها. وعندما كثر الحاح السلطان عليه أخذ يسوف تحت ستار البدء في التجهيز والاعداد. وأخبر السلطان بأن المهمة تحتاج الى وقت لكي يتم الاعداد الكافي، لأن المهمة صعبة وشاقة. وكثرت فرمانات السلطان لوالي بغداد، يأمره بأن ينفذ ما كلفه به. ولما أحس والي بغداد بأن المهمة شاقة وعسيرة نظرا لعدم وجود المياه والكلأ في الطريق ووعورة الصحراء وخطورة اجتيازها، وقلة الامكانيات المالية، وعدم توفر التجهيزات والمعدات العسكرية اللازمة للغرض. كما أن والي بغداد وضع في حسابه انه لا قِبل له بتنفيذ المهمة، نظرا لقوة ابن سعود وشدة بأسه. فأخذ يراوغ ويتعلل بعدم المقدرة منفردا بالقيام بما كلف به. وأشار على السلطان بأن يكلف والي الشام ووالي مصر بالمهمة لأن اجتياز صحراء نجد من ناحية العراق تحفه المخاطر والصعوبات، نظرا لإمكانية الضياع في الصحراء الشاسعة الموحشة، وتوقع مفاجأة ابن سعود للجيش الزاحف نحوه في هذه الصحراء التي لا ملجأ فيها ولا مأوى، فتكون النتيجة كارثة على الجيش المتحرك الذي يمكن لقوة ابن سعود الهائلة إفناءه وتدميره عن آخره. كما تعلل والي بغداد بالخطر المرتقب على العراق من جهة ايران، نظرا لأطماعها في تلك المناطق التي بها الأماكن المقدسة الخاصة بهم. وأشار الى الحشود المستمرة على الحدود الايرانية العراقية من القوات الايرانية ومن القوات العراقية تحسبا لما عسى أن يحدث.

ولما يئس السلطان العثماني من والي بغداد، اتجه الى والي الشام عله يجد فيه ضالته التي افتقدها في والي بغداد..

وهنا يجدر بنا الحديث مفصلا عما حدث من والي الشام بعد تكليفه بمهمة مواجهة ابن سعود.

١ – عهد يوسف باشا :

أرسل والي الشام يوسف باشا في ١١ جمادى الأولى سنة ١٢١٥هـ تحريرات الى السلطان العثماني يخبره فيها بأن محمد على باشا قام بالاتصال بالشريف

غالب بعد أن صدر اليه الأمر العالي بمهمة مواجهة آل سعود. وأن محمد على يرى أن المهمة ستكون شاقة لو أن الشريف أخذ جانب ابن سعود بعد أن قوى حصون جدة، حيث أن الذخائر والعساكر لن يمكن نقلها الى الأراضي الحجازية والأمر كذلك. ويهيب بالسلطان أن يعهد اليه بغزة ويافا لتسهيل نقل المؤن والذخائر من السويس.

ويفهم من هذه الوثيقة الى أن والي الشام أقنع السلطان العثماني بأن المهمة لا يمكن أن يقوم بها وحده، ولكن ينبغي أن يكون الدور الأكبر فيها لمحمد على باشا(٩).

وبدأ كبار الشخصيات في الحجاز وبغداد والشام يرسلون التقارير أيضا عن الدعوة السلفية وأصحابها، بتكليف من ولاة الدولة العثمانية في هذه المناطق أو بأمر من الدولة العثمانية ذاتها.

كتب قاضي الشام سيد محمد نور الله أفندي في ١٣ ذي الحجة سنة ١٢١٧هـ تقريرا للسلطان العثماني عن بعض الأمور الخاصة بالشام وعن عزيمة السلفيين التحرك نحو الحرمين الشريفين والبصرة وبغداد(١٠).

٢ – عهد أحمد باشا الجزار :

استقر رأي السلطان على تعيين أحمد باشا الجزار واليا على الشام وسردارا (قائد عام الجيش) على الحجاز، لما عرف عدم جدية والي الشام السابق في تنفيذ مهمته وتكاسله(١١).

وبعد هذا التعيين دخل عبد العزيز بن حمد بن سعود المدينة المنورة فاتحا، فأغضب هذا التصرف السلطان العثماني وأرسل الى أحمد باشا الجزار يحثه على مواجهة ابن سعود، وقد رد عليه الجزار قائلا بأنه أذعن للأمر وسينفذ ما أمر به حالا(١٢).

ولما أحس السلطان العثماني بأن الموضوع لم يؤخذ مأخذ الجد ولم يحدث فيه شيء أمر الصدر الأعظم بكتابة فرمانات وأوامر الى كل من والي بغداد لتعيينه سردارا من جهة العراق على الحجاز بالاضافة الى التعيين السابق لأحمد باشا الجزار سردارا على الحجاز أيضا لقيادة الجيش الشامي الى الحجاز. وقد تضمنت الأوامر التي وصلت الى والي الشام الاستفسار عن مقدار العساكر التي أرسلت الى الحجاز ونوع الذخائر[١٣].

أحس الصدر الأعظم بأن الشام مليء بالاضطرابات والقلاقل ولا يجوز في هذه الظروف والأوضاع تحرك أحمد باشا الجزار الى مهمته في الحجاز قبل رأب الصدع في الشام الذي امتلأ بالقلاقل والفتن التي يثيرها العربان هناك. فأوصاه في رسالة بعث بها اليه في شوال ١٢١٨هـ باصلاح أمور الشام أولا قبل القيام بمهمة الحرمين بالتعاون مع علي باشا والي مصر[١٤].

ورغم كل ذلك فان أحمد باشا الجزار لم يأخذ الموضوع بجد وأخذ يراوغ لأنه أحس أنه لا يقدر على تحدي ابن سعود. والوثيقة التالية تدل على أن الجزار لم يفعل شيئا بخصوص موضوع الحجاز. فلم يستعد بالعساكر ولا حتى بالذخيرة والمهمات الأخرى، ولا هو تحرك لأخذ أي خطوة عملية في هذا السبيل وقد قام رئيس الكتاب بكتابة تقريرا بما آل اليه الوضع بالنسبة للجزار وقدمه للسلطان. وقد ذكر فيه أن الجزار أرسلت اليه الأوامر السامية بخصوص مهمة الحجاز مرارا وتم استعجال الموضوع عدة مرات ولكن النتيجة واحدة، وهي أنه لم ينفذ أي شيء[١٥].

(للحديث صلة)

الهــوامش

(١) انظر حسين بن غنام، تاريخ نجد، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، مصر سنة ١٣٨١هـ/١٩٦١م ص١١، ٢١، وانظر للشيخ أحمد بن عبد العزيز آل مبارك رئيس القضاء الشرعي بدولة الامارات العربية المتحدة، «حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآثاره العلمية» وقد نشر في كتاب حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآثاره العلمية نشرة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية الرياض ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٢) د. منير العجلاني، تاريخ البلاد العربية السعودية، ج١ عن الدولة السعودية الأولى، بيروت ص٣٥، ٣٦.

(٣) حسين بن غنام، المرجع السابق ص ٧٥.

(٤) عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، جـ١ المملكة العربية السعودية ١٣٩٤هـ ص١٩.

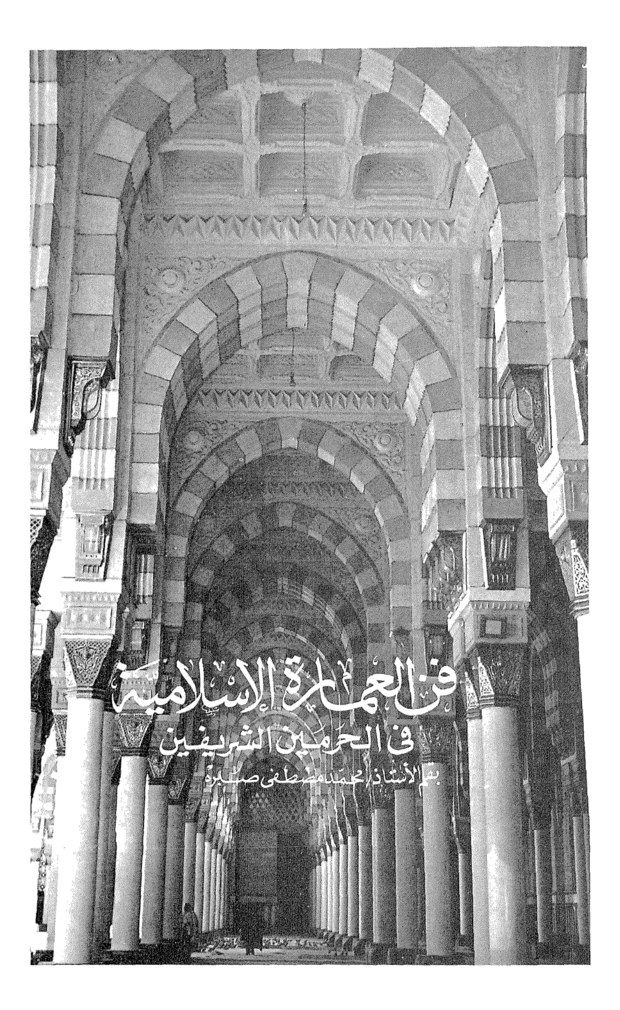
(٥) حسين بن غنام، نفس المرجع نفس الموضع.

(٦) ابن غنام المرجع السابق ص ٧٦، ٧٧.

(٧) هذا مما أورده الدكتور منير العجلاني، المرجع السابق جـ١، ص٣٨، ٣٩ وهو ينقل عن آرمسترونج المؤرخ وصفه للقاء التاريخي بين ابن سعود وابن عبد الوهاب.

(٨) انظر الوثيقة رقم ٤ /١ /١٣٦ من مقتنيات دارة الملك عبد العزيز وهي عبارة عن تقرير من أحمد باشا الجزار والي الشام وصيدا.

(٩) انظر الوثيقة ٤ /١ /٢٢ من مقتنيات الدارة.
(١٠) انظر الوثيقة ١ /٢ /٤٣٥ من مقتنيات الدارة.
(١١) انظر الوثيقة ٥ /١ /٩٩ من مقتنيات الدارة.
(١٢) انظر الوثيقة ٤ /١ /٧ من مقتنيات الدارة.
(١٣) انظر الوثيقة ١ /٢ /٣١ من مقتنيات الدارة.
(١٤) انظر الوثيقة ١ /٢ /٤٢٠ من مقتنيات الدارة.
(١٥) انظر الوثيقة ١ /٢ /٢٠ من مقتنيات الدارة.


فن العمارة الإسلامية
فى الحرمين الشريفين
بقلم الأستاذ/ محمد مصطفى صبرة

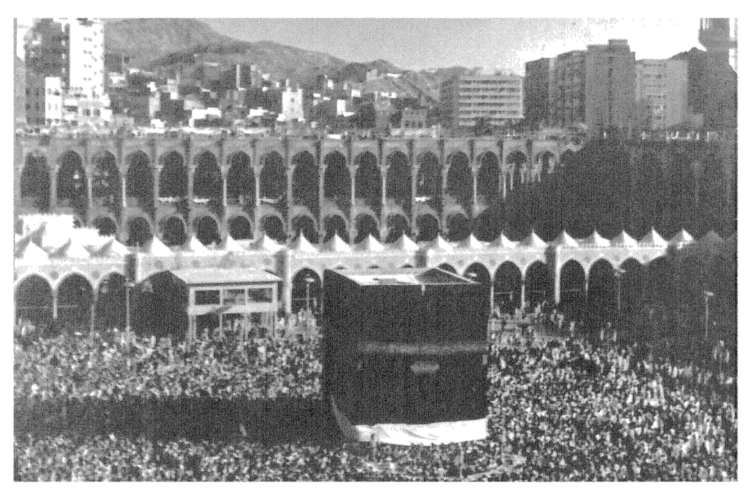
العمارة الاسلامية بدأت منذ العصور الأولى في الاسلام وقد امتازت بالبساطة والمرونة والابداع والتطور في نفس الوقت كما أنها احتفظت بعد ذلك بأصالتها وطابعها المميز في جميع مراحل تطورها خلال القرون العشرة الأولى في الاسلام.

فقد ظهر الفن العربي الاسلامي فريدا في نوعه مميزا عن غيره من سائر الفنون التي سبقته كما كانت لحياة الصحراء وحب سكانها العرب للشعر تأثيرا ليس بالقليل على الفن والعمارة الاسلامية.

وقد استفاد العرب من خبرة المعماريين والفنانين في البلاد التي سبقتهم في هذا المضمار وقد ساعد في ذلك الفتوحات التي قام بها العرب لهذه البلاد واختلاطهم بأهلها حيث نشأ عن ذلك استفادة الفن الاسلامي من فنون هذه البلاد مع احتفاظه بخصائصه ومميزاته التي تميزه عن غيره من الفنون – ومع ازدياد الحضارات العربية واتساع الأراضي التي سيطر عليها العرب شرقا وغربا فقد ازدهرت العمارة الاسلامية وسايرها في ذلك الفن الاسلامي الذي كان من أدق وأروع الفنون جميعها.

وقد تطورت العمارة الاسلامية منذ عصورها الأولى بأبسط صورها ثم تطورت حسب الأزمنة والظروف التي مرت بها ومن أوضح الأمثلة لذلك المساجد الأولى في الاسلام وهي المسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة

فالمسجد الحرام سماه الله سبحانه وتعالى بالبيت العتيق وبناه ابراهيم واسماعيل عليهما السلام عندما هاجر الى جبال فاران وهي أرض مكة – فان الخليل دعا الله تعالى (ربنا اني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم. ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون).



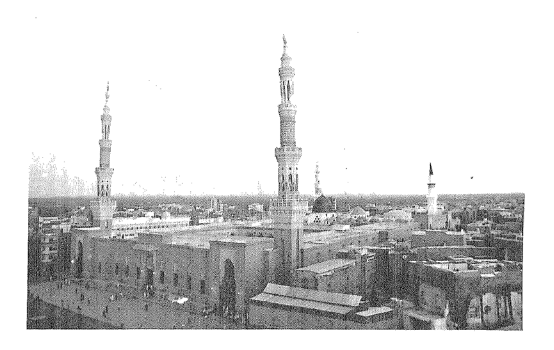
وهذه الاية تدل على وجود بيت الله الحرام عندما هاجر ابراهيم واسماعيل عليهما السلام الى مكة المكرمة وقد اتفق على أن اللهتعالى قد أمر آدم عليه السلام باعادة بناء الكعبة في وادي مكة الذي كانت الملائكة قد شيدتها فيه قبل خلق الانسان وعندما طغى الطوفان وطوى في لجته كل ما على الأرض رفعت الكعبة الى السماء حتى اذا غاض الماء أعاد بناءها في مكانها السابق ثم قام ابراهيم واسماعيل عليهما السلام برفع قواعدها حتى انتهيا الى موضع الحجر وقد امتنع الناس بعد ذلك عن السكنى بجوار هذا المكان الجليل تعظيما وتقديراً وسكنوا الشعاب والكهوف ثم أخذ الناس يقتربون ويقيمون دورهم حتى اكتملت دائرة من المباني حول البيت الحرام من جميع الجهات وكانت بينه وبينهم أرض فضاء سميت بعد ذلك بالمطاف وقد كان تنظيم المباني حول البيت الحرام على أن تكون مخالفة في شكلها عن بناء الكعبة المشرفة وظل هذا الوضع على ماهو عليه قبل الاسلام وحتى عهد الرسول ﷺ ثم عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه الى أن رأى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه — العمل على توسعة رقعة الحرم لتزايد عدد المسلمين وضيق المساحة التي تضم الطواف فأمر باجراء توسعات وزيادات معمارية لاستيعاب الحجاج والمعتمرين الذين كانوا يتزايد عددهم وقام بشراء تلك الدور ودفع قيمتها الى أصحابها ثم هدمها

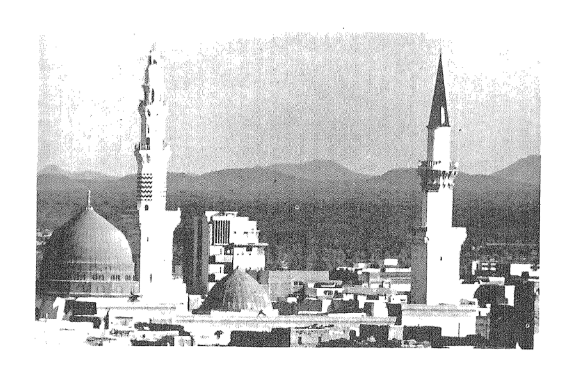
لبناء المسجد مكانها وقال في ذلك (أن الكعبة بيت الله ولابد للبيت من فناء وانكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم).

وأقام للمسجد جداراً فيه بعض الأبواب وجعل فوقها مصابيح تضاء ليلا ثم قام الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بتوسعة أخرى في المسجد وذلك بعد عدد المسلمين المقبلين من كل فج عميق للحج والاعتمار وكان ذلك بعد حوالي تسع سنين من التوسعة الأولى فابتاع عثمان الدور التي تحيط بالمسجد وضمّها اليه وقام بتجديدات في مبانيه وأقام لها رواقا مسقوفا ثم جاء بعده عبد الله بن الزبير وقام بدوره في توسعة المسجد وتجديده على نمط الصالحين الذين سبقوه في ذلك.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك أجريت توسعات كبيرة وجدد في بنائه وقام بزخرفته وكساء أعمدته بالرخام والمواد التي جلبها خصيصا من البلاد كما سقفت أروقته وزينت جدرانه بالاحجار والنقوش.

وفي عام ١٣٩هـ زاد الخليفة أبو جعفر المنصور على يد عامله في مكة زياد





الحارثي في مساحة الأرض التي ضمت للحرم لتوسعته وزاد في عدد أروقته وزينها.

وبعد ذلك بواحد وعشرين عاما أمر الخليفة المهدي بتوسيع مساحة المسجد لضيقها وعدم استيعابها لجموع الحجاج والمصلين فاشترى الدور المجاورة وضمها للمسجد ثم بعد ذلك بأربع سنين أمر بتوسعة أخرى في المسجد وحتى تكون الكعبة المشرفة في المنتصف بعد أن لاحظ أن الكعبة قريبة من الطرف الجنوبي للمسجد.

وفي عهد السلطان سليم العثماني ظهرت بعض التشققات في أبنية المسجد فأمر بترميمها وتجديد التالف منها وهدم بعض الأروقة وبنى أسقفها على شكل قباب ولم تجر فيه تجديدات بعد ذلك الى أن قامت حكومة المملكة العربية السعودية بالتجديد والتوسعة الشاملين عام ١٣٧٥هـ حتى أنه أصبح يتسع الآن لأكثر من ستمائة ألف من المصلين وبعد التجديدات الشاملة لمبانيه كسيت حوائطه بالرخام وحليت بالمرمر والموازيك وأضيفت عليها الأحجار الصناعية التي أضفت عليها رونقا وجمالا ونقشت بنقوش اسلامية عربية دقيقة.

وقد أصبح السعي بين الصفا والمروة على طابقين ليستوعب أكبر عدد من الحجاج وكسيت أرضيته وزيدت أبوابه الى ثمانية أبواب.

أما المسجد فقد بلغ عدد أبوابه خمسة وأربعين بابا غير المداخل الرئيسية وهي باب الملك عبد العزيز وباب السلام وباب العمرة وباب الصفا الرئيسي.

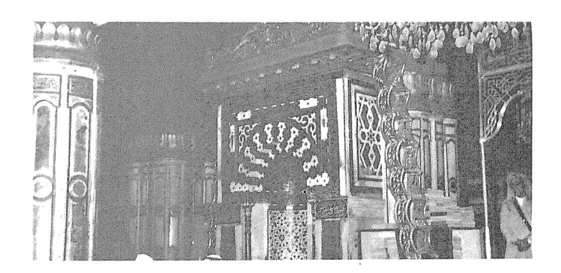
وروعي في الزخارف والنقوش التي زينت بها جدران المسجد بالبساطة المتمشية مع الطرز الاسلامية والعربية من ادخال الزينات العصرية عليها مثل القرميد لتعبر عن التطور الذي مرت به الفنون الاسلامية كما روعي أيضا تطوير مآذن المسجد من حيث أشكالها وارتفاعاتها لتتلاءم والشكل الكلي للحرم بعد أن شملته هذه التوسعات والتجديدات الهائلة.

مراحل تطور بناء المسجد النبوي الشريف

في عهد الرسول الكريم ﷺ كان مسجده في المدينة المنورة أبسط مايكون في معماره فقد كان من اللبن وأساسه من الحجارة وسقفه من الجريد وأعمدته من جذوع النخيل. وقد زاد عليه النبي ﷺ بعد أن زاد عدد المسلمين وبدا المسجد لا يتسع لهم فأصبح بعد هذه الزيادة مربع الشكل طول ضلعه مائة ذراع بعد أن كان مستطيلا طوله سبعون ذراعا وعرضه ستون ذراعا وأصبح ارتفاعه سبعة أذرع بعد أن كان خمسة فقط، وقد زاد فيه عمر بن الخطاب الى أن أصبح طوله مائة وأربعين ذراعا وعرضه مائة وعشرين ذراعا وارتفاعه أحد عشر ذراعا وظل بناؤه باللبن والجريد والسقف من جذوع النخيل.

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان غير في بنائه فجعله بالحجارة المزينة وجعلت الأعمدة من قضبان الحديد وسقفه بالساج وزاد أيضا في مساحته الى أن صار مائة وخمسين ذراعا وعرضه مائة وثلاثين ذراعا.

فجاء الوليد بن عبد الملك فغير تغييرا شاملا في البناء وزاد في مساحته



ويعتبر هذا التجديد خطوة التطور لعمارة المسجد النبوي واستعان في ذلك بخبرة العمال المهرة من الروم الذين جلبهم من بلاد الروم وأيضا بعمال من الشام أيضا واستعان أيضا بمواد البناء والتزيين وبعث اليه ملك الروم الذهب والفسيفساء لتجميل الأبنية وعمل النقوش والزخارف والتشكيلات الفنية التي تميز بها بعد ذلك.

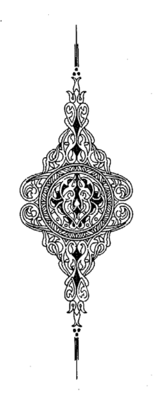
وقد اكتمل للمسجد بهذه الزيادة العناصر الرئيسية التي تقوم عليها المساجد واستهل ذلك اقامة المآذن بشكلها الحالي كما أدخل عليه المحراب.

وقد قام بعد ذلك بعض الخلفاء بتجديد وترميم المسجد والزيادة في مساحته منهم الخليفة المستعصم بالله والأشرف قايتباي ثم السلطان عبد المجيد خان وكان ذلك في عام ١٢٦٣هـ. وظلت العمارة في المسجد النبوي على ما هي عليه الى أن جاء عهد الدولة السعودية فجددت فيه مرتين أولاهما في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود فقد أمر بضم المباني حول المسجد لزيادة مساحته وكانت هذه التوسعة أكبر توسعة في الحرم النبوي منذ انشائه.

أما المرة الثانية التي تم فيها توسعة المسجد في عهد الدولة السعودية فكانت في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز وقد استخدم فيها عدد كبير من المهندسين والفنيين المتخصصين مع أحدث الوسائل في فن المعمار الحديث.

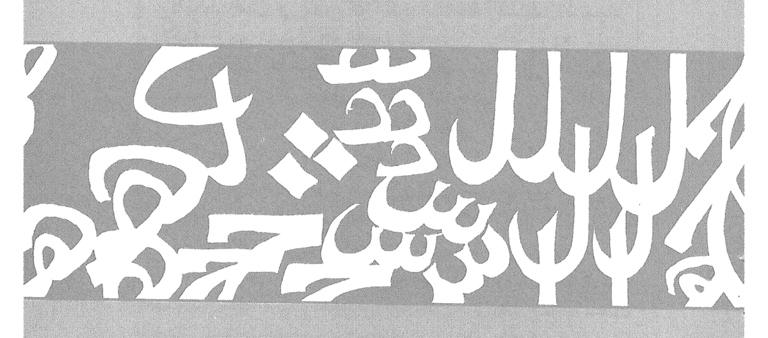
المصادر والمراجع

١ – المسالك والممالك : ابن اسحق الاصطخري – القاهرة
٢ – الروض الأنف : عبد الرحمن السهيلي – القاهرة
٣ – مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودي – بيروت
٤ – فتوح البلدان للبلاذري
٥ – تاريخ اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب – بيروت
٦ – التاريخ الاسلامي : علي ابراهيم حسن – القاهرة



العدل في الممنوع من الصرف

بقلم الدكتور عبد الكريم الأسعد



تعريف العدل وفرق ما بينه وبين الاشتقاق :

من المعروف أن العدل عن صيغة الى أخرى في نحو عمرو ثُلَاث بضم الثاء – اذا اجتمع مع العلمية أو الوصفية كان من موانع الصرف، والعدل اشتقاق اسم عن اسم على طريق التغيير له، نحو اشتقاق عمر من عامر، والمشتق فرع علي المشتق منه، والفرق بين العدل وبين الاشتقاق الذي ليس بعدل أنّ الاشتقاق قد يكون لمعنى آخر أُخذ من الأول كضارب من الضّرب، فهذا ليس بعدل، ولا من الأسباب المانعة من الصرف، لأنه اشتُقّ من الأصل بمعنى الفاعل، وهو غير معنى الأصل الذي هو الضرب، والعدل هو أن تريد لفظاً ثم تعدل عنه الى لفظ آخر، فيكون المسموع لفظاً والمراد غيره، ولا يكون العدل في المعنى، انما يكون في اللفظ، فلذلك كان سببا لأنّه فرع على المعدول عنه، فعمر علم معدول عن عامر، وهو علم أيضاً، وكذلك زفر معدول عن[1] زافر علم كذلك، الى هذا العلم تنسب الزّافريّة، وقُثم معدول عن قاثم علماً، وهو منقول من القاثم، وهو اسم الفاعل من قَثَمَ إذا أعطى كثيراً، وزُحَل معدول عن زاحل، سُمّي بذلك لبعده.

وقد بيّن ابن الناظم المراد بالعدل، وأوضح كيف يكون في اللفظ دون المعنى، وساق الأمثلة على ذلك، ثم أردف باعتراض وأجاب عليه فقال «المراد بالعدل تغيير اللفظ بدون المعنى، ولذلك صرف نحو ضروب وشرّاب ومنحار لأنّها وإن كانت صفات محوّلة من فاعل فهي غير معدولة لأنها انتقلت بالتحويل الى معنى المبالغة والتكثير، فإن قلتَ فهلاّ مُنع صرف فعيل بمعنى مفعول نحو جريح وذبيح قلتُ لأنّه قبل النقل من مفعول كان يقبل معناه الشدّة والضعف، وبعد النقل الى فعيل لم يصلح إلّا حيث يكون معنى الحدث فيه أشدّ، ألا ترى أنّ من أصيب في أنملته بمدية يسمّي مجروحا ولا يسمى جريحا، فلما كان النقل مُخْرجاً له عمّا كان يصلح له قبل لم يكن عدلاً، لأنه

يتغير اللفظ بتغيير المعنى فلم يستحق المنع من الصرف، على أنّا نمنع أنّ فعيلاً بمعنى مفعول مأخوذ من لفظ المفعول على وجه العدول، بل ممّا أُخِذَ المفعول منه»(٢).

وفي النهاية عرض الشارح لما ذهب إليه الزجاج من أن المانع من الصرف في أحاد واخوانه العدل في اللفظ والمعنى، وأنّ العدل في اللفظ ظاهر، وأنه من جهة كونها تغيرت عن مفهومها في الأصل إلى إفادة معنى التضعيف، أنّ هذا الذي ارتآه الزجاج «فاسد من وجهين أحدهما أن أحاد مثلاً لو كان المانع من صرفه عدله عن لفظ واحد وعن معناه إلى معنى التضعيف للزم أحد الأمرين، وهو إمّا منع صرف كل اسم مغير أصله لتجدد معنى فيه كأبنية المبالغة وأسماء الجموع، وإما ترجيح أحد المتساويين على الآخر، واللازم منتف باتفاق، والثاني أنّ كل ممنوع من الصرف فلابد أن يكون فيه فرعية اللفظ وفرعية المعنى، ومن شرطها أن تكون من غير جهة فرعية اللفظ ليكمل بذلك الشبه بالفعل، ولا يتأتّى ذلك في أحاد، إلّا أن تكون فرعيته في اللفظ بعدله عن واحد المتضمّن معنى التكرار، وفي المعنى بلزومه الوصفية، وكذا القول في اخواته».

وقال الرضي الاستراباذي(٣) تعليقا على قول ابن الحاجب «العدل خروجه عن صيغته الأصلية تحقيقا كثُلاث ومثِلْث وأُخَرَ وجُمَع، أو تقديراً كعُمَر وباب قَطَام في تميم» ما ملخصه: العدل إخراج الاسم عن صيغته الأصلية بغير القلب لا للتخفيف ولا للالتحاق ولا لمعنى، فقولنا بغير القلب ليخرج نحو أيسَ في يَئِسَ، وقولنا لا للتخفيف احتراز عن نحو مَقَام ومَقُول وفَخْذ وعُنْق، وقولنا ولا للالحاق ليخرج نحو كَوْثر، وقولنا ولا لمعنى ليخرج نحو رُجَيل ورجال، ويعني بالعدل المحقق ما له دليل غير المنع من الصرف بحيث لو وجد منصرفا لكان هناك طريق إلى معرفة كونه معدولاً، بخلاف العدل المقدّر فإنه الذي يصار إليه لضرورة وجدان غير منصرف وتعذّر سبب آخر غير العدل، فإنّ عمر مثلاً لو وجدناه منصرفاً لم نحكم قطّ بعدله عن عامر بل كان كأُدَد، وأمّا ثُلاث ومَثلث فقد قام دليل على أنّهما معدولان عن ثلاثة ثلاثة، وذلك أنّا وجدنا ثلاث، وثلاثه ثلاثه، بمعنى واحد، وفائدتهما تقسيم أمر ذي أجزاء على

هذا العدد المعيّن، ولفظ المقسوم عليه في غير لفظ العدد مكرّر على الاطراد في كلام العرب نحو قرأت الكتاب جزءاً جزءاً، وجاءني القوم رجلاً رجلاً، فكان القياس في باب العدد أيضاً التكرير عملاً بالاستقراء وإلحاقا للفرد المتنازع فيه بالأعم الأغلب، فلمّا وُجد ثُلَاث غير مكرر لفظا حُكِم بأن أصله لفظ مكرر، ولم يأت لفظ مكرر ثُلَاث إلّا ثلاثة ثلاثة فقيل انّه أصله.

أنواع المعدول وبابه :

المعدول على ضربين معرفة ونكرة، فالمعرفة نحو عمر وزفر، وهو من قبيل المرتجل، لأنّه يغيَّر في حال العلمية، فلو نُكِّر لانصرف نحو قولك : مررت بعُمَرٍ وعُمَرٍ آخر، لبقائه بلا سبب، لأنّه لمّا زال التعريف بالتنكير زال العدل أيضاً، إذ ماكان عدل إلّا عن معرفة علم، فإذا نكّر لم يكن ذلك العَلَمُ مراداً فانصرف.

وأما المعدول في حال التنكير فنحو أحادَ وثُلاثَ ورُباعَ وما كان منها نكرات بدليل قوله تعالى : «أولي أجنحةٍ مثنى وثُلاثَ ورُبَاع»(٤).

فمثنى وثلاث ورباع في موضع الصفة لأجنحة وهي نكرة.

وقول ساعدة بن جُؤيَّة :

ولكنّما أهلي بوادٍ أنيسُــه ذئاب تَبَغَّى الناس مثنى ومَوْحَدُ

فأجراه وصفاً لذئاب وهو نكرة، وصفة النكرة نكرة، والمانع له من الصرف على هذا الوصفُ والعدلُ عن العدد المكرّر، فأمّا الوصف فظاهر، وأمّا العدل فالمراد بمثنى اثنين اثنين، وكذلك ثلاث ورباع، فالعدل هنا يوجب التكرير، فاذا قال جاء القوم ثلاث ورباع فمعناه أنهم تحزّبوا وقت المجيء ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة، وقالوا مَوْحَد كمثنى ومَثْلَث، فان سمّي رجل بمثنى وثلاث ورباع ونظائرها

انصرف في المعرفة، فتقول فيه هذا مثنىً وثلاث بالتنوين، لأنّ الصفة بالتسمية قد زالت وزال العدل أيضاً، لزوال معنى العدد بالتسمية، وحدث فيه سبب آخر غيرهما وهو التعريف، فانصرف لبقائه على سبب واحد(٥).

هذا ولا يحصى ما في جميع كتب اللغة والنحو من التصريح بعدل عمر من عامر، وقياس زفر ودُلَف ومضر وغُبَر وجُشَم ونحوها عليه، ومن منعها من الصرف وجرّها بالفتحة، لما ورد من ذلك بكثرة في نثرهم وشعرهم، وفي أحاديث الرسول ﷺ وكلام الصحابة، والصواب جواز استشهاد النحويّ بالحديث الشريف، بل بما روي عن الصحابة وأهل البيت كما فعل الرضي والاسترابادي.

والأئمة الثقات الذين شافهوا العرب قد أجمعوا على منع عمر وأمثاله كما سمعوا من العرب نثراً ونظماً، ومعلوم أن زيادة الواو في عمرو للتفرقة بينهما قديمة العهد في الصدر الأول، والأشعار العربية ملأى بذلك. وهؤلاء الأئمة الثقات الذين نقلوا إلينا علوم اللسان العربيّ المبني عليه الدين، كما نقلوا إلينا كون الأصل في الأسماء كذا، وغير ذلك، وهم ثقات عدول فتخطئتهم فيما أجمعوا عليه وتلقته بعدهم علماء الأمة بالتسليم منذ قرون عديدة تجرّ إلى الطعن في الدين، إذ الأساس انما هو السماع فلا مجال للرأي، فالمعدول بابه السماع، يدلّ عليه أنّهم لم يقولوا في مالك مُلَك، ولا في حارث حُرَث، كما قالوا عمر وزفر.

على كل حال لو نوزع في التماس علة العدل لكان ثمة نوع شُبْهة، لأنّ المنع مقطوع به بالسماع، غايته أنّهم التمسوا العدل لتكون علة أخرى مع العلمية، ولمّا لم يمكن اعتبار علة أخرى سوى العدل حكموا به، حتى إنّهم لمّا أمكن لهم التماس سواه التمسوه، ألا تراهم منعوا طوى للعلمية والتأنيث ولم يلتجئوا فيها إلى العدل إذ لم تُعْوزهم الحاجة إليه.

من هنا يمكن التأكيد أنه لا طريق للعلم بهذا النوع أي المعدول تقديراً

سوى سماعه غير مصروف مع علة العلمية فقط، فيقدّر فيه العدل لئلا يترتب المنع على علة واحدة، فلو سمع مصروفاً لم يحكم بعدله كأُدَد، فالعرب صرفوه وجعلوه بمنزلة ثُقَب ولم يجعلوه بمنزلة عمر، وهذا صريح في ابطال توهّم أنّه منقول عن جمع عمرة، وكذا غير العلم من اسم الجنس كنُغَر وصُرَد، والصفة كحُطَم ولُبَد، والمصدر كهُدىً وتُقىً، والجمع كغُرَف ولُخَم وعُمَر جمع عَمْره، فكل ذلك معدول، وكذا لو وجد له مع العلمية علة غير العدل كطُوَى، بخلاف العدل في نحو جُمَع وسَحَر وأُخَر ومَثْنى فإنه يدلّ عليه ورود اللفظ على خلاف ما يستحقّه مع اتحاد المعنى.

ضروب فُعَل وحكمها :

من المعلوم أنّ فُعَل يأتي من المعدول علماً كعمر وزفر وقثم وزحل من عامر وزافر وقاثم وزاحل وهو ممنوع من الصرف، ولكن إذا جاء فُعَل اسماً معروفاً في الكلام أو صفة فهو مصروف، والاسم المعروف في الكلام على ضربين، أحدهما أن يكون واحداً من جنس، أو جمعاً لواحد من جنس، فالاسم الذي لواحد من جنس نحو صُرَد ونُغَر وخُزَر وجُعَل وسُبَد[٦]. وما أشبه ذلك، والجمع نحو ثُقَب وحُفَر[٧] وظُلَم وما أشبه ذلك، والصفة نحو: هذا رجل حُطَم كما في قول الحُطَم القَيْسيّ[٨]:

هذا أوان الشدّ فاشتدّي زِيَمْ .. فدلفّها الليل بسَوَّاق حُطَم
.. ليس براعي إبل ولا غنم[٩] ..

ونحو : خُتَع وسُكَع[١٠]، فلو سمّي بشيء من ذلك لانصرف لأنّه منقول من نكرة، واعتبار العدل من ضروب فَعَل بامتناع الألف واللام منه، وقد عَرَّفَنَا أنه معدول أنّه ورد في اللغة غير منصرف، وليس فيه من موانع الصرف سوى التعريف.

وفي الكتاب[١١] أن هذه الأسماء إنما صرفت لأنها ليست كالاسم الذي

يشبه الفعل الذي في أوله زيادة، وليست في آخرها زيادة تأنيث، فصار ما كان منه اسما ولم يكن جمعا كحَجَر ونحوه، وما كان منه جمعا بمنزلة كِسَر وإبَر وما كان منه صفة بمنزلة قولك هذا رجل عُمَل إذا أردت كثيرا العمل، وبمنزلة رجل شُكَل إذا كان خفيفاً في عمله. فأما عمر وزفر فإنهم مَنَعَهم من صرفهما وأشباههما أنهما ليسا كشيء مما ذكرناه، وانما هما محدودان عن البناء الذي هو أولى بهما، وهو بناؤهما في الأصل، فلما خالفا بناءهما الأصليّ تركوا صرفهما، وذلك نحو عامر وزافر، ولا يجيء عمر وأشباهه محدودا عن البناء الذي هو أولى به إلّا وذلك البناء معرفة، كذلك جرى هذا الكلام، فإن قلت عُمَرٌ آخر صرفته لأنه نكرة فتحَوَّل عن موضع عِامر معرفة، وإن حقّرته صرفته لأنّ فُعَيْلا لا يقع في كلامهم معدولاً عن فُوَيْعِل فصار تحقيره عمرو، كما صارت نكرته كصُرَد وأشباهه.

وقد سمّى سيبويه المعدول محدوداً لأن المحدود عن الشيء هو الممنوع، والمعدول عنه في نحو معناه.

قال سيبويه سألت الخليل عن جُمَع وكُتَع فقال هما معرفة بمنزلة «كلهم» وهما معدولتان عن جَمْع جَمْعَاء وجَمْع كَتْعَاء، وهما منصرفان في النكرة.

وعلى كل حال فإنّ عدل فُعَل عن فاعل، وفَعَالِ عن فاعله معنى مفهوم في كلامهم يريدون به التوكيد والمبالغة، وذلك كقولهم في النداء: يافُسَق ويافَسَاقِ للأنثى، ويانُحبَث، وياخَبَاث، وياغُدَر وياغَدَار، يؤكدون فيها الخبث والفسق والغدر، وهي أسماء معارف بالنداء، وكذلك يعدلون في الأسماء الأعلام فيقولون عُمَر وزُفَر وقُثَم وجُشَم وما أشبه ذلك للمذكر، وجذام وقطام ورقاش وما أشبه ذلك، فإذا نكّرته فزال التعريف انصرف، لأنه لم يبق إلّا العدل، وإن صغّرته زال عن لفظ العدل وساوى تصغير عمرو، فساوى ماليس بمعدول، وقد كان يجوز أن يصغَّر عامر على عُمَيْر باسقاط الزائد من غير عدل، فأبطل التصغير مذهب العدل، ولم يكن المصغر معدولاً عن مصغّر فيجتمع فيه في حال التصغير العدل والتعريف.

منع صرف موازن فُعَل العلم وشواهد على ذلك :

يشترط منع صرف موازن فُعَل إذا كان علماً اجتماع شرطين قبل العلمية هما ثبوت فاعل، وعدم فُعَل، لذلك كان الواجب صرف عمر وزفر علمين لأنهما قد وجد لهما قبل العلمية فاعل كعامر وزافر من زَفَر كضَرَب، وفُعَل كعُمَر جمع عُمْرة، لكنّهما لمّا سُمِعَا ممنوعين حكمنا بأنهما علمان غير منقولين عن فُعَل الجنسي، بل معدولان عن فاعل.

وبإيضاح أكبر نقول إنّ فَعَل العلم لمّا سمع ممنوعا من الصرف كعمر وزفر وزحل وقثم، وسمع فُعَل اسم الجنس مصروفاً كصُرَد ونُغَر وحُطَم ولُبَد وجُرَذ وقُذَذ وخُزَز، حكم العلماء الذين شافهوا العرب وسمعوا ذلك منهم بأنّ الممنوع معدول عن فاعل لا عن اسم الجنس، وأنّ اسم الجنس لو سمّي به بقي على صرفه، يدلّ عليه أنّ الأعشى أدخل عليه «أل» وأنشد:

أخو رغائبَ يعطيها ويسئِلها   يأبَى الظُّلامةَ منه النّوْفَل الزُّفَر(١٢)

فدخول اللام عليه يعني أنّ زفر الذي ليس بمصروف غير هذا لدخول اللام، ولو سميت بزفر هذا بعد تجريده من اللام رجلاً لصرفته لأنه حينئذ كصُرَد ونُغَر.

وقد جاء فُعَل ممنوعاً في الشعر كثيراً، ومن هذا الشعر قول الخنساء:

معاذ الله يرضعني(١٣) حَبَرْكَى   قصير الشّبْر من جُشَمَ بن بكر

وقول حاتم :

فليت شعري وليتٌ غير مُدركة   لأيّ حال بها أضحى بنو ثُعَلا

وقول الجعديّ :

فهاجها بعدما رِيعت أخو قَنَص عار الأشاجع من نَبْهانَ أو ثُعَلا

وقول الأخطل :

تنزو النعاج عليها وهي باركة تحكى عطاء سُوَيْد من بني غُبَرا

وقول القُطامي :

جزتكم يا بني جُشَمَ الجوازي

وقول ذي الرمة في عمر بن هبيرة :

أقول للركْب إذ مالت عمائمهم شارفتمُ نفحاتِ الجو من عُمَرا

إلى أن قال :

مازلتَ في درجات الأمر مرتقياً تنمى وتسمو بك الفُرعانُ من مُضَرا

وقول جرير أو الفرزدق في عمر بن عبد العزيز :

أشبهت من عُمَرَ الفاروق سيرته فاق(١٤) البريّة وأتمَّت به الأمم

وقول الكميت :

أهوى عليّاً أمير المؤمنين ولا أرضى بسبّ أبي بكر ولا عُمَرَا

وقول الفرزدق في عمر بن عبيد الله :

إنّ الأرامل والأيتام إذ هلكوا والخيل إذ هُزِمَتْ تبكي على عمرا

إلى أن قال :

لقد رزئتم بني يتم وغيركم على نوائبها الخيرين من مضرا

وقد ذُكِرَ عمرُ العلم في جميع كتب السنّة ممنوعاً من الصرف دائما مخفوضاً بالفتحة حالة الجرّ، من ذلك قول الرسول ﷺ : ورأيت قصراً بفنائه جارية فقلت لمن هذا فقالت لعمرَ، وقوله أيضا: إنّي لأنظر الى شياطين الانس والجن قد فرّوا من عمـرَ، إلى مالا يحصى من الأحاديث الصحيحة متنا وسندا.

وكما جاء فُعَلٌ من الصرف في الشعر كثيراً فقد جاء فيه مصروفاً قليلاً، ومجيء عمر تارة مصروفا في الشعر، وكون الأصل في الأسماء الصرف يجاب عنهما بأن الشعر ضرورة، وأنّ مجيئه فيه مصروفاً على قلّة هو من هذا القبيل، وهو في هذا كمنع المصروف في قول العباس بن مرداس :

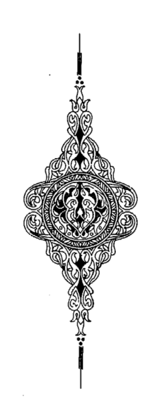
فما كان حِصنٌ ولا حابس يفوقان مِرْدَاسَ في مَجْمَع

بقطع النظر عن كون الضرورة ما وقع في الشعر مطلقاً أو في بندحة[١٥]، والأئمة لم يستدلّوا على المنع بالشعر لما تقرّر أنّه بمجرّده لا تثبت به قواعد العربية، لأن الشعر وحده ليس بحجّة، بل إنما تثبت بالكلام، فإن وافقه الشعر فذاك وإلّا عدّ ضرورة[١٦].

وما قالوه في صرف «سبأ» ومنعه في القرآن والشعر من أنه لولا

شهرة الوجهين في الكلام وقد أتت بهما القراءة ما كان في صرفه في الشعر حجة، بل استدلوا بمشافهة العرب نثراً.

أما كون الأصل في الأسماء الصرف فلا يقتضي أنّ جميعها مصروف، لأنّ الأصل فيها الاعراب أيضاً مع كثرة مبنيّاتها، والأصل في الأفعال البناء مع كثرة معرباتها، مع أنّ لفظة الأصل تدلّ على أنّ ثمّة خارجاً عنه، فضلاً عن أنّ هؤلاء الأئمة الذين نقلوا إلينا المنع هم الذين نقلوا إلينا أن الأصل في الأسماء كذا ونحو ذلك.



مصادر البحث ومراجعه

١ – حمزة فتح الله، المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية، طبعة المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٣٢٦هـ.

٢ – الرضي الاستراباذي، شرح الكافية في النحو لابن الحاجب طبعة سنة ١٣١٠هـ، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

٣ – سيبويه، الكتاب، طبعة بولاق سنة ١٣١٦هـ.

٤ – ابن الناظم، شرح ألفية ابن مالك، طبعة سنة ١٣١٢هـ منشورات ناصر خسرو، بيروت.

٥ – ابن يعيش، شرح المفصّل للزمخشري، طبعة المنيرية بمصر، بدون تاريخ.

الهوامش

(١) الزّافر من زفَرَ الحَمْلَ يَزْفِرُه إذا حمله.

(٢) شرح ابن الناظم لألفية والده : ٢٤٩ – ٢٥٠.

(٣) انظر شرح الرضي على كافية ابن الحاجب ١ : ٤١.

(٤) آية ١ من سورة فاطر.

(٥) انظر ابن يعيش على مفصّل الزمخشري ١ : ٦١ – ٦٣.

(٦) اسم الطائر.

(٧) جمع ثُقْبَة وحُفْرة وظُلمه.

(٨) ويروى أيضاً لأبي زغبة الخزرجي، ويروي كذلك لرُشيد بن رميض العنزي.

(٩) لفّها : الضمير للإبل، أي جمعها الليل بسائق شديد عنيف، والحطم الشديد السوق للإبل كأنه يحطم ما مرّ عليه لشدّة سوقه، والحطم اسمه شريح بن ضبيعة، وقد قال فيه الشاعر الرجز مادحاً، والشاهد فيه نعت سوّاق بحطم لأنه نكرة وليس بمعدول عن حاطم لأنّ فُعَل لا يعدل عن فاعل إلّا في باب المعرفة نحو عمر وزفر.

(١٠) الخُتَع : الدليل. السُّكَع : الذي يتسكّع في الأمر.

(١١) انظر سيبويه، الكتاب ٢ : ١٣ – ١٥.

(١٢) الرغيبة العطاء الكثير، والظُّلامة ما تطلبه عند الظالم، وهو اسم ما أخذه منك، والنوفل البحر والرجل المعطاء، والزّفر كصُرَد الأسد، والكثيرُ الناصرِ والأهلِ والعُدّةِ، والسيّد لأنه يزدفر أي يتحمّل باموال في الحمالات من دَيْن ودية مطيقاً لها، ومعنى البيت : انّه يعطي ما يرغب الرجال في ادخاره ويحرصون على التمسّك به لنفاسته.

(١٣) وروى (يرصعني) بالصاد المهملة، و(ينكحني)، و(فلست بمرضع ثديي).

(١٤) وروي (قاد البريّة).

(١٥) يقال بندحه بضم النون وفتحها.

(١٦) انظر حمزه فتح الله، المواهب الفتحية ٢ : ١٤ – ١٥.

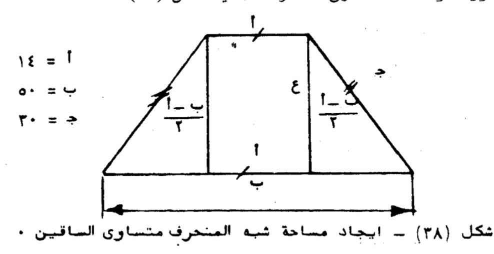
بعض جهود علماء العرب والمسلمين في علم الهندسة

بقلم / الدكتور علي عبد الله الدفاع

بدأ علماء المسلمين بدراسة هندسة الأغريق دراسة مستفيضة قبل أن يقوموا بتعميم بعض النظريات الهندسية، وإقامة براهين مبتكرة على البعض الآخر، ونشير هنا بوجه خاص إلى تعميم نظرية فيثاغورث، وإلى علماء المسلمين فيما يختص بفرضية التوازي أو المصادرة الخامسة من مصادرات اقليدس، واستخدام الجبر في تعيين مساحات الأشكال وحجوم الأجسام. هذه لمحة سريعة لا تعدو كونها إشارة فحسب إلى بعض فضل علماء المسلمين في مجال الهندسة.

تعميم نظرية فيثاغورث لأي مثلث :

ورد في كتاب «موجز تاريخ الرياضيات» لهشام الطيار ويحيى عبد سعيد: «إن قدماء المصريين استطاعوا بطريقة بسط الحبل وتقسيمه بواسطة عقد بنسبة ٣ : ٤ : ٥ رسم زوايا قوائم واستخدام هذه الفكرة على شكل مثلث قائم الزاوية في بنائهم أهرامات الجيزة الثلاثة المعروفة في مصر. أما البابليون فقد عرفوا قياس مساحة المستطيلات، والمثلثات المتساوية الساقين، والقائمة الزاوية، وشبه المنحرف، ويظهر من ذلك نظرية فيثاغورث تماما، وقد وجد مكونم (R. de Mecguenem) ألواحا من الطين في عام ١٩٣٤م بمدينة سوس، فضلا عما ظهر في كتابات أرشميدس وهيرون وديوفانتوس، وهي توضح أن البابليين استطاعوا إيجاد مساحة حقل على شكل شبه منحرف، بمعرفة قيمة الضلعين المتوازيين والضلعين الآخرين المتساويين كما في شكل (٣٨).



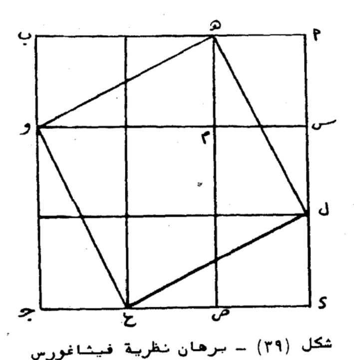
شكل (٣٨) ـ ايجاد مساحة شبه المنحرف متساوى الساقين ٠

$$\text{ع} = \sqrt{\text{حـ}^{٢} - \left(\frac{\text{ب} - \text{أ}}{٢}\right)^{٢}} = \sqrt{(٣٠)^{٢} - \left(\frac{٣٦}{٢}\right)^{٢}} = \sqrt{٩٠٠ - ٣٢٤} = \sqrt{٥٧٦} = ٢٤$$

$$\therefore \text{مساحة شبه المنحرف} = \left(\frac{\text{أ} + \text{ب}}{٢}\right)\text{ع} = \left(\frac{٥٠ + ١٤}{٢}\right)٢٤ = ٧٦٨$$

من هذه الحقيقة يتبين لنا جليا أن البابليين كانوا على معرفة جيدة بنظرية المثلث قائم الزاوية، المعروفة بنظرية فيثاغورث وقانون مساحة شبه المنحرف.

أعطى ثابت بن قرة جزءا كبيرا من وقته للتطوير والتجديد في نظرية فيثاغورث التي تقول: «إن مربع الوتر في المثلث قائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين القائمين». وهذه النظرية نسبت للفيلسوف الاغريقي فيثاغورس الذي عاش فيما بين عامي ٥٨٤ – ٤٩٥ ق.م لأنه أول من برهن عليها بطريقة رياضية علمية. وقد ذكر الدكتور و.و. روس، برهانا لهذه النظرية في كتابه «ملخص تاريخ الرياضيات». ويجدر بنا هنا أن نقدم ملخصا لهذا البرهان:



شكل (٣٩) – برهان نظرية فيثاغورس

البرهان :

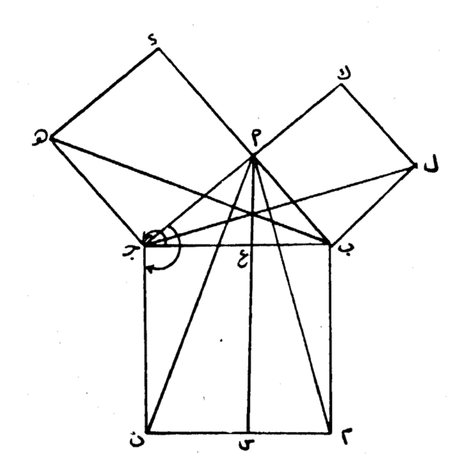
المربع أ ب جـ د = المربع هـ و ع ل + ٤ هـ ب و (شكل ٣٩) (١)

المربع أ ب جـ د = المربع م و جـ ص + المربع م هـ أ س + ٤ هـ ب و (٢)

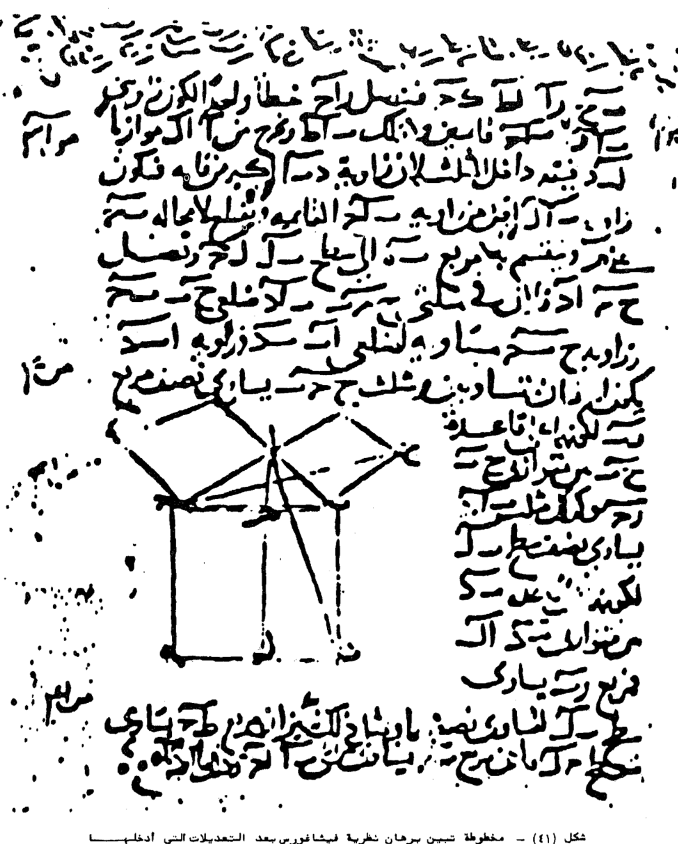
من (١)، (٢) : المربع هـ و ع ل = المربع م و جـ ص + المربع م هـ أ س

لذلك $\overline{\text{هـ و}}^2 = \overline{\text{م و}}^2 + \overline{\text{م هـ}}^2$

وقد قام ثابت بن قره عام ٨٩٠م بتنقيح هذا البرهان بأن أدخل عليه بعض التعديلات كالآتي:



شكل (٤٠) ـ تنقيح ثابت بن قرّه لبرهان نظرية فيثاغورس



شكل (٤١) – مخطوطة تبين برهان نظرية فيثاغورس بعد التعديلات التى أدخلها ثابت بن قرة الحرانى (٨٢٦ – ٩٠١ ميلادية) على البرهان سنة ٨٩٠ م .

(نسخت المخطوطة للمرة الثانية عام ١٣٥٠ ميلادية) .

البرهان :

صل ب هـ ، أ ن ، ارسم أ ع س // ب م ليقطع ب حـ في نقطة ع (شـــــكلا ٤٠، ٤١)

$\triangle$ هـ حـ ب = $\triangle$ أ حـ ن حيث ان
$\measuredangle$ هـ حـ ب = $\measuredangle$ أ حـ ن
ب حـ = حـ ن
هـ حـ = حـ أ
(١)

مساحة المستطيل ع س ن حـ = ٢ مساحة $\triangle$ أ حـ ن حيث ان القاعدة المشتركة للمثلث والمستطيل هي حـ ن ، حـ ن // أ س (٢)

كذلك مساحة المربع د أ حـ هـ = ٢ مساحة $\triangle$ هـ حـ ب حيث ان القاعدة المشتركة للمثلث والمربع هي حـ هـ ، هـ حـ // د ب (٣)

من المعادلات (١)، (٢)، (٣) نجد أن مساحة المستطيل ع س ن حـ = مساحة المربع د أ حـ هـ (٤)

وبالمثل $\triangle$ حـ ل ب = $\triangle$ م أ ب حيث ان
$\measuredangle$ ل ب حـ = $\measuredangle$ أ ب م
ل ب = أ ب
ب حـ = ب م
(٥)

مساحة $\triangle$ أ ب م = $\frac{1}{2}$ مساحة المستطيل ب م س ع حيث ان القاعدة المشتركة هي م ب ، أ س // ب م (٦)

مساحة $\triangle$ حـ ل ب = $\frac{1}{2}$ مساحة المربع ك ل ب أ حيث ان القاعدة المشتركة هي ل ب ، ك حـ // ل ب (٧)

من المعادلات (٥)، (٦)، (٧) نجد أن مساحة المربع ك ل ب أ = مساحة المستطيل ب م س ع . (٨)

وكذلك من المعادلتين (٤)، (٨) يتضح أن مساحة المربع ك ل ب أ + مساحة المربع

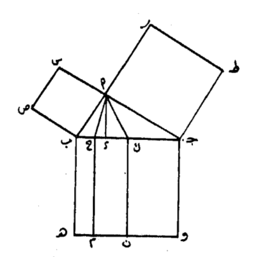
د أ حـ هـ = مساحة المستطيل ع س ن حـ + مساحة المستطيل ب م س ع

.·. مساحة المربع ب م ن حـ = مجموع مساحة المربعين ب ل ب أ + د أ حـ هـ

مع ملاحظة أن :

$$\overline{ب حـ}^2 = \overline{أ ب}^2 + \overline{أ حـ}^2$$

هذا ولم يقف ثابت بن قرة عند هذا الحد بل إنه ابتكر ما نسميه نظرية جديدة ،وتنطبق على أى مثلث مختلف الأضلاع وهى : $\overline{أ ب}^2 + \overline{أ حـ}^2$ = ب حـ (ب ع + ك حـ) (شكل ٤٢) ، وقد وردت هذه النظرية فى مخطوط ه الموجود فى مكتبة أيا صوفيا فى تركيا والتى حققها أ. سيهيلى ، وذكرها كل من كارل بوير فى كتابه " تاريخ الرياضيات " وهوارد ايفز فى كتابه " تاريخ الرياضيات ":" ان ثابت بن قرة عمم نظرية فيثاغورس لأى مثلث أ ب حـ بشرط أن نقطتى ك وع تقعان على الضلع ب حـ . وكذلك ∢ أ ع ب = ∢ أ ك حـ = ∢ أ ، ومن ذلك استنتج أن :
$\overline{أ ب}^2 + \overline{أ حـ}^2$ = ب حـ (ب ع + ك حـ) .



شكل(٤٢) ـ تعميم ثابت بن قرة لنظرية فيثاغورس

البرهان :

ارسم من رأس المثلث المستقيمات أ ع ، أ ك ، أ د حيث ان ∢ أ ع ب = ∢ أ ك حـ = ∢ أ .

اعتبر ثلاث حالات :

الحالة الأولى : اذا كانت ∢ أ منفرجـــة .

حيث ان مساحة المربع أ ب ص س = مساحة المستطيل ح م هـ ب

وأيضا مساحة المربع أ جـ ط ر = مساحة المستطيل ك ن و هـ

وحيث ان ب هـ = و جـ = و هـ = جـ ب

لذلك فان : $\overline{أ ب}^2 + \overline{أ جـ}^2$ = ب هـ × ب ح + و جـ × ك جـ

= ب جـ × ل ح + ب جـ × ك جـ

= ب جـ (ب ح + ك جـ)

لذلك فان مساحة المربع أ جـ ط ر + مساحة المربع أ ب ص س = مساحة المربـــــــع جـ ب هـ و ــ مساحة المستطيل ك ن م ح .

الحالة الثانية : اذا كانت زاويـــــة أ حادة

اعكس مكان نقطتي ك ، ح واعتبر أن أ د عمودي على ب جـ

وكما عمل في الحالة الأولى : $\overline{أ ب}^2 + \overline{أ جـ}^2 = \overline{ب جـ}^2$ + مساحة المستطيل $\overline{ك ن م ح}$

الحالة الثالثة : اذا كانت زاويـــــة أ قائمة

يلاحظ أن نقطتي ك ، ح تنطبقان على نقطة د

لذلك فان المثلث ب جـ أ يكافىء المثلث ب أ د علماً بأن $\frac{ب جـ}{أ ب} = \frac{أ ب}{ب د}$

$\overline{أ ب}^2$ = ب جـ × ب د (١)

بالمثل △ جـ ب أ يكافىء △ جـ أ د علما بأن $\frac{جـ ب}{أ جـ} = \frac{أ جـ}{جـ د}$

$\overline{أ جـ}^2$ = جـ ب × جـ د (٢)

من المعادلتين (١)،(٢) نجد أن : $\overline{أ ب}^2 + \overline{أ جـ}^2$ = جـ ب × ب د + جـ ب × جـ د

$\overline{أ ب}^2 + \overline{أ جـ}^2$ = جـ ب (ب د + جـ د)

$\overline{أ ب}^2 + \overline{أ جـ}^2 = \overline{جـ ب}^2$

قانون الكرخي لمساحة الشكل الرباعي

من المعروف أن هيرون السكندري الذى عاش في القرن الأول للميلاد قد توصل الى تعيين مساحة المثلث بدلالة أطوال أضلاعه على الوجه التالى :

$$\text{المساحة} = \sqrt{ح\ (ح - أ)\ (ح - ب)\ (ح - جـ)}$$

حيث ح = نصف محيط المثلث ، أ ، ب ، جـ أطوال أضلاع المثلث .

وقد أدخل أبو بكر محمد بن الحسين الكرخي (المتوفى عام ١٠١٦ م) تعديلا على هذا القانون بحيث صار ينطبق على أى شكل رباعى ، حيث يتخذ قانون الكرخي الشكل التالى :

$$\text{مساحة أى شكل رباعى} = \sqrt{(ح - أ)\ (ح - ب)\ (ح - جـ)\ (ح - د)}$$

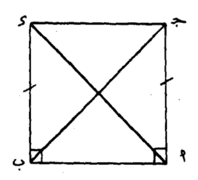
حيث ح تمثل نصف محيط الشكل الرباعى ،ويرمز لأطوال الأضلاع بالحروف أ،ب ،جـ ،د .

مصادرات (موضوعات) اقليدس :

من أمثلة التنقيحات والاضافات التي أدخلها علماء المسلمين على هندسة اقليدس «فرضية التوازي» التي لم يستطع اقليدس أن يثبتها أو يعرضها على هيئة نظرية، فعالج هذه المصادرة ابن الهيثم أولاً، ثم عمر الخيامي، ثم نصير الدين الطوسي في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، مع أن محاولاتهم لايجاد برهان لهذه المصادرة لم تبلغ ذروتها المطلوبة. ولكن كانت تلك البراهين حافزا قويا ومفتاحا واضحا لبعض علماء الرياضيات في أوروبا في العصور الحديثة، لوضع هندسات أخرى «لا اقليدية» مثل هندسة «برنهارد ريمان» (Bernhard Riemann) (١٨٢٦ – ١٨٦٦ ميلادية) و«هندسة نيكولاي لوبا شيفسكي». (Nikolai Lobachvsky) الذي عاش في القرن التاسع عشر أيضا.

يعتبر عمر الخيامي علم الهندسة من المواضيع الأساسية اللازمة لدراسة أي

حقل من حقول الرياضيات، لذلك فإنه قد ركز على دراسة هندسة إقليدس التي شرحها وعلق عليها علماء الرياضيات المسلمون. كما أنه أولى عناية خاصة لتفهم ما قدمه الحسن بن الهيثم في برهانه للمصادرة (للموضوعة) الخامسة من مصادرات أو موضوعات اقليدس، ثم ببرهان جديد من ذلك المنطلق. ويذكر المؤلف أورثر جتليمن في كتابه «تاريخ الرياضيات»: «أن عمر الخيامي حاول جهده أن يبرهن الموضوعة الخامسة من موضوعات اقليدس التي استعصت على من سبقه من علماء المسلمين. ولم تبرهن برهانا صحيحا الى يومنا هذا». ويجدر بنا أن نذكر أن يوجين سمث نشر مقاله في مجلة (سكرينا ماثماتيكا) عن محاولة عمر الخيامي لبرهنة هذه الموضوعة الخامسة، والتي جاءت في رسالته «شرح ما أشكل من مصادرات كتاب اقليدس»، وكان برهان عمر الخيامي كالآتي:



شكل (٤٣) ـ برهان عمر الخيامي للمصادرة الخامسة لاقليدس

المعطيات : كل من أ حـ ، ب د ⊥ أ ب ، أ حـ = ب د (شكل ٤٣).

المطلوب : اثبات أن :ـ

(١) ∡ د حـ أ = ∡ حـ د ب

(٢) العمود المقام من منتصف أ ب ينصّف حـ د ويكون عموديا عليه

(٣) أ ب // حـ د

(٤) ∡ أ حـ ع = ∡ ن ع حـ = زاوية قائمة.

العمل : نصل نقطتي ب ،حـ وكذلك نصل نقطتي أ،د

△ جـ أ ب ، △ أ ب د فيهما :

ا جـ = ب د

ا ب مشــــترك

∢ د ا ب = ∢ ا ب د = زاوية قائمة ٠

∴ △ د ا ب يطابق △ ا ب د ، ومن ذلك ينتج أن :

ا د = ب جـ

△ ا جـ د ، △ ب د حـ فيهمـــا :

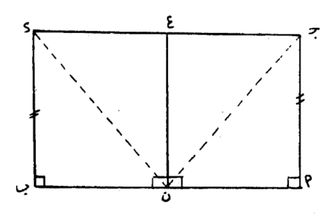
ا د = ب حـ

ا جـ = ب د

جـ د مشـــترك

∴ △ ا جـ د يطابق △ ب د جـ ، ومن ذلك ينتج أن :

∢ ا جـ د = ∢ جـ د ب (وهو المطلوب أولا)٠



شكل(٤٤) ـ تابع برهان عمر الخيامى للمصادرة الخامسة لاقليـــدس ٠

بالرجوع الى شكل (٤٤) نجـد أن :

△ جـ ا ن ، △ د ب ن فيهما :

مُعطى

∡ جـ أ ب = ∡ د ب أ = قائمة
أ ن = ن ب
أ حـ = ب د

∴ △ جـ أ ن يطابق △ د ب ن

لذا ن جـ = ن د ،

∡ أ ن حـ = ∡ د ن ب ⟸ ∡ حـ ن ع = ∡ ع ن د

△ جـ ع ن ، △ د ع ن فيهما :

ن جـ = ن د

∡ جـ ن ع = ∡ ع ن د
ع ن مشـــــترك

∴ △ جـ ع ن يطابق △ د ع ن

لذا ∡ حـ ع ن = ∡ ن ع د ، ولكن ∡ جـ ع ن + ∡ ن ع د = ١٨٠°

∴ ن ع ⊥ جـ د .

وكذلك جـ ع = ع د من تطابق المثلثين جـ ع ن ، د ع ن .

∴ ن ع ينصف حـ د ، ويكون عموديا عليه (المطلوب ثانيـــا) .

∵ ∡ جـ ع ن = ٩٠°

، ∡ ع ن ب = ٩٠°

∴ ∡ جـ ع ن = ∡ ع ن ب متبادلتين

∴ جـ د // أ ب (المطلوب ثالثـــــا).

افرض أن :

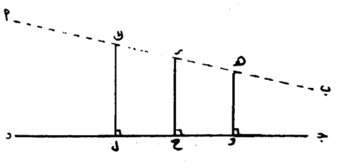
أ جـ أكبر من ن ع ⟸ ∡ أ جـ ع زاوية حادة ، ∡ ن ع حـ زاويــــــــة منفرجه ، وهذا يناقض المعروف من (٣) أن ∡ ن ع جـ = ٩٠°

ا جـ اصغر من ن ع ⟸ ∠ ا جـ ع زاوية منفرجة، ∠ ن ع حـ زاويه حاده ،
وهذا يناقض المعروف من (٣) ان) ن ع حـ = ٩٠°
اذن ∠ ا جـ ع = ∠ ن ع جـ = ٩٠°. من ذلك نستنتج ان جموع زوايا اى شكل
رباعى = ٣٦٠°، وان مجموع زوايا اى مثلث تساوى ١٨٠°. (المطلوب رابعــــا).

هذا وقد أبدع نصير الدين الطوسي في دراسة العلاقة بين المنطق والرياضيات، حتى أن معظم علماء العالم يقولون عند مقارنة بين ابن سينا والطوسي بأن ابن سينا طبيب ناجح، بينما الطوسي رياضي بارع، فأطلق عليه اسم «المحقق». والجدير بالذكر أن الطوسي نال شهرة مرموقة في علم الهندسة، مما جعل العالم الألماني فيدمان يقول عنه : «إن نصير الدين الطوسي نبغ في شتى فروع المعرفة، وبالأخص في علم البصريات، اذ أتى ببرهان جديد لتساوي زاويتي السقوط والانعكاس، يدل على خصب قريحته وقوة منطقه، وقد حاول نصير الدين الطوسي أن يبرهن فرضية اقليدس الخامسة في كتابه «الرسالة الشافية عن الشك في الخطوط المتوازية» فكانت محاولة ناجحة حيث فتحت باب النقاش وعدم التسليم بما كتبه اقليدس وأمثاله من عمالقة اليونان في علم الهندسة. ويقول جورج سارتون في كتابه «المدخل الى تاريخ العلوم»: «إن الطوسي أظهر براعة فائقة النظير وخارقة للعادة في معالجة قضية المتوازيات في الهندسة، وجرب أن يبرهنها، وبنى برهانه على فروض تدل على عبقريته، ومن المسائل التي برهنها هذه المسألة: «دائرة تمس أخرى من الداخل، قطرها ضعف الأول، تتحركان بانتظام في اتجاهين متضادين، بحيث تكونان دائما متماسكتين، وكون سرعة الدائرة الصغيرة ضعف الدائرة الكبرى». برهن نصير الدين أن نقطة تماس الدائرة الصغرى تتحرك على قطر الدائرة الكبرى، وجدير بالذكر أن هذه النظرية هي أساس تصميم جهاز الاسطرلاب البالغ الأهمية.

وقد أولى الطوسي اهتماما ملموسا بالهندسة الفوقية أو الهندسة غير الاقليدية (الهندسة الهذلولية) التي بنيت على أسس منطقية تناقض هندسة اقليدس، التي كان يعتقد بأنها ليست قابلة للتغيير والانتقاد عبر العصور كما ناقش البروفيسور دريك ستروبك في كتابه «ملخص تاريخ الرياضيات» : «ان نصير الدين

الطوسي حاول بكل جدارة أن يبرهن على الموضوعة الخامسة من موضوعات اقليدس. فكانت محاولته بدء عصر جديد في علم الرياضيات الحديثة، لهذا انصبت عقليته العظيمة على برهانها، وهو (أن مجموع زوايا المثلث تساوي زاويتين قائمتين)، فقبل أن يبدأ نصير الدين في برهانه للموضوعة الخامسة لاقليدس حاول أن يعطي مقدمة عن التقارب والتباعد، فمثلا لو أخذ المرء مستقيمين أ ب، د حـ كما في شكل (٤٥).



شكل (٤٥) – مقدمة برهان نصير الدين الطوسي لفرضية التوازى

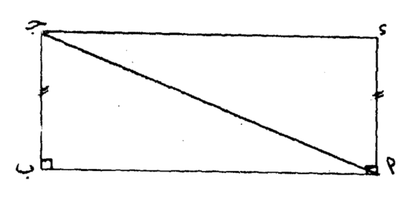
وأسقط الأعمدة هـ و ، ر ح ، ك ل ،...، الخ على د حـ من النقاط هـ،ر،ك ،.........
والواقعة على المستقيم أ ب كما بشكل (٤٥) ، بحيث يتحقق الآتي :

* ∡ ب هـ و ≠ ∡ و هـ ر
* ∡ هـ ر ح ≠ ∡ ح ر ك

لهذا يتضح أن الزاويتين المتجاورتين على المستقيم أ–ب غير متساويين. فلتكن الزوايا التي باتجاه ب زوايا حادة، والزوايا التي باتجاه أ زوايا منفرجة ولتكن الأعمدة أطول كلما كانت باتجاه أ،د وأصغر ان كانت باتجاه ب، جـ، أي أن المسافة بين المستقيمين أ ب، د جـ تصغر كلما توغلنا في الاتجاه ب، جـ والعكس صحيح، أي أنه: لو كانت الزوايا الحادة باتجاه النقطتين أ،د، فان التقارب سيكون باتجاه النقطتين أ،د، والتباعد باتجاه النقطتين ب،جـ.

بعد هذه المقدمة بدأ نصير الدين الطوسي في برهانه الذي صار متداولا في كتب الهندسة التي تدرس في جامعات العالم، ونادرا بل يكاد يستحيل أن

يحصل على كتاب بعنوان الهندسة الفوقية (الهندسة الهذلولية) دون التعرض لاسهام نصير الدين الطوسي في هذا المضمار. بدأ الطوسي برهانه بالشكل الآتي :



شكل(٤٦) - برهان الطوسي لفرضية التوازى .

* رسم عمودين د أ، حـ ب على المستقيم أ ب من النقطتين أ، ب بحيث أن المستقيمين د أ، حـ ب يكونان متساويين، ويقعان على نفس الجهة من المستقيم أ ب.

* أوصل النقطتين د، جـ.
* حاول أن يبرهن أن الزاويتين هـ د أ، ب حـ د قائمتان.
* فرض أن ∠ حـ د أ ليست زاوية قائمة فهي اما أن تكون :-
(أ) زاوية حادة
أو (ب) زاوية منفرجة.
* اذا كانت زاوية د حـ ب زاوية حادة، فالزاوية حـ د أ ستكون زاوية منفرجة، وهذا بالطبع يؤدي الى أن يصير المستقيم ب حـ أطول من المستقيم أ د، ولكن هذا يناقض ما افترضه، فالزاوية د حـ ب ليست زاوية حادة.

* اذا كانت الزاوية د حـ ب زاوية منفرجة، فالزاوية حـ د أ ستكون زاوية حادة، فينتج أن المستقيم أ د أطول من المستقيم حـ ب، وهذا أيضا يناقض

ما افترضه، فالزاوية د حـ ب ليست زاوية منفرجة، أي: يجب أن تكون زاوية قائمة.

ومما سبق ذكره توصل الطوسي الى أن الزوايا الأربع للشكل الرباعي المذكور جميعها زوايا قائمة، وبالتالي فان مجموع زوايا المثلث أ د حـ تساوي زاويتين قائمتين وأن △ أ ب حـ= △ أ د حـ متطابقان. كما استنتج الطوسي أن مجموع زوايا المثلث= $\frac{1}{2}$ مجموع زوايا الشكل الرباعي أ ب حـ د.

بهذا البرهان استطاع نصير الدين الطوسي أن يبرهن على أن: «مجموع زوايا أي مثلث مساوية لزاويتين قائمتين». وهذا بالضبط ما يكافىء الموضوعة الخامسة من موضوعات اقليدس. ان محاولة الطوسي لبرهان الموضوعة الخامسة لاقليدس لها طابع أصيل، فلم يسبق لأحد قبله أن لاحظ محاولته. وقد ادعى سكيري هذا الشكل الرباعي لنفسه، والحق أن هذا المربع يجب أن ينسب أولا لعمر الخيامي، الذي اكتشفه قبل سكيري بأكثر من خمسمائة عام. والجدير بالذكر أن هذا المربع كان له أهمية بالغة في الهندسة غير الاقليدية (الهندسة الهذلولية)، لذا يجب أن نعتبر أن عمر الخيامي ونصير الدين الطوسي هما اللذان وضعا حجر الأساس للهندسة غير الاقليدية (الهندسة الهذلولية).

يذكر عمر رضا كحالة في كتابه «العلوم البحتة في العصور الاسلامية»: «انه يمكن القول بأن الطوسي امتاز على غيره في بحوثه في الهندسة، لاحاطته بالقضايا الأساسية التي تقوم عليها الهندسة المستوية فيما يتعلق بالمتوازيات، وقد ألمّ بها، كما جرب أن يبرهن قضية المتوازيات الهندسية وقد وفق في ذلك. ومعظم براهينه على المسائل الهندسية لمحاولات الذين سبقوه، فصاغ كل ذلك في شكل مبتكر لم يسبق اليه، وهو يعتبر من هذه الوجهة متفوقا على معاصريه»، وأضاف جلال مظهر في كتابه «أثر العرب في الحضارة الأوروبية– نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة»: «أن الطوسي تنبه لنقص هندسة اقليدس، فعلق وبرهن على كثير من النظريات في كتاب «تحرير أصول اقليدس»، وفي

الرسالة الثانية للطوسي أثر في تقدم بعض النظريات الهندسية. وقد نشر جون واليس هذه البحوث باللاتينية في سنة ١٦٥١م.

وجاء من بعد نصير الدين الطوسي العالم الرياضي الانجليزي صاحب الشهرة العظيمة في الغرب جان واليس، الذي عاش فيما بين عامي ١٦١٦ و ١٧٠٣م، والذي درس بكل تمعن برهان نصير الدين للموضوعة الخامسة من موضوعات اقليدس، واعترف في دراسته بأن نصير الدين الطوسي عالم رياضي له فضل كبير في بدء الهندسة الفوقية (الهندسة الهذلولية)، وظهور فجر الرياضيات الحديثة. كما ذكر الأستاذ هوارد ايفز في كتابه «تاريخ الرياضيات»: «ان جرولا سكيري الايطالي — الذي عاش فيما بين عامي ١٦٦٧ و ١٧٣٣م — كان أستاذا في علم الفلسفة والرياضيات في جامعة باثيا في ايطاليا والمسمى بأبي الهندسة غير الاقليدية أو الهندسة الفوقية (الهندسة الهذلولية)، ومما لا يقبل الشك أنه اعتمد اعتمادا كليا على عمل نصير الدين الطوسي في هذا المجال.

ومع الأسف فان علماء الرياضيات في العصر الحديث اذا تكلموا عن الهندسة الفوقية (الهندسة الهذلولية) قرنوا اسمها بأسماء بعض علماء الرياضيات الغربيين ذوى الشهرة الكبيرة في حقل الرياضيات، مثل نيكولاي لوباشفسكي (Lobachevsky) الروسي الذي عاش ما بين عامي ١٧٩٣ و ١٨٥٦م، وكارل جاوس (Gauss) الألماني الذي عاش ما بين عامي ١٧٧٧ و ١٨٥٥م، ولفقان بولياي المجري الذي عاش ما بين عامي ١٨٢٦ و ١٨٦٦م، ونسوا العلماء الذين سبقوا هؤلاء بقرون عدة، والذين كان لهم أثر مرموق في هذا الحقل مثل الحسن ابن الهيثم وثابت بن قرة، ونصير الدين الطوسي، حيث كانت مؤلفاتهم تدرس في مدارس وجامعات الغرب والشرق حتى القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي). ويجب أن لا يخفى على القاريء أن الهندسة غير الاقليدية (الهندسة الهذلولية) لها في وقتنا الحاضر أثر عظيم في دراسة الفضاء الطبيعي وتفسيرات النظرية النسبية.

بعض جهد الخوارزمي في حساب المساحة :

عرف الخوارزمي الوحدة المستعملة في المساحات، واستخدم «التكسير» ويقصد بذلك المساحة، سواء كانت سطحية أو حجمية، كما تطرق الى ايجاد مساحات بعض السطوح المستقيمة الأضلاع، والأجسام، والدائرة، والقطعة، والهرم الثلاثي والرباعي، والمخروط، والكرة. كذلك استعمل النسبة التقريبية وقيمتها ط = $\frac{٢٢}{٧}$ ، أو $\sqrt{١٠}$ أو $\frac{٦٢٨٣٢}{٢٠٠٠٠}$ ولقد أثرى علم الجبر باستعماله بعض الأفكار الجبرية لمعرفة المساحة، واختار مثالا يوضح به مدى استخدام النظريات الجبرية، وهو:

«فان قيل أرض مثلثة من جانبيها عشرة أذرع وعشرة أذرع والقاعدة اثنا عشر في جوفها أرض مربعة كم كل جانب من المربعة، فقياس ذلك أن تعرف عمود المثلثة، وهو أن تضرب نصف القاعدة – وهو ستة – في مثلثه، فسيكون ستة وثلاثين فانقصها من أحد الجانبين الاقصرين مضروبا في مثله – وهو مائة – يبقى أربعة وستون، فخذ جذورها ثمانية وهو العمود، وتكسيرها ثمانية وأربعين ذراعا، وهو ضربك العمود في نصف القاعدة – وهو ستة – فحصلنا أحد جوانب المربعة شيئا، وضربناه في مثله، فصار مالا فحفظناه، ثم علمنا أنه قد بقى لنا مثلثتان عن جنبتي المربعة ومثلثة فوقها، فأما المثلثتان اللتان على جنبتي المربعة فهما متساويتان، وعموداهما واحد، وهما على زاوية قائمة، فتكسيرها أن تضرب شيئا في ستة الا نصف شيء فيكون ستة أشياء الا نصف مال، وهو تكسير المثلثتين جميعا اللتين هما على جنبتي المربعة. فأما تكسير المثلثة العليا فهو أن تضرب ثمانية غير شيء – وهو العمود – في نصف شيء فيكون أربعة أشياء إلا نصف مال، فهذا هو تكسير المربعة وتكسير الثلاث مثلثات – وهو عشرة أشياء – تعدل ثمانية وأربعين، هو تكسير المثلثة العظمى، فالشيء الواحد من ذلك أربعة أذرع وأربعة أخماس ذراع، وهو كل جانب من المربعة، وهذه صورتها».

في المثال السابق استخدم الخوارزمي مساحة المثلث ومساحة المربع ونظرية

فيثاغورث لايجاد المطلوب، فلو حاولنا أن نضع طريقة حله في لغة العصر هذا، لقلنا: ايجاد طول ضلع المربع المرسوم داخل المثلث المتساوي الساقين والذي طول قاعدته=١٢ ذراعا، وطول كل من ضلعيه الآخرين ١٠ أذرع.

* نرسم المثلث ا ب حـ ، بحيث تكون قاعدته ب حـ = ١٢، ضلعه ا حـ = ا ب = ١٠ (شكل ٤٧).

* نرسم المربع ك ن م و داخل المثلث ا ب حـ .

* نرسم الارتفاع ا هـ .

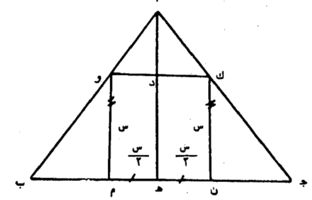
* $\overline{اهـ}^2 + \overline{حـهـ}^2 = \overline{احـ}^2$ نظرية فيثاغورس

ولكن حـ هـ = ٦ لأن $\triangle$ ا ب حـ متساوى الساقين

ا هـ ⊥ القاعدة ب حـ .

$\therefore$ ا هـ = $\sqrt{\overline{احـ}^2 - \overline{حـهـ}^2} = \sqrt{(١٠)^2 - (٦)^2}$

$= \sqrt{١٠٠ - ٣٦} = \sqrt{٦٤} = ٨$ اذرع



شكل(٤٧) – ايجاد طول ضلع المربع المرسوم داخل المثلث المتساوى الساقين.

* وبما ان $\triangle$ ا ب حـ متساوى الساقين ، ا هـ عمودى على القاعدة ب حـ .

$\therefore$ هـ حـ = هـ ب = ٦ اذرع

افرض ان طول ضلع المربع ك ن م و = س

∴ هـ م = $\frac{س}{٢}$ ، م ب = ٦ − $\frac{س}{٢}$ ، أ د = ٨ − س

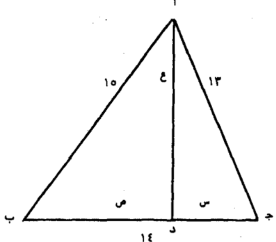
* مساحة △ أ ب جـ = مساحة △ جـ ك ن + مساحة △ ب و م + مساحة △ أ ك و
+ مساحة المربع ك ن م و

∴ $\frac{١}{٢}$ (١٢ × ٨) = [$\frac{١}{٢}$ س (٦ − $\frac{س}{٢}$)] + [$\frac{١}{٢}$ س (٦ − $\frac{س}{٢}$)] +
[$\frac{١}{٢}$ س (٨ − س)] + [$س^٢$]

٤٨ = س (٦ − $\frac{س}{٢}$) + $\frac{١}{٢}$ س (٨ − س) + $س^٢$
= ٦س − $\frac{س^٢}{٢}$ + ٤ س − $\frac{س^٢}{٢}$ + $س^٢$
٤٨ = ١٠س .

∴ س = ٤ $\frac{٤}{٥}$ = طول ضلع المربع .

كذلك أورد الخوارزمي مثالا آخر يبرز فيه الاستفادة من علم الجبر، عندما نحاول أن نعرف مساحة المثلث، لذا اختار الخوارزمي ايجاد مساحة المثلث اذا عرفت طول أضلاعه الثلاثة. فعلى سبيل المثال: افرض أن هناك مثلثاًأطوال أضلاعه هي (١٣، ١٤، ١٥)، والمطلوب ايجاد مساحته (شكل ٤٨).



شكل(٤٨) – ايجاد مساحة المثلث بمعرفة أطوال أضلاعه

البرهان :

بتطبيق نظرية المثلث القائم الزاوية

من Δ ا ﺣ د نجد أن ١٣^{٢} = س^{٢} + ع^{٢} ⟵ ع^{٢} = ١٣^{٢} − س^{٢} (١)

من Δ ا د ب نجد أن ١٥^{٢} = ص^{٢} + ع^{٢} ⟵ ع^{٢} = ١٥^{٢} − ص^{٢} (٢)

من (١)،(٢) نجد أن ١٣^{٢} − س^{٢} = ١٥^{٢} − ص^{٢} (٣)

ولكن ص = (١٤ − س) (٤)

من (٣)،(٤) ينتج أن ١٣^{٢} − س^{٢} = ١٥^{٢} − (١٤ − س)^{٢}

∴ ١٦٩ − س^{٢} = ٢٢٥ − (١٩٦ − ٢٨ س + س^{٢})

∴ ١٤٠ = ٢٨ س   س = ٥ اذرع (٥)

من (١)،(٥) ينتج أن ع^{٢} = ١٦٩ − ٢٥ = ١٤٤

∴ ع = ١٢ ذراعا

وتكون مساحة المثلث ا ﺣ ب = $\frac{1}{2}$ (١٤) (١٢) = ٨٤ ذراعا مربعا

حساب المساحات والحجوم عند المسلمين :

بعد أن درس المسلمون هندسة الاغريق دراسة دقيقة مفصلة، وأتموا استيعاب كل جوانبها، أمكنهم تطوير صيغ وقوانين حساب مساحات الأشكال الهندسية، كذا حجوم الأجسام المنتظمة، وتمتلىء كتابات علماء العرب والمسلمين بهذه الحسابات التي تكاد تغطي كل الأشكال والأجسام ذات الأهمية العلمية، ونبين فيما يلي مجال الدراسات التي تناولتها هذه الكتابات:

(أ) مساحات الأشكال المستوية :

١ – مساحات المثلثات، مع استعمال نسب حساب المثلثات في بعض هذه الحسابات.

٢ – مساحات الأشكال رباعية الأضلاع.

٣ – مساحات المضلعات المنتظمة حتى ١٦ ضلعا، وتوجد جداول تعطي هذه المساحات، مثل ما جاء منها بكتاب «مفتاح الحساب» للكاشي (الباب الثالث من المقالة الرابعة).

٤ – مساحات الأشكال الدائرية والحلقات والقطاعات والأشكال المحدودة بأقواس دائرية كالأشكال الهلالية والنعلية والاهليليجية والشلمجية[١].

٥ – مساحات الأشكال الهندسية المستوية المكونة من تركيبات من الأشكال المتقدمة.

(ب) مساحات السطوح للأجسام المنتظمة كالاسطوانات والمخروطات والمشورات والكرات.

(جـ) حجوم الأجسام المنتظمة مثل :

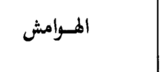
١ – الاسطوانات والمخروطات التامة والناقصة.
٢ – الكرات والقطع الكروية.
٣ – الأجسام المضلعة.
٤ – الجسم المتولد من دوران القطع المكافىء حول محوره[٢]، وينسب هذا العمل أيضا للحسن بن الهيثم (٦٥ /٩٦٦ – ٨ /١٠٣٩م).

(د) مساحات وحجوم الأشكال المعمارية :

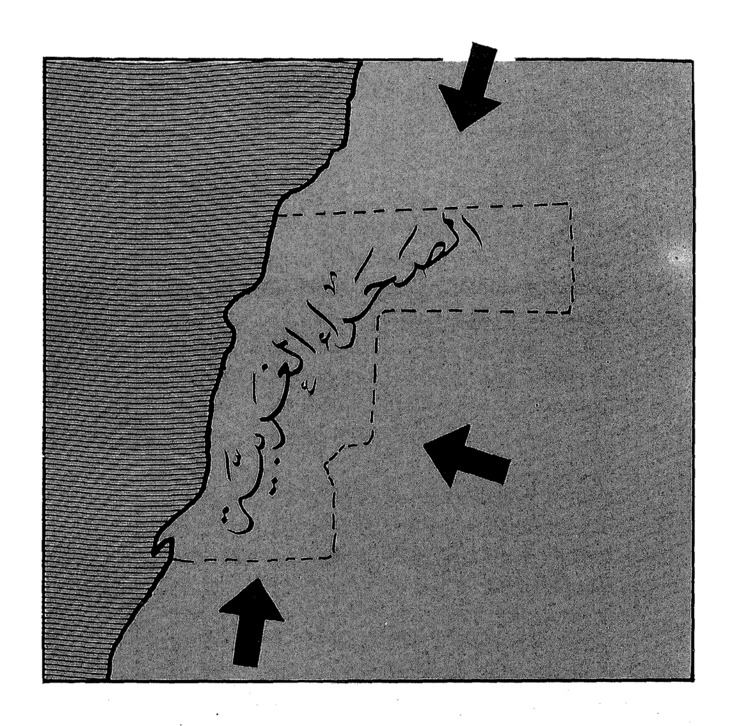
يفرد غياث الدين جمشيد الكاشي المتوفى عام (١٤٣٦م) – على سبيل المثال لا الحصر – جانبا من كتابه «مفتاح الحساب»[٣] لحساب مساحات وحجوم أشكال معمارية متنوعة، نذكر منها :

١ – العقود نصف المستديرة.
٢ – العقود ذات القطوع.
٣ – العقود المدببة.
٤ – العقود المكونة من ثلاثة أقواس.
٥ – القباب الكروية، وأنصاف هذه القباب.
٦ – القباب المكونة من أهرامات مضلعة.
٧ – الأنواع المختلفة من المحراب.

ويردف الكاشي حساباته بجداول ضمنها نتائج هذه الحسابات.



(١) راجع مثلا «خلاصة الحساب» لبهاء الدين العاملي: الباب السادس.
(٢) (Paraboloid).
(٣) الباب التاسع من المقالة الرابعة..



الصحراء الغربية

دراسة جغرافية

للدكتور أحمد رمضان شقليه والدكتور جلال شوقي

مقـدمة :

من أهم متطلبات المواطن المعاصر في الأقطار العربية التعرف العلمي على حقيقة القائمة الطويلة من المشكلات السياسية التي يعيشها عالمه العربي المعاصر في مغربه ومشرقه وما تعكسه هذه المشكلات المتعددة والمتنوعة في وجودها من سلبيات سياسية واقتصادية وعسكرية على الصعيدين العربيين الرسمي والشعبي بل وعلى تدهور المكانة السياسية والاقتصادية والعسكرية للعالم العربي على صعيد اقليمه والعالم عامة والأقطار المعادية له خاصة.

وتأتي هذه الدراسة الجغرافية السياسية وبكل تواضع لتختص في بحث ما يسمى / بمشكلة الساقية الحمراء ووادي الذهب / أو الصحراء الأسبانية / أو الصحراء المغربية / أو الجمهورية الصحراوية أو الداخلة[1] احدى أهم المشكلات في العالم العربي والاسلامي وفي قسمها الافريقي أو المغربي خاصة كونها مشكلة حديثة في منشآتها ومتعددة وحيوية في أحداثها ومتلاحظة في تطورها شاغلة لجزء من وقت المواطن العربي بل ومشتتة لعواطفه بين أطراف النزاع فيها ثم مهددة بالتدخل الأجنبي المستغل دائماً لمثل هذه المشكلة لينال المزيد من أسواق أسلحته ويكسب الأكثر في التفرقة بين الصفوف العربية والاسلامية سواء منها الولايات المتحدة أو فرنسا أو الاتحاد السوفيتي (!) أو حتى الجيران من الأقطار الافريقية...

وإننا لنرجو أن نكون قد وفقنا في اختيار موضوع هذه الدراسة لقاريء مجلتنا الدارة الغراء والتي ستعززه كمجلة محايدة بين أطراف مشكلة الصحراء الغربية وفي اتساع انتشارها بين قراء العربية.

التعريف بها :

تقع في الغرب الأقصى من عالمنا العربي والاسلامي بل هي أقصى أجزاء هذا الاقليم نحو الغرب، وهي امتداد طبيعي وبشري لعالمنا العربي والاسلامي لا انقطاع فيه حتى المياه الشرقية للمحيط الأطلسي. انضمت اليها منذ الفتوحات الاسلامية لشمال وشمال غرب أفريقيا في القرن الثاني الهجري ولتصبح منذ ذلك التاريخ المبكر جزءا منهما.

الموقع الجغرافي :

تعتبر الصحراء جزءا من أراضي شمال غرب أفريقيا بينما يحلو لبعض الجغرافيين أن يضمها الى أراضي غرب أفريقيا، تنحصر فلكيا بين دائرتي عرض ٤٥َ,٢٠ْ – و ٣٠َ,٢٧ْ شمالاً أي أنها تقع في المناطق المدارية المناخ وبالذات في النطاق المناخي الصحراوي المار في نصف الكرة الشمالي بينما تنحصر بين خطي طول ٨,٤٥ْ– ١٥َ,١٧ْ غرباً أي أنها تقع غربي خط جرينتش وتقع بكاملها في نصف الكرة الغربي وليصبح الفارق الزمني بينها وبين توقيت الرياض ثلاث ساعات.

أما موقعها بالنسبة للماء فهي ذات جبهة بحرية طويلة نسبياً (١١٢٥ كم) على الساحل الشرقي للمحيط الأطلسي الشمالي المفتوحة للملاحة والأعمال البحرية طيلة أيام السنة ولتنعم بخيرات هذه المياه كمجال للصيد البحري لعشرات من سكانها ولاقامة ما تحتاج إليه من الموانيء ولاستخراج ملح الطعام والصخور البحرية منها.. ولتنعم بنسيم البحر الملطف لدرجات حرارتها الصيفية القائظة وفيما يتعلق بموقعها من اليابسة فهي ذات أبعاد ثلاثة على اليابسة وجميعها كما سنرى ذات اياد طويلة في بلورة مشكلة هذا القطر كما أنه يعتمد عليها في تقرير أي مصير لشعبه، وقد حددت أبعاد هذه الحدود واتجاهاتها تلك الاتفاقيات الغابرة والبغيضة المفقودة بين فرنسا وأسبانيا في سنوات ١٩٠٢ و ١٩٠٤ ثم في سنة ١٩١٢ فمن الشمال وبخط هندسي مستقيم تحدها مملكة المغرب وبحدود نحو

٤٤٠ كم حيث توجد صحاري المغرب وفي الشمال تحدها الجزائر من خلال منفذ يبلغ اتساعه نحو ٣٤٠ كم حيث توجد صحراء الجزائر المسماة «حمادة دراع» ومنها منطقة تندوف خاصة ولهذا المنفذ الحدودي السياسي دوره الفعال في مشكلة الصحراء الغربية عامة وفي موقف الجزائر منها خاصة سيوضح له فيما بعد.

وفي الشرق والجنوب وبأشكال هندسية مختلفة ترسم الحدود السياسية بينها وبين اليابسة الموريتانية لتشكل جميعا لها مشكلتها التي تعيشها الآن.. بينما المفروض أن تكون لها دعما وسندا في شدائدها والتي ستتعرض لها هذه الدراسة بشكل خاص.

بنية الصحراء الغربية :

تنتمي أراضيها في بنائها (بنيتها) الى كتلة الصحراء الافريقية التي تتصف باستقرارها وضمانها لأهلها من أخطار الحركات الباطنية، وإن أصابها نشاط زلزالي فهو من تأثير النشاط الزلزالي الذي يرتبط بجبال أطلس المغربية وجزر كناريا (الخالدات) التي تنتمي الى مناطق الحركة النشطة في حركاتها الباطنية.

والصحراء في تضاريسها بسيطة وقليلة المظاهر اذ يسيطر على معظم أرضها الطابع السهلي القليل الارتفاع والمنحدر تدريجيا من الشرق الى الغرب تعبر عنه وتوضحه مجاري الأودية الصحراوية التي ينتهي معظمها نحو مياه الأطلسي، من أهمها أودية : الساقية الحمراء، الخط، عساج، فش...

وأما شمالها الشرقي فهو عبارة عن امتداد لجبال / حمادة دراع (درعه) العالية الجزائرية التي ترتفع إلى نحو ٨٢٨ متراً والتي تتميز بكثرة قممها التحاتية.

أما سواحلها فهي بوجه عام مستقيمة يقطعها عدد من الخلجان الضحلة أهمها خليج سنتر وخليج فيلا سيروس الذي تحميه شبه جزيرة يالا بالاضافة

إلى تعدد الرؤوس الصخرية التي تلتحم باليابس بالتعاون مع حركة الأمواج النشطة كما وتظهر أحيانا في المياه الشاطئية.

ومن أهم ما يميز هذه السواحل ضحالة مياهها البحرية التي تعود الى ترسيب ما تحمله مياه تيار كناريا خلال ملايين السنين من نشاطه في هذه المنطقة بالتعاون مع حركة الأمواج النشطة في أعمال النحت والترسيب.

والصحراء الغربية من الناحية الجيولوجية تتوزع أراضيها على تكوينات ثلاثة عصور متمايزة: أولها العصر الحديث من عصور الكانيزوي الرباعي: وهي على شكل رمال وحصى وأصداف بحرية تنتشر على السواحل باتساعات مختلفة نحو الداخل، تكوينات العصر الكريتاسي آخر عصور الزمن الميزوزوي (عصر المياه الوسيطة) والتي تبدأ في امتداد من مدينة الصين غربا وتمتد شرقا حتى تدخل الحدود الموريتانية.

وأخيرا التكوينات الأركية التي تنتمي الى الزمن الأيوزوي أو ما قبل الكمبري أو زمن ما قبل الحياة، وتتخذ هذه التكوينات شكل الصخور الجرانيتية والمتحولة التي تكون القاعدة الهامة لمعظم أراضي الصحراء الغربية.

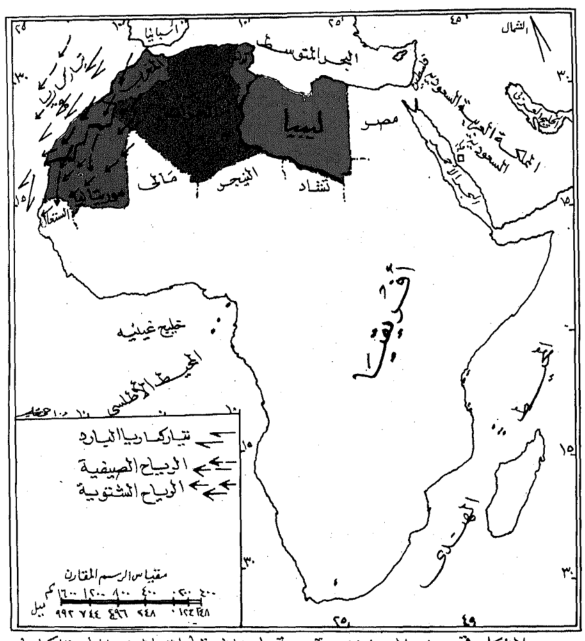
وفيما يخص مناخها :

فهو بوجه عام ينتمي الى المناخ الصحراوي المداري مع تأثيرات بحرية طيلة أيام السنة وبوجه خاص في موسم الشتاء الشمالي وهي تعتبر البداية نحو الشرق لصحراء أفريقيا الكبرى أكبر الصحاري الحارة في العالم، فمن حيث الحرارة يتراوح معدلها ما بين ٢٤° في الصيف تصل الى ١٦° في الشتاء متأثرة ببرودة تيار كناريا بواسطة نسيمه. أما أمطارها فهي شتوية شمالية تسقط متذبذبة ومعدلها السنوي قليل فيصل الى نحو ٥ سم تحملها اليها الرياح الشمالية الغربية من منطقة الضغط المرتفع الأزوري بينما في الصيف تهب عليها الرياح الشمالية والشمالية الشرقية التي تثير الأتربة والمضايقات للانسان وحيواناته ومزروعاته.

ومن أهم العوامل التي أوجدت مناخها الصحراوي هذا بصفاته هذه هي موقع أراضيها بالنسبة لليابس والماء ثم تيار كناريا البارد الذي يعتبر بحق من وراء نكبتها المناخية الصحراوية هذه، وهو في هذا كأمثاله من التيارات البحرية الباردة في البحار الدفيئة اذ يرتبط بتيار كناريا هذا كثرة الضباب الذي ينتشر على مياهها الاقليمية وسواحلها اليابسة والذي كثيرا ما يتخذ شكل السحاب المنخفض، كما يرتبط به وجود ظاهرة الندى وكلاهما مفيدان جدا لنمو واستمرار خضرة النباتات الصحراوية البرية بل ولمزارع حبوب الشعير والذرة الرفيعة الساحلية الموقع والتي تنعم كغيرها من مناطق الساحل بتأثيرات نسيم البحر الايجابية والتي تتوغل شرقا حاملة معها الرطوبة العالية الى مسافات تتراوح ما بين ٢٥ — ٥٠ كم مرتبطا بسهوله تضاريس السواحل الغربية التي تدفع نسيم البحر شرقا، كذلك كان لتضاريسها المستوية والسهلة دورها الفعال في صحراوية مناخها.. فلو كانت تضاريسها مرتفعة كجبال أطلس أو هضبة الشطوط لتغيرت ظروف أراضيها المناخية والى الأحسن. وعلى أساس أوضاعها المناخية هذه فقد حرمت أراضيها من غطاء نباتي معتبر ولتسودها النباتات الصحراوية المعروفة وأحيانا الاستبس الفقيرة التي ترعى عليها الماعز والابل المحلية وبأعدادها المحدودة جدا، وتسمى المراعي هنا «قرارات» وأهم النباتات الطبيعية هنا «اليوفوربيا» وأهميتها في أنها تحمي بوجودها مزارع الشعير والتي تترك لها مع المناخ الصحراوية والتكوينات الجيولوجية المحلية غطاءات من التربة أهمها: التربة البنية الحمراء التي تميز دائما الجهات الشبه صحراوية ثم التربة الصحراوية التي تفتقر الى التكوينات العضوية هذا خاصة الى الجنوب من مدينة العيون وحتى الأطلس، بينما تغتني بالتكوينات المعدنية من التكوينات الجيولوجية المحلية في الغالب وكذلك المحمولة (المنقولة).

المظاهر البشرية في الصحراء الغربية :

الصحراء وسكانها جزء من عالمنا العربي والاسلامي سواء في طبيعة أرضها التي رأينا أنها امتداد مسترسل للأراضي المغربية والجزائرية ثم الموريتانية... وكذلك الحال بالنسبة لسكانها فهم في أصلهم ولغتهم وفي دينهم الاسلامي



الشكل رقم - ١ - الصحراء الغربية وموقعها من افريقيا والمغرب العربي والرياح وتيار كناريا

الحنيف امتداد سكاني لأشقائهم في تلك الأقطار الثلاثة بحيث يصعب على الجغرافي أن يفصل بين هذا القطر وجيرانه اذا استثنينا التأثيرات والتحفظات الأمنية التي تنتظر الانسان عند وخلف الحدود السياسية التي رسمتها المصالح الاستعمارية الفرنسية والأسبانية دون مراعاة للروابط اللغوية والدينية والعاطفية للسكان على كلا جانبي الحدود. والسكان هنا معظمهم عن أصل من العرب الذين كانوا يأتون مع القوافل التجارية القادمة من الشمال هذا خاصة في الربع

الأخير من القرن السابع الميلادي وليبقى بعض منهم في الواحات للراحة ثم الاستمرار في السكن واستحبابهم لها، وإلى هؤلاء الأسلاف يعود فضل نشر الاسلام، كما يعود الى رفاقهم الفضل في نشره في أقطار غرب افريقيا والسودان الفرنسي ويلي هؤلاء في العدد والتأثير السكاني البربر. وقد كون هؤلاء السكان جماعات سكانية أهمها: التنكه: الذين ينتشرون بين درعة وبورت اتيان والجويرة أي في وادي الذهب... أولاد وليم: ويسكنون الشمال حيث الساقية الحمراء.

وينتشر بين هذه الجماعات تأثيرات سكانية حامية وزنجية يعملون في زراعة الواحات، أما العنصر الأوروبي فبعضهم مازال موجودا ليعمل في مصانع الأسماك واستخراج ملح الطعام وفي مناجم الفوسفات ولا يعرف عددهم حاليا بينما كان عددهم الاجمالي قبل انسحاب اسبانيا ١٧٠٠٠ نسمة معظمهم من الأسبان، أما عن اجمالي عدد سكان الصحراء الغربية فإنه يتراوح ما بين ٨٥ ألف - ٧٠٠ ألف نسمة، إذ يورد الرقم الأول جميع المراجع الجغرافية بينما يؤكد الرقم الثاني «منظمة البوليساريو» فقط ويعتبر هذا العدد السكاني من أهم المشكلات الاقتصادية التي تواجه تنمية هذه البلاد اذ تواجد مختلف الحرف نقص فيما تحتاجه من عماله وخبرات.

والسكان من حيث توزيعهم الجغرافي ينتشرون بأعدادهم هذه في تسع من الواحات الداخلية وعدد من القرى الساحلية وفي بلدتي العيون ودقهلا (سيسروس) وتسمى الداخلة (الشكل رقم -٢-) بحيث تصل كثافتهم / نسمة لكل ٥ كم٢ / وهي كثافة تقارب كثافات الصحاري الحارة، تجمعهم وتوحدهم اللغة العربية والدين الاسلامي (المذهب المالكي السني) وشبكة من طرق السيارات المعبدة وغير المعبدة تخترق صحاريها الرملية وجبالها الصخرية في الشمال الشرقي (الشكل رقم -٢-) ومطارين رئيسيين في بلدتي العيون (١٨٠٠٠ نسمة) وسيسروس ونحو ٢٩ مهبطا (ومدرجا) موزعة بالقرب من القلاع الدفاعية والواحات ولينعم هؤلاء السكان وطرق نقلهم بمساحة اجمالية قدرها ٢٦٦ ألف كم٢[٢] وفيما يخص حرف السكان: فقد كان لمظهر الترحال والتنقل السائد بين السكان خارج بلدتي العيون وسيسروس أثره في التأكيد

على أن الحرفة الرئيسية لهم رعي وتربية حيوانات الابل والماعز والأغنام مع قليل من البقر في الواحات وحيوانات التنقل، ويضاف الى هؤلاء في موسم الاعتدال الربيع الشمالي ما بين ٢٠ ألف - ٣٠ ألف نسمة ينزحون الى الصحراء الغربية لممارسة حرفة الرعي في وادي كل من موريتانيا والمغرب والجزائر ويعودون الى مواطنهم الأصلية بعد انتهاء أو انعدام كلأ مراعي حيواناتهم (ربما توقفت هذه الظاهرة على أثر تحرج ظروف مشكلتها) وتمارس حرفة الرعي هذه عن طريق حركة تنقل تتراوح أيامها ما بين ٢ - ٣ يوم وتعتبر منطقة «تلال ادلار ستوف» في جنوب الصحراء (تيراس الغربية) أغني مناطقها في كلأ الرعي وحيواناته وفي قرب مياهها الجوفية وانتشار آبار مياهها العذبة القليلة العمق.

وقدرت أعداد حيواناتها في سنة ١٩٧٩م كما يلي: الأغنام: ١٨ ألف، الماعز: ١٥٠ ألف، الابل: ٦٠ ألف ويتوقع لهذه الأعداد أن تقل بسبب نزوح عدد كبير من الرعاة بعيدا عن الصحراء خوفا من المعارك والتهديدات الحربية فيها. وتستهلك حيواناتها ومنتجاتها محليا فيما عدا كمية من الجلود تصدر خاما أو مصنعة.

أما الانتاج الزراعي :

فهي من الحرف الاقتصادية التقليدية لدى سكان الصحراء خاصة سكان الواحات التسع بالاضافة الى مساحات زراعية محدودة على الساحل بمعنى أنها في المواقع الأولى زراعة مستقرة كثيفة خضراء (المسقوية) تنتج الخضر وفواكه النخيل والحمضيات ثم الحلف الأخضر (البرسيم الحجازي والحلفا) وقليل من الحبوب، وتعتبر منطقة بلدة العين والأراضي الواقعة في غربها وشرقها من أهم البلاد في انتاجها الزراعي الكثيف والأخضر حيث يتوفر بها مياه عيون وآبار واحات هذه المنطقة. وأهم وأكبر واحات البلاد: داورا، اشيديريا، المحبس، حوزة، تفريتي (اتفاريتي) كلتيه زمور (جلتازمر)، تشلا، بير جتردوس، بير انزلان ثم عرقوب.

بينما تتخصص المساحات الزراعية خارج الواحات في الزراعة الجافة (العشرية) لمحاصيل القمح والذرة الرفيعة والشعير وهذا الأخير يبلغ معدل انتاجه السنوي نحو ١٠٠٠ طن تستهلك محليا في دقيق الخبز، وعليه فإن دور هذه الحرفة في تجارة صادرات أية غلة زراعية غير وارد هنا والعكس هو صحيح اذ أن معظم وارداتها هي المعاصرة ومن المنتجات الزراعية خاصة الحبوب ودقيقها ... ولكن هذه الدراسة تتوقع مستقبلا مزدهرا لحرفة الزراعة الخضراء اذا استغلت امكاناتها المائية الجوفية التي يثبت أنها تعتمد على مستودع ضخم في كمية مياهه بحيث يمكن للصحراء الغربية أن تكون مصدرة للغذاء الزراعي والحيواني لجارتيها المغرب وموريتانيا وغيرهما. بل تصبح الصحراء وكأنها «كويت» المغرب العربي (حسب تقرير مقدم الى الكونجرس الأمريكي في ١٩٧٩) .

وفيما يخص الصيد البحري :

كان طبيعيا احتلال هذه الحرفة لمكانتها المرموقة بين سكان واقتصاد هذه البلاد البحرية والصحراوية في مناخها وفي خيراتها حيث تلفظهم أراضيهم الفقيرة نحو استغلال البحر المعطاء والمتجدد في خيراته، بل ان مياهها البحرية تقع ضمن أغنى مصائد الأسماك في العالم والتي كانت تعطي أسبانيا حتى ١٩٧٦ انتاجا سنويا نحو ١,٥ مليون طن من مختلف أنواع الأسماك (حسب تقرير مرفوع الى مجلس الكونجرس الأمريكي سنة ١٩٧٩).

ولهذه الحرفة في الصحراء الغربية ثلاثة مراكز رئيسية لأسماكها ولمراكب وقوارب الصيد البحري والعاملين عليها هي:

رأس بوحدور والداخلة (سيسروس) ثم الكويرة جيولا، ويقام في جميعها مصانع للأسماك سواء لتعليبها أو تجفيفها أو تمليحها..

ومن أهم مصيدها هو: الربيان، الذي اشتهرت به مياه خليج لفرير الذي تقع عليه بلدة سيسروس (الشكل رقم –٢–) وقد احتلت هذه الحرفة

بمصيدها والعاملين فيها المكانة الحرفية الأولى في البلاد بالرغم من مواجهتها لعدد من المشكلات أهمها: منافسة قوارب صيد سكان جزر الخالدات (كناريا) لهم والتي تتمتع بالميكنة والتقنية المعاصرة في أعمال صيدها وحفظ وتصنيع مصيدها... مقابل طرق ووسائل الصيد التقليدية التي تنشر بين العاملين في الصيف من أبناء البلاد حتى أصبح الضباب الذي يسببه تيار كناريا البارد المار من أمام سواحلها من أهم مشكلات أعمال الصيد على ظهور هذه القوارب اليدوية وطرق ووسائل الصيد القديمة... على الرغم من أن الضباب من وجهة النظر الجغرافيةالاقتصادية يعتبر عاملاً جغرافيا طبيعيا هاما من أعمال الصيد البحري إذا قارناه بما هو على سواحل البيرو ونيوفوندلند وهوكايدو...

ومن المشكلات الأخرى ادعاء الصيادين بسرعة مياه تيار كناريا لدرجة أنها تجرف معها قواربهم وشباكهم اذا ما وقعت ضمن نفوذ التيار، كذلك كثرة الرؤوس الصخرية التي تعترض المياه الساحلية والتي تعتبر خطرا على القوارب وشباك الصيد هذا خاصة في أوقات الضباب الكثيف وأخيرا عدم وجود أرصفة (فرض) توفر الحماية لهم ولمراكب صيدهم، وعلى الرغم من هذه المشكلات وتعددها فإن من أهم صادرات الصحراء الغربية الأسماك الطازجة والمجمدة والمجففة... والمستقبل أمام تطوير هذه الحرفة مشجع بعد ازالة العقبات الطبيعية والبشرية السابقة مع توفر الاستقرار الأمني والسياسي للعاملين في الصيد البحري. وتقدر كمية المصيد السنوي الآن بنحو ٤٠٠٠ طن من جميع أنواع الأسماك على أثر اضطراب أحوالها السياسية والعسكرية.

وفيما يخص الانتاج التعديني : فالمقصود به في هذا القطر ما تتمتع به يابسة هذا القطر من ثروة معدنية مؤكدة أو مستغلة. أما عن الأولى: فقد تأكد لها وجود تكوينات الفوسفات (أحد الصخور الاقتصادية) في مناطق: العيون، حجونا، ثم بوكراع بالاضافة إلى تكوينات الحديد في جنوب شرق البلاد قرب الحدود الموريتانية في منطقة بودورو وترسيباته هنا من النوع الرديء تكثر فيها شوائب السلكا وأكسيد التيتانيوم ولكنها ذات احتياطي كبير مما يشجع مستقبلا على استغلالهما. وتتواجد جميع مناطق الفوسفات في جهة «الساقية

الحمراء» خاصة في منطقة بوكراع الأغنى وفوسفاتها من نوع التريكالسيوم بل تعتبر من أغنى مناطق احتياطيات الفوسفات في العالم حيث يقدر احتياطها بنحو ٦٠٠ مليون طن ولتصبح صاحبة رابع مخزون من الفوسفات في العالم بينما توجد تكوينات الحديد في شرق وادي الذهب. ويستغل حاليا من مناطق الفوسفات فقط مناجم بلدة الدورة (دورا) الى الشمال من بلدة العيون بينما الأعمال التحضيرية لاستغلال مناجم بوكراع على قدم وساق وتنتظر المواقع الأخرى استغلالها إذا ما توفرت لها متطلبات لتعدينها.. وتعتبر هذه المواد الاقتصادية من وراء تأكيد نشأة المشكلة السياسية لبلادها بل واستمرارها من وجهة نظر الاقتصاديين الدوليين. ويعوق التوسع في استغلال مناجم «بوكراع» هذه عدم توفر ميناء بحري محلي ملائم لاعداد الفوسفات لتصديره والذي كان يصدر عن طريق ميناء «طرفاية» زمن أن كانت مدينتها مستعمرة أسبانية وحتى أعيدت الى الأم المغرب، كذلك يعتبر نقص المياه عائق رئيسي هام في استغلال الفوسفات نظرا لطبيعة تعدينه يضاف اليها نقص وسائل وطرق النقل الثقيلة الرخيصة خاصة السكك الحديدية لتصل بينها وبين سواحل المحيط الأطلسي إذ أن معدل بعد المناجم عنها يتراوح ما بين ١٢٠ — ٢٨٠ كم، ويذكرنا هذا بضرورة مد الخط الحديدي الواصل بين مناجم حديد موريتانيا[٣] قرب الزويلات حيث توجد «تلال» ترمنيس تمتد حتى ميناء نواديبو الموريتاني بطول قدره ٤٠٠ ميل (٦٤٠ كم) التفافا حول حدود منطقة ريودورو وذلك بعد أن فشلت مفاوضات الشركة المستغلة وحكومتها الفرنسية مع السلطات الاسبانية آملين في أن يمتد الخط الى أحد موانيء الصحراء الغربية وخاصة سيسروس المواجهة لمناجم الحديد في الزويرات.

ومن المعادن الأخرى التي ثبت وجود تكوينات لها في الصحراء الغربية: التيتانيوم والفانيديوم (معادن اخلاط حديدية) والزنك واليورانيوم والنحاس والذهب ثم الحديد المغناطيسي (المجنتيس) وهذا الأخير يبلغ مخزونه نحو ٧٠ مليون طن...

كما يتوقع للصحراء الغربية مستقبلا في انتاج الغاز الطبيعي والنفط (من تقرير

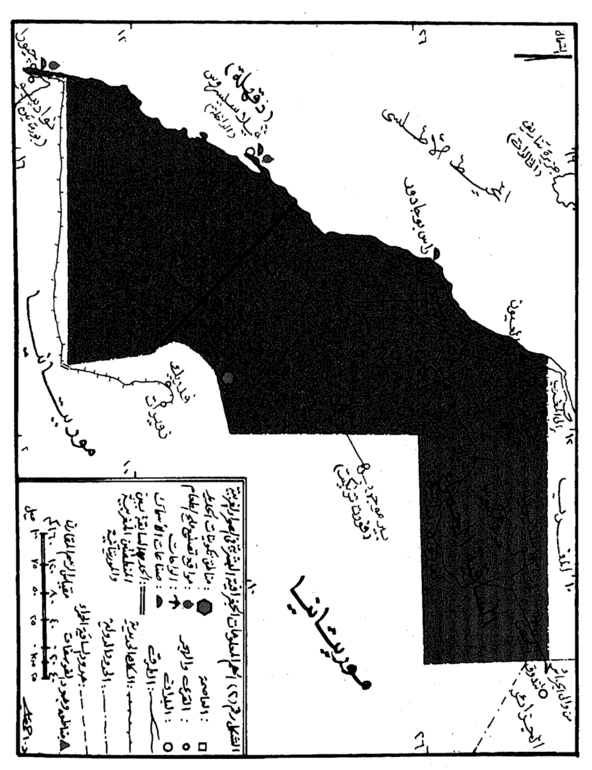
مرفوع للكونجرس الأمريكي) ويعزي هذا المصدر أن تأكيد وجود هذه الثروات له دوره في تمسك أطراف مشكلة الصحراء الغربية بأن يؤكد كل منهم ملكيته لها.

وفيما يتعلق بالانتاج الصناعي : فله في البلاد عدة مؤسسات حديثة خاصة منشات تصنيع الأسماك المصيدة محليا في بلدان: بوجادور ودقهلا ثم جيولا ثم منشآت استخراج الملح وتكريره في عدة مواقع أهمها دقهلا وجوالا (الشكل رقم - ٢ -) ثم منشآت اعداد تصدير الفوسفات في بلدة دوارا.

وفيما يتعلق بالنفط : فقد نشطت أسبانيا بل واستماتت في البحث عن مصائد في الصحراء الغربية حتى أنه كان من أسباب تأخير انسحابها منها.. ومن أحدث محاولاتها تلك التي بدأت في سنة ١٩٥٨ باعطاء امتيازات عديدة للبحث عن النفط لشركات أمريكية هذا خاصة في منطقة الساقية الحمراء مع تركيز على مناطق حدودها مع الجزائر أكد لها مطامعها تلك التقارير السجيومترية للأقمار الصناعية عن الحقائق السابقة في حرفة التعدين.

التاريخ السياسي للبلاد :

بلاد الصحراء الغربية موضوع هذه الدراسة توكد معالمها البشرية عامة والتاريخية منها خاصة بل والطبيعة الجغرافية لأرضها على أنها جزء لا يتجزأ من عالمينا العربي الصغير والاسلامي الكبير وكان دخولها في مفهوم هذين العالمين معا على أثر ضم الفتوحات العربية الاسلامية لها الى الدولة الأموية في نحو القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وذلك بعد أن كانت موطنا للانسان البربري الوثني وهكذا تأكدت مسيرتها العربية الاسلامية منذ ذلك التاريخ الاسلامي المبكر وحتى يومنا هذا ولكن لتتعاقب عليها أنظمة الحكم العربية الاسلامية وتسمياتها المختلفة على النحو التالي: الأمويون+الأدارسة+المرابطون+ الموحدون+ المرينيون + الوطاسيون + الشرفاء (الأشراف).



وبعد هذا التاريخ العربي الاسلامي المستقل الطويل الصحراء الغربية ظهرت الأطماع الأوروبية (البرتغالية والأسبانية) الحاقدة في الصحراء ضمن خطة ملاحقتها للمسلمين في عقر دارهم في شمال أفريقيا. ففي النصف الأول من

القرن الخامس عشر الميلادي (١٤٣٤م). نزل البرتغاليون على سواحلها ولكن بعد نحو عشر سنوات بدأوا في التوغل نحو الداخل... وقد حد من أطماعهم وتوغلهم هذا سيادة المناخ الصحراوي الذي كانوا على أول عهدهم به انه حد من توغلهم شرقا في الصحراء الكبرى.

أما فيما يخص أسبانيا فقد بدأت تتطلع الى احتلال المنطقة بعد استيلائها على جزر الخالدات (كناريا) في النصف الأول من القرن ١٥ الميلادي وبدأت حينما اجتهد الأسبان في البحث عن ميناء كمحطة وتموين لسفنهم الحربية والتجارية.

وفي نوفمبر سنة ١٨٨٤م بدأت أسبانيا احتلالها للمناطق الساحلية مطلقة عليها اسم / وادي الذهب (ريودورد) لتضليل شعبها الأسباني بأنها استولت على بلاد غنية واقناعهم بالهجرة اليها وكان ذلك محصورا في المساحة بين الرأس الأبيض (بلانكي) حيث بلدة سيسروس ورأس بوجادور... ومن بعدها لتمد نفوذها في الداخل شرقا وشمالا حيث اصطدمت بالنفوذ المراكشي. وباحتلال أسبانيا للصحراء الغربية أفقدتها أهميتها اللامنافسة في خدمة ابل وخيول قوافل أعمال التجارة والتنقل بين شمال أفريقيا وغرب أفريقيا حيث تتميز بسهولة في تضاريسها وانتشار واحات الراحة والتموين والعلف الأخضر.

وفي مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤م اتفقت أسبانيا مع الدول الاستعمارية الأوربية على ابقاء نفوذها في الصحراء وأصبحت البلاد مستعمرة أسبانية تابعة لحاكم جزر كناريا فيما عدا شئونها الداخلية التي كانت تتبع حكومة مدريد مباشرة، وبعد ذلك جاءت اتفاقيات سنوات ١٩٠٠، ١٩٠٤، ١٩١٢ المعقودة بين كل من فرنسا وأسبانيا لتؤكد على استمرار النفوذ الأسباني وترك حرية عملها في الصحراء وتعيين حدودها مع جاراتها موريتانيا والجزائر ثم المغرب التي كانت تابعة للاستعمار الفرنسي ولكن أسبانيا استمرت في التوسع خاصة في الشمال لتحتل بلدة سمالا في سنة ١٩٣٤م ولكن ما أن جاءت سنة ١٩٤٥م حتى توقف توغلها شرقا وشمالا ولتبقى ضمن اطار الحدود السياسية للصحراء في مقابل أن

تحتل فرنسا منطقتي «تفليلت» و«الركيبات» قرب تندوف، أما عن موقف شعبها من هذا الاحتلال فانه من الطبيعة العربية والاسلامية الثائرة للكرامة وردع المعتدي والذي تمثل في عدد من صور الكفاح السلبي والمسلح من أهمها أحداث سنة ١٩٥٨م حيث كانت ثورة أشقائهم في أقطار تونس والجزائر ثم في المغرب على أشدها فقررت أسبانيا على أثرها توحيد شطري الصحراء (الساقية والوادي) ضمن مستعمرة واحدة وعلى أن تتبع حاكم مقاطعة جزر كناريا مباشرة.

وأول تنازل من أسبانيا اتجاه حركات المقاومة تلك كان في سنة ١٩٧٥م حين أجرت أسبانيا استفتاء بين السكان حول البقاء ضمن المستعمرات الأسبانية أو الاستقلال. وفي ١٤ /١١ /١٩٧٥م وتحت الضغوط الدولية والخاصة اضطرت اسبانيا الى عقد اتفاق بينها وبين المغرب وموريتانيا في مدريد ينص على: ضرورة انتقال ادارة الصحراء الى الدولتين في موعد أقصاه ٢٨ /٢ /١٩٧٦م... مما اضطرها الى الانسحاب من الصحراء. وقد رافق هذا القرار انسجام المصالح والوفاق بين كل من المغرب التي كانت قد استكملت مظاهر استقلالها في سنة ١٩٥٨م، وموريتانيا التي استقلت في سنة ١٩٦٠م حول تقسيم الصحراء الغربية بينهما والذي تم في فبراير سنة ١٩٧٦م على أن تنال المغرب (٢٣٠,٠٠٠ كم٢) متمثلاًفي كامل الساقية الحمراء والنصف الشمالي لوادي الذهب، بينما تأخذ موريتانيا الثلث (١١٥,٠٠٠كم٢) وهو النصف الجنوبي من وادي الذهب وأطلقت عليه اسم «تيرس الغربية» بل واعتبرتها المقاطعة رقم ٩ من مقاطعاتها الادارية وذلك في ١٢ /٣ /١٩٧٦م. وعينت بلدة دقهلا مركزا لها.

بينما يتقاسم البلدان مناصفة لثروة الفوسفات الصحراوي في أبوكراع وعلى أن تسمح موريتانيا للقوات المغربية بالمساهمة في الدفاع عن نصيبها من الصحراء.

وفيما يخص موقف شعب (سكان) هذه البلاد من الاجراءات المغربية – الموريتانية فقد كان أهمه موقف منظمة البوليساريو P.O.L.I.S.A.R.I.O.

المعارض تماما لهذا التقسيم بل الداعي الى الاستقلال التام للصحراء تحت اسم / الجمهورية الصحراوية الاسلامية الديمقراطية / والتي سرعان ما وجدت تعاطفا معنويا وعمليا من كل من الجزائر وليبيا ونحو ٢٦ قطرا أفريقيا والعديد من الأقطار الاسلامية وغير الاسلامية خارج القارة الافريقية بمعنى آخر أن هذا الموقف لهذه المنظمة (البوليساريو) قد صعد مشكلة بلادها لتمثل مكانتها في المحافل والمؤتمرات الاسلامية والافريقية بل والعالمية التي تعيشها حاليا وتؤيدها في ذلك العطف على أحداثها الأخوية الدامية والمكلفة اقتصاديا بل واستراتيجيا وسياسيا لكلا الطرفين على الصعيدين العربي والاسلامي !!.

وفيما يلي سنعرض من وجهة النظر الحيادية والله أعلم لدور ووجهة نظر جميع الأطراف الرئيسية في هذه المشكلة بل والمشاركين فيها من خارج أقطار المغرب العربي.

<u>ففيما يخص المملكة المغربية</u> : فهي صاحبة ادعاء تاريخي في ضم أراضي الصحراء الغربية اليها وذلك على أساس أنها كانت أحد أقاليمها المغربية حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي حين احتلها البرتغاليون ومن بعدهم الأسبان الذين تأكدت سيطرتهم على الصحراء بموجب الاتفاقات العديدة بينهم وبين فرنسا ثم مع السلطات المغربية ولتنقطع مظاهر السلطة المغربية عن الصحراء الغربية منذ ذلك التاريخ ولكن لتتبقى بينها الصلات الجغرافية السكانية... وما أن استكملت المغرب مظاهر استقلالها عن فرنسا في سنة ١٩٥٨م وما تلاه من مظاهر الاستقرار واعداد النفس حتى بدأت بالمطالبة في استعادة المواقع العديدة من أرضها الخاضعة لأسبانيا ومنها : طرفاية، مليله، ستبه والصحراء الغربية على أنها جميعا تقع ضمن التراب المغربي متبعة في ذلك العديد من الخطوات في اتجاهات عربية وأفريقية وأممية وعظمى مختلفة، أهمها مع موريتانيا بعد وقت مطالبها بضمها اليها ومنذ ١٩٦٩ حين تم التنسيق بينها منذ ذلك الوقت والذي من أهم مظاهره اقتسامهما معا للصحراء الغربية والذي استمر حتى انسحاب موريتانيا من «تيرس الغربية»؛ سنة ١٩٨٠م لتتخلص نهائيا من مضاعفات هذه المشكلة ومن أبعادها السلبية على أوضاعها الاقتصادية

والسياسية والعسكرية خاصة وأنها قطر فقير في امكاناته الاقتصادية والبشرية (٢,٢ مليون نسمة) بل والعسكرية، وواسع في مساحته (١,٠٨ مليون كم٢ أي أنه في غنى عن زج نفسه في فشل المشكلة... فأعلنت انسحابها من ثلثها وطلبت وسحبت القوات المغربية من أراضيها حتى وصلت العلاقات بينهما الى تهديدها بالقطع بينما تقاربت مع منظمة البوليساريو والأقطار المؤيدة لهذه المنظمة، وعلى الرغم من موقفها الواضح هذا فقد هددتها المغرب عدة مرات في امكانية غزو جيشها لموريتانيا إذا تطلب الأمر مطاردة مقاتلي البوليساريو داخل موريتانيا. ولتستمر المغرب في تأكيد مطالبها في الصحراء وذلك باستعادة احتلالها للقسم الموريتاني بعد انسحاب الأخيرة منه وتركيز عدد من جيشها في واحات وبلدان الصحراء وطلبها للعديد من صفقات الأسلحة الأمريكية المناسبة لقتال الثوار ثم اعلان مواقفها السياسية وبصراحة ضد كل دولة تؤيد البوليساريو أو تعترف بها بحيث أصبحت وحدها في مواجهة منظمة البوليساريو ومن هم وراءها من الأقطار والمنظمات المعترفة بها...

والذي انعكس على مواجهتها لوحدها للهجمات العسكرية الضارية من البوليساريو بأسلحتهم الحديثة وما ينتج عنها للأسف من خسائر كبيرة بين الطرفين في الأرواح والاقتصاد بل وفي السمعة والمكانة السياسية والاقليمية العالمية. ومن أهم مظاهر التغير في الموقف المغربي هذا هو / استعداد حكومته أخيرا في مؤتمر نيروبي بعدم ممانعتها في اجراء استفتاء بين سكان الصحراء على الاستقلال أو البقاء في اطار المملكة المغربية تحت اشراف منظمة الوحدة الافريقية بينما تبقى نظرتها الى البوليساريو على أنها منظمة لا حق في وجودها إذ وجدت بعد انسحاب أسبانيا من الصحراء وليس قبله وقد خُلقت لكي تتوسع على حساب المغرب وبالتالي استحالة الاتصال معها وأن الصحراء الغربية بكاملها هي صحراء مغربية معتمدا على المبررات التاريخية. وحكومة المملكة المغربية ليست وحدها في هذا الموقف بل تؤيدها في هذا أيضا أحزاب المعارضة المغربية..

أما الجزائر فقد أعلنت معارضتها رسميا وعمليا منذ بدء مظاهر التنسيق بين

المغرب وموريتانيارسميا وعمليا كذلك منذ بدء مظاهر التنسيق بين المغرب وموريتانيا من جهة وأسبانيا من جهة أخرى مدعية أن تقرير المصير هو من حق سكان هذا الاقليم، ولكن في مايو سنة ١٩٧٠م بدأ الانفراج الجزائري المغربي حين التقى الرئيس المرحوم هواري بومدين مع الملك المغربي الحسن الثاني في مدينة تلمسان الجزائرية واتفقا على أن يتبنيا رأيا واحدا أمام الأطماع الأسبانية وضرورة رحيلها عن الصحراء كما عقدت اتفاقية بينهما تم بموجبها الاعتراف بالحدود الفاصلة بينهما في المناطق الجنوبية الشرقية بالنسبة للمغرب (تندوف) وذلك في يونية سنة ١٩٧٢م مقابل أن تؤيد الجزائر موقف المغرب بالمطالبة باستعادة الصحراء اليها، وقد صاحب عقد هذه الاتفاقيات الأماني الجزائرية الصادقة يتكفل الجزائر بها حدودا دولية مستقرة، بينما تضمن المغرب مشاركة الجزائر لها في حل مشكلة الصحراء لصالحها ولو حتى في اطار اتحاد فدرالي أو كونفدرالي ولكن تعدد الأحداث السياسية ضد نظام الحكم المغربي وما نتج عنه من هروب عدد من عناصر هذه الأحداث الى الجزائر ثم عدم مصادقة ملك المغرب على اتفاقية حُسن الجوار والحدود التي عقدها مع الجزائر... انعكس على اضطراب العلاقات وهدم الوفاق بين الشقيقتين المغربيتين بحيث ما أن أعلن الاتفاق الثنائي بين المغرب وموريتانيا في فبراير سنة ١٩٧٦م والقاضي باقتسامهما للصحراء حتى تحركت الجزائر علنا ضد هذا الاتفاق للقضاء عليه إما ضدا في نظام الحكم المغربي أو سعيا منها الى ابقاء التوازن بينها وبين ندها التقليدي وهي مملكة المغرب اذ لو أقر أمر بقاء الصحراء الغنية في مواردها المخزونة وفي موقعها الاستراتيجي في الأرض المغربية لانقلب ميزان القوى في المغرب العربي كله في غير صالح الجزائر التي تتنافس عليه مع مملكة المغرب... أو تخوفها منها على قفل الحدود المغربية والصحراوية (٣٤كم) المؤدية بها الى الأطلسي (الشكل رقم —٢—) وأمام المتوقع من صادرات حديد تندوف الجزائرية احدى أهم مناطق احتياطي الحديد في العالم بعد أن كان الرئيس الراحل بومدين قد لوح لملك المغرب به وهذا الأخير كان قد طمأنه على توفير وسلامة هذا المنفذ سواء في الأراضي المغربية أو الصحراوية وهذا هو الاحتمال الوارد إذ أنه لو ضمنت الجزائر حكومة مستقلة موالية لها في الصحراء الغربية لأصبح من المؤكد قيامها وبسرعة باستغلال حديد تندوف وتصديره خاما الى الخارج لدعم اقتصادها المحتاج الى العملات الحرة...

ويوضح هذا الرأي ويؤيده ملايين الدولارات الجزائرية التي تقدم كمعونات للبوليساريو حتى يومنا هذا ونظن أن هذا الموقف الجزائري لن يتبدل أبدا إلا بضمانها لمنفذ لها على الأطلسي ويذكرنا هذا بفشل محاولات موريتانيا وفرنسا في اقناع أسبانيا بالسماح لها في مد خط حديدي يوصل بين مناجم حديد موريتانيا الى ساحل الأطلسي عبر أراضي الصحراء!!!.

ومن أهم المظاهر الجزائرية المعاكسة للمغرب هو بدء تأييدها علنا لمنظمة البوليساريو منذ سنة ١٩٧٥م عسكريا وماليا وسياسيا بل وسكنيا معتمدة على اتخاذها من قرارات الأمم المتحدة سندا لها في هذا التأييد وأخيرا موقف الأغلبية الافريقية المؤيد للبوليساريو.

أما موقف الأمم المتحدة ومنظماتها المتخصصة من هذه المشكلة العربية الاسلامية وبعد أن عرضت عليها عدة مرات سواء في زمن وجود أسبانيا فيها أو بعد انسحابها منها فقد تمثل موقفها في العديد من القرارات والتوصيات التي نوجز لها فيما يأتي :

١ – في سنة ١٩٦٥ أصدرت قرارا اجماعيا يدعو كل من المغرب وموريتانيا الى التفاوض معا حول تحديد مستقبل الصحراء بعد أن تنسحب أسبانيا منها ولم يعمل بهذا القرار لأن العداء كان محتدما بين كل من المغرب وموريتانيا بسبب عدم الاعتراف السياسي من الأولى بالثانية.

٢ – في سنة ١٩٧٣ أصدرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة قرارا جماعيا بضرورة اجراء استفتاء شعبي عام بين سكان الصحراء الغربية وعلى أن يجرى مشروع الاستفتاء في سنة ١٩٧٥م.

٣ – أصدرت محكمة العدل الدولية في لاهاي بهولنده حلاً يدعو فيه الأطراف المعنية بمشكلة الصحراء (المغرب وموريتانيا ثم أسبانيا) الى الأخذ بقرارات الأمم المتحدة الصادرة في سنة ١٩٦٥ وسنة ١٩٧٣م خاصة منها: اجراء

استفتاء سكاني كحل قانوني محايد لهذه المشكلة، كما نوه ذلك الحل بضرورة الأخذ في الاعتبار بالروابط التاريخية السابقة بين المغرب والصحراء الغربية.

٤ — في ٢١ نوفمبر سنة ١٩٧٩م أصدرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة قرارا يدعو الى رفض ضم الصحراء الى كل من المغرب وموريتانيا وضرورة اعطاء حق تقرير المصير لسكان الصحراء الغربية. أما موقف فرنسا فهو محايد دائما بل لا رأي لها في مثل هذه المشكلة التي يعتبر أطراف النزاع فيها من أهم زبائن منتجاتها ومصادر خاماتها وعلى الرغم من ذلك فهي لا تعترف بمنظمة البوليساريو.

٥ — في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٨١ أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك قرارا ينص على ضرورة التفاهم بين المملكة المغربية ومنظمة البوليساريو على تقرير مصير الصحراء الغربية.

بينما موقف الاتحاد السوفيتي واضح والمتمثل في توفير الأسلحة المتقدمة لمقاتلى البوليساريو مباشرة أو عن طريق دولة أخرى بينما لم تعترف حكومته حتى الآن بالجمهورية الصحراوية ومعها في هذا الموقف جميع الأقطار الشيوعية، وقد أدى العون العسكري السوفيتي للبوليساريو الى اثارة غضب ونقد المغرب اتجاهه بل وتهديد المصالح الاقتصادية الفوسفاتية والحديدية المشتركة بينهما.. بينما يعرض البعض الى رأي آخر حول موقف الاتحاد السوفيتي المتردد من هذه المشكلة وهو أن الاتحاد السوفيتي مستعد للتضحية بمصالحه المالية في المغرب مقابل ضمانه لقاعدة عسكرية بحرية وغيرها في هذا البلد الدفيء والمفتوح للأعمال البحرية العسكرية طيلة أيام السنة اذا ما استقل عن المغرب!!!.

وفيما يخص موقف حكومة الولايات المتحدة : فقد كان حتى أوائل سنة (١٩٨٠م) محايدا بالنسبة لأطراف النزاع في هذه المشكلة حفاظا على مصالحها النفطية والغازية (٩٪ من وارداتها) والتجارية مع الجزائر وفوسفات وحديد

وكوبالت المغرب. ولكنها بعد ذلك التاريخ التقريبي بدأت تضع النقاط على حروف موقفها في هذه المشكلة والذي وضح منه أنه مع المغرب ومن أول مظاهره موافقة مجلسها التشريعي (الكونجرس) على اقراض مبلغ ٢٣٥ مليون دولار لشراء أسلحة أمريكية تؤيد حاجات المغرب من أسلحة لملاحقة الثوار وقتال الصحراء وقد بدأ تسليمها لأول دفعة منها في يونية ١٩٨٠م سبتمبر وستستمر حتى أوائل سنة ١٩٨٢م؛ كما اعترفت دوائرها بحق المغرب في الاشراف الاداري على الصحراء.. كل ذلك للحفاظ على نظام الحكم المغربي ذي الصداقة التقليدية لواشنطن وهو على أية حال من وجهة نظرها أفضل لها من أي نظام بديل مثل الذي حدث في الجماهيرية العربية الليبية واليونان والعراق وإيران... بل ان بعض الأمريكيين يرى في صفقة الأسلحة هذه للمغرب خير وسيلة لاقرار مبدأ المفاوضات بين المغرب والجزائر ثم البوليساريو اذا حقق الملك الحسن عدة انتصارات على البوليساريو يكون على أثرها قادرا على تقديم نوع من التنازلات لها.

وقد أوصل الاهتمام الأمريكي هذه المشكلة إلى جلسات ومناقشات الكونجرس الأمريكي والذي بدأ يناقشها في يومين متتاليين هما ٢٣-٢٤/ ٧/ ١٩٧٩م وبعد أربع سنوات من بدأ القتال بين البوليساريو والمغرب وبعد زيادة الاهتمام العالمي بهذه المشكلة وتهديدها للاستقرار في منطقة شمال غرب أفريقيا ولوحدة القارة الأفريقية اذ يكون دائما الأفضل للمصالح الأمريكية الاقتصادية ضمان الاستقرار في مناطق تلك المصالح.

الخاتمة

من خلال سطور صفحات هذه الدراسة الجغرافية لبلاد هذه المشكلة السياسية العربية الاسلامية في الجانب الأفريقي من عالمنا نتعرف على النتائج التالية:

ففيما يخص جغرافيتها الطبيعية: فالصحراء في جميع مظاهرها الجغرافية الطبيعية امتداد غير منقطع ومسترسل للجغرافيا الطبيعية لأقطار غرب أفريقيا العربية ودون أي ميزة لها عليها سواء في الموقع أو البنية أو التركيب الجيولوجي أو التضاريس أم المناخ أو التربة..

وفيما يخص جغرافيتها السكانية : ففي الصحراء تتكرر نفس الصورة السكانية التي في المغرب والجزائر وموريتانيا لتؤكد على أنها امتداد سكاني مسترسل لهذه الأقطار في موقعها الحالي ولتؤكد على الوحدة السكانية لها سواء في بنية السكان أو في كثافتهم ثم في لغتهم ودينهم الاسلامي الحنيف.

وفيما يخص جغرافيتها الاقتصادية :

فقد تعددت حرف سكانها على الرغم من قلة عددهم وبعثرة انتشارهم على أراضيها... ولكن يعاب على هذه الحرف دور الاستعمار الأسباني السلبي فيها حين نجح في أن تبقى تقليدية وبدائية في طرقها وأساليبها وبالتالي في تدني مردودها وحيواناتها كماً ونوعاً اذا استثنينا حرفة تعدين الفوسفات التي تنعم بالتقنية في استخراجها واعدادها للتصدير. وعلى الرغم من الظاهرات المعاصرة المتدنية الا أن المستقبل الاقتصادي المزدهر ينتظر هذه البلاد بعد أن أكدت ذلك الدراسات الجيولوجية والهيدرولوجية والبحرية الاقتصادية على غنى ثرواتها المعدنية والمائية والبحرية وامكانية تنميتها وتطويرها متمنية لها دورا مثيلا لدور دولة الكويت الشقيق ذات الذكرى الاقتصادية الحسنة في منطقة الخليج

العربي. وقد انعكس هذا التفاؤل الاقتصادي لمستقبل هذه الأرض العربية على تعقيد مشكلتها السياسية وزيادة تمسك أطراف النزاع فيها ومن هم وراؤهم كل يفند آراء الآخر ويدعم مطالبته بها بمطالب تاريخية أو وطنية أو بحق الجيرة وتأمين النفس أو للحفاظ على توازن القوى التقليدية في منطقة المغرب العربي... الخ.

وفي خاتمة هذه الدراسة لا يسعنا إلا أن ندعو الله تعالى لجميع الأطراف المغربية العربية المتنازعة بالتصالح والتآخي ووقف هدر الدماء العربية المسلمة وتبديد الأموال التي هي في أمسّ الحاجة اليها لغذاء شعوبها وتعليمها وعلاجها وتصنيعها... ثم وقفها للتدخل الأجنبي فيها المتعدد الأطماع سواء منها العسكرية وخاصة بيع السلاح والقواعد العسكرية أو الاقتصادية وخاصة استغلال خبايا أرضها المعدنية واليدرولوجية وأحيائها المائية البحرية...

كما ندعو جميع الحكومات العربية والاسلامية إلى تركيز اهتمامهم وجهودهم الصادقة والمحايدة لاقناع أطراف النزاع على المصالحة تنفيذا لقول الله جل جلاله وهو أصدق القائلين : «إنما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون» (الحجرات – ١٠ –).

«صدق الله العظيم»

ونفع بكلامه الكريم حكام العرب والمسلمين.

د. أحمد شقلية

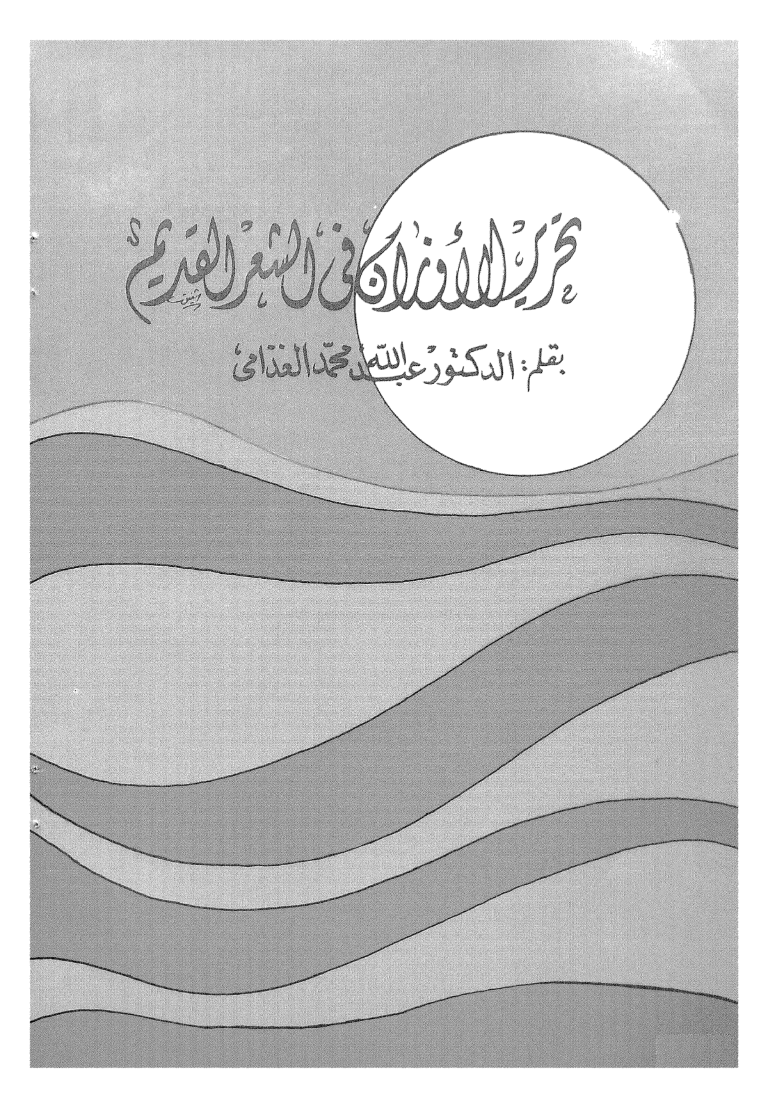
الهـوامش

(١) نقسم هذه البلاد الى قسمين لكل منهما تسمية كالتالي:
الساقية الحمراء أو سنجو الحمراء أو ساقية العمر.. وهو القسم الشمالي من البلاد (الشكل رقم – ٢ –) وهي الأغنى في ثروتها المعدنية والمائية والزراعية وبالتالي في عدد سكانها..

وادي الذهب أو ريودورو.. وهي الأكبر في مساحتها، سميت نسبة الى ادعاء الأسبان بغناها في الذهب.

(٢) يقدر البعض لاجمالي مساحتها بنحو ٣١٠ ألف كم٢ وهي في هذا كمعظم الأقطار النامية التي يصعب الحصول على أرقام ثابتة لمساحتها.

(٣) تعدن حديد موريتانيا شركة / مفيرما Miferma / توزع أسهما على شركات من فرنسا ٥٠٪ ومن بريطانيا وايطاليا وألمانيا الغربية، بينما لموريتانيا من ضريبة تتراوح مابين ٦ – ٩٪ من اجمالي الأرباح السنوية للشركة!!!.


تحريك الأوزان في الشعر القديم
بقلم: الدكتور عبد الله محمد الغذامي

لم يكن الشعر الحر خروجا عن الوزن الشعري العربي، وان كان خروجا عن المعايير الخليلية للأوزان. وهذا لا يطعن في حقيقة الشعر الحر كشعر ولا في مستواه كفن لغوي بديع. لأن قيد الوزن المطلق متوفر فيه بقيامه على التفعيلة كجذر عروضي للقصيدة. ثم لأن الخروج عن معايير الخليل لا ينفي صفة الشعر عن القصيدة. وهذا ليس برأي منطقي نطرحه وانما هو خلاصة استخلصناها من تتبع كتب العرب سواء دواوين شعر أو كتب أدب ونقد ولغة. وسنعرض ذلك في هذا البحث متتبعين مسيرة الشعر العربي وخروجه عن قواعد الخليل منذ عصر الجاهلية.

فأولا : الخروج عن الوزن الواحد للقصيدة :

يقول الباقلاني ان ما اختلف وزنه ليس بشعر[1] وعليه فالشعر عنده ليس بأن يكون موزونا ومقفي فقط بل متفق الوزن أيضا. ولكن غيره ممن سبقوه من شيوخ الأدب واللغة يرون غير ما يرى. وليس أدل على ما نقول من دخول قصيدة عبيد بن الأبرص :

أقفــر من أهله ملحــوب فالقطبيـــات فالذنـــوب

لديوان الشعر العربي من أوسع أبوابه، فقد جعلها أبو زيد القرشي أولى المجهرات في كتابه «جمهرة أشعار العرب». بل ان التبريزي ليجعلها إحدى المعلقات العشر. ولم يكن ذلك عن جهل منهم بخروجها عن الوزن الخليلي فقد أكد ذلك الخروج قدامة بن جعفر وقال إن في هذه القصيدة أبياتا (قد خرجت عن العروض البتة)[2]. وسمى ما فيها بالتخلع وهو – عنده – من عيوب الشعر، وهو أن يكون الشعر (قبيح الوزن قد أفرط تزحيفه وجُعل ذلك بنية للشعر كله)[3]. وهذا رأي قدامه في قصيدة عبيد، وهو ينسب ما فيها من

اختلاف عن ما يعهده من بحور الشعر الى «التخلع» أي كثرة الزحاف وسنرى أن الأمر فيها غير ذلك عندما نحلل وزنها. ولكننا نذكر قبل ذلك رأي عالم آخر في أمر هذه القصيدة، هو أبو عبيد المرزباني الذي ينقل عن الأخفش وصفه لهذه القصيدة بأنها شعر غير مؤتلف البناء ويسمى عند العرب «الرمل» إن العرب لا يجدون منه شيئا إلا أنه عيب في الشعر(٤) والمرزباني بنقله قول الأخفش هذا يأخذ برأي قدامة السابق من جعل الزحاف والاكثار منه هو العلة في هذا الوزن الغريب للقصيدة ويدل على ذلك نقله لرأي قدامه في موطن آخر من نفس الكتاب(٥). ولكن هذا الموقف من قدامه بن جعفر ومن المرزباني لا ينفي صفة الشعر عن قصيدة عبيد حتى عندهما. بل إن قدامة يقول عن البيت التالي لعبيد :

والحي ما عاش في تكذيب　　　طول الحياة له تعذيب

(هذا معنى جيد ولفظ حسن إلا أن وزنه قد شانه) ويعلل هذا الحكم بقوله (فما جرى من التزحيف هذا المجرى في القصيدة أو الأبيات كلها أو أكثرها كان قبيحا، من أجل افراطه في التخليع واحدة، ثم من أجل دوامه وكثرته ثانية)(٦). وذلك لأنه يرى أن التزحيف لا يستحب الافراط فيه. وانما يكون في بيت أو بيتين من غير توال ولا اتساق. فقدامة إذن يناقش موضوع وزن عبيد من حيث افراط صاحبها في استخدام الزحاف، وهذا أمر يراه قدامة من عيوب الشعر المخلة بالوزن ويجاريه في ذلك المرزباني. ولكن أمر القصيدة غير ما ذهب اليه قدامة، إذ إن اختلاف وزنها عن معهود الأوزان ليس لما فيها من زحاف، وانما لأخذ الشاعر بفكرة المزج بين البحور وهذا ما نراه جليا في القصيدة.

(وسنورد منها أبياتا نوضح معها أوزانها كي يتضح الأمر فيها).

يقول عبيد بن الأبرص[٧].

١ – أقفر من أهله ملحوب
فاعلتن. فاعلن. مفعولن

٢ – فالقطبيات فالذنوب
فاعلتن. فاعلن. فعولن.

٣ – فراكس فثعيلبات
مفاعلن. فعلن. فعولن

٤ – فذات فرقين فالقليب
فاعلتن. فاعلن. فعولن

٥ – فعرة ، فقفار حبر
مفاعلن. فعلن. فعولن

٦ – ليس بها منهم عريب
فاعلتن. فاعلن. فعولن.

٧ – وبدلت من أهلها وحوشا
مفاعلن. مستفعلن.فعولن

٨ – وغيرت حالها الخطوب
مفاعلن. فاعلن. فعولن

وورد رقم – ٧ – في الديوان كالتالي :

إن بدلت أهلُها وحوشا
مستفعلن. فاعلن. فعولن.

٩ – أرض توارثها شعوب
مستفعلن. فعلن. فعولن

١٠ – وكل من حلها محروب
مفاعلن. فاعلن. مفعولن.

١١ – إما قتيل، وإما هالك
مستفعلن. فاعلن. مستفعلن

١٢ – والشيب شين لمن يشيب
مستفعلن. فاعلن. فعولن.

١٣ – واهية أو معين ممعن
فاعلتن. فاعلن. مستفعلن

١٤ – أو هضبة دونها لهوب
مستفعلن. فاعلن. فعولن.

١٥ – إن يك حوّل منها أهلها
فاعلتن. فعلن. مستفعلن.

١٦ – فلا بدي ولا عجيب
مفاعلن. فاعلن. فعولن.

وورد رقم – ١٥ – في الديوان كالتالي :

إن تك حالت وحوِّل أهلُها
مفتعلن. فاعلات. مفاعلن.

١٧ – أويك قد أقفر منها جوُّها
فاعلتن. فاعلتن. مستفعلن

١٨ – وعادهـا المحل والجدوب
مفاعلن. فاعلن. فعولن.

١٩ – فكل ذي نعمة مخلوس
مفاعلن. فاعلن. مفعولن

٢٠ – وكل ذي أمل مكذوب
مفاعلن. فعلن. مفعولن.

٢١ – افلح بما شئت فقد يُبلغ بالـ
مستفعلن. فاعلتن. فاعلتن

٢٢ – ضّعف، وقد يخدع الأريب
فاعلتن. فاعلن. فعولن.

٢٣ – الّا سجيّات ما القلوب
مستفعلن. فاعلن. فعولن

٢٤ –وكم يصيرن شانئا حبيب[٨]
مفاعلن. مستفعلن. فعولن.

٢٥ – كأنها من حمير عانات
مفاعلن. فاعلات. مفعولن

٢٦ – جون بصفحته ندوب
مستفعلن. فعلن. فعولن.

وورد رقم – ٢٥ – في الديوان كالتالي :

كأنها من حمير غاب
مفاعلن. فاعلن. فعولن.

٢٧ – فنفضت ريشها وولّت
فعلتن. فاعلن. فعولن

٢٨ – فذاك من نهضة قريب
مفاعلن. فاعلن. فعولن.

وورد الشطر رقم – ٢٧ – والشطر رقم – ٢٨ – في الديوان كالتالي :

فنفضت ريشها وانتفضت
فعلتن. فاعلن. فاعلتن

وهْـي من نهضة قريب
فاعلن. فاعلن. فعولن.

٢٩ – فنهضت نحوه حثيثة
فعلتن. فاعلن. مفاعلن

٣٠ – وحردت حردة تسيب
فعلتن. فاعلن. فعولن.

ونكتفي بهذه الأبيات إذ إن ما سواها من أبيات في القصيدة لا يعدو أن يكون مشابها في وزنه لواحد من هذه الأبيات المثبتة هنا.

ونخرج من هذه الأبيات بأوزان شعرية سبعة في قصيدة واحدة هي:

١ - مجزوء البسيط (صحيح الضرب) وذلك في الأشطر ذوات الأرقام ١١، ١٣، ١٥ ويلحق فيها رقم - ٢٧ - برواية الديوان ورقم ٢٩.

٢ - مجزوء البسيط (مقطوع الضرب) وذلك في الأسطر ذوات الأرقام ١، ١٠، ١٩، ٢٠.

٣ - مخلع البسيط في الأشطر : ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٨، ٩، ١٢، ١٤، ١٦، ١٨، ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ويلحق فيها رقم٧ ورقم ٢٥ برواية الديوان.

٤ - الرجز (مقطوع الضرب، مع دخول الخبن عليه) وذلك في الأشطر ٧، ٢٤.

٥ - الرجز (صحيح الضرب) في الشطر ١٧.

٦ - البحر المنسرح (مقطوع الضرب) وذلك في الشطر رقم - ٢٥ - وجاء الشطر رقم - ١٥ - في رواية الديوان - كما هو موضح أعلاه - على وزن مقابل لوزن البحر المنسرح.

٧ - أما الشطر رقم - ٢٨ - فجاء في رواية الديوان على وزن مبتكر هو فاعلن. فاعلن. فعولن. أو فاعلاتن. مفاعلاتن. وهذا الأخير مشابه لوزن مجزوء الخفيف الا أن التفعيلة الثانية لم ترد بشكلها هذا في أي من كتب العروضيين المعروفة.

ومن هذا العروض نرى مزج الشاعر للأوزان في قصيدته ثم مغايرة طريقته في الوزن لما قعده العروضيون من قواعد لأوزان الشعر وما فصلوه من حالات تخص

عروض البيت أو ضربه. فجاءت قصيدته مختلفة في ذلك كله، حتى انه لم يمكن النظر في وزنها إلا على أخذها شطرا شطرا، وليس على البيت كاملا، إن البيت يختلف وزنه من شطر لآخر، وكأن عبيدا قد أخذ بنظام الشطر منذ ذلك العهد المبكر ولولا اختلاف الروى في الأشطر الأول لجزمنا بذلك. ومثل قصيدة الأسود[9] بن يعفر الشاعر الجاهلي وفيها ينوع الأوزان حتى ليأتي بأربعة أوزان في قصيدة من خمسة أبيات وهي :

١ – إنا ذممنا على ما خيّلت مستفعلن. فاعلن. مستفعلن	٢ – سعد بن زيد وعمرو من تميم مستفعلن. فاعلن. مستفعلان
٣ – وضبة المشتري العار بنا مفاعلن. فاعلن. فاعتلن	٤ – وذاك عمٌّ بنا غير رحيم مفاعلن. فاعلن. مفتعلان.
٥ – لا ينتهون الدهر عن مولى لنا مستفعلن. مستفعلن. مستفعلن	٦ – قورك بالسهم حافات الأديم فاعلتن. فاعلن. مستفعلان
٧ – ونحن قوم لنا رمـــــاح مفاعلن. فاعلن. فعولن	٨ – وثروة من موالٍ وصـــــميم مفاعلن. فاعلن. مفتعلان
٩ – لا نشتكي الوصم في الحرب مستفعلن. فاعلن. فعلن	١٠ – ولا نئن كنانات السّليم مفاعلن. فعلن. مستفعلان.

والأوزان الواردة في هذه القصيدة هي :

١ – مجزوء البسيط (صحيح الضرب) في الشطر رقم – ١ – ويلحق بها رقم – ٣ –.

٢ – مجزوء البسيط (مذيّل الضرب) في الأشطر ٢، ٤، ٦، ٨، ١٠.
٣ – مخلع البسيط في الشطر رقم – ٧ – ويلحق به الشطر رقم – ٩ –.
٤ – الرجز في الشطر رقم – ٥ –.

ومن هذا نلاحظ أن شاعرين مهمين من شعراء العربية لم يهتما بالنمط الواحد

لوزن شعرهما بل غيرا في الوزن ولم يقلل ذلك من شأنهما كشاعرين، ولا من شعرهما كشعر والا لما روى الرواة قصيدة عبيد وأبيات الأسود، ولما صارت قصيدة عبيد إحدى المعلقات العشر عند التبريزي وأولى المجمهرات عند أبي زيد القرشي.

أما نقد المرزباني لهاتين القصيدتين فليس له من سبب فني سوى أن المرزباني قد ألف كتابا قرر أن يرصد فيه المآخذ وهي عنده ما خالف القاعدة وغاير العرف فسماه «الموشح» ونص على أنه «في مآخذ العلماء على الشعراء». ولم يكن كتابه بحثا في دراسة الظواهر العروضية المختلفة في الشعر، وانما كان يفترض وجود الخطأ أصلا ثم يحدده ويعرّفه، وجعل العروض بقواعده المتعارف عليها معيارا. فما خرج عنه صار خطأ ومأخذا يؤاخذ العلماء عليه الشعراء. ولكن هذا ليس رأي غيره من أهل العربية، وحاله في ذلك حال ابن قتيبة عندما تعجب من ضم الأصمعي لقصيدة المرقش التي منها قوله:

هل بالديار أن تجيب صممْ	لو أن حيا ناطقا كلّم
يأتي الشباب الأقورين ولا	تغبط أخاك أن يقال حكم

وقال عنها إنها ليست بصحيحة الوزن[10]. والحق أنها موزونة وعلى البحر الكامل. وليس الأصمعي وحده من أدخلها في متخيره بل فعل ذلك أيضا المفضل الضبي في المفضليات[11]، وغيره من أهل العربية.

أما قدامة بن جعفر فهو رجل علم ورصد وتقنين، ولم يكن رجل تنظير، وليس أدل على ما نقول من تعريفه للشعر الذي لم يقل به أحد من أهل البصيرة في الشعر سواه، غير بعض العروضيين المحترفين الذين وجدوا في التعريف ما يسهل عليهم مهمتهم. وإنا لنجد عالما مماثلا لقدامة هو ابن خلدون يرد عليه تعريفه للشعر ويقدم تعريفا سواه[12].

ويكفينا حجة صمود هاتين القصيدتين في وجه النقد وبقاؤهما. وفي ذلك خير دليل على صلاحهما.

الخروج عن أوزان الخليل :

لم تكن الأوزان التي استنبطها الخليل بن أحمد وما وضعه لها من قواعد هي القول الفصل في أمر موسيقى الشعر لا في عهد الخليل وعهد تلاميذه، ولا فيما سبقه من عهود أو ما لحقه منها – وقد قال الزمخشري في ذلك : «والنظم على وزن مخترع خارج على أوزان الخليل لا يقدح في كونه شعرا، ولا يخرجه عن كونه شعرا»(١٣).

ولقد أنكر الأخفش وجود بحرين من بحور الخليل هما المضارع والمقتضب وقال إنه لم يُسمع من العرب شيء من الشعر على هذين الوزنين، وأيده في ذلك الزجاج وقال : «هما قليلان حتى انه لا يوجد منها قصيدة لعزبي، وإنما يروى من كل واحد منها البيت والبيتان. ولا ينسب بيت منهما الى شاعر من العرب ولا يوجد في أشعار القبائل»(١٤). ومجاراة للأخفش أيضا أهملهما ابراهيم أنيس عندما كتب مؤلفه «موسيقى الشعر».

ومثلما حذف الأخفش بحرين من بحور الخليل، أضاف واحداً. هو المتدارك، وهو بحر لم يذكره الخليل(١٥).

وكما كانت الزيادة والنقصان في البحور كذلك كانت في التفعيلات فقد ذكر ابن رشيق أن الجوهري نقص منها تفعيلة (مفعولات) وأقام الدليل على أنها منقولة من (مستفع لن)(١٦). فيصير عدد التفعيلات بذلك سبعا فقط.

وقد روى عن الجاحظ في بعض ما نسب إليه انه ذم العروض واستهجنه ووصفه بأنه «ادب مستبرد ومذهب مرذول»(١٧). ولكننا لا نذهب مذهب الجاحظ في ذلك، ولسنا بمقللين من شأن الخليل، ومن ذا يقلل من شأنه، وهو صاحب فضل على العربية لا يطوله طائل. وليس من غرضنا أن تحذف العروض وقواعده من موسيقى الشعر، ولكن القصد هو فتح باب الاجتهاد في الأوزان الشعرية ليتسع صدرها لكل تطوير صالح ولكل تجديد مفيد مجاراة لأسلافنا من الشعراء.

ولقد كان الخروج عن عروض الخليل - كما هي مقعدة في كتب العروضيين على ثلاثة أوجه :

أولهما : قصائد جاءت موزونة على تفاعيل ثابتة كثبوت تفاعيل الخليل من حيث التزام عدد ثابت منها في كل شطر، وليس فيها من اختلاف سوى أنها ليست على وفق قواعد العروض الخليلي. ومن ذلك قصيدة سلمى بن ربيعة -وهو شاعر جاهلي- وهي[18] :

إن شواءً ونشوة	وخبب البازل الأمون
يجشمها المرء في الهوى	مسافة الغائط البطين
والبيض يرفلن كالدُّمى	في الريط والمُذْهب المصون
والكثر والخفض آمنا	وشرع المزهر الحنون
من لذة العيش والفنى	للدهر والدهر ذو فنون
والعسر كاليسر والغنى	كالعدم والحيُّ للمنون
أهلكن طسماً وبعده	غَذِيَّ بَهْم وذاجُدُون
وأهل جاشٍ ومأرب	وحيى لقمان والتقُون

ووزنها كالتالي: (مع طروء بعض التزحيف عليها).

مستفعلن فاعلن فعو   مستفعلن فاعلن فعولن

ومن الواضح أن وزن الشطر الثاني من مخلع البسيط. أما الشطر الأول فمع ثبوت وزنه في كافة الأبيات الا أنه وزن لم يورده العروضيون من ضمن أوزان البسيط. وإن كان الدماميني قد أشار إليه وقال إن بعضهم قد استدرك للبسيط أعاريض أحدها مجزوءة حذاء وضربها مقطوع مخبون، إلا أنه قال عنها إنها شاذة لا يلتفت إليها[19].

أما لماذا يصفها بالشذوذ ويقطع بعدم الالتفات اليها فهذا أمر لا يشرحه لنا، وان كنا نعلم أن هذا من تعسف أهل الصناعة وجور أحكامهم، تماما مثلما قال الدماميني عن قصيدة لعلقمة بن عبدة إنها «مختلة الوزن حتى قال بعضهم إنها ليست بشعر»[٢٠] وهو لو تحرى الحق في الحكم لعلم أنها موزونة وأنها من البحر السريع (وعروضه مخبولة مكشوفة وضربها مثلها) ومن القصيدة قوله:

فكان فيه ما أتاك وفي تسعين أسرى مقرنين صفد
دافع قومي في الكتيبة إذ طار لأطراف الظباة وقد
فأصبحوا عند ابن جفنة في الأغـلال منهم والحـديد عقـد
اذ يخنب في المخنبين وفي النهكة غيٌّ باديء ورشـــد

واذا رأينا أنه قد استشهد هو بنفسه[٢١] ببيت وزنه مطابق لوزن الأبيات في البحر السريع وهو :

النشر مسك والوجوه دنـا نير وأطراف الأكـف عنـم

ووزن هذا البيت وأبيات علقمة هو :

مستفعلن مستفعلن فعلن مستفعلن مستفعلن فعلن

اذا رأينا ذلك علمنا أنه يجب علينا أخذ أحكام العروضيين أهل الصنعة بحذر شديد حتى لا نجعل الوزن صخرا صلدا من حاول أن يثلم فيه ثلما يسيرا يزينه وينقشه يتكسر الصخر بين يديه ولا يبقى منه شيء. وهذا ما حدث للدماميني مع أبيات علقمة فان مجرد وجود الزحاف – وهو أمر مسموح به– جعله يخرج القصيدة من دائرة الشعر.

ومن الخروج عن عروض الخليل أبيات لعروة بن الورد – وهو جاهلي

أيضا– وهي أبيات غريبة الأمر حتى انها لتفرض علينا أن نكتبها على طريقة كتابة الشعر الحركي لنبين وزنها وهي :[٢٢]

يا هند بنت أبي ذراع	أخلفتني ظني ووترتني عشقي
ونكحت راعي ثلّة يثْمرها	والدهر فائته بنا يبقى

ولن نجد لهذه الأبيات وزنا ثابتا إلا إذا نحن كتبناها بطريقة الشعر الحر كالتالي :

يا هند بنت أبي ذراع	مستفعلن. متفاعلاتن
اخلفتني ظنّي	مستفعلن. فعْلن
ووترتني عشقي	متفاعلن. فعْلن
ونكحت راعي ثلّة	متفاعلن. مستفعلن
يثْمرها	مفتعلن.
والدهر فائته بما	مستفعلن. متفاعلن.
يبقى	فعْلن.

فتصبح على وزن البحر الكامل على نمط الشعر الحر، وبغير هذه الطريقة تصبح القصيدة على وزن ايقاعي لا يمكن تحديده على نظام الوزن الخليلي.

ومن أمثلة ذلك قصيدة أبي العتاهية التي أولها[٢٣] :

عتب ما للخيـــال	خبريــــني ومـالي
وزنها : فاعلاتن. فعولن	فاعلاتن. فعولن

ولما قيل لأبي العتاهية خرجت عن العروض قال : «أنا سبقت العروض»[٢٤]. وقد ألحقها الدماميني بمجزوء الخفيف، وعروضه مقصورة مخبونة

والضرب مثلها. ولأبي العتاهية أيضا شعر على وزن المنسرح جاءت تفعيلاته كالتالي :

مستفعلن مفعولات فعْلن مكررة

ومنه قوله(٢٥):

الله أعلى يدا وأكبر	والحق فيما قضى وقدر
وليس للمرء ما تمنى	وليس للمــرء ما تخيــر

ولنا أن نعد هذه الأبيات من مخلع البسيط، فلا تكون مما جــدده أبو العتاهية في البحر المنسرح(٢٦).

وقد روى للسليك أبيات احتار في أمرها العروضيون وهي :

طاف يبغي نجــوة	من هــلاك فهلــك
ليس شعري ضــلة	أي شيء قتلــك
أمريض لم تعــد	أم عــدو قتلــلك
أم تولى بك مــا	غال في الدهر السلك

وهي من مختارات أبي تمام في الحماسة(٢٧). ووزنها:

فاعلاتن. فاعلن فاعلاتن. فاعلن.

وقال فيها بعض العروضيين إنها من البحر المديد التام وإنها مصرعه ويكون كل بيت فيها شطرا لا بيتا وتكون - عندهم - شاذة حينئذ وبعضهم يجعلها من الرمل بعروض وضرب محذوفين. وهو بمالم يرد في الرمل. فهي إذن قصيدة موزونة لكنها مثل قصائد أبي العتاهية وعروة بن الورد وسلمى بن ربيعة. أي على أوزان ثابتة لكنها غير موازين الخليل وما قرره العروضيون لها من قواعد.

ثانيهما : قصائد جاءت على غير وزن محدد، وانما اعتمدت على نوع من الايقاع يختلف عن العروض وكأنه يعتمد على النبر وطريقة الترنم بالشعر. ومن ذلك قصيدة لأمية بن أبي الصلت وهي(٢٨):

عيني بكى بالمسبلات أبا الحارث لا تذخري على زمعه
ابكى عقيل بن الاسود أسد البأس ليوم الهياج والدفعه
تلك بنو أسد أخوة الجوزاء لا خانة ولا خدعه
وهم الأسرة الوسيطة من كعب وهم ذروة السنام والقمعه
وهم أنبتوا من معاشر شعر الرأس وهم الحقوهم المنعه
أمسى بنو عمهم إذ حضر البأس أكبادهم عليهم وجعه
وهم هم المطعمون إذ قحط القطر وحالت فلا ترى قزعه

وهي أبيات لا تتطابق مع أوزان الخليل ولا مع نظامها. ولأبي نواس أبيات ليس لها وزن كأوزان الخليل وهي(٢٩):

رأيت كل من كان أحمقا معتوها
في ذا الزمان صار المقدم الوجيها
يارب نذل وضيع نوهته تنويها
هجوته لكيما أزيده تشويها

ثالثها : اغفال العدد الثابت للتفعيلات في الأبيات وذلك بالزيادة في التفعيلات أو النقصان منها حسب ما يقتضيه المعنى.

أما الزيادة فمثل(٣٠) قول أحيحة بن الجلاح :

اشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت إذا حلَّ بواديكا

والأبيات من الهزج (مفاعيلن، أربع مرات) ولكن الشاعر زاد كلمة «اشدد» في البيت الأول دون مراعاة منه لقيد العروض في عدد التفعيلات الثابتة ولا حتى في نوعها الواحد فأتى بتفعيلة غريبة على هذا البحر وهي (فاعل) بسكون اللام.

ولقد ذكر ابن رشيق في العمدة[٣١] أنواعا من الزيادات على الوزن الثابت وهو الخزم ويأتي بزيادة أربعة أحرف كبيت أحيحة السابق وبثلاثة أحرف كقول كعب بن مالك الأنصاري :

لقد عجبت لقوم اسلموا بعد عزهم　　　إمامهم للمنـــكرات وللغـــدر

ش٣

وبزيادة حرفين في كل من شطري البيت كقول طرفة بن العبد :

هل تذكرون اذ نقاتلكم　　　اذ لا يضر معدما عدمهْ

وذكر لهذه الزيادات أمثلة أخرى يكفينا منها ما ذكرناه هنا حيث الغرض اثبات الفكرة وحسب.

وكما تكون الزيادة في أول البيت تكون أيضا في وسطه ومن ذلك قول البحتري[٣٢].

وكأن الأيام أوثر بالحسن عليها يوم المهرجان الكبير

وذلك بزيادة الياء والواو من كلمة «يوم».

أما النقصان فماله ما روى المبرد[٣٣] عن أبي عثمان المازني أنه قال:

«فصحاء العرب ينشدون كثيرا»:

لسعد بن الضِّباب إذا غدا أحبُّ الينا منك فارس حَمِرْ

وهذا البيت من الطويل ولكن سقط منه تفعيلة كاملة في أوله. وتمامه:

لعمري لسعد بن الضباب اذا غدا... الخ.

وهناك نوع من النقص يكون بحرف واحد في أول البيت – هو الخرم وقد أنكره الخليل(٣٤) ولكنه ثابت الوجود لكثرة ما روى فيه من أبيات وقد أورد الدكتور ابراهيم أنيس(٣٥) أحد عشر مثالا عليه أخرجها من كتاب المفضليات، وكذلك أورد الدماميني أمثلة على نقص من حرفين وحرف(٣٦).

وبذلك نرى عدم التزام الشعر بالوزن الثابت، وأخذهم بجانب المعنى، وفي ذلك يقول ابن جني(٣٧) إن الفصحاء لا يحفلون بقبح الزحاف اذا أدى الى صحة الاعراب ويقول المبرد إن «الفصحاء يزيدون ما عليه المعنى ولا يعتدون به في الوزن، ويحذفون من الوزن (كذلك). علما بأن المخاطب يعلم ما يزيدونه» (٣٨).

وهذا تحرر من الشعراء في استخدام الأوزان يلاقي تفهما من جمهورهم، ومن دارسي الأدب واللغة، كالمبرد وابن جني وأكرم بهما من عالمين بصيرين بالشعر حجة.

وإنه لمن الغريب أن يقول ابن رشيق بعد ذلك إن العرب كانت تأتي بالخرم «لأن أحدهم يتكلم بالكلام على أنه غير شعر، ثم يرى فيه رأيا فيصرفه إلى جهة الشعر(٣٩) وكأنه بذلك يقول إن الشاعر من العرب يقول الشعر وهو لا يعلم أنه شعر. ولو صدق قوله لبطل كل قياس يقوم على أساس اتباع أساليب العرب في الشعر، إذ كيف نجعل من نهج الجاهل بما يفعل قاعدة تحتذى،

حتى وإن رأى في فعله رأيا جعله يصرفه إلى جهة الشعر، حيث إن أساسه المصادفة، والمصادفة لا يتخذ منها قواعد. ثم كيف بابن رشيق يقول هذا ونحن نجد الخرم في الشطر الثاني من البيت بينما الشطر الأول خرم فيه مثل قول امريء القيس الذي استشهد به ابن رشيق نفسه:

لقد أنكرتني بعلبــك وأهلهـــا وابن جريج كان في حمص أنكرا

ويقول ابراهيم أنيس إن العلل الجارية مجرى الزحاف كالزيادة بحرف أو أكثر هي من أخطاء الرواة الذين لا يحسنون إقامة الوزن الشعري[٤٠] ويبرهن على رأيه هذا بأنه لو حذفت الزيادة لما اختل المعنى. ولكن قوله هذا مردود من حيث وصفه لرواة تلك الأبيات بأنهم لا يحسنون إقامة الوزن الشعري. وهو وصف لا يصدق أبدا في حق المبرد ولا في حق المفضل الضبي ولا ابن رشيق وهم الذين سجلوا لنا تلك الأبيات ذات الزيادة وتحدثوا في أمرها بين قابل لها ومبرر لوجودها كالمبرد وبين منكر لها كابن رشيق.

ثم إن رأيه مردود بمثال البحتري الذي زاد في وسطه سببا خفيفا والبحتري شاعر عباسي بصير بالشعر وأوزانه وهو يعي نقد بعض المتشددين ممن يجعلون الشعر غرضا من أغراض الجدل والمماحلة حتى قال فيهم[٤١].

كلفتمونا حدود منطقكـم والشعر يغني عن صدقة كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطــق ما نوعــه وما ســـببه
والشعر لمح تكفي لمح إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

وقال فيهم أيضا[٤٢]:

على نحت القوافي من مقاطعها وما على لهم أن تفهم البقر

وليس لنا أن نشك في رواية بيته السالف الذكر وندعي أن أحدا قد حرفه إذ لا مجال لحذف الياء والواو من كلمة (يوم) أو زيادتها فهي قائمة لا محالة، ثم

إن الرواية التي ذكرها المرزباني عن بيت البحتري تنص على أن البيت كان كما هو مثبت في جميع نسخ الديوان وقت الرواية. أي أن الزيادة كانت متعمدة من البحتري وذلك ترجيح منه للمعنى على الوزن أخذا بمذهب الفصحاء كما شرحه المبرد وابن جني.

ومما يجعلنا نعارض رأي ابراهيم أنيس هو تواتر الروايات لأبيات الزيادة وأبيات النقصان في كافة الكتب التي رجعنا إليها – والمشار إليها في الهوامش – بحيث لا تترك مجالا للظن أو التشكيك.

وإن أمكن حذف الزيادة في بعض المواطن كبيت طرفة مثلا حيث إن الاستفهام قد يجيء بغير أداته فتحذف (هل) من صدر البيت وتحذف (إذ) من عجزه دون إضرار بالمعنى، فإن ذلك لا يمكن في حالات أخر كبيت أحيحة إذ لو حذفت (اشدد) لصعب فهم المراد. بل لالتبس المعنى على القارىء. وكذلك يستحيل حذف بعض كلمة في وسط بيت كبيت البحتري.

التفعيلة الواحدة :

ورد في الشعر العربي في العصر العباسي قصائد مبنية على تفعيلة واحدة، وكل بيت فيها مقفى بروى موحد فيها كلها. وقد ذكر ذلك ابن جني، وأورد له ثلاثة أمثلة لثلاثة شعراء(٤٣) ونقل الدماميني عن الزجّاج أنه قال: «الرجز وزن يسهل في السمع ويقوم في النفس ولذلك جاز أن يقع فيه النهك والجزء والشطر، ولو جاء منه شعر على جزء واحد مقفى لاحتمل ذلك لحسن بنائه»(٤٤).

ويقول ابن رشيق إن أول من ابتدع هذه الطريقة في كتابة الشعر هو سَلْم الخاسر(٤٥). وهو شاعر عباسي كان تلميذالبشار بن برد وصار بارعا في الشعر حتى حسده بشار. وهو «شاعر مكثر مجيد، وهو أحد المطبوعين المحسنين

كثير البدائع والروائع في شعره، عارفا بالشعر ونقده»[٤٦].

وقصيدته ذات التفعيلة الواحدة هي[٤٧]: (وهي مدح لموسى الهادي)

موسى المطر
غيث بكر
ثم انهمر
ألوى المرر
كم اعتسر
ثم ايتسر
وكم قدر
ثم غفر
عدل السير
باقي الأثر
خيرٌ وشر
نفعٌ وضر
خير البشر
بدر بدر
والمفتخر
لمن غبر

وهي من الرجز جاء كل بيت فيها على وزن مستفعلن. وهذا غير منهوك إذ إن المنهوك هو ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه ومنهوك هذا البحر إذن ما جاء على تفعيلتين مثل قول دريد بن الصمة[٤٨].

يا ليتني فيها جــذعْ أخبّ فيهـــا وأضــعْ

ومثل ذلك قول يحيى بن علي المنجم :[٤٩].

طيف ألمْ
بذى سلم
بعد العتم
يطوى الأكم
جاد بفم
وملتَزَم
فيه هضم
اذا يضم

ومنه قول عبد الصمد بن المعذل[٥٠]:

قالت خبل
شؤم الغزل
هذا الرجل
حين احتفل
.. .. ..

ويذكر الدماميني أن هذا النوع لم يسمع منه شيء للعرب[٥١] فهو إذن من ابداع المحدثين، ورأسهم في ذلك سَلْم الخاسر كما ذكر ابن رشيق، كما ونص عليه ابن جني[٥٢] وقد سماه قوافي منسوقة غير محشوة. أما الجوهري فقد سماه المقطع[٥٣].

نخلص من هذا إلى أن قضية الوزن في الشعر أمر أساسي فيه وأن شعراء العربية لم يتخلوا عن الوزن قط، ولكن الوزن عندهم كما رأينا في هذا العرض أمر فني يخضع لرغبة الشاعر وماهية تجربته الشعرية. والوزن مع القافية لا يكونان الشعر، وفي ذلك روى المرزباني عن أبي القاسم يوسف بن يحيى بن على المنجم

من ذلك مراما، واعز مقاما»[illegible].

كما أن الخروج بالوزن عن الخط المرسوم لا يعد عيبا ولا يقلل من شأن الشعر، وثبوت الخروج عن القاعدة وحدوثه من شعراء مشهود لهم بالباع الطويل في الشعر مثل عبيد بن الأبرص وطرفة بن العبد وسلمى بن ربيعة والأسود بن يعفر والمرقش وعروة بن الورد، وأبي العتاهية، وسلم الخاسر وأبي نواس والبحتري يؤكد أن الشعراء نظروا للوزن نظرة متحررة وتعاملوا معه كأداة فنية تخدم غرضهم النفسي في التعبير الشعري وأيدهم في ذلك نقاد على قدر كبير من الأهمية كالمبرد حينما أكد أن الوزن تبع للمعنى، والفصحاء يزيدون في الوزن وينقصون منه حسب ما يقتضيه مضمون القول ويفهم السامعون ذلك منهم[٥٥].

ولقد حدد الجاحظ الشعر بأنه «صياغة وضرب من النسج وجنس من التصوير»[٥٦] وفي هذا الحد نجد ثلاثة عناصر أساسية هي أولا : الصياغة وهذا يتعلق بأسلوب الكتابة والتعبير الشعري. ثانيا : النسج وهذا هو ما يخص جانب الوزن أو موسيقى الشعر. وقد كان الجاحظ فيه بارعا كل البراعة اذ رمز بكلمته هذه إلى أن وظيفة الشاعر بعد أن تكون لغوية فنية بموهبة ابداعية – تصبح صناعة فينسج كلامه نسجا كفعل الحائك يضع القطن وهو نتاج طبيعي – بين يديه فيأخذ في نسجه وغزله. وتوحي كلمة الجاحظ أيضا إلى أن الشاعر حر في التصرف في أسلوب نسيجه وفي طريقته. فله أن ينوع فيها وأن يشكّل حيث أوحت اليه تجربته. وقد رأينا سالفا أن الجاحظ قد هاجم علم العروض وقلل من شأنه، فكأنه يترك أمر النسج للشاعر يبدع فيه على قدر موهبته وحظه من الشعر. وأخيرا يقول الجاحظ عن العنصر الثالث في العملية الشعرية وهو : جنس من التصوير وهذا يعني التخييل وهو أن يتمثل للسامع ما قصده الشاعر من معان وأساليب وتقوم لها في خياله صور ينفعل لتخيلها وتصورها[٥٧].

وهذا التعريف للشعر أقرب الى روح الشعر وحقيقته من أي تعريف آخر، وهو ما جعل الأصمعي يدخل أبيات المرقش في مختاره - كما شرحنا سابقا - وجعل أبا يزيد القرشي والتبريزي يضمان قصيدة عبيد بن الأبرص لمجموعاتهما الشعرية.

وكذلك الحال مع أبي تمام في إدخاله لقصيدة سلمى بن ربيعة في ديوان الحماسة. وعملهم هذا دليل على أنهم يفهمون الشعر فهما متقاربا لما يوحي به تعريف الجاحظ ولما ينص عليه قول المبرد - السابق - في الوزن.

ولقد رأينا في العرض الذي بين يدينا كيف أن الزجاج وابن رشيق والجوهري والدماميني أتوا بنصوص شعرية مخالفة لقواعد العروض المقررة ولم يطعنوا فيها. بل إن ابن رشيق يضع ملخصا للعروض ينقله عن الجوهري وينص في كل بحر من البحور على ما جاء فيه من استعمال محدث دون أن تأخذه العزة بالاثم فيمنع الابداع والتجديد في الأوزان:(٥٨).

وفي اطلاق قيد الوزن صيانة للشاعر عن الوقوع في الحشو وقد عد قدامة ابن جعفر الحشو من عيوب الشعر وتابعه في ذلك المرزباني(٥٩).

ومعنى الحشو عند قدامة «هو أن يحشي البيت بلفظ لا يحتاج اليه لاقامة الوزن» ومثاله قول أبي عدي العيشمي:

نحن الرؤوس وماالرؤوس اذا سمت   في المجـــد للأقـوام كالأذنـــاب

وقال قدامة فيه إن قوله «للأقوام» حشو لا منفعة فيه، ولو أسقطها الشاعر لجاء البيت كالتالي:

نحن الرؤس وما الرؤس اذا سمت
مستفعلن. متفاعلن. متفاعلن.

في المجـــــد كالأذنـــــــاب
مستفعلن. مفعولن.

وتظل القصيدة من البحر الكامل بثلاث تفعيلات في الشطر الأول – وتفعيلتين في الثاني فيتجنب الشاعر الحشو ويجاري فصحاء العرب في زيادتهم ما عليه المعنى وفي حذفهم دون أن يعتدوا به في الوزن كما قال أبو العباس المبرد(٦٠).

والحشو من أسوأ العيوب في الشعر حتى أن الباقلاني وجد فيه بابا للتقليل من شأن معلقة امرىء القيس – وهي على ما هي عليه من جودة حتى عدت من النماذج الأولى في الشعر العربي وحكم عليها بأنها قد ترددت بين أبيات سوقية متبذلة وأبيات متوسطة وأبيات ضعيفة مرذولة وأبيات وحشية غامضة مستكرهة، وأبيات معدودة بديعة»(٦١) وذلك لما فيها من حشو جاء فقط لاقامة الوزن.

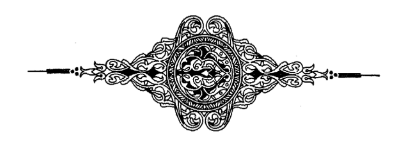
ان ما سقناه في هذا البحث من نماذج إن هي إلا أمثلة على ما أردنا إثباته من أن الشاعر العربي قد تعامل مع الوزن بتحرر وبنفس مفتوحة وقد ساعده طائفة من النقاد القدامى على ذلك، ولم يجعلوا من تحرره عيبا يخل بالقصيدة. والشعر العربي مليء بالأمثلة المشابهة لما ذكرنا. كما أن ما روي لنا من الشعر العربي لا يمثل إلا نسبة قليلة منه وهذه حقيقة ثابتة بالعقل والنقل هو أنه لم يرو لنا من الشعر إلا ما حفظته الذاكرة على مر ما يقارب قرنين من الزمان. وقرنان من الزمان كفيلان بإضاعة الكثير مما قيل.

أما ثبوت ذلك بالنقل فهو ما ذكره ابن سلام الجمحي من أن العرب لما جاء الاسلام تشاغلت بالجهاد عن الشعر فلما «راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره»(٦٢).

ونقل ابن سلام أيضا عن أبي عمرو بن العلاء قوله «ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير»(٦٣).

ويدلل ابن سلام على ذلك بقلة ما روى لطرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص ولو كان ما روى لهما من شعر صحيح هو كل شعرهما لما كان لهما هذا الموضع من الشهرة والتقدمة(٦٤).

وهذا دلالة على أن قواعد العروض عندما استقرأها الخليل مما روى من الشعر العربي كانت استقراء من جزء صغير من الشعر العربي ولم يكن للخليل طريق الى الجزء المفقود منه. ولسنا نشك في أن في المفقود الشيء الكثير مما يخالف بدليل وجود قصائد قديمة كقصيدة عبيد بن الأبرص وسلمى بن ربيعة وعروة بن الورد وغيرهم ممن ذكرنا سابقا وهي قصائد لا يمكن أن تكون شاذة بل لابد أنها كانت سائرة وفق نماذج مشابهة لها في زمنها غير أنها لم ترو لنا. ولو صح أنها شاذة لما قبلها المجتمع الشعري في وقتها. وهذا ما يؤكد لنا أن الوزن في الشعر شرط أساسي ولكن للشاعر أن يأتي بأي وزن يراه وله أن ينوع فيه، كما أن عليه أن يجعل الوزن خاضعا للمعنى فيزيد في الوزن وينقص منه حسب ما يقتضيه معناه. وعلى ذلك سار عدد من شعراء العربية وأيدهم عدد من نقادها كما رأينا في هذا العرض.



التعليقات

(١) اعجاز القرآن ٥٤.
(٢) نقد الشعر ١٧٨.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرزباني : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ٢٤.
(٥) المرجع السابق ٧٤.
(٦) نقد الشعر ١٧٨.
(٧) راجع الديوان ٢٣. وأبو يزيد القرشي : جمهرة أشعار العرب ١٧٣.
(٨) وقد وردت النون مشددة في كلا الروايتين في المرجعين السابقين وبذا يكون وزنه. مفاعلن. فاعلن. مفاعلاتن.

(٩) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ١٧٨ والمرزباني : الموشح ٧٤ وعن الأسود انظر ابن سلام : طبقات الشعراء ٣٣.

(١٠) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٢.
(١١) انظر التبريزي : شرح المفضليات ٢ /٨٦٢.
(١٢) قارن : قدامة بن جعفر، نقد الشعر ٦٤ وابن خلدون : المقدمة ٥٧٣.
(١٣) نقل ذلك الدكتور ابراهيم أنيس في كتابه موسيقى الشعر ٥١.
(١٤) الدماميني : العيون الغامزة على خبايا الرامزة ٢٠٩.
(١٥) المرجع السابق ٥٩.
(١٦) ابن رشيق. العمدة ١ /١٣٥.
(١٧) الدماميني : العيون الغامزة ٢٣٣.
(١٨) أبو تمام : ديوان الحماسة ٢ /٢٠.
(١٩) الدماميني : العيون الغامزة ١٦٠.
(٢٠) المرجع السابق ٢٣٤.
(٢١) المرجع السابق ١٩٦.
(٢٢) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ١٧٨. والمرزباني : الموشح ٧٤.
(٢٣) الدماميني : العيون الغامزة ٢٠٦، ٢٣٢.
(٢٤) المرجع السابق.
(٢٥) ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ٩٨.
(٢٦) الحماسة ١ /٥٣٣ ولم ينسبها أبو تمام للسليك بل قال : وقالت امرأة.
(٢٧) انظر ذلك في : الدماميني، العيون الغامزة ١٥١.

(٢٨) المرجع السابق ٢٣٥.
(٢٩) الجرجاني، الوساطة ٦٢.
(٣٠) المبرد : الكامل ٣ /٩٣٢.
(٣١) ابن رشيق : العمدة ١ /١٤١.
(٣٢) المرزباني : الموشح ٢٩٦.
(٣٣) الكامل ٣ /٩٣٢.
(٣٤) ابن رشيق : العمدة ١ /١٤٠.
(٣٥) موسيقى الشعر ٢٩٩.
(٣٦) العيون الغامزة ١١٤.

(٣٧) الخصائص ١ /٣٣٣
(٣٨) المبرد : الكامل ٣ /٩٣٢.
(٣٩) ابن رشيق : العمدة ١ /١٤٠.
(٤٠) ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ٢٩٧.
(٤١) ديوان البحتري ١ /١٧٥ ت حسن كامل الصيرفي. دار المعارف ١٩٧٣م.
(٤٢) المرجع السابق ٣ /٢٠٠.
(٤٣) ابن جني : الخصائص ٢ /٢٦٣.
(٤٤) الدماميني : العيون الغامزة ١٨٩.
(٤٥) ابن رشيق : العمدة ١ /١٨٥.
(٤٦) عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ٢ /١٣٥ (دار العلم للملايين – بيروت ١٩٧٥م).
(٤٧) ابن جني : الخصائص ٢ /٢٦٣ ابن رشيق : العمدة ١ /١٨٥.
(٤٨) ابن رشيق : العمدة ١ /١٨٤.
(٤٩) المرجع السابق ١ /١٨٤ وفيه : أظنه علي بن يحيى أو يحيى بن علي المنجم. وانظر ابن جني : الخصائص ٢ /٢٦٣.

(٥٠) الدماميني : العيون الغامزة ١٨٩ وابن جني : الخصائص ٢ /٢٦٤.
(٥١) العيون الغامزة ١٨٩.
(٥٢) الخصائص ٢ /٢٦٣.
(٥٣) ابن رشيق : العمدة ١ /١٨٥.
(٥٤) المرزباني : الموشح ٣٢١.
(٥٥) المبرد : الكامل ٣ /٩٣٢.
(٥٦) الجاحظ : الحيوان ٣ /١٣٢.
(٥٧) هذا هو تعريف حازم القرطاجني للتخييل. انظر : من كتاب المناهج الأدبية لأبي الحسن حازم القرطاجني. نشره وحققه عبد الرحمن بدوي. القاهرة ١٩٦١.

(٥٨) ابن رشيق : العمدة ٢ /٣١.
(٥٩) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ٢٦ وانظر المرزباني : الموشح ٢١٢.

(٦٠) الكامل ٣ /٩٣٢.
(٦١) الباقلاني : اعجاز القرآن ١٨٠ وانظر أيضا ص ١٦٦.
(٦٢) ابن سلام : طبقات الشعراء ١٠.
(٦٣) المرجع السابق.
(٦٤) المرجع السابق.

مراجع البحث

(١) ابن الأبرص / عبيد : الديوان، دار صادر بيروت ١٩٥٨م.
(٢) أنيس / الدكتور ابراهيم : موسيقى الشعر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٥م ط ٣.

(٣) الباقلاني / أبو بكر محمد بن الطيب : اعجاز القرآن. ت السيد أحمد صقر. دار المعارف. القاهرة ١٩٧٧م. ط ٤.

(٤) البحتري / الديوان ت حسن كامل الصيرفي - دار المعارف - مصر ١٩٧٣م.

(٥) التبريزي / يحيى بن على الشيباني : شرح المفضليات. ت علي محمد البجاوي. دار نهضة مصر، القاهرة (دون تاريخ).

(٦) أبو تمام / حبيب بن أوس الطائي : ديوان الحماسة، مختصر من شرح العلامة التبريزي. ت محمد عبد المنعم خفاجي. مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة ١٩٥٥م.

(٧) الجاحظ / عمرو بن بحر : الحيوان. القاهرة ١٣٢٣هـ.
(٨) الجرجاني / القاضي علي بن عبد العزيز : الوساطة بين المتنبي .وخصومه ت محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي وشركاه القاهرة ١٩٦٦م.

(٩) ابن جعفر / قدامة : نقد الشعر ت محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية. بيروت (دون تاريخ).
(١٠) ابن جني / أبو الفتح عثمان : الخصائص. ت محمد على النجار دار الكتاب العربي. بيروت ١٩٥٢م.

(١١) ابن خلدون / عبد الرحمن : المقدمة. دار الفكر (دون تاريخ).

(١٢) الدماميني / بدر الدين محمد بن أبي بكر : العيون الغامزة على خبايا الرامزة. ت. الحساني حسن عبد الله دار اللواء. الرياض ١٩٧٣م.

(١٣) ابن رشيق / أبو علي الحسن : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ت. محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجيل بيروت، ١٩٧٢ ط ٤.

(١٤) ابن سلام / محمد – الجمحي : طبقات الشعراء. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٦٨م. (تصويرا عن طبعة برل. لايدن ت جوزف هيل ١٩١٦).

(١٥) ابن قتيبة / عبد الله بن مسلم : الشعر والشعراء. ت. دي خوي مطبعة بر، لايدن ١٩٠٤م.

(١٦) القرشي / أبو زيد محمد بن أبي الخطاب : جمهرة أشعار العرب، دار بيروت، بيروت ١٩٧٨م.

(١٧) المبرد / أبو العباس محمد بن يزيد : الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف. ت. أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٧م.

(١٨) المرزباني / محمد بن عمران : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ت. محب الدين الخطيب. المطبعة السلفية ومكتبتها. القاهرة، ١٣٨٥هـ. ط ٢.



بعض من مصادر دراسة المغول
فى اللغتين العربية والفارسية
بقلم الدكتور أحمد حمدى الخولى

كان من الطبيعي أن يهتز الضمير الانساني لما أصاب العالم من تخريب وسفك للدماء بسبب الغزو المغولي، وأن يتحرك المؤرخون للكتابة عن هذه المحنة من منطلقين مختلفين إما معارض ناقم أو مؤيد محافظ.

ومن خلال القسمين السابقين ستكون نظرتنا لأهم المصادر التي تعرضت لدراسة هذا الحدث.

أولا – في اللغة العربية :

يأتي ابن الأثير[١]. (٥٥٦ – ٦٣٢هـ / ١١٦٠ – ١٢٣٤م) في كتابه «الكامل في التاريخ» على رأس قائمة الفريق الأول يقول :

«لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم اليه (رجلاً) وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟...

لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإن قوما خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون، ثم منها الى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها ويفعلون بأهلها مانذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان، فيفرغون منها مُلكا وتخريبا وقتلا، ونهبا، ثم يتجاوزونها إلى الري، وهمذان، وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد آذربيجان وأرانيَّه ويخربونها، ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج إلا الشريد النادر في أقل من سنة هذا ما لم يسمع بمثله[٢].

أما محمد بن أحمد النسوي (٦٣٩ – ٦٤٠هـ / ١٢٤١ – ١٢٤٢م) فقد صنف كتابه «سيرة السلطان جلال منكبرتي» باللغة العربية بعد عشرة أعوام من موت هذا السلطان، وشرح فيه وقائع السنوات ٦١٥ – ٦٢٩هـ /١٢١٨ – ١٢٣١م. وهي وقائع تتصل بهجوم جحافل جنكَيزخان. والكتاب يتضمن معلومات كثيرة تتصل بوضع إيران في هذه الفترة(٣).

وقد أصدر النسوي كتابا آخر باللغة الفارسية سماه «نفثة المصدور»(٤) وهو عبارة عن خواطر المؤلف تجاه ما خلَّفه المغول من تخريب، وما واجهه هو من محن نتيجة تجواله بعد وفاة جلال الدين. وقد استطاع المؤلف من خلالها أن يرسم صورا لمناظر التخريب والتدمير التي وقعت على أيدي جحافل المغول.

والأثران السابقان للنسوي يشتملان على بغض ونفور من الغزاة وتغال في مدح جلال الدين. وقد نجم كل من الاحساسين السابقين عن صدق داخلي من المؤلف. فقد صنف مؤلفيه بعد موت جلال الدين. وهذا يحقق ثباتا على مبدأ، وعرفانا بجميل لم تغيره الأيام. وقد لجأ المؤلف في أثريه إلى الصناعات اللفظية المحشوة باستشهادات شعرية كثيرة.

وبالنسبة لمنهاج الدين عثمان بن سراج الدين الجوزجاني صاحب طبقات ناصري فقد ولد في حدود عام ٥٩٠هـ /١١٩٣م. وعمل في خدمة سلاطين الغوريين، وارتحل إلى الهند هربا من المغول، وبقى هناك حتى أخريات حياته(٥).

أنهى الجوزجاني كتابه المختصر في تاريخ العالم باللغة الفارسية، وأهداه إلى «ناصر الدين محمود شاه أول» سلطان الهند، ومن ثم فقد عرف هذا الكتاب باسم «طبقات ناصري»(٦).

وقد فصل المؤلف القول في هجوم جحافل المغول إلى خراسان مستفيدا في ذلك من مصادر لم تصل الى أيدينا، ومنهجه في الكتاب يقوم على مخالفة الغزاة فيما اقترفوه من أعمال، ومن ثم فهو يصب عليهم اللعنات، ولا يخفي كرهه وحقده عليهم.

وقد أدى تكامل المعرفة بـ (البيضاوي)[7] الذي ضرب بسهم وافر في تفسير القرآن الكريم، وألف في فقه السُّنّة إلى أن يكتب في التاريخ، فصنف كتابه (نظام التواريخ) ولكنه مأخوذ في أغلبه عن مصادر أخرى وبينما جادت المعلومات التي أوردها عن أتابكة فارس في ثوب جديد ومثير، وجدنا مثيلها عن المغول في إيران قليل.

ثانيا – في اللغة الفارسية :

أما عن المؤرخين الفرس الذين كتبوا آثارهم باللغة الفارسية فهم فريقان، الأول عمل في خدمة سلاطين المغول والثاني كتب مؤلفاته بأمر منهم، وكانوا أوفياء للغزاة المغول على الأقل.

ويأتي على رأس هذه القائمة المؤرخ الفارسي علاء الدين عطا ملك بن محمد الجويني (٦٢٤ – ٦٨٢هـ /١٢٢٦ – ١٢٨٣م) وهو سليل أسرة عريقة ولد في «جوين» من أعمال خراسان، وكان أفراد أسرة الجويني يعملون في باديء الأمر في خدمة الخوارزمشاهيين ثم انتقلوا إلى خدمة خانات المغول[8].

كان بهاء الدين الجويني وزيرا مسئولا عن خراسان، وشغل ابنه شمس الدين محمد الجويني منصب الوزير الأول لثلاثة من خانات المغول حكموا في إيران بعد فتحها على مدى عشرين عاما أو ما يزيد. أما عطا ملك الجويني مؤرخا وشقيق صاحب الديوان فقد حكم بغداد وتوابعها من جانب خانات المغول، ومات على أثر سكتة قلبية لدى سماعه خبر مصادرة أموال أسرته والحكم على أفرادها بالاعدام أو الحبس المؤبد.

وقد انتهى عطا ملك من تأليف كتابه (جها نكَشا) أي «فاتح العالم» في حدود عام ٦٥٩ – ١٢٦٠م[9]. والمجلد الأول من هذا الكتاب في تاريخ امبراطورية المغول من زحف جنكَيزخان حتى موت كيوك خان.

والمجلد الثاني في تاريخ الدولة الخوزمشاهية وأخلاف جنكيزخان حتى عام ٦١٧هـ /١٢٥٨م. وبالنسبة للمجلد الثالث فهو في تاريخ زحف هولاكو خان على إيران ٦٥٤ - ٦٥٦هـ /١٢٥٦ - ١٢٥٨م وتاريخ اسماعيلية «ألموت» ودولتهم ٤٨٣ - ٦٥٦هـ ١٠٩٠ - ١٢٥٨م. وقد صنف عطا ملك الجويني هذا الجزء من خلال مصدر أساسي لم يصل الينا وهو كتاب (سركَذشت سيدنا) من تأليف حسن الصباح مؤسس فرقة الاسماعيلية.

وكتب الجويني يحوي وقائع تاريخية وفيرة، وإن كانت هذه الوقائع قد كتبت على هوى المغول إلا أنه لم يسكت على الجوانب السيئة لحكامهم من حيث التخريب الذي أصاب المدن على أيديهم من ناحية، وسياستهم المالية القاسية من ناحية أخرى.

وكتاب الجويني مكتوب بأسلوب جزل خاص، وربما يرجع السبب في ذلك الى أن الجويني قضى عمره في خدمة المغول، وكان لزاما عليه أن يتأثر بلغتهم وفكرهم.

ويعتبر رشيد الدين فضل الله بن أبي الخير الهمذاني (٦٤٥ - ٧١٨هـ / ١٢٤٧ - ١٣١٨م) واحدا من أكبر المؤرخين الفرس في العصور الوسطى[١٠] فهو عالم وطبيب وفقيه في السنة المحمدية المطهرة، وفي نفس الوقت رجل سياسة ووزير لـ(غازان خان وأولجايتو خان) ٦٩٨ - ٧١٧هـ /١٢٩٨ - ١٣١٧م[١١].

وفي عهد أبي سعيد اعتزل رشيد الدين الخدمة الحكومية مضطرا لما أصابه من وشاية وحل به من وقيعة. ثم اتهم بالكذب، وتطورت الأمور إلى قتله في عام ٧١٨هـ /١٣١٨م، ولم يكتف بذلك بل نهب جزء من أمواله وضربت مكتبته التي كانت تحتوي على ٦٠ ألف مجلد وعدد من المخطوطات بينها نسخ مخطوطة لمؤلفاته. وقد وصل هذا النهب والسلب إلى جانب من مباني وممتلكات الربع الرشيدي، وهو حي كان رشيد الدين قد أقامه في ناحية من تبريز العاصمة[١٢].

ألف رشيد الدين كتاب جامع التواريخ بأمر من غازان خان، وقد عدل فيه رشيد الدين عن الفكرة السائدة لدى المؤرخين العرب والفرس عندئذ. وهي التركيز على تاريخ العالم الاسلامي دون بقية الشعوب ذلك أنه كان يعتقد أن التواريخ العامة لابد أن تتناول شرحا لجميع الشعوب المعروفة عندئذ بدءاً من الفرنجة في الغرب حتى الصينيين في الشرق..

ومن هنا فرض المنهج على رشيد لكونه رجلا من رجالات المغول أن يدون تاريخهم منذ أقدم العصور حتى زمانه. واقتضت منه هذه الخطة أن يستعين بلغويين ومتخصصين في تاريخ السلالات البشرية كان من بينهم ايرانيان وصينيان وهندي وقسيس كاثوليكي من فرنسا على ما يبدو. كما أنه أخذ عن بعض المسنين من المغول فيما يتعلق بتدوين تاريخ القبائل المغولية والتركية.

بدأ رشيد التفكير في كتابة جامع التواريخ في حياة غازان خان عام ٧٠٠هـ - ١٣٠٠م وانتهى في عهد أولجايتوخان عام ٧١٠ - ٧١١هـ / ١٣١٠ - ١٣١١م.

وينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة مجلدات. الأول : يسمى (تاريخ غازاني) من قبيل العرفان بالجميل. وهو تاريخ القبائل المغولية والتركية وتاريخ جنكيزخان وأخلافه، وتاريخ القبائل التي انشعبت عن امبراطورية المغول، ثم تاريخ خانات المغول في إيران أو (أتباع هولاكو) حتى موت غازان خان عام ٧٠٤هـ - ١٣٠٤م.

ويتضمن المجلد الثاني تاريخ الأقوام والدول غير المسلمة أي الصين واليهود والفرنج والبابا وأباطرة الروم ودويلات الهند.

ويتعلق المجلد الثالث بجغرافية الأقاليم السبعة. ويبدو أن هذا المجلد لم يكتب أو كتب وفقد في أثناء الغارة على الربع الرشيدي الذي حدثت بعد قتل رشيد الدين.

وما ورد في المجلد الأول (تاريخ غازاني) عن تاريخ القبائل التركية والمغولية المتبدية وأسلوب حياتهم الاجتماعي دقيق ومتكامل، قل أن يوجد له نظير في المصادر الأخرى، أضف إلى ذلك إشاراته الدقيقة إلى النظم الحكومية والتفاصيل الاجتماعية والاقتصادية في القرن الثالث عشر الميلادي(١٣).

وتعتبر (مكاتبات رشيدي) التي تعرف أيضا بـ (منشآت رشيدي)(١٤) مصدرا تاريخيا مهماً(١٥). وهذه المجموعة تحتوي على ٥٣ رسالة. فيها واحدة دون مقدمة، وأربع كتب من آخرين إلى رشيد الدين. أما بقية الرسائل فهي محررة منه إلى أبنائه ومرءوسيه ورجال الدين والأعيان(١٦).

وفي هذه المكاتبات معلومات كثيرة تتعلق بالسياسة المالية ووضع الفلاحين والتجارة وشق القنوات وغير ذلك. والرسالة رقم ٣٦ تحوي وصية رشيد الدين وقائمة بأملاكه. وهذا أمر يوضح الاتجاهات الادارية والمالية عندئذ. ولعل وصية رشيد الدين تعتبر نموذجا لذلك من ناحية وكيفية ادارة هذه الأملاك من ناحية أخرى.

ولا شك أن فكرة رشيد من خلال كتابيه السابقين يثبت أنه كان وثيق الصلة برجال المسلمين، وهو جازم في اعتقاده بأن قوة خانات المغول باعث على قوة الحكومة المركزية، ويرى فيهم ورثة ملوك ايران.

وهذا الذي ذهبنا إليه قائم في زاوية الوقائع، فرشيد مكلف بحكم وظيفته المرموقة أن يعمل بأمر خانات المغول، أما أن يكون هذا الحب نابعا من القلب فهذا أمر محل شك بدليل أنه لم يستطع اخفاء ما ارتكبه المغول من فظائع. ويبدو للنظر أن حب رشيد لغازان كان صادقا، ومرد ذلك إلى مسلك غازان نفسه.

ولعله من المناسب هنا، أن نشير إلى أن البعض – فيما قبل حياة رشيد الدين أو بعدها – قد اصطلح على أن ينسب للكبار عمله أو ينسب لنفسه

أعمالهم مستغلا في ذلك شهرتهم أو موقفا ألم بهم. والهدف من وراء ذلك إذاعة الاسم وانتشار العمل.

وكان رشيد الدين واحدا من هؤلاء الذين تعرضوا للسرقة العلمية، فوجدنا أن عبد الله الكاشاني أحد معاوني رشيد في تنظيم واخراج «جامع التواريخ» ينهض متهما إياه بالسرقة العلمية مستغلا في ذلك قتله واتهامه بما ليس فيه. ودليل ذلك أن رشيدا قد برىء مما نسب اليه بعد قتله بعشر سنوات(١٧).

وحتى يثبت عبد الله الكاشاني أن جامع التواريخ من انتاجه هو، ألف كتابا اسمه «تاريخ أولجايتوخان» مازال مخطوطا حتى الآن(١٨).

ولم يختلف أبو سليمان بن داود البنكاتي من أهل بناكت أو بناكث الواقعة على ساحل نهر سيحون(١٩) عن عبد الله الكاشاني في كثير. فقد شرع في عام ٧١٧هـ / ١٣١٧م في تلخيص كتاب جامع التواريخ، وأضاف اليه نزرا عن تاريخ الدول غير الاسلامية. وسماه «تاريخ بناكتي»(٢٠).

وهناك شهاب الدين عبد الله بن فيصل الشيرازي الملقب بـ (وصاف الحضرة) أو «الوصاف» ولد في شيراز، وخدم في بلاط الإيلخانيين، ورقي إلى مناصب أعلى حتى وصل إلى الادارة المالية التي كان رشيد الدين يشرف عليها بنفسه.

وللوصاف أثر تاريخي كبير باللغة الفارسية اسمه «تجربة الأمصار وتزجية الأعصار» قدمت أجزاؤه الأربعة إلى أولجاتيوخان بواسطة رشيد الدين في عام ٧١٢هـ /١٣١٢م أما الجزء الخامس فقدم عام ٧٢٤هـ /١٣٢٥م(٢١).

وهذا الكتاب يعتبر ذيلا لتاريخ الجويني، وهو يشرح الأحداث من عام ٦٥٥ – ٧٢٤هـ /١٢٥٧ – ١٣٢٣م. وقد اعتمد الوصاف في تاريخه على كتابي الجويني ورشيد الدين ووثائق رسمية ورؤيا شهود عيان ومشاهدات شخصية.

ويشمل الجزء الأول من تاريخ الوصاف على وقائع حكومة الخانات الكبار قوبلاي – قاآن – تيمور وتاريخ حكم هولاكو وأتباعه ٦٨٣هـ–١٢٨٤م. أماالجزء الثاني فهو تاريخ فارس منذ تسخير هذه الأرض على يد السلاجقة حتى خروج قبائل اللور عام ٦٩١هـ / ١٢٩١م. ويتابع الجزء الثالث تاريخ آل هولاكو حتى موت غازان. والجزء الرابع يتصل بحكم أولجاتيو. ويحدثنا الجزء الخامس عن نهاية حكم أولجاتيو وحكم أبي سعيد بهادر خان وعن الضائقة المالية التي وقعت فيها هذه البلاد، وما أصابها من قحط في ظل هذا الخان.

وتاريخ الوصاف يحوي مطالب كثيرة ذات أهمية تتعلق بتاريخ إيران السياسي والاجتماعي والاقتصادي في القرنين السابع والثامن الهجريين الثالث والرابع عشر الميلاديين. وهذه المطالب لا نظير لها في المصادر الأخرى. ويعاب على صاحبه أنه كتبه باسلوب متصنع يجعل الافادة منه مضنية.

وإذا كان البعض(٢٢) قد ذهب إلى أن الصناعات اللفظية قد أنقصت من قيمة الكتاب إلا أنه يمكن القول إن الوصاف في أسلوبه المتصنع إنما هو ابن عصره المتفاعل عادات وتقاليد وعرفا ولغة. وليس شرطا على المؤرخ أو الأديب أن يرى بنظرة لاحقية فيما هو مستساغ في زمن ليس بمستساغ في آخر.

والوصاف مثل أستاذه رشيد الدين تابع لرؤسائه من المغول. ولكنه يشير إلى ما ترتب على سياستهم المالية وتجاوزاتهم من ضربات مميتة أصابت الحياة في مناحيها المختلفة.

وأول طبعات تاريخ الوصاف كانت حجرية، وتضمنت ملحقا بالكلمات النادرة والمهجورة والاصطلاحات الخاصة التي وردت في تاريخ الوصاف. وقد صدرت عام ١٢٦٩هـ /١٨٥٣م.

وقد تابع هامر الجهود التي بذلت حول تاريخ الوصاف بنشره الجزء الأول منه عام ١٨٥٦م مقرونا بترجمة ألمانية.

ولدي الحديث عن المصادر التي أرخت للمغول، لا يمكن تجاهل شخص مثل حمد الله المستوفي القزويني الذي ولد في حدود عام ٦٦٠هـ ١٢٨١م. وهو من أسرة قديمة تعاقبت على وظيفة المستوفي»[٢٣]. ومن ثم فقد ورث حمد الله منصب مستوفي منطقة قزوين. وقد تمتع حمد الله بمساندة رشيد الدين فضم اختصاص البلاد المجاورة.

أطلق حمد الله على كتابه اسم «تاريخ كَزيده»[٢٤] بمعنى «التاريخ المختار» وأنجزه في عام ٧٣١هـ / ١٣٣٠م. مقدما إياه للوزير غياث الدين محمد رشيدي بن رشيد الدين والفصل الرابع من الجزء الثاني عشر يشتمل على خلاصة لتاريخ المغول في ايران بالاضافة إلى تعريف بمسقط رأسه، وينهي هذا الشرح بعام ٧٣٠هـ /١٣٢٩م[٢٥].

وبعض النسخ الخطية لـ (تاريخ كَزيدة) مذيلة على نوعين الأول : ذيل كتبه حمد الله المستوفي نفسه متابعا الأحداث حتى عام ٧٤٥هـ /١٣٤٤م. والثاني، ذيل كتبه زين العابدين ابن المؤلف. وتابع فيه شرح الأحداث حتى عام ٧٩٥هـ /١٣٩٢م.

والكتاب الثاني الذي ألفه حمد الله القزويني في حدود عام ٧٤١هـ / ١٣٤٠م في علم الهيئة والجغرافيا اسمه (نزهة القلوب)[٢٦] ويعتبر القسم الثالث من هذا الكتاب أفضل أقسامه من حيث المعلومات التي تضمنها عن مملكة هولاكو. وقد استفاد المؤلف من سجلاته المالية في الحديث عن الجغرافيا الاقتصادية لايران في زمانه.

والكتاب يتحدث عن وسائل الري والزراعة وأهم المحصولات والمدن ومذاهب أهلها. كما يتضمن حديثا عن الحرف وأسلوب الحياة الاجتماعية.

وقد خصص المؤلف أيضا حديثا مستقلا بذاته عن الانهار والمساقي والمعادن وطرق عبور القوافل. وحمد الله في مؤلفاته يسير على عقيدة رشيد

الدين الاسلامية. ولا شك في ذلك فهو واحد من كبار الموظفين في حكومة المغول.

أنجز محمد بن على الشبانكاري من أهل شبانكاره في الجنوب الشرقي من فارس كتابه المعروف باسم (مجمع الأنساب)[٢٧] عام ٧٣٤هـ /١٣٤٣م. وهو تاريخ عام يشرح الأحداث حتى هذه السنة. غير أن أهمية هذه الأحداث تنحصر في تلك التي وردت بين عامي ٧٢٠هـ / ١٣٢٠ - ١٣٦٠م. والدليل على ذلك أن الشبانكاري يقول مثلا : قصد «خوارزمشاه» الخطأ مع أن جملة الملوك والوزراء وخانات التركستان وحذروه من ذلك وقالوا له: إن جيش الخطا والختن لم يحركه أحد قط. كذلك قال له المجربون لقد سمعنا من آبائنا أنه وراء جيش الخطا توجد خلية نحل حيث ترابط جيوش يأجوج. ويقصدون بهم المغول فلا تحرك هذه الخلية. ولكن دوافع الطمع في التملك وحب السيطرة قد أصمت السلطان عن استماع هذه النصائح الصادقة، فذهب وهزم خان الخطا، واستولى على بلاده، وبالفعل أقام الشبانكاري الحجة على صدق الواقعة تاريخيا[٢٨].

وينهض (تاريخ هراة)[٢٩]. دليلا على أن حركة التاريخ في عصر المغول لم تقف فقط عند كتب التاريخ العام، بل وجد من يؤلف في التاريخ الخاص أيضا، وهو ذلك النوع من التاريخ الذي كاد أن يكون موجودا بمفرده قبل ذلك.

وصاحب هذا الكتاب هو سيف محمد الهروي، ولد في هراة عام ٦٨١هـ /١٢٨٢م. وكان رجلا مثقفا ومن شعراء آل كرت[٣٠] الذين حكموا هراة في الفترة ما بين ٦٤٥ - ٧٩٢هـ /١٢٤٥ - ١٣٨٩م كأتباع للمغول[٣١].

وقد ألف سيفي كتابه بأمر من غياث الدين أول حكام هراة الكرتيين في تاريخ هراة وتوابعها.

ويتناول تاريخ سيفي الأحداث التي وقعت منذ أول هجوم مغولي وقع على خراسان عام ٦١٧هـ - ١٢٢٠م حتى عام ٧٢١هـ/١٣٢١م وهو تاريخ انتهاء الكتاب.

صحيح أن سيفي أفاد من تواريخ الجوزجاني ورشيد الدين ومصادر أخرى كتبت عن تاريخ هراة ولكنها لم تصل الينا، كما أخذ عن المسنين والمجربين وشهود العيان، ونقل أشعارا كثيرة. وهو يكترث أكثر بتاريخ هراة السياسي وسلسلة آل كرت[٣٢] المحلية. ويعطينا تفصيلات أوسع فيما يتعلق بالنظم الاجتماعية المتبعة في هراة وتوابعها. وقد عرض سيفي أحداثه بطريقة تختلف عن رشيد الدين وبقية المؤرخين. ولم يكن ذلك الا لاختلاف المنهج من ناحية. وأن التاريخ العام لا يختلف في كتابته عن الخاص، وأن ما يتوفر لفرد لا يتوفر لآخر من ناحية أخرى.

والواقع أن نمو حركة التاريخ في عصر المغول ينهض دليلا على أن انحطاط الناحيتين السياسية والاقتصادية لا يعني بالتبعية انحطاط في الناحية الثقافية. فالحركة هنا قد تكون عكسية، وليس من المفروض أن تكون في اتجاه واحد. والدليل على ما نذهب اليه هو نمو حركة التأريخ في التاريخ[٣٣] والتاريخ الخاص[٣٤] في عصر المغول أنفسهم.

الهـوامش

(١) هو عز الدين علي بن محمد بن الأثير من أهل الجزيرة، له شأن يذكر في العلوم الدينية والتاريخ. وقد ألف كتابه الكامل في تاريخ العالم، ويقع في ١٢ مجلدا، شرح ابن الأثير الوقائع التاريخية متوخيا الدقة في عرضها عاما بعام حتى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م. وتاريخ ابن الأثير مأخوذ في الأغلب عن كتابات سابقيه من المؤرخين كالطبري والبلاذري وبن مسكويه ومذيلي تواريخهم مثل العتبي وغيره، وأيضا من بعض المواد التي فقدت وكانت تتصل بتاريخ الأقاليم المختلفة «تاريخ المدن والنواحي» وقد عاصر ابن الأثير وقائع القرنين السادس والسابع الهجري /الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. وكتاباته في هذه الفترة مبنية على مشاهداته أو منقولة عن ثقاة معاصرين، وقد ساهم ذلك في ازدياد قيمة الكتاب وجعله ذا أهمية تاريخية مستقلة ومصدراً مهما. وتندرج أحداث ايران التاريخية منذ القرن ١٠ حتى ١٣هـ. في المجلدات من الثامن حتى الثاني عشر وموسوعة ابن الأثير منشورة وأول طباعاتها طبعة ليدن العلمية بواسطة كورنبرج ١٨٥١ – ١٨٧٦م وطبعة بولاق مصر ١٢٩٠ – ١٨٧٣م.

(٢) ابن الأثير – الكامل – جزء ١٢ ص ٣٥٨ وما بعدها طبعة دار بيروت للطباعة والنشر.

(٣) قام الأستاذ حافظ أحمد حمدي بتحقيق هذا الكتاب ونشره في القاهرة عام ١٩٥٣م.

(٤) نشر هذا الكتاب في ايران عام ١٩٣٠م بواسطة رضا قيليخان الذي استطاع تحقيقه ونشره على أساس نسخة خطية فقدت بعد ذلك. وقد أطلق على مؤلف الكتاب اسم محمد زيدري بدلا من محمد النسوي، وجاء من بعده محمد خان قزويني وذكر في مقالة نشرها عام ١٩٣٠م أنه محمد خرندزي نسبة إلى القلعة التي كان النسوي يعيش فيها. ولكن الصائب هو محمد النسوي نسبة إلى نسا. انظر سيرة جلال الدين منكبرتي نشر وتحقيق حافظ حمدي، المقدمة.

(٥) لم ينشر أثر الجوزجاني كاملا، فقد نشرت الأجزاء ١٣، ١٧ حتى ٢١ في كلكتة عام ٣ – ١٨٤٤ طبع Nassu lees أما الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب والتي تمت بواسطة «روارت» وتناولت الأجزاء من ٧ – ٢٣ فقد نشرت في مجلدين طبع لندن عام ١٨٨١م.

(٦) يعرف هذا الكتاب أيضا باسم «منهاج السراج».

(٧) هو ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد علي الشيرازي البيضاوي الشافعي ينسب إلى قرية بيضاء من أعمال شيراز وتوفى عام ٦٩١هـ بتبريز. انظر مقدمة وخاتمة تفسير البيضاوي الطبعة الثانية عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥.

(٨) انظر ابراهيم أمين الشواربي (دكتور) مصادر فارسية في التاريخ الاسلامي ص ٩٣ وما بعدها مقالة منشورة بمجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة. يوليو ١٩٤٤م.

(٩) حقق الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزويني المتن الفارسي لكتاب جهانكشاي جويني في ثلاثة مجلدات مع مقدمة تاريخية. وتم نشره في ليدن ولندن عام ١٩١٢ – ١٩٣٧م.

(١٠) انظر لتفصيلات أشمل. فؤاد عبد المعطي الصياد : رشيد الدين فضل الله الهمذاني. القاهرة ١٣٨٦ – ١٩٦٧م.

(١١) قامت مجموعة من المستشرقين بتحقيق المتن الفارسي لجامع التواريخ منهم كاترمير وبلوشه واي. ن. يزرين وكارليان. كما صدرت ترجمة روسية لهذا الكتاب مع تحقيق للمتن الفارسي في موسكو.

(١٢) انظر مقدمة كاترمير عن رشيد الدين فضل الله الترجمة العربية لمحمد القصاص ص ١ – ١٧٩ المجلد الثاني – الجزء الأول من جامع التواريخ القاهرة ١٩٦٠م.

(١٣) من حسن الحظ أن أجزاء مهمة من جامع التواريخ قد ترجمت إلى العربية عن النسخة التي نشرها كاترمير وقام بالترجمة كل من الأساتذة محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبدالمعطي الصياد. وترجم مقدمة كاترمير عن الفرنسية الدكتور محمد القصاص. وقام بالمراجعة الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب. ونشرت هذه الأجزاء في مجلدين الأول يتضمن تاريخ الايلخانين «هولاكو» والثاني أبناء هولاكو في طبعة لوزارة الثقافة والارشاد القومي. القاهرة عام ١٩٦٠م.

(١٤) جمعت هذه الرسائل بواسطة «أبركوهي» كاتب رشيد الخاص.

(١٥) مكاتبات رشيدي دراسة وترجمة الى العربية عنوان لرسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب جامعة عين شمس من الطالبة ثريا محمد علي.

(١٦) نشرت مكاتبات رشيدي في لاهور عام ١٩٤٧ بواسطة الأستاذ محمد شفيع.

(١٧) انظر مقدمة كاترمير : الترجمة العربية لمحمد القصاص المرجع السابق لتحصل على معلومات أوفر فيما يتصل بقصة قتل رشيد بالاضافة الى فؤاد الصياد رشيد الدين مؤرخ المغول الكبير.

(١٨) توجد نسخة مخطوطة لهذا الكتاب في المكتبة الوطنية بباريس.

(١٩) جعفر شعار : مقدمة تاريخ بناكتي، ص ١٣ – سلسلة انتشارات انجن آثار ملي ٦٦ تهران ١٣٤٨هـ. ش.

(٢٠) المرجع السابق : ص ١٤ – ١٧.

(٢١) ابراهيم بن الشواربي : مصادر فارسية في التاريخ الاسلامي ص ٩٨. مقالة منشورة بمجلة كلية الاداب – جامعة القاهرة يوليو ١٩٤٤م.

(٢٢) Ch Rieu. Catalogue of Persian MSS. in the British Museum 1, P. 162.

(٢٣) رئاسة الادارة المالية في الأقاليم.

(٢٤) نشر ادوارد جرانيفيل براون هذا الكتاب ضمن سلسلة جب التذكارية في مجلدين مع ترجمة إنجليزية مختصرة في عامي ١٩١٠ – ١٩١٣م – ليدن – لندن والنسخة الخطية التي نشرها براون بها ملحق عن تاريخ آل مظفر كان قد كتبه محمد الكتبي عام ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م.

(٢٥) نظم حمد الله في حدود عام ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م منظومة تقع في ٧٥ ألف بيت من الشعر على غرار شاهنامة الفردوسي، ووصل في أحداثها إلى عام ٧٣٢ – ٧٣٣هـ / ١٣٣١ – ١٣٣٢م. وتتضمن هذه المنظومة معلومات ليس لها نظير في المصادر الأخرى خصوصا فيما يتعلق باستيلاء المغول على مدينة قزوين والمذابح التي ارتكبوها، واستمد المؤلف أخبارها من جده. وقد وقعت هذه المذبحة في عام ٦١٧هـ / ١٢٢٠م.

(٢٦) نشر النص الكامل لهذا الكتاب من خلال طبعة حجرية عام ٣١١هـ / ١٨٩٤م في بمباي ثم قام لي استرنج بنشر الجزء الثالث مقرونا بترجمة انجليزية مع التغليف ضمن سلسلة جب التذكارية عام ١٩١٥م في مجلدين ليدن – لندن ١٩١٥م.

(٢٧) لم يطبع كتاب الشبانكاري. وتوجد منه نسخة خطية بخط المؤلف نفسه ضمن مجموعة المخطوطات الشرقية في معهد العلوم السوفيتية بلينتجراد.

(٢٨) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٦٨.

(٢٩) يعرف هذا الكتاب أيضا بتاريخ سيفي أو تاريخ كرت.

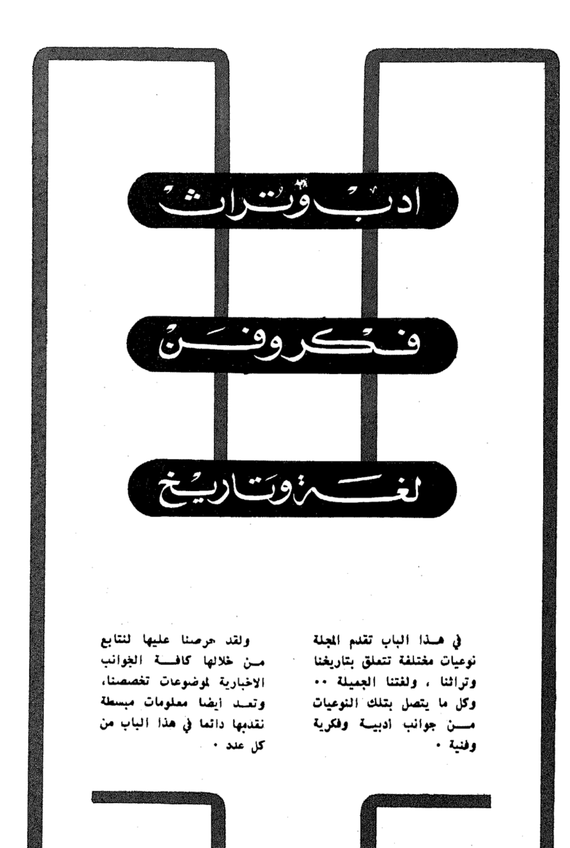
(٣٠) الأصوب في النطق هو بفتح الكاف.

(٣١) حقق محمد دبير صديقي الأستاذ بجامعة كلكتا النص الفارسي للكتاب ونشره مع مقدمة.

(٣٢) أصلهم تركي. ويقولون إنهم ينتسبون إلى سنجر من سلاجقة خراسان وكان لهم شأن كبير في أثناء إضمحلال الدولة الايلخانية، وأول ملوكهم شمس الدين محمد ٦٤٣ – ٦٧٦هـ / ١٢٤٥ – ١٢٧٧م. انظر أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة. الجزء الثاني ٥٣٢، ٥٣٣ طبع دار المعارف.

(٣٣) المقصود به الموسوعات التاريخية التي تتناول تاريخ البشرية حتى زمان المؤلف.

(٣٤) المقصود به التأريخ لشخص أو مدينة على الأقل أو دولة من الدول على الأكثر.



ادب وتراث

فكر وفن

لغة وتاريخ

في هـذا الباب تقدم المجلة نوعيات مختلفة تتعلق بتاريخنا وتراثنا ، ولغتنا الجميلة .. وكل ما يتصل بتلك النوعيات مـن جوانب ادبيـة وفكرية وفنية .

ولقد حرصنا عليها لنتابع مـن خلالها كافـة الجوانب الاخبارية لموضوعات تخصصنا، وتعـد أيضا معلومات مبسطة نقدمها دائما في هذا الباب من كل عدد .

إعداد :
علي عيسى أبو حسين

من ثمرات الدارة

لازالت جهود الدارة تتوالى في إصدار الكتب التي تحقق أهدافها وهي خدمة تاريخ المملكة وجغرافيتها وآدابها وآثارها الفكرية والعمرانية خاصة والجزيرة وبلاد العرب والاسلام عامة، ويولي أمين عام الدارة الشيخ عبد الملك بن عبد الله آل الشيخ هذا الأمر عناية كبيرة لضمان أن تخرج الكتب تأليفا وإخراجا في المستوى اللائق بالمكانة العلمية التي وصلتها الدارة.

ومن تقاليد هذا الباب إعطاء القارىء فكرة وافية عن كل هذه الكتب في حين صدورها، وهذا ما حدث في الأعداد الماضية بالنسبة للكتب التي أصدرتها الدارة قبلا.

وفي هذا العدد يجد القاريء عرضا لثلاثة كتب من الكتب الجديدة وسيواصل هذا الباب عرض كتب أخرى في أعداد قادمة لأن الدارة تواصل السير على نهجها في هذا الأمر.

إصدارات جديدة

كتاب نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود

وهو يحمل الرقم ٢٢ في ترتيبه من مطبوعات الدارة تأليف الشيخ عبدالرحمن بن أحمد البهكلي وتكملة الشيخ الحسن بن أحمد عاكش — دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ محمد بن أحمد العقيلي وقد قدم الشيخ محمد بن أحمد العقيلي لهذه المخطوطة بدراسة شاملة للظروف المحيطة بشبه الجزيرة العربية محليا وعالميا بحيث تهيىء للقاريء معايشة الأحداث التي ألمت بالمنطقة في ذاك الوقت.

ويستعرض فترات من تاريخ بلادنا كانت تحتاج لالقاء مزيد من الأضواء عليها فهو يسجل لاثنى عشر عاما من تاريخ جنوب المملكة وشبه الجزيرة بوجه عام والظروف التي أحاطت بقيام الدولة السعودية الأولى بوجه خاص وأثر الدعوة السلفية في المنطقة..

وكتاب نفح العود من الكتب التراثية المؤلف في الثلث الأول من القرن الثالث الهجري والذي لا يزال مخطوطا الى هذا التاريخ مع أنه المصدر الوحيد لفترة من أهم فترات

جنوب الجزيرة بصفة عامة وتاريخنا السعودي الأول والنهضة السلفية بصورة خاصة مع أن المؤلف يتحامل على الدعوة السلفية، الا أن تحامله هذا لا يستشف منه العداء للدعوة بقدر ما يستشف منه مجاملة للحكام الذين يؤرخ لهم في ذاك الحين واقتضتها ظروف ذلك الوقت أو مجاراة لما كان ينشر من قبل الدولة التركية المناهضة للدعوة الاصلاحية من الدعايات المغرضة شأن كل دعوة اصلاحية يقاومها المغرضون لأنها في عرفهم تخالف المألوف وتباين ما جلبوا عليه من المعتاد وهكذا شأن كل دعوة اصلاحية.

وقد جاء تحقيق المخطوطة في ٣٤٣ صفحة واختتم بايضاحات تضم فهرست لأهم الأسماء التي وردت في الكتاب وفهرست الأماكن والبلدان وفهرست بأسماء القبائل ثم أسماء مصادر التعليقات وأسماء المخطوطات ثم فهرست لمحتويات الكتاب.

كتاب حالة الأمن في عهد الملك عبد العزيز

تأليف الأستاذ رابح لطفي جمعة ويحمل الرقم ٢٣ من مطبوعات الدارة – والجدير بالذكر أن هذا البحث قد نال جائزة الملك فيصل الأولى في المسابقة الثانية التي أجرتها دارة الملك عبد العزيز.

ويبدأ الكتاب بتقديم الدارة ومقدمة المؤلف ثم الباب الأول ويشمل أدوار الدولة السعودية وينقسم الى ثلاثة أدوار:

أولها منذ نشأة حكومة الدرعية سنة ١١٣٩هـ الى سنة ١٢٣٥هـ.

والثاني منذ تجديد دولة آل سعود على يد الأمير تركي بن عبدالله سنة ١٢٣٥ الى أيام ابن الرشيد الشمري سنة ١٣٠٩هـ.

أما الدور الثالث فيبدأ منذ استرد الامام الراحل عبد العزيز بن عبدالرحمن مدينة الرياض من ابن الرشيد سنة ١٣١٩هـ الى وقتنا هذا.

وذكر المؤلف أن الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب وأبناءه وأحفاده من بعده قد وقفوا منذ اللحظات الأولى بجوار آل سعود في تأسيس دولتهم في مختلف أدوارها على أساس من دعوة هذا الامام الجليل.

وشمل هذا الباب في مبحثه الثاني هجرة عبد الرحمن بن فيصل من الرياض ونشأة ولده عبد العزيز بن عبد الرحمن، ثم نبذة عن ادارة آل الرشيد في حائل، ثم استيلاء عبدالعزيز بن عبد الرحمن على الرياض، ثم عبد العزيز وسياسته مع الأتراك، وتكلم أيضا عن مراسلات حسين شريف مكة وهنري مكماهون، واستعرض حالة الجزيرة العربية بعد الحرب العالمية الأولى. لاستسلام آل الرشيد وبعد ذلك استيلاء عبدالعزيز على الحجاز وتسوية الخلافات مع اليمن وتحديد الحدود بين البلدين وعقد معاهدة الصداقة الاسلامية والاخاء بينه وبين اليمن ثم قيام المملكة العربية السعودية سنة ١٩٣٢م.

وفي الفصل الثاني من هذا الباب:

حالة الأمن في الحجاز ونجد قبل الملك عبد العزيز أيام كان الحجاز تحت حكم الأشراف وأسباب اضطراب الأمن في هذه الفترة، ثم تكلم عن حالة الأمن في عهد الملك عبد العزيز وعمله على إرساء قواعد الأمن وخصوصا في رحلة الحج الى الأراضي المقدسة.

أما الباب الثاني:

– عوامل استتباب الأمن في عهد الملك عبد العزيز وتطبيق الشريعة الاسلامية في البلاد والتمشي بسياسة لا سلطان الا للشرع مع الحزم والمساواة في تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية في المملكة العربية السعودية وتأسيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي أسهمت مساهمة إيجابية وفعالة في القضاء على المفاسد ومحاربة الرذيلة في المجتمع السعودي مما كان له أثره في إشاعة الأمن والاطمئنان بين المواطنين.

والفصل الثالث في هذا الباب:

– علاقة الأمن بالاستقرار السياسي. ويتناول نظام الحكم في المملكة العربية السعودية من حيث التقسيم الاداري للمملكة وإنشاء مجالس لحكم البلاد.

– الاتفاقات والمعاهدات التي عقدها الملك عبد العزيز مع الدول المجاورة لضمان حسن الجوار مع من حوله وعمل أيضا على القضاء على الخلافات والمنازعات القبلية واستطاع أن يقرب بين النفوس ويوحد الصفوف وبذلك تمكن من توحيد الجزيرة المترامية الأطراف من إمارات ودويلات.

أما الفصل الثالث:

– أثر الوعي الشعبي في استقرار

حالة الأمن وفي سبيل ذلك كان إهتمام الملك عبد العزيز بنشر التعليم والثقافة والأخذ بأسباب التحضر.

والفصل الرابع:

– الانتعاش الاقتصادي في عهد الملك عبد العزيز وأثر هذا الانتعاش في حالة الأمن بما في ذلك اكتشاف البترول وأثره على الهجرة من البادية الى الحضر ثم أثر هذه الهجرة على الأمن في المملكة.

وفي الفصل الخامس:

– وجود جهاز شرطة حازم ومنظم بالمملكة ودور الشرطة في حفظ الأمن.

– تشكيلات جهاز الأمن العام بالمملكة ووظائفه واختصاصاته وواجباته بالنسبة لموسم الحج الذي يعتبر أوضح مثال للمستوى الرفيع الذي توصلت اليه حالة الأمن بالمملكة التي أرسى قواعدها مؤسس هذه المملكة.

وتجيء بعد ذلك الخاتمة التي وضعها المؤلف ثم فهرست لمراجع الكتاب وفهرست لمحتويات الكتاب الذي تم في ٣٢٧ صفحة.

كتاب الملك فيصل والقضـية الفلســطينية

ويحمل الرقم ٢٤ من مطبوعات الدارة تأليف الدكتور السيد عليوه – وقد نال هذا البحث جائزة الملك فيصل الثانية في مسابقة دارة الملك عبد العزيز.

والكتاب عرض شامل للقضية الفلسطينية عند جلالة الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز.

ويضم هذا الكتاب فصولا خمسة أولها: يوضح في مبحثه الأول تأثير الاطار التاريخي لعهد الملك فيصل على سياسته الفلسطينية باعتبار فترة حكمه من أكثر المراحل حسما في تاريخ المملكة العربية السعودية وتاريخ القضية الفلسطينية بل وتاريخ المنطقة العربية بأسرها لأنه كان من أكثر القادة وضوحا في الرؤية، وسدادا في الرأي، وصوابا في اتخاذ القرار الذي يستثمر المتغيرات الجارية ويستفيد بتفاعلاتها لصالح قضايا العرب.

والمبحث الثاني في هذا الباب يتحدث عن البعد الفلسطيني في السياسة السعودية في عهد الملك فيصل والذي كان يتصف بالوضوح سواء في مفهوم الأمن الوطني

السعودي أو في الاستراتيجية السعودية.

والفصل الثاني يتحدث في مبحثه الأول عن أبعاد القضية الفلسطينية عند الملك فيصل لأنها تعبر عن المضمون أو المحتوى الفلسطيني في صياغة السياسة الخارجية السعودية وبالتالي يحدد موقع القضية الفلسطينية في سلم أولويات الأهداف الوطنية للمملكة .

أما المبحث الثاني في نفس الفصل فيتناول البعد القومي العربي للقضية، فقد برهنت فترة حكم الملك فيصل عن اهتمامه بابراز الجانب العربي في القضية الفلسطينية ويتمثل هذا الاهتمام في خطبه وتصريحاته وفي سياسته وقراراته فكان حرص المملكة على رعاية الشعب العربي الفلسطيني. وكانت مساندة الملك فيصل للتضامن العربي ودعمه المستمر للصمود العربي ويتجلى ذلك في تأييده لمؤتمرات القمة العربية والعمل على نجاحها كما تبنى مفهوم الأمن القومي العربي والذي قام على ضرورة نبذ الفرقة وتوحيد الجهود العربية، فكانت سياسته التي انتهجها مع مصر بسبيل تقاربها مع أشقائها من الدول العربية. وكانت أيضا سياسته نحو تسوية منازعات الحدود بين المملكة العربية السعودية وبين امارات الخليج والكويت والعراق.

أما المبحث الثاني من هذا الفصل فيتحدث عن البعد الاسلامي للقضية الفلسطينية عند الملك فيصل الذي يتمثل في مبدأين: الأهمية الدينية القصوى للمسجد الأقصى وضرورة حماية الثقافة والوجود الاسلامي في فلسطين.

والفصل الثالث بعنوان أدوات السياسة السعودية في عهد الملك فيصل لنصرة القضية الفلسطينية، فكانت سياسة المساعدات المالية التي استندت على محورين أساسيين:

الأول: يستهدف دعم القوة العسكرية العربية بتمويل مشتريات الأسلحة الفلسطينية.

الثاني: يستهدف بذل المساعدات الاقتصادية وخصوصا لدول المواجهة للعدو الصهيوني.

والمبحث الثاني عن دبلوماسية البترول واستخدامه كسلاح لتحقيق أهداف سياسية وكيفية استخدام الملك فيصل لهذا السلاح بطريقة فعالة في مجالات متعددة منها حظر البترول في موقعين متميزين في حرب يونيو عام ١٩٦٧ وحرب أكتوبر ١٩٧٣م، وأيضا قطع الدول الافريقية

لعلاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل.

الفصل الرابع – نتائج سياسة الملك فيصل تجاه القضية الفلسطينية.

المبحث الأول: تصاعد الكفاح الفلسطيني المسلح باكتساب النضال الفلسطيني شرعية دولية، وتزايد العمليات الفدائية.

المبحث الثاني: تعاظم المقاومة الشعبية الفلسطينية والانتفاضة المستمرة في الضفة الغربية ومقاومة الفلسطينيين للاحتلال الصهيوني.

الفصل الخامس: مسار القضية الفلسطينية بعد الملك فيصل.

– المبحث الأول استقطاب القضية الفلسطينية للتأييد العالمي وتزايد الثقل العربي الاقتصادي والسياسي والعسكري في معادلة الصراع ضد العدو الاسرائيلي. ومن ناحية أخرى تصاعد المد والعون الاسلامي لكثير من الدول الاسلامية وبالأخص فيما يتعلق بمواقفهم من كفاح الشعب الفلسطيني مما أدى الى تعاظم التيار التحرري وحشد الطاقات العربية ضد التوسع الصهيوني.

المبحث الثاني: خلاصة النهج الفيصلي لمعالجة القضايا الاسلامية – إرساء مبادىء كبرى في معالجة القضايا الخارجية منها اعتماد القوة الذاتية للشعب العربي الاقتصادية والعسكرية واستخدام الحصافة الدبلوماسية ونصرة قضايا الشعوب من منطلق عالمي وأشمل.

ثم تجيء الخاتمة التي وضعها المؤلف للكتاب لتؤكد أن سياسة العاهل السعودي تجاه القضية الفلسطينية بمقوماتها وأبعادها وأدواتها ونتائجها قد برهنت على نجاح حقيقي ومصداقية.

وفي آخر الكتاب قائمة بملاحق الدراسة.

ملحق رقم (١) نص قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة حول تكريس حقوق الشعب الفلسطيني ومنح منظمة التحرير صفة مراقب.

ملحق رقم (٢) نص قرار الأمم المتحدة باعتبار الصهيونية شكلا من أشكال العنصرية.

ملحق رقم (٣) الاعلان السياسي لمؤتمر القمة الافريقي العربي الأول.

وقد زود الكتاب في نهاية كل فصل بأسماء مراجع الفصل وتم الكتاب في ١٥٥ صفحة.

الدارة تشارك في حضور المؤتمر الدولي للوثائق المنعقد في اسلام أباد في الباكستان

عقد في مدينة اسلام أباد في الباكستان في الفترة من ١٥ – ١٨ فبراير ١٩٨٢م المؤتمر الدولي للوثائق وقد مثل الدارة في هذا المؤتمر الأستاذ عبد الله حمد الحقيل مدير عام الادارة الفنية بالدارة وقد حضر المؤتمر كل من: المملكة العربية السعودية – بريطانيا – فرنسا – ماليزيا – بنجلاديش – الصين – سيلان – الباكستان.

وقد جرى مناقشة موضوع الوثائق والاهتمام بها والمحافظة عليها وطرق ترميمها وصيانتها وكيفية استخدامها. وقد تقدم مندوب الدارة للمؤتمر بورقة عمل حول أهمية الحفاظ على التراث والوثائق الاسلامية المبعثرة في مختلف مكتبات الغرب ودراستها وتحقيقها واماطة اللثام عنها لأنها آثار أسلافنا ومخلفات حضارتنا بدلا من أن يتولى ذلك المستشرقون وعلماء البلاد الأجنبية الذين هم غرباء عن حضارة الاسلام وبعد نهاية المؤتمر قام الأستاذ عبدالله الحقيل بزيارة لدار الوثائق الباكستانية واطلع على ما تحويه من وثائق ومخطوطات.

إيفاد رئيس المركز الوطني للوثائق والمخطوطات بالدارة الى مراكز الوثائق الأمريكية

حرصا من الدارة على تزويد مركز الوثائق بها بالمدخرات فقد أوفدت الأمانة العامة للدارة الاستاذ حمد عبدالرحمن العمرو الى الولايات المتحدة الأمريكية في المدة من ١٠ /٢ /١٤٠٢هـ الى ٩ /٣ /١٤٠٢هـ للاطلاع على مراكز الوثائق وبحث مايمكن الحصول عليه منها اثراءً للمركز بالدارة.

والمعروف أنه يضم ثروة من الوثائق عن العهد العثماني باللغة التركية كما يضم قدرا كبيرا من الوثائق الانجليزية الخاصة بحكومة الهند ومكتب الهند في لندن ووزارة الخارجية البريطانية مما كان له علاقة بتاريخ الجزيرة العربية عامة والمملكة خاصة.

وقام قسم الترجمة بالدارة بترجمة

جانب كبير منها عن التركية والانجليزية الى اللغة العربية وتمت فهرستها ووضع دليل يحوي الوثائق العربية وأخرى يحوي الوثائق الأجنبية

ولا شك أن الأرشيفات الأمريكية بدورها تضم عدداً من الوثائق ذات الصلة بتاريخ الجزيرة المعاصر عامة وتاريخ المملكة المعاصر خاصة.

زاوية التراث

ثابت بن قرة

ولد في حران سنة ٢٢١هـ، ثم انتقل الى بغداد واشتغل بالعلم، وكان قد التقى بمحمد بن موسى الخوارزمي الذي أعجب بفصاحة ثابت وذكائه فاستصحبه الى بغداد ووصله بالخليفة المعتضد، وكان يحترم العلماء وأصحاب المواهب والكفايات ويجلبهم ويغدق عليهم العطايا، وهو صاحب القصة المشهورة مع الخليفة، إذ كان يمشي معه في بستان فسحب الخليفة يده بشدة حين شعر أنه كان يتكىء على ثابت، قائلا معذرة يا أبا الحسن لقد سهوت فإن العلماء يعلون ولا يعلون. كان يحسن السريانية واليونانية والعبرية ويجيد الترجمة الى العربية، ويعده المستشرق سارتون من أعظم المترجمين في العالم العربي، وقد ترجم كتبا كثيرة من علوم الأقدمين في الرياضيات والمنطق والطب وقد ترجم كتب بطليموس في الفلك «المجسطى» والجغرافيا، وكذلك إختصر المجسطي بقصد تعليمه وتسهيل قراءته، وحل بعض المعادلات التكعيبية بطرق هندسية، ويعتبر من الذين مهدوا لايجاد التكامل والتفاضل.

نبغ ثابت في الطب والرياضيات والفلك والفلسفة ووضع فيها جميعا مؤلفات قيمة، وله أرصاد قيمة تولاها في بغداد، فقد استخرج حركة الشمس وحسب طول السنة النجمية، فكانت أكثر من الحقيقة بنصف ثانية، وله مؤلفات وابتكارات في الهندسة التحليلية، ووضع كتابا في الجبر بيَّن فيه علاقة الجبر بالهندسة، واشتهر بجانب ذلك كله بالطب، وألف فيه كُتباً كثيرة في أوجاع الكلى والمثانة وآخر في أجناس ما تنقسم اليه الأدوية وغيرها، ومن كتبه في الفلك كتاب في تسهيل المجسطي وثاني في المدخل الى

المجسطي، وثالث في علة الكسوف، ورابع في جركة الفلك، وله كتب أخرى في الهندسة والمدخل الى إقليدس والمدخل الى المنطق وكتاب في الأنواء وكسوف الشمس والقمر ومقالة في حساب خسوف القمر والشمس وتركيب الأفلاك.

معاوية بن معاوية المزني

صحابي أسلم واتقى وآمن وعمل على قدر ما يستطيع وسيرته نبحثها ليس لبطولة صال فيها وجال في حرب ونضال، وإنما لأنه حارب نفسه وهواها فألزمها ما سلك به طريق النجاة وأبعدها عما يبعده من الله.

تحدث أنس بن مالك يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فطلعت الشمس يوما بنور وشعاع وضياء لم نره قبل ذلك.. فتعجب النبي ﷺ من شأنها اذ أتاه جبريل يقول: مات معاوية بن معاوية المزني. فبعث الله سبعين ألف ملك يصلون عليه.. فقال رسول الله ﷺ (بم ذاك؟) قال جبريل: بكثرة تلاوته (قل هو الله أحد) فهل لك أن تصلي عليه..

ذلك أن جبريل قد وضع جناحه الأيمن على الجبال فتواضعت حتى نظرنا الى المدينة.. ونظروا الى المدينة فوجدوهم يصلون على معاوية الصحابي الكريم.. أنها معجزة نبي، وقدرة الله على تكريم عباده الملصين.. فهل بنا أن نقتدي بهؤلاء ونتعلم كيف نقرأ هذه السورة التي هي التوحيد كله فقد نفت الشرك في عقيدة المشركين ووصفت الله بالكمال المطلق، أنها ثلث القرآن، أحسن الله لمن قرأها مثل ما أحسن لمعاوية المزني أو الليثي رضي الله عنهم أجمعين.

حمنة بنت جحش

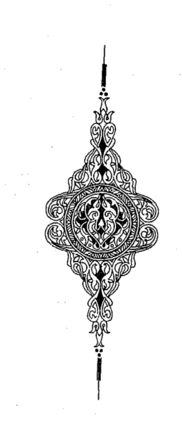
حمنة بنت جحش كان أبوها حليفا لحرب بن أمية، وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، عمة رسول الله ﷺ وهي بهذا أخت زينت بنت جحش أم المؤمنين، أسلمت في السابقين وهاجرت مع زوجها مصعب بن عمير الى المدينة في أول المهاجرين.

كانت حمنة مجاهدة في غزوة أُحد مع الجيش تسقي العطشى وتداوي الجرحى.

وتحدث ابن أخيها محمد بن عبدالله بن جحش، قال: قامت النساء حين رجع رسول الله ﷺ

من «أحد» يسألن عن أهلهن ولم يخبرن حتى أتين النبي. فلا تسأله إمرأة الا أخبرها عن فقيدها الشهيد الابن والأخ، والأب والزوج، فجاءته حمنة بنت جحش. فقال: ياحمنة احتسبي أخاك عبد الله بن جحش قالت: إنا لله وإنا اليه راجعون. رحمه الله وغفر له. ثم قال: ياحمنة إحتسبي خالك حمزة بن عبد المطلب، قالت: إنا لله وإنا اليه راجعون. رحمه الله وغفر له. ثم قال: ياحمنة إحتسبي زوجك مصعب بن عمير. فقالت ياحرباه..! فقال النبي ﷺ (ان للرجل لشعبة من المرأة). ثم قال: كيف قلت على مصعب مالم تقولي على غيره؟ قالت يارسول الله. ذكرت يتم ولده.

ألم تكن حمنة الكبيرة البطلة في الاسترجاع الى الله والصبر على المصاب. فان خسارتها لكبيرة في خالها حمزة وفي أخيها عبد الله وفي زوجها مصعب ولكنها الكاسبة كل الكسب بصبرها.



farm productivity per man accompanied by a decline in the number of farm people. (2) An increasing linkage of the farm and nonfarm sectors. (3) Increasing specialization of farm production. (4) Decreasing rural-urban differences in values. (5) Increasing cosmopolitanism of rural people in their social relations. (6) Centralization of decision making in rural public policy of agribusiness. (7) A decrease in the importance of primary relations... and an increase of secondary relations.

(2) For more details see Europa Publications (1976-77:598).

(3) The sociocultural construct is probably the least acceptable to social scientists because of its generality and operational diffuseness. However, it has been widely treated and proved most useful mainly in theoretical discussions and particularly in the classical rural-urban, sacred-secular, Gemeinshaft-Gesellshaft types of treatments.

(4) In a study of his own. the author (1974) empirically explored the meaning of rurality in terms of three constructs, i.e., the occupational, ecological and demographic. Units of analysis, being Egyptian governorates, counties, and individual communities, were found responsible for the type of triadic structure of indices of rurality. For example, on the level of governorates the occupational construct, i.e., the proportion of people engaged in agriculture was found alone quite sufficient for assessing the relative degrees of rurality of Egyptian governorates. On the level of counties, proportion of the population engaged in agriculture, proportion of rural inhabitants, and average community size were identified as a triadic structure of indices of rurality with corresponding weights of .664, .241, and .175 respectively. On the level of communities it was suggested that the urban status might be granted to all capitals of governorates and counties as well as all other communities whose proportion of population engaged in agriculture is equal to or smaller than the average value pertained to all capitals of counties other than those regarded as also capitals of governorates. The rural status would then be granted to all other communities.

Ministry of Finance and National Economy, Riyadh, Saudi Arabia.

Nichols, C. K.
1940 «A suggested technique for determining whether a community can be classified as rural or urban,» Rural Sociology, 5, December, pp. 454 - 460.

The Agency of Saudi - Arabia Currency, Circle of Economic Recearch.
1961-75 Annual Report. Fifteen numbers. Riyadh, Saudi Arabia.

Paige, Jeffray
1975 Agrarian Revolution: Social Movements and Export Agriculture in Underdeveloped World. New York: The Free Press.

Rodefeld, Richard D. et. al.
1978 Change in Rural America. Saint Louis: The C. V. Mosby.

Slocum, Walter
1962 Agricultural Sociology. New York: Haper and Brothers.

Wirth, Louis
1957 «Urbanism as a way of life,» in Hatt, Paul K. and Albert J. Reiss, Jr. (eds) Cities and Society, rev. ed. Glencoe, Illinois: The Free Press. pp. 46 - 63.

(1) For more details on this dramatic change see Berry (1976); Paige (1975) and Larson and Rogers (1964). The latter authors (p.60) listed seven major changes in the rural sector at that time: (1) An increase in

number 3, December 1974.

Heady, Earl O.
1978 «Rural development and rural communities of the future,» in Rodefeld, Richard D. et al. Change in Rural America. Saint Louis: The C.V. Mosby Company.

Larson, Olaf F. And Everett M. Rogers
1964 «Rural society in transition: The American setting,» in Copp, James H. Our Changing Rural Society: Perspectives and Trends. Ames, Iowa: Iowa State University Press.

Loomis, Charles P. and J. Allan Beagle
1950 Rural Social Systems. New York: Prentice-Hall, Inc. p. 204.

Lowe, George W. and Charles W. peek
1974 «Location and lifestyle: The comparative explanatory utility of urbanism and rurality,» Rural Sociology, vol. 39, Fall, pp. 392 - 419.

The Ministry of Finance and National Economy
1967 «General results of the survey of institutions in the principal cities of Saudi Arabia,» Riyadh, Saudi Arabia.

1965-74 Annual Statistical Yearbook. The Ministry of Finance and National Economy, Riyadh, Saudi Arabia.

1974 «Primary results of the population and housing census in the Kingdom of Saudi Arabia,» The

REFERENCES

Bealer, Robert C., Fern K. Willits and William P. Kuvlesky
1965 «The meaning of rurality in American society: some implications of alternative definitions,» Rural Sociology, 30 (3), pp. 255 - 266.

Berry, Wéndell
1976 «Where cities and farms come togethér,» in Merril, Richard, ed. Radical Agriculture. New York: Harper and Row, pp. 12 - 25.

The central Agency for Planning of Saudi Arabia
1974 «Report of the Central Agency for Planning,» Riyadh, Saudi Arabia.

Durkheim, Emile
1960 The Division of Labor, tr. by George Simpson, Illinois: The Free Press.

Europa Publications
1976-77 The Middle East and North Africa. Twenty third edition. London: Europa publications Limited. pp. 598 - 599.

Ford, Thomas R. (ed.)
1978 Rural U.S.A.: Persistence and Change. Ames, Iowa, The Iowa State Univresity Press.

Gamie, Mohamed N.
1974 «Analytical socio-economic explorations into the nature and measuremnt of rurality with particular reference to Egyptian communities,» Alexandria Journal of Agricultural Research, vol. 22,

Most correlations between regions' rurality and adequacy of health service and facilities were found in concordance with the proposed hypothesis. They were all negative and significant at the .01 level of significance. The only exception to these findings was the correlation between rurality and adequacy of hospital beds or capacity of hospital accomodation as the value of calculated r was found only -.386. However, the negative tendency of correlation is still being manifested. The findings pertained to the relationship between rurality and adequacy of educational services were not as conclusive as those of the health services and facilities. The significant correlation found between regions' rurality and the proportion of their student population was the only support found for the proposed hypothesis.

In conclusion, the findings of this study point to the need for balanced emphasis on both rural and urban sectors in the formulation and implementation of national development plans in the Kingdom of Saudi Arabia. The economy of such country endowed by tremendous financial resources must not be left for conspicuous consumption and non-productive but quick profit making economic activities. Inspite of their costly investmemts in an arid country like Saudi Arabia, rural and agricultural developments do require a lot more emphasis and concern.

The yielding of government developmental efforts to these pressures will end up with a continuous deterioration of the rural sector and consequently with an impotent agricultural base. With this in mind, the present study aims at testing its hypothesis in the Kingdom of Saudi Arabia. This kingdom has a rare and distinct status among other countries of the developing world, that is, the existence of sufficient monetary resources necessary for funding all aspects of national development plans. If such bias in favor of urban development proved to be still existent then factors other than lack of funds will have to be explored.

In operational terms, the hypothesis of the study was stated as follows: the higher the degree of rurality of a given region the lower the adequacy of its health and educational facilities and services. As expressed by the 1974 census data, the Kingdom is composed of thirteen regions. The degree of rurality of each region was measured as the proportion of its population engaged in agriculture. Five indices of health services and facilities were calculated: (1) Physicians to population ratio. (2) Number of hospital beds to population ratio. (3) Number of chemists and druggists to population ratio. (4) Number of employees in the health sector to population ratio. (5) Number of pharmacies and drug stores to population ratio. Also, three indices of educational services were calculated: (1) Number of classrooms to population ratio. (2) classrooms to students ratio. (3) Students' percentage of the region's total population.

Regions were ranked according to degrees of rurality and the rank of each region with respect to the adequacy of each of the above mentioned eight services and facilities was also identified. Spearmans' rank order correlation coefficients were calculated to test the relationships between regions' ranks by rurality on one hand and regions' ranks by each of the health and educational facilities and services on the other.

However, in this regard, the findings of this study has uncovered a surprising phenomenon. A strong positive correlation was found between regions' degree of rurality and size of students per classroom as the value of r was found +.771. Thus, rural regions do have small size classes in comparison to urban regions. This takes place inspite of the fact that there is only a tendency for regions to have relatively smaller number of classes per a given number of inhabitants. The fact that this is only a tendency leaves the rationale behind the relatively smaller student population in rural regions to be attributed to the lower educational aspirations of the rural people as mentioned before.

SUMMARY AND CONCLUSIONS

The process of rural development aims at the achievement of structural transformations in the rural sector of societies implicating consequent advancements in the economic, social, and psychic spheres of human life. Naturally, rural development is a part of national development of which the other part is urban development. Successful national porgress must be characterized by balanced and integrated rural-urban development processes.

It is the hypothesis of this study that rural development in the third world is particularly undermined as compared to what is happening in the urban sector of such societies. This bias in favor of urban communities is attributed to their containement of government bodies, existence of strong pressure groups, tourism, concentration of industry and commercial activities, and the continually rising expectations of the urban population.

The findings pertained to the relationship between rurality and adequacy of educational services were not conclusive. The only definitive support of the hypothesis of this study was attained by the correlation between degree of regions' rurality and the proportion of their student population. A negative Spearman's rank order correlation coefficient significant at the. 05 level of significance indicates that the higher the degree of rurality of a given region the lower the proportion of its student population. Thus, rural regions do not place as higher value upon educational achievement as being expressed by urban regions. This might indicate a need on the part of responsible authorities to try to change the values of rural population towards the adoption of science and rationality and the elevation of their level of educational aspirations. The Eastern Region, Mecca and Riyadh, the three least rural regions, had the highest proportions of student population. On the opposite direction stood the mostly rural regions of Ha-il, Tabook, Najran, and Asseer having the lowest proportions of student population.

Table 4. Summary of regions' average+ ranks with regard to rurality and adquacy of health and educational services and facilities.

Regions ranked by rurality	r a n k s o f							
	Inhabitants per physician	Inhabitants per hosp. bed	Inhabitants per druggist or chemist	Inhabitants per health employee	Inhabitants per pharmacy or drug store	Inhabitants per class-room	Studen. per class	Student per-centage
1. Al-Baha	11.5	8.5	10.5	11.5	12.5	4	2	6
2. Asseer	11.5	8.5	10.5	11.5	12.5	4	2	6
3. Ha-il	13	10	—	13	7	11	1	13
4. Al-Jouf	6	12	5	7	9	7.5	5.5	7.5
5. Jizan	10	7	12	10	11	10	7	9
6. Najran	9	5	8	9	6	12	10	11
7. Al-Kasseem	3	2	9	3	5	2	4	4
8. Al-Medina	4	4	7	5	4	6	12	5
9. Tabouk	6	12	5	7	9	13	8	12
10. Al-Qurayat	6	12	5	7	9	7.5	5.5	7.5
11. Riyadh	1	3	1	1	2	3	9	2
12. Mecca	2	1	2	2	1	5	13	3
13. The Eastern Region	8	6	3	4	3	1	11	1
VALUES OF r++ Significance	-.705 (.01)	-.386 (n.s.)	-.806 (.01)	-.820 (.01)	-.765 (.01)	-.348 (n.s.)	.771 (.01)	-.598 (.05)

+Average rank means that if two regions have the same score on a given health service they will both have the same rank and that is supposedly 11. The average rank for each of them will be 11.5.

++r is Spearman's rank order correlation coefficient between ranks of regions' rurality and ranks of regions by each of the health and educational facilities and services.

Table 3. Selected indices of educational services in different regions of Saudi Arabia.

Region	Inhabitants per one classroom		Students per one classroom		Students' percentage of total population	
	Number	Rank	Number	Rank	Percent	Rank
Al-Baha	213	4	18.25	2	8.57	6
Asseer	329	9	21.24	3	6.45	10
Ha-il	375	11	18.21	1	4.86	13
Al-Jouf+	323	7	23.17	5	7.17	7
Jisan	368	10	24.79	7	6.73	9
Najran	477	12	26.56	10	5.57	11
Al-Kasseem	174	2	21.71	4	12.44	4
Al-Medina	300	6	29.67	12	9.88	5
Tabouk	512	13	25.74	8	5.02	12
Al-Qurayat	323	7	23.17	5	7.17	7
Riyadh	182	3	26.55	9	14.56	2
Mecca	234	5	29.69	13	12.66	3
The Eastern Region	172	1	29.19	11	16.34	1

+Regarding educational data, Al-Jouf and Al-Qurayat regions are considered one region, i.e., the Northern Region.

tively by health service number five. The obvious meaning of this is the disproporationate enjoyment of urban regions in terms of the existence of better health facilities and services as compared to rural regions. The only exception to these findings is the unadvanced rank of the Eastern Region with regard to physicians and hospital services and facilities. Table 4 summarizes the regions' ranks with respect to rurality and all health and educational services and facilities beside the calculated values of Spearman's rank order correlation coefficients for testing the significance of correlations between rurality on one hand and each of these services on the other.

As expected by the hypothesis, all correlations between rurality and adequacy of health services were found negative and significant at the. 01 level of significance. The only exception to these findings was the correlation between rurality and adequacy of hospital beds or capacity of hospital accomodation as the value of calculated r was found -.386. However, the negative tendency of correlation is still clearly manifested.

respectively as regions are ranked by rurality and corresponding data regarding health and educational facilities and services are presented. Al-Baha and Asseer regions, regarded by health authorities as one region,i.e., the Southern Region, ranked first and second by rurality and their share of health facilitities and services was greatly undermined as their average rank was 11.5 with respect to health service number 1, 8.5 by health service number 2, 10.5 by health service number 3, 11.5 by health service number 4, and 12.5, that is last, by health service number 5.

On the other hand, the inspection of the findings regarding the three least rural or most urban regions, Riyadh, Mecca. and the Eastern Region, provides another support for the hypothesis of this study. This time their share of health services and facilities is overweighted as they ranked first, second, and eighth by health service number one, third, first, and sixth by health service two, first, second, and third by health service number three, first, second, and fourth by health service number four, and second, first, and third respec-

Table 2. Number of inhabitants served by one unit of selected health services in different regions in Saudi Arabia.

Region	Inhabitants per physician		Inhabitants per hospital bed		Inhabitants per druggist or chem.		Inhabitants per health employee+		Inhabitants per pharm. or drug st.	
	Number	Rank	Number	Rank	Number	Rank	Number	Rank	Number	Rank
Al-Baha++	10084	11	1931	8	289088	10	1807	11	96362	12
Asseer	10084	11	1931	8	289088	10	1807	11	96362	12
Ha-il	12377	13	2599	10	———	—	2523	13	43321	7
Al-Jouf	5699	5	2642	11	96887	4	1226	6	48443	8
Jizan	8958	10	1807	7	403106	12	1632	10	80621	11
Najran	77398	9	1254	5	147970	8	1298	9	36992	6
Al-Kasseem	14589	3	899	2	158320	9	971	3	35182	5
Al-Medina	5353	4	.1076	4	129823	7	1129	5	28850	4
Tabouk	5699	5	2642	11	96887	4	1226	6	48443	8
Al-Qurayat	5699	5	2642	11	96887	4	1226	6	48443	8
Riyadh	3775	1	941	3	20857	1	647	1	9424	2
Mecca	4206	2	342	1	54816	2	881	2	8598	1
The Eastern Region	6157	8	1372	6	98206	3	1122	4	12813	3

+Other than physicians ·

++Regarding health data Al-Baha and Asseer regions are considered one region,i.e.,the Southern Region. Similarly, Tabouk, Al-jouf, and Al-Qurayat regions form one region, i.e., the Northern Region.

Table 1. Distribution of Saudi population according to engagement in agricultural and no agricultural occupations in different regions.[+]

Region	Nonagricultural pop.		Bedouins		Farmers		Agricultural pop. (Bedouins + Farmers)		Total pop. (Nonagr. + agr.)	
	Number	%[++]	Number	%	Number	%	Number	%	Number	%
Al-Baha	18345	9.87	28908	15.55	138652	74.58	167560	90.13	185905	100.00
Asseer	165326	24.27	246477	36.17	269558	39.56	516035	75.73	681361	100.00
Ha-il	70476	27.11	142719	54.91	46734	17.98	189453	72.89	259929	100.00
Al-Jouf	17595	26.87	31401	47.94	16501	25.19	47902	73.13	65497	100.00
Jizan	162775	40.38	15945	3.96	224386	55.66	240331	59.62	403106	100.00
Najran	61568	41.60	56415	38.13	29987	20.27	86402	58.40	147970	100.00
Al-Kasseem	148577	46.92	101193	31.96	66870	21.12	168063	53.08	316640	100.00
Al-Medina	254193	48.95	237099	45.66	28002	5.39	265101	51.05	519294	100.00
Tabouk	98426	50.80	88375	45.61	6962	3.59	95337	49.20	193763	100.00
Al-Qurayat	16577	52.78	12972	41.31	1855	5.91	14827	47.22	31404	100.00
Riyadh	853446	67.08	306470	24.09	112359	8.83	418829	32.92	1272275	100.00
Mecca	1283380	73.16	240474	13.71	230254	13.13	470728	26.84	1754108	100.00
Eastern Region	596942	77.56	79460	10.32	93264	12.12	172724	22.44	769648	100.00

[+] Regions are descendingly ranked by degree of rurality

[++] All percentages are calculated in relationship to the total population of each region.

of prpulation engaged in agriculture reached 90.13 percent. The least rural region, i.e., most urban, was the Eastern Region as the proporation of people engaged in agriculture did not exceed 23 percent of its total population. Table 1 illustrates the distribution of Saudi population according to agricultural and nonagricultural engagements in different regions.

With regard to rurality, or the proportion of people engaged in agriculture as mentioned before, Al-Baha region ranked number one, Asseer second, Ha-il third, Al-Jouf fourth, Jizan fifth. Najran sixth, Al-Kasseem seventh, Al-Medina eighth, Tabouk nineth, Al-Qurayat tenth, Riyadh eleventh, Mecca twelveth, and the Eastern Region ranked thirteenth.

According to the hypothesis of this study, the Eastern Region found least rural is expected to enjoy the highest provisions of health and educational services and facilities. Tables 2 and 3 present regions' health and educational data as regions' health and educational data

2. Number of hospital beds to population ratio.
3. Number of chemists and druggists to population ratio.
4. Number of employees in the health sector to population ratio.
5. Number of pharmacies and drug stores to population ratio.

Each of these ratios was expressed in the form "1: given population number." For example, the number of physicians to population ratio for Riyadh region was found 1: 3775 which means that every 3775 inhabitants of the region are being served by one physician.

Also, the following three indices were selected for evaluating educational services:

1. Number of classrooms to population ratio.
2. Number of classrooms to student ratio.
3. Students' percentage of the region's population.

Testing the Hypothesis... Spearman's rank order correlation coefficient was calculated for testing the relationship between ranks of regions was calculated for testing the relationship between ranks of regions according to their degrees of rurality on one hand and each of the regions' ranks according to each of the five indices of health services on the other and also between the former variable and each of the three indices of educational facilities and services. All coefficients are expected to be negative and exceeding a. 05 level of significance.

RESULTS AND DISCUSSION

The findings of this study indicate that the region found most rural was Al-Baha region as the propotion

hypothesis of this study might be restated as follows: Among the thirteen geographical regions of Saudi Arabia the higher the relative rank of rurality of a given region the lower its rank with regard to adequacy of community facilities and services.

Measurement of Regions' Degrees of Ruraliy... The nature of rurality has been studied theoretically and empirically by increasing number of social scientists as the phenomenon itself is subject to continuous and structural change. Meanings of rurality range from being an occupational construct, ecological construct, to its being a sociocultural construct[3]. Others still consider it a structure of all these meanings combined with variant degrees of salience of such components depending on the socio-geographical nature of the unit of study[4]. The validity of the occupational construct was found most conspicuous if rurality was measured on a unidimensional scale.

This study makes use of this latter finding and accordingly considers the proportion of the region's population engaged in agriculture as the operational index of degrees of rurality. This index was calculated for each of the thirteen regions of Saudi Arabia as it ranged from a minimum of 22% for the Eastern Region to a maximum of 90% for Al-Baha region.

Measurement of Regions' Degrees of Development of Community Facilities and Services... Health and educational services were selected from the multitude of community facilities and services because of their assumed centrality and the availability of pertinent data. With regard to health services five indices were calculated for each of the thirteen regions:

1. Number of physicians to population ratio.

appropriations as the jargon is usually expressed in the developing world. In other words, in a rich country like Saudi Arabia with its economy of abundance if the development of the rural sector will still be found comparatively undermined, factors other than lack of funds will have to be responsible for such state of imbalance between rural and urban development.

Thus, the immediate purpose of this is to discover whether or not a significant relationship exists between the degree of rurality, or urbanity, on the rural-urban continuum on one hand and the degree of adequacy of community facilities and services on the other.

METHODOLOGY

Until very recently reliable statistics on Saudi Arabia has been most difficult to attain because of ecological and social barriers. Statistics regarding the Kingdom's population has been a subject of dispute for some years. An official estimate for january lst, 1956, put the figure at 6,036,400. A census was held in 1962 - 63 but results were officially repudiated. Later at mid-1965 the UN Population Division issued a population estimate of 6,750,000 and projected figures of 7,740,000 for mid-1970 and 8,966,000 for mid-1975. A census had been completed by mid-1974, a necessary preliminary to the ambitious second five year development plan (1975-1980). First reports put the census total for Saudis at 4.3 million but later the figure 7,012,643 was announced, though many observers still believe the lower figure to be more realistic[2].

The data analyzed by this study was taken from the official reports of the last 1974 census published by the Saudi Ministry of Finance and National Economy. The

development over the poor rural sector and its chronic problems. This bias is not only practiced in the realm of rural-urban alternatives but also within the rural sector itself, i.e., between larger and smaller rural communities. Earl. O. Heady (1978:540) has rightfully titled this latter bias "rural colonialism" as he states:

.... the setting of rural communities is not unlike the categories of underdeveloped countries over the world. Some have endowments which draw foreign firms to them in order that their resources might be exploited in terms of the goals of the foreign entity. In this sense, do we have also a kind of colonialism for rural communities?.

He also specifies the imbalanced government spending favoring urban development over rural development as follows:

In the last three decades, our public investments and the configuration of ongoing national growth have generally been in the favor of larger urban or megalopolis centers. The public attack on slums has been focused on the central cities, although the relative concentration of slum conditions is greatest in rural areas. (p. 541).

PURPOSE OF THE STUDY

Inspite of the fact that the Kingdom of Saudi Arabia has been endowed by tremendous amounts of petrolium revenues and the availability of abundant resources necessary for national development it is still the hypothesis of this study that rural development, compared to urban developmet, is undermined just as manifested by the poor developing countries. In case of findings' support of this hypothesis, undermining rural development will have to be regarded in a context other than lack of funds or necessary

THE NEED FOR BALANCED DEVELOPMENT OF RURAL AND URBAN SECTORS IN SAUDI ARABIA

INTRODUCTION

Social scientists, today, report that world societies are witnessing massive and far-reaching processes of change. The twentieth century's rythm of change is beating with an unprecedented scope and implications extending particularly to the rural sector of societies.[1] Change that has brought up the developed world to their contemporary status has taken place gradually and across a relatively longer period of time excluding few exceptions like Japan and USSR. The communication and transportation revolution has conveyed the achievements and material products of the western civilization to the peoples of the developing world. This demonstration effect along with the rise of nationalist movements in these countries were among the driving forces responsible for initiating and accelerating change processes designed for national development and raising level of living standards of the masses. Speedy plans, for attaining quick results, lack of expertise and inefficient administrative organs in the developing world were among the many factors responsible for the state of imbalance characterizing their development policy and the consequent ineffectiveness of their plans.

Compared to urban development, rural development was undermined and mostly underestimated by planners and policy makers in these countries. The existence of government bodies in urban centers, the complicated and densely structured network of interrelationships and the like all made for visibility of urban problems and created a bias on the part of such plannérs favoring priorities of urban

THE NEED FOR BALANCED DEVELOPMENT OF RURAL AND URBAN SECTORS IN SAUDI ARABIA

Dr. Mohamed N. Gamie

ABSTRACT

Rural development is thought to be undermined if compared to urban development in the third world. It is hypothesized that the higher the degree of rurality of a given region in the Kingdom of Saudi Arabia the lower the degree of adequacy of its community facilities and services. Rurality was expressed as an index of the proportion of people engaged in agriculture. Health and educational services and facilities were selected to represent community facilities and services because of their believed centrality and pervasiveness in the community. Their indices were expressed in terms of a ratio composed of a number of inhabitants per a unit of a given service or facility. Regions were ranked by rurality and by adequacy of eight community facilities and services and the relationship between rurality and each of these community facilities and services was tested. Except for some of the educational facilities, the findings were conclusive and in support of the proposed hypothesis. Thus concern for rural development must be pursued for the achievement of balanced and integrated national development.

ADDARAH

Notice :

— All Correspondence should be directed to the Editor in- Chief
P. O. Box 2945 — Riyadh

— Articles are arranged technically, regardless of the writers' **prestige.**

— This English section contains summaries of some of the essays written in Arabic.

Saudi Arabia : Price of copy 2 Riyals Annual subscription 15 Riyals
Arab Countries : Price of copy equivalent of 50 SP Annual subscription 15 SR
Kuwait : Price of copy 250 Fils
Bahrain : Price of copy 500 Fils
Arab Emirates : Price of copy 4 Dirhems
Qatar : Price of copy 4 Riyals
West Germany : Price of copy 2 Deutsch Marks
Morocco : Price of copy 4 Dirhems
Tunisia : Price of copy 350 Mills.
Egypt : Price of copy 25 Piastres
Other Countries : Price of copy one US $ Annual subscription 6 US $

مطابع واعلانات الشريف

ADDARAH

QUARTERLY JOURNAL

by

King Abdul Aziz Research Centre

Concerned with

the Intelletual and Historical Heritage
of the Kingdom and the Islamic World.

★★★★★★★★★

RAJAB 1402 SEVENTH YEAR

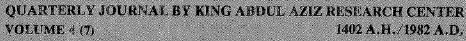
APR. 1982 No. 4

P. O. B. 2945 RIYADH

Tel. : 4417916 KINGDOM OF SAUDI ARABIA






QUARTERLY JOURNAL BY KING ABDUL AZIZ RESEARCH CENTER

VOLUME 4 (7) 1402 A.H./1982 A.D.

